جامعة الملك عبد العزيز
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
قسم الدراسات العليا الشرعية
فرع العقيدة

العلمانية

وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة

رسالة مقدمة لنيل درجة التخصص الأولى (الماجستير)

من الطالب:
سفر بن عبد الرحمن بن أحمد

بإشراف الأستاذ:
محمد قطب

١٣٩٨ - ١٣٩٩هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

« وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَـٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ
إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ »

النحل ، ٥١ ، ٥٢

« قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ
رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ
وَأَنَا أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ »

الأنعام ، ١٦٢ ، ١٦٣

« أَفَحُكْمَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ
حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ »

المائدة ، ٥٠

المقدمــــة

ان الحمد لله نحمده ونستعين به ونستغفره ونعوذ بالله من شرور انفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له وأشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله .

أما بعد : فقد أعظم الله تعالى المنة على هذه الأمة بأن بعث فيها — أفضل رسول وأنزل اليها أكمل دين وأقوم شريعة فكانت الأمة التي استحقت أن تسمى " المسلمين " لتحقق معاني الاسلام فيها : اسلام القلب والجوارح اسلام الفرد والمجتمع اسلام الحياة كلها لله تعالى وحده لا شريك له .

وهو الاسلام الذى تضمنته تلك الكلمة العظيمة التي تعدل الكون كله بل ترجح به " لا اله الا الله " . وظلت الامة الاسلامية قرونا تقود الجماعة البشرية وتسيطر على العالم المتحضر الا قليلا وتتبوأ مركز الأمة الوسط بين العالمين كل ذلك بفضل ادراكها لتلك الكلمة العظيمة والعمل بمقتضاها وتحقيق مدلولها في واقع الحياة . ثم اخذ شأن الامة الاسلامية في الانحطاط وحضارتها في الذبول وفقدت شيئا فشيئا مركزها المرموق ومنزلتها السامية . ولم يكن لذلك من سبب الا ان نور " لا اله الا الله " قد خفت بمقتضياتها قد أهملت ومدلولاتها قد انحسرت .

ولما كانت كلمة " لا اله الا الله " هي روح هذه الامة وسر وجودها ومنبع حياتها فانها ظلت تفقد من ذاتيتها وأصالتها بمقدار ما تفقد من نور هذه الكلمة العظيمة حتى آل الأمر في العصور الاخيرة الى الفقدان الكامل أو شبه الكامل .

وعندما تصاب أمة من الامم بهذا المرض المدمر " فقدان الذات " فان ابرز اعراضه يتمثل في الانبهار القاتل بالامم الأخرى والاستمداد غير الواعي من مناهجها ونظمها وقيمها .

وقد وقع ذلك في حياة الامة الاسلامية تأويلا لقوله صلى الله عليه وسلم " لتركبن سنن من كان قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو ان احدهم دخل حجر ضب لدخلتم ، وحتى لو أن أحدهم جامع امرأته بالطريق لفعلتموه " رواه مالك وأصله عند مسلم .

ولم يكن اخطر من هذا المرض الا الجهل بحقيقته وعدم ادراك أسبابه فكان التشخيص الخاطئ سببا في العلاج الخاطئ الذى جاء بمضاعفات جديدة .

لقد خيل للأمة أن هذا الداء العضال يمكن مداواته باستعارات ساذجة ومظاهر جوفاء وترقيعات ضيقة تتلقاها جميعها من الكفار الذين اصبحت تخجل من أن تسميهم بهذا الاسم بل اسمتهم " العالم المتحضر " والامم الراقية " !!

وكان استعدادنا الذاتي وقابليتنا للذوبان هما المبرر الاكبر للحرب النفسية الشرسة التي نسميها " الغزو الفكرى " تلك التي استهدفت مقومات وجودنا واسس أصالتنا •

وجاءت طلائع الغزو الفكرى — كما هو الحال في سبل الشيطان — متعددة الشعارات متباينة الاتجاهات عليها من البهرجة والبريق ما يكفي لتضليل واغراء أمة منبهرة مهزوزة •

جاءت الاشتراكية والقومية والوطنية والديمقراطية والحرية وفلسفة التطور واللادينية •••• وغيرها من المسميات والشعارات • وسرت عدوى هذه الأوبئة سريان النار في الهشيم وتغلغلت في العقول والقلوب التي فقدت رصيدها من " لا اله الا الله " أو كادت، وتربت على ذلك أجيال ممسوخة هزيلة أخذت على عاتقها مهمة تعبيد أمتها للغرب والاجهاز على منابع الحياة الكامنة فيها •

ومرت في مطلع هذا القرن حقبة مظلمة راجت فيها سوق الأفكار الموبوءة والمذاهب المنحرفة ، حتى اظهر اعداء الاسلام تفاؤلهم بأن هذه الأمة ستلفظ أنفاسها عما قليل •

ولكن الله تعالى رد كيدهم في نحورهم وأنبت من وسط الركام والظلام رجالا صدقوا ما عاهدوا الله عليه فانفجرت في كل بلد اسلامي حركة جهادية وانبثق من تلك الحركات فكرأصيل يستمد من الكتاب والسنة مباشرة مهتديا بالومضات التجديدية التي لم يخل منها عصر من عصور الاسلام • وتكمن قوة هذا الفكر بل حياته في سر واحد فقط هو ادراكه أن سبب انحطاط هذه الأمة هو انحرافها عن حقيقة " لا اله الا الله " وأن الطريق الى بعثها يبتدىء من تصحيح مفهوم هذه الكلمة وما تفرع منها وازالة ما علق في ذهن الأمة حولها من غبش واضطراب •

وكان مقتضى هذا الادراك — من الوجهة المنهجية العلمية — أن ما يسمى " علم الكلام " الذى شغل علماء العقائد الماضون به أنفسهم أصبح مسألة تاريخية ، وان العودة الى صفاء العقيدة الاسلامية ووضوح تصوراتها ومفهوماتها تستدعي منهجية أصيلة تقية كل النقاء من التأثيرات الاغريقية القديمة ومن ايحاءات وسموم الغزو الفكرى الحديث •

ولم يكن الايمان بهذه الحقيقة سهل المنال بل ان الرجال الذين اكتشفوها عانوا بأنفسهم مرارة التجربة وهم يحاولون دراسة الاسلام وفق منهجية غريبة عنه ، ورأوا أن من حق دينهم ومن حقنا نحن الاجيال التالية أن لا تتكرر المأساة وأن ينيروا الطريق باختطاط منهج علمي أصيل وتأسيس دراسات اسلامية تخصصية تدرس العقيدة الاسلامية بل تدرس الأفكار والمذاهب غير الاسلامية على ضوء ذلك المنهج الأصيل .

وكان من هؤلاء الرجال الشيخ الفاضل محمد امين المصرى رحمه الله (الرئيس السابق لقسم الدراسات العليا بكلية الشريعة بمكة المكرمة) الذى بذل جهده — لادخال مادة " المذاهب الفكرية " ضمن برنامج الدراسات العليا لفرع العقيدة .

وكان من توفيق الله تعالى أن عهد بتدريس هذه المادة الى علم من أعلام الفكر الاسلامي المعاصر هو الاستاذ " محمد قطب " حفظه الله .

وكان من توفيقه سبحانه لكاتب هذا البحث ان يلتحق بفرع العقيدة وأن يختار رسالته لنيل درجة التخصص الأولى " الماجستير " في هذه المادة وعلى يد ذلك الاستاذ .

واذ كان عليّ ان أختار مذهبا فكريا ليكون موضوعا لرسالتي فقد هداني الله لاختيار مذهب " العلمانية " وآثرته على غيره لأسباب منها :—

١ — غموض المدلول الحقيقي لهذا الاصطلاح الخادع بالنسبة لكثير من المثقفين فضلا عن العامة ، فبالرغم من الكساد الذى بدأت المذاهب الأخرى كالشيوعية والاشتراكية تمنى به بعد اكتشاف الجماهير لحقيقتها ما تزال أسهم العلمانية مرتفعة سواء باسمها الصريح او تحت شعار الديمقراطية أو شعار " الدين لله والوطن للجميع " أو شعار " لا دين في السياسة ولا سياسة في الدين " .

٢ — التوافق بين ذات العلمانية بوصفها فكرة غربية واعية وبين موضوعها المتمثل في عزل الدين عن توجيه الحياة وهو مايعاني منه الواقع الاسلامي المعاصر ، فالعلمانية — موضوعيا — موجودة في كل نواحي الحياة الاسلامية المعاصرة وان لم يكن لها وجود ذاتي متكامل كما هو الحال في اوربا — هذا التوافق يجعل تقبلها — ذاتيا — أمرا سهلا ومن ثم يحتم على ذوى الاختصاص دراستها وكشف زيفها وايضاح تعارضها مع المفهوم الصحيح للاسلام ومقتضيات " لا اله الا الله " .

وقد عرفت منذ اللحظة الاولى أن مهمتي ليست يسيرة وأن عليّ أن أخوض في ميادين بعيدة عن مجال دراستي الشرعية البحتة جاعلا كل قراءاتي السابقة في الفكر الغربي بمثابة التمهيد فقط لما يجب عليّ أن أنهض به .

وفعلا خصصت نصف المدة المحددة للرسالة - تقريبا - في اطلاع دائب وقراءة متواصلة مسترشدا بالتوجيهات القيمة والآراء السديدة التي كان استاذى الفاضل يزودني بها باستمرار ، فاطلعت على امهات النظريات والاتجاهات في السياسة والاقتصاد والعلم والاجتماع والأدب والفن وكنت كلما ازددت ايغالا في الاطلاع ازدادت ثقتي وقوى عزمي على اكمال الطريق . ومع ان المراجع المذكورة آخر الرسالة لا تساوى الا جزءا مما قرأت فانني لا أشعر بشيء من الخسارة ، بل احمد الله تعالى الذى أراني الفكر الجاهلي الأوربي على حقيقته ، والحق أنني علمت علم اليقين أن هذا الفكر ليس باطلا فحسب بل هو ايضا تافه هزيل ، وتمنيت من اعماقي أن يهب الله كل شباب أمتي ما وهب لي من معرفة تفاهته وهزاله .

ثم ابتدأت الكتابة مقسما الموضوع خمسة ابواب :-

الباب الاول : موضوعه دين أوربا الذى انحرفت عنه الى اللادينية ، أثبت فيه تحريف الدين النصراني وانه لا يمثل دين الله الحق لا في العقيدة ولا في الشريعة وتعرضت بالنقد للتحريفات والبدع والخرافات النصرانية ، ورغم اتفاقي مع دعاة اللادينية في نقد النصرانية فقد كنت مخالفا لهم في منهجهم ، وفي بعض الاحيان أعرض وجهة نظرهم وأنقدها .

وسيلحظ القارئ في هذا الباب الافاضة وعدم التساهل وما ذاك الا نتيجة اقتناعي بأن السبب الاكبر في انحراف أوربا من صنع الكنيسة ، وأن الاسلام يحارب الخرافة كما يحارب الالحاد .

الباب الثاني : موضوعه اسباب العلمانية .

مع أن تحريف النصرانية في الحقيقة هو السبب الممهد للعلمانية فقد خصصت هذا الباب للاسباب المباشرة لها وهي :

١ - الطغيان الكنسي : دينيا وسياسيا وماليا مؤيدا بالشواهد التاريخية .

٢ - الصراع بين الكنيسة والعلم ، عرضت فيه الصراع النكد عرضا تاريخيا منذ نظرية كوبرنيق الى نظرية نيوتن مرورا بمدرسة النقد التاريخي ومذهب الربوبيين والملحدين الاوائل .

٣ — الثورة الفرنسية التي نجحت في اقامة أول دولة لا دينية في أوربا النصرانية، أوضحت أسبابها وآثارها واستغلال القوى الهدامة لها .

٤ — نظرية التطور التي كانت ايذانا بانتهاء وصاية الكنيسة الفكرية على أوربا وانسحابها من الميدان الى الأبد ، وقد تحدثت عن الآثار المدمرة للنظرية في الفكر والحياة وتطبيقها المريب في حقول المعرفة وميادين السلوك .

والحق ان هناك أسبابا قد لا تقل عن هذه غير أنني آثرت أن لا أعرضها بصفتها أسبابا مستقلة ، فالقوى الهدامة " اليهود " يمكن اعتبارها سببا مستقلا لكنني لم اعرضها بهذا الاعتبار ، لأن اليهود — كما سيتضح من ثنايا البحث — يستغلون الاحداث ولا يصنعونها ، فاكتفيت بعرض نماذج من استغلالاتهم في مواطنها ، مثل :

استغلال الثورة الفرنسية لتحطيم الرابطة الدينية والخروج من (الجيتو) واستغلال الدارونية لنشر الالحاد والاباحية واستغلال الثورة الصناعية للسيطرة على اقتصاد العالم ، واستغلال الديمقراطية لتوجيه السياسة الدولية ...

على انني قد عرضت نظريات اليهود مستقلة في مواطنها مثل " ريكاردو وماركس في الاقتصاد ، ودوركايم وفرويد في الاجتماع والاخلاق " وذلك لضمان وحدة الموضوعات وتماسكها . ومثل هذا يقال في حركة الاصلاح الديني التي هزت الكنيسة وحطمت الوحدة الشكلية للعالم المسيحي .

الباب الثالث : العلمانية في الحياة الاوربية .

وهو الباب الرئيسي في الموضوع وقد قسمته — حسب التقسيم التقليدي — ستة فصول :

الأول : في الحكم والسياسة ، تعرضت فيه للفكر السياسي اللاديني وأشهر نظرياته مثل " النظرية الخيالية ، نظرية العقد الاجتماعي ، نظرية الحق الالهي " ثم النظريات الحديثة التي تقوم على " الميكافيللية ، فلسفة التطور ، الديمقراطية " بتفسيريها الليبرالي والشيوعي .

وقد انتهجت اسلوب النقد بطريق العرض ، فقد كنت أعرض أي نظرية كما يراها اصحابها عرضا يوحي للقارئ بنقدها دون ان أتقول عليهم ، وهكذا في بقية الفصول .

وقد رأيت أن افضل أسلوب لرد هذه النظريات هو عرض آثارها الواقعية ونتائجها التطبيقية مستشهدا بشهود من أهلها وذلك لسببين :

١ - أن تطبيق أى نظرية هو المحك الحقيقي لنجاحها أو اخفاقها .
٢ - أن مناقشة تفصيلات النظريات اللادينية المختلفة فوق كونها تستهلك جهدا كبيرا لا تتفق مع حكم الاسلام فيها الذى يرفض تلك التصورات جملة وتفصيلا أساسيا ، كما سيتضح في الباب الخامس .

الثاني : في الاقتصاد ، تحدثت فيه عن النظام الاقطاعي ثم عن المذاهب اللادينية الاقتصادية " المذهب الطبيعي (الفيزيوقراطي) المذهب الكلاسيكي الرأسمالي ، المذهب الشيوعي " عارضا نظريات كل مذهب . ثم عقبت على ذلك بعرض الواقع المعاصر والنتائج الفظيعة التي نجمت عن فصل الاقتصاد عن الدين ، مؤيدا كل ذلك بالشواهد الواقعية سواء في الغرب الرأسمالي أو الشرق الشيوعي .

الثالث : علمانية العلم ، تحدثت فيه عن الأسس والملابسات التي قامت عليها لادينية العلم مثل موقف الكنيسة والارث الديني والوثني في النفسية الأوربية الذى يصور الاله عدوا للانسان يتعمد تجهيله كما في سفر التكوين وأساطير الاغريق ، ومظاهر لا دينية العلم مثل " استبعاد الغائية والاكتفاء بالعلل الصورية ، حذف اسم الله من اى بحث علمي والاستعاضة بتعبيرات ملتوية كما في مسألة أصل الحياة وتعميم التفسيرات الميكانيكية للكون والحياة ، ورفع شعار العلم للعلم في الغرب والعلم للمذهب في الدول الشيوعية وعقبت - كالمعتاد - بالحديث عن أثر الفصل بين العلم والدين في المجتمع المعاصر ونتائجه السيئة مثل انتشار الالحاد وظهور الفوضى العقائدية والقلق على الأجيال المثقفة واستحالة العلم نفسه الى خطر يهدد البشرية جمعاء .

الرابع : علمانية الاجتماع والاخلاق ، مهدت له بالحديث عن مجتمع وأخلاق القرون الوسطى في ظل الكنيسة ، ثم فصلت القول في النظريات والمدارس الاجتماعية اللادينية - مبتدئا بالحديث عن أصول وولادة علم الاجتماع - وهي " نظرية العقد الاجتماعي المدرسة الطبيعية ، المدرسة الوضعية العقلية (كونت دوركايم) النظرية الاجتماعية الشيوعية ، النظرية العضوية والنفعيون ، الدراسات النفسية الحديثة (السلوكية ، التحليل النفسي) ثم أردفت لذلك بالحديث عن الواقع الاجتماعي والاخلاقي المعاصر مكتفيا بنموذج واحد هو قضية المرأة وما نجم عنها من الشرور الاجتماعية المستطيرة وقدمت نماذج واقعية للهبوط الخلقي الشائن الذى تعاني منه المجتمعات اللادينية المعاصرة ، شرقا وغربا .

الخامس : في الأدب والفن ، تحدثت فيه عن الاتجاهات الأدبية الأوربية :

١ ـ عصر النهضة " الكلاسيكية الجديدة " وما هدفت اليه من بعث التراث الوثني الاغريقي وانماء النزعة الانسانية .

٢ ـ العصر الحديث " أ ـ الرومانسية : تصويرها للهروب ، مثاليتها تأليه الطبيعة .

ب ـ الواقعية : نشأتها ، اهدافها ، ميزاتها الفنية .

٣ ـ الأدب المعاصر " من الواقعية الى اللامعقول " المؤثرات الفكرية والاجتماعية فيه ، اتجاهاته الكبرى :

أ ـ الاباحية مع سرد نماذج لها .

ب ـ الضياع " اللاانتماء " مع امثلة أدبية له .

وفي مقابل الواقع المعاصر في كل مجال عرضت هنا نماذج موجزة لمدارس الضياع المعاصرة " الوجودية ، الرمزية ، السوريالية ، العدمية .. الخ " .

وكان من ابرز العقبات التي واجهتني في هذا الباب محاولة عرض النظريات المعقدة بأسلوب موجز سهل الادراك ، واحمد الله اذ أعانني على ذلك .

السادس : ماذا بقي للدين ، وهو تكملة عامة للباب مع التركيز على يوم الدين أو " ساعته (" وبيان الافلاس الذي منيت به الكنائس وكيف أصبحت مباءات للمفاسد العصرية .

الباب الرابع : العلمانية في الحياة الاسلامية .

لقد رأيت منذ وضع خطة الموضوع أنه لا ينبغي بحث العلمانية بصفتها مذهبا فكريا غربيا دون التعرض لآثارها في الحياة الاسلامية .

والحق ان العلمانية في العالم الاسلامي جديرة برسالة مستقلة لكنني ارجو ان اكون قد وفقت لعرض أسبابها ومظاهرها عرضا شافيا ـ مع مراعاة حجم الرسالة ومدتها ـ هذا مع ان الحديث عن العلمانية ونتائجها في اوربا هو في الحقيقة شامل لمظاهرها في كل مكان على سبيل الاجمال .

وقد قسمت هذا الباب فصلين كبيرين :

الأول : أسباب العلمانية في العالم الاسلامي وقد اوجزتها في سببين بارزين :

١ ـ انحراف المسلمين الذي يقابل تحريف النصرانية في اوربا ، وأوضحت فيه صور ذلك الانحراف لا سيما ما يتعلق منها بالتوحيد والعقيدة

وانحسار مفهومات الاسلام في مجال الشعارات التعبدية بتأثير الافكار الصوفية والركود الحضاري العام واختتمته بنماذج لتقبل المسلمين الذاتي للعلمانية .

٢ - **الثاني: التخطيط اليهودي الصليبي** : تحدثت فيه عن جذور العداوة التاريخية للمسلمين من قبل اليهود والنصارى وأبديتها والخطة الجديدة للغزو وافادتها من الواقع الاسلامي المنحرف . وقسمت المؤامرة اربعة اجنحة كبرى (قوى الاحتلال المباشر ، المستشرقون ، المبشرون الطوائف اليهودية ، والنصرانية والباطنية) وفصلت القول في جهود واعمال كل جناح في سبيل تحقيق الهدف المشترك : اخراج المسلمين من دينهم وصبغهم بالصبغة الغربية اللادينية .

الفصل الثاني: مظاهر العلمانية في الحياة الاسلامية .

وهو فصل كبير قسمته الى ثلاثة اقسام :

الاول : في الحكم والتشريع ، تحدثت فيه عن بداية الانحراف المتمثلة في تخلف المسلمين الحضاري وجمود الاستنباط الفقهي وتوهم دعاة اليقظة بأن سبب تأخر المسلمين هو عجزهم التنظيمي والاداري وما ادى ذلك اليه من "بلورة فكرة" الاصلاح " واستيراد التنظيمات ثم التشريعات الكافرة وكيف انتهى الامر بالحركة الاصلاحية الى العلمانية الكاملة في تركية والى اقصاء الشريعة في البلاد العربية ومصر خاصة بالتعاون بين الاستعمار ودعاة الاصلاح ، واثر ذلك في ظهور الافكار السياسية اللادينية والاحزاب المتعددة الانتماءات .

الثاني : في التربية والثقافة : تحدثت فيه عن المستوى التربوي والثقافي للعالم الاسلامي قبل احتكاكه بالحضارة الغربية اللادينية وكيف تمت الازدواجية الخطرة في التعليم . وحركة التغريب الاولى ، ثم عن الدعوات الهادفة الى لا دينية التربية والثقافة مثل " الدعوة الى اقتباس الحضارة الغربية خيرها وشرها ، واحتقار الماضي الاسلامي ديناً وتاريخاً ، وتطوير الازهر ، وتطبيق المناهج التعليمية الغربية ، واستيراد المذاهب اللادينية في الفكر والادب " .

الثالث : في الاجتماع والاخلاق ، ابتدأته بالحديث عن سوء تمثيل المجتمع الاسلامي لحقيقة الاسلام ، والتقبل الذاتي لتقليد الغرب ، ثم فصلت القول فيما أسمي " قضية تحرير المرأة " ابتداء من جمال الدين الافغاني ورفاعة الطهطاوى وانتهاء بقاسم امين وحركة النهضة النسائية (مع ايضاح دور العلماء والزعماء والأدباء الذين اسهموا في المؤامرة ، وسريان الفكرة الى بلاد الشام والمغرب فضلا عن تركية والنتائج الواقعية لها .

الباب الخامس : حكم العلمانية في الاسلام .

وقد رأيت ان يكون هو خاتمة ابواب الرسالة وقسمته فصلين :

الاول : فصل تمهيدى بعنوان هل للعلمانية في العالم الاسلامي مبرر ؟ اوضحت فيه الفروق الجوهرية بين الاسلام والنصرانية المحرفة عقيدة وشريعة وتاريخا وواقعا مما ينفي اى مبرر عقلي لاستيراد هذا المذهب المنحرف .

الثاني : حكم العلمانية في الاسلام .

بينت فيه حكم العلمانية على ضوء اصول العقيدة الاسلامية والمدلول الحقيقي لكلمة " لا اله الا الله " ومفهومي " الطاغوت والعبادة " وخرجت من ذلك بنتيجة هي ان العلمانية تتنافى مع الاسلام من جهتين :

١ ــ كونها حكما بغير ما انزل الله .

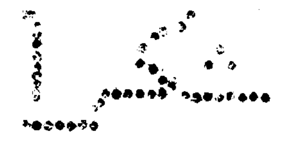
٢ ــ كونها شركا في عبادة الله ، وفصلت القول في ذلك موردا الادلة من الآيات والاحاديث ومستشهدا باقوال علماء السلف .

ومن خلال ذلك ناقشت شبهة التعلل بحرية اداء الشعائر التي تسمح بها بعض الانظمة العلمانية ، وشبهة قصور الشريعة عن مجاراة التطور الانساني والاحاطة بجوانب الحياة المعاصرة .

والحق أن تضخم حجم الرسالة مع انتهاء المدة المقررة لها قد حالا دون الافاضة والتفصيل في بعض الموضوعات ــ لا سيما ما يتعلق بالواقع الاسلامي المعاصر كما حالا دون وضع فهارس تفصيلية للأعلام والموضوعات تعين القارئ على الافادة من الرسالة بصورة أوفى ، أما التعريف بالأعلام فلعله يتضح من خلال عرض نظرياتهم وآرائهم بالاضافة الى الاشارة الى سنة الوفاة وقد أعرف العلم في الحاشية اذا اقتضى الأمر ذلك .

وكل ما أرجوه هو أن يتقبل الله مني هذا العمل خالصا لوجهه الكريم ، وأن ينفع بهذه المحاولة المتواضعة من يسلك هذا الطريق من بعده لنصل الى فكر اسلامي أصيل متكامل .

وانني اذ اشكر الله تعالى على توفيقه ومنه لأشكر من بعده فضيلة نائب رئيس الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة وسعادة عميد كلية الشريعة بمكة المكرمة ، وفضيلة المشرف على هذه الرسالة وكل من أسهم بجهده المشكور في شيء منها ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .



تعريف العلمانية

لفظ العلمانية ترجمة خاطئة لكلمة " Secularism " في الانجليزية او " Sécularite " بالفرنسية ، وهي كلمة لا صلة لهما بلفظ " العلم " ومشتقاته على الاطلاق .

فالعلم في الانجليزية والفرنسية معناه " Science " والمذهب العلمى نطلق عليه كلمة " Scientism " (٢) والنسبة الى العلم هي " Scientific " او " Scientifique " في الفرنسية .

ثم ان زيادة الألف والنون غير قياسية في اللغة العربية - أى في الاسم المنسوب - وانما جاءت في كلام المتاخرين كقولهم " روحاني ، وجسماني ونوراني .... "

والترجمة الصحيحة للكلمة هي " اللادينية " او " الدنيوية " لا بمعنى ما يقابل الاخروية فحسب ، بل بمعنى أخص هو ما لا صلة له بالدين ، او ما كانت علاقته بالدين علاقة تضاد .

وتتضح الترجمة الصحيحة من التعريف الذى تورده المعاجم ودوائر المعارف الاجنبية للكلمة :

تقول دائرة المعارف البريطانية مادة " Secularism " : " هي حركة اجتماعية تهدف الى صرف الناس وتوجيههم من الاهتمام بالاخرة الى الاهتمام بهذه الدنيا وحدها .

ذلك انه كان لدى الناس في العصور الوسطى رغبة شديدة في العزوف عن الدنيا والتأمل في الله واليوم الاخر ، وفي مقاومة هذه الرغبة طفقت الـ -

---

(١) الكنز ، معجم فرنسي عربي ، جروان السابق : ١٠٣٠
(٢) المصدر السابق : ١٠٢٤

" Secularism " تعرض نفسها من خلال تنمية النزعة الانسانية ، حيث بدأ الناس في عصر النهضة يظهرون تعلقهم الشديد بالانجازات الثقافيـــة البشرية وبامكانية تحقيق طموحا لهم في هذه الدنيا القريبة .

وظل الاتجاه الى ال" Secularism " يتطور باســـــتمرار خلال التاريخ الحديث كله باعتبارها حركة مضادة للدين ومضادة للمسيحية" (٣)

ويقول قاموس " العالم الجديد " لوبستر شرحا للمادة نفسها :

" ١ - الروح الدنيوية ، او الاتجاهات الدنيوية ،ونحو ذلك . وعلـــى الخصوص : نظام من المبادئ" والتطبيقات" Practices " يرفض اى شكل من اشكال الايمان والعبادة .

٢ - الاعتقاد بان الدين والشؤون الكنسية لا دخل لها فـــــي شؤون الدولة وخاصة التربية العامة " (٤)

ويقول معجم اكسفورد شرحا لكلمة " Secular " :

" ١ - دنيوى ، او مادى ، ليس دينيا ولا روحيا ; مثل التربيـــة اللادينية ، الفن او الموسيقى اللادينية ، السلطة اللادينيـة ، الحكومة المناقضة للكنيسة .

٢ - الرأى الذى يقول انه لا ينبغي ان يكون الدين اســـاســـا للاخلاق والتربية " (٥)

ويقول " المعجم الدولي الثالث الجديد " مادة :

" اتجاه في الحياة او في اى شأن خاص يقوم على مبدأ ان الدين او الاعتبارات الدينيـة يجب ان لا تتدخل في الحكومة ، او استبعاد هذه الاعتبـــارات استبعادا مقصودا ،فهي تعني مثلا " السياسة اللادينية البحتة في الحكومة" .

Ency. Britannica Vol.IX p.19 (٣)

Websters New World Dictio.128B (٤)

Oxford Advanced Learner's Dic. of current English: (٥)

" وهي نظام اجتماعي في الاخلاق مؤسس على فكرة وجوب قيام القيم السلوكية والخلقية على اعتبارات الحياة المعاصرة والتضامن الاجتماعي دون النظر الى الدين " (٦)

ويقول المستشرق " اربرى " في كتابه " الدين في الشرق الاوسط " عن الكلمة نفسها :

" ان المادية العلمية والانسانية والمذهب الطبيعي والوضعية كلها اشكال اللادينية ، واللادينية صفة مميزة لاوربا وامريكا ، ومع ان مظاهرها موجودة في الشرق الاوسط فانها لم تتخذ اى صيغة فلسفية اوادبية محددة ، والنموذج الرئيسي لها هو فصل الدين عن الدولة في الجمهورية التركية " (٧)

والتعبير الشائع في الكتب الاسلامية المعاصرة هو " فصل الدين عن الدولة " وهو في الحقيقة لا يعطي المدلول الكامل للعلمانية الذى يتطبق على الافراد وعلى السلوك الذى قد لا يكون له صلة بالدولة ، ولو قيل انها " فصل الدين عن الحياة " لكان اصوب ، ولذلك فان المدلول الصحيح للعلمانية هو " اقامة الحياة على غير الدين " سواء بالنسبة للأمة او للفرد ثم تختلف الدول والافراد في موقفها من الدين بمفهومه الضيق المحدود - فبعضها تسمح به كالمجتمعات الديمقراطية الليبرالية ، وتسمى منهجها " العلمانية المعتدلة : Non Religious " أى انها مجتمعات لا دينية ولكنها معادية للدين ، وذلك مقابل ما يسمى " العلمانية المتطرفة " Anti Religious " أى المضادة للدين ويعنون بها المجتمعات الشيوعية وما شاكلها .

---

(٦) Webster's Third New International Dic. : 2053

(٧) Religion in the Middle East A.J. ARBERY Vol.2 : 606 -607

وبدهي أنه بالنسبة للاسلام لا فرق بين المسميين فكل ما ليس دينيا من المبادئ والتطبيقات فهو في حقيقته مضاد للدين ، فالاسلام واللادينية نقيضان لا يجتمعان ولا واسطة بينهما . (٨)

---

(٨) انظر تفصيل حكم الاسلام في العلمانية في الباب الخامس من هذه الرسالة .

" الباب الاول "

دين اوربــا

أو

" المسيحية بين التحريف والابتــداع "

الفصــل الاول

التحريـــــــف

أ ـ تحريف العقيـــدة .

ب ـ تحريف الشريعـــة .

" مقدمة "

عرفت أوربا الوثنية الدين النصرانى منذ القرن الأول للميلاد بوصفه عقيدة شرقيه ساميه ، كتلك العقائد التى ينظر اليها العالم الرومانى الابيقورى على أنها تعاليم مثالية صارمة ، ولم يأل أباطرة الرومان جهدا فى القضاء على هذه النحلة التى تفشت فى مستعمراتهم ، واستخدموا لتحقيق ذلك صنوف الاضطهاد والتنكيل طيلة القرون الثلاثة الاولى ، ولكن أسبابا تاريخيه — لامجال لبحثها الآن — أدت الى اعتناق الامبراطور " قسطنطين " للدين الجديد ودعوته لعقد أول مجمع مسكونى مسيحى هو مجمع نيقية سنة ٣٢٥ الذى أعلنت المسيحيه على أثره عقيدة رسمية للامبراطوريه الرومانية .

وقد حظى الدين الجديد باقبال فائق وجاذبية شديدة من قبل شعوب الامبراطورية مما حدا المؤرخين (١) الى تعليل ذلك بأسباب شتى نختار منها ما ذهب اليه باحث أمريكى معاصر :

١ — العنصر التوفيقى : فانك قد تجد فى روايات الالغاز الاغريقية ، وفى قصة ايزيس وقصة مترا وفى اليهودية وفى العقائد الاخرى آنذاك ، نماذج لكل ما اعتقد فيه المسيحيون كطقوس الطهارة والاله الذى يموت ثم يبعث ، والعذراء التى تحمل (٢) ويوم الحساب وحفلات الربيع وحفلات الانقلاب الشتوى والشياطين والقديسين والملائكة .

٢ — أن المسيحيه بما وعدت من خلاص فى عالم آخر لتعويض مافى هذه الدنيا من فقر وظلم وآلام أثبتت أنها عقيدة شديدة الجاذبية للعامة فى الامبراطورية المتداعية اذ يرون فيها طريقا خلابا للهروب من عالم لايحبونه ، واذن فقولنا ان المسيحية ديانة الضعفاء والبسطاء والمظلومين قول صادق والاناجيل مصرحة بذلك .

---

(١) انظر مثلا معالم تاريخ الانسانيه ويلز جـ ٣ وحياة الحقائق لمون : ٦٨ ، بالاضافة الى أفكار ورجال " المثبت اعلاه " .

(٢) وورود حمل العذراء فى الاساطير لايدل على أنها خرافة محضة ، بل أن الخيال البشرى تخيل ذلك على أنه اعجوبة خارقة ثم حققها الله تعالى فى مريم عليها السلام لتكون معجزة آلهية .

٣ـ أن القواعد الدينيه للمسيحية بلغت درجة من التعقيد تكفى لان تجتذب رجالا من ذوى الميول الفلسفية ، واذن فان من عوامل النصر النهائى للمسيحية قواعدها .

٤ـ رد الفعل الذى نشأ عن الاضطهاد المستمر فى عصور المسيحية الأولى والاضطهاد عندما يبلغ درجة معينة يقوى الفئة المضطهدة ، ويدفع المضطهدين الى وحدة أشد تماسكا وأكثر نظاما . (١)

وعلى أى حال فقد دانت اوربا بالمسيحية منذ سنة ٣٢٥ ومازال العالم الغربى الى اليوم يعتقد أنه عالم مسيحى أو على الاقل كان ذلك يوما من الايام لكن السؤال المهم هنا هو : هل هذه الديانة المعتقه هى الوحى الالهى الذى أنزله الله تعالى على عبده المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام ؟

وبتعبير آخر : هل دانت أوربا بالدين الحق لله تعالى وعبدته حق عبادته وعرفته معرفة صحيحة فى أى مرحلة من مراحل تاريخها ؟

ان أى مؤرخ أو باحث يلقى نظرة سريعة فاحصة على الحقبة التى شهدت ميلاد الدين النصرانى سيرى أن منطقة حوض البحر الابيض كانت تموج بعقائد وأفكار متباينة نذكر منها :ـ

١ـ الديانة اليهودية : وهى ديانة مغلقة خاصة بأسباط بنى اسرائيل ، لكنها تتميز بأنها ديانة سماوية لها كتاب مقدس ، وموطنها فلسطين حيث ولد المسيح وأرسل .

٢ـ العقيدة المترائية : وهى عقيدة وثنية قديمة قوامها الكاهن والمذبح ، ترى أنه لاخلاص للانسان الا بافتداء نفسه عن طريق تقديم القرابين للآلهة بواسطة الكهان (٢) .

٣ـ الافلاطونية الحديثة : وهى عقيدة فلسفية تتلخص فى أن العالم فى تكوينه

---

(١) انظر افكار ورجال : جرين برنتن : ٢٠٢ ـ ٢٠٨ .
(٢) انظر معالم تاريخ الانسانية : ٧٠٦/٣ .

وتدبيره صدر عن ثلاثة عناصر : أ ـ المنشئ الازلى الاول ب ـ العقل الذى تولد منه كما يتولد الابن من أبيه جـ ـ الروح الذى يتكون منه جميع الارواح والذى يتصل بالمنشئ الاول عن طريق العقل • (١) وكان موطنها الاسكندرية •

٤ ـ الوثنية المصرية : ومن معتقداتها أن الالهه ثلاثة ١ ـ حورس الذى كان ابنا لسيرابيس ٢ ـ سيرابيس الذى هو فى الوقت نفسه حورس • ٣ ـ ايزيس والدة حورس (٢)

٥ ـ الوثنية الرومانية : ديانة الامبراطورية الرسمية ومن مبادئها :

١ ـ التثليث : (جوبيتر ، مارس ، كورنيوس) •

٢ ـ عبادة الامبراطور اذ كان الاباطرة يدعون الربوبيه و " كان تأليه الحاكم تقليدا هلنستيا " (٣)

٣ ـ تقديس الصور والتماثيل وعبادتها • (٤)

٦ ـ افكار فلسفية : من أهمها الفلسفة الرواقية التى تعنى من الوجهة العملية الانقطاع عن الدنيا وتعد انكار الذات اسمى الغايات النبيلة مناقضة بذلك الفلسفة الاباحية الابيقورية التى كانت فاشية فى المجتمع الرومانى (٥)

ولو أننا حاولنا أن نستنبط من مجموع هذه العقائد عقيدة واحدة مشتركة لخرجنا بعقيدة تقوم على ست دعائم :ـ

١ ـ الايمان بالتوراة اليهودية •

٢ ـ اعتقاد الفداء والخلاص والوساطة بين الله والناس •

٣ ـ التثليث •

٤ ـ الحلول (تجسد الاله فى شكل بشرى) •

٥ ـ تقديس الصور والتماثيل •

---

(١) انظر محاضرات فى النصرانية : ٣٨ ـ ٣٩•

(٢) انظر معالم تاريخ الانسانية : ٧٠٨/٣ وحرية الفكر : سلامة موسى ٣٨•

(٣) المصدر السابق: ٧١٧ وتاريخ العالم : هاملتون : ٥٨٨/٣ ، والهلنستية بايجاز " الاغريقية الحديثة " •

(٤) انظر قصة الحضارة : ديورانت ١٠/١ الفصل السابع•

(٥) تاريخ العالم ٥٨٩/٣ •

٤ـ الهروب من الحياة " الرهبانية "

ومن أول نظرة نلقيها على هذه الدعائم الست نرى أنها هى بعينها دعائم الدين النصرانى الكنسى ولب تعاليمه التى سيطرت على الفكر الاوروبى ردحا طويلا من الزمن ، وقد يدهش المرء لهذه النتيجة ـ رغم تسليمه بصحتها ـ ويتساءل ايمكن ان يتحول دين سماوى خالص الى مزيج مركب من خرافات ووثنيات متضاربة ؟ واذا أمكن ذلك فمن الذى قام بعملية التحول هذه ؟ واعجب منه كيف احتفظت المسيحيه باسمها ونسبتها وهى على هذه الحال ؟

ان الكثير من مؤرخى الفكر الغربى قد تخلصوا من الاجابة على مثل هذه التساؤلات بتقسيمهم الدين النصرانى قسمين متباينين لا رابط بينهما سوى النسبة للمسيح :

١ـ المسيحية الاصلية ، أو " مسيحية يسوع " .

٢ـ المسيحية الرسمية ، أو " مسيحية بولس " ويعنون بهذه العقيدة التى تبنتها الكنيسة ابتداء من سنة " ٣٢٥ " وهى المزيج المشار الى مركباته آنفا . يقول برنتن : " ان المسيحية الظافرة فى مجلس نيقية ـ العقيدة الرسمية ـ فى اعظم امبراطورية فى العالم مخالفة كل المخالفة لمسيحية المسيحيين فى الجليل ، ولو أن المرء اعتبر العهد الجديد التعبير النهائى عن العقيدة المسيحيه لخرج من ذلك قطعا لا بأن مسيحية القرن الرابع تختلف عن المسيحية الاولى فحسب ، بل بأن مسيحية القرن الرابع لم تكن مسيحية بتاتا " (١)

أما المؤرخ الانجليزى ويلز فيقول : " من الضرورى أن نستلفت نظر القارئ الى الفروق العميقة بين مسيحيه نيقيا التامة التطور وبين تعاليم يسوع الناصرى .. فمن الواضح تماما أن تعاليم يسوع الناصرى تعاليم نبوية من الطراز الجديد الذى ابتدأ بظهور الانبياء العبرانيين ، وهى لم تكن كهنوتيه ولم يكن لها معبد مقدس حبسا عليها ولا هيكل ، ولم يكن لديها شعائر ولا طقوس ، وكان قربانها " قلبا كسيرا خاشعا " وكانت الهيئة الوحيدة فيها هيئة من الوعاظ وكان رأس مالديها من عمل هو الموعظة ـ بيد أن مسيحية القرن الرابع الكاملة

---

(١) افكار ورجال : ٢٠٧ .

التكوين وان احتفظت بتعاليم يسوع فى الاناجيل ـ كنواة لها ـ كانت فى صلبها ديانة كهنوتيه من طراز مألوف للناس من قبل منذ آلاف السنين ، وكان المذبح مركز طقوسها المنمقة ، والعمل الجوهرى فى العبادة فيها هو القربان الذى يقربه قديس متكرس للقداس ، ولها هيئة تتطور بسرعة مكونة من الشماسة والقساوسة والاساقفة ، ولئن اتشحت المسيحية بأردية خارجية تشابه نحل سيرابيس أو آمون أو بعل مردك مشابهة غير عادية فلا بلد لنا أن نذكر أنه حتى كهانتها نفسها كانت لها مظاهر جديدة بأعيانها " .

" ولقد بلغ من جرأة الكتاب المتشككين أن انكروا امكان أن يسمى يسوع مسيحيا على الاطلاق " (١)

واذا كان هذا هو رأى العلماء الباحثين فان من المفيد أن نعرف رأى رجال الكنيسة فى هذا الامر وحسبنا أن نقرأ ماكتبه الدكتور " وليام تامبل " أسقف كنيسة كنتربرى وحبر أحبار انجلترا حيث يقول :

" ان من الخطأ الفاحش أن نظن أن الله وحده هو الذى يقدم الديانة او القسط الاكبر منها " (٢)

وليس هذا الكلام فلتة من الحبر الكبير ، أو سهوا غير مقصود ، وانما هو تعبير صريح صادق عن عقيدة الكنيسة وواقع تاريخها .

وعلى ضوء هذه الآراء نستطيع أن نعرف ما اذا كانت اوربا قد اعتنقت النصرانية الحقة الموحاة من الله ، أو اعتنقت المركب الذى صنعه أجداد الدكتور تامبل من آباء الكنيسة الاولين ، واستخرجوه من العقائد السائدة فى عصرهم آنذاك .

ان من الحقائق المقررة أن الكنيسة قد ارتكبت سلسلة من الاخطاء الشنيعة ، يكفى أحدها لنزع الثقة منها بصفة نهائية ، وأن أحدا من

---

(١) معالم تاريخ الانسانية : ٧٢٠ ، ٦٩٣ . وبعض الكتاب انكر وجود المسيح كلية انظر محاضرات فى النصرانية : ٤٢ ولكن هذا مما لا يلتفت اليه .

(٢) الجفوة المفتعلة بين العلم والدين : ١١ .

أعداء المسيح عليه السلام لم يسيء اليه والى تعاليمه النبوية كما اساءت الكنيسة التى تتبجح بالانتساب اليه ، وتزعم انها الحارس الامين على مبادئه والممثل الشرعى له ، ولقد كان ليكونت دى نوى" صادقا عندما قال : "ان ما أضافه الانسان الى الديانة المسيحية ، والتفسيرات التى قدمها والتى ابتدأت منذ القرن الثالث بالاضافة الى عدم الاكتراث بالحقائق العلمية ، كل ذلك قدم للماديين والملحدين أقوى الدلائل المعاضدة فى كفاحهم ضد الدين"(١)

هذا وليس من اهدافنا فى هذا البحث التهجم على الكنيسة وفضح تصرفاتها ولا كذلك تبرير التمرد الذى أعلنته أوربا على خالقها فى اثناء ثورتها على طغيان الكنيسة ، لكن هدفنا هو الحقيقة التى هى ضالة المؤمن ، لا سيما وأن القضية قضية انسانية عامة ، تعدت نطاق أوربا الى العالم كله ، وصلينا ـ نحن المسلمين خاصة ـ نيران آثارها السيئة منذ الحروب الصليبية ، بل منذ ظهور الاسلام الى اليوم .

وعلى هذا الاساس سنستعرض موضوع تحريف المسيحية عقيدة وشريعة معتمدين اساسا على الباحثين النصارى انفسهم وعلى المصادر الكنسية .

---

(١) المصدر السابق : ١٥ ـ ١٦ .

أولا : تحريف العقيـــدة

أ ــ قضية الا لوهيــة

ان قضية الالوهية لتأتى فى طليعة المعضلات الفلسفية العويصة الـــتى شغلت اذهان الفلا سفة والمفكرين قرونا طويلة ، لا سيما مايتعلق بتصور الالــه وصفاته ، حيث تفاوتت التصورات المنحرفه ، فأوغل بعضها فى التجريد حــتى وصل الى درجة المعميات والالفاز المبهمة ، وسفل بعضها فى التجسيـــم حتى هبط الى مستوى الجمادات والمخلوقات التافهة ، وقد كانت البشريــة فى غنى عن هذا التخبط والضلال لولا انها ضيقت على نفسها وحاولت بلوغ الحقيقة من غير طريقها ، ولم تكن بحاجة الى الخوض فى هذه القضية بتاتا لو أنها استلهمت الفطرة الكامنة فى اعماقها واستقت معرفتها بالله من طريق الوحى الالهى نفسـه ، واستبدلت بتخرصات الفلاسفة وتحريفات الكهان تعاليم الانبياء عليهم الصلاة والسلام

ولو جاز أن نلتمس عذرا لاحد من التائهين فى هذه القضية ، لالتمسناه للامم التى انقطع عنها الوحى فترات طويلة ، أو للذين لم تقع أعينهم على شــىء من آثار الانبياء اما اذا كان المتخبطون ممن يستطيعون أن ينعموا بنور الحقيقـــة لكنهم آثروا عليه الادلاج فى الظلمات فما عذرهم حينئذ ؟

لكم تكون الخسارة فادحة لو أن عالما من جهابذة الطب كتب أروع بحــث علمى فى فنه وأوصى خادمه بحفظه ، لكن الخادم عبث به فقدم وأخر وشطب وأضاف حتى حوله الى خزعبلات سخيفه فكيف اذا كان موضوع العبث هو الوحى الالهــى الذى لاتستقيم بغيره حياة ولاتصلح بسواه دنيا ولا آخرة ؟

ان المسيح عليه السلام قد بعث فى بيئة تعج بركام هائل من الخرافــات والوثنيات ــ ذكرنا بعضها قريبا ــ وجاء كأى نبى مرسل لينتقذ قومه من هـــذا الركام ويهديهم الى التوحيد الذى دعا اليه سلفه من الانبياء ، ولا شك أنه قــام بمهمته خير قيام ، وكان عليهم شهيدا مادام فيهم فلما توفاه الله حدث من اتباعـه مالم يكن فى الحسبان من تحريف ونكوص .

وعملية التحريف التى استغرقت زهاء عشرة قرون ـ بل نستطيع أن نقول انها لم تتوقف حتى الآن ـ بدأت مبكرة حين كان الحواريون لايزالون على قيد الحياة ، كما أنها ابتدأت بموضوع ليس بالهين وهو القول بأن للمسيح طبيعة آلهية ، مع أن سيدنا عيسى عليه السلام ـ كما تعترف دائرة المعارف البريطانية ـ لم تصدر عنه أى دعوى تفيد أنه من عنصر الهى أو من عنصر اعلى من العنصر الانسانى المشترك . (١)

وتتفق المصادر التاريخيه ـ فيما نعلم ـ على أن اليد الطولى فى التحريف كانت لمبشر من أتباع الحواريين ، تسمية المسيحية المحرفة " بولس الرسول " وهو الذى اثار موضوع ألوهية المسيح لأول مرة مدعيا أنه "ابن الله"(٢) تعالى عن ذلك ـ وكانت هذه الدعوى البذرة الاولى للتثليث .

بولس :

الاسم الاصلى لبولس هو " شاؤل " وهو كما يبدو من سيرته شخصية تآمرية ذات عبقرية عقائدية ، ويظهر أنه كان ينفذ تعاليم المحكمة اليهودية العليا " سانهدرين " حيث كان استاذه عما نوئيل احد اعضائها . (٣)

وقد اشتهر أول حياته باضطهاد المسيحيين . (٤) ثم تحول فجأة ليصبح الشخصية المسيحيه الاولى والقطب الكنسى الاعظم ، ومنذ ظهوره الى الآن لم يحظ أحد فى تاريخ الكنيسة بمثل ما حظى به من التقديس والاجلال ، الا أن "احرار المفكرين " الاوربيين لم يخفوا عدواتهم له حتى أن الكاتب الانجليزى "بنتام "

---

(١) عن الجفوة المفتعلة : ١٥

(٢) انظر رسالة بولس الى اهل رومه صح ١ : ٤ ـ ٥

(٣) انظر محاضرات فى النصرانيه : ٤ ٨ ، والسنهدرين محكمة يهودية خفية تخطط منذ القدم لمستقبل اليهود وتعمل للقضاء على عقائد واخلاق الاميين ونهب اموالهم ، ومقرها الحالى امريكا وجهازها التنظيمى الاعلى يسمى " كيهيلا " اما منهجها العملى فيسير وفق تعاليم التلمود .

(٤) انظر اعمال الرسل صح ٨ ، ٩ .

الف كتابا اسماه " يسوع لابولس" ومثله " غوستاف لوبون " فى " حياة الحقائق " اما المؤرخ ويلز ـ وهو من المتدلين ـ فقد عقد فصلا بعنوان " مبادىء اضيفت الى تعاليم يسوع " قال فيه :

" وظهر للوقت معلم آخر عظيم يعده كثير من الثقات العصريين المؤسس الحقيقى للمسيحيه وهو شاؤل الطرسوسى أو بولس ، والراجح أنه كان يهودى المولد وان كان بعض الكتاب اليهود ينكرون ذلك ، ولا مراء فى أنه تعلم على اساتذة من اليهود بيد أنه كان متجرا فى لاهوتيات الاسكندريه الهلينيه .. وهو متأثر بطرائق التعبير الفلسفى للمدارس الهيلنستية ، وبأساليب الرواقيين ، كان صاحب نظرية دينيه ومعلما يعلم الناس قبل أن يسمع بيسوع الناصرى بزمن طويل .. ومن الراجح جدا انه تأثر بالمثرائيه اذ هو يستعمل عبارات عجيبة الشبه بالعبارات المثرائيه ويتضح لكل من يقرأ رسائلة المتنوعة جنبا الى جنب مع الاناجيل أن ذهنه كان مشبعا بفكرة لاتبدو قط بارزه قوية فيما نقل عن يسوع من اقوال وتعليم الا وهى فكرة الشخص الضحية الذى يقدم قربانا لله كفارة عن الخطيئة . فما بشر به يسوع كان ميلادا جديدا للروح الانسانيه أما ماعلمه بولس فهو الديانه القديمة ، ديانه الكاهن والمذبح وسفك الدماء طلبا لاسترضاء الاله "

" .. ولم ير بولس يسوع قط ولابد أنه استقى معرفته بيسوع وتعاليمه سماعا من التلاميذ الاصليين ، ومن الجلى أنه ادرك الشىء الكثير من روح يسوع ومبدأه الخاص بالميلاد الجديد ، بيد أنه ادخل هذه الفكرة فى صرح نظام لاهوتى ، ذلك بأنه وجد الناصريين ولهم روح ورجاء وتركهم مسيحيين لديهم بداية عقيدة " (١٧)

ولندع الان كل التأثيرات والثقافات التى عرفها بولس باستثناء واحدة منهما هى " لاهوتيات الاسكندرية " التى كان متجرا فيها ، ومعلوم ان هذه اللاهوتيات هى المدرسة الفلسفية المسماة " الافلاطونية الحديثة " التى اشرنا سابقا الى عقيدتها التالوثية ، وعنها نقل بولس فكرة التثليث " يضاهئون قول الذين كفروا

---

(١٦) انظر رسالة اعمال الرسل صح ٨ ، ٩

(١٧) معالم تاريخ الانسانيه : ٣/ ٧٠٥ ـ ٧٠٦

من قبل " والتعديل الذى ادخله على الافلاطونية شكلى فقط : فالمنشىء الأزلى الاول فيها يقابله عنده الله " الآب " والعقل المتولد عن المنشىء الاول يقابله عنده يسوع " الابن " والروح الكلى يقابله " روح القدس " ثم أنه سار شوطا أبعد من ذلك فاستعار من المثرائية فكرة الخلاص، وجعل القربان الضحية هو الاقنوم الثانى " الابن " ثم ان الكنيسة اكملت المسيرة فأضافت الى فكرة الخلاص فكرة تقديس الخشبية التى صلب عليها المخلص وهكذا " تتابعت البدع واحدة فى اثر الاخرى، وكان نتيجة ذلك أن دفنت التعاليم الاصلية بطريقة تكاد تكون غير محسوسة، تحت تلك الاضافات المألوفة " (١٨)

بهذه الطريقة ـ بغض النظر عن الاهداف والدوافع الخفية ـ هدم بولس عقيدة التوحيد واوقع اتباع المسيح فيما كان قد حذرهم منه أبلغ تحذير. واكتسبت تعاليم بولس الصفه الشرعية المطلقة بقيام احد اتباعه بكتابة الانجيل الرابع المنسوب الى يوحنا الحوارى، والذى قال عنه جيبون انه :

" فسر نظرية الكون الافلاطونيه تفسيرا مسيحيا واظهر أن يسوع المسيح هو الكيان الذى تجسد فيه " الكلمة " أو العقل « Logos » الذى تحدث عنه افلاطون والذى كان مع الله منذ البدء " (١٩)

على أنه من الانصاف أن نذكر ان الثلاثة القرون الاولى التى تسميها الكنيسة " عصر الهرطقه " شهدت صراعا ممتدا مابين اتباع بولس وأثانسيوس وبين منكرة التثليث وعلى رأسهم " آريوس " ولم يكتب النصر النهائى للثالوثيين الا فى مجمع نيقية مع انهم كانوا اقلية فيه .

يقول برنتن :

" وقد امتدت هذه الهرطقات فشملت الجانب الاكبر من السلوك والعقائد ونستطيع ان نأخذ الجدل النهائى الذى ثار حول العلاقة بين يسوع والاله الواحد ـ الاله الاب ـ مثلا لعصر الهرطقة كله ، واخيرا قبلت المسيحيه

---

(١٨) المصدر السابق ٣/٧٠٩ .
(١٩) اضمحلال الامبراطورية الرومانية : ١/٦١١ .

الرسمية فى عام ٣٢٥ فى مجلس نيقية بالقرب من القسطنطينيه عقيدة التثليث او ماناد ى به اثانسيوس ، والثالوث "الله الاب ويسوع الابن والروح القدس" طبقا لهذه العقيدة اشخاص حقيقيون عددهم ثلاثة لكنهم واحد ايضا ، وبقيت المسيحية وحدانية تثليثها يسمو على الرياضيات " (٢٠)

وهنا ، عند هذه النقطة خاصة تصطدم آراء بولس وكنيسته بالفطرة والعقل اصطداما مباشرا ، فمهما حاول أى عقل بشرى أن يتصور ان الثلاثة واحد والواحد ثلاثة فانه لايستطيع اطلاقا مع أن الملايين من اتباع الكنيسة يقولون فى كل صلاة "باسم الاب والابن وروح القدس اله واحد"

لقد ظل العقل البشرى يلح على الكنيسة ان تعطيه اجابة مقنعة يتخلص بها من سؤال داخلى قاتل وهو : كيف أصدق أن ١ + ١ + ١ = ١ ؟ فكان رد الكنيسة المتكرر دائما هو أن ذلك "سر" لايستطيع العقل ادراكه"

هكذا كان رأى القديس أوغسطين (٤٣٠) وهو يواجه حمله آريوس على التثليث الكاثوليكى ... ، وقال ان كل ماجاء فى الاناجيل لاينبغى للعقل ان يجادل فيه " لان سلطانها " أقوى من كل سلطان أمر به العقل البشرى " (٢٠)

وكذلك القديس توما الاكوينى (+ ١٢٧٤) فهو " يقرر أن الحقائق التى يقدمها الايمان لايقوى العقل على التدليل عليها ففى استطاعة العقل أن يتصور ماهية الله Essence ولكنه لايستطيع أن يدرك تثليث الاقانيم ، ومن دلل على عقيدة التثليث فى الاقانيم حقر من شأن الايمان " (٢١)

وهكذا كان رأى الكنيسة وهى تواجه انتقادات " ابيلارد " فى القرن الثانى عشر الميلادى الذى أدان رأى أبيلارد وقرر احراق كتابه وأن يضعه بيده فى النار ، (٢٢) ولايزال هذا هو رأى الكنيسه والا فماذا فى امكانها

---

(٢٠) قصة النزاع بين الدين والفلسفة ، توفيق الطويل : ٨٣ وانظر سلسلة

(٢١) المصدر السابق : ٨٧ | تراث الانسانية / ٦٦٢٤٦٤٨.

(٢٢) المصدر السابق : ٨٩

أن تقول غير ذلك ؟ حتى الكنائس الشرقية تذهب الى هذا الرأى ، فالقس باسيلوس يقول : " ان هذا التعليم عن التثليث فوق ادراكنا ولكن عدم ادراكه لايبطله " وزميله توفيق جيد يقول :

" ان تسمية الثالوث باسم الاب والابن والروح القدس تعتبر اعماقا الهية وأسرارا سماوية لا يجوز لنا أن نتفلسف فى تفكيكها اوتحليلها أو أن نلصق بها افكارا من عندياتنا " (٢٣)

من هذه الاجابات يتضح ان الكنيسة لم تضع حلا للمشكلة الا المشكلة نفسها ، فالعقل يسأل الكنيسة عن سر التثليث فتجيب بأن هذا " سر " وياليت أنه كان السر الوحيد ، ولقائل أن يقول : ان الاديان كلها بما فيها الاسلام لاتخلو من مغيبات او حقائق لايستطيع العقل ادراكها . ولكن يدفع هذا القول أن هناك فرقا بين مايحكم العقل باستحالته كالتثليث وبين ما لا يستطيع العقل ادراكه ، والاسلام وان كان فيه الاخير فانه يخلو تماما من الاول ، فليس فيه مايحكم العقل باستحالته أبدا " (٢٤)

ان الكنيسة بتبنيها لعقيدة التثليث قد فتحت على نفسها ثغرة واسعة يستطيع اعداؤها ان ينفذوا من خلالها الى هدم الدين البولسي الكنسي بسهولة ، وكانت هذه العقيدة واضرابها المقومات الاساسية للفكر اللاديني الذى تستر بستار " النقد التاريخى للكتب المقدسة " ابتداء من القرن السابع عشر ، ولا بأس هنا أن نورد قول أحد اقطاب هذا الفكر وهو الفيلسوف الفرنسى " رينان " الذى حرمته الكنيسه وحظرت كتبه :ـ

" انه ينبغى لفهم تعليم يسوع المسيح الحقيقى كما كان يفهمه هو أن نبحث فى تلك التفاسير والشروح الكاذبه التى شوهت وجه التعليم المسيحى حتى أخفته عن الابصار تحت طبقة كثيفة من الظلام ، ويرجع بحثنا الى أيام بولس الذى لم يفهم تعليم المسيح بل حمله على محمل آخر ثم مزجه بكثير من تقاليد

---

(٢٣) الله واحد ام ثالوث : مجدى مرجان : ١١ .
(٢٤) مستفادة من محاضرة شفويه للشيخ الغزالى للسنة المنهجية ٩٦ـ١٣٩٧هـ ثم وجدت مثلها فى شرح الطحاوية : ٢٤٧ .

الفريسيين وتعاليم العهد القديم ، وبولس كما لايخفى كان رسولا للامم أو رسول الجدال والمنازعات الدينية ، وكان يميل الى المظاهر الخارجية الدينية كالختان وغيره ، فأدخل امياله هذه على الدين المسيحى فأفسده ، ومن عهد بولس ظهر التلمود المعروف بتعاليم الكنائس ، وأما تعليم المسيح الا صلى الحقيقى فخسر صفته الالهيه الكماليه ، بل اصبح احدى حلقات سلسلة الوحى التى اولها منذ ابتداء العالم وآخرها فى عصرنا الحالى والمستمسكة بها جميع الكنائس ، وان أولئك الشراح والمفسرين يدعون يسوع الهادون أن يقيموا على ذلك الحجة ، ويستندون فى دعواهم على اقوال وردت فى خمسة اسفار : موسى ، والزبور ، واعمال الرسل ورسائلهم وتآليف آباء الكنيسة مع أن تلك الاقوال لاتدل اقل دلالة على أن المسيح هو الله " (٢٥)

واذا كان التثليث يتصف بهذه الصورة العقيمة المستغلقة ، واذا كانت الكنيسة تعلم انها لم تستطع ولن تستطيع حل هذه المعضلة ـ بل أنها غير مقتنعة فى نفسها بما تقدم من حلول ـ فلم هذا الاصرار على تلك العقيدة ؟ أهو التقليد الاعمى أم شهوة التسلط على العقول والقلوب ؟ ان احد هذين او كليهما لا مرية فيه لكن الكنيسة تمارى زاعمة أنها تتبع روايات العهد الجديد وشروحها .

وهنا نجد مرة ثانية ـ أن الكنيسة تستدل على الدعوى بالدعوى نفسها فان منكرى التثليث انما ينكرونه لاعتقادهم ان الكنيسة هى التى اضافته الى نصوص الاناجيل او فهمته خطأ من ثناياها ، وحينئذ تحتاج الكنيسه الى اثبات صحة الاناجيل وصحة استدلالها منها ، وأنى لها ذلك .

أما احتجاج منكرى التثليث على الكنيسة بأنها اقحمت العبارات الدالة على التثليث فى صلب الاناجيل فان له مايسوغه ، وهذا أحد الامثله عليه :

فى الفصل الخامس من رسالة يوحنا الاولى نجد هذه العبارات " ان الذين

---

(٢٥) عن محاضرات فى النصرانية : ٢١٥ .

يشهدون فى السماء هم ثلاثة الاب والكلمة والروح القدس وهؤلاء الثلاثة هم واحد والذين يشهدون فى الارض هم ثلاثة الروح والماء والدم والثلاثة هم فى الواحد " فالمحققون من علماء النصارى امثال كريسباخ وشولز وآدم كلارك وحتى المتعصبين مثل هورن يرجحون أن اصل العبارة هكذا : "وان الشهود الذين يشهدون ثلاثة وهم الروح والماء والدم" ، غير أن معتقدى التثليث اضافوا اليها عبارة " هم فى السماء ثلاثة ... الخ " حتى اصبحت العبارة بهذه الاضافة دليلا من أدلة الكنيسة على التثليث ، ومما يؤيد قول هؤلاء أن المصلح الكنسى " مارتن لوثر " لم يترجم هذه العبارة الى الالمانية عندما ترجم العهد الجديد اليها . (٢٦)

وأما اعتقادهم أن الكنيسة فهمت التثليث خطأ من نصوص الكتب المقدسة واستنبطته من تأويل بعض عبارات الاناجيل القائله " أبى " " ابن الله " وأشباههما فليس بأقل قوة من سابقة ، وقد نبه الى ذلك جرين برنتن فقال :

" يستطيع المرء اذا اخذ بالتفسير الطبيعى لمصادر العهد الجديد أن يزعم أن يسوع لم يدع لنفسه الالوهية قط ، وأن مثل هذه العبارات (أى أبى وابن الله) انما رويت محرفة أو استعملت مجازا او كانت هذا وذاك " (٢٧)

ومن اليسير علينا تأييد هذا الرأى بما ورد فى الاناجيل والرسائل من اشراك سائر الناس مع المسيح فى اطلاق هذه العبارات عليهم وعدم اختصاصه بهذه الصفات جاء ذلك فى مواضع كثيره منها :—

١ — " كل من يؤمن أن يسوع هو المسيح فقد ولد من الله وكل من يحب الوالد يحب المولود منه أيضا ، بهذا نعرف أننا نحب أولاد الله " (٢٨)

٢— فى انجيل متى يقول المسيح " طوبى لصانعى السلام لانهم ابناء الله يدعون " (٢٩)

---

(٢٦) انظر اظهار الحق الشيخ رحمة الله : ٢٥٧ — ٢٦٠ .
(٢٧) افكار ورجال : ١٧٧ .
(٢٨) رسالة يوحنا الاولى صح ٥ : ١—٣ .

٣ــ ومنه أيضا يقول المسيح للتلاميذ " صلوا أنتم هكذا : أبانا الـــذى في السموات ليتقدس اسمك .." (٣٠)

٤ــ يقول في انجيل لوقا " ومن اعترف بي قدام الناس يعترف به ابـــن الانسان قدام ملائكة الله " (٣١)

٥ــ وفي متى عنه " ان ابن الانسان سوف يأتي في مجد ابيه مع ملائكته " (٢٩)

هكذا نجد في العهد الجديد نصوصا كثيرة تصف الناس جميعا ــ المسيح وغيره ــ بأنهم ابناء الله وهو معنى مجازى قطعا ، وتصف المسيح بانه " ابـــن الانسان " ويمكن درء التعارض بينهما بشأن المسيح برد نصوص المجاز الـــى الحقيقة لانها هي الاصل ، وبذلك لا يكون للمسيح عليه السلام أية ميـــزة عدا كونه رسولا الا أن القدرة الالهية خلقته من أم " بلا أب " .

ولكن الكنيسة تمارى في هذه الحقائق الساطعة مستدلة بالاناجيـــل لاسيما انجيل يوحنا مما يجعل الباحث ينقب عن حقيقة الاناجيل ذاتها ومدى حجيتها على هذه القضية وغيرها . (٣٢)

---

(٣١) صح ١٢ : ٩

(٣٢) بمناسبة الحديث عن التثليث نورد قصة طريفة ذكرها الشيخ رحمة اللـــه في اظهار الحق مفادها أن ثلاثة اشخاص تنصروا على يد قسيس ، فــزار صديق للقسيس القسيس وتلامذته وسأله : هل علمتهم العقائد الضرورية ؟ قال نعم ، واستدعى احدهم وسأله امام صديقه الزائر عن عقيدتـــه فقال : انك علمتني أن الآلهه ثلاثة احدهم الذى في السماء ، والثاني الذى تولد من بطن مريم العذراء ، والثالث الذى نزل في صورة الحمام على الاله الثاني بعد ما صار ابن ثلاثين سنة فغضب القسيس وطرده ثم استدعى الثاني منهم وسألة فأجاب : انك علمتني أن الالهة كانوا ثلاثة صلب واحد منهم فالباقي الهان ، فغضب كذلك وطرده ، ثم استدعـى الثالث ــ وكان اذكى الثلاثه ــ وسأله فقال : يامولاى حفظت ماعلمتني حفظا جيدا وفهمت بفضل الرب المسيح ان الواحد ثلاثة والثلاثـــة واحد والالهه ثلاثة صلب واحد منهم فمات الكل لانهم واحد ، ولا الـــه الآن ..

هذا ومعلوم ان موقف معظم المثقفين الغربيين هو موقف التلميذ الثالث بعينه .

ب ـ تحريف الاناجيل

ليس ثمة شك فى أن الله تبارك وتعالى انما أنزل على المسيح عليه السلام انجيلا واحدا مكملا للتوراة المنزلة على موسى عليه السلام ، وما من شك أيضا فى أن المسيح حين هتف ببنى اسرائيل " قد كمل الزمان واقترب ملكوت الله فتوبوا وآمنوا بالانجيل " (١) انما كان يعنى ذلك الانجيل المنزل لا شيئا آخر سواه .

والقرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذى تكفل الله بحفظه بنفسه " انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون " ١٥ / ٩ أما الكتب السابقة فقد وكل حفظها الى علماء دينها :

" انا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والاحبار بما استحفظوا من كتاب الله " ٦٥/٤٤ ، اذن فقد كان فى عهدة الكنيسة ان تحفظ هذا الانجيل بنصه السماوى وصبغته الالهيه فلا يمسه عبث عابث ولا تجترئ عليه يد محرف ، لكن الكنيسة كعادتها ـ فرطت فى واجبها ، بل انها هى التى فتحت للمغرضين باب التحريف والقول على الله بغير علم . ان محررى دائرة المعارف البريطانية وهم من ذوى الكفاءات العاليه فى معظم التخصصات ومنها اللاهوت ـ لم يتطرفوا او يبالغوا فى القول بأنه " لم يبق من اعمال السيد المسيح شئ ولا كلمة واحدة مكتوبه " (٢) بل انما عبروا بذلك عما ينبغى أن يقرره الباحث العلمى المدقق .

ونحن المسلمين نؤمن بأن فى خبايا الاناجيل شيئا من أقوال المسيح وتعاليمه التى يحتمل انها وحى من الله ، لكن ذلك لم يثبت لدينا بسند تاريخى موثوق الى المسيح ، وانما آمنا به لاننا لو عرضناه على الوحى الالهى

---

(١) مرقص : ١ : ١٦ .
(٢) عن الجفوة المفتعلة : ١٣ .

المحفوظ " القرآن " والسنة لوجدنا الصلة بينهما واضحة ، أما من لا يؤمن بالقرآن ولا يعترف الا بحقائق البحث المجرد فليس غريبا ان ينكر الاناجيل برمتها ويقول مثل قولة دائرة المعارف البريطانية هذه •

ولندع رأى المعاصرين ولنعد الى القرن الاول الميلادى حيث احتمال وجود الانجيل الحقيقى أقوى وارجح فماذا نجد ؟ يقول آدم كلارك احد شارحى الاناجيل :

" محقق أن الاناجيل الكثيرة الكاذبة كانت رائجة فى أول القرون المسيحيه وكثرة هذه الاحوال الكاذبة الغير صحيحة (كذا) هيجت لوقا على تحرير الانجيل ، ويوجد ذكر اكثر من سبعين من هذه الاناجيل الكاذبة ، والاجزاء الكثيرة من هذه الاناجيل باقية ، وكان " فابرى سيوس " جمع الاناجيل الكاذبة وطبعها فى ثلاث مجلدات " (٣)

هكذا قفز العدد من واحد الى سبعين والمسيحية لاتزال فى مهدها مما دفع لوقا الى كتابة انجيله ، فأى هذه الاناجيل ياترى الانجيل الحقيقى الموحى الى المسيح مادمنا مسلمين بأن الله لم ينزل اليه الا انجيلا واحدا ؟

ان لوقا نفسه ليفسح لنا الطريق الى الحقيقة النيرة التى تهدم الاناجيل كلها ـ ومنها انجليه ـ وها هى ذى مقدمة انجله تنطق بها ؛

يقول لوقا فى المقدمة : " اذا كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصة فى الامور المتيقنه عندنا كما سلمها الينا الذين كانوا منذ البدء معاينين وخداما للكلمة رأيت انا ايضا اذ قد تتبعت كل شىء من الاول بتدقيق ان اكتب اليك على التوالى ايها العزيز تاوفيلس لتعرف صحة الكلام الذى علمت به " (٤)

وعلى هذا فلا السبعون الكاذبة ولا انجيله الصادق وحى من الله ولا احدها هو منسوب الى المسيح بل الكل سير وقصص يكتبها اتباع المسيح

---

(٣) اظهار الحق : ٢٩٢ ، وانظر محمد رسولا نبيا / عبد الرازق نوفل : ١٨٨ •
(٤) صح ؛ ١

عن حياته ودعوته كما سمعوها من اسلافهم الذين رأوا المسيح وخدموه ، ولو استعرنا عبارة الفيلسوف الفرنسى غوستاف لوبون لقلنا عن الاناجيل :

" هى مجموعة من الاوهام والذكريات غير المحققة التى بسطها خيال موءلفيها " (٥) ان أشبه الكتب الاسلاميه بالاناجيل من جهة موضوعها لا من جهة ثبوتها - هى كتب السيرة فهل يمكن بأى حال من الاحوال القول بأن سيرة ابن هشام مثلا وحى منزل من الله ؟ ان هذا لمجال شرعا وعقلا ، فكيف وسيرة ابن هشام مقطوع بنسبتها الى موءلفها ومتصلة السند بصاحب السيرة صلى الله عليه وسلم ومحفوظه بأصلها العربى ، لم تتعاورها الترجمات كما هو الحال فى الاناجيل كما انها لم تفرض بسلطة قانونية او كهنوتية وانما اقرها البحث والتدقيق ، وكم من علماء مسلمين بلغوا ذروة العبادة والورع لا يعتد الباحثون المسلمون من رواياتهم بشىء لان شروط التحقيق العلمى لم تتوفر فيهم ، اما الكنيسة فلا يكاد راهب ينقطع فى صومعة او عابد يتظاهر بحب المسيح حتى تقول انه " مملوء بالروح القدس " وتمنحه لقب " رسول أو قديس وتعد كلامه وحيا ملهما لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ولذلك فليس غريبا ان يكون لدى الكنيسة مئه وعشرون رسولا (٦) يوءخذ كلامهم ـ على علاته ـ قضايا مسلمة ، وتقدس رسائلهم ـ كما تقدس الاناجيل .

تلك حصيلة المسيحيه فى قرونها الثلاثة الاولى : سبعون انجيلا يكذب بعضها بعضا ، ومئة وعشرون رسولا منهم من ألف اناجيل ومنهم من كتب رسائل ، ومنهم من كان يركز (يعظ) من حفظ ومعلوماته ، وطوائف وفرق تجل عن الحصر تختلف فى قضايا أساسيه بالغة الاهمية ، وكان عام ٣٢٥ يمثل معلما من معالم التاريخ البارزه ففيه عقد مجمع نيقية الذى ابتدئت به صفحه جديدة فى تاريخ الديانات العالمية . وان هذا المجمع ليستحق ان يقف عنده المرء طويلا .

ان أى مجمع او موءتمر يجب أن تتوفر فيه شروط خاصة ـ لاسيما اذا كان

---

(٥) حياة الحقائق : ٦٢ .
(٦) انظر اعمال الرسل من العهد الجديد صح : ١ .

دينيا - ومن أوجب هذه الشروط :

١- حرية البحث والمناظرة سواء فى جدول اعماله او صيغة قراراته فلا تكون هنالك سلطة قاهرة تفرض على المجتمعين موضوعا او قرارا بعينه مهما كانت .

٢- نزاهة القصد وروح التفاهم بأن يكون الوصول للحق هدفا مشتركا بين المجتمعين بدون تعصب او اصرار .

٣- اتخاذ قرارات سائغه ومنطقية مع اعتراف مقرريها بأنها عرضة للخطأ والصواب وقابلة للنقاش ، والا جاز اتهامهم بالاستبداد الفكرى .

وهذه الشروط - مع الاسف - مفقودة كليا فى هذا المجتمع "المقدس "

فأولا : لم يكن سبب انعقاده ذاتيا نابعا من الاساقفه انفسهم بل أن الامبراطور الرومانى . قسطنطين هو الذى دعا الى انعقاده ، وهو رجل وثنى ظل وثنيا الى أن عُمِّد وهو على فراش الموت .

وثانيا : حضر المجمع ألفان وثمانية واربعون من البطاركه والاساقفه يمثلون مذاهب وشيعا متنلحره ابرزها فرقتان :-

١- الموحدون كما يدعون اتباع آريوس وكان عددهم يقارب سبعمئة عضو ..

٢- الثالوثيون اتباع بولس وكان عددهم حوالى ثلاثمئه وثمانية عشر عضوا .

ومعلوم ان وثنية قسطنطين ثالوثيه وهذه فى حد ذاتها تمثل قوة معنوية للثالوثيين فكيف اذا اضيف الى ذلك انه جمع الثلاثمئه وثمانية عشر اسقفا فى مجلس خاص وجلس فى وسطهم واخذ خاتمه وسيفه وسلمه اليهم وقال " قد سلطتكم اليوم على مملكتى .. "

وثالثا : لم تكتف قرارات الجمع بالتحيز لقسطنطين ودعاة التثليث بل لعنت وحرمت من يخالف هذه القرارات ، والحرمان عقوبة لها حجمها الكبير فى المسيحية . (٨)

---

(٧) انظر اضمحلال الامبراطورية الرومانية : جيبون : ١/٥٦٤ .

(٨) انظر ما نقله الشيخ ابوزهره عن ابن البطريق : محاضرات فى النصرانيه : ١٤٤ وقد اكد جيبون تدخل قسطنطين المباشر فى المؤتمر وفرضه لقرارات القوة : ١/٦٢٦/٦٢٧ .

وأبرز قرارات المجمع القرار الذى اتخذه بشأن الاناجيل ، وهو أن الاناجيل المعتمدة الصحيحة هى الاناجيل الاربعة المنسوبة لـ " متى ، لوقا ، مرقص ، يوحنا واما ماعداها فمزيف مكذوب تحرم قراءته ويجب حرقه وابادته ، وهذا بلاشك قرار جائر بحق الدين والتاريخ ويستطيع المرء أن يحمل المجمع او هذا القرار خاصة مسئولية ضياع النسخة الاصلية من الانجيل المنزل ، لاسيما وأن الناظر الى هذه الاناجيل يجد بينها من التضاد الشكلى والموضوعى مايؤكد انها ليست وحيا بل ليست سيرة صادقة للمسيح عليه السلام .

ان اختيار أربعة مؤلفات من بين سبعين مؤلفا مع عدم ابداء أسباب تبرر ذلك لهو إجراء قسرى ، يعبر عن روح الرعونة والصلف اللذين لم ينفكا عن الكنيسة فى أية حقبة من تاريخها ، ولذلك فليس عجيبا أن يعاملها العاقون من أبنائها بمثل ذلك التطرف والغلو . وليت الامر اقتصر على هذا ، لكن الكنيسة لم تحفظ الاناجيل الاربعة نفسها من التحريف بعد أن فرضتها على اتباعها ، وكان للاباطرة دخل فى هذا التحريف ـ ولا لوم عليهم فانما قلدوا الكنيسة فى ذلك ـ يقول " لاندر " أحد مفسرى الاناجيل :

" حكم على الاناجيل المقدسة لاجل جهالة مصنفيها بانها ليست حسنة بأمر السلطان أناسطيوس فى الايام التى كان فيها " مسالة " حاكما فى القسطنطينية فصححت مرة اخرى " (٩) وهذا القول اعتراف بالغ الخطورة فهو يقرر ثلاث حقائق تاريخيه :

١ ـ ان مؤلفى الاناجيل مجهولون وظلوا كذلك حتى القرن الرابع الميلادى .
٢ ـ ان لاهواء الحكام وميولهم يدا فيما تعرضت له الاناجيل من تحريف باسم التصحيح .
٣ ـ ان التحوير والتعديل ظل يمارس فى الاناجيل دون شعور بالحرج مما يدل على أنه عادى مألوف . وقد أورد الشيخ رحمة الله الهندى ـ خمسة واربعين شاهدا على التحريف بالزيادة فى الاناجيل ، مدعمة

---

(٩) اظهار الحق : ٢٩٦ .

بالوثائق والاعترافات ، نختار واحداً منها للتمثيل فقط :

" الاية الثالثة والخمسون من الباب السابع واحدى عشرة آية من الباب الثامن من انجيل يوحنا الحاقية (مضافه) قال هورن فى الحاقية هذه الايات: ارازمس وكالوين وبيزا وكروشيس و ... والاخرون من المصنفين الذين ذكرهم ونفينس وكوجز لا يسلمون صدق هذه الايات " ثم قال :

" كرايز ستم وتهيو فلكت ونونسى كتبوا شروحا على هذا الانجيل فما شرحوا هذه الايات: بل مانقلوها فى شروحهم . وكتب ترتولين وساى برن فى باب الزنا والعفة وماتمسكا بهذه الايات ولو كانت هذه الآيات فى نسخهما لذكرا أو تمسكا بها يقينا "

" وقال وارد كاتلك : بعض القدماء اعترض على أول الباب الثامن من انجيل يوحنا وحكم نورتن بأن هذه الآيات الحاقية يقينا " (١٠)

فهذه اثنتا عشرة فقره يكاد يكون هناك اجماع على اضافتها ، وغيرها كثير ، ولاغرابة فى ذلك فليس لدينا حد فاصل بين كلام الله وكلام البشر ، بل ليس هناك ضابط يعرف به كلام المسيح من كلام غيره ، فالشك وارد على كل فقره فى الاناجيل الى درجة ان اعظم المتعصبين لها لايستطيع اقناع الباحث العلمى بسوى ذلك .

---

(١٠) اظهار الحق : ٢٦٤ .

ثانيا : تحريف الشريعة

فصل الدين عن الدولة

يحسن بنا قبل الخوض في هذا الموضوع أن نوطيء له بمقدمتين :ـ

الاولى : عن الدين في نظر الروم طبيعته والتزاماته •
والثانية : عن حالة الشريعة الانجيلية ومدى تطبيقها في واقع الحياة قبل ان يعتنقها الروم رسميا •

أولا : الدين في نظر الرومان

نستطيع أن نقول ان المجتمع الروماني (أي الجنس الابيض المستعمر) لم يكن له دين موحد يتعبد به ، ولا فلسفة واحدة يؤمن بها ، بل كان غارقا في دياجير جاهلية كالحة متعددة الالوان مختلفة الانحاء ، فالطبقة الحاكمة تشارك الشعب في اعيادة الوثنيه وتخدم تماثيل الالهة الكثيرة بيد أنها لاتدين في الواقع بغير الشهوة العارمة للتسلط والرغبة الجامحه في الاحتفاظ بكرسي المملكة لاسيما وان الامبراطور نفسه كان الها " يعبده الشعب •

أما الطبقة المثقفة فاشتات متفرقه منها اتباع المدرسة الرواقية الموغلة في التجريد والتصوف ، ومنها مريدو المدرسة الابيقورية المفرطة في البهيمية والحسيات ، ومدارس اخرى متأثرة بالفلسفات والوثنيات الاغريقية في تصوراتها وافكارها •

أما طبقة العامة من الشعب فهي بفطرتها تميل الى التدين لكن التناحر المزمن بين الالهه والصراع المرير بين الفلاسفة ، افقداها الثقة في المعتقدات الدينية والفلسفية بجملتها ، فآثرت الاستجابة لداعي الهوى والانصياع الى الملذات الجسدية والاغراق في المتع الحسية •

وخلاصة القول أن الروم لم يعتنقوا دينا اعتناقا جديا يجعلهم يستمدون

تصوراتهم وعقائدهم ونظام حياتهم منه وحده ، نعم كان لهم آلهة ولكنها آلهة تلقليدية " لم تكن سوى محاكاة شاحبة للخرافات اليونانيه ، لقد كانت اشباحا سكتت عن وجودها حفظا للعرف الاجتماعى ولم يكن يسمح لها قط بالتدخل فى أمور الحياة الحقيقية " (١)

وعليه نستطيع أن نجزم بأن المجتمع الرومانى كان مجتمعا ماديا لا دينيا يعانى عزلة حادة بين معتقداته ـ أيا كانت ـ وبين واقع حياته العملى .

وقد عبر " سيسرو " عن الانفصال العميق بين الدين ونظام الحياة العام عند الرومان بقوله : " لما كان الممثلون ينشدون فى دور التمثيل أبياتا معناها أن الالهة لا دخل لهم فى أمور الدنيا يصغى اليها الناس ويسمعونها بكل رغبة " (٢)

ويقول الراهب " اوغسطين " : " ان الروم الوثنيين كانوا يعبدون آلهتهم فى المعابد ويهزأون بهم فى دور التمثيل " (٣) ليس هذا فحسب بل أن أبيقور ـ (ق ٤) قبل الميلاد ـ ليعلن على الملأ دعوة علمانية صريحة فهو يقول :

" ان الالهة لا يشغلون انفسهم بأمور بنى البشر ، نعم لنهم موجودون لانهم يظهرون من آن لآخر للاشخاص (!) بيد أن مسائل العالم الارضى لا تعنيهم ، وما من علامة تدل على انهم يعنون بعقاب الآثم وإثابة الصالح ، ايمكن اعتقاد تدخلهم هذا مع ما نراه فى هذا العالم ؟

ان جوبيتير يرسل الان بالصواعق على معبده فهل سحق ابيقور الذى يجدف به "

" ان الآلهه يعيشون بعيدا عن العوالم ولا يهتمون الا بشئونهم فلا تعنيهم امورنا انهم يعيشون حكماء سعداء ويعظوننا بهذا المثال الذى يجب أن نسير على منواله فلنعظمهم كمثل عليا يقتدى بها غير انه يجب علينا الا نشغل انفسنا بما يريدونه منا ، فانهم لا يريدون منا شيئا ، هم لا يعيروننا بالا فلنفعل نحوهم كما يفعلون نحونا " (٤)

---

(١) الاسلام على مفترق الطرق : محمد أسد : ٣٨ .
(٢) ، (٣) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين : الندوى : ١٦٣ .
(٤) المشكلة الاخلاقية والفلاسفة كرسون : ٦٧ .

هذا التصور للالهه تشترك مع ابيقور فيه الغالبية العظمى من الرومان ، ومن الطبيعى جدا أن ينشأ عن هذا التصور الخاطئ للاله تصور خاطئ لمهمة الدين فى الحياة وواجب المخلوق تجاه خالقه • ولما كان الصراع هو التصور المشترك لطبيعة الحياة عند الرومان فقد كانوا يتصورون الالهه وهى تتصارع فى الفضاء كما يتصارع ابطالهم على الحلبه ، وليس من شأن البطل ان يشرع للجمهور ، بل كل همه أن يخرج من الحلبة ظافرا منصورا •

وبما أن آلهه الرومان بطبعها لم تكن لتشرع لهم شيئا فقد كان من الضرورى أن يقوم بشر متألهون بمهمة وضع نظم الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية للدولة ، ونتيجة لجهود هؤلاء برز الى الوجود " القانون الرومانى " الذى لاتزال اوربا تعيش عليه أو على امتداده الى اليوم ، أما النظم الاخلاقية وقوانين الاداب العامة ـ ان وجدت ـ فقد كانت ابيقورية محضة •

وهكذا كان للرومان دين لكنه دين وجدانى مجرد لاتأثير له فى السلوك العملى ولا يفرض التزامات خلقية معينة ، ولا ينظم من شئون الحياة شيئا ، حتى اننا لنكاد نقول أن الامبراطورية الرومانية نسخة قديمة من الولايات المتحدة الامريكية اليوم •

كان الفرد الرومانى ـ كالامريكى اليوم ـ يخرج من نحلة الى اخرى وينتقل من مبدأ الى نقيضه دون أن يطرأ على حياته العملية وسلوكه الشخصى أى تغيير ، فالدين فى نظره فكرة مجردة وعقيدة وجدانية فحسب •

ثانيا : حالة الشريعة الانجيلية الى سنة ٣٢٥م

ليس الانجيل أول كتاب سماوى أنزله الله ولا هو حتما آخر كتاب ، فهو واحد من مجموعة كتب ابتدأت قبل المسيح بقرون وانتهت بالكتاب الخاتم المنزل على الرسول الخاتم صلى الله عليه وسلم •

ومهمة الكتاب السماوى وغاية انزاله بينها الله تعالى فى القرآن الكريم

أوضح بيان " كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وانـــزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه " ٢ - : ٢١٣ - فالحكم بالكتاب فى كل اختلاف وتطبيقه فى كل منحى من مناحى الحياة واستمداد كــل القيم والقوانين والانظمه والتشريعات منه هو الغرض المقصود من انزاله ، والكتب السماوية هى - كما فى الاية - كتاب واحد بالنظر الى أن منزلها واحد وموضوعها واحد وهو تقرير حقيقة واحدة لاتختلف ابدا : هى توحيد الله وعبادته وحده بالمعنى الواسع الشامل للعبادة ، هكذا كانت التوراة " وكتبنا له فى الالواح من كــل شئ موعظة وتفصيلا لكل شئ " - ٧ : ١٥٤ - فهى شريعة كاملة بالنسبـــة لعصرها قام عليها دول تملك خصائص الدولة فى ذلك العصر وكان بعض ملـــوك هذه الدول من أمثال داود وسليمان عليهما السلام انبياء يحكمون بما انـــزل الله ويقيمون الحياة كلها على شرعة وامره • وظلت التوراة ماشاء الله ان تظـــل منهاجا وشريعة " يحكم بها النبيون الذين اسلموا للذين هادوا والربانيون والاحبار " ٥ : ٤٣ فماكان يجوز لمؤمن بها ان يستمد تصوراته وافكاره ولا سلوكه وتشريعاته من سواها •

أما ماوقع فى حياة بنى اسرائيل ممايخالف هذا فهو انحراف لايقـــره الله ولاتقبله شريعته • ثم جاء عيسى عليه السلام " رسولا الى بنى اسرائيـــل " وهو آخر رسلهم ليصلح مافسد ويقيم مااعوج من عقائد واخلاق اليهود ، وليردهـم الى الاصل الثابت : توحيد الله وعبادته وحده بتحكيم شرعه واتباع منهجه •

وبما انه مبعوث الى بنى اسرائيل خاصة فلم يكن ناسخا لشريعة موســى وانما كان متمما لها وكان الانجيل مصدقا لمابين يديه وان لم يكن مهيمنا عليه •(1)

وكان الجديد فى شريعة الانجيل التخفيف من بعض التشريعـــات التى لم تنزل شرعا دائما وانما جاءت عقوبة موقته لليهود ، مع اشتماله على مواعـظ بليغة اقتضاهــا ماجبل عليه اليهود من غلظة فى القلوب وجفاف فى الارواح واغراق مفرط فى عبودية المادة وحرص مصر على التشبث بالحياة الدنيا •

اذن فقد كانت التوراة مضموما اليها تعديلات الانجيل شريعة يجـب

---

(1) يقول انجيل متى عبد المسيح " لاتظنوا أنى جسئت لأنقض الناموس أو الانبياء ماجئت لانقض بل لاكمل " ٥ : ١٨ •

أن تطبق ، وعقيدة يجب ان ينبثق منها كل منهج للحياة " وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور ومصدقا لمابين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين ، وليحكم اهل الانجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون " ٥ : ٤٥ ـ ٤٦ لكن الذى حدث هو أن هذه الشريعة لم يكتب لها التطبيق على المستوى العام لسببين متلازمين :

الاول : انه لم يقم لها دولة تتبناها وتقيمها فى الارض ، اذ من المعلوم أن عيسى عليه السلام توفاه الله ورفعه اليه وهو لم يزل فى مرحلة الدعوة التى تشبه حال الدين الاسلامى قبل الهجرة .

والثانى : انه عليه السلام قد بعث الى قوم قساة القلوب غلاظ الاكباد ، وفى الوقت نفسه كانت المنطقة المبعوث فيها جزءا من مستعمرات امبراطورية وثنية عاتية ، فكان ميلاد الدين الجديد فى محيط معاد كل العداء له ولرسوله ونتج عن ذلك اضطهاد فظيع للمؤمنين به لم يدع لهم فرصة لتطبيقه الا فى النطاق الشخصى الضيق .

وكان اول من وضع العراقيل امام دعوة المسيح وشريعته اليهود قتلة الانبياء وتكاد الاناجيل والرسائل تكون وصفا للعنت الذى لقيه المسيح واتباعه من الطوائف اليهودية ، وقد حاولوا اعدامه باغراء الحاكم الرومانى بقتله وصلبه لكن الله تعالى رفعه اليه ونجاه منهم ومنه .

وبعد وفاة المسيح عليه السلام ، اشتدت المحنة على اتباعه من اليهود والرومان سواء .

أما اليهود فكانوا كما تحدثت رسالة " أعمال الرسل " يقتلون المسيحين ويرجمونهم ويفرون بهم الولاة ـ وكان من ابرز المضطهدين لهم شاول اليهودى الذى تقول عنه الرسالة المذكورة :

" أما شاول فكان يسطو على الكنيسة وهو يدخل البيوت ويجر رجالا ونساء ويسلمهم الى السجن " (٢) على أن أعظم محنة نزلت بالمسيحية

---

(٢) صح ٨ : ٤ .

عقيدة وشريعة ـ هى عملية الغزو من الداخل " التى قام بها شاول فقد تظاهر باعتناق المسيحية وجاء بتعاليم مناقضة سبق ذكر بعضها ، واخذ يؤلب على المسيحين الحقيقين ، وبذلك احدث فوضى عقائدية وبلبله فكرية ، فتضاعفت البلاء على المسيحين اذ اصيبوا فى دينهم وأنفسهم دفعة واحدة .

وأما الرومان فقد انزل أباطرتهم باتباع المسيح أشد الاذى ، واشتهر باضطهادهم (نيرون ٦٤م) و (تراجان ١٠٦) و (ريسيوس ٢٥١) ، (دقلديانوس ٢٨٠) وبلغ بهم الاضطهاد الى درجة أن بعض الاباطرة كانوا يضعون المسيحين فى جلود الحيوان ويطرحونهم للكلاب فتنهشهم ، أو يلبسونهم ثيابا مطلية بالقار ويوقدونها لتكون مشاعل بشرية يستضيئون بها فى مراقصهم . (٢) وفى وسع المرء أن يدرك الحال التى تكون عليها شريعة يضطهد اتباعها ثلاثة قرون ويطاردون فى معتقداتهم وافكارهم هذه المطارده ، كيف يمكن أن تقوم عليها دولة تنافح عنها وتلزم بتعاليمها وتثبت للعالم أنها شريعة كاملة .

* * * *

واذا اتضحت لنا هاتان الحقيقتان نعود الى فصل الدين عن الدولة الذى مارسته الامبراطورية الرومانية والكنيسة ابتداء من سنة ٣٢٥ .

ان الكنيسة لتهتز طربا اذا ذكر لها عام ٣٢٥ فهو يمثل فى نظرها عام النصر الحاسم على أعداء المسيح وبداية العصر الجديد ـ عصر السيادة والحرية ـ بعد عصر الاضطهاد والهوان .

لقد حصلت الكنيسة على مالم يكن ليحلم به آباؤها الاولون ، فبينما عاش المسيح والتلاميذ تحت تهديد الوالى الرومانى ينظرون الى الامبراطورية الفسيحة نظر من لا يطمع منها بشئ ، نرى الكنيسة فى القرن الرابع تظفر بالامبراطور نفسه صيدا ثمينا وتعمّده بالماء المقدس ايذانا بدخوله دين المسيح .

(٢) انظر محاضرات فى النصرانيه : ٣٢ ، وتاريخ العالم فصل : واضمحلال الامبراطورية الرومانية : فصل ١٥ .

ان هذا لنصر كبير ، بل كبير جدا في حس الكنيسة وأتباعها ، لكن الكنيسة نسيت ـ وما اكثر ماتنسى ـ قولة المسيح الصادقة " ماذا ينتفع الانسان اذا ربح العالم كله وخسر نفسه " (٤) فماذا ينفع الكنيسة اذا ربحت قسطنطين وامبراطوريته وخسرت دينها وتعاليمها ؟

لو أن الكنيسة ربانية حقا لكان اول عمل عملته بعد انقضاء عهد الاضطهاد المرير هو البحث عن ذاتها هي ، ببعث الانجيل الاصلي ونشره وتحكيمه في شؤون الحياة ، وكان في امكانها ان تقنع الامبراطور ، فاما أن يقبل ذلك فيكون نصرانيا على الحقيقة والا فلتكتف منه بصداقته ورعايته وتمارس تطبيق شريعتها على اتباعها الحقيقيين في ظل عطف الامبراطورية . ذلك ماكان مفروضا ان تضطلع به الكنيسة وأن يرضاه الامبراطور ويتقبله . غير ان الذي حصل فعلا هو انه لا الكنيسة كانت مؤمنة جادة تطمع في هداية الناس ابتغاء مرضاة الله والدار الاخرة ، ولا قسطنطين كان مؤمنا جادا يريد ان يخلع عن عنقه ربقة الوثنية ليخلص دينه لله ويقف بين يديه وقوف العابد أمام المعبود .

ان الرابط الذي جمع الكنيسة بالامبراطور هو رباط المصلحة الدنيوية لكلا الطرفين لاغير ، وان كانت مصلحة الامبراطور أرجح وتنازله ارخص .

يقول " درابر " :

" ان هذا الامبراطور الذي كان عبدا للدنيا والذي لم تكن عقائده الدينية تساوي شيئا رأى لمصلحته الشخصية ولمصلحة الحزبين المتنافسين ـ النصراني والوثني أن يوحدهما ويؤلف بينهما ، حتى أن النصارى الراسخين أيضا لم ينكروا عليه هذه الخطة ، ولعلهم كانوا يعتقدون أن الديانه الجديدة ستزدهر اذا طعمت ولقحت بالعقائد الوثنيه القديمة ، وسيخلص الدين النصراني عاقبة الامر من ادناس الوثنية وأرجاسها " (٥)

---

(٤) متى ١٦ : ٢٧ .

(٥) عن ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين : ١٦٧ .

كما ادرك هذه الحقيقة المؤرخ الانجليزى " ويلز " فقد شرح بدقـــة حال الامبراطورية مطلا اعتناق قسطنطين للمسيحيه واعلانها ديانة رسميـــة بانه محاولة منه لانقاذ امبراطوريته المتضعضعة من التفكك والانحلال (٦) وهـــو ماقال به جيبون من قبل . (٧)

هذا بالنسبة للامبراطور اما الذين اعتقوا المسيحية من المواطنين الرومان فلم يتغير تصورهم السابق عن الدين ومهمته فى الحياة ، وكان التغيير الــذى طرأ عليهم هو احلال مسمى " الاب "والابن وروح القدس " محل " جوبيـــتر ومارس وكورنيوس" فما كانوا ينتظرون من آلهة بولس وكنيسته من تشريع وتوجيـــه الا ماينتظر من آلهتهم الجامدة الشاحبه ، ولم يكن مقام الاب الذى نادت بـــه الكنيسة ليزيد عن مقام جوبيتر الذى صوره ابيقور .

وهكذا لم تستطع الكنيسة بتصورها الفاسد ان تقتلع جذور الوثنيـــة المتغلغلة فى أعماق النفس الرومانية ، ولا أن تسمو بتلك النفوس من عالـــم الملذات الجسدية الى عالم الفضيلة والطهر ـ باستثناء القلة التى ترهبـــت. ولقد عبر احد المؤرخين الغربيين عن ذلك بقوله " ان المسيحية لم تكن عنـــد اكثر الناس غير ستار رقيق يخفى تحته نظرة وثنية خالصة الى الحياة " (٨)

واذ قد عجزت عن ذلك فمن الطبيعى أن تعجز عن إقامة الحيـــاة : ينظمها وقيمها واخلاقها على أساس من الدين ، وبقى الدين كما كان هوايـــة شخصية محدودة التأثير لم يتغير فيه الا أن المراسم الشكلية كانت تؤدى فـــى معابد فاصبحت تؤدى فى كنائس ولم يقتصر الامر على هذا ، بل أن الكنيســـة تزحزحت عن مركز التأثير الى مركز التأثر ، فدخلت الخرافات والاساطير والتقاليد الوثنيه فى صلب تعاليمها وطقوسها ، وامتزجت بروايات الاناجيل وآراء المجامع المقدسة كما حصل امتزاج وتلاقح بين الشريعة والقانون الرومانى فأصبحت ـ

---

(٦) انظر معالم تاريخ الانسانيه : ٣ : ٧١٨ ـ ٧١٩ .
(٧) انظر اضمحلال الامبراطورية الرومانية : الفصل العشرون .
(٨) تاريخ العالم : ٤/ ٣٣٠ .

المسيحية ديانة " تركيبية " كما وصفها لوون . " (٩) وهذا الضلال والخطل الذى وقعت فيه الكنيسه لا يبرره ماذهب اليه ليكونت دى نوى حين قال : " قبل الدين الكاثوليكى الذى نشأ على شواطئ المتوسط ذات المخيلة الواسعة بعض العادات لانه لم يجد الى ازالتها سبيلا " وانتهت أى الكنيسه ـ مرغمة الى قبول المساومة وقد طفت عليها امواج الخرافات القديمة الجارفة " (١٠) فالمؤمن الحق لا يقبل المساومة على دينه مهما قست الظروف والاحوال .

كما لا يبرره من باب أولى ماذهب اليه فشر " فى قوله :

" ان حكمة الكنيسة المسيحية هدت آباءها الاولين الى قبول مالم يستطيعوا له منعا من قديم العادات والتقاليد والمعتقدات ، بدليل استقبال الكنيسة لمبدأ تعدد الالهه الراسخ بين شعوب البحر الابيض المتوسط وتطويع ذلك المبدأ لماتقتضيه عقائدها " (١١)

قد يكون جرم الكنيسة أهون لو أنها عدت عملها هذا تصرفا استثنائيا موقتا تفرضه عليها الضرورة الطارئه ، ثم لاتلبث الشريعة ان تبرز الى حيز التنفيذ وتهيمن على كل نشاطات الحياة . غير ان الذى تم فعلا هو انها اتخذت ذلك قاعدة ومنهجا وسارت فيه الى أبعد شوط .

وكان أول من سن سنة التنازل عن الشريعة مقابل قبول العقيدة هو شاؤل " بولس " يقول برنتن :

" كانت العقبة الكبرى فى وجه الاميين الذين وجدوا اسلوب الحياة المسيحية جذابا قانون اليهود " ـ أى شريعة التوراة ـ ثم يشرح برنتن كيف أن بولس ازال هذه العقبة فافتى بأن " الاغريق والمصريين والرومان الذين يقبلون المسيحية فى حل من الختان وفى حل من التقيد بحرفيه القانون " (١٢) وبمرور الزمن اصبح هذا الانحراف منهجا مقررا اعتمدته الكنيسة بعد مجمع

---

(٩) حياة الحقائق : ٦٨
(١٠) مصير الانسان : ٢٥٢ ، ٢٥٥ .
(١١) تاريخ اوربا العصور الوسطى : ١ / ٨٠
(١٢) افكار ورجال : ١٨١ .

نيقية ففصلت بين العقيدة وبين الشريعة ، بين الدين والدولة وقسمت الحياة البشرية دائرتين مغلقتين :

الاولى : " دينية " من اختصاص الله ويقتصر محتواها على نظام الاكليروس والرهبنة والمواعظ وتشريعات طفيفه لاتتعدى الاحوال الشخصية .

والاخرى : دُنيوية " من اختصاص قيصر وقانونه ويحوى محيطها التنظيمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلاقات الدولية ونظم الحياة العامة .

هذه القسمة الضيزى لم تجد الكنيسة غضاضة فيها ، ولم تتحرج من جعل قيصر شريكا لله فى ملكه ،بل أعظم من شريك فقسمت الكون شطرين : شطر لله وشطر لقيصر ، فماكان لله فهو يصل الى قيصر وماكان لقيصر فلا يصل الى الله .

ويرى بعض المؤرخين ان السبب الذى اوقع الكنيسة فى ذلك هو نظرتها القاصرة الى الحياة الدنيا ، يقول صاحب " تاريخ اوربا فى العصور الوسطى " :
" ان المسيحيين الاولين على وجه الاطلاق لم يعمدوا الى شىء من الاصلاح فى المجتمع الرومانى الذى نبتوا فيه برغم ماهو معروف من تحريمهم لكثير من العادات والطقوس القديمة ، ولم تكن لهم فلسفة فى الدولة واصول الحكم ولا الايمان بتجديد المجتمع من طريق الانشاء والتنظيم ،ولم يخطر ببال احد منهم أن فى استطاعة جماعاتهم الصغيرة البعيدة عن السلطة والنفوذ ان تحدث بالسياسة الرومانية او المجتمع الرومانى شيئا من التعديل ،ذلك انهم ايقنوا ان الدنيا متاع الغرور والشرور وتعلموا ان الانسان طريد جنة الخلد وحق عليه العذاب المقيم .

" وتعلموا كذلك ان هذه الدنيا الغرارة لن تلبث حتى تزول وان رجعة المسيح الى الارض وهى مااعتقدها الناس وشيكة الوقوع .. سوف تملأ الدنيا عدلا بعد ماملئت ظلما وجورا وخبثا ونقصا يمحوه كله المسيح محوا ، واذا كان كذلك فما الذى يحمل المسيحى على الغاء الرق أو الحرب او المتاجرة فى

المحرمات او الربا أو استعمال القوة الغاشمة التى ساعدت الدولة الرومانية على النهوض مادام ذلك كله مقضيا عليه بالزوال ، ومادامت المشكلة الكبرى تنحصر فى الوسيلة الواقية من العذاب الذى كتبه الله على الناس جزاء وفاقا لما ارتكبه آدم من الخطيئة فى جنة الخلد ، ولذا رضى المسيحيون بجميع ما وجدوا من نظم لاقبل لهم بتغييرها " (١٣)

وهذا التعليل مصيب لكنه لا يمثل الحقيقة كاملة فان للكنيسة مستندات نقلية من نصوص الاناجيل لابد من عرض نموذج لها ومناقشته ، وأهمها نصان :-

١- القول المنسوب للمسيح " أعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله "

هذا القول هو اقوى واصرح حجج الكنيسة ، ولقد ظل شعارا ترفعه اوربا كلما املى عليها الهوى ان تخالف منهج الله وتتمرد على شرعه ، وبفضل هذا الشعار أخذ الدين ينكمش وينحسر على مر القرون حتى لم يبق له فى أحسن الاحوال الا ساعة فى الاسبوع خاوية من كل معنى، فما قيمة هذا الدليل بالنظرة العلمية المنصفة ؟

لقد سبق لنا أن قلنا إن كل ما روى عن المسيح من اقوال ليست منسوبة اليه يقينا بل ولا ظنا راجحا ، فالكنيسة بدلت وحرفت واضافت وحذفت حتى طمست تعاليمه واقواله ودفنتها الى الابد ، وهذا القول مما يجوز أن يقال فيه - مبدئيا - إن المسيح لم يقله وإنه من إضافات الكنيسة ، وما دام البحث العلمى يقرر ان الاناجيل كلها ظنيه الثبوت ظنيه الدلالة فكيف يسوغ للكنيسة ان تحتج بهذه الظنيات فى مسألة بالغة الخطورة كهذة ؟

ولندع القيمة العلمية التاريخيه للنص وننظر نظرة موضوعية فاحصة فى منطوق العبارة ومدلولها فماذا نجد ؟

ان هذه العبارة ظاهرها الامر الصريح بالشرك " أعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله " فهى تجعل قيصر شريكا لله فى التوجه اليه بالعمل ومن ينفذ هذا

---

(١٣) ٢/ ١٠٩ - ١١٠ .

على ظاهرها يقع حتما فى شرك الطاعة والاتباع وهو شرك أعظم لتنافيه مع توحيد الالوهية ، وهذه الدلالة تكفى لنفى صدور العبارة من المسيح عليه السلام لان الانبياء عليهم الصلاة والسلام انما بعثوا لتحذير الجماعة البشرية من الشرك وتنفيذها منه جليلة ودقيقه ، فكيف يأمر بنى من انبياء الله من أولى العزم بالشرك ويدعو اليه بهذه الصورة ؟

وهذا فى الحقيقة كاف لاسقاط حجية العبارة لكننا سنجامل الكنيسة ونجرى مع احتمالها الضعيف جدا مفترضين جدلا ان المسيح عليه السلام تفوه بمانسب اليه ، فهل يعنى ذلك أن نفهم من العبارة مافهمته الكنيسة من ظاهرها ونتخذ من فهمنا هذا قاعدة هى اعظم القواعد الكنيسية العملية على الاطلاق ؟ لنتبع معها سياق العبارة فقد يعين على فهمها ـ ان قيلت ـ على حقيقتها :

يقول متى فى انجليه :

" ذهب الفريسيون وتشاوروا لكى يصطادوه بكلمة فأرسلوا اليه تلاميذهم مع الهيرودوسيين قائلين : يامعلم انك صادق وتعلم طريق الله بالحق ولاتبالى باحد ، لانك لاتنظر الى وجوه الناس ، فقل لنا ماذا تظن أيجوز ان تعطى جزية لقيصر أم لا ؟ فعلم يسوع خبثهم وقال : لماذا تجربونني يامراؤون ، أرونى معاملة الجزية ، فقدموا له دينارا فقال لهم : لمن هذه الصورة والكتابة ، قالوا له : لقيصر ، فقال لهم اعطوا اذن مالقيصر لقيصر ومالله لله ، فلما سمعوا تعجبوا وتركوه ومضوا " (١٤)

كان المسيح عليه السلام واتباعه قلة مضطهدة تتبنى دعوة جديدة ناشئة ، فلم يكن فى مقدورها أن تصطدم بالامبراطورية الطاغية ، وتواجهها بعداوة سافرة ، ولم تكن هذه المواجهة مطلوبة منها وهى لاتزال فى طور الدعوة ـ يقابل ذلك فى الاسلام فترة ماقبل فرض الجهاد ـ وهذا الطور يقتضى الالتزام بمبدأ " كفوا أيديكم " كيلا يستثار عدو باطش فيفتك بالدعوة فى مهدها .

---

(١٤) ٢٢ : ١٤ ـ ٢٣ ، وفى مرقص ١٢ : ١٤ ـ ١٨ .

هذا المنهج فى الدعوة لاحظه الفريسيون ـ اعدى اعداء المسيح ـ فسولت لهم انفسهم الحاقدة ان يدبروا مكيدة للمسيح ودعوته بحيث تخرج الدعوة عن منهجها ومسارها المقرر وتناوىء الاوضاع القائمة مباشرة وبذلك يجدون ذريعة للايقاع بالمسيح لدى الحاكم الرومانى فكان هذا السؤال الخبيث .

والواقع انه ليس فى استطاعة المسيح عليه السلام والقلة المسلمة معه ولا من منهج دعوته ان يرفضوا دفع الجزية للجابى الرومانى الذى يجمعها من كل رعايا الامبراطورية ويدفعها للطاغوت قيصر ، ولكن هذا لا يعنى أبدا أن المسيح عليه السلام يقر ذلك الواقع الظالم ، ويعترف لقيصر بحق مساواة الله فى خلقه ويجعله شريكا له فى الوهيته كما فهمت الكنيسة .

فالمسيح عليه السلام ـ لو صحت العبارة ـ وافق على اجراء موقت تقتضيه ضرورة الواقع وطبيعة الدعوة المرحلية .

واذا كانت دعوة الانبياء فى جوهرها واحدة فان اول فرض الجهاد فى الاسلام كان اذنا وليس امرا " اذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير " -٢٢/٣٩- وذلك ان القلة المسلمة فى مكة كانت تطمح فى الثأر لنفسها من الاضطهاد المرير الذى تلقاه من جبابرة مشركى قريش ، كأن تغتال بعض المضطهدين مثلا ، او تسلبهم شيئا من اموالهم وراحتهم ، واستأذنوا الرسول صلى الله عليه وسلم فى ذلك فكان الامر من الله بكف اليد ولذلك اجابهم الرسول صلى الله عليه وسلم : " إنى لم أومر بهذا " (١٥) وذلك كى تظل الدعوة سائرة فى منهجها المرسوم لا تستفزها تحركات الاعداء للايقاع بها وابادتها فى مهدها .

ولو قدر للمسيح عليه السلام أن تبلغ دعوته من القوة ما بلغت الدعوة الاسلامية عند الاذن بالجهاد لاذن لقومه بأن يرفضوا دفع الجزية لقيصر بل لامرهم بجهاد الرومان واشهار عداوتهم .

وبذلك يتضح أنه حتى فى حالة ثبوت العبارة فانها ذات مدلول جزئى موقت فى مسألة فرعية ، ولا يجوز ان يستنبط منه قاعدة أبدية عامة يقضى تطبيقها الى اهمال شريعة الله ، والتخلى عن اقامة دينه فى واقع الحياة ، واقرار احكام الطاغوت .

---

(١٥) انظر تفسير ابن كثير : ٣/٢٢٥ ، ١/٥٢٥ .

٢ـ " مملكتى ليست من هذا العالـم "

بقطع النظر عن صحة نسبة هذه العبارة الى المسيح عليه السـلام او عدمها نجد أن الكنيسة فهمتها فهما خاصا ، وجعلت هذا الفهـم منهجا وأصلا من أصول عقيدتها تقاوم بها الفطرة البشرية والعقل السليـم والتصور الايمانى المستقيم .

فهمت الكنيسة من قول المسيح " مملكتى ليست من هذا العالـم " ان كان قالها — ان الدنيا والاخرة ضرتان متناحرتان وضدان لايجتمعـان : الدنيا مملكة الشيطان ومحط الشرور والاثام ، وعمل الانسان فيها لتحسيـن او اشاعة المعاشية ومحاولة تحقيق القسط الملائم من السعادة والرفاهيـة والتمتع بطيبات وخيرات الكون : كلها اعمال دنسه يمليها الشيطان ليصرف الانسان عن مملكته المسيح الخالدة " الاخرة " والفقر وشظف العيش — حسب المفهوم الكنسى — هما مفتاح الملكوت الضامن ، وتنسب الاناجيل الى المسيـح قوله " ان مرور جمل من ثقب ابره ايسر من ان يدخل غنى الى ملكوت الله " (١) ومقتضى ذلك لايسأل الانسان الله شيئا من متاع الدنيا او خيراتها العاجلـة بل يقتصر على ماطلبه المسيح حسب رواية الاناجيل " خبزنا كفافنا " (٢)

والانسان — حسب هذا المفهوم — يولد موصوما بالخطيئة الموروثـة ويدخل الى الدنيا دخول المجرم الى السجن ، وكما ان اباه اكل من الشجرة فعوقب بالطرد من الجنة وقضى عليه بالحرمان والنكد ، فكذلك اذا تمتـع بطيبات الدنيا وملاذها فسيعاقب بحرمانه من نعيم الملكوت .

اذا كان هذا هو حال الدنيا وحال الانسان فيها ففيم العناء لاصـلاح ماوجد بطبيعته فاسدا وماجدوى تقويم ماخلق من أصله معوجا ؟ ليتحكـم الجبابرة فى الناس وليستعبدوهم وليعيثوا فى الكون كما يريدون فسوف يحاسبهم المسيح يوم الدينونه ! وليجمع الناس المال ويتمتعوا بالحياة الدنيا ويتزوجـوا وينجبوا فسوف يحرمهم ذلك من الدخول فى ملكوت الله والفوز فى الملاء الاعلى .

---

(١) متى : ١٩/٢٥ .
(٢) متى : ٦/١٢ .

اما المسيحى الكامل الايمان فماله ولهذه الامور ؟ أليس كل همه الخلاص من هذا المأزق ، مأزق وجوده على هذه الارض فى مملكة الشيطان ؟

هكذا استخلصت الكنيسة من تلك العبارة واشباهها مفهوما سلبيا ضيقا للحياة الدنيا وبالتالى لمهمة الدين فيها ، يائسة من امكان اقامتها على الحق والعدل الالهى ، فحرفت المسيحية من عقيدة شاملة ذات منهج ربانى كامل، نزلت لتغيير الواقع الجاهلى المنحرف الذى يعيشه الناس واقامة واقع جديد تحكمة الشريعة المنزلة الى نظرة بوذية قاصرة للدنيا، مشفوعة بآمال واحلام ومرتقبة فى الاخرة ، ورأت ان تنظيم شوءون الدولة وتقويم النظم السياسية والاقتصادية واصلاح الاوضاع الاجتماعية ليس من دينها فى شئ لان مملكة المسيح ليست من هذا العالم .

ولا يعنى هذا ان الكنيسة لم تمارس سلطات سياسية او نفوذا اجتماعية فقد كان منها مالم يكن من أعتى القياصرة (٣) لكن هذه الممارسة تظل محدودة بنطاق المطامع الشخصية لرجال الدين ، وكانت الرغبة فى اشباع هذه المطامع وليست الرغبة فى اقامة دين الله وشرعه هما الدافع من ورائها ، فكان البابا يهمه بالدرجة الاولى أن يتولى تتويج الملوك ويحصل منهم على الضرائب والجنود ولا يسمح بادنى تساهل فى ذلك ، اما حكمهم بغير ماانزل الله فلا شأن له به لان ذلك من اختصاص قيصر ولان مملكة المسيح ليست من هذا العالم . والواقع ان هذه العباره ـ كسابقتها ـ لاتنهض دليلا لما زعمته الكنيسه بل ان لها ان صحت معنى آخر يوضحه السياق ، وهاهو سياقها كما ورد فى انجيل يوحنا .

" دخل بيلاطس أيضا الى دار الولاية ودعا يسوع وقال له : أنت ملك اليهود ؟ اجابة يسوع : أمن ذاتك تقول هذا ام آخرون قالوا لك عنى ؟ اجابه بيلاطس : العلى أنا يهودى ؟ امتك وروءساء الكهنة اسلموك لى ماذا فعلت اجاب يسوع مملكتى ليست من هذا العالم لو كانت مملكتى من هذا العالم لكان خدامى يجاهدون لكيلا أسلم لليهود ولكن الآن ليست مملكتى من هنا " (٤)

---

(٣) انظر الباب الثانى : فصل طغيان الكنيسة
(٤) ١٨ : ٣٤ ـ ٣٧ .

إن القضية لتبدو واضحة العيان : لقد دبر اليهود مكيدة اخرى حيث رأوا انه يمكن ايغار صدر " بيلاطس" على المسيح بلتفيق تهمة ضده مفادها انه يدعى انه ملك على اليهود وزعيم سياسى يهدف الى استقلال أمته عن الاستعمار الرومانى والتبعية لقيصر ، وهى تهمة كفيلة بتعرض المسيح ودعوته لاقسى العقوبات .

تظاهر اليهود بالنصح للحاكم الرومانى والحدب على دولته فحملوا المسيح اليه موجهين اليه هذه التهمه . حينئذ وقع بيلاطس بين تيارين نفسيين : تيار النخوة الوطنية الرومانية ، وتيار التعقل والروية الذى يبعثه فى نفسه علمه بخبث طويه اليهود من جهة، وتيقنه من براءة المسيح من جهة اخرى. لذلك تردد كثيرا فى الامر وهمّ اخيرا بأن يطلق المسيح فصرخ اليهود قائلين : " ان اطلقت هذا فلست محبا لقيصر . كل من يجعل نفسه ملكا يقاوم قيصر " (٥) ولما رأى اصرارهم على صلب المسيح دفعه اليهم قائلا: ان لكم شريعة تحاكمون إليها ابناء شعبكم فخذوا ملككم واصلبوه وفق شريعتكم، فصرخوا قائلين اصلبه أنت اما نحن فـ " ليس لنا ملك الاقيصر " (٦) واخيرا نجحت المكيدة ــ بل على الصحيح : هكذا ظن اليهود .

ذلك موجز القصة كما رواها انجيل يوحنا ، وخلال التحقيق مع المسيح وردت هذه الكلمة عنه " مملكتى ليست من هذا العالم " ــ كما يقول الانجيل ــ وهو ان قالها فانما كان يريد ان يقول لبيلاطس: لست ملكا من النوع الذى تتصوره انت واليهود على طراز قيصر وكسرى، فان الملك الذى تتخيلونه أنتم بمعنى العزة والمجد العريض والشرف الباذخ ليس حظى منه فى هذه الدنيا وانما هو عند الله فى دار كرامته الخالدة ، وما دمت لست طامعا فى مناصبكم الدينوية ومظاهركم الكاذبة فما الذى يحملكم على تجريمى وبأى حق تدينوننى ؟ .

---

(٥) يوحنا : ١٩/١٢ .

(٦) يوحنا : ١٩/١٥ .

لم يقل المسيح ولم يرد أن يقول : انني بعثت الى الضعفاء ، والعجزة لاعظهم فى الكنائس ولاعمر بهم الاديرة ، وتعاليمى ليست سوى طقوس روحانية لاعلاقة لها بالحياة ـ كما فهمت الكنيسة ، فقد اعلن دعوته صريحة على الملاء " لاتظنوا انى جئت لالقى سلاما على الارض ، ماجئت لالقى سلاما بل سيفا " (٢)

ولم يقل كما قال اليهود ليس لى ملك الا قيصر، ولو قال ذلك أو شيئا منه لربما سلم من الاذى وبرئ من التهمه ، لكن حاشا أن يقول ذلك وهو رسول الله الذى ارسله ليهدم كل سلطان لغير الله فى الارض ومهما ظل عاجزا عن هدمه فلن يقر ويعترف به .

ومع ذلك فقد كان يعلم من الله ان نهايته قد اوشكت وانه لن يكون له سلطان فى هذه الحياة الدنيا ، ولذلك لم يأمر احدا من اتباعه بالدفاع عنه ، بل امر رجلا منهم سل سيفه ان يغمده . وقال ذلك لبيلاطس صريحا : " لو كانت مملكتى من هذا العالم لكان خدامى بيجاهدون لكيلا اسلم الى اليهود ، ولكن الان ليس مملكتى من هنا " .

وهكذا نرى كما قد رأينا ان الكنيسة تعمد الى عبارات تنسبها الاناجيل الى المسيح قيلت مجازا أو وردت فى ظروف موقته وملابسات خاصة لتقرر منها قواعد أصوليه تؤسس عليها دينها المحرف دون مراعاة لمنطق الاستدلال ومقتضى التحقيق العلمى .

---

(٢) متى : ١٠ : ٣٥ .

الفصـــل الثانـــي
البدع المستحدثة في الدين النصراني
(توطئـــه)

أدى التحريف المتعمد لنصوص الوحى المسيحى والتأويلات البعيـــدة لاعمال المسيح واقواله تلك التى فتحت الكنيسة لها الباب على مصراعيه الـــى استمراء وتسويغ التصرفات الخاطئه التى تلت ذلك فيما بعد ، ولما كانت تحريفات الكنيسة تخبطات عشوائية لاترتكز على قواعد محددة وليس لها ضوابط رادعـــة فقد ظل المجال فسيحا لاضافات اكثر وثغرات اعمق ، وكان للمطامع الدنيويه والرغبات الشخصية الفضل الاكبر فى دفع الموجة قدما وتوجيهها كمايراد .

يضاف الى ذلك الحماقات التى ترتكب بطريق السذاجة والبله من بعـــض المنتسبين الى الدين ولاتجد من ينكرها او يحاصرها فتصبح مع مرور الزمن طقوسا وشعائر دينيه .

كل ذلك تعرضت له النصرانيه فاستحقت ان توصم بانها ديانة تركيبيـــة أو بوتقه انصهر فيها عقائد وخرافات وآراء متباينه شكلت دينا غير منســـق ولا متجانس .

ونظرا لصعوبة التمييز بين الصحيح من الزائف والاصلى من المبتدع فـــى الدين النصرانى فقد تباينت وجهات نظر النقاد الغربيين وتباعدت شقة الخلاف بينهم ، فغالى بعضهم الى حد التصريح بأن النصرانية ديانة وضعية أرقـــى تكوينا وأدق تنظيما من الديانات السابقة التى ابتكرها الانسان بزعمهم ـ منـــذ فجر التاريخ ، وان طقوسها وشعائرها هى امتداد للطقوس الطوطمية والشعائـــر الوثنيه التى كانت سائدة بين القبائل الهمجية القديمة .

وبالمقابل تعصب آخرون ـ لا سيما ذوو الميول الدينية ـ للرأى القائـــل بأن الدين النصرانى مكتملا دين سماوى على الحقيقة وان كل مافى الاناجيـــل وحى صادق وأن اعمال الكنيسة مشروعة يقرها ويجليها المسيح فليس شىء منهـــا يستحق ان يوصف بأنه بدعة محدثه او اضافة خاطئة. وتظل الكلمة الفصل فى الموضوع كما هى دائما فى القرآن الكريم الذى نزل مهيمنا على ماقبله من الكتب ويظـــل الرأى الذى يصح أن يوصف بأنه موضوعى ونزيه فى هذه المسألة واشباهها ـ مـــن

نصيب الباحث المسلم وحده •

لقد سبق أن تحدثنا عن تحريف المسيحية ـ عقيدة وشريعة ـ والتحريف في ذاته بدعة خطرة ، لكن الامر لم يقتصر على تحريف ما هو موجود بالفعل بل انتقل الى احداث مالم يكن وابتداع تعاليم وضعية أُلصقت بالمسيحية وأُدخلت في صلبها وربما كانت بدعة رجال الدين ـ كما يسمون ـ أبعد البدع اثرا لان البدع الاخرى لم تكن لتنمو لولا أن رجال الدين هم الذين ابتدعوها واقروها واضفوا الشرعية عليها • لذلك سنبدأ بالحديث عن هذه البدعة ثم نعقب ببعض البدع الاخرى لتكون نماذج وامثلة شاهدة على ما نقول •

١ـ رجال الدين " الاكليروس "

ترى النظرة الجاهلية للتاريخ المتأثرة بنظرية التطور ان حياة البشر الدينية والاجتماعية مرت بثلاث مراحل رئيسية :

١ـ مرحلة السحر والخرافة •
٢ـ مرحلة الديـن •
٣ـ مرحلة العلـم •

وفي المرحلة الاولى كان الفكر البشري يعيش ادنى اطواره واحطها وكان الانسان آنذاك يرى ان حياته مرتبطة باسباب خفيه لايستطيع ادراكها فلجأ الى السحر والشعوذه اللذين يستطيعان التأثير بطريقة غير محسوسه • وكلما ازداد وعي الانسان بحياته وتفرعت آماله ومطامعه ازداد تعلقه بالسحرة والكهان لدفع الارواح الشريرة التي تسبب له الضرر في نظره ولجلب المنافع المعيشية المتنوعة ، ومرور الزمن اصبح السحرة والكهان يتمتعون باسمى المراكز الاجتماعية لدى الهمج فآلت اليهم زعامات القبائل وفرضوا سلطانا ماديا لانفسهم في اموال ونساء اتباعهم •

وبعد اكتشاف الزراعة واستقرار الحياة الانسانية بنيت المعابد والهياكل

وأصبح بعض الكهان ملوكا يتوارثون الحكم بينما ظل البعض الاخر يرأس المعابد والهياكل التى كانت تدر عليهم الشرف العريض والمال الوفير .

وبانتقال الانسان الى المرحلة الثانية " مرحلة الدين " بقيت رواسب موروثة عن المرحلة الاولى من أبرزها طبقة رجال الدين الذين ليسوا سوى امتداد للسحرة والكهان فى المرحلة السالفة وظلوا يقومون بالمهمة نفسها التى كان يتولاها اولئك من قبل ، والفارق الوحيد هو أن هؤلاء يستمدون سلطتهم من الدين بينما يستمدها اولئك من السحر . (١)

هذا هو التعليل الجاهلى لظهور رجال الدين وهو تعليل قاصر لانه ينكر الوحى الالهى ويغفل عامدا الفترات المضيئة التى تخللت التاريخ البشرى منذ البدء ، وهى الفترات التى شهدت مبعث الانبياء صلوات الله وسلامه عليهم " وان من أمة الا خلافيها نذير " ويقصر نظره على فترات الانحراف عن منهج الله تلك التى طغت عليها الخرافات والشركيات وتحول فيها اتباع الانبياء الى سدنة اوثان ومشعوذين وكهان .

والتصور الاسلامى للتاريخ ينظر الى الحياة البشرية على أنها خطان متوازيان خط شرق يمثل البشرية حين تهتدى الى الله وتسلك طريق الانبياء الذين يتعاقبون لردها الى جادة الطريق ، وخط آخر مظلم يمثل حزب الشيطان وفترات الضلال الذى طرأ على البشرية بعد أن كانت امة واحدة على الايمان ، والسمة العامة للتاريخ هى الصراع بين الهدى والضلال بين الحق والباطل .

ونحن لاننكر التشابه الظاهر بين رجل الاكليروس فى المسيحيه وبين السحرة والكهان فى العصور السابقة لكننا نرجع ذلك الى كون الطائفتين انحرفتا عن اصل صحيح واحد ولانمضى أبعد من ذلك ، اما التعليل المباشر الذى يوضح الاصل الحقيقى لرجال الدين فهو ان الله تعالى انزل التوراة على موسى عليه

---

(١) انظر مثلا : العقلية البدائية " تايلور " والغصن الذهبى " فريزر " وتكملة الموضوع فى مبحث علمانيه الاجتماع عند الحديث عن المدرسة الوضعية

السلام واحتفظ بها الاحبار من بعده ، فكان الامر يقتضى وجود عدد من ذوى الموهبة والعناية يتفرغون لحفظ الكتاب وشرح تعاليمه وتأويل مشكلة وايضاح احكامه كى يسير عليها الفرد والمجتمع ، وامر الله تعالى هؤلاء العلماء ان يكونوا ربانيين بما كانوا يعلمون الكتاب وبما كانوا يدرسون ونهاهم عن كتمان شىء منه او تحريفه او شراء شىء من عرض الدنيا به ، لكن الامر آل الى ان كثيرا من الاحبار اغرتهم المطامع الدنيوية الزائلة واشتروا بعهد الله وايمانهم ثمنا قليلا ، ضيعوا الامانه وفرطوا فى الحفظ وفرضوا لانفسهم سلطة دنيوية يأكلون اموال الناس بالباطل ويتقبلون القرابين ويفرضون على الناس العشور باسم الهياكل والبيع مستغلين منصبهم الدينى أسوأ استغلال .

وبذلك استحقوا المقت من الله وكانوا مثلا سيئا وقدوة طالحه لمن جاء بعدهم . ثم بعث الله عيسى ابن مريم عليه السلام ومعه الانجيل فحذر اتباعه ابلغ تحذير من اقتفاء اثر احبار اليهود الذين كان المسيح يسميهم " بائعى العهد ، اولاد الافاعى ، عباد الدنيا " ودعا قومه الى الاتصال المباشر بالله والتوبة اليه والخضوع له وحده دون سواه ، وكان يوحى الحواريين والتلاميذ " قائلا " رؤساء الامم يسودونهم والعظماء يتسلطون عليهم فلا يكون هكذا فيكم " (١)

لكن القسيسين والرهبان لم يكونوا افضل حالا من الاحبار فقد سلكوا الطريق نفسها وانصاعوا الى الدنيا مستعبدين اتباعهم المؤمنين ، وساعد وجودهم ضمن الامبراطورية الرومانيه على تثبيت مراكزهم وتدعيمها ، وذلك بانهم اقتبسوا من الانظمه والهياكل السياسية للدولة فكرة انشاء انظمة وهياكل كهنوتية ، وكما كانت هيئة الدولة تمثل هرما قمته الامبراطور وقاعدته الجنود ، كانت الهيئة الكنسية تمثل هرما مقابلا قمته البابا وقاعدته الرهبان ونتيجة لمبدأ فصل الدين عن الدولة رعت الامبراطورية الهرم الكنسى ولم تر فيه مايعارض وجودها فرسخ واستقر .

---

(١) متى ٢٠ : ٢٦

يقول المؤرخ الانجليزى ويلز فى معرض الفرق بين مسيحية المسيح ومسيحية الكنيسة ـ كما سبق ـ " ان تعاليم يسوع الناصرى تعاليم نبوية من الطراز الجديد الذى ابتدأ بظهور الانبياء العبرانيين وهى لم تكن كهنوتية، ولم يكن لها معبد مقدس حبسا عليها ولا هيكل ولم يكن لديها شعائر ولا طقوس وكان قربانها " قلبا كسيرا خاشعا " وكانت الهيئة الوحيدة فيها هيئة من الوعاظ وكان رأس مالديها من عمل هو الموعظة .

" بيد أن مسيحية القرن الرابع الكاملة التكوين وان احتفظت بتعاليم يسوع فى الاناجيل " كنواة لها " كانت فى صلبها ديانة كهنوتية من طراز مألوف للناس من قبل منذ آلاف من السنين وكان المذبح مركز طقوسها المنمقة والعمل الجوهرى فى العبادة فيها هو القربان الذى يقربه قسيس متكرس للقداس وله هيئة تتطور بسرعة مكونة من الشماسة والقساوسة والاساقفة " (٢)

وكان من الاسس الباطلة التى بنى عليها رجال الدين مبررات وجودهم مبدأ " التوسط بين الله والخلق " الذى يقتضى الا يذهب الانسان الى رجل الدين ليعلمه كيف يعبد الله بل ليعبد الله بواسطته، وليس للمذنب ان يتجه بتوبته الى الله طالبا الصفح والمغفرة بل عليه ان يتجه الى رجل الدين معترفا أمامه بذنبه ليقوم بالتوسط لدى الله فيغفر له . وحسب هذا المبدأ نصب رجال الدين انفسهم اندادا لله تعالى واوقعوا اتباعهم فى الشرك الاكبر " اتخذوا احبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله " وفوق كونه مبدأ باطلا شرعا ساقطا عقلا فانه ليس فى الاناجيل ـ رغم تحريفها ـ مايدل على ان المسيح أقره او دعا اليه .

وقد ترتب على هذا المبدأ آثار سيئة للغاية منها احتكار رجال الدين لحق قراءة وتفسير الانجيل، ثم مهزلة صكوك الغفرات وكذلك الانشقاقات الدينية المتوالية التى دمرت الحياة بصفة عامة، واخيرا كان هذا المبدأ احدى الحجج التى سلها ملاحدة القرن السابع عشر فما بعد فى وجه الاديان عامة والمسيحية خاصة وسيأتى تفصيل هذه الامور فى ابوابها ـ بأذن الله ـ . (٣)

---

(٢) معالم تاريخ الانسانية ٣ : ٧٢٠ .
(٣) انظر فصل طغيان الكنيسة من الباب الثانى " الطغيان الدينى "

يقول العالم الفرنسى المهتدى " ناصر الدين دينيه " .

" الوسيلة هى احدى كبريات المسائل التى فاق بها الاسلام جميع الاديان اذ ليس بين الله وعبده وسيط وليس فى الاسلام قساوسة ولا رهبان، ان هؤلاء الوسطاء هم شر البلايا على الاديان وانهم لكذلك مهما كانت عقيدتهم ومهما كان إخلاصهم وحسن نياتهم ، وقد ادرك المسيح نفسه ذلك ، ألم يطرد بائعى " الهيكل " ؟ غير ان اتباعه لم يفعلوا مثلما فعل ، واليوم لوعاد عيسى فكم يطرد من امثال بائعى الهيكل ؟

" كذلك ما اكثر البلايا والمصائب بل ما اكثر المذابح والمجازر التى يكون سببها هؤلاء الوسطاء سواء كانت بين العائلات وبعضها او بين الشعوب والشعوب وهم فى ذلك كله يصيحون : باسم مجد الله " (٤)

اما السلطة الكهنوتيه الطاغيه فانها تستند الى اسانيد واهية لابد من مناقشتها : لقد مر معنا وسيظل يتكرر ــ حقيقة تاريخية واضحة هى ان الافتراء على الله من جهة وسوء الفهم والخطل فى الاستنباط من جهة اخرى امران ملازمان للكنيسة ملازمة الظل لاصله ، وقد اخذ الله تعالى على اهل الكتاب هذه الاخطاء المتكرره " يقولون على الله غير الحق " يحرفون الكلم عن مواضعه " وجريا على ذلك تزعم الكنيسة ان المسيح قال لبطرس كبير الحواريين " انت بطرس وعلى هذه الصخرة أبنى كنيستى وابواب الجحيم لن تقوى عليها واعطيك مفاتيح ملكوت السموات فكل ماتربطه على الارض يكون مربوطا فى السموات وكل ماتحله على الارض يكون محلولا فى السموات " (٥)

فهمت الكنيسة من هذا القول أن المسيح يعنى أن السلطة الدينية المهمينة باسمه سترتكز فى الموضع الذى يموت فيه كبير الحواريين بطرس ومن هذا المركز تمد أجنحة نفوذها على العالم اجمع وتحكمه باسم المسيح ، وبما أن المسيح بطرس ــ كما تقول الكنيسة ــ مات فى رومه فان رومه هى قاعدة

---

(٤) اشعة خاصة بنور الاسلام : ٢٣ .
(٥) متى ١٦ : ١٩ ــ ٢٠ .

المسيح لحكم العالم وفيها مقر الكنيسة التى يرأسها ممثل المسيح ورسوله " البابا " المعصوم عن الخطأ !، وكل ماتقرره الكنيسة هذه هو عين الصواب اذ ان المسيح بواسطة الروح القدس هو الذى يملى عليها تصرفاتها ، ومادام انها تعمل باسم الله وتحل وتبرم حسب مشيئته بل هو يحل ويبرم حسب مشيئتها تعالى الله عنه ذلك علوا كبيرا — فطاعتها واجبه وقراراتها الزاميه لكل المؤمنين بالمسيح وليس على الاتباع الا الطاعة العمياء والانقياد الذى لايعرف جدلا ولانقاشا الذنب الذى لايغتفر هو ان تصادم اوامر الله التى هى اوامر الكنيسة بواسطة العقل البشرى ايا كان صاحبه ، والخارج على سلطة الكنيسة أو الناقد لقرارات مجامعها كافر " مهرطق " تحل عليه اللعنه والحرمان من دخول الملكوت مهما بلغت وجاهة رأيه بل مهما كانت سوابقة وخدماته للمسيحية وللكنيسة نفسها •

اما اذا كان المتمرد على الكنيسة وسلطتها حاكما أو شعبا فان الجيوش المقدسة ستسحقه باقدامها ارضاء للمسيح •

ذلك هو زعم الكنيسة الذى تحول الى واقع تاريخى عاد بأسوأ النتائج على اوروبا والعالم اجمع ، ونحن لانملك حياله الا موقفا واحدا صريحا هو موقف الانكار القاطع لنسبة هذا القول الى رسول الله المسيح عليه السلام •

ان هذا القول يخدش التوحيد الذى دعا اليه الانبياء كافة ويمس العقيدة الايمانية الصحيحة فى جوهرها ، وهو من نوع دعوى الاناجيل الزاعمة ان المسيح قال " انا ابن الله " سواء بسواء بل ان انجيل متى ليصرح بأن المسيح انما قال ذلك لبطرس مكافأة له على قوله " أنت المسيح ابن الله الحى ". ولقد قال الحق تبارك وتعالى " ماكان لبشر ان يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لى من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون ولا يأمركم ان تتخذوا الملائكة والنبيين اربابا أيأمركم بالكفر بعد اذ انتم مسلمون " آل عمران (٧٩ — ٨٠) فالانبياء دعاة التوحيد ورسل الحق لا يتصور ان تصدر عنهم دعوى فيها شائبة من شرك "

وحاشا ان يزعم احد منهم لنفسه شيئا من خصائص الالوهية فضلا عن أن يهبه لغيره •

والمسيح عليه السلام بشر رسول لايملك لنفسه ضرا ولا نفعا فكيف يجوز ان ينسب اليه انه يمتلك مفاتيح الملكوت التى لايملكها الا الله وحده ؟ واذا كنا ننكر جازمين ان يملكها المسيح فلا معنى للجدال فى كونه وهبها لبطرس او لم يهبها، وكون الكنيسة ورثتها من بطرس او لم ترثها ، فالخطأ هنا اساسي لايمكن اقراره كما لايمكننا ان نقر بأن المسيح اله •

ومع ذلك فليس فى استطاعة الكنيسة ان تقنع اى باحث علمى بصحة مزاعمها بطريق الادلة اليقينيه ، ولايستطيع أى انسان ذى عقل سليم ان يساير منطقها الاعوج ويؤمن بمسلماتها العمياء •

وقد سخر الكاتب الامريكى " جرين برنتن " من استدلال الكنيسة بهذه الفقرات وارجع السبب فى وقوع الكنيسة فى هذا الخطأ الى التشابه الشكلى بين لفظتى " بطرس " وصخرة " (٦)

واذا كان مفسرو الاناجيل المتعصبون لدينهم يصرحون بان آيات كثيرة فى الاناجيل لا اصل لها كما سبق فى مبحث التثليث ـ فمابالك بالنقاد والمفكرين من غير رجال الكنيسة فضلا عن المسلم الذى ينفرد بمعلومات يقينية لايتطرق الشك اليها •

ومن وجهة نظر التاريخ لايمكن تبرير الشناعات التى ارتكبتها الكنيسة والحروب الطاحنة التى عرقلت مسيرة الحضارة وازهقت ارواح الابرياء ، والاستبداد والطغيان اللذين مارسهما رجال الدين فى كل شؤون الحياة والوقوف المستمر فى صف الطغاة والظلمة ضد الشعوب البائسة ، ومحاكم التفتيش ، واحراق

---

(٦) انظر افكار ورجال هو: ١٩٣ ، وذلك ان اسم بطرس هو " Peter " ولفظ " Petr " يعنى صخرة • ومثله تماما فى تاريخ أوربا العصور الوسطى ١: / ١٠٧ •

العلماء ، وبقية الجرائم الاخرى لايمكن تبرير ذلك بأن المسيح اورث سلطانه وملكوته للسلطة الكهنوتية الغاشمة .

وبالاضافة الى ذلك لو راجعنا انجيل متى الذى اورد هذا الافتراء لوجدنا المسيح بعد ثلاث فقرات فقط من هذا القول يخاطب بطرس قائلا " اذهب عنى ياشيطان لانك لاتهتم بما لله لكن بما للناس " فكيف يتسق هذا الوصف وهذه التهمة مع الهبة السابقة والتكريم الذى لاحد له ؟ .

ثم لماذا تنظر الكنيسة الى هذا القول واضرابه وتغض الطرف عن مثل قول المسيح الصريح " رؤساء الامم يسودونهم والعظماء يتسلطون عليهم فلا يكون هكذا فيكم ، وقوله " احبوا اعداءكم احسنوا الى مبغضيكم باركوا لاعنيكم وصلوا لاجل الذين يسيئون اليكم " (٧)

---

(٧) لوقا : ٦ : ٢٨ .

ثانيا : الرهبانيــــة

للوجود الانسانى فى هذه الارض غاية سامية ارادها الخالق سبحانـــة منذ ان اختار الانسان للقيام بالمهمة العظمى " الخلافة فى الارض" وأنـــاط به مسئولية عمرانها بالصلاح والخير ، ولكيلا ينسى الانسان الغاية من وجـــوده ولتقوم عليه الحجة امام خالقه جعل الله تعالى تلك الغاية جزءا من تكوينــــــه مودعا اياها فى أعماق نفسه " فطرة الله التى فطر الناس عليها لاتبديل لخلـــق الله " وبعث اليه الرسل تترى ليكونوا نماذج حية لتحقيق هذه الغاية الايجابية والدعوة اليها •

لكن الناس ـ باغواء الشيطان لهم ـ يضلون الطريق فيغفلون عن غايـــة وجودهم منغمسين فى حدود المطالب الحيوانية العاجلة ، او يتصورون هــــذه الغاية على غير حقيقتها فتضل اعمالهم وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا •

ومن تصور هذه الغاية على غير حقيقتها الاعتقاد بتفاهة الحياة الدنيـا الى درجة اسقاط القيمة التى جعلها الله لها ، والغلو فى تهذيب النفـــس البشرية الى حد التضييق والتعذيب مع صرف النظر عن عمارة الكون الــــــتى هى جزء من الغاية العظمى •

وما الرهبانية التى عرفها الناس منذ القدم الا تطبيق عملى للتصـــــور السلبى الخاطئ الذى نشأ عن الجهل بطبيعة الانسان ومهمته فى الوجود •

ومع أن الرهبانية بدعة بشرية مشتركة بين اديان عديدة نلاحظ أن ـــ للرهبانية النصرانية ظروفا واسبابا بارزه تضافرت على ايجادها وتنميتها حــــتى اصبحت ابرز مظاهر الدين الكنسى على مر العصور •

اسباب الرهبانيـــة

١ـ عقيدة الخطيئة الاصلية الموروثة : احدى التعاليم الكبرى فى المسيحية المحرفة وموجزها أن آدم عليه السلام اكل من الشجرة " شجرة المعرفة ! " فعاقبة الله بالطرد من الجنة واسكنه التراب وظل الجنس البشـــرى يرسف فى اغلال تلك الخطيئة احقابا متطاولة حتى انزل الاله ابنــــه " تعالى عن ذلك علوا كبيرا " ليصلب فداء للنوع الا نسانى وليبيـــن للناس طريق الخلاص من هذه الخطيئة ، فاصبح لزاما على الانســـان أن يقتل نفسه لمنحها الخلاص ، يقول انجيل متى " من أراد أن يخلص نفسه يهلكها " (١)

ويقول انجيل لوقا " من طلب ان يخلص نفسه يهلكها ومن أهلكهـــا (٢) ولما كانت المرأة حسب رواية سفر التكوين ـ هى التى اغرت الرجـــل بالاكل من الشجرة فان النصرانية المحرفة ناصبت المرأة العـــداء باعتبارها اصل الشر ومنبع الخطيئة فى العالم لذلك فان عملية الخلاص من الخطيئة لاتتم الا بانكار الذات وقتل كل الميول الفطرية والرغبـــات الطبيعة والاحتقار البالغ للجسد وشهواته لاسيما الشهوة الجنسية .

ومن ناحية اخرى تولد عن الشعور المستمر بالخطيئة أن قنـــط كثيرون من رحمة الله فلا يكاد احدهم يقترف كبيرة حتى تظلم الدنيـــا فى عينيه ويثأر من نفسه بارغامها على الالتحاق باحد الاديـــرة والمترهبين فيه .

٢ـ رد الفعل المتطرف للمادية اليهودية الجشعة والابيقورية الرومانيـــة النهمة : فقد بعث الله عبده ورسوله المسيح بين ظهرانى فئتيـــن يربطهما رباط التهالك على الدنيا والتفانى فى سبيل ملذاتهـــا

---

(١) ١٦ : ٢٦ .
(٢) ١٧ : ٢٤ .

والعبودية الخانعة لشهواتها هما : قومه اليهود اجشع بنى الانسان واشدهم تعلقا وتشبثا بالحياة ، ومستعمروهم الروم الغارقون الى آذانهم فى مستنقع الحياة البهيمية واوكار الشهوات الدنسة ، فكان المسيح عليه السلام ـ بأمر الله ـ يعظهم بابلغ المواعظ ويذكرهم بالاخرة اعظم تذكير ويضرب لهم الامثال المتنوعة ويقص عليهم القصص المؤثر، كل ذلك لكى يرفعهم من عبودية الدنيا الى عبادة الله ويفتح عيونهم على ماينتظرهم فى العالم الاخر من الاهوال فيحسبوا له الحساب . وآمن بالمسيح قوم تأثرت انفسهم واتعظت قلوبهم بما سمعوا منه لكنهم مع مرور الزمن ورد فعل منهم للضغط المادى عليهم، غلوا واشتطوا حتى خرجوا عن حدود ما يأمرهم به الوحى وتمليه الفطرة السوية ، ونسبوا الى المسيح انه امر الغنى يتجرد من امواله ويحمل الصليب ويتبعه وقال " مرور جمل من ثقب ابرة أيسر من ان يدخل غنى الى ملكوت الله " (٣) وانه اوصى تلاميذه قائلا :ـ " لاتقتنوا ذهبا ولافضة ولانحاسا فى مناطقكم ولامزودا للطريق ولا ثوبين ولا احذية و لاعصا " (٤)

٣ـ الاثر الذى خلفته الفلسفات والوثنيات التهربية القانطة :

كان العالم فى العصر الواقع بين وفاة المسيح وبعث محمد صلى الله عليه وسلم يعيش فترة من انقطاع الوحى والمتعطش الى دين حقيقى لم تستطع المسيحيه المحرفة ان تسدها فاستبدت الحيرة والضلال بكثير من ذوى التفكير العميق والاحساس المرهف فابتكروا او اعتنقوا فلسفات تنم عن التذمر والتهرب من الحياة وتقوم على التأمل والاستغراق فى عالم ماوراء المادة وخير مثال لذلك الفلسفة الرواقية .

---

(٣) مرقص ١٠ : ٢٢ ومتى ١٩ : ٢٥

(٤) متى ١٠ : ١٠ ـ ١١ ، ومثله لوقا ٩ : ٤ ـ ١٠ .

وكان الى جانب ذلك وثنيات قاتلة تقهر الجسد على حساب الروح وتقدس اليأس والتقشف كالبوذيه والبرهمية . ولما كان بولس ـ محرف المسيحية الاكبر ـ مطلعا على هذه الفلسفات والوثنيات متأثرا بآرائها فقد لقح بها ديانته الوضعية وأدخلها فى صلب مسيحيته ثم توارثها الاتباع من بعده ، ومن اقتباسات بولس النظرة المتشائمة الى الحياة الدنيا ومتاعها .

وقد أثرت هذه الاعتقادات وما اقتبسته المسيحية المحرفة منها فى رواج الرهبانية وشيوعها فى القرون التى تلت المسيح " " يقول صاحب معالم تاريخ الانسانية " :ـ

" كانت الاديرة موجودة فى العالم قبل ظهور المسيحية ، وفى الفترة التى الم فيها الشقاء الاجتماعى باليهود قبل زمان يسوع الناصرى كانت طائفة من النساك الاسينيين تعيش منعزلة فى مجتمعات وهبت نفسها لحياة تقشفية من الوحدة والطهر وانكار الذات . كذلك انشأت البوذية لنفسها مجتمعات من رجال اعتزلوا غمرة الجهود العامة والتجارة فى العالم ليعيشوا عيشة التقشف والتأمل "

" ونشأت فى زمن مبكر جدا من تاريخ المسيحية حركة مشابهة لهذه تتنكب مايغمر حياة الناس اليومية من منافسة وحمية وشدائد ، وفى مصر على وجه الخصوص خرجت حشود كبيرة من الرجال والنساء الى الصحراء وهناك عاشوا عيشة عزلة تامة قوامها الصلوات والتأملات وظلوا يعيشون فى فقر مدقع فى الكهوف او تحت الصخور على الصدقات التى تقذفها اليهم الصدفة من اولئك الرجال الذين يتأثرون بقداستهم " (٥)

٤ ـ الاوضاع الاجتماعية القاسية :

كان المجتمع الرومانى مجتمعا طبقيا ظالما تكدح فيه قطاعات ومجموعات كبيره لصالح افراد قلائل وكان سكان المستعمرات خاصة يعانون البؤس

---

(٥) ويلز ٣ : ٧٣٠ ، ٧٣٢ ، وانظر حياة المسيح للعقاد ص ٤٦ .

وشظف العيش الى جانب الظلم والطغيان فقنط كثيرون من الحياة ورأوا ان خير وسيلة للتخلص من خدمة الاسياد والحصول على العيش ولو كفافا هى دخول الاديرة حيث يُنفق عليهم من تبرعات المحسنين واوقاف الكنيسة ، ويذكر صاحب كتاب قصة الحضارة ان " الالاف من الشباب كانوا يدخلون الاديرة فرارا من الخدمة العسكرية " التى فرضها الرومان " (٦)

نظام الرهبانية :

يتضمن نظام الرهبانية شروطا لابد من تحقيقها فى الراهب منها :

١ـ العزوبة : أهم شروط الرهبانية اذ لامعنى للرهبانية مع وجود زوجة ، ومعلوم أن المسيح عليه السلام لم يتزوج. وينسب انجيل متى الى المسيح قوله " يوجد خصيان خصوا انفسهم لاجل ملكوت السموات من استطاع ان يقبل فليقبل " (٧) على ان التنفير من المرأة وان كانت زوجة واحتقار وترذيل الصلة الجنسية وان كانت حلالا من اساسيات المسيحية المحرفة حتى بالنسبة لغير الرهبان ، يقول " سان بونافنتور " احد رجال الكنيسة :

" اذا رأيتم امرأة فلا تحسبوا انكم ترون كائنا بشريا بل ولا كائنا حيا وحشيا وانما الذى ترون هو الشيطان بذاته والذى تسمعون هو صفير الثعبان " (٨)

وكان من المشاكل المستعصية على الكنيسة مشكلة زواج رجال الدين غير الرهبان او تسريهم و " كانت الكنيسة منذ زمن بعيد تعارض زواج رجال الدين بحجة أن القس المتزوج يضع ولاءه لزوجه وابنائه فى منزلة اعلى من اخلاصه للكنيسة " وانه سيحاول ان ينقل كرسيه او مرتبته لاحد

---

(٦) ج ١٤ ص ١٥٠ .

(٧) ١٩ : ١٣ .

(٨) اشعة خاصة بنور الاسلام : ٢٩ .

ابنائه يضاف الى هذا ان القس يجب أن يكرس حياته لله ومن الانسان ، وان مستواه الاخلاقى يجب أن يعلو على مستوى اخلاق الشعب وان يضفى على مستواه هذه المكانة التى لابد منها لاكتساب ثقة الناس واجلالهم اياه " (٩) " بوجوب التبتل على رجال الدين وتطليق زوجات المتزوجين منهم وكان لهذا الامر آثار امتدت الى القرن السادس عشر وانتهت بانتصار الكنيسة " (١٠)

واذا كان هذا هو الحال مع غير الرهبان فلنتصور كيف تكون الحال معهم .

٢ـ التجرد الكامل عن الدنيا : ويعنى ذلك العزلة النهائية عن المجتمع وقطع النظر عن كل امل فى الحياة والرضا من الرزق بالكفاف ، وعدم الاهتمام بالمطالب الجسدية حتى الضرورى منها كالملابس والنظافة ، واذا كانت المسيحية المحرفة تأمر الافراد العاديين باحتقار الحياة وتعده من اولى الواجبات فبدهى أن تكون معاملة الراهب اقسى واعتى . يقول صاحب كتاب " المشكلة الاخلاقية والفلاسفة " :ـ

" لنقرأ هذا السفر الطريف (محاكاة المسيح) انه سفر من اكبر اسفار التبتل المسيحى ولنطلب بين صحائفه ومظاهر الحياة المسيحية بمعناها الصحيح ، وان ماتجده لمعبر عن الحال ابلغ عبارة :
احتقار اساسى لكل علم حتى ليشمل ذلك علم الالهيات ، احتقار اصيل لكل ماتسمية خيرات هذا العالم : الثراء والشرف الاجتماعى حتى المركز الوسط ، وانه لحتم علينا ان نستشعر دائما التواضع والندم وان نمارس عمليا على الدوام التضحية وكل مظهر تمليه الرحمة وان نجمع حواسنا فى صمت وفى هول تام وتأمل دينى ينسى المرء فيه كيانه ،يجب أن نقتل فينا كل ميل دنيوى ، يجب أن يموت عالم الرغبة ، يجب أن نبدأ من هذا

---

(٩) قصة الحضارة ١٤ : ٣٨٢ .
(١٠) تاريخ اوربه فى العصور الوسطى : ٢ : ١٥٢ .

العالم الزائل ماسوف يكون لنا الوجود الابدى "

ثم يعلق على هذه التعاليم قائلا : " عظمة وعلاء ولكنه قضاء قاس على الانسانيه وان التطبيق الكامل لمثل تلك المبادئ ليمكن ان يملاء الارض بأديرة فيها الرجال من جهة والنساء من جهة اخرى ينتظرون فى طهارة وتأمل الزوال النهائى للنوع الانسانى " (١١)

٣ـ العبادة المتواصلة : يفرض نظام الحياة الرهبانية على الراهب أن يكون فى حالة عبادة مستمرة يمليها عليه الاب ، ولا يستطيع التردد فى الطاعة بل عليه ان يجهد نفسه ويرهقها ويكلفها مالاتطيقه من الصلوات والصيام والتراتيل والترانيم وسائر الطقوس واذا سئم من ذلك او قصر فى شىء منه فان للنظام عقوباته الرادعة ولنأخذ نموذجا لذلك تعاليم القديس " كولمبان " الذى اسس الاديرة فى جبال الفوج بفرنسا ، من تعاليمه "يجب أن تصوم كل يوم وتصلى كل يوم وتعمل كل يوم وتقرأ كل يوم ، وعلى الراهب أن يعيش تحت حكم أب واحد "

" ويجب أن يأوى الى الفراش وهو متعب يكاد يغلبه النوم وهو سائر فى الطريق " " وكانت العقوبات صارمة أكثر ماتكون بالجلد : ستة سياط اذا سعل وهو يبدأ ترنيمة او نسى ان يدرم اظافره قبل تلاوة القداس او تبسم اثناء الصلاة او قرع القدح باسنانه اثناء العشاء الربانى .

" وكانت اثنا عشر سوطا عقاب الراهب اذا نسى ان يدعو الله قبل الطعام ، وخمسون عقاب المتأخر عن الصلاة ومائة لمن يشترك فى نزاع ومئتان لمن يتحدث من غير احتشام مع امرأة ، واقام كولمبان نظام الحمد الذى لاينقطع فقد كانت الاوراد يتلوها بلا انقطاع ليلا ونهارا طائفة بعد طائفة من الرهبان " يوجهونها الى عيسى ومريم والقديسين " (١٢)

---

(١١) ص: ١١٥ ، ولم يذكر المؤلف اسم كاتب السفر وقد علمت بعد البحث انه الراهب اوغسطين انظر سلسلة تراث الانسانيه : ٢/٦٤٩ .

(١٢) قصة الحضارة ١٤ : ٣٦٥ .

٤ ـ التعذيب الجنونى :

لم يقتصر الامر على ماذكر بل ـ كما هى طبيعية البدع ـ تجاوز ذلك الى تصرفات جنونية تشمئز لها الفطر السليمة ابتدعها بعض الرهبان ليعبروا عن قوة ايمانهم وعمق اخلاصهم لمبدئهم " وروى المؤرخون من ذلك عجائب فحدثوا عن الراهب ماكاريوس انه نام ستة اشهر فى مستنقع ليقرض جسمه العارى ذباب سام. وكان يحمل دائما نحو قنطار من حديد وكان صاحبه الراهب يوسيبيس يحمل نحو قنطارين من حديد وقد أقام ثلاثة أعوام فى بئر نزح ، وقد عبد الراهب يوحنا ثلاث سنين قائما على رجل واحدة ولم ينم ولم يقعد طوال هذه المدة فاذا تعب جدا اسند ظهره الى صخرة وكان بعض الرهبان لا يكتسون دائما وانما يتسترون بشعرهم الطويل ويمشون على أيديهم وأرجلهم كالأنعام وكان اكثرهم يسكنون فى مغارات السباع والآبار النازحة والمقابر ويأكل كثير منهم الكلاء والحشيش وكانو يعدون طهارة الجسم منافية لنقاء الروح ويتأثمون عن غسل الاعضاء ، وازهد الناس عندهم وانقاهم ابعدهم عن الطهارة واوغلهم فى النجاسات والدنس ، يقول الراهب اتهينس : ان الراهب انتونى لم يقترف اثم غسل الرجلين طول عمره وكان الراهب ابراهام لم يمس وجهه ولا رجله الماء خمسين سنة ، وقد قال الراهب الاسكندرى بعد زمان متلهفا : وا اسفاه لقد كنا فى زمن نعد غسل الوجه حراما فاذا بنا الان ندخل الحمامات"[13]

وهناك "راهب منعزل اخترع درجة جديدة من الورع يربط نفسه بسلسلة الى صخرة فى غار ضيق " [14] واما القديس كولمبان فـ " كانت السناجب تجثم على كتفيه فتدخل فى قلنسوته وتخرج منها " [15] وهو ساكن .

نتائج الرهبانيـــة :

من سنن الله فى الكون ان كل مبدأ أو نظام لايساير الفطرة البشرية

(١٣) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين : ١٦٨ .
(١٤) معالم تاريخ الانسانية : ٧٣٢ .
(١٥) قصة الحضارة : ١٤ : ٣٦٥ .

فان مآله الى الخسران والفناء، ومصير أتباعه شقاء مطبق وضياع مرير ولا يستطيع احد ان يأتى بدين يوائم الفطرة الا خالقها جل شأنه ولذلك كان المبتدعون وواضعوا المذاهب البشرية اكثر من شئ اساءة الى الجنس البشرى .

وما من شك فى ان الرهبانية ليست من فطرة الانسان ولا من غايات وجوده بل هى على النقيض من ذلك ولهذا لم يأمر بها الله ولم يشرعها " ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم الا ابتغاء مرضاة الله فما رعوها حق رعايتها " فهى بدعة حتى بالنسبة للذين تطوعوا بالزام انفسهم بها مدفوعين بالحرص على رضا الله فما بالك بها بعد أن انخرط فى سلكها الفساق وطلاب الدنيا ؟

ان المرء لاتقع عينه على مؤلف من مؤلفات تاريخ الغرب فى عصورة الوسطى الا ويرى فيه مايشين ويلطخ الحياة الرهبانية من الفضائح الشنيعة والدعارة التى لاتضارعها دعارة مواخير الفساد .

يقول رئيس دير كلونى " ان بعض رجال الدين فى الاديرة وفى خارجها يستهترون بابن العذراء استهتارا يستبيحون معه ارتكاب الفحشاء فى ساحاته نفسها، بل فى تلك البيوت التى انشأها المؤمنون الخاشعون لكى تكون ملاذا للعفة والطهارة فى حرمها المسور ، لقد فاضت هذه البيوت بالدعارة حتى اصبحت مريم العذراء لاتجد مكانا تضع فيه الطفل عيسى " (١٦)

لقد ادى التزمت والغلو فى الدين ومغالبة الطبع السوى والفطرة السليمة الى نتيجة عكسية تماما . واصبحت الاديرة مباءات للفجور والفسق تضرب بها الامثلة فى ذلك ، وقد وصل الحال بنصارى الشرق — وربما كانوا اكثر حياء واشد تمسكا — الى حد ان المستهترين من الخلفاء والشعراء المجان كانوا يرتادون الاديرة كما يرتاد رواد الدعارة اليوم بيوت العهر وألّفوا فى ذلك كتبا منها كتاب " الديارات " المعروف لدى دارسى الادب العربى . (١٧)

---

(١٦) قصة الحضارة : ١٤٥ : ٣٧٢ .

(١٧) كتبه ابو الحسن الشابشتى ، وطبع مؤخرا بتحقيق : كوركيس عواد .

هذا بالنسبة للمترهبنين اما الفرد المسيحى العادى فقد ضعفت ثقته بالدين وتزعزعت فى نفسه القيم والاخلاق الدينية كيف لا وهو يرى خصيان الملكوت ومثال الطهر يغرقون فى الفجور وينالون من المتع الجسدية مالا يمكنه بلوغه • اما الغيورون منهم فقد اتخذوا ذلك ذريعة للانشقاق عن الكنيسة وتكوين فرق دينية جديدة لها أديرة خاصة تبدأ اول الامر نظيفة لكنها لاتلبث ان تعود فتسقط فيما سقط فيه اسلافها • كل ذلك كان فى الفترة التى لاتزال قبضة الكنيسة فيها قوية ونفوذها صلبا. لكن المرحلة التى شهدت ضعف سلطانها فيما بعد شهدت رد فعل طاغيا ضد اغلال الكنيسة وقيودها مما جعل بذور الفلسفات الاباحية والحركات غير الاخلاقية تنمو نموا مطردا وصح الرأى القائل بأن " المسيحية نفاق منظم كما اتهمتها اجيال عديدة من النقاد العقليين المرة تلو الاخرى " وانها " لم تكن عند اكثر الناس غير ستار رقيق يخفى تحته نظرة وثنية خالصة الى الحياة " (١٨)

هذا وقد ظلت رواسب الرهبانية متغلغلة فى أعماق النفسية الاوروبية حتى بعد أن فقد الدين مكانته فى النفوس ـ لاسيما مايتعلق بالمرأة والجنس وكان لذلك اثرهفى النظريات الهدامة الحديثة خاصة " الفرويدية " كما سيأتى فى مبحث علمانية الاجتماع والاخلاق.

---

(١٨) تاريخ العالم: ٤/ ٣٣٠ •

ثالثا : الاسرار المقدسة

فطر الله النفس الانسانية على الايمان بالغيب [1] ، وهو ما لا يستطيع الادراك الذاتى ان يكتشفه ومن هنا نشأ فيها الشوق الى المجهول والتشوق لمعرفته حتى ان كثيرا من الموضوعات والحقائق تكتسب الجاذبية والاعجاب ما دامت مجهولة فاذا انتقلت الى حيز الوجود فقدت ذلك ، ولا تستطيع النفس البشرية بمفردها ان تتلمس الخط الفاصل بين الغيب والشهادة بين المعلوم والمجهول بل لابد من الالتجاء الى الوحى الالهى لمعرفته وذلك هو الطريق السليم الوحيد ، لكن البشر يضلون فيلتمسون ذلك من طرق اخرى ويحاولون اشباع الرغبة الفطرية فى الايمان بالغيب والتطلع اليه منقطعين عن الوحى ، فيدفعهم الشيطان الى التعلق بعملائه من الكهنة والسحرة والمشعوذين ، وحينئذ يقعون فى الشرك الذى جاء الانبياء جميعا لمحاربته بكل ضروبه .

وقد وقعت البشرية فى هذه الغلطة منذ القدم وامتلاءت الوثنيات القديمة بالاسرار والاساليب الخفية والرموز الغامضة ، وغلط اتباع الانبياء غلطة اشنع باقتباسهم لاشياء من هذه الاسرار والرموز وادخالها فى دينهم وذلك ما حصل بعينه فى المسيحية المحرفة .

وللمسيحية اسرار كثيرة متعددة الاصول بعضها اغريقى وبعضها بوذى وبعضها منقول عن الشرائية ديانة بولس الاولى ، من هذه الاسرار ما يتعلق بامور العقيدة كسر الثالوث — وهو اكبر اسرار المسيحية واخصها — ومنها ما يتعلق بشؤون العبادة والطقوس كسر التعميد وسر العشاء الربانى وسر الاعتراف وسر الزيت المقدس وسر الصلاة الاخيرة للمحتضر وأمثالها .

---

(١) انظر فصل " التوازن " من خصائص التصور الاسلامى : ١٦١ .

ونستطيع ان نقول : ان الكنيسة تعمد الى تبرير كل طقوس من طقوسها يأباه العقل وتنفر منه النفوس بأنه " سر الهى " فكلمة " سر " كانت ثوبا فضفاضا يستر كل نقائصها ومخازيها ، وسلاحا فوريا يقاوم كل اعتراض عليها +

وقد سبق الكلام عن سر التثليث أما اسرار الطقوس فلنكتف منها بمناقشة سر واحد هو " سر العشاء الربانى " ليكون نموذجا لبقيتها •

العشاء الربانـــى

العشاء الربانى هو اهم عمل فى الطقوس المسيحية ويسمى ايضا " القربان المقدس " وقد ورد اصل مشروعيته فى انجيل متى كمايلى " وفيما هم يأكلـــون اخذ يسوع الخبز وبارك وكسرا واعطى التلاميذ وقال : خذوا كلوا ، هـــذا هو جسدى واخذ الكأس وشكر واعطاهم قائلا اشربوا منها كلكم لان هذا هـــو دمى الذى للعهد الجديد الذى يسفك من اجل كثيرين لمغفرة الخطايا " (١)

أما انجيل يوحنا فلا يتعرض لعشاء بعينه لكنه يذكر فى الاصحاح السادس ان اليهود طلبوا من المسيح آية لهم كالخبز الذى انزله الله على اجدادهـــم فقال لهم المسيح :

" انا هو خبز الحياة من يقبل إلىّ فلا يجوع ومن يؤمن بى فلا يعطـــش أبدا " ولما رأى دهشة اليهود من ذلك اكده بقوله " الحق الحق اقـــول لكم ان لم تأكلوا جسد ابن الانسان وتشربوا دمه فليس لكم حياة فيكم ، مـــن يأكل جسدى ويشرب دمى فله حياة ابدية وانا اقيمه فى اليوم الاخير لان جسدى مأكل حق ودمى مشرب حق من يسبأكل جسدى ويشرب دمى يثبت فى وأنــا فيه " (٢)

ويرى غوستاف لوبون ـ كغيره من النقاد العقليين ـ ان شعائر النصرانيـة ومنها العشاء المقدس بدعة منقولة عن الوثنية الميثرائية (٣) ويؤيد هذا الـرأى أن بولس " شاؤول اليهودى " كان مثرائيا او على الاقل متأثرا بالميثرائيـــة التى كان من شعائرها التضحية بالعجل المقدس (٤) ولذلك نرى أن بولـــس يكثر فى رسائلة من الحديث عن جسد المسيح وحلوله فى اتباعه ، ويورد قصـص

(١) ٢٦ : ٢٧ ـ ٢٩ .
(٢) ٣٦ ، ٥٤ ـ ٥٧ .
(٣) حياة الحقائق : ٦٥ .
(٤) انظر معالم تاريخ الانسانية : فصل "مبادىء اضيفت الى تعاليم يسوع" جـ ٣ .

الاصحاح الحادى عشر من رسالة الاولى الى اهل كورنثيوس (٥) مايشبه كلام متى السابق مع زيادة أن ذلك كان فى الليلة التى اسلم فيها المسيح ٠ على ان علم الاجتماع يرجع فكرة العشاء الربانى الى اصل قديم هو النظام الذى يعرف فى اصطلاحهم باسم الطوطمية " وهو نظام معقد غامض يحوى فيما يحوى قيام علاقة قرابة وصلة بين القبيلة والطوطم الذى يكون حيوانا او نباتا يحرم بموجبها صيده وتناوله الا فى مناسبات شعائرية معينه لكى يكسب الاكلون صفات مرغوبة يتوهمونها فى الطوطم ويعتقدون انه يجرى دمه فى عروقهم بتناوله فى هذه المناسبات (٦)

وعلى أية حال فقد كان المسيحيون الاوائل يقيمون وليمة تذكارية فى عيد الفصح قوامها الخبز والخمر اللذان يرمزان الى جسد ودم المسيح وذلك احياء لذكرى موته كما أوصى حسب رواية بولس " اصنعوا هذا لذكرى "

وقد كان كافيا ان تقف البدعة عند هذا الحد لولا أن الكنيسة جريا على عادتها فى التحريف وسوء الفهم والخلط بين الحقيقة والمجاز اضافت الى ذلك العقيدة المعروفة بعقيدة التحول او الاستحالة ، وهى وجوب الاعتقاد بأن متناولى العشاء يأكلون جسد المسيح بعينه على الحقيقة ويشربون دمه نفسه على الحقيقة أيضا. أما كيف يتحول الخبز والخمر الى جسد ودم المسيح فان ذلك " سر " لايجوز لاحد أن يسأل او يشكك فيه والا عوقب بالحرمان والطرد من الملكوت ٠

وظاهر أن عقيدة الاستحالة مما لايتردد العقل فى انكاره ونبذه ، اذ لايستطيع عقل سليم ان يتصور استحالة خبز وخمر الى لحم ودم فى حين أن الاكلين يتذوقون طعم الخبز والخمر العادى ، ثم ان جسد المسيح واحد

---

(٥) ٢٤ ـ ٣٠ ٠

(٦) انظر الغصن الذهبى : ١٢٣ ، ١٣٦ ٠

وموائد العشاء تعد بالالاف سنويا وفى اماكن متفرقة فكيف يتفرق جسده ودمه عليها جميعها ؟

واذا كانت الكنيسة تزعم ان الغاية من ذلك هو ان يدخل المسيح فى اجساد الا كلين فيتمتعوا الالوهية فهل تتحقق هذه الغاية بمجرد الاعتقاد بها ، وماجدوى هذه الوسيلة بل هذه الغاية اصلا ؟

ان الكنيسة استغلت بلاهة وسذاجة اتباعها ففرضت عليهم مثل هذه العقائد الغريبة المجوجه لكن الفطرة البشرية لابد ان تستيقظ مهما طالت غفلتها ، وذلك ماتم بالفعل فقد ادى اسراف الكنيسة فى الاستخفاف بعقول البشر ومعاندة الفطر الانسانية الى تلك الثورة العارمة ضد الكنيسة التى ابتدأت منذ اتصال اوروبه بنور الاسلام وانتهت بانهيار الكنيسة وفقدانها معظم نفوذها وهيمنتها فى القرن الماضى .

وقد كانت مسألة الاستحالة من الثغرات التى فتحت على الكنيسة ولم تستطع لها سدأ بما سببت من انشقاقات دينية ونقد مرير من المؤرخين والمفكرين ، وكان من اوائل المنكرين لها " ويكلف " (٧) المصلح الكنسى ، ثم تبنت ذلك حركة البروتستانت التى تزعمها " مارتن لوثر " وظهر بعد ذلك النقاد العقليون فسخروا من هذا الطقس اعظم سخرية وكان من روادهم الفيلسوف الفرنسى فولتير " (٨)

ويقول احد الباحثين المعاصرين عن العشاء الربانى : انه " مثال رائع لما يراه بعض المؤرخين افسادا للحقائق ، او على الاقل اضافة جاءت فى وقت متأخر " (٩)

---

(٧) تاريخ اوربا العصور الوسطى : ٢ : ٣٦٢
(٨) انظر سلسلة تراث الانسانية ٨ : ٨٥ .
(٩) افكار ورجال : ١٨٩ .

" رابعا : عبادة الصور والتماثيل "

شمل اقتباس النصرانية من الديانات والوثنيات المجاورة كل امور العقيدة والشريعة والشعائر كما شمل الذوق والاحساس والمظاهر العامه • فلم يكن شئ من عقائدها وطقوسها الا وعليه بصمات وثنيه واضحة يتجلى ذلك في التماثيل والصور التى لايخلو منها دير أو كنيسة رغم ان شريعة التوارة تحرم التصوير ونحت التماثيل وتعده من اعمال الوثنيين " سفر التثنيه " •

ونشأت عبادة الصور والتماثيل كأية بدعة اخرى ـ محدودة النطاق ، ثم نمت تدريجيا وانتشرت فى ارجاء واسعة لكنها لم تدخل فى صلب الديانة المسيحية بصفة رسمية الا فى مجمع نيقية الثانى كما سيأتى :

يقول " ول ديورانت "

" كانت الكنيسة اول امرها تكره الصور والتماثيل وتعدها بقايا من الوثنيه وتنظر بعين المقت الى فن النحت الوثنى الذى يهدف الى تمثيل الالهه ولكن انتصار المسيحية فى عهد قسطنطين وماكان للبيئة والتقاليد والتماثيل اليونانيه من اثر كل هذا قد خفف من حدة مقاومته هذه الافكار الوثنيه • ولما ان تضاعف عدد القديسين المعبودين نشأت الحاجة الى معرفتهم وتذكرهم فظهرت لهم ولمريم العذراء كثير من الصور ، ولم يعظم الناس الصور التى يزعمون انها تمثل المسيح فحسب بل عظموا معها خشبة الصليب حتى لقد اصبح الصليب فى نظر ذوى العقول الساذجه طلسما ذا قوة سحرية عجيبة •

" واطلق الشعب العنان لفطرته فحول الآثار والصور والتمثيل المقدسة الى معبودات يسجد لها الناس ويقبلونها ويوقدون الشموع ويحرقون البخور امامها ويتوجونها بالازهار ويطلبون المعجزات بتأثيرها الخفى •

" وفى البلاد التى تتبع مذهب الكنيسة اليونانية بنوع خاص كنت ترى الصور المقدسة فى كل مكان فى الكنائس والاديرة والمنازل والحوانيت وحتى اثاث المنازل والحلى والملابس نفسها لم تخل منها ، واخذت المدن التى

تتهددها اخطار الوباء او المجاعة او الحرب تعتمد على قوة مالديها من الاثار الدينية ، او على ماثيها من الاولياء والقديسين .. للنجاة من هذه الكوارث"(١)

تلك هى الصورة مجملة فى القرون المسيحية الاولى ولكن المد الاسلامى العظيم فى القرن الثامن الذى شمل معظم المعمورة احدث بتعاليمه التوحيديه الخالصة اثرا قويا فى البيئات الوثنيه المجاورة لاسيما دولة الروم النصرانية ، وبفضل هذا التأثير احس الغربيون بسخافة معتقداتهم وضحالة تفكيرهم مبهورين بما لدى المسلمين من عقيدة ناصعة وحضارة شامخة .

لذلك فقد قامت فى الغرب فى فترات متقطعة من تاريخه حركات معادية لهذه البدعة من اشهرها محاولة الامبراطور " ليو الثالث " الذى اصدر مرسوما يطلب فيه طمس الصور وازالة التماثيل واراد بذلك ان يزيل عن امته ودينها هذه الوصمة الشنيعة التى تظهره بمظهر النقص امام اعدائه المسلمين ، لكن الكنيسة رفضت ذلك وضجت الاديرة والكنائس وثار الشعب واتفق الكل على خلعه والمناداة بامبراطور آخر .

غير ان الحركة لم تمت بل ظل اوارها يستعر فاجتمع مجلس من اساقفة الغرب دعا اليه البابا جريجورى الثانى وصب اللعنة على محطمى الصور والتماثيل (٢)

وفى عهد احفاده عاد الصراع من جديد وظلت المسألة تتأرجح بين الحرمة والحل حتى دعت الامبراطورة " ايرينى " التى كانت معاصرة لهارون الرشيد رجال الدين فى العالم المسيحى الى عقد مجمع عام لبحث المسألة واتخاذ قرار حاسم حيالها فاجتمع مجمع نيقية الثانى سنة ٧٨٧ وحضرة ٣٥٠ أسقفا واتخذ القرار الاتى :ـ

" انا نحكم بان توضع الصور ليس فى الكنائس والابنيه المقدسه والملابس

---

(١) قصة الحضارة ١٤/١٥٤ وانظر قصة جزيرة صقلية فى الصفحات القادمة .
(٢) قصة الحضارة ١٤ .

الكهنوتيه فقط بل فى البيوت وعلى الجدران فى الطرقات لاننا ان اطلنا مشاهدة ربنا يسوع المسيح ووالدته القديسه والرسل وسائر القديسين فى صورهم شعرنا بالميل الشديد الى التفكير فيهم والتكريم لهم فيجب ان تؤدى التحية والاكرام لهذه الصور ، لا العبادة التى لاتليق الا بالطبيعة الالهية (٣)

وبذلك انتصرت وثنية الكنيسة على افكار معارضيها ردحا من الزمان ، وحسبت ان العبادة تعنى الركوع والسجود ولا شىء غير ذلك .

وبعد ذلك بقرابة ثلاثة قرون اتصل الغرب الوثنى بالشرق المسلم اتصالا اقوى عن طريق الحروب الصليبية فكان ذلك عاملا فعالا فى بعث الحركة المناهضة لعبادة الصور والتماثيل ونادى كثير من المصلحين الكنسيين بذلك وظهور الحركة الاصلاحية تزعم البروتستانت الحرب على الصور والتماثيل وحرمتها كنائسهم الا ان الغالبية الكاثوليكيه لاتزال تقدسها وتلعن محطميها .

وربما دهش المرء اذا علم ان تقديس الصور عادة غربية شائعة فى عصرنا الحاضر ليس فى الاوساط الدينيه فحسب بل فى الاوساط العامة وبعض المثقفين " (٤)

وبلغ الامر بصور المسيح وامه حد الابتذال والامتهان ، وكانت الطامة الكبرى فى الافلام السينمائيه حيث وصل السخف والاستهتار باحدى الشركات السويديه (وربما كانت يهوديه) سنة ١٣٩٧هـ الى انتاج فيلم عن حياة المسيح الجنسية " والغريب ان الدول الغربية اتخذت موقفا سلبيا تجاه هذه الفعله الشريرة بينما بعثت بعض الحكومات والمنظمات الاسلامية نداءات لايقاف الفيلم .

ولم يقتصر الامر على المسيح وامه بل ان الكنيسة تجرأت على البارى

---

(٣) محاضرات فى النصرانيه: ١٦٤ مع العلم بان عدد الاسقفه فيه (٣٧٧) لا كما ذكر ديورانت (٣٥٠)
(٤) وداعا ايها السلاح : ارنست همنغواى : ٤٧ .

جل شأنه وصورته كما تصور المخلوقين تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا "

يقول الاستاذ ناصر الدين دينيه :

" الدين الاسلامى هو الدين الوحيد الذى لم يتخذ فيه الاله شكلا بشريا أو ما الى ذلك من الاشكال اما فى المسيحية فان لفظ " الله " تحوطها تلك الصورة الادميه لرجل شيخ طاعن فى السن قد بانت عليه جميع دلائل الكبر والشيخوخه والانحلال فمن تجاعيد بالوجه غائره الى لحية بيضاء مرسلة مهملة تثير فى النفس ذكرى الموت والفناء ، ونسمع القوم يصيحون " ليحي الله " فلا نرى للغرابة محلا ولا نعجب لصيحتهم وهم ينظرون الى رمز الابدية الدائمة قد تمثل امامهم شيخا هرما قد بلغ ارذل العمر فكيف لا يخشون عليه من الهلاك والفناء وكيف لا يطلبون له الحياة ؟ كذلك " ياهو " الذى يمثلون به طهارة التوحيد اليهودى فهم يجعلونه فى مثل تلك المظاهر المتهالكة تراه فى متحف الفاتيكان ونسخ الاناجيل القديمة المصورة " (٥)

هذا وليس تصوير الاله انحرافا فى نظر الكنيسة فان احد علمائها يقرر " انه لا يمكننا ان نفهم الله الا عن طريق تصوره بالصورة البشرية " (٦)

ولنا بعد ذلك ان نتصور ما تحدثه هذه الوثنيه الساذجه فى نفس الانسان الغربى المثقف ومدى ما تنفره من الدين وتجعله فريسه الافكار الالحاديه المتخفيه بلباس " العلم والمعرفة "

بقى أن نعلم انه لم تكن عبادة الصور والتماثيل هى الاقتباسة الوثنية الوحيدة بل كانت الامم الاوربيه المتوحشة تدخل فى النصرانيه اسميا مع بقاء عقائدها وتقاليدها الوثنية بحالها وتتغاضى الكنيسة عن ذلك مقابل الخضوع لها ودفع الضرائب المستحقة فلم تكن تهدف الى هداية الناس بل الى بسط

---

(٥) اشعة خاصة بنور الاسلام : ٢٥ .
(٦) الله واحد أم ثالوث : ـ ١٤ .

سلطانها ونفوذها لاسيما وانها ليست مهتديه فى ذاتها .

ومن اوضح الامثلة على ذلك دخول الجزر البريطانيه فى المسيحيه فقد كان البريطانيون شديدى التمسك بوثنيتهم ودار بيتهم وبين الكنيسة صراع طويل ولما رأى البابا جريجورى ذلك " اصطنع اللين مع من بقى فى انجلترا من الوثنيين واجاز تحويل الهياكل الى كنائس بأن تحول عادة التضحية بالثيران فى يسر ولطف الى ذبحها لانعاشهم لمديح الله ، وبهذا كان كل ماطرأ على الانجليز من تغير ، هو تحولهم من اكل لحم البقر حين يحمدون الله الى حمد الله حين يأكلون لحم البقر " (٧)

---

(٧) قصة الحضارة ١٤ : ٣٦٨ .

خامسا : المعجزات والخرافـــات

تفتقر المسيحية المحرفة فى كثير من تعاليمها الى الاقناع العقلى والبرهان المنطقى لاثباتها نظرا لتنافيها مع الفطرة وبداهة التفكير لذلك اضطرت الكنيسة الى تعويض نقص بضاعتها من الادلة بادعاء الخوارق والمعجزات قاصدة التمويه على العقول الضعيفة واستغفال النفوس الساذجة ، وكانت خوارق الكنيســـة وشعوذتها تتراوح بين الرؤى المنامية ذات التهويل البالغ وبين التكهـــن المتكلف بالمغيبات وحوادث المستقبل ،وبين تحمل الاساليب واستجداء شـــتى الوسائل لشفاء الامراض المستعصية يتبع ذلك امور اخرى كتعليق التمائم والرقـــى والتمتمات المجهولة واستعمال اشارة الصليب وتعليق صور القديسين ، ومحاربـة الشياطين وطرد الارواح الشريرة وصد الكوارث والاوبئة واستنزال النصر فـــى الحروب وغير ذلك .

وكان من السهل على العقلية الاوربية الهمجية ان تتقبل هذه السخافـات وتصدق الكنيسة فى كل شئ بفضل الارث الوثنى الذى ظل متغلغلا فى أعماقها.

وفى القرون الاولى للمسيحيه كان معظم المعجزات يدور حول شخصيـــة المسيح وامه وشئ منها للرسل والتلاميذ ، لكن الكنيسة لم تقتصر على المعجزات الربانية الحقة بل نسج خيالها خوارق اخرى هى اخلاط واوهام يغلب عليهـــا عنصر التهويل وتتسم بطابع الاساطير الوثنية القديمة التى تخيلها شعراء اليونان وغيرهم .

ولنأخذ على ذلك مثلا " مولد عيسى " عليه السلام كما صوره يوحنا فـــى الاصحاح الثانى عشر من الرؤيا :

" ظهرت آية عظيمة فى السماء امرأة متسربلة بالشمس والقمر تحت رجليهـــا وعلى رأسها اكليل من اثنى عشر كوكبا وهى حبلى تصرخ متمخضه ومتوجعه لتلده و ظهرت آية اخرى فى السماء هوذا تنين عظيم احمر له سبعة رؤوس وعشـــرة قرون وعلى رؤوسه سبعة تيجان وذنبه يجر ثلث نجوم السماء فطرحها الـــى الارض والتنين وقف امام المرأة العتيدة ان تلد . حتى يتبلع ولدها متى ولدت ،

فولدت ابناً ذكرا ان يرعى جميع الامم بعصا من حديد واختطف ولدها الى الله والى عرشه والمرأة هربت الى البرية حيث لها موضع معد من الله لكي يعولوها هناك الفا ومائتين وستين يوما ، وحدثت حرب فى السماء ميخائيل وملائكته حاربوا التنين وحارب التنين وملائكته .

أما بطرس فيروى له رسالة " اعمال الرسل " هذه المعجزة :ـ

" صعد بطرس على السطح ليصلى نحو الساعة السادسة فجاع كثيرا واشتهى ان يأكل وبينما هم يهيئون له وقعت عليه غيبة فرأى السماء مفتوحة وانا ء نازلا عليه مثل ملاءة عظيمة مربوطة بأربعة اطراف ومدلاه على الارض وكان فيها كل دواب الارض والوحوش والزحافات وطيور السماء " (١)

اما فى العصور اللاحقه فقد اتسع نطاق المعجزات حتى اصبحت مكانة رجل الدين ـ وقداسته مرهونة بما يظهر على يديه من الخوارق وما يتعاطى من الشعوذات وكان باستطاعته ان يترقى فى منصبة بالقيام بأى عمل تجهل العقول الساذجه علته الحقيقية مدعيا ان ذلك هبة من الروح القدس له ، واذا كان التاريخ يذكر فزع الامبراطور " شارلمان " وحاشيته من الساعة التى اهداها اليه الرشيد ظانين ان بها قوى خفية من الجن والشياطين فمابالك بعامة الشعب من الفلاحين والرعاة .

ونظرا لكثرة الشواهد التاريخيه على ذلك فسنتجاوز القرون الوسطى الى العصر الحديث حيث نلمح الكثير من الخرافات الكنسية لاتزال تمارس نشاطها على اتباع الكنيسة فى العالم الغربى ذاته ، يقول فريزر :ـ

" معظم الفلاحين فى فرنسا لايزالون يعتقدون ان القسيس يملك على العناصر قوة خفية لاتقاوم وانه حين يتلو بعض الصلوات المعينه بالذات التى لا يعرفها سواه والتى لايحق لغيره ان يرتلها فانه يستطيع فى حالة الخطر

---

(١) صح : ١٠

الداهم ان يبطل لفترة معينة فعل القوانين الابدية للعالم الفيزيقى او حتى يقلبها تماما " (٢)

وفى مناطق اخرى يعتقد الناس " ان القسيس يملك القدرة على تشتيت العواصف وان لم يكن لكل القساوسه مثل هذه الملكة ولذا فانه حين يتغير راعى الكنيسة فى بعض تلك القرى يبدى اتباع الابرشية كثيرا من التلهف لمعرفة ما اذا كان الراعى الجديد يتمتع بهذه السلطة " كما يسمونها ، وعلى ذلك فمجرد ان تظهر ادنى بادرة بهبوب احدى العواصف الشديدة فانهم يخضعونه للاختبار فيطلبون اليه القيام ببعض الشعائر والتراتيل ضد الغيوم المتكاثفة فاذا جاءت النتائج محققة لامالهم ضمن الراعى الجديد لنفسه عطف اتباع الكنيسة واحترامهم " (٣) والا فالعكس بالعكس .

وهناك قداس خاص يستعمله القساوسه فى الاعمال الانتقاميه يتحدث عنه فريزر بقوله :

" لايقام هذا القداس الا فى كنيسة متهدمه او مهجورة حيث تنعق البوم وتمرح الخفافيش وقت الغسق وتأوى اليها جماعات الغجر فى الليل ، وحيث تقبع الضفادع البرية تحت مذبحها المدنس فهناك يأتى ذلك القسيس الشرير بالليل ومعه عشيقته الفاجرة الخليعة وحين ترسل الساعة اولى دقاتها معلنة الحادية عشرة يبدأ يهمهم فى تلاوة القداس ابتداء من آخره الى أوله بحيث يفرغ منه حين تبدأ دقات الساعة تعلن منتصف الليل وتقوم عشيقته بمساعدته فى ذلك اما القربان الذى يباركه فلابد ان يكون اسود اللون كما انه لايتناول النبيذ ولكنه يشرب بدلا منه بعض الماء من بئر سبق ان القيت فيها جثة طفل مات قبل تعميده ثم يرسم علامة الصليب ولكن على الارض وبقدمه اليسرى ويقوم باداء كثير من الاعمال الاخرى التى لايستطيع اى مسيحى ان يراها دون ان يصيبه

---

(٢) الغصن الذهبى : ٢٢٤ ــ ٢٢٥ .
(٣) الغصن الذهبى : ٢٢٦ .

العمى والصم والبكم بقية حياته " (٤)

وفى سنة ١٨٩٣م حدثت فى جزيرة صقلية واقعة تصور الموضوع ابلغ تصوير فقد كانت الجزيرة تمر بمحنه رهيبة بسبب الجفاف وكان الجدب قد استمر ستة اشهر متصلة وتناقصت كميات الطعام بسرعة وانتاب الناس ذعر شديد فجربوا كل الطرق المعترف بها للحصول على المطر ، خرجت جموعهم من منازلهم واحاطوا بالصور والتماثيل المقدسة يتوسلون اليها بترتيل الصلوات واضاءة الشموع فى الكنائس طيلة الليل والنهار وعلقوا على الاشجار سعف النخيل الذى سبق لهم ان باركوه فى " احد السعف " (٥) ونثروا فى الحقول الكناسة المقدسة " وهى التراب الذى كنسوه من الكنائس فى ذلك اليوم فلم يُجد ذلك شيئا ، وحملوا الصلبان على اكتافهم وساروا حفاة الاقدام عراة الرؤس وجلد بعضهم بعضا بالسياط ولكن دون جدوى .

واخيرا لجأوا الى القديسين وتجمعوا حول القديس فرانسيس الذى اعتادوا حسب اعتقادهم ـ ان ينالوا المطر ببركته فاقاموا له الصلوات والترانيم والزينات لكن جهودهم كلها ذهبت هباء فنبذوا معظم القديسين حتى انهم ألقوا بالقديس يوسف فى احدى الحدائق ليجرب بنفسه الحال التى وصل اليها الناس واقسموا ان يتركوه هناك فى الشمس حتى يأتيهم بالمطر ، وادادوا وجوه بعض القديسين الى الحائط كما يفعل المدرس بالتلاميذ الاشقياء ، وجردوا بعضهم من ملابسهم الفاخرة وقذفوهم باقذع السباب والشتائم اما القديس ميخائيل رئيس الملائكة ـ حسب عقيدتهم ـ فقد نزعوا اجنحته الذهبية ومزقوها ووضعوا مكانها أجنحه ورقية وفى بعض المناطق قيد الناس قس بلدتهم وتركوه عاريا واخذوا يهتفون اليه بغضب " المطر أو حبل المشنقة " . (٦)

---

(٤) الغصن الذهبى : ٢٢٧ .
(٥) يوم مقدس عندهم .
(٦) الغصن الذهبى : ٢٨٠ ـ ٢٨٢ .

ومن الخرافات التى ماتزال عالقة باذهان النصارى الى اليوم خرافة "تجلى العذراء" التى يثيرونها حينا بعد آخر (٧) كما ان هناك عادات غربية شائعة اليوم اصلها خرافات كنسية فمثلا التشاؤم من الرقم (١٣) أصله ان يهوذا الذى دل على المسيح هو التلميذ الثالث عشر للمسيح فكان ذلك مصدر شؤم للكنيسة واتباعها حتى انه عند ترقيم المنازل فى المدن الغربية يرفض بعضهم وضع هذا الرقم على منزله ويضع مكانة "١٢ ب" .

وهذا غير الخرافات الكنسية عن الكون والحياة التى سنعرض لها عند موضوع "علمانية العلم" وحينئذ سيتضح أثر هذه الخرافات بجملتها فى اثارة الصراع الذى دار طويلا بين الدين والعلم "أو "العقل والوحى" .

---

٧) أنظر قذائف الحق للشيخ الغزالى : ٤٨ فما بعدها .

" سادسا : صكوك الغفـــــران "

توجت الكنيسة تصرفاتها الشاذة وبدعها الضالة بمهزلة لم يعـــرف تاريخ الاديان لها مثيلا، وحماقة يترفع عن ارتكابها من لديه مسكة من عقـــل او ذره من ايمان، تلك هى توزيع الجنة وعرضها للبيع فى مزاد علنى وكتابـــة وثائق للمشترين تتعهد الكنيسة فيها بأن تضمن للمشترى غفران ماتقدم مـــن ذنبه وماتأخر وبراءته من كل جرم وخطيئه سابقه ولاحقه ونجاته من عذاب المطهر، فاذا ماتسلم المشتري " صك غفرانه ودسه فى محفظته فقد ابيح له كل محظـــور وحل له كل حرام : ماذا عليه لوزنا وسرق وقتل بل لوجدف والحد وكفر مـــادام الصك رهن يده ؟ اليس المسيح هو الذى منحه اياه والمسيح هو الـــذى يدين ويحاسب ؟ اتراه متناقضا الى هذا الحد : يمنح الناس المغفـــرة ثم يحاسبهم على الذنوب ؟

واذ قد اطمأن المشترى الى هذه النتيجة فقد بقى لديه ماينغص الفرحة ويكدر الغبطة ذلك ان والديه واقرباءه المساكين قد ماتوا وليس معهم صكوك .

لكن الكنيسة (الام الرؤوم لكل المسيحين) شملت الكل برحمتها واتمت الفرحة لزبونها فاباحت له ان يشترى لمن احب " صك غفران " وماعليه بعـــد دفع الثمن الا كتابة اسم المغفور له فى الخانة المخصصة فيغادر المطهر فـــورا ويستقر فى ظلال النعيم مع المسيح والقديسين .

اما الشقى النكد عديم الحظ فهو ذلك القن الذى لم يستطع ان يحصـــل من سيده الاقطاعى " المغفور له " على مايشتري به صكا من قداسة الاباء أو ـــ المريض المقتد الذى لايجد عملا يخول له الحصول على المغفرة ، او الفقيـــر المعدم الذى يعجز عن استدانة دينارين يشتري بهما جنات النعيم ، هـــؤلاء يظلون محرومين من هذه الموهبة مهما بلغت تقواهم وعظم حبهم للمسيح وتعلقهم بالعذراء .

تلك هى المهزلة او جانب منها فمن اين جاءت بها الكنيسة اذا كانـــت الاناجيل والرسائل خالية مما يدعمها او يدل عليها ؟

ان الاساس الذى يبدو ان هو الاصل هذه البدعة انبثقت عنه هو الفكرة الوثنية التى ادعاها رجال الدين " فكرة القداسة " وعن تقديس رجال الدين نشأت فكرة الاستشفاع بهم لدى الله لمغفرة الخطايا وظل الجهلة والسذج — يتوسلون الى القساوسة راجين الشفاعة والتقرب الى الله زلفى . فنتج عن ذلك ان تقرر المبدأ الذى اشرنا اليه سلفا " مبدأ التوسط بين الله والخلق" حتى اصبح حقا عاديا لاى رجل دين بل اصبحت وظيفة رجل الدين اينما كان هى التوسط بين الله وخلقه فمن طريقة تؤدى الصلاة ويتناول العشاء الربانى وهو الذى يقوم بالتعميد ومراسم وطقوس الزواج والموت ويتقبل الاعترافات من المذنبين .

وفى الوقت الذى كان رجل الدين فيه يتقبل الاعتراف لم يكن ليدعى حق المغفرة من نفسه لكن المسيح — بزعمه — يغفر لمن اقر بذنبه بين يدى احد اتباع كنيسته التى اورثها سلطانه وفرض لها السيادة على العالمين .

وكان الفرد المسيحى يستطيع ضمان الملكوت مع المسيح باعتراف واحد فى العمر هو اعترافه ساعة احتضاره اذ بتسم دهن جسده بالزيت المقدس — فيتطهر من كل الارجاس والذنوب . وكان من العقوبات الصارمه التى تتخذها الكنيسة ضد مخالفيها من الشعوب او الافراد حرمانهم من الاعتراف الاخير والصلاة عليهم فلا يشك مسيحى انهم ذهبوا الى الجحيم بسبب ذلك .

واستمر الحال على ذلك فترات طويلة حتى كان مطلع القرن الثالث عشر الميلادى حيث كانت الكنيسة تجتاز مرحلة حاسمة فى تاريخها وكانت بحاجة الى مزيد من السلطة الدينية والنفوذ المالى لمواجهة اعدائها فقررت عقد مجمع عام لبحث الوسائل الكفيلة بتحقيق ذلك فعقد المجمع الثانى عشر المعروف باسم مجمع لاتيران سنة ١٢١٥ م ونجح هذا المجمع فى اقرار مسألتين كان لهما اثر بالغ على المسيحيه فى القرون التالية هما :

١ — مسألة الاستحالة وقد مرت قريبا (٠ العشاء الربانى)

٢ — مسألة امتلاك الكنيسة حق الغفران للمذنبين وذلك باصدار القرار التالى :—

" ان يسوع المسيح لما كان قد قلد الكنيسة سلطان منح الغفرانات ، وقد استعملت الكنيسة هذا السلطان الذى نالته من العلا منذ الايام الاولى قد اعلم المجمع المقدس وامر بان تحفظ للكنيسة فى الكنيسة هذه العملية الخلاصية للشعب المسيحى والمثبته بسلطان المجامع ، ثم ضرب بسيف الحرمان من يزعمون ان الغفرانات غير مفيدة او ينكرون على الكنيسة سلطان منحها ، غير انه قد رغب فى ان يستعمل هذا السلطان باعتدال واحتراز حسب العادة المحفوظه قديما والمثبته فى الكنيسة لئلا يمس التهذيب الكنسى تراخ بفرط التساهل " (١)

هذا وقد فرض المجمع على كل المسيحيين ان يعترفوا امام قسيس الابرشية مرة كل عام لكى يستطيعوا الحصول على الغفران (٢) وتنفيذا لذلك اخذ الناس يتوافدون على الابرشيات طلبا للمغفرة ويقدمون للقساوسة الهدايا والصدقات فارتفع مركز الكنيسة معنويا وماديا .

وبعد فترة من الزمن اخذ هذا التوافد فى الفتور وتقاعس كثيرون عن الاعتراف وفى الوقت نفسه ازداد الحاح الكنيسة على تثبيت مركزها وتعبئة خزائنها فقررت اتخاذ وسيلة ناجحه لضمان استمرار ذلك فهداها تفكيرها الى كتابة الغفرانات فى صكوك تباع على الملا ، وتنص على غفران ايدى بحيث تكون حافزا قويا على دفع المبلغ المالى الذى تقرره الكنيسة او القيام بالخدمات التى ترغب تنفيذها ، وهذا نص الصك :ـ

" ربنا يسوع يرحمك يا .... (يكتب اسم الذى سيغفر له) ويحلك باستحقاقات الامه الكلية القدسية وأنا بالسلطان الرسولى المعطى لى أحلك

---

(١) محاضرات فى النصرانية ١٩٤
(٢) تاريخ العالم ٥/ ٥٠٢

منى جميع القصاصات والاحكام والطائلات الكنسية التى استوجبتها ، وايضا من جميع الافراط والخطايا والذنوب التى ارتكبتها مهما كانت عظيمة وفظيعة ومن كل علة وان كانت محفوظه لابينا الاقدس البابا والكرسى الرسولى وامحو جميع اقذار الذنب وكل علامات الملامة التى ربما جلبتها على نفسك فى هذه الفوضة ، وارفع القصاصات التى كنت تلتزم بمكابدتها فى المطهر واردك حديثا الى الشركة فى اسرار الكنيسة واقرنك فى شركة القديسين ، اردك ثانية الى الطهارة والبر اللذين كانا لك عند معموديتك، حتى انه فى ساعة الموت يغلق امامك الباب الذى يدخل منه الخطاة الى محل العذاب والعقاب، ويفتح الباب الذى يؤدى الى فردوس الفرح، وان لم تمت سنين مستطيلة فهذه النعمة تبقى غير متغيره حتى تأتى ساعتك الاخيرة ، باسم الاب والابن والروح القدس"[٣]

بقى ان نلفت النظر الى حقيقة الوضع الذى كانت عليه الكنيسة والظروف التى الجأتها لمثل هذه التصرفات ، ففى هذه المرحلة من تاريخ الكنيسة كانت تواجه الد واخطر اعدائها " المسلمين " وكانت الحروب الصليبية قد استمر اوارها وبدأت تلوح علامات الهزيمة للصليبيين، وبلغ ضعف الحماس الدينى فى نفوس الاوربيين مبلغا كبيرا وفقد المقاتلون ثقتهم فى الكنيسة نتيجة لخيبة املهم فى النصر الذى وعدتهم وعدا قاطعا، ولم يروا للمسيح والملائكة والقديسين اثرا فى معاركهم بل على العكس تخيلوا انهم يقفون ضدهم تماما ، وبذلك اهتز موقف الكنيسة وايقنت ان وعودها المعسولة بالنصر ، وقراراتها الشفوية بالمغفرة للمشتركين فى الحرب لم تعد تؤدى مفعولا مؤثرا فقررت تجسيد هذه الامانى فى وثيقة خطية محسوسة يحملها المقاتل ويندفع للاشتراك فى الحملة الصليبية وهو على ثقة وعزم، وتنفيذا لذلك برز الى الوجود مهزلة جديدة هى " صكوك الغفران وكانت كما يقول ول ديورانت توزع على المشتركين فى الحروب الصليبية ضد المسلمين . (٤)

وعليه فلم يكن ليحظى بالحصول على صك غفران الا احد اثنين :

١ ـ رجل ذو مال يشترى الصك من الكنيسة حسب التسعيرة التى تحددها هى .

٢ـ رجل يحمل سيفه ويبذل دمه فى سبيل نصرة الكنيسة والدفاع عنهـــــا وحراسة مبادئها .

وغير هذين رجل ثالث يعتصر قلبه اسى لانه لايملك ثمن الصك او لايستطيع ان يشترك فى الحرب اما لعجزه واما لكونه غير مستعد للموت من أجل الكنيســة لكنه يظل أسير صراع نفسى مرير وشعور بالحرمان قاتل .

وهكذا فالكل مضحون والكل خاسرون والكنيسة هى الرابح الوحيد وان كانت عند الله شر مقاما واخسر صفقة .

نتائج هذه البدعـــــــة

ان بدعة كهذه لن تمر فى التاريخ مرور الكرام بل هى جديرة بان تحدث اصداء واسعة الانتشار وتثير ردود فعل بعيدة الاثار لاسيما وقد ظهرت فى الفـــترة التى اتصلت فيها اوربا بنور الاسلام واخذت العقول النائمة تتلمس مكانهـــــا فى الحياة وبدأت الفطر تستيقظ بعد طول رقاد .

كانت هذه البدعة اول امرها من اسباب قوة الكنيسة ودعائم شموخهـــــا لكنها ارتدت عليها بعد ذلك شرا مستطيرا ووباء قاتلا .

فمن ناحية المكانة الدينية ارتفعت منزلة رجال الدين فى نظر الســـذج والجهلة بعد ان منحهم المسيح هذه الموهبة العظيمة وخيل اليهم انه مادام اعطاهم حق المغفرة للناس فبدهى انه قد غفر لهم بل قدسهم ووهبهم من روحـه كما يدعون، وبذلك تجبطاعتهم والتزلف اليهم وتملقهم على من اراد التقـــرب الى المسيح والحصول على رضاه .

واذ قد آمن الناس ـ ملوكا وصعاليك ـ بحق الغفران فقد سهل عليهـــم ان يؤمنوا بمقابلة " حق الحرمان " ولم يزدادوا طمعا فى ذلك الا وازدادوا رهبة لهذا .

ومن الوجهة المادية اثرت الكنيسة من عملية بيع الصكوك ثراء فاحشـــــا حتى اصبحت بحق اغنى طبقات المجتمع الاوربى آنذاك بما تكدس فى خزائنهـــا من اموال وتدفق عليها من عطايا وهبات .

ومن الوجهة السياسية قويت الكنسية وتدعمت سلطتها بالجحافل البربريـة التى تطوعت القتال فى سبيلها من اجل الحصول على الغفران ، وبالمقابـــل انخفضت سلطة الملوك اللذين كانوا جنودا للكنيسة بانفسهم فى الحـــروب الصليبية الا من تردد منهم او حاول التملص من قبضتها فعوقب بالحرمان كمـــا حدث لفردريك الثانى . (٥)

---

(٥) انظر حول سيرته كتاب الزنديق الاعظم ، وفصل اعجوبه العالم ج ٣ ويلز .

كل هذه الثمار جنتها الكنيسة من جراء هذه المهزلة المهدعة وكان نتاجها الطغيان الاعمى والغطرسة الباغية ، ولم لاتطغى وتستبد وقد عبدها الناس من دون الله وقدسوا تعاليمها دون تعاليم المسيح ، ولم لاتفتخر وتتجبر وهى تملك المجتمع من ناصيته وتتحكم فى الضمائر وتسيطر على الارواح كماتشاء وترفع من احبت الى اعلى عليين وتقذف من ابغضت فى دركات الجحيم ، وتنصب هذا قديسا وذاك شيطانا مريدا ؟

تلك هى الصورة الايجابية التى خلفتها هذه المهزلة للكنيسة ، وعليها اقتصرت نظرة آبائها فدفعهم الغرور الى المضى قدما وازدادوا نهما غير عابئين بالنتائج ولا حافلين بالعواقب •

لكن سنة الله لاتحابى احدا ولاتجامله فكل شىء جاوز حده انقلب الى ضده والزبد يذهب جفاء وهكذا كانت صكوك الغفران مسمارا فى نعش الكنيسة وبداية لنهايتها وكانت خسارتها بها عظيمة عظم جنايتها •

فمن الوجهة الاقتصادية نرى الاقبال الهائل على شراء الصكوك اعقبه انكماش وفتور كالذى يصيب اى بدعة او ظاهرة جديدة بعد فترة من ظهورها فنضب الكثير من موارد الكنيسة فى حين ازدادت طمعا وشراهة واضطرت الى عرض الصكوك بطريقة متبذلة فكان الاباء والقساوسة يتجولون فى الاقطاعيات ويبيعونها باسعار مخفضة ثم زهيده ، وكلما ازداد العرض قل الطلب وتولد لدى الناس شعور داخلى بأن شراءها اضاعة للمال فيما لافائدة فيه او على الاقل فيما ليس مضمون العاقبة •

وفى الوقت نفسه داهمت المسرح المالى فئة جديدة من الناس اخذت تظهر بوضوح منافسة للطبقتين البارزتين آنذاك " النبلاء " و رجال الدين " تلك هى الطبقة البورجوازية وحصلت تحولات اخرى كانت بمثابة المؤشر لنهاية النظام الاقطاعى بجملته •

ومن ناحية المكانة الدينية لرجال الدين فقد بدأت تلك الهالة القدسية

المحيطة بهم تتبخر شيئا فشيئا بعد زمان من ظهور هذه المهزلة، وابتدأ الناس يعتقدون انهم كانوا مخطئين فى ذلك الاندفاع الاعمى والتسليم الأبله. وعمق ذلك الاعتقاد تنافس القساوسة على بيع الصكوك مقرونا به سيرتهم السيئة وفجورهم الفاضح، وعجب الناس اذ رأوا كثيرا من الاشرار والطغاة والمجرمين يتبوأون مقاعدهم فى الملكوت ببركة الصكوك التى منحها لهم رجال الدين! فكان ذلك ايذانا بالشك فى قداسة رجال الدين أنفسهم ومدى صلاحهم واستحقاقهم للملكوت فى ذواتهم.

ومن ناحية المركز السياسى والنفوذ الدنيوى: كان لصكوك الغفران وما أحاط بها من ظروف وملابسات اثره البالغ فى العلاقه بين الكنيسه من جهة والملوك والامراء والنبلاء من جهة أخرى. فقد رأوا أن قبضة الكنيسه تزداد استحكاما مع الايام وأنهم وشعوبهم ليسوا الا أدوات — أو صنائع لرجال الدين يمنون عليهم بالعفو إن رضوا ويعاقبونهم بالحرمان ان سخطوا. كما أن الثراء الذى حصلت عليه الكنيسه جعلها تبدو منافسا قويا لاصحاب الاقطاعيات وكبار الملاك فكان يسيطر على الجميع شعور موحد بالعداوة لها والحقد عليها، لذلك لم تكد بوادر الاستنكار ضد تصرفاتها — لاسيما صكوك الغفران — تبرز للعيان حتى انتهزها الملوك والامراء فرصه سانحة لحماية الحركات المعارضه وتأجيج سعيرها ولولا أن بعض المصلحين — ولوثر خاصة — وجدوا الحماية والعطف من الامراء والنبلاء لما نجوا من قبضة الكنيسة ونتائج قرارات حرمانها.

ومن ناحية أخرى رأى الأوربيون حكاما ومحكومين الحياة الكريمة التى يعيشها الشرق الاسلامى حيث لا كهنوت ولا طغيان ولا احتكار فبهرت هذه الرؤية أنفسهم وبهرت عيونهم لدرجة أن صكوك الغفران ووعود الكنيسة بالملكوت أصبحت بالنسبه لهم هراء لا طائل تحته وعبثا يبعث على الاشمئزاز والاستخفاف.

تلك صورة مجملة لبعض النتائج التى ترتبت على بدعة صكوك الغفران وملابساتها بالنسبة للكنيسة خاصة. أما بالنسبة للوضع الاجتماعى والدينى

بصفة عامة فقد كانت صكوك الغفران سببا مباشرا فى انبعاث الشرارة الاولى ـ التى اندلعت نيرانها فيما بعد فالتهمت الاوضاع الاجتماعية وأودت بالتعاليم الكنسية والتقاليد الدينية كافة ، ولا يشك أى منصف فى أن للاسلام تأثيرا مباشرا على الثورة العارمة ضد الكنيسه وان كان دعاتها ومؤيدوها يكنون لـه أشد العداوة والحقد ، على أن ما يهمنا الآن هو أن مهزلة صكوك الغفران قد ساعدت بصفة مباشرة على هدم التعاليم الدينية من أساسها والاستهتار بكل المعتقدات والاصول الايمانية بجملتها وأسهمت فى انتشار فكرة انكار الآخرة "والجنه والنار" التى لا يقوم دين بغيرها •

ولا زالت الى الان شاهدا قويا ومستندا قاطعا لكل اعداء الدين فى الغرب، حيث نشأ عن الكفر برجل الدين وتصرفاته كفر بالدين ذاته وما يتصل به من سلوك وخلق •

وكان الخيار الصعب الذى وضعه اعداء الدين ـ لا سيما اليهود ـ أمام الانسان الأوروبى هو اما أن يؤمن بصكوك الغفران فيحكم على نفسه تلقائيا بالجمود والغباء والرجعية المتناهية • واما أن يكفر بها فيلزمه الكفر بالاطار الذى يحويها بكامله إطار الدين والغيبيات لا سيما الآخره •

لذلك نجد الفيلسوف اليهودى "الوجودى" جان بول سارتر" يجسد هذا الخيار فى احدى رواياته المشهورة " الشيطان والرحمن "(٦) هذا مع أن الكنيسة فى عصرنا الحاضر لاتصدر صكوك غفران بل تستحى من ذكرها وتخجل كلما دار الحديث عنها •

(٦) ترجمها للعربية ،

الباب الثاني

أسباب العلمانية

الفصـــــل الاول

الطغيـــــــان الكنســـــي

اسباب طغيان رجال الكنيســـة :

الطغيان في ذاته مرض خطير يدمر النفس الانســـانية ويمسخ سماتها ويحيل الكائن البشري الى روح شيطانية ماردة •

ومن خصائص هذا المرض ان أعراضه لا تصيب إلا ذا نفس هزيلة اتيح لها وسائل تفوق طاقتها ومساحة اكبر من حجمها ، ولم يكن لديها وازع خلقـــــــــي او رادع ايماني يكبح جماحها وضبط سلوكها •

ولا يكون الطغيان - كذلك - الا مظهرا للشعور بالنقص لدى النفـــس الطاغية اذ تحاول بواسطته ستر نقيصة داخلية مؤرقـــة او تسويغ مسلك معـــوج يعجز عن تبريره المنطق السليم والاقناع الهادئ •

فالطغيان يبدأ وسيلة خاطئة وينتهي مرضا مدمرا لا شفاء له الا المـــوت القاصم •

وحين يصدر الطغيان من حاكم وثني او زعيم دنـيوي فانه يكـــــــــون معقولا الى حد ما ، وان كانت فظاعته لا يسوغها عقل ولا ضمير ، اما حين يصدر الطغيان عن رجال يراهم الناس " قديسين " ورسل سلام وطلاب آخرة ، فذلك مما يشـــق على النفس احتماله ويبعد عن الذهن قبوله لا سيما اذا كانوا رجال دين يجعـــل المحبة شعاره والتسامح ميزته ويقول لاتباعه :

" من لطمك على خدك الأيمن فأدر له الاخر ايضا . ومن اراد ان يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء ايضا ، ومن سخرك ميلا واحد فاذهب معه اثنين " (١) • ان هذه المفارقة العجيبة لتستدعى مزيدا من الفحص والتأمل للبحث عن الاسباب الكامنة وراء ذلك الطغيان الاعمى وذلك يستلزم ان ننظر الى طبيعة وضع رجال الدين ، وطبيعة ظروف دينهم وطبيعة البيئة التي مكنتهم من فرض أنفسهم عليها •

اما طبيعة رجال الدين فقد كانوا سابقين لعصرهم في ناحية مهمة هي الناحية التنظيمية ،اذ كانوا موءسسة تنظيمية مركبة تركيبا عضويا دقيقا من القاعدة العريضة الممتدة في كافة الاصقاع والاقاليم الى قمة الهرم المتمركزة في روما ، وهذه الميزة اكسبتهم نفوذا مستمرا لا يقبل المنافسة وجذورا عميقة يصعب اقتلاعها ولذلك نلاحظ ان كثيرا من الاباطرة المتمردين على الكنيسة يفشلون دائما في مواجهتها ويرتدون صاغرين الى الانضواء تحت ظلها ، كما ان العالم الغربي المسيحي لم يستطع التخلص من قبضة الكنيسة الا بعد الثورة الداخلية التي قادها المصلحون الكنسيون والتي ادت الى اضعاف الهيكل التنظيمي والسلطة المركزية وتشتيت ولاء الافراد • وكان من الممكن ان يتمتع رجال الدين بثمرات هذا التنظيم الفائق ويسخروها لخدمة المصلحة الدينية دون ان يكون ذلك داعيا للطغيان والاستبداد • ولكن الشرط الاساسي لذلك هو النية الحسنة والاخلاص المجرد وهو شرط فقدته الكنيسة منذ ان فقدت الايمان

---

(١) متى ٥ : ٤٠ـ٤٢

الصحيح والعقيدة الصادقة •

والنفس البشرية اينما كانت لا تخلو من حب الطغيان اذا تهيأت لها اسبابه. وليس كخشية الله تعالى واستشعار رقابته وضعف الانسان ازاء قدرته حاجز لها عنه • ولما كانت الكنيسة مفلسة من ذلك فقد آل الامر الى ان تبدأ هيئتها التنظيمية شركة دنيوية تطمح الى النفوذ الاجتماعي والمغانم الزائلة ثم تمكنت بوسائل شتى من أن تصبح قوة استبدادية غاشمة •

وليس ثمة شك في ان مركزها الديني هو الذى هيأ لها النجاح المطرد وهذا يقودنا الى البحث في طبيعة دينها وظروفه التي أتاحت لها ذلك •

سبق ان اشرنا الى الاضطهاد البالغ الذى تعرض له اتباع السيد المسيح عليه السلام من بعده ، ذلك الاضطهاد الذى ادى الى تحول الدعوة المسيحية الى دعوة سرية ،فاختفى الكثير من دعاتها ، وتستروا في اقاليم مختلفة واخفوا معهم نسخ الاناجيل • بل دونوا الاناجيل آنذاك وكتبوها بلغاتهم الخاصة وظلوا يتناقلون نسخها سرا اذ كانت تتعرض للحرق والمصادرة من قبل الروم وكان الداخل الجديد في دينهم ياخذ عنهم التعاليم مشافهة بعد ترجمتها الى لغته الدارجة،ثم يبثها في بني قومه سرا ، ايضا.فاذا أشكل عليهم امر رجعوا الى الداعية الذى يملك نسخة لاحد الاناجيل فيبين لهم رأى الانجيل او رأيه الخاص في ذلك الامر • ولم يكن الدعاة يسمحون للاتباع بتملك النسخ او يطلعونهم عليها خشية على انفسهم وعلى الكتب ايضا ، بالاضافة الى كون عقلية الاتباع وظروف البيئة لم تكن تؤهلهم للاخذ المباشر او الاستنباط والاجتهاد الذاتي ،ويزداد الامر صعوبة اذا كانوا يجهلون اللغة التي كتب بها الانجيل •

كل ذلك ادى الى انحصار المصادر الدينية للمسيحية في ايدى فئة قليلة من الناس واقتصار حق شرحها وتأويلها عليهم وحدهم ، فلما انقضت عصور الاضطهاد واعتنقت الدولة الرومانية الدين الكنسي احتفظ رجال الكنيسة بحق قراءة وشرح الكتب المقدسة وأيدتهم الدولة في ذلك لتجمع رعاياها على عقيدة واحدة باتاحة الفرصة للكنيسة للقضاء على الفرق المنشقة،وكما قلنا في سبب وجود رجال الدين ورث رجال الكنيسة عن احبار اليهود صفاتهم الممقوتة من التعصب الاعمى واتباع الهوى واحتكار الرأى فظلت مصادر الدين الكنسى حكرا عليهم لا تقع عليها يد لباحث او ناقد من غير رجال الدين وكان باستطاعة الكنيسة ان تفرض كل شيء باسم الانجيل وهي آمنة من ان احدا لن يقوم حيالها بادنى معارضة .

وهكذا ظلت مصادر الدين النصراني المحرف قابعة في خبايا الكنائس وزوايا الاديرة تؤخذ تعاليمها مشافهة من اولئك الذين يزعمون القداسة والعصمة ،وما دامت مصادر الديانة غير مكشوفة فكيف يعرف الناس مقدار صدق رجال الدين فيما يقولون عن الله وكيف يمكنهم مناقشة الكنيسة فيما تمليه من عقائد وتشريع ؟ لم يكن امامهم الا التسليم المطلق والطاعة العمياء .

واذ قد اطمأنت الكنيسة الى ان أحدا لن ينبس ببنت شفة فيما يمس قداستها وصواب آرائها فقد اشتطت وغلت في فرض سلطانها وتعميق هيبتها ووجدت الباب مفتوحا الى طغيان لا يلين ولا يرحم .

يبقى ان نعرض لطبيعة البيئة التي شهدت هذا الطغيان ،ومدى تأثيرها في بقائه واستحكامه ،فنرى أنه كانت الغالبية العظمى من الروم وسكان مستعمراتهم

من الاميين السذج الذين ألفوا العبودية والخضوع المستمر للقوى المسيطرة وكانوا من الضحالة الفكرية على درجة ليست قليلة ، وكان سكان اوروبا قبائل همجية تعيش اسوأ مراحل التاريخ الاوربي كله لا سيما القرون الاولى من العصور الوسطى التي تسمى " العصور المظلمة " ،واعتنق هؤلاء الديانة الرسمية للامبراطورية واحلوا عبادة المسيح محل عبادة الامبراطور، لكنهم لم يتعرضوا ليقظة ايمان حقيقي كتلك التي هزبها الاسلام نفوس معتنقيه ورفع مستواهم الروحي والعقلي الى آفاق عظيمة ،بل ظلوا على تلك الحال من الهمجية والانحطاط حتى مطلع العصر الحديث ،لذا كان من الطبيعي للجماهير الفقيرة ان تنساق وراء عقولها السطحية وعواطفها الساذجة فتصدق كل ما تسمع وتؤمن بكل ما يقال ، وكان رجل الدين هو كل شيء بالنسبة لها فلم يكن هنالك اى اثر لعالم او مؤرخ او باحث ،بل كان الظلام المطبق يسيطر على الحياة من كافة نواحيها ورجل الدين هو الوحيد الذى يملك بصيصا ضئيلا يتمثل في معرفته للقراءة والكتابة وكونه الموجه الروحي للمجتمع ، وبيئة هذه حالها ، وامة هذه صفاتها جديرة بان توفر للطاغية حماية كافية ومناخا صالحا لفرض طغيانه في المجال الذى يريد ، واشباع رغبته التسلطية كما يشاء .

هذه الاوضاع والعوامل مجتمعة وهي السلطة الكهنوتية المنظمة والمصادر غير المكشوفة والبيئة البدائية جعلت من الكنيسة ماردا جبارا وطاغوتا جائرا يملك كل مقومات البقاء ولوازم الاستبداد ويريد ان يسيطر على كل شيء ويسيّر كل شيء وفق اراداته وهواه . ولم تدع الكنيسة جانبا من جوانب الحياة دون ان تمسكه بيد من حديد وتغله بقيودها العاتية فهيمنت على المجتمع من كل نواحيه الدينية والسياسية والاقتصادية والعلمية وفرضت على عقول الناس

واموالهم وتصرفاتهم وصاية لا نظير لها البتة • وان التاريخ ليفيض في الحديث عن طغيان الكنيسة ويقدم نماذج حية له في كل شأن من الشؤون • ولنستعرض شيئا من ذلك في نواح مختلفة من الحياة •

اولا - الطغيان الديني :

منذ ان ظهر الى الوجود ما يسمى المسيحية الرسمية في مجتمع نيقية ٣٢٥ م والكنيسة تمارس الطغيان الديني والارهاب في ابشع صورة ، ففرضت بطغيانها هذا عقيدة التثليث قهرا وحرمت ولعنت مخالفيها ، بل سفكت دماء من ظفرت به من الموحدين واذاقتهم صنوف التعذيب والوان النكال ونصبت نفسها عن طريق المجامع المقدسة " الها " يحل ويحرم ينسخ ويضيف وليس لاحد حق الاعتراض او على الاقل حق ابداء الراى كائنا من كان والا فالحرمان مصيره واللعنة عقوبته لانه كافر " مهرطق " •

كان الختان واجبا فاصبح حراما ، وكانت الميتة محرمة فاصبحت مباحة وكانت التماثيل شركا ووثنية فاصبحت تعبيرا عن التقوى ، وكان زواج رجال الدين حلالا فاصبح محظورا ، وكان اخذ الاموال من الاتباع منكرا فاصبحت الضرائب الكنسية فرضا لازما ، وامور كثيرة نقلتها المجامع من الحل الى الحرمة او العكس دون ان يكون لديها من الله سلطان او ترى في ذلك حرجا ، واضافت الكنيسة الى لغز "الثالوث" المعمى عقائد وآراء اخرى تحكم البديهة باستحالتها ولكن لا مناص من الايمان بها والاقرار بشرعيتها على الصورة التي توافق هوى الكنيسة ، كقضية الاستحالة في العشاء الرباني وعقيدة الخطيئة الموروثة و عقيدة الصلب والعذراء والطقوس السبعة كل هذه فرضتها على الاتباع بحجة واحدة هي انها

اسرار عليا لا يجوز الخوض فيها او الشك في صحتها ، وكان العامل المساعد على انجاح محاولاتها الذى تتمثل فيه صورة الطغيان الديني جلية واضحة ما ذكرناه من احتكارها للمصادر الدينية ذلك الذى جعلها حاجبا ، لا يستطيع احد دخول الملكوت الا بواسطته ولا يمكنه الاتصال بالله الا من طريقه وهي حق لا مرية فيه ما دامت الكنيسة هي التي قررت اذ هي معصومة عن الخطأ منزهة عن الزلل .

يتحدث " ويلز " عن رجال الكنيسة قائلا :

"ولم تعد لهم رغبة في رؤية مملكة الرب موطدة في قلوب الناس فقد نسوا ذلك الامر واصبحوا يرغبون في رؤية قوة الكنيسة التي هي قوتهم هم متسلطة على شؤون البشر وكانوا في سبيل توطيد تلك القوة على اتم استعداد للمساومة مع اى شيء حتى البغض والخوف والشهوات المستقرة في قلوب البشر ، ونظرا لان كثيرا منهم كانوا على الارجح يرون الريبة في سلامة بنيان مبادئهم الضخم المحكم وصحته المطلقة لم يسمحوا بأية مناقشة فيه ، كانوا لا يحتملون اسئلة ولا يتسامحون في مخالفة لا لأنهم على ثقة من عقيدتهم بل لأنهم كانوا غير واثقين فيها ، وقد تجلى في الكنيسة في القرن الثالث عشر ما يساورها من قلق قاتل حول الشكوك الشديدة التي تنخر بناء مدعياتها بأكمله وقد تجعله اثرا بعد عين "، فلم تكن تستشعر اى اطمئنان وكانت تتصيد الهراطقة في كل مكان كما تبحث العجائز الخائفات عن اللصوص تحت الاسرّة وفي الدواليب قبل الرجوع الى فراشهن " (١) .

---

(١) معالم تاريخ الانسانية : ٣ / ٩٠٢

وعززت الكنيسة سلطتها الدينية الطاغية بادعاء حقوق لا يملكها الا الله، مثل حق الغفران وحق الحرمان وحق التحلّة، ولم تتردد في استعمال هذه الحقوق واستغلالها، فحق الغفران ادى الى المهزلة التاريخية "صكوك الغفران" السالفة الذكر، وحق الحرمان عقوبة معنوية بالغة كانت شبحا مخيفا للافراد والشعوب في آن واحد، فأما الذين تعرضوا له من الافراد فلاحصر لهم منهم الملوك امثال "فردريك" وهنرى الرابع الالماني وهنرى الثاني الانجليزى، ورجال الدين المخالفين من آريوس حتى لوثر، والعلماء والباحثون المخالفون لاراء الكنيسة من "برونو" الى "ارنست رينان" واضرابه.

واما الحرمان الجماعي فقد تعرض له البريطانيون عندما حصل خلاف بين الملك يوحنا ملك الانجليز وبين البابا، فحرمه البابا وحرم امته فعطلت الكنائس من الصلاة ومنعت عقود الزواج، وحملت الجثث الى القبور بلا صلاة وعاش الناس حالة من الهيجان والاضطراب حتى عاد يوحنا صاغرا يقر بخطيئته ويطلب الغفران من البابا ولما رأى البابا ذله وصدق توبته رفع الحرم عنه وعن الامة (٢).

أما حق التحلّة فهو حق خاص يبيح للكنيسة ان تخرج عن تعاليم الدين وتتخلى عن الالتزام بها متى اقتضت المصلحة ـ مصلحتها هي ـ ذلك. (٣)

على ان الكنيسة لم تقتصر على هذا بل طبقت عمليا ما يثبت اصرارها على الطغيان وحشدت الجيوش الجرارة لمحاربة من سولت له نفسه مخالفة آرائها او اعتنق

---

(٢) انظر حرية الفكر سلامة موسى : ٥٦

(٣) معالم تاريخ الانسانية ٨٩٦/٣

ما يخالف عقيدتها ولا نعني بذلك المسلمين او اليهود بل الطوائف النصرانية التي اختلفت مع الكنيسة في قضية من قضايا العقيدة او الشريعة •

ومن أوضح الشواهد على ذلك في العصور الوسطى ما تعرض له " الكاثاريون " و " الوالدنيون " الذين لم يتخلوا عن الدين بل كانوا يطالبون بحياة مسيحية حقيقية تستمد مقوماتها من الكتاب المقدس نفسه وانكروا على الكنيسة ثراءها ودنيويتها ومع ذلك فقد اعلنت الكنيسة الحرب عليهم ، وحرض البابا " رانوسنت " كما يقول ويلز :

" على حرب صليبية ضد هاته الشيع وأذن لكل نذل زنيم او متشرد اثيم ان ينضم الى الجيش وان يعمل السيف والنار واغتصاب الحرائر ويرتكب كل ما يمكن ان يتصوره العقل من انواع انتهاك الحرمات ، ويعلق المؤرخ الانجليزي على ذلك بقوله :

" القصص التي تروى عن هذه الحروب الصليبية تحكي لنا من أضرب القساوة والنكال البشع ما يتضاءل ازاء بشاعته قصة استشهاد المسيحيين على ايدي الوثنيين . وهي فوق هذا تسبب لنا رعبا مضاعفا لما هو عليه من صحة لا سبيل الى الشك فيها ، كان هذا التعصب الاسود القاسي روحا خبيثا ••• يتعارض تماما مع روح يسوع الناصري فما سمعنا انه لطم الوجوه او خلع المعاصم لتلاميذه المخالفين له ، ولكن البابوات كانوا طوال قرون سلطانهم في حنق مقيم ضد من تحدثه نفسه بأهون تأمل في كفاية الكنيسة الذهنية • (٤)

---

(٤) معالم تاريخ الانسانية ٣ : ٩٠٥

ولم يقف الامر عند هذا الحد لا سيما بعد ان اتضح للكنيسة الأثر الاسلامي الظاهر في الاراء المخالفة لها فأنشأت ذلك الغول البشع والشبح المرعب الذي اطلق عليه اسم " محاكم التفتيش " ولا يفوتنا ان نقول ان الضحية الاولى لمحاكم التفتيش كانت المسلمين الاندلسيين الذين أبيدوا إبادة تامة بأقسى وأشنع ما يتخيله الانسان من الهمجية والوحشية ، ثم ظلت تمارس اعمالها على مخالفي الكنيسة وان لم يكونوا مسلمين او متاثرين بالحضارة الاسلامية . وانتقلت من اسبانيا الى بقية اقاليم الكنيسة وكانت المحكمة الام لها هي " المحكمة المقدسة " في روما ، ولا يكاد المؤرخون الغربيون يتعرضون للحديث عنها الا ويصيبهم الاضطراب وتتفجر كلماتهم رعبا فما بالك بالضحايا الذين ازهقت ارواحهم والسجناء الذين اذاقتهم الوان المر والنكال .

" كان الانسان في تلك العصور يكبس منزله وهو هادئ وادع فيحمل في جوف الليل ويعتقل الاشهر بل السنين وهو لا يدري ماهية التهمة التي سيتهم بها ، لان خصما له من الجيران قد أبلغ المحكمة بانه سمعه يقول كيت وكيت عن الرؤيا أو عن الثالوث أو عن المعجزات ثم إذا أصر المتهم على انكار ما نسب اليه من التهمة جاز للمحكمة تعذيبه بأن تقطعه اشلاء شلوا بعد شلو أمام عينيه وان تقرض لحمه بالمقراض واخيرا تحرقه " (٥) .

وكانت المحكمة عبارة عن سجون مظلمة تحت الارض بها غرف خاصة

---

(٥) حرية الفكر : ٦٢

للتعذيب والات لتكسير العظام وسحق الجسم البشرى وكان الزبانية يبدأون بسحق عظام الارجل ثم عظام الصدر والرأس واليدين تدريجيا حتى يهشم الجسم كله ـ ويخرج من الجانب الآخر كتلة من العظام المسحوقة والدماء الممزوجة باللحم المفروم ، وكان لدى المحكمة الات تعذيبية اخرى منها آلة على شكل تابوت تثبت فيه سكاكين حادة ، يلقون الضحية في التابوت ثم يطبقونه عليه فيتمزق جسمه إربا إربا ، والات كالكلاليب تغرز في لسان المعذب ثم تشد فتقصه قطعة قطعة ، وتغرز في اثداء النساء حتى تتقطع كذلك .

وصور اخرى تتقزز منها النفوس وتشمئز لذكرها . (٦)

وبفضل هذا الارهاب البالغ والطغيان العاتي عاش الناس تلك الاحقاب ترتعد قلوبهم وترتجف اوصالهم عند ذكر الكنيسة ، ووقف كبار الفلاسفة والنقاد مبهوتين مطرقين ، لا يجرؤ احدهم على التصريح بانه لا يؤمن بالمسيحية مهما كانت اراؤه مخالفة لتعاليمها ، ولم يداخل العلماء الافذاذ آنذاك مثل " نيوتن وبيكون وديكارت وكانت " ان يعترضوا على عقائد الكنيسة الفجة لا سيما التثليث والخطيئة والاستحالة اوعلى الاقل يجاهروا بمخالفتها ،بل يخيل الى الباحث انهم كانوا يعيشون فترة من فقدان الوعي تجاه هذه العقائد رغم نبوغهم في مجالات اخرى ، وان كان للموضوع جانب اخر سنتناوله فيما بعد .

---

(٦) انظر التعصب والتسامح محمد الغزالي ٣١١ ـ ٣١٨ ، واسبانيا ارضها وشعبها (الفصل الثامن) د وروثي لودر .

ان شاء اللـه •

يقول برنتن " لم يكن بوسع الكثيرين من أفراد المجتمع الغربـي ان يعترفوا صراحة وجماعة بالالحاد او اللاأدرية أو بمذهب الاتصال بالله اوبأية عقيدة أخرى غير المسيحية الا خلال القرون القلائل الاخيرة • وقد كان الكفار الذين يجاهـــرون بكفرهم قلة نادرة في الألف سنة التي استغرقتها القرون الوسطى ولما كان الناس جميعا مسيحيين فلم يكن هناك مفر من أن تكون المسيحية هي كل شيء لكل ـ الناس فلقد كان القديس فرانسيس وأرازمس ولويولا وميكافيلّي وباسكـــال ووزلي ـ ونابليون وغلادستون وجون روكفلر جميعا مسيحيين". (٧)

---

(٧) افكار ورجال : ٢٠٧

ثانيا ـ الطغيان السياسي :

طبيعي جدا ان يكون لرجال الدين سلطة سياسية في الامة التي تدين بدينهم ، بل ان الافتراض الذى لا يصح سواه هو ان تكون أزمة الامور كلها ـ والسياسة خاصة ـ في يد فئة مؤمنة متدينة تطبق شريعة الله وتقيمها في واقع الحياة . لكن الذى لا يصح على الاطلاق هو ان يتحول رجال الدين الى طواغيت ومحترفين سياسيين ، مع نبذ شريعة الله واسقاطها من الحساب ليحل محلها شهوة عارمة للتسلط ورغبة شرهة في الاستبداد ، ومفاد ذلك انه لاحرج على الكنيسة في تقويم انحرافات الملوك وممارسة الضغوط عليهم اذا سولت لهم انفسهم خرق التعاليم الدينية وتجاوز الأوامر الالهية لترد هم الى حظيرة الدين وتعبد هم لله وحده ، فهذا عين مهمتها في الحياة ولا ينبغي لها بحال ان تتخلى عنها ، أما ان تسهم الكنيسة في طمس الدين وتعطيل الشريعة ثم تفوض نفسها وصية على الملوك والامراء وترغمهم على الخضوع المذل لها وتجعل معيار صلاحهم منوطا بمقدار ما يقدمونه لها من مراسم الطاعة وواجبات الخدمة ، لا بمقدار ما يحفظون حدود الله ويستقيمون على منهجه فذلك هو الامر الشائن والعيب الفاضح ، ومع هذا فهو الذى حصل بالفعل للكنيسة المسيحية طيلة عصور ازدهارها .

لقد ظلت النفسية الاوربية تعاني تمزقا رهيبا ماتزال آثاره ممتدة الى اليوم بسبب الصراع المزمن الذى دار بين الكنيسة وبين الملوك والمنافسة الشديدة بين الطرفين للقبض على مقاليد المجتمع وكسب ولاء الافراد .

ولم تكن الحرب بين اتباع البابوات وانصار الاباطرة او " الجولف والجبليين "

كما يصفهم التاريخ الاوربي _ الا حربا بين حزبين متناحرين لا يكاد احدهما يتميز عن الاخر الا في الشعارات التي يخفي تحتها مطامعه الدنيوية البحتة .

كان ملوك اوربا يضيقون ذرعا بتدخل الكنيسة المتعنت في كل شؤونهم ذلك التدخل الذي لا يجدون له مبررا على الاطلاق ، وفي نظرهم لم يكن لرجال الدين عليهم ميزة الا " القداسة " ومع ذلك فهم أيضا مقدسون إن لم يكن بانفسهم فبنسبهم ، يقول فيشر " كانت الأسر الحاكمة في اوربا تستمد بقاءها من صلتها النسبية بأحد القديسين فيرثون منه قداسته ولا يبالي الشعب بعد ذلك بتصرفاتهم لانهم مقدسون " (١) .

وقد جرؤ ادوارد الاول ملك انجلترا وفيليب الجميل ملك فرنسا على القول بانه : " ليس من الضروري ان يخضع الملك للبابا لكي يحظى بالجنة في الاخرة . وان كلا منهما قد نوى ان يكون سيدا في مملكته وان شعبه يؤيده في هذه النية تمام التأييد " (٢) . اذن فقد كان غاية ما يطمح اليه اولئك ان تكف الكنيسة عن فرض وصايتها السياسية والدينية عليهم دون ان يفكروا في تقويض بنيانها او الخروج على تعاليمها .

لكنهم كانوا في واد والكنيسة في واد فقد كانت ترى ان خضوع الملوك

---

(١) تاريخ اوربا العصور الوسطى : ١/ ٧١

(٢) تاريخ اوربا .. فشر : ١/ ٢٦٠

لها ليس تطوعا منهم بل واجبا حتميا يقتضيه مركزها الديني وسلطانها الروحي جاء في البيان الذى اعلنه البابا " نقولا الاول " قوله :

" ان ابن الله انشأ الكنيسة بأن جعل الرسول بطرس أول رئيس لها وان أساقفة روما ورثوا سلطات بطرس في تسلسل مستمر متصل (ولذلك) فان البابا ممثل الله على ظهر الارض يجب ان تكون له السيادة العليا والسلطان الاعظم على جميع المسيحيين حكاما كانوا أو محكومين " . (٣)

اما البابا الطاغية " جريجورى السابع " فقد أعلن أن الكنيسة بوصفها نظاما الهيا خليقة بان تكون صاحبة السلطة العالمية ومن حق البابا وواجبه بصفته خليفة الله في ارضه انه يخلع الملوك غير الصالحين وان يؤيد او يرفض اختيار البشر للحكام ، او تنصيبهم حسب مقتضيات الاحوال " .

وسخر من الملوك والشعوب بقوله : " من ذا الذى يجهل أن الملوك والامراء يرجعون بأصولهم الى الذين لا يعرفون الله ثم يتعالون ويصطنعون العنف والغدر ويرتكبون جميع أنواع الجرائم ويطالبون بحقهم في حكم من لا يقلون عنهم ـ اى الشعب ـ جشعا وعماية وعجرفة لا تطاق " (٤) .

وليس ثمة شك في أن النصر ظل حليف الكنيسة طيلة القرون الوسطى بسبب سلطتها الروحية البالغة وهيكلها التنظيمي الدقيق واستبدادها المطلق.

ولذلك فقد كان البابوات هم الذين يتولون تتويج الملوك والاباطرة ، كما كان

---

(٣) قصة الحضارة : ١٤/ ٣٥٢

(٤) المرجع السابق ١٤/ ٣٩٤ وفشر : ٢/ ١٤٧

في امكانهم خلع الملوك وعزلهم بارادتهم المحضة ، ولم يكن باستطاعة احد الانفلات من ذلك ، ومن رفض الرضوخ فان حكمه غير شرعي ومن حق البابوية ان تعلن الحرب الصليبية عليه وتحرمه وتحرم امته . ولا يعوزنا الاستشهاد على ذلك من التاريخ الاوربي فالامثلة فيه كثيرة .ولعل خير مثال لذلك حادثة الامبراطور الالماني " هنري الرابع المشهورة مع البابا جريجوري السابع وذلك ان خلافا نشب بينهما حول مسألة " التعيينات " او ما يسمى " التقليد العلماني " فحاول الامبراطور ان يخلع البابا ورد البابا بخلع الامبراطور وحرمه واحل اتباعه والامراء من ولائهم له والبهم عليه .فعقد الامراء مجمعا قرروا فيه انه اذا لم يحصل الامبراطور على المغفرة لدى وصول البابا الى المانيا فانه سيفقد عرشه الى الابد ، فوجد الامبراطور نفسه كالاجرب بين رعيته ولم يكن في وسعه ان ينتظر وصول البابا فضرب بكبريائه عرض الحائط ، واستجمع شجاعته وسافر مجتازا جبال الالب والشتاء على أشده ، ليتقي المثول بين يدي البابا بمرتفعات كانوسا في تسكانيا وظل واقفا في الثلج في فناء القلعة ثلاثة ايام وهو في لباس الرهبان متدثرا بالخيش حافي القدمين عاري الراس يحمل عكازه مظهرا كل علامات الندم وامارات التوبة حتى تمكن من الظفر بالمغفرة والحصول على رضا البابا العظيم . (٥)

وفي بريطانيا حدثت قصة اخرى مماثلة فقد حصل نزاع بين الملك هنري الثاني وبين " توماس بكت " رئيس اساقفة كنتربري بسبب دستور رسمه الملك

---

(٥) انظر فيشر : ٢/١٩٤ ، ويلز : ٣/٩١٠ وقصة الحضارة ١٥/١٩٧ .

يقضى على كثير من الحصانات التي يتمتع بها رجـــال الدين ثم ان رئيس الاساقفـــة اغتيل فروعت المسيحية وثار ثائرها على هنرى ودمغته بطابع الحرمان العام . فاعتـزل الملك في حجرته ثلاثة ايام لا يذوق فيها الطعام ثم اصدر اموه بالقبض على القتلة واعلن للبابا براءته من الجريمة ووعد بان يكفر عن ذنبه بالطريقة التي يرتضيهـــا ، والغى الدستور ورد الى الكنيسة كل حقوقها واملاكها ، وبالرغم من ذلك لم يحصل على المغفرة حتى جاء الى كنتربرى حاجا نادما ومشى الثلاثة الاميال الا خيـرة من الطريق على الحجارة الصوان ، حافى القدمين ينزف الدم منهما ثم استلقـــى على الارض امام قبر عدوه الميت وطلب من الرهبان ان يضربوه بالسياط وتقبل ضرباتهم وتحمل كل الاهانات في سبيل استرضاء البابا واتباعه . (٦)

وأعظم زعيم تحدى سلطات الكنيسة واستطاع مقاومتها مدة غير يسيرة ، هو الامبراطور " فردريك الثاني " وتعود صلابته الى المؤثرات الاسلامية في ثقافتـــه وشخصيته فقد كان مجيدا للعربية مغرما بالحضارة الاسلامية حتى ان الكنيسة اتهمته باعتناق الاسلام وسمته " الـزنديق الاعظم " اما المفكرون المعاصرون فيسميه بعضهم " اعجوبة العالم " وبعضهم " اول المحدثين " .

وقد اشتد النزاع بينه وبين البابا " جريجورى التاسع " بسبب رفضـه القيام بحملة صليبية على الشرق ـ وكانت الكنيسة تمد الملوك جنودا طائعيـــن لها ـ فحرمه البابا وشهر به في رسالة علنية عدد فيها هرطقاته وذنوبه ، فكان على

---

(٦) انظر فقه الحضارة ١٥/١٩٤ وما بعدها .

الامبراطور ان يدفع التهمة عن نفسه برسالة وصفها ويلز بانها " وثيقة ذات أهمية قصوى في التاريخ ، لانها اول بيان واضح صريح عن النزاع بين مدعيات البابا في ان يكون الحاكم المطلق على عالم المسيحية باسره ، وبين مدعيات الحكام العلمانيين وقد كان هذا النزاع يسرى على الدوام كالنار تحت الرماد ولكنه كان يضطرم هنا على صورة ما ويتأجج هناك على صورة اخرى . ولكن فردريك وضع الامر في عبارات واضحة عامة يستطيع الناس ان يتخذوها اساسا لاتحادهم بعضهم مع بعض " (٧) للوقوف في وجه الكنيسة •

على ان فردريك كان ظاهرة فذة لم تلبث ان تختفي تحت قهر قرارات الحرمان والسطوة الكنسية الباغية • ولم يعرف التاريخ الاوربى من يماثله الا بعد اجيال عديدة •

---

(٧) معالم تاريخ الانسانية ٥/ ٢٢٤

وانظر كتاب الزنديق الاعظم : جوزيف جاى ديس ترجمة احمد نجيب هاشم •

ثالثا ـ الطغيـــان المالـــي :

يستطيع المرء ان يقول دون اى مبالغـة ان الاناجيل المسيحيـــة لم تنه عن شيء نهيها عن اقتناء الثروة والمال ، ولم تنفر من شيء تنفيرها من الحيـاة الدنيا وزخرفها ، حتى ان المتأمل في الاناجيل ـ رغم تحريفها ـ لا بد ان يؤخذ بروعة الامثلة التي ضربها المسيح عليه السلام للحياة الدنيا ومتاعها الزائـــل كما انه سيرى من سيرة المسيح العملية ما يؤيد مواعظه البليغـة فقد كـــان هو وحواريوه ورعين زاهدين ينظرون بعين المقت والازدراء الى الكنـــوز المكدسة التي يحوزها بنو جنسهم " اليهود " •

وجاءت القرون التالية فشهدت مفارقة عجيبة بين مفهوم الكنيســة عن الدنيا وبين واقع الكنيسة العملي ، فقد تشددت الكنيسة جدا حتى حرمـت ما احل الله من الطيبات واقتبست النظرة البوذيـة التشاؤمية للحياة الدنيـا ـ كما مر سلفا ـ وفي الوقت نفسه كانت سيرتها الذاتيـة صفحة مخزية من التهالك على الدنيا وامتصاص دماء الاتباع بما لا يضارعها فيه اثرياء اليهود وكبـــار الملاك الاقطاعيين الذين تسميهم الكنيسة " دنيويين " • في حين ان المســيح يقول " مرور جمل من ثقب ابرة ايسر من ان يدخل غنى الى ملكوت الله " (١) ويقول لتلاميذه " لا تقتنوا ذهبا ولا فضة ولا نحاسا في مناطقكم ولا مزودا للطريق ولا ثوبين ولا احذية ولا عصا " (٢) وفي الوقت الذي تفرض فيه الكنيسة على اتباع دينها التقشف والزهد نجد حال الكنيسة نفسها مغايرا لروح وصايا المسيـــح ولمقتضى ما تدعو الناس اليه •

---

(١) مرقص ١٠ : ٢٢ (٢) متى ١٠ : ١٠ـ١١

يقول " كرسون " : " كانت الفضائل المسيحية كالفقر والتواضع والقناعة والصوم والورع والرحمة كل ذلك كان خيرا للمؤمنين وللقسيسين وللقديسين وللخطب والمواعظ ، أما اساقفة البلاط والشخصيات الكهنوتية الكبيرة فقد كان لهم شيء اخر : البذخ والاحاديث المتأنقة مع النساء والشهرة في مجالس الخاصة والعجلات والخدم والارباح الجسيمة والموارد والمناصب " (٣) .

ونستطيع ان نلخص مظاهر الطغيان الكنسي في هذا المجال بمايلي :

١ ـ الأملاك الاقطاعية :

يقول "ديورانت " : " اصبحت الكنيسة اكبر ملاك الاراضي واكبر السادة الاقطاعيين في اوربا فقد كان دير " فلدا " مثلا يمتلك " ١٥٠٠٠ " قصر صغير وكان دير " سانت جول " يملك الفين من رقيق الارض ، وكان " الكوين فيتور " (احد رجال الدين) سيدا لعشرين الفا من ارقاء الارض وكان الملك هو الذى يعين رؤساء الاساقفة والاديرة وكانوا يقسمون يمين الولاء كغيرهم من الملاك الاقطاعيين ويلقبون بالدوق والكونت وغيرها من الالقاب الاقطاعية .. وهكذا اصبحت الكنيسة جزءا من النظام الاقطاعي .

" وكانت املاكها الزمنية اى المادية وحقوقها والتزاماتها الاقطاعية مما يجلل بالعار كل مسيحى متمسك بدينه ، وسخرية تلوكها السنة الخارجين

---

(٣) المشكلة الاخلاقية : ١٦٧

على الدين ومصدرا للجدل والعنف بين الاباطرة والبابوات " (٤) .

٢ ـ الاوقـــاف :

كانت الكنيسة تملك المساحات الشاسعة من الاراضي الزراعية باعتبارها اوقافا للكنيسة بدعوى انها تصرف عائداتها على سكان الاديرة وبناء الكنائس وتجهيز الحروب الصليبية ، الا انها اسرفت في تملك الاوقاف حتى وصلت نسبة اراضي الكنيسة في بعض الدول الى درجة لا تكاد تصدق ، وقد قال المصلح الكنسي " ويكلف " وهو من اوائل المصلحين " ان الكنيسة تملك ١/٣ اراضي انجلترا وتأخذ الضرائب الباهظة من الباقي ، وطالب بالغاء هذه الاوقاف واتهم رجال الدين بانهم " اتباع قياصرة لا اتباع الله " (٥) .

٣ ـ العشـــور :

فرضت الكنيسة على كل اتباعها ضريبة " العشور " وبفضلها كانت الكنيسة تضمن حصولها على عشر ما تغله الاراضي الزراعية والاقطاعيات وعشر ما يحصل عليه المهنيون وارباب الحرف غير الفلاحين .

يقول ويلز " كانت الكنيسة تجبى الضرائب ولم يكن لها ممتلكات فسيحة ولا دخل عظيم من الرسوم فحسب ، بل فرضت ضريبة العشور على رعاياها ، وهي

---

(٤) قصة الحضارة : ١٤/ ٤٢٥

(٥) انظر تاريخ اوربا : فشر ٢/ ٣٦٢ ـ ٣٦٤

لم تدع الى هذا الامر بوصفه عملا من اعمال الاحسان والبر بل طالبت بـــــه كحق " (٦) .

ولم يكن في وسع احد ان يرفض شيئا من ذلك ، فالشعب خاضع تلقائيـــا لسطوتها ، اما الملوك فقد كانوا يخشون بأسها من جهة كما كانت تربطهـــم بها مصالح مشتركة من جهة اخرى ، اذ كانت هي ايضا تمدهم باسباب البقـــاء يقول تولستوى :

" لقد استولى حب السلطة على قلوب رجال الكنيسة كما هو مســـتول على نفوس رجال الحكومات وصار رجال الدين يسعون لتوطيد سلطة الكنائـــس من جهة ويساعدون الحكومات على توطيد سلطتها من جهة اخرى " (٧) اذن فمصلحة السلطتين تقتضى بقاء الاوضاع على صورتها الواقعة .

٤ — ضريبة السنة الاولى :

لم تشبع الاوقاف والعشور نهم الكنيسة الجائع وجشعها البالـــغ بل فرضت الرسوم والضرائب الاخرى، لا سيما في الحالات الاستثنائية كالحـــروب الصليبية والمواسم المقدسة وظلت ترهق بها كاهل رعاياها ، فلما تولى البابا حنـــا الثاني والعشرون جاء ببدعة جديدة هي " ضريبة السنة الاولى " وهي مجموعـــة الدخل السنوى الاول لوظيفة من الوظائف الدينية او الاقطاعية ، تدفع للكنيســـة

---

(٦) معالم تاريخ الانسانية ٣/ ٨٩٥

(٧) احاديث في السياسة والاجتماع للحصرى : ٣٠١

بصفة اجبارية ، وبذلك ضمنت الكنيسة موردا ماليا جديدا . (٨)

٥ ـ الهبات والعطايا :

كانت الكنيسة تحظى بالكثير من الهبات يقدمها الاثرياء الاقطاعيون للتملق والرياء او يهبها البعض بدافع الاحسان والصدقة ، وصحيح ان الكنيسة لم تطالبهم بذلك ، لكنهم لولا معرفتهم بحرصها على الدنيا وامكان استمالتها بطريق البذل والعطاء لما فعلوا ذلك ،كما انهم كانوا يخشون غائلة غضب الكنيسة بحرمانهم من المغفرة عند الاحتضار على الاقل . وقد قويت هذه الدوافع بعد مهزلة صكوك الغفران اذ انهالت التبرعات على الكنيسة وتضخمت ثروات رجال الدين كما اسلفنا .

هذا ولا ننسى المواسم المقدسة والمهرجانات الكنسية التي كانت تدر الاموال الطائلة على رجال الكنيسة ،فمثلا " في سنة ١٣٠٠ م عقد مهرجان لليوبيل واجتمع له جمهور حاشد من الحجاج في روما بلغ من انثيال المال الى خزائن البابوية ان ظل موظفان يجمعان بالمجاريف الهبات التي وضعت عند قبر القديس بطرس " (٩)

٦ ـ العمل المجاني " السخرة " :

سبق القول بان الكنيسة تملك الاقطاعيات برقيقها وان بعض رجال الدين

---

(٨) انظر تاريخ اوربا فشر ٢ : ٣٨٠

(٩) معالم تاريخ الانسانية : ٣/ ٩١٣

كان يملك الالاف من الارقاء ، غير ان ذلك لم يقنع الكنيسة بل ارغمت اتباعها على العمل المجاني في حقولها وفي مشروعاتها لا سيما بناء الكنائس والاضرحة وكان على الناس ان يرضخوا لاوامرها ويعملوا بالمجان لمصلحتها مدة محددة هي في الغالب يوما واحدا في الاسبوع ولا ينالون مقابل ذلك جزاء ولا شكورا .

وهكذا كانت الجماهير ترزح تحت أثقال الكنيسة واعبائها المالية المرهقة وكان الملوك والاباطرة ورجال الدين الصغار يحسون بذلك ايضا ويتحينون الفرصة لاعلان احتجاجهم ، ومن الذين تضجروا من ذلك ودفتهم جرأتهم الى الاحتجاج العلني الملك لويس التاسع ملك فرنسا الذى كتب الى البابا رسالة احتجاجية خطيرة " بالنسبة لعصرها " قال فيها :

" ان الذى يشتد في ادرار الاضراع لا بد ان يصيب الدم من حلماتها " .

اما رجال الدين فقد كان احد الموضوعات التي نظر فيها المجلس الديني العام المنعقد في ليون سنة ١٢٤٦ شكوى مقدمة من بعضهم يستغيثون فيها من مطالب البابا والكنيسة الام (١٠) .

ولكن هذه الاحتجاجات والاستغاثات ظلت صرخة في واد ولم تزحزح الكنيسة عن موقفها ، وظلت الامور على هذه الوتيرة حتى تضافرت عوامل اخرى سياتي الحديث عنها فيما بعد باذن الله .

---

(١٠) انظر اخر الجزء الاول من تاريخ اوروبا من ص ٢٥٩ .

الفصـــــل الثانـــــي

الصراع بين الكنيسة والعلـــــم

الصراع بين الدين والعلم مشكلة من أعمق وأعقد المشكلات في التاريـــــخ الفكرى الاوربي ان لم تكن اعمقها قاطبة ،فمنذ عصر النهضـة الى عصرنـــــا الحاضر والصراع على اشده ، بين مؤيدى العلم وانصار الدين ، ورغم كل الظواهـــر البارزة في الحياة الغربية التي تؤكد ان المعركة قد انتهت وان العلم انتصر بصفة نهائية على خصمه اللدود فان هناك ما يدل دلالة قوية على ان الدين او على الاصح بعض قضاياه الاعتقادية والسلوكية ـ لم تكن في عصر من العصور اقوى حجة منها في هذا العصر ، لا سيما بعد ان تنكرت الثقافة الغربية لافكار القرن التاسع عشـــر التي تتسم بخاصيتي " الاطلاق والعقلانية " واعتنقت نظريات القرن العشريـــــن التي تتميز بالنسبية واللامعقول .

ولذلك فقد خيل للكثيرين ان المعركة لم ولن تنتهي وانها باقيـــــــة ما بقيت المعرفة الانسانية ،وساعد على ترسيخ هذه الفكرة تقبل النفسية الاوربيـــــة للازدواجية في كل شيء وهو التقبل الذى تولد من رضوخها المستمر لسلطتيـــــن متباينتين وايمانها الطويل بفكرتين متناقضتين .

وقليل منهم من فطن الى السر الكامن وراء استمرارية المعركة دون نتيجـــة نهائية حاسمة . والواقع ان السبب الحقيقي في ذلك يمكن ادراكه بسهولة لو ان ـ الانسان الغربي ـ من اى الفريقين تخلى عن غروره وتبجحه ونظر الى المشكلـــة

نظرة تقييمية مجردة ، وذلك ان اى خصمين يملك كل منهما نصف الحقيقة لا يمكن ان ينتصر احدهما على الاخر انتصارا نهائيا •

وتطبيق هذه البدهية على الصراع بين العلم والدين الاوروبيين نجد ان المواقع التي احتلها العلم من مناطق نفوذ الدين هي في الحقيقة المواقع التي انتصر فيها العقل واليقين على الخرافة والوهم ،كما ان المواقع التي صمد فيها الدين امام الهجوم العلمي الكاسح هي المواقع التي انتصرت فيها الحقيقة الموحاة على التخرصات والاهواء •

وحيئنذ نستطيع ان نقول مطمئنين : ان الحق في كل من الطرفين هو الذى انتصر او سينتصر على الباطل في كليهما ، وانه لو كان الدين الاوروبي حقا خالصا والعلم الاوربي يقينا مجردا لما حدثت معركة على الاطلاق •

وما ان الدين بصبغته الالهية النقية لم يدخل المعركة فان الاوفق ان نسمى ما حدث في الغرب صراعا بين الكنيسة والعلم وليس بين الدين والعلم •

ومن المؤسف حقا ان جناية رجال الدين الاوروبيين على الحقيقة كانت اشنع وانكى من جناية انصار العلم عليها ، وان كان كل منهما مسؤولا عن النتائج المؤسفة لذلك الصراع _ ذلك ان الكنيسة ارتكبت خطأين فادحين في آن واحد :

احدهما : تحريف حقائق الوحى الالهي وخلطها بكلام البشر •

والاخر : فرض الوصاية الطاغية على ما ليس داخلا في دائرة اختصاصها •

والخطأ الاول مسؤول عن تسرب الخرافات الوثنية والمعلومات البشرية الى

كثير من تعاليم المسيحية اذ جعلتها الكنيسة عقائد الهية تدخل في صلب الدين وصميمه ،وعدت الكفر بها كفرا بالوحى والدين •

والخطأ الثاني نشأ عن ضيق صدر الكنيسة بما يخالف تعاليمها الممزوجة واصرارها الاعمى على التشبث بها فكان الامتداد الطبيعي للطغيان الديني طغيانا فكريا عاما ، وحاسبت الناس لا على معتقدات قلوبهم فحسب بل على نتائج قرائحهم وبنات افكارهم ، وتوهمت ان في قدرتها ان تملك ما لا تستطيع اية قوة طاغية ان تحتكره وهو الحقيقة العلمية فيما يتعلق بالتجربة المحسوسة او النظر العقلي السليم • وبذلك اقحمت نفسها في متاهات كانت غنية كل الغنى عن عبورها واثارت على نفسها حربا ضروسا لا هوادة فيها ولا تمييز •

واول عمل مارسته الكنيسة في هذا المجال هو احتكارها للعلم وهيمنتها على الفكر البشرى بأجمعه ،يقول برنتن :

" ان اكثر اصحاب الوظائف العلمية حتى في اوج العصور الوسطى كانوا ينتمون الى نوع من انواع المنظمات الدينية وكانوا جزءاً من الكنيسة حيث ان الكنيسة بدرجة لا نكاد نفهمها اليوم تتدخل في كل لون من الوان النشاط البشرى وتوجهها وخاصة النشاط العقلي " " واذن فقد كان الرجال الذين يتلقون تعليمهم في الكنيسة يكادون يحتكرون الحياة العقلية فكانت الكنيسة منصة المحاضرة والصحافة والنشر والمكتبة والمدرسة والكلية " (١) وكان اصحاب الميول الفلسفية في الدولة الرومية سواء من رجال الكنيسة او من المسيحيين العاديين

---

(١) افكار ورجال : ٢٣١

متأثرين بتراثهم من الفكر الاغريقي في ميادين العلم والفلسفة لا سيما آراء ارسطو وبطليموس وقد بذلوا جهودهم في التوفيق بين معتقداتهم الدينية وارائهم الفلسفية ونشأ عن ذلك فلسفة مركبة تسمى " الفلسفة المسيحية "، وهي خليط من نظريات الاغريق وظواهر التوراة والاناجيل واقوال القديسيين القدامى ، ولما كان العلم والفلسفة في ذلك العصر شيئا واحدا فقد ادمج الفلاسفة المسيحيون في صرح فلسفتهم كل ما وصل اليه العلم البشرى في عصرهم من النظريات الكونية والجغرافية والتاريخية ، ورات الكنيسة في هذه الفلسفة التوفيقية خير معين على الدفاع عن تعليمها ضد المارقين والناقدين (٢) فتبنتها رسميا واقرتها مجامعها المقدسة حتى اضحت جزءا من العقيدة المسيحية ذاتها وامتدت يد التحريف فادخلت بعض هذه المعلومات في صلب الكتب الدينية المقدسة .

ولم يبدأ عصر النهضة الاوربية في الظهور حتى كانت اراء ارسطو في الفلسفة والطب ونظرية العناصر الاربعة ونظرية بطليموس في ان الارض مركز الكون . وما اضاف الى ذلك القديس اوغسطين وكليمان الاسكندرى وتوما الاكويني اصولا من اصول الدين المسيحى وعقائد مقدسة لا يصح ان يتطرق اليها الشك .

وكانت الفلسفة المسيحية هذه تشتمل على معلومات تفصيلية عن الكون تقول : أن الله خلق العالم ابتداء سنة ٤٠٠٤ ق م وتوج ذلك بخلق الانسان في جنة عدن على مسيرة يومين من البصرة بالضبط ، والعجيب انها ظلت مصرة على هذا الرأى

---

(٢) انظر استمواء المسيحيين للفلسفة من كتاب المشكلة الاخلاقية والفلاسفة ص ١٠١ فمابعد .

حتى مطلع القرن التاسع عشر فقد طبع كتاب الاسقف آشر " الذى يحمل هذه النظرية سنة ١٧٧٩ م . (٣)

اما تاريخ الطوفان فتختلف فيه تقاويم التوراة لكنه على أقصى ارائها وقع بعد خلق آدم بـ (٢٢٦٢) سنة (٤) ومعنى ذلك انه كان سنة ١٧٤٢ ق م، ومن الطريف ان مجلسا كنسيا كان قد اعلن في بداية القرن العاشر للميلاد ان القرن الاخير من حياة العالم قد استهل لان الله قد جعل المدة بين انزال ابنه ونهاية العالم الف سنة فقط . (٥)

اما معلوماتها الطبية فقد كانت افضل وانجع الوسائل العلاجية في نظرها اقامة الطقوس لطرد الشياطين التي تجلب المرض ورسم اشارة الصليب ووضع صور العذراء والقديسين تحت راس المريض ليشفى .

وعرفت اوربا الطريق الى النهضة بفضل مراكز الحضارة الاسلامية في الاندلس وصقلية وجنوب ايطالية التي كانت تشع نور العلم والمعرفة على القارة المستغرقة في دياجير الخرافة والجهل ، فاستيقظ العقل الاوربي من سباته واخذ يقتبس عن المسلمين طرائق البحث ومناهج التفكير التي تجعله يكد ويعمل في مجال اختصاصه دون وصاية ضاغطة .

---

(٣) انظر معالم تاريخ الانسانية جـ ١ ص ١٦ .

(٤) انظر اظهار الحق : ٢١٨

(٥) انظر قصة الحضارة ١٤ : ٣٧٩

وثارت ثائرة رجال الكنيسة على الذين يتلقون علوم الكفار (المسلمين)، ويعرضون عن التعاليم المقدسة فاعلنت حالة الطوارئ ضدهم وشكلت محاكم التفتيش في كل مكان تتصيدهم وتذيقهم صنوف النكال. وأصدرت منشورات بابوية جديدة تؤكد العقائد السابقة وتلعن وتحرم مخالفيها وبذلك قامت المعركة على قدم وساق وأخذت تزداد سعارا بمرور الايام.

وكان من سوء طالع الكنيسة ان النظريات الكونية سبقت النظريات الانسانية في الظهور وهي نظريات أثبتت الايام صحتها -اجمالا- بخلاف الاخرى وبذلك قدر للكنيسة ان تصطدم بالصحيح قبل الزائف فلما خسرت معركتها معه سهلت هزيمتها امام الاخر.

هذا وسنستعرض بايجاز هذا الصراع مراعين التسلسل التاريخي :

اولا : مطلع العصر الحديث والقرن السابع عشر :

ان النظرية التي هزت الكنيسة لاول مرة هي نظرية كوبرنيق (١٥٤٣) الفلكية، فقبل هذه النظرية كانت الكنيسة المصدر الوحيد للمعرفة وكانت فلسفتها تعتنق نظرية بطليموس التي تجعل الارض مركز الكون وتقول ان الاجرام السماوية كافة تدور حولها (٦).

فلما ظهر كوبرنيق بنظريته القائلة بعكس ذلك كان جديرا بان يقع في قبضة محكمة التفتيش، ولم ينج من ذلك لانه كان قسيسا بل لان المنية ادركته بعد طبع كتابه بقليل فلم تعط المحكمة فرصة لعقوبته، الا ان الكنيسة حرمت كتابه " حركات الاجرام السماوية " ومنعت تداوله وقالت ان ما فيه هو وساوس شيطانية

---

(٦) حول هذه النظرية انظر كتب غيرت وجه العالم • داونز الفصل الخامس بكتاب كوبرنيق •

مغايرة لروح الانجيل •

وظنت ان امر هذه النظرية قد انتهى ، ولكن رجلاً آخر هو " جردانو برونو " بعث النظرية بعد وفاة صاحبها فقبضت عليه محكمة التفتيش وزجت به في السجن ست سنوات فلما اصر على رأيه احرقته سنة ١٦٠٠ م وذرت رماده في الهواء وجعلته عبرة لمن اعتبر •

وبعد موته ببضع سنوات كان " جاليلو " قد توصل الى صنع المرقب " التلسكوب " فأيّد تجريبيا ما نادى به اسلافه نظريا فكان ذلك مبررا للقبض عليه ومحاكمته و " قضى عليه سبعة من الكرادلة بالسجن مدة من الزمان وأمر بتلاوة مزامير الندم السبعة مرة كل اسبوع طوال ثلاث سنوات " (٧) ولما خشي على حياته ان تنتهي بالطريق التي انتهى بها برونو اعلن ارتداده عن رأيه وهو راكع على قدميه أمام رئيس المحكمة قائلا :

" أنا جاليلو وقد بلغت السبعين من عمرى سجين راكع أمام فخامتك ـ والكتاب المقدس أمامي ألمسه بيدى أرفض وألعن وأحتقر القول الالحادى الخاطئ بدوران الارض " وتعهد مع هذا بتبليغ المحكمة عن كل ملحد يوسوس له الشيطان بتأييد هذا الزعم المضلل (٨) هؤلاء هم زعماء النظرية وهذا هو موقف الكنيسة منهم ، وليس غريبا ان تضطهدهم وتحارب افكارهم فان أفكارها لا تعيش الا في الظلام وهي لم تستعبد الناس بالحق بل بالخرافة

---

(٧) معالم تاريخ الانسانية ١/١٠٠٨

(٨) قصة النزاع بين الدين والفلسفة : توفيق الطويل / ٢٠٥ وانظر كذلك تكوين العقل الحديث ٣/٣٤٨ •

ولكن الغريب هو أدلتها الدينية التي ساقتها لتكذيب النظرية ـ وما كان ليضير الدين في شيء ان تصدق او تكذب •

قالت الكنيسة : ان الأرض يجب ان تكون مركز الكون الثابت لان الأقنوم الثاني " المسيح " تجسد فيها ، وعليها تمت عملية الخلاص والفداء وفوقها يتناول العشاء الرباني ، كما ان التوراة تقول " الارض قائمة الى الابد والشمس تشرق والشمس تغرب وتسرع الى موضعها حيث تشرق " (٩) •

أما كروية الارض وسكنى جانبها الآخر فنفتها الكنيسة بحجة ان " من خطل الرأى ان يعتقد الانسان بوجود أناس تعلو مواطيء اقدامهم على روؤسهم ووجود نباتات وأشجار تنمو ضاربة الى اسفل ، وقالت انه لو صح هذا الزعم لوجب أن يمضي المسيح الى سكان الوجه الآخر من الارض ويموت مصلوبا هناك من أجل خلاصهم " • (١٠)

ومع ذلك فلم يكد القرن السابع عشر يستهل حتى كان لنظرية كوبرنيق وما اضاف اليها برونو وجاليلو اثار واسعة ، ظلت راسخة في الفلسفة الاوربية عامة فقد أفقدت الكثيرين ثقتهم في الكنيسة وأدت الى التشكيك في سلامة معلوماتها وهو أثر له أهميته القصوى .كما انها اعطت الأولوية للتجربة والبحث العقلي في الوصول الى الحقائق ، واضافة الى ذلك قدمت ايحاءات فلسفية جديدة فقد هزت

---

(٩) المصدر السابق ٢٠٣

(١٠) المصدر السابق ١٦٧

وفي اصل العهد القديم " الارض قائمة مدى الدهر " انظر الفصل الاول : ٥ ـ ٦ سفر الجامعة •

فكرة الثبات المطلق التي كانت مسيطرة على العقلية الاوربية وحطت كذلك من قيمة الانسان ومكانته في الوجود ـ أو هكذا تخيل الناس آنذاك ـ .

وفي القرن السابع عشر تبلور النزاع واتخذ شكلا جديدا فقد اصبح النزاع بين مرقب جاليلو وحجج الكنيسة الواهية نزاعا بين النص الذى تعتمد عليه ادلتها وبين العقل والنظر الذى استند اليه اصحاب النظريات الجديدة .

وثار العلماء ودعاة التجديد مطالبين بتقديس العقل واستقلاله بالمعرفة بعيدا عن الوحى ، ولم يجرؤ دعاة المذهب العقلي أول الأمر على انكار الوحي بالكلية بل جعلوا لكل من الطرفين دائرة خاصة يعمل فيها مستقلا عن الآخر .

وكان مذهب " ديكارت " ابرز المذاهب الفلسفية في هذا العصر ، وقد دعا الى تطبيق المنهج العقلي في الفكر والحياة واستثنى من ذلك ـ لسبب ما ـ الدين والعقائد الكنسية والنصوص المقدسة وكان يرى " أن ميدان العلم الطبيعة ، وموضوعه استغلال القوى الطبيعية وأدواته الرياضة والتجربة ويختص الدين بمصائر النفس في العالم الاخر ويعتمد على الاعتقاد والتسليم فلا مضايقة بين العلم والدين ولا سلطان لاحدهما على الاخر " (١١) .

وهذه الازدواجية الديكارتية وجدت لها نظيرا في منهج بيكون التجريبي الذى قال عنه اندرسن : " ان أعظم مآثر بيكون الفصل بين العلم البشرى والوحي الالهي " . فعند بيكون يمكن ان تكون أى قضية خاطئة تماما

---

(١١) العلم والدين في الفلسفة المعاصرة : اميل بوترو / ١٩ .

في نظر العقل ولكنها صحيحة تماما لانها نظـــر الدين .(١٢)

والواقع ان المذهب الازدواجي ليس الا مرحلــة طبيعية في سلـــم التدين من الايمان المطلق بالوحـــى الى الانكار المطلق له .

ومع ذلك فقد وُجد فلاسفة اخرون معاصرون لهوءلاء لم ترق لهـــم هذه الفلسفة بل أغرتهم تفاهة آراء الكنيسة وحقدهم عليها أن يهاجمـــوا التعاليم الدينية هجوما مباشرا .

وكان " سبينوزا " - بحكم يهوديته ـ أعنف هوءلاء ،فقد طبق المنهـــج العقلي على الكتاب المقدس نفسه ووضع الاسس التي قامت عليها " مدرســـة النقد التاريخي " التي ترى انه يجب ان تدرس الكتب الدينية على النمـــط نفسه الذى تدرس به الأسانيد التاريخية على أساس انها تراث بشـــرى وليست وحيا الهيا ، وبالفعل حقق سبينوزا نتائج ايجابية :

فمثلا استنتج أن أسفار التوراة لم يكتبها موسى مستدلا بما جاء فـــي سفر التثنية من ذكر موت موسى ورثائه وقول كاتب السفر " لم يأت نبى مثله مـــن بعده " . وايضا استطاع أن يثبت أن التوراة قد عينت اماكن باسماء لم توضـــع لها الا بعد موسى بقرون عديدة .(١٣) كما استطاع باسكال ان يوجـــه نقده الى عقيدة الخطيئة قائلا " لا شيء يزحم العقل الانساني بالألم كعقيدة ـ الخطيئة الاصلية وانه ليبدو أبعد ما يكون عن العقل ان يعاقب انسان مـــن

(١٢) انظر عن بيكون سلسلة تراث الانسانية ج ٢

(١٣) انظر " المشكلة الاخلاقية والفلاسفة " ١٢٢ ورسالة في اللاهوت والسياسة لسبينوزا ترجمة حسن حنفى .

أجل خطيئة اقترفها احد أسلافه منذ أربعة آلاف سنة " (١٤) .

أما " جون لوك " فقد خطا خطوة أبعد من ديكارت بأن طالب باخضاع الوحي للعقل عند التعارض قائلا " من استبعد العقل ليفسح للوحي مجالا فقد اطفأ نور كليهما وكان مثله كمثل من يقنع انسانا بأن يفقأ عينيه ويستعيض عنهما بنور خافت تلقاه بواسطة المرقب من نجم سحيق " (١٥) كما دعا الى تطبيق مبدأ جديد على الحياة الاوربية آنذاك وهو مبدأ التسامح الديني وأعطاء الحق لكل انسان في ان يعتنق ما يشاء ويكفر بما يشاء من الاديان والمذاهب .

على ان نقد هؤلاء الرواد لم يصل بهم الى انكار الوحي والرسالات السماوية بصراحة كما أنه ظل خافتا أمام بطش محاكم التفتيش او على الاقل امام ضغط المجتمع الذى كان يدين بالمسيحية ويراها جزءا من كيانه وتراثا عزيزا عليه .

وقد تعرضت كتب ديكارت وسبينوزا ولوك وأضرابهما للحرق والمصادرة كما تعرضوا شخصيا للايذاء والمضايقة من قبل الكنيسة . الا ان تفجر البركان العلمي في كل مكان والخلافات الداخلية بين الطوائف المسيحية شغلتها عن اعطائهم ما يستحقون من الاهتمام .

كما ان النظريات الجديدة عن الكون في هذا القرن قد غمرت الافكار ـ

---

(١٤) المصدر السابق : ١٣٣

(١٥) قصة النزاع ... / ٢١٤

الفلسفية واستأثرت بالاهتمام البالغ من قبل الاوساط الدينية والعلمية على السواء، واعظم هذه النظريات " نظرية الجاذبية " لاسحق نيوتن .

ولد اسحق نيوتن في السنة التي توفى فيها جاليلو ١٦٤٢ وبعد عمله تتميما لما بدأه جاليلو فقد مهد اكتشاف جاليلو لقانون البندول سنة ١٦٠٤م الطريق امام النظرية القائلة " انه من الممكن تفسير ظواهر الطبيعة بربط بعضها ببعض دون حاجة الى تدخل قوى خارجية عنها " (١٦) وبذلك كان هذا الاكتشاف الضئيل بمثابة النواة للمذهب " الطبيعي " والنظرية الميكانيكية اللذين كان لهما صدى واسع فيما بعد .

وقد حاربت الكنيسة هذه النظرية وشنعت على معتنقيها قائلة : ان الاشياء لا تعمل بذاتها ولكن عناية الله هي التي تسيرها ، ولم تكن الكنيسة من سعة الافق على جانب يسمح لها بتفهم عدم المنافاة بين نسبة الافعال الى الله تعالى باعتباره الفاعل الحقيقي وبين نسبتها الى الاسباب باعتبارها وسائط مباشرة، بل كان حنقها على كل جديد صارفا لها عن ذلك ، كما ان اصحاب النظرية اندفعوا وراء رد الفعل الاهوج فأنكروا عمل العناية الالهية وربطوا الاسباب ـ بالمسببات معتقدين ان كل ما عرفت علته المباشرة فلا داعي لافتراض تدخل الله فيه ـ حسب تعبيرهم ـ .

فلما جاء نيوتن بنظرية الجاذبية مؤيدة بقانون رياضي مطرد انبهرت عقول

---

(١٦) العلوم والدين : ١٩ .

الفئات المثقفة واتخذها اعداء الدين سلاحا قويا حتى لقد سميت " الثـــورة النيوتونية " وأحس هؤلاء بنشوة انتصار عظيمة فقد أمكن تفسير الكون كله بهذا القانون الخارق كما تاكد صحة نظريات كوبرنيق وبرونو وجاليلو ، وفي الوقت نفسه اهتز موقف الكنيسة وتداعت حججها الواهية اكثر من ذى قبل ، ولجأت الى التعسف والعنف وهاجم رجالها نيوتن الذى كان مؤمنا بوجود الله ، بحجة انها تفضي الى انكـــار وجود الله ، بنفي العناية الالهية من الكون ، وقد ثبت انهم كانوا على حـــق في توقعهم هذا ، لكنهم كانوا مخطئين في موقفهم من النظريـــة فقد ساعد هـــذا الموقف الخاطيء على الوصول الى تلك النتيجـــة الباطلة .

ولا شك ان نظرية نيوتن من اعظم النظريات العلمية اثرا في الحيـــــاة الاوربية فهي التي وضعت اساس الفكر المادى الغربى واليها يعزى الفضل الاكبر في نجاح كل من المذهب العقلي والمذهب الطبيعي ، كما ان مذهب الايمان بإلـــــه مع انكار الوحي، والالحاد ذاته مدينان لهذه النظرية من قريب أو بعيد ، على ان هذه الآثار لم تظهر الا فيما بعد .

أما في القرن السابع عشر فان النتائج الايجابية التي أمكن للعلماء ان يكونوا منها النظرية العلمية المعادية لتعاليم الكنيسة والتي اشتقت من نظريتي كوبرنيـــق ونيوتن ـ هي كما لخصها " برتراند رسل " ثلاث نتائج :

" ١ ـ ان تقرير الحقائق يجب ان يبنى على الملاحظة لا على الرواية غير المؤيدة (اى النصوص) .

٢ ـ ان العالم غير الحيواني نظام متفاعل في نفسه مستبق لنفسه وتنطبق كل التغيرات فيه مع قوانين الطبيعة .

٣ ـ ان الارض ليست مركز الكون وان الانسان ربما لا يكون الهدف من وجودها اذا كان لوجودها اى هدف ، وفوق ذلك ان فكرة الهدف فكرة لا فائدة

منها من الناحية العلمية " (١٧) .

وإذا كان القرن السابع عشر هو قرن الانتفاضة العارمة على الكنيسة ومبادئها فانه كذلك القرن الذهبي لمحاكم التفتيش فقد قاسى العلماء انواع الاضطهاد ،واستخدمت ضدهم أساليب القمع الوحشية وظهرت الفهارس او "القوائم البابوية " التي تحتوى على اسماء الكتب المحرمة وكان وجود شيء من هذه الكتب في حوزة انسان ذريعة لسوقه الى محكمة التفتيش وتعريضه لأليم عقابها .

وقاومت الكنيسة كل محاولة للتجديد وان كانت نافعة خيّرة فقد كفرت رئيس بلدية في المانيا لأنه اخترع غاز الاستصباح بحجة ان الله خلق الليل ليلا والنهار نهارا وهو بمخترعه يريد تغيير مشيئة الخالق فيجعل الليل نهارا " (١٨) .

واضطرب حبل الكنيسة بظهور الروح الجديدة اضطرابا واضحا وألقت بكل ثقلها في معركة كانت في غنى عن دخولها، أمام الناس ـ لا سيما المثقفون ـ فقد اهتبلوا الفرصة وخيل اليهم أن الاقدار قد ألقت اليهم مفتاحا سحريا يخلصهم من سجن الكنيسة واغلالها ذلك هو مفتاح " العلم والتجربة " .

كان ايمان هؤلاء بالمسيحية متغلغلا الى درجة يصعب معها فراقه ولكن كفرهم برجال الدين ـ اولئك الطغاة المتغطرسين ـ كان كفرا صريحا لاهوادة فيه .

---

(١٧) اثر العلم في المجتمع : ٦ .

(١٨) محاضرات الموسم الثقافي بالكويت ١/ ٢٧٥

ونستطيع ان نقول : ان ما قام به علماء وفلاسفة القرن السابع عشر من هجوم على الدين ليس في حقيقته سوى اندفاع اعمى ورد فعل غير موجه هدفه الانفكاك من ربقة الكنيسة والتحرر من عبوديتها فلم يكن همهم " الى اين نتجه ؟ " بقدر ما كان " كيف نهرب ؟ " •

ولكن التأثيرات والايحاءات الفلسفية لنظرية نيوتن أسهمت في ايجاد فكر لا ديني منظم ينتهج طرائق محددة وان كان قد ظل مشوبا بالتعصب والسلبية مندفعا في مهاجمة الكنيسة ومعتقداتها •

ولعل من الصواب ان نقول : ان نظرية نيوتن لم تمهد فكريا للثورة الفرنسية فحسب بل انها قطعت نصف الطريق الى داروين ايضا •

والكلام عن اثار النيوتينية ينقلنا الى القرن الثامن عشر الذي كان دخوله ايذانا بأفول نجم الكنيسة وولادة آلهة جديدة لا كنائس لها •

ثانيا : القرن الثامن عشر :

يتميز القرن الثامن عشر بظهور روح الشك العام في كل شيء تقريبا ، ومع ذلك فقد ظهرت فلسفات ايجابية متنوعة يدور محورها حول كلمتين هما في الواقع صنمان استحدثهما الهاربون من نير الكنيسة ليحلا محل الهها المخيف وهما " العقل والطبيعة " • اما العقل فلم يعد مقيدا باغلال الثنائية الديكارتية بل بدأ يبحث عن ذاته ويسلك طريقه لكي يتصرف كما لو كان " الها " بالفعل ، وتعالت اصوات الباحثين والفلاسفة منادية بأن العقل هو الحكم الوحيد والعقل هو كل شيء وما عداه فوهم وخرافة ، الوحي يخالف العقل فهو أسطورة كاذبة ،

والمعجزات لا تتفق ومألوف العقل فهي خرافات بالية . والفداء والصليب والرهبانية .. الخ كلها اباطيل مضللة وعقائد مرذولة لأنها لا تتسق مع العقل . والصنم الثاني كان "الطبيعة" يقول " سول " :

" صار لزاما على الذين نبذوا الايمان بالله كلية ان يبحثوا عن بديل لذلك وجدوه في الطبيعة " (١) وكتب الفكر الغربي تسمى ذلك العصر عصر " تأليه الطبيعة " او عبادة الطبيعة وليست هذه العبارات مجازا بل هي مستعملة على الحقيقة تماما . فكل صفات الله التي عرفها الناس عن المسيحية نقلها فلاسفة الطبيعة الى الههم الجديد ، مع فارق كبير بين الالهين في نظرهم :

فاله الكنيسة بطاش حقود يعذب السلالة البشرية ويقتل ابنه لان الانسان الاول أكل فاكهة من حديقته .

وهو اله متعنت يضع القيود الاعتباطية على حرية الانسان ويقيده بالالتزامات ويفرض عليه الرهبانية والخضوع المذل لممثليه على الأرض .

أما الطبيعة فاله " جذاب " رحب الصدر ليس له كنيسة ولا التزامات ولا يستدعي طقوسا ولا صلوات وكل ما يطالب به الانسان ان يكون انسانا طبيعيا يلبي مطالبه الطبيعية في وضوح وصراحة .

---

(١) جورج سول : المذاهب الاقتصادية الكبرى : ٥١

والاله الجديد ليس له رجال دين يستعبدون الناس لأنفسهم ولا كتاب مقدس متناقض ولا اسرار عليا مقدسة ،بل له دعاة من امثال " روسو ، وفولتير وديدرو " وله كتب علمية هي " دائرة المعارف " او العقد الاجتماعي " او " روح القوانين " .

والقانون الطبيعي " الجاذبية " يجعل الكون مترابطا متناسقا لا اضطراب فيه ولا خلل وبالمقابل جعلت الطبيعة للانسان قانونا طبيعيا يكفل له السعادة التامة ولكن النظم الانسانية والاديان طمست هذا القانون فشقي الانسان وتعذب .

تلك هي المبادئ الاولى للمذهب الطبيعي الذى تبلور ليصبح دينا انسانيا عند " كومت " في القرن التاسع عشر ، وعنه انبثقت الماديات المتعددة التي تفسر الكون تفسيرا آليا حسب القوانين التي سميت " قوانين الطبيعة " .

أما هنا في القرن الثامن عشر فان عبادة العقل والطبيعة هي ميزة العصر الذى يسمى " عصر التنوير " .

ويصف " برنتن " شيئا من مظاهر الصراع بين الدين والعلم في هذا العصر بقوله :

" كان العقل للرجل العادى في عصر التنوير هو كلمة السر الكبرى لعالمه الجديد ، العقل هو الذى يسوق الناس الى فهم الطبيعة " وهذه هي كلمة السر الثانية الكبرى " وفهمه للطبيعة يصوغ سلوكه طبقا لها وبذلك يتجنب المحاولات العابثة التي قام بها في ظل افكار المسيحية التقليدية الخاطئة وما يحالفها في الاخلاق والسياسة مما يناقض الطبيعة " (٢).

---

(٢) افكار ورجال : ٤٧٤ ، ٤٧٦

" والعقل يبين ان الرهبانية تعنى اسرافا عظيما في قدرة الانسان الانتاجية، واوضح من ذلك أن العقل يبين أنه من غير الطبيعي للكائنات البشرية صحيحة البدن ان تمتنع بتاتا عن الاتصال الجنسي، وان التبرير الديني لمثل هذا السلوك غير الطبيعي كان هراء كهراء فكرة الشياطين التي تستولى على المجنون " .

" ان المسيحية التقليدية لم تعد قادرة على ان تمد المستنيرين بنظرية كونية فقد بدأ الناس يعرفون ما يكفي من الجيولوجيا لكي يبين ان تاريخ الخليقة الذى حدده الاسقف "آشر" بعام ٤٠٠٤ ق م وتاريخ قصة الطوفان بعيدا الاحتمال . ولكن لم تكن هناك حاجة الى ان ينتظر الناس نمو المعرفة الجيولوجية ، خذ مبدأ التثليث في المسيحية مثلا : ان الرياضة كانت ضد هذا المبدأ فان اى نظام رياضي محترم لا يسمح بأن يكون الثلاثة ثلاثة وواحدا في آن واحد ، أما عن المعجزات فلماذا توقفت؟ اذا امكن احياء الميت في القرن الأول فلماذا لا يحيا في القرن الثامن عشر " (٣) .

وربما كان اعدى اعداء الكنيسة آنذاك هو " فولتير " ولنقتطف نماذج من نقده للدين ورجاله من كتابه " القاموس الفلسفي " :

" أول ما انتقد فولتير العقيدة المسيحية في التثليث وتجسيم الاله والصور المقدسة وأنحى باللائمة على بولس الذى طمس المسيحية وحرفها ، ولذلك كان الايمان بالمسيحية في نظره هو " الاعتقاد بأشياء مستحيلة اوباشياء تستعصي على الفهم فالحية تتكلم والحمار يتحدث وحوائط أريحا تتساقط بعد سماعها صوت الابواق ، ان الايمان على هذا النحو هو على ما يقول أرازم هو الجنون " .

" أما الخطيئة الاولى فيرفضها فولتير كذلك ويعتبرها اهانة لله

---

(٣) المصادر السابق : ٤٧٦ .

واتهاما له بالبربرية والتناقض وذلك للتجرؤ على القول بأنه خلق الأجيال البشرية وعذبها لان أباهم الاول قد أكل فاكهة من حديقته" (٤) .

وينقد فولتير الطقوس السبعة نقدا مريرا ويسخر من الكتاب المقدس سخرية لاذعة تتجلى في قوله تعليقا على معلومات التوراة الجغرافية :

" من الواضح ان الله لم يكن قويا في الجغرافيا " (٥) وقوله ان صيام المسيحية " دواء للفقراء لا يتعاطاه الاغنياء " ويرى " ان الطقوس والشعائر والعبادات والاحتفالات الدينية جرائم محلية يعاقب عليها كل من يزاولها لانها ضارة بالمجتمع خاصة اذا تمت في صورة أضاح وقرابين " أما آراؤه السياسية فقد عبر عنها بقوله :

" ان التوحيد بين الدين والدولة لهو ابشع نظام لذلك يجب الغاؤه واقامة نظام آخر يخضع فيه رجال الدين لنظم الدولة ويخضع فيها الراهب للقاضي " وقوله :

" انه لا يمكن طاعة البشر باسم طاعة الله بل لا بد من طاعة البشر باسم قوانين الدولة " . ولقد جزعت الكنيسة من هذه الانتقادات والاراء جزعا شديدا ولعنت فولتير وأشياعه وكفرتهم وحرمت قراءة كتبهم وتعرض فولتير للمضايقة والاضطهاد من قبل رجال اللاهوت حتى انه قال مخاطبا انسان ذلك العصر

---

(٤) سلسلة تراث الانسانية جـ ٨ ص ٧٨ ، ٨٠

(٥) قصة النزاع ٠٠/ ١٩٠

" انت طائر في قفص محاكم التفتيش لقد قصت محاكم التفتيش جناحيك " (٦) .

وفي انجلترا طور جيبون النقد التاريخي للمسيحية في كتابه " سقوط الامبراطورية الرومانية واضمحلالها " " اما هيوم فقد ابتدع مذهب الشك المطلق الذى كان ثورة نفسية على الايمان المطلق طوال القرون الماضية .

وجدير بالذكر ان شيوع المذهب العقلي الطبيعي في عصر التنوير قد نتج عنه بالاعتماد على نظرية نيوتن مذهبان جديدان على العالم المسيحى ينمان عن التخبط والضياع :

الاول : مذهب المؤلهة الربوبيين " دايزم " (Deism) " أو المؤمنين بالله مع انكار الوحى وهذا المذهب يمثل فكرة انتقالية لان الوثبة من الـمسيحى الى عدم وجود اله كانت مستحيلة كما يقول برنتن .

" هذا المذهب هو اقرب انعكاس ممكن واضح لعالم نيوتن الذى يخضع للنظام ويدور وفقا للقانون والاله في هذا المذهب هو الشخص المسؤول عن التدبير والبناء وتحريك هذا العالم الآلى " .

وكان من زعماء هذا المذهب " فولتير وبوب " ومعهم عدد آخر ممن كانوا يرون ضرورة الايمان بالله — ولو امام الجمهور — أما الوحي فانكروه لأن اثباته يعنى صحة تعاليم عدوهم الكنيسة ، وليس معنى ذلك أن ايمانهم بالله يمكن ان يسمى

---

(٦) مقتطفات من سلسلة قراءات انسانية ج ٨ ص ٨٠ — ٨٧

ايمانا على الحقيقة فان كل عمل هذا الاله في نظرهم هو انه خلق الكون ثم تركه يدور وفق القوانين المودعة فيه والتي اوضحها نيوتن فهو يشبه صانع الساعة الذى يديرها ثم يدعها تتحرك من تلقاء نفسها • أما الانسان فقد منحه العقل وتركه وشأنه فهو وان كان جزءا من آلة الكون العظمى الا انه عليه ان يستغل مواهبه ويستخدم عقله بما يتمشى مع قانون الطبيعة • " ومن الواضح (في نظر اصحاب هذا المذهب) أنه ليست هناك فائدة من الصلاة للاله الذى يشبه صانع الساعة والذى لا يستطيع ـ وحتى ان اراد ـ ان يتدخل فيما صنعت يداه •

" ومن الواضح كذلك أن هذا الاله لم يظهر لموسى في صحراء سيناء ولم يرسل ابنه الاوحد الى الارض ليخلص الناس المذنبين بل لا يمكن ان يكون له ابن " (٧) •

الثاني : المذهب الالحادى المادى : ان تهافت مذهب المؤلهة وتفاهته هي التي اوحت الى بعض معاصريهم بانكار هذا الاله البعيد البارد الذى لا أثر له ولا ضرورة لاختراعه كما تقول حكمة فولتير " اذا كان الله غير موجود فلا بد من اختراعه "! • فالطبيعة تغنى عنه والاعتراف بوجوده هو نوع من الاقرار بصحة دعاوى الكنيسة ، فالأولى أن نستبعد وجوده نهائيا ، ارغاما لانف الكنيسة على الاقل •

---

(٧) افكار ورجال ٤٧٧ ـ ٤٧٨ •

وتطوف منهم طائفة " رأوا ان الله شر ايجابي وخاصة اذا كان اله الكنيسة الكاثوليكية الرومانية " •

يقول " كرسون " :

" ذهب بعضهم في الانكار الى أبعد حد انهم يدعوننا حتى الى حذف لسم الله نفسه وفي هذا يقول " دولباخ " :

" ان عقيدة الله المأثورة نسيج من المتناقضات ، ان فكرة الله هي الضلالة المشتركة للنوع الانساني " (٨) •

تلك هي الخطوط العامة في القرن الثامن عشر للصراع بين الكنيسة والدين • على انه ينبغي ان ننبه الى ان هذا الصراع كان مقتصرا على الفلاسفة والطبقات المثقفة ولم يتجاوز ذلك الى القاعدة الشعبية وصبح لا شعبية جماهيرية الا بعد الثورة الفرنسية التي قامت في اواخر هذا القرن سنة ١٧٨٩ م ، وقيامها رسم معلم واضح من معالم التاريخ الاوربي ، وافتتح عصر جديد من الصراع بين الدين واللادين يستحق ان يفرد له فصل مستقل •

---

(٨) المشكلة الاخلاقية والفلاسفة : ١٣٨

الفصـــل الثالـــث

" الثورة الفرنســـــــية "

ان النظام الاجتماعي الذى هيمن على الحياة الاوربية طيلة القـــرون الوسطى هو نظام " الاقطاع " وربما كان ابشع واظلم النظم الاجتماعيـــة في التاريخ .

ولا شك ان الظلم دائما سمة من سمات الحكم الجاهلي لاى مجتمع في كـل زمان ومكان ، ولكن صورته في المجتمع الاوربي الاقطاعي كانت أتم واظهر (١) ، ففي الفترة التي كان فيها الشرق المسلم ينعم بالحيـاة في ظل أفضـــل وأعدل مجتمع عرفه التاريخ كان الغرب المسيحى يرزح تحت نير هذا النظـــام البغيض .

والفطرة البشرية ـ كما خلقها الله ـ تأبى الظلم وتنفر منه مهما طـال رضوخها له ، ولذلك فانها تنتهز ادنى فرصة سانحة للثورة عليه وتقويض دعائمه .

وترتبط اولى محاولات الانسان الاوربي الانفلات من المظالم الاقطاعيـــة بالاحتكاك المباشر بالمسلمين عن طريق الفتوحات الاسلامية في اوربا ، وبلغ ذلـــك ذروته ابان الحروب الصليبية .

وليس غريبا ان يكون أرقاء فرنسا هم رواد الثورة على الاقطاعيـــــــين فان موقعها الجغرافي المحاذى للجزء المسلم من أوربا " الاندلس " ثم حملاتهـــا

---

(١) انظر فصل علمانية الاقتصاد من الباب الثالث موضوع " صورة مجملة لنظام الاقطاع " .

الصليبية الكثيفة مضافا اليهما بعدها النسبي عن مركز البابوية في روما كل هذه جعلتها أقرب الى روح التحرر والانطلاق •

وهكذا قامت في فرنسا اول ثورة فلاحية " الجاكريه " في القرن الرابع عشر للميلاد وهي وان اخفقت ، كالشأن في المحاولات الاولى ـ فقد هيأت الاذهان لامكان القيام بعمل ناجح مستقبلا . وأثرت في ظهور انتفاضات مماثلة في انحاء القارة •

وكان من العوائق الكبرى التي خيبت جهود الثائرين ان الكنيسة " اكبر الملاك الاقطاعيين " وقفت ضدهم وأجهضت محاولاتهم •

فالكنيسة لم تكتف بصد الناس عن نور الاسلام بل ناقضت تعاليم الانجيل الداعية الى المحبة والتسامح ونافست الامراء الاقطاعيين في اذلال ـ الشعوب وقهرها •

ويأتي التبرير المسيحي لنظام الاسترقاق الاقطاعي على يد القديس توما الاكويني الذى فسره بأنه " نتيجة لخطيئة آدم " (٢) وكأن رجال الكنيسة والبارونات ليسوا من بنى آدم • وهناك حقيقة ينبغي ألا تغيب عن اذهاننا فيما يتعلق بالثورات الفلاحية ، وهي ان هذه الثورات لم تكن تمردا على الكنيسة لأنها كنيسة بل لأنها " مالك اقطاعي " •

يقول ويلز " كانت ثورة الشعب على الكنيسة دينية ••• فلم يكن اعتراضهم

---

(٢) قصة الحضارة ٤٠٦/١٤

على قوة الكنيسة بل على مساوئها ونواحي الضعف فيها وكانت حركات تمرد هـــم على الكنيسة حركات لا يقصد بها الفكاك من الرقابة الدينية بل طلب رقابـــة دينية اتم واوفى ... وقد اعترضوا على البابا لا لأنه الرأس الديني للعالـــم المسيحي بل لأنه لم يكن كذلك اى لأنه كان أميرا ثريا دنيويا بينما كان يجـــب ان يكون قائدهم الروحي " (٣) .

وحدث الى جانب ذلك وبعده تحولات ظاهرة في الحياة الاوربية :

فالملوك المركزيون استطاعوا ان يذيبوا البارونات في رعاياهم ويدمجـــوا اقطاعياتهم في الدولة وان كان قد بقى لهم امتيازات ومخصصات كثيرة ـ وتمـت هذه العملية بفضل حصول الحكومات على البارود عن طريق الشرق وهو ســـلاح لم تصمد له قلاع البارونات طويلا .

وأدى هذا الى مزيد من الاستغلال للارقاء من قبل اسيادهم كي يعوض الاسياد عن الضرائب التي فرضتها الحكومـــة المركزية على اقطاعياتهم . ولم يــــدر ببال الملوك ان يفكروا في شأن الارقاء بل كان كل همهم ان تاتي الضريبة كاملة من أى طريق .

والتحول الاخر يتمثل في ظهور الحركات التي تزعمها (لوثر ، كالفن ، هس) وأمثالهم فقد حطمت هذه الحركات الوحدة الشكلية للعالم الغربي المسيحي

---

(٣) معالم تاريخ الانسانية ٣/ ٩٨٩

وأضعفت السلطة الكنسية المركزية بكثرة ما احدثته من مذاهب وفرق لا حصر لها .

وهذا التحول بالاضافة الى سابقه ادى الى تخلخل المجتمع الاوربي وتغيير بعض ملامحه الثابتة فابتدأت المدن الاوربية في النمو وظهرت الطبقة الوسطى " البورجوازية " فظهر منافس قوى للاقطاعيين يتمثل في طبقة تجار المدن البورجوازيين الذين كانوا بمثابة الطلائع للرأسماليين الكبار (٤) .

والى جانب ذلك كانت اليقظة العلمية التي عرضناها في الفصل السابق وكان ظهور الورق والمطابع العامل الفعال في نشرها وتوسيع ميدانها .

كل هذه التحولات آذنت بهبوب رياح التغيير على القارة وأنذرت بافتتاح عصر جديد مغاير للماضي في قيمه وتصوراته وأوضاعه وكانت احوال فرنسا الثقافية والاجتماعية تؤهلها لافتتاح ذلك العصر .

في السنوات السابقة للثورة بلغ الفساد السياسي والتدهور الاقتصادي في فرنسا غايته حتى ان " كالون " وزير الخزانة الملكية اعترف بذلك سنة ١٧٨٧ م وأرادت الحكومة سد عجز الميزانية بارهاق الشعب بضرائب جديدة فادحة فازدادت أحوال الطبقات المسحوقة سوءا وعصفت بالبلاد موجة من الجوع ونقص المؤن .

وفي الوقت الذي عيل فيه صبر الشعب وانهكته المجاعة والبؤس كان هناك طبقتان تترنحان في أعطاف النعيم وتنغمسان في مختلف الملاذ هما طبقة رجال الدين وطبقة الاشراف بالاضافة الى الاسرة المالكة التي كانت عبئا

---

(٤) انظر حول ذلك قصة الحضارة ٢٨/٢٧٦

ثقيلا على الجميع .

وكان انقاذ الشعب يتطلب منه ان يقوم بعمل يودى بالظلم ويزيح كابوسه عن المهضومين . ووقف الشعب بكل فئاته " الفلاحين ، المهنيين ، القساوسة الصغار " جبهة واحدة وكانت الجبهة الاخرى ائتلافا بين الطبقتين المحتكرتين " رجال الدين والاشراف " .

وقضت سنة الله أن ينتصر الشعب على جلاديه وأن تحصد " المقصلة " معظم الروءوس المترفة الطاغية .

وتمخضت الثورة عن نتائج بالغة الاهمية ، فقد ولدت لاول مرة في تاريخ اوربا المسيحية دولة جمهورية لا دينية تقوم فلسفتها على الحكم باسم " الشعب " وليس باسم الله " وعلى حرية التدين بدلا من الكثلكة وعلى الحرية الشخصية بدلا من التقيد بالاخلاق الدينية وعلى دستور وضعى بدلا من قرارات الكنيسة .

وقامت الثورة باعمال غريبة على عصرها فقد حلت الجمعيات الدينية وسرحت الرهبان والراهبات وصادرت اموال الكنيسة وألغت كل امتيازاتها ، وحوربت العقائد الدينية هذه المرة علنا وبشدة وأصبح رجل الدين موظفا مدنيا لدى الحكومة . (٥)

هذه النتائج والتطورات تستحق أن يقف عندها الانسان باحثا عن اسبابها

---

(٥) فيما يتعلق باسباب ونتائج الثورة انظر تاريخ اوربا العصر الحديث فشر الفصل الاول .

ود وافعها ، وبالنظرة الفاحصة نجد ان عوامل متعددة قد تضافرت على تحقيقهـــا واهمها ثلاثة :

الاول : الفكر اللاديني الذى طبع عصر التنوير ـ كما يسمى ـ بطابعـه الخاص والذى كانت مدارسه رغم تباينـها تسعى الى غاية واحدة هي تقويـــض الدين واجتثاث مبادئه من النفوس ، وقد سلكت كل مدرسة منحى خاصا لتحقيـــق ذلك وأشهرها :

١) مدرسة ذات طابع علمي عام وابرز الامثلة عليها الكتاب الموسوعيون الذين كتبوا دائرة المعارف بزعامة " ديدرو " وكانوا كما يقول ويلز : " يناصبـــون الاديان العداء عداوة عمياء " •

٢) مدرسة ذات طابع اجتماعي وسياسي : ويرأس هذا الاتجاه روســو صاحب كتاب " العقد الاجتماعي " الذى اطلق عليه انجيل الثورة الفرنسية " و " مونتسكيو " صاحب " روح القوانين " ومن كتابات هؤلاء استلهم زعماء الثورة مبادئهم واقتباساتهم •

والغرض من فكرة العقد الاجتماعي واضح للعيان فهي تهدف الـــى استبدال " المصلحة الاجتماعية " او " الرابطة النفعية للافراد " بالاخلاق والنظم الدينية وتحل عبادة " المجتمع " ممثلا في الوطن او القوم محل عبادة الله ، وذلك ما نادت به الثورة حرفيا •

وتجدر الاشارة الى ان هذه الفكرة ليست من بنات افكار روسو فقد ســبقه اليها الفلاسفة المثاليون في " المدن الفاضلة " ففي " جمهورية افلاطون " و " اليوتوبيا " لتوماس مور و " مدينة الشمس " لكامبانيلا ، نماذج واضحـــة

للحياة اللادينية التي تقوم على أساس من التفاهم والوفاق المجرد بين الافـــراد وهو ما عبر عنه روسو بالعقد الاجتماعي ، الا انه اضاف الى هذا النموذج ما اقتبسه من " هوبز " و " ميكافيلي " اللذين غلبا جانب الشر لدى الانسان على الخيـر لذلك كان روسو هداما اكثر منه فيلسوفا (٥).

٣) مدرسة ذات طابع فلسفي هدام : سبق الفلاسفة العقلانيون غيرهم في بحث علاقة الفرد بالدولة والمناداة بمجتمع ينفصل فيه الدين عن الدولة وكانت فكرتهم اللادينية اوسع مما تصوره ميكافيلي لان الدين نفسه عندهم يجب ان يلغى ليحل محله " الدين الطبيعي او القانون الطبيعي " وربما كان الفيلسوف اليهودى " سبينوزا " رائد الفكرة العلمانية باعتبارها منهجا للحياة ، فهو يقول في كتابـــه " رسالة في اللاهوت والسياسة " :

" ومن الخطورة على الدين وعلى الدولة على السواء اعطاء من يقومون بشؤون الدين الحق في اصدار القرارات ايا كانت او التدخل في شؤون الدولة وعلـــى العكس يكون الاستقرار اعظم اذا اقتصروا على الاجابة على الاسئلة المقدمة اليهـم والتزموا في اثناء ذلك بالتراث القديم الاكثر يقينا والاوسع قبولا بين الناس" (٦).

واكتملت لدى فولتير فكرة الدين الطبيعي التي ورثها عن سبينوزا ولايبنتز واشتق منها فكرة " القانون الطبيعي " حيث نجده يقول " ان دين اهل الفكـــر دين رائع خال من الخرافات والاساطير المتناقضة وخال من العقائد المهينـــة للعقل والطبيعة .. لقد منع الدين الطبيعي آلاف المرات المواطنين من ارتكـــاب

(٥) سيأتي تفصيل هذه النظريات في فصل " علمانية الحكم والسياسة " من الباب الثالث .
(٦) ص : ٤٢٦

الجرائم ... اما الدين المصطنع فانه يشجع على جميع مظاهر القسوة ... كما يشجع على المؤامرات والفتن وعلى اعمال القرصنة وقطع الطريق ... ويسير كل فرد نحو الجريمة مسرورا تحت حماية قدسية" .

ويقول : " هناك قانون طبيعي مستقل عن الاتفاقات الانسانية ... يبدو لي ان معظم الناس قد اخذوا من الطبيعة حسا مشتركا لسن القوانين " (٧) .

واذا كان روسو وفولتير لم يدركا الثورة الفرنسية فان الفيلسوف الالماني " كانت " ١٨٠٤ م عاصرها واشتهر بتأييدها وهو الذى طور فكرة العقد الاجتماعي في كتابه " الدين في حدود العقل وحده " (٨) .

كما ان كاتبا ثائرا معاصرا لها هو " وليم جدوين " نشر سنة ١٧٩٣ كتاب " العدالة السياسية " الذى كان دعوة علمانية صريحة . (٩) .

وهكذا بتاثير هذا الفكر اللاديني جسمت الثورة الفرنسية الفكرة الفلسفية القديمة باقامة مجتمع يرفض القيم والاخلاق الدينية ويجعل العلاقات النفعية المحضة هي الرباط المقدس الوحيد .

---

(٧) مقتطفات من القاموس الفلسفي لفولتير : سلسلة تراث الانسانية جـ٨
(٨) انظر عنه سطور مع العظماء ١٧٣ وسلسلة تراث الانسانية ٨/ ٢٠٧
(٩) انظر افكار ورجال ٤٨٩ .

الثاني : وقوف الكنيسة ضد مطالب الجماهير :

كان من الممكن الا تعتنق الجماهير المسيحية افكار الكتاب الملمانيين هؤلاء وتتخلى عن عقيدتها الراسخة لولا الموقف الشائن الذى وقفته الكنيسة من مطالبهم المشروعة •

ربما كان للكنيسة عذر او بعض عذر في شكوكها الحائمة حول القائمين على الثورة لكن الامر الان قد افلت من يدها فان هيجان الرعاع الهالكين جوعا وظلما لا يسمح لهم بالتروى والاناة في مثل هذه المواقف الصاخبة واصبح لزاما عليها ان تسدد ديون قرون طويلة من الاستغلال البشع والطغيان الجائر •

ان ذهن الفلاح الساذج قد لا يستطيع ان يستوعب شيئا من افكار روسو وانتقادات فولتير لكنه يستطيع بسهولة ان يرى مخازى الكرادلة والقساوسة وفضائحهم وثراءهم البانخ • لقد رأى بأم عينيه ما عبر عنه توماس جفرسن بقوله :

" ان القسيس في كل بلد وفي كل عصر من اعداء الحرية وهو دائما حليف الحاكم المستبد يعينه على سيئاته في نظير حمايته لسيئاته هو الاخر" (١٠) وكان ذلك مدعاة لان تصب الجماهير جام غضبها على الكنيسة وتصرخ خلف " ميرابو " (أشنقوا آخر ملك بامعاء آخر قسيس) •

الثالث : القوى الشيطانية الخفية : (١١)

كان من الممكن ـ كذلك ـ ان تثأر الجماهير من الكنيسة فتصادر املاكها وتقضى على نفوذها وتظل مع ذلك مؤمنة بدينها وفية لتاريخها متمسكة بتقاليدها العريقة لولا انه وجد عامل اخر قلب اهداف الثورة وحول خط سيرها •

(١٠) افكار ورجال ٥٠٢ ـ (١١) يراجع بتوسع: المفسدون في الارض ص ١٤٦ فما بعدها

عند ما اندفعت الجموع الغوغائية لهدم الباستيل ـ رمز العبودية والاستبداد ـ لم تكن ترفع سوى شعار واحد هو " الخبز " والخبز وحده .

غير انها لم تبدأ في قطف اولى نتائج ثورتها حتى وجدت نفسها تهتف بشعار الحرية المساواة الاخاء ، وهو شعار لقنت اياه تلقينا ، وبرز ايضا شعار آخر لم يكن الرعاع ليصنعوه هو " لتسقط الرجعية " وهي كلمة ملتوية تعني الدين .

وعند ما كانت المقصلة دائبة العمل كان كل الضحايا يقدمون على مذبحها بحجة واحدة هي انهم من اعداء " الشعب " مع انه كان بينهم من يعرف الشعب براءته ، ودهش الشعب حين كان يرى من يقرأ بيان القتل اليوم باسم الشعب يقدم هو نفسه غدا الى المقصلة باسم الشعب ايضا . اذن ما وراء هذه التطورات المفاجئة والتدبيرات الغريبة ؟

يدعى اليهود في تبجح وغرور انهم صناع الثورة الفرنسية ومدبروها فتقول البروتوكولات : " تذكروا الثورة الفرنسية التي نسميها " الكبرى " ان اسرار تنظيمها التمهيدى معروفة لنا جيدا لانها من صنع ايدينا " وتقول :

(كذلك كنا قديما اول من صاح في الناس " الحرية والمساواة والاخاء " كلمات ما انفكت ترددها منذ ذلك الحين ببغاوات جاهلة متجمهرة من كل مكان حول هذه الشعائر) (١٢) .

---

(١٢) البروتوكولات : ١٠٣ ، ١١١

وصدق ذلك بعض الكتاب من امثال وليم كار في " احجار على رقعة الشطرنج " وسبيريد وفيتشو في حكومة العالم الخفية . (١٣)

والواقع انها دعوى مسرفة يعلم مقدار المبالغة فيها من له بصيرة بحركة سير التاريخ وسنة الله فيه .

كان اليهود يعانون من المسيحيين اشد الاحتقار وازدراء وكانوا بحكم الذلة التي ضربها الله عليهم ،أمة مرذولة مستهجنة اينما حلت وسارت ،منطوية على نفسها في مجتمع منعزل " الجيتو " ولم ينعموا بالحياة الكريمة الا في ظل الحكم الاسلامي .

والمفارقة العجيبة ان هذا الشعب الحقير الممتهن يملك تراثا عريقا ينفث في نفسه الكبرياء الكاذبة ،والاثرة البغيضة ويعده الوعود الخيالية ،فالتلمود كتابهم الخطير يقول : " تتميز ارواح اليهود عن باقي الارواح بانها جزء من الله كما ان الابن جزء من والده " فهم شعب الله المختار اما غيرهم فيقول عنه التلمود "الخارج عن دين اليهود حيوان فسمه كلبا أو حمارا أو خنزيرا والنطفة التي هو منها هي نطفة حيوان" (١٤) .

وهكذا نجد اليهود يرون انهم شعب الله المختار ولهم وحدهم خلقت خيرات الكون وكنوزه وان الله أوجب عليهم ابادة كل الاميين (غير اليهود) لانهم كفار ووثنيون والقضاء عليهم لا يتم الا بالقضاء على اديانهم وتدمير اخلاقهم .

---

(١٣) انظر احجار على رقعة الشطرنج : فصل الثورة الفرنسية ، وحكومة العالم الخفية : ٧٩ .
(١٤) الكنز المرصود في قواعد التلمود : ٦٠ ، ٦٨ .

الى جانب ذلك كانت العداوة التي اغرى الله بين اليهود والنصارى وهي عداوة تقليدية لا تنفك بحال ، وكان اليهود في ظل فرنسا الكاثوليكية أقلية محتقرة لا تحسب في عداد المواطنين وليس لها "حق المواطنة" وكان اليهود موقنين من ان تحقيق أحلام التلمود بكسر اطواق الذل المضروبة عليهم والخروج من الجيتو للسيطرة على الاميين لن يتم ما دام في الكنيسة عرق ينبض فكانوا يتحينون الفرصة للاجهاز عليها ويتلهفون شوقا الى اليوم الذى يثأرون فيه منها ومن دينها واخلاقها ويسيطرون على اتباعها .

فلما نزلت الضائقة الاقتصادية واندلعت الثورة على الكنيسة وجدها اليهود فرصة ذهبية لا ينبغي ان تفوت ـ وهي فرصة ساقتها المقادير اليهم وما صنعوها كما يزعمون الا أنهم اجادوا استغلالها .

وحين يقول فشر " ان ارباب الاموال مولوا الفوضاء " الذين قاموا بالثورة نستطيع ان نعرف ان أرباب الاموال هؤلاء ليسوا سوى المرابين اليهود لان من عداهم كانوا هدفا للثورة .

واستطاع اليهود ان يتغلغلوا في منظمات الثورة المختلفة كالجمعية التأسيسية ونادى اليعاقبة وبلدية باريس ، وان ينفثوا تلك الشعارات التي رددتها الجماهير ببلاهة لا سيما شعار الثورة البارز " الحرية الاخاء والمساواة " هذا الشعار الذى قامت عليه الثورة وحققته كان له عند اليهود تفسير آخر :

فهم يقصدون بالحرية تحطيم القيود الاخلاقية والتقاليد الموروثة التي تحول بينهم وبين افساد الامم وتدميرها .

ويقصدون الاخاء والمساواة كسر الحواجز النفسية والاجتماعية التي تحــــول بينهم وبين الانسلال الى اجهزة الدولة وتنظيماتها ، واذابة الفوارق الدينية/ بينهم وبيـــن غيرهم كي تزول عنهم وصمة الاحتقار والمهانة .

وهكذا نجحوا في تحويل الثورة من ثورة على مظالم رجال الدين الى ثورة على الدين نفسه وجعلوا لفظة الدين عند الشعوب الاوربية مرادفة للظلم والرجعية والتخلف والاستبداد .

وأيا ما كان الامر فان الثورة الفرنسية كانت فاتحة عصر جديد في التاريـــخ الاوربي . اذ توالت بعدها الثورات كالبراكين في انحاء القارة وعرفت اوربا ـ ربما لاول مرة ـ شيئا اسمه حقوق الانسان ولا تزال تنسبه لهذه الثورة الى اليوم ، وكـــان نجاح اي ثورة يعني انهيار النظام الاقطاعي وانهيار نفوذ الكنيسة ، ولذا فان مـــن الطبيعي لتغير عميق كهذا ان يصحبه فراغ هائل في المعتقدات والقيم فاذا علمنـــا ان هناك من يستغل هذا الفراغ لتحطيم انسانية الانسان وتدمير قيمه ادركنـــا المغزى الحقيقي للحرية التي نادت بها تلك الثورات .

ان كل الشعارات البراقة التي رفعت لتحل محل الايمان الديني لم تف بهذا الغرض كما فشلت جميع الدساتير والنظم في جلب الاستقرار للقارة ، ولذلك شهدت اوربا في الفترات التالية ما لا يحصى من الاتجاهات الفكرية والاجتماعية الحائـــرة كما شهدت حروبا طاحنة مدمرة جعلت خريطة اوربا عرضة للتغير المستمر ، وحلّت الفاجعة الكبرى بالدين والاخلاق والتقاليد التي أصبحت ينظر اليها وكأنها قطعـــة متحجرة من الماضي البغيض .

الفصـــل الرابـــع

نظريـــة التطـــور

قبل أن تبصر نظرية " داروين " النور كان الايمان المسيحى والاخلاق المسيحية قد تعرضا لضربات قاسية وهزات عنيفة :

تهافت النظرية المسيحية عن الكون ، انتقادات سينوزا وفولتير الشديدة ، الثورة الفرنسية وما اصاب الكنيسة على يديها من نكبات ، النظرية الآلية " الميكانيكية" المنبثقة عن نظرية نيوتن ، الدين الطبيعي الذى نادى به الفلاسفة العقليون ، نظرية التطور الفكرى كما تخيلها كومت ، النجاح الذى صادفه المذهب اللاأدرى ومذهب الربوبيين ، الجمعيات السرية الهدامة وأفكارها الموبوءة .. وأحداث فكرية واجتماعية لا يظهر أحدها الا وينهش من جسد الكنيسة نهشة او يطوح من بنيانها بلبنة او لبنات .

لكن ذلك كله لم يكن ليسمح لأى مفترض او متكهن بأن يتنبأ بانهيـــار كامل للمسيحية قبل قرون عدة على الاقل فقد بقيـــت رغم الطعنات النافذة كيانا قائما تدعمه عواطف الكثرة الكاثرة من الناس . وتسانده موروثات عميقة الجذور من القيم والمثل والتقاليد .

نعم ، لقد تغيرت نظرة الناس الى المسيحية لكنها – الى ذلك الوقت – لم تتغير بالنسبة للتصور الديني في حد ذاته فقد بقي هذا التصور سلفا – بـــل متأصلا – بدليل الجهد الذى بذله الفلاسفة لاصطناع دين طبيعي او دين انساني – كما يدعون – .

وتغيرت كذلك نظرة الانسان الى الكون وحجمه فيه لكن نظرته لم تتغير أبدا بالنسبة لإنسانيته وتفرده بوصفه كائنا روحانيا متفوقا على كل الموجودات ان لم يكن بجسمه فبعقله وروحه • وتغيرت نظرة الناس الى حركة التاريخ وخط سير الحياة ولكن لم يكن في وسع احد ان يعتقد ـ او ان يجاهر ـ بأنه لا توجد قيم ثابتة ولا أخلاق ثابتة ولا تقاليد ثابتة •

ولقد صدق الناس الكثير مما قاله أعداء الدين كفولتير وهيوم ودولباخ لكنهم الى الان يعدون مثل هؤلاء الناس ملاحدة ومجدفين •

وفي سنة ١٨٥٩ نشر الباحث الانجليزى " تشارلز داروين " كتابه " اصل الانواع " (١) فأحدث ضجة لم يحدثها أى مؤلف آخر في التاريخ الاوربي قاطبة • وكان له من الاثار في المجالات الفكرية والعملية ما لم يكن في الحسبان •

والغرض الذى يدور حوله الكتاب هو افتراض تطور الحياة في الكائنات العضوية من السهولة وعدم التعقيد الى الدقة والتعقيد • وتدرجها من الأحط الى الارقى • وأن الفروق الخلقية داخل النوع الواحد تنتج انواعا جديدة مع مرور الاحقاب الطويلة ولذلك يفترض داروين أن اصل الكائنات العضوية ذات الملايين من الخلايا كائنا حقيرا ذا خلية واحدة •

وحسب قانون " الانتقاء الطبيعي وبقاء الانسب " نمت الانواع

---

(١) ترجمة الى العربية : اسماعيل مظهر •

التي استطاعت التكيف مع البيئة الطبيعية ومصارعة الكوارث المفاجئة وتدرجت في سلم الرقى في حين هلكت الانواع التي لم يحالفها الحظ في ذلك .

وعلة ذلك ان الطبيعة ـ حسب تعبير داروين ـ وهبت بعضها الكائنات عوامل البقاء ومؤهلات حفظ النوع باضافة اعضاء أو صفات جديدة تستطيع بوساطتها ان تتوائم مع الظروف الطارئة، وقد أدى ذلك الى تحسن نوعي مستمر نتج عنه انواع جديدة راقية كالقردة ونوع ارقى وهو الانسان . أما البعض الآخر فقد حرمته الطبيعة من ذلك فتعثر وسقط، والطبيعة اذ تهب هذا وتحرم ذاك لا تنتهج خطة مرسومة بل تخبط خبط عشواء ـ على حد قوله ـ . كما ان خط التطور ذاته متعرج ومضطرب لا يسير على قاعدة منطقية مطردة .
ذلك بايجاز شديد هو لب النظرية التي طلع بها داروين في ذلك الكتاب وهي في جوهرها فرضية بيولوجية أبعد شيء عن ان تكون نظرية فلسفية عامة كما انها بعيدة عن ان تكون حقيقة علمية ثابتة .

ولقد قال عنها اثنان من أساطين علم الاحياء في القرن الماضي هما أوين في انجلترا و"أغاسيز" في امريكا :

" ان الافكار الداروينية مجرد خرافة علمية وانها سوف تنسى بسرعة" (٢)

ولن نبحث الآن في السبب الذى لأجله خاب ما توقعه هذان العالمان لكننا نستدل على حقيقة ما كان متوقعا لها ابان ظهورها من قبل اصحاب الفن المعترف بهم .

---

(٢) سلسلة تراث الانسانية : ٩/ ١٢٥

والواقع ان الجديد الذى جاء به داروين ليس فكرة التطور ذاتها ولكنه القانون الذى تسير عليه عملية التطور - بغض النظر عن قيمته العلمية .

فقد عرفت الفكرة سلفا من قبل علماء اكتشفوا من استقرائهم للسجل الجيولوجي للحياة ان الحياة لم توجد على الارض دفعة واحدة كما يتوهم الناس بل وجدت تدريجيا في ترتيب تاريخي ، ولاحظوا ان الانواع المتاخرة في الظهور اكثر رقيا من الأنواع المتقدمة ومن هؤلاء " راى، وباركنسون، ولينو " .

اما السبب في اهمال النتائج التي توصلوا اليها فهو على ما يبدو التفسير الذى قدموه للتطور فقد قال هؤلاء " ان التطور خطة مرسومة وفيها رحمة للعالمين " (٣) ولذلك وصفت نظريتهم بانها " لاهوتية " . وكان ذلك كافيا لاضفاء النسيان عليها حتى داخل معامل الاحياء .

ذلك ان الصراع بين العلم والدين آنذاك كان في حالة من الهيجان لا تسمح بانتشار نظرية تشم منها رائحة اله الكنيسة السفاح الحقود !!

وكان العلم النيوتني قد القى في روع اعداء الكنيسة امكان تفسير الظواهر الطبيعية " ميكانيكيا " أى دون الحاجة الى مدبر ، ولذلك فلم تكن ظروف الصراع تستدعي الا ايجاد فكرة عن الحياة تقوم على قانون ميكانيكي كقانون نيوتن في الفلك .

وفعلا حاول الكثيرون الحصول على شرف اكتشاف هذا القانون فبذل كل من " بوفون " و " لامارك " و " كوفييه " و " بترس كامبر " جهودا مضنية في هذا

---

(٣) سلسلة تراث الانسانية ٩/ ٧٢

الشـأن . أما داروين فقد استطاع العثور على ذلك القانون المزعـوم من طريق بعيد عن مجال الحياة والأحياء ، اذ استوحاه من علم آخر هو علم دراسة السكان " ومن نظرية " مالتوس " بالذات (٤) .

استنتج داروين من افناء الطبيعة للضعفاء لمصلحة بقاء الاقوياء كما توهم مالتوس ـ قانونه في التطور المسمى " الانتقاء (او الانتخاب) الطبيعـي وبقاء الانسب " وبوساطته وبالاستعانة بأبحاث " ليل " الجيولوجية تمكن مـن صياغة نظرية ميكانيكية للتطور ، فعثر اعداء الدين على ضالتهم المنشودة .

وقبل ان نبحث عن الاثار التي خلفتها النظرية في مختلف الحقـول والميادين يحسن بنا ان نقف لنرى مكانها من العلم والحقائق العلمية :

وأول ما ينبغي مراعاته بهذا الشأن هو التفرقـة بين جوهـر النظرية نفسها وبين الايحاءات الفلسفية والتفسيرات المنبثقة عنها والتطبيقـات التعسفية لها وهي امور ربما لم تخطر لداروين على بال، كما أنها ليسـت نظريات علمية ، اذ كان الوضع الطبيعي للنظريـة حتى في حالة ثبوتها كحقيقة علمية أن تظل محصورة داخل المعمل متجردة عن ذلك كله .

وأول من نقد هذه النظرية علميا هم العلماء المعاصرون لداروين وقد مر قول أغاسيز وأوين قريبا ، وانتقدها كذلك العالم الفلكي الشهير " هرشل " ومعظم

---

(٤) سيأتي الحديث عنها ضمن النظريات الاقتصادية في الفصل الثانـي مـن الباب الثالث .

أساتذة الجامعات في القرن الماضي • ولنضرب عن هؤلاء صفحا فربما قيل انهم هاجموها لاسباب دينية أو عاطفية ولننظر الى ما نال هذه النظرية على يد اكثر الداروينيين حماسة وتعصبا :

لقد اضطر اصحاب "الداروينية الحديثة" الى اجراء سلسلة من التعديلات على النظرية تستحق ان توصف ـ علميا ـ بأنها نظريات جديدة •

فارغموا على الاعتراف بأن قانون " الانتقاء الطبيعي " قاصر عن تفسير عملية التطور فاضافوا اليه واستبدلوا به في الواقع ـ قانونا جديدا اسموه " قانون التحولات المفاجئة " او " الطفرات " (٥) وهو قانون لا سند له الا المصادفة البحتة •

ثم أرغموا على القول بأنه ليس هنالك أصل واحد نشأت عنه الحياة كلها كما تخيل داروين بل ان هناك اصولا عدة تفرع عن كل منها انواع مستقلة •

ثم ارغموا ـ كذلك ـ على الاعتراف بتفرد الانسان "بيولوجيا" رغم التشابه الظاهري وهو المنزلق الذي سقط منه داروين ومعاصروه •

يقول جوليان هكسلي ـ بعد ان سرد الكثير من خصائص الانسان الفذة ـ " هكذا يضع علم الحياة الانسان في مركز مماثل لما أنعم عليه كسيد المخلوقات كما تقول الأديان " (٦) • ومن الداروينيين المتعصبين ـ آرثركيث ـ الذي اضطر

---

(٥) انظر : الطريق الطويل الى الانسان ١٩٧ فصاعدا •

(٦) معركة التقاليد ٥٣ •

الى كتابة النظرية من جديد (٧) رغم اعترافه بأنها لا زالت حتى الان بدون براهين كما سياتي .

ومن أشهر التطوريين المحدثين " ليكونت دي نوى " وهو في الحقيقة صاحب نظرية تطورية مستقلة ، ومع ذلك فهو يقول :

" اما تطور الكائنات الحية بجملتها فانه يناقض علم المادة الجامدة تناقضا تاما وهو يتنافى مع المبدأ الثاني من مبادئ علم القوة الحرارية وهو حجر الزاوية في علمنا المرتكز على قوانين المصادفة فلا سبب التطور ولا حقيقته يدخلان في نطاق علمنا الحاضر وليس من عالم يستطيع انكار ذلك " (٨) .

ذلك هو موقف انصار النظرية فماذا قال العلماء المحايدون في هذا القرن ؟

يقول كريسي موريسون " ان القائلين بنظرية التطور لم يكونوا يعلمون شيئا عن وحدات الوراثة " الجينات " وقد وقفوا في مكانهم حيث يبدأ التطور حقا أعنى عند الخلية " (٩) . أما انتوني ستاندن في كتابه " العلم بقرة مقدسة " فيناقش مشكلة الحلقة المفقودة وهي ثغرة من ثغرات كثيرة عجز الداروينيون عن سدها بقوله :

" انه لأقرب من الحقيقة ان نقول ان جزءا كبيرا من السلسلة مفقود وليس حلقة واحدة بل اننا لنشك في وجود السلسلة ذاتها " (١٠)

(٧) انظر العلم اسراره وخفاياه مقدمة ج ٣ وتاريخ العالم : ج١ فصل نظرية التطور .
(٨) مصير الانسان : ٣٢٣ والقانون الثاني من قوانين الديناميكا الحرارية :
" من المستحيل على آلة مكتفية بنفسها غير مستعينة بأى عامل خارجي ان تنقل الحرارة من جسم الى آخر أعلى منه في درجة الحرارة " الديناميكا الحرارية د . ابراهيم شريف ١٧٣
(٩) العلم يدعو للايمان : ١٤٧ والكتاب كله رد على الدارويني الملحد جوليان هكسلي
(١٠) مذهب النشوء والارتقاء : ٢٣

ويقول " ستيوارت تشيس " : " أيد علماء الاحياء جزئيا قصة آدم وحواء كما ترويها الاديان ... واذا كانت تواريخ سفر التكوين في التوراة خاطئة وحوى كثيرا من الحذف والتهذيب والبيان الشاعرى فان الفكرة صحيحة في مجملها " (١١)

ـ وليت شعرى ماذا سيقول هذا الرجل لو قرأ القصة كما وردت في القرآن ـ وتقول مجلة " العلوم المصورة " :

" ان العلم يؤيد قصة آدم وحواء الى حد ما ، اننا نعترف بحقيقة فكرة الاسرة البشرية ذات الاصل الواحد " (١٢).

ويقول أوستن كلارك : " لا توجد علامة واحدة تحمل على الاعتقاد بأن أيا من المراتب الحيوانية الكبرى ينحدر من غيره ، ان كل مرحلة لها وجودها المتميز الناتج عن عملية خلق خاصة متميزة ، لقد ظهر الانسان على الارض فجأة وفي نفس الشكل الذى نراه عليه الان"(١٣) .

هذا من الوجهة العلمية ، فما الحكم على النظرية من الوجهة المنطقية المجردة ؟

ان نظرية التطور تقوم على أصلين كل منهما مستقل عن الاخر :

---

(١١) الانسان والعلاقات البشرية : ١٤٥

(١٢ و ١٣) مذهب النشوء والاتقاء ٢٣ ، ١٣

١ ـ ان المخلوقات الحية وجدت على الارض في مراحل تاريخية متدرجة ولم توجد دفعة واحدة •

٢ ـ ان هذه المخلوقات متسلسلة وراثيا نتج بعضها عن بعض بطريق التعاقب خلال عملية التطور البطيئة الطويلة •

والذى عملته الداروينية انها دمجت بين الاصلين وجمعت شواهد ودلائل الاصل الاول لتوئيد بها الثاني، وهذا اللبس غير العلمى هو الذى اغرى بعض العلماء بقبول النظرية وأضفى عليها صحة " العلمية "، مع ان هذه الصحة يصح ان تضفى على الاصل الاول ولكن اضفاءها على الثاني خطأ محض، اذ من المعلوم بديهيا ان الترتيب التاريخي للوجود لا يستلزم التسلسل الوراثي • بل ان العقل ليؤكد ما هو أبعد من ذلك وهو أن الترتيب المنطقي لا يستلزم الترتيب التاريخي فالترتيب المنطقي للكائنات الحية هو ـ تصاعديا ـ النبات ثم الحيوان ثم الانسان وليس في هذا الترتيب ما يدل على ان الوجود التاريخي لهذه الأجناس وقع بهذا الترتيب بل نحتاج فى اثبات ذلك الى دليل خارجي ، وذلك يشبه تماما الترتيب المنطقي للاعداد : (١ ٢ ٣ ٤) وبديهي أنه ليس لها ترتيب تاريخي ولا يوجد بينها علاقة وراثية •

ولن نفيض في مناقشة النظرية اكثر من هذا ، لكن ألا يحق لنا الآن أن نسأل : اذا كان هذا هو حكم العلم والعقل على النظرية ، واذا كانت تتعرض ـ للطعون والاعتراضات من كل جهة فلم يتشبث بها بعض علماء الغرب ـ بغض النظر عن غيرهم ـ ويصرون عليها اصرارا أعمى ؟

والجواب على ذلك أقرب ما يكون الينا : انه الفصام النكد والعداوة

الشرسة التي قامت بين العلم والدين في ظروف غير طبيعية ، ولقد كفانا السير آرثر كيث موؤنة الجواب بقوله :

(ان نظرية النشوء لا زالت حتى الان بدون براهين وستظل كذلك ـ والسبب الوحيد في اننا نوؤمن بها هو ان البديل الوحيد الممكن لها هو الايمـــان بالخلق المباشر وهذا امر غير وارد على الاطلاق) (١٤) .

واضافة الى ذلك يقول واطسن : " ان علماء الحيوان يوؤمنون بالنشــــوء لا كنتيجة للملاحظة او الاختبار او الاستدلال المنطقي ولكن لان فكرة الخلق المباشر بعيدة عن التصور " (١٥) .

ويقول د . هـ سكوت " ان نظرية النشوء جاءت لتبقى ولا يمكن ان نتخلى عنها حتى ولو اصبحت عملاً من اعمال الاعتقاد " (١٦) .

موقف واضح صريح ادنى ما يستحق ان يوصف به هو ما قاله ليكونـــت دى نوى حين اعترض عليه بعض المتعالمين بسبب استعماله كلمة " الله " في احد كتبه ، قال :

" ان عدم التسامح المنتشر في القرون الوسطى لم يمت مع انه انتقل الى المعسكر الثاني " (١٧) . وهذا حق فان الموقف غير العلمي الذى يتخذه هوؤلاء المسمون " علماء " هو بعينه موقف الكنيسة في عقيدتها القائلة بأن الله خلق آدم خلقا مستقلا سنة ٤٠٠٤ ق م واذا كان هناك من فرق فهو ان الكنيسة لم تدع انها " علمية " كما يفعل هوؤ المتعصبون . وان في هذه الاعترافات الصارخة لعبرة بالغـة للببغاوات في الشرق لو كانوا يعتبرون !!

(١٤ و ١٥ و ١٦) المصدر السابق : ٦ـ٧

(١٧) مصير الانسان : ٢٧٧

آثار الداروينية

اولا : انهيار العقيدة الدينية :

وجد الالحاد في العالم الغربي المسيحي قبل داروين فقد أباحت الثورة الفرنسية حرية الالحاد تحت شعار " حرية الاعتقاد " وقدمت الميكانيكية النيوتونية للملاحدة خدمة كبيرة ،لكن الالحاد ظل حتى سنة ١٨٥٩ قضية فلسفية محدودة النطاق وظلت العقيدة المسيحية محتفظة بمركز قوى ليس في الطبقات الدنيا من الشعب فحسب بل حتى في الجامعات والاكاديميات العلمية التي كانت في الغالب هيئات دينية او خاضعة لنفوذ رجال الكنيسة .

وبعد سنة ١٨٥٩ اصيب العالم بنقص حقيقي في الايمان - على حد تعبير ويلز - بسبب ما أشاعه اعداء الدين من تفسيرات باطلة لنظرية التطور ، والاستغلال البشع الذى قام به المغرضون ، والحماس المنقطع النظير الذى استقبلت به النظرية ،اما موقف الكنيسة فقد كان مهزوزا منذ البداية لا سيما وان الزمن قد اثبت خطأ المواقف التي اتخذتها من النظريات الكونية السابقة. لذلك خشي كثير من المتعاطفين معها ان يقعوا في الخطأ نفسه ،ناهيك عن الاعداء الذين شهروا بالدين ورجاله اشنع تشهير .

ونشبت معركة من أعظم المعارك الفكرية في التاريخ واشتط اصحاب النظرية في موقفهم وتطرفوا الى حد انكار التصور الديني جملة واعلان الحادهم الصريح. كما تطرفت الكنيسة وأشياعها فأعلنت كفر وهرطقة كل من لم يكن في جانبها .

وانتهت المعركة الى نتيجة مفزعة : فقد تزلزلت العقائد الدينية جملة ،وانتشر الالحاد وشاع بطريقة غريبة شاذة .

والواقع ان طبيعة الفلسفة المسيحية تجعلها اكثر الاديان تعرضا للانهيار في حالة ثبوت النظرية ، صحيح ان الاديان كلها تؤمن بعقيدة الخلق المستقل لكن المسيحية تزيد على ذلك بانها تجعل هذه العقيدة قطب الرحى للايمان المسيحى برمته .

فالمسيحية البولسية تعتقد ان الله خلق آدم وحواء ونهاهما عن الاكل من شجرة معرفة الخير والشر فأغرتهما الحية فأكلا من الشجرة فارتكبا بذلك خطيئة لا تغتفر وظل الجنس البشرى يرسف في أغلال الخطيئة الموروثة حتى رحم الله العالم فأرسل ابنه الوحيد ـ تعالى عن ذلك ـ الذى هو الأقنوم الثاني من الثالوث فقتل على الصليب ليخلص البشرية من الخطيئة .

وهذه العقيدة هي محور التعاليم الكنسية ولا يمكن بحال أن يعد المؤمن مؤمنا بالمسيحية طالم يعتقدها ،

لذلك فبدهي أن تقض نظرية داروين مضاجع رجال الدين والغيورين من المسيحيين الذين رأوا ـ محقين ـ أن التصديق بأن الانسان خلق بالطريقة التي فسرها داروين معناه بوضوح أنه لم يكن هناك آدم ولا حواء ولا عدن ولا خطيئة " واذا لم يكن ثمة خطيئة فان الصرح التاريخي للمسيحية ـ وقصة الخطيئة الاولى والكفارة التي أسس عليها التعليم السارى للعواطف المسيحية فان كل ذلك ينهار كبيت من ورق اللعب " (١) وما دام ان الانسان الغربي عموما لا يعرف عن الدين الا أنه المسيحية فانه سيجد نفسه تلقائيا قد اصبح ملحدا .

يقـــول ويلـو :

" الحق أنه لم يخل عصر من العصور من متشككة في المسيحية ....
على ان هؤلاء كانوا أناسا غير عاديين أما الان (أى بعد نظرية داروين) فقد أصبحت كل المسيحية بوجه الاجمال متشككة اذ مست الخصومة كل انسان قرأ كتبا او سمع محاورة بين اذكياء " (٢) حول النظرية . والحق الذى لا مريـــة فيه ان هذه النظرية لو تركت وشأنها أو وجدت في غير الظروف والملابســات التي وجدت فيها لما كان لهذا الشأن كله او على الاقل لما استشرت ايحاءاتهـا وصبغت الحياة والفكر بهذه السرعة المخيفة ، ولكن الذى اعطى الداروينية هـذا الحجم الكبير هو تضافر عاملين خارجيين عنها هما :

١ - الظروف التاريخية السيئة : - فقد ولدت النظرية في عصر كان فيـــه الصراع بين العلم والدين على أشده وكانت الثورة الصناعية قد أخذت تطمس ملامح المجتمع الاوربى وتصبغه بصبغة جديدة متحللة من الدين والاخلاق ، وكان الانسان الاوربي في كل مكان يتحفـــز للأخذ بثأره من رجال الكنيسة الذين اذاقوه ألوان الذل والاستعباد فكان ظهور النظرية فتحا جديدا بالنسبة له ،صحيح ان الجماهير وقفت أول الامـر بجانب الكنيسة ضد داروين " ولكن موقف الجماهير بعد ذلك تغير فلئن كانت قد عز عليها أن يسلبها داروين انسانيتها ويردها الى أصل حيواني فقـــد أخذت تشمت في الكنيسة ورجالها الذين وجدت ان الفرصة سانحة للتخلـص من نيرها المرهق وسلطانها البغيض " (٣) .

(١ و ٢) معالم تاريخ الانسانية جـ ٤ ص ١١١٣ وما بعدها .
(٣) معركة التقاليد ص ١٢

هذا بالاضافة الى طبيعة الايمان المسيحى ذاته فهو ايمان عاطفي لا يقوم على الاقتناع العقلي بل على العكس تماما فسواء لدى من اوتى حظا من الثقافة والمعرفة ان اله الكنيسة قد قتل ابنه ليخلصه من الخطيئة أم لم يفعل ذلك فهو اصلا غير مقتنع بأنه ولد مخطئا وأن للرب ابنا ، كما ان عقيدة التثليث والاساطير المسيحية الاخرى تسبب لعقله ازعاجا مستمرا . لذلك فلا غضاضة في ان يضحي بهذه العقيدة الهشة في سبيل نجاته من قبضة الكنيسة الجائرة .

٢ - الاستغلال البشع للنظرية من قبل القوى الشيطانية الهدامة :

غنى عن البيان ان نقول ان اليهود يخططون للقضاء على البشرية و"استحمارها " من طريق القضاء على دينها واخلاقها وتقاليدها فهي حقيقة آمن بها كثير من العقلاء في الغرب ، وان الزمن ليكشف تدريجيا خيوط المؤامرة الشيطانية التي يدبرونها ضد الجنس البشرى بجملته ، وما من شك في ان نظرية داروين سلاح فتاك لم يكن هؤلاء ليحلموا به .

تقول البروتوكولات " لا تتصوروا ان تصريحاتنا كلمات جوفاء ولاحظوا هنا ان نجاح داروين وماركس ونيتشه قد رتبناه من قبل والاثر غيرالاخلاقي لاتجاهات هذه العلوم في الفكر الأممي سيكون واضحا لنا على التأكيد " (٤) .

ويستطيع المرء ان يتأكد من حقيقة هذه الدعوى اذا استعرض السرعة المذهلة التي طبقت بها الداروينية في مختلف مجالات الحياة

---

(٤) الخطر اليهودى : ١٠٦ " البروتوكول الثاني ".

وميادين العلوم والفكر والرؤوس اليهودية البارزة في هذا التطبيق ولعلنا الآن نتذكر السبب في خيبة النبوءة التي تنبأ بها أوين وأغاسيز لمستقبل الداروينية .

وليس التطبيق العاجل للنظرية والرواج المنقطع النظير هو السبب الذى يؤكد ذلك فهناك أسباب أخرى مؤيدة .

الاهمال الكامل للنظريات التطورية اللاهوتية حتى ان " والاس " قرين داروين وشريكه في اكتشاف النظرية لا يكاد يعرف عند غير المختصين وليس لذلك من علة الا انه قال بأن وراء عملية التطور قوة مدبرة . (٥)

الطريقة الغريبة التي استقبلت وأشيعت بها النظرية والتي جعلت الناس يتلقفونها لا بوصفها نظرية علمية بل كما لو كانت دينا جديدا بالفعل ، وطرحت لا كناقض للمسيحية فحسب بل كبديل لها .

التمجيد الاسطورى لصاحب النظرية فقد حاز داروين من الشهرة ما لم يظفر به أعظم خدام البشرية من امثال " باستور وفلمنغ وأديسون " وجعله مؤرخو الفكر الغربيين أعظم محرر للفكر البشرى بل ان بعضهم ليشبهه بالمسيح ، وقال عنه آرنست هيكل : " انه أطلس يحمل عالم الفكر على منكبيه " ووصفه اخرون بأنه " قاهر الطبيعة " (٦) .

---

(٥) انظر نظرية داروين بين مؤيديها ومعارضيها ٤٤

(٦) المصدر السابق : ٤٢

الحملة الصحفية المكثفة للتشهير باعداء النظرية ، وتحيز الصحف شبه الكامل لداروين على الكنيسة ،اذ كانت الصحافة قد وقعت في قبضة المرابين اليهود بفضل المركز المالى الذى هيأته لهم الثورة الصناعية.

وهذه جميعا دلائل واضحة على ان المعركة لم تكن طبيعية وان عنصرا غريبا كان ينصب شباكه في الظلام للاجهاز على القيم الدينية والاخلاقية وهو غاية ما تهدف اليه البروتوكولات .

ولقد كانت النتيجة المنطقية لانتصار الداروينية على المسيحية وهو الانتصار الذى سببه العاملان السابقان ـ أن عمت موجة الالحاد المجتمعات الغربية وانتقلت منها الى بقاع العالم الاخرى ،وسيطرت الافكار المادية على عقول الطبقة المثقفة ، وتخلت جموع غفيرة من الناس عن ايمانها بالله تخليا كاملا أو شبه كامل ، وطغت على الحياة الاوربية فوضى عقائدية غريبة .

والحق أن اوربا بعد داروين ـ قد عبدت الشيطان بعد ان كانت تعبد المسيح ، عبدته مرة عن طريق عبادة " الطبيعة " تلك الكلمة غير العلمية فقد قال داروين : " الطبيعة تخلق كل شيء ولا حد لقدرتها على الخلق " وقال " أن تفسير النشوء والارتقاء بتدخل الله هو بمثابة ادخال عنصر خارق للطبيعة في وضع ميكانيكي بحت" (٧) .

صحيح ان الطبيعة عبدت قبل داروين ولكن داروين كان نبيا جديدا لها . ـ ان صح التعبير ـ وعبدته مرة عن طريق عبادة الانسان ، وهي

---

(٧) التطور والثبات (٤٠)

الفكرة التي دعا اليها الفيلسوف اليهودى (٨) "نيتشه" قائلا : ان الاله قد مات وان الانسان الاعلى "سوبرمان" ينبغي ان يحل محله ، ومن هنا قرنته البروتوكولات بداروين وماركس ، كما نادى بها في القرن العشرين الدارويني الملحد جوليان هكسلي الذى الف كتاب "الانسان في العالم الحديث" زاعما ان الانسان اختلق فكرة الله ابان عصور عجزه وجهله ،اما الان فقد تعلم وسيطر على الطبيعة بنفسه ولم يعد بحاجة اليه فهوالعابد والمعبود في آن واحد .

وعبدته مرة عن طريق عبادة المادة ولا غرابة في ان يكون نبى هذه العبادة يهوديا كذلك وهي ديانة ماركس التي يدين بها اليوم مئات الملايين من البشر.

وعبدته مرة عن طريق عبادة "الجنس" وكان اليهودى فرويد هو بطل هذه العبادة .

وعبدته في صور شتى تتفق جميعها في الاستمداد من داروين ونظريته .

وهكذا نجد ان نظرية التطور اسهمت اسهاما عظيما في هدم العقيدة الدينية وتحطيمها وليس من المبالغة ان نقول ان دورها في ذلك لا يوازيه اى نظرية بشرية أخرى .

---

(٨) انظر اللامنتمي : ١٤٧

ثانيا ـ نفي فكرة الغايـة والقصد :

من الحقائق التي تتطابق عليها الاديان وتتضافر على الايمان بهـا العقول والفطر السليمة ان للوجود الانساني على الارض غاية مقصودة ارادها الخالق واقتضتها حكمته النافذة ،ومهما اختلفت الاراء والمذاهب في ماهيـة هذه الغاية وتصورها فان حقيقتها العامة لا تقبل الجدل .

وهذه الحقيقة درجت الأجيال البشرية المتعاقبة على الايمان بهـا ليس لانها منبثقة عن فكرة الخلق المستقل ـ كما يتوهم دعاة التطور ـ بل لان الفكرتين كلتيهما عميقتان في التصور الانساني مركوزتان في الفطرة البشرية .

لذلك نجد ان الرسالات السماوية لم تأت لاثبات هذه الغايـة بل للتذكير بها وايضاح حقيقتها . وكذلك نلاحظ ان المباحث الفلسفية كانت تركز جهدها على الخوض في العلل الغائية للأشياء لتبنى عليها نظرياتها عـن الكون والحياة ولا تبالى كثيرا بالعلل الصورية . فكان الفلاسفة يجهدون انفسهم في البحث حول الغاية من خلق الانسان ووظيفته في الوجود دون أن يهتمـوا كثيرا في كيفية الخلق وعللها المباشرة .

فلما ظهرت نظرية التطور العضوى ونادت بأن الانسان وليد سلسلـة طويلة من التطورات المتعاقبة بدأت من جرثومة في مستنقع آسن وانتهت في خـط سيرها المتخبط الى صورته الراهنة لم يعد هنالك ما يدعو الى التفكير في الغاية من خلق الانسان .

ان هذه النظرية تنسب عملية التطور الى العوامل الطبيعية البحتة و والطبيعة كما قال داروين " تخبط خبط عشواء " واذن فانه من العبث ان نبحث

عن غاية مرسومة وهدف مقصود لعملية الخلق وللوجود الانساني . فلو أن ـ الطبيعة وهبت الضفدعة ـ مثلا ـ القدرة على التطور ومنحتها ما منحته صدفة واعتباطا للانسان لكانت هي سيدة المخلوقات . وقد قال جوليان هكسلي " من المسلم به ان الانسان في الوقت الحاضر سيد المخلوقات ولكن قد تحل محله القطة أو الفأر " (١)

وكان ظهور هذه النظرية في عصر ازدهار النظرية الميكانيكية احد العوامل المشجعة على قبولها فكلا النظريتين ترجع الحوادث الكونية كلها الى قوانين الطبيعة العمياء فرارا من نسبتها الى اله الكنيسة .

ويشيد الفيلسوف الملحد برتراند رسل بالاثر الداروني في هذا المجال قائلا :

" بالرغم من انه لا يزال في امكان الفيلسوف أو عالم اللاهوت أن يقول ان لكل شيء غرضا ظهر ان الغرض ليس فكرة نافعة حين نبحث في القوانين العلمية ، وقد قيل في الانجيل ان القمر قد خلق لينير بالليل ولكن العلماء مهما كانوا متدينين لا يعتبرون ذلك ايضاحا علميا لاصل القمر ولقد كان عمل داروين فاصلا بهذه المناسبة فالذى فعله جاليلو ونيوتن من أجل الفلك فعله داروين من أجل علم الحياة " .

" ان الذى جعل من الممكن تفسير التكيف دون الكلام عن الغرض لم يكن حقيقة التطور بل كان الميكانيكية الداروينية كما تتضح من تنازع البقاء وبقاء

(١) عن معركة التقاليد : ٥٢

الأصلح فالاختلاف الاعتباطي واختيار الطبيعة لا يستخدمان الا العلـــل الصورية". (٢)

ونجم عن ذلك ان اهملت العلوم الغربية بجملتها فكرة "الغائية" بحجة انها لا تهم الباحث العلمي ولا تقع في دائرة عمله وتحللت علوم الطب والفلك والجيولوجيا والاحياء وسائر العلوم من التأثيرات الدينية كما سيأتـي في فصل علمانية العلم. وأدى الايمان بهذه الفكرة الى اعتناق فكرة هزيلة لا قيمة لها ولا وزن في حساب العلم تلك هي فكرة "المصادفة" فبعد ان أبطل "باستور" أسطورة "التولد الذاتي" الى الابد لم يجد دعاة الالحاد والهاربون من الدين ما يسترون به عورتهم الا هذه النظرية التافهة .

وانه لمن المدهش حقا ان يرى الانسان الكثير ممن يسمون علماء يعتقدون ان الكون بدقته المذهلة وعظمته الهائلة وجد صدفة واعتباطا " ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار" (سورة ص : ٢٧) .

هذا على المستوى النظرى اما على المستوى الحياة الواقعية فقد كانت النتائج مروعة اذ تزعزعت قيمة الحياة لدى الناس لا سيما ذوى الاحساس المرهف واستبد بهم شعور يائس بالقنوط والضياع وظهرت في اوربا اجيال حائرة مضطربة لا تطمح الى غاية ولا تفكر في هدف. وخيم الخواء الروحي على المثقفين بصفـة خاصة واصبح شغلهم الشاغل هو البحث عن الذات المفقودة واستكناه اسرار النفس. وذلك هو المناخ الخصب الذى استغله اليهود لبذر نظرياتهم الهدامة فجاء "فرويد" بالتحليل النفسي ،و" برجسون " بالروحية و " سارتر " بالوجودية .

---

(٢) اثر العلم في المجتمع ١٢٤ ، ١٣٠ .

يقول الفيلسوف " جود " تحت عنوان تفاهة الحياة :

" اذا كان الماديون على حق فلا ينبغي ان نعتبر الحياة شيئا مهما في صميم الكون نتخذه أساسا لتفسير سائر الموجودات الاخرى ، بل انها لا تعدو ان تكون حصيلة ثانوية قذف بها سير التطور مصادفة واتفاقا او هي تحوير عرضي للمادة اصبحت بموجبه تملك الشعور بذاتها " . (٣)

ولقد تجلى الشعور بتفاهة الحياة اكثر ما تجلى في الادب الاوربي حيث تلمح الاحساس بالضياع هو السمة العامة للمدارس الادبية التي ظهرت عقب الحرب العالمية الاولى بصفة خاصة .

وهذا الشعور الناجم عن فقدان الايمان هو العلة الحقيقية للتمزق الرهيب الذي تعانيه النفسية المعاصرة في الغرب رغم الرفاهية المادية المتناهية ، ومن هنا استحق هذا العصر ان يطلق عليه " عصر القلق " !!

ولقد صدق احد العلماء (٤) في قوله : " ان اشقى الناس جميعا هو الذي يأتي الى هذه الدنيا ثم يخرج منها وهو لا يدري لماذا جاء ولماذا خرج - !

ثالثا - حيوانية الانسان وماديته :

عندما طلع كوبرنيق بنظريته الفلكية القائلة بأن الارض ليست مركز الكون أحس الضمير الاوربي بأنه قد صدم في صميم كرامته ومركزه في الوجود ، واعتقد البعض ان

---

(٣) منازع الفكر الحديث : ٤٠ .

(٤) هو الشيخ عبد المجيد الزنداني من محاضرة شفوية .

الايمان بهذه النظرية اهانة مباشرة للانسان " سيد المخلوقات " فلما جاء داروين بنظريته لم يزد الطين بلّة فحسب بل جاء بالطامة الكبرى فزعم ان الانسان حيوان كسائر المخلوقات الحيوانية ، فوجه بذلك الى الكرامة الانسانية اعنف لطمة في تاريخها ، وقلب الشعور الانساني رأسا على عقب وهز المشاعر والمعتقدات والقيم التي كانت منذ فجر التاريخ حتى عصره حقائق راسخة لا مراء فيها ، واصبح الحال كما قال جوليان هكسلي :

" بعد نظرية داروين لم يعد الانسان يستطيع تجنب اعتبار نفسه حيوانا " (١)

وداروين لم يكتف بأن جعل بين الانسان وبين القردة نسبا بل زعم ان الجد الحقيقي للانسان هو جرثومة صغيرة عاشت في مستنقع راكد قبل ملايين السنين .

لقد كانت بالفعل صدمة هائلة وانتكاسة خطرة .

نعم ، ان داروين لم يصدر احكاما مستقلة على الانسان - وليس من حقه ذلك - ولكن الذين جاءوا من بعده اصدروا احكاما وأي احكام !

ذلك انهم تلقفوا النظرية اصلا بدوافع مغرضة ووجهوها لتخدم اهدافا خفية . ولهذا فليس غريبا ان يثوب " الداروينيون المحدثون " - راضين ام راغمين - الى رشدهم ويعترفوا بحقيقة تفرد الانسان عن كل المخلوقات بينما لا يزال اولئك المغرضون ينفثون افكارهم الهدامة التي تنظر للانسان على انه حيوان وتحدد -

---

(١) عن معركة التقاليد : ٥٢

مطالبه بمطالب الحيوان وندرسه كما ندرس الحيوان •

وليس الايحاء بحيوانية الانسان هو الاثر الداروني الوحيد الذى حط من قدره وكرامته بل اقترن به ايحاء آخر لا يقل خطورة عن الاول وهو الايحاء بـ " مادية الانسان " اى خضوعه للقوانين المادية التي تفرض عليه ما تفرضه على المادة الجامدة •

فالانسان في نظر الداروينية ـ لم يتطور مختارا بل كان تطوره مظهرا ـ لخضوعه المطلق للبيئة الطبيعية اى لعوامل خارجية حتمية ، صحيح ان هذا التطور لمصلحته لكنه لم يكن نابعا من ارادته • ولم يكن متوقعا من الداروينية ان تقول في تلك الظروف السيئة ان الله هو الذى اختار للانسان ، لان ذلك يفقدها صفة (الميكانيكية) بل يجرها الى اعترافات اخرى كالاقرار بان له روحا وان لوجوده غرضا كما تقول الكنيسة ، واذن فلا مناص من القول بان العوامل الطبيعية وحدها صانعة التطور وفارضته على الانسان ، والانسان ما هو الا مرآة تنعكس عليها تقلبات الطبيعة المفاجئة وتخبطاتها غير المنهجية •

وعليه نستطيع ان نقول : ان فكرة التطور في ذاتها اوحت بحيوانية الانسان بينما اوحى تفسير العملية التي سار عليها التطور بماديته •

وظهر أثر هذين الايحاءين جليا في الدراسات الاجتماعية والنفسية التي تناولت موضوع الانسان فردا أو جزءا من مجموع •

وهي دراسات تقوم على نظريات تلتقى بجملتها في نقطة واحدة " حيوانية الانسان وماديته ثم يسلك كل فرع منها طريقا مستقلا " •

ومن ابرز الامثلة على الافكار الاجتماعية نظريتان " النظرية الشيوعية ونظرية العقل الجمعي " فاليهودى كارل ماركس ـ صاحب النظرية الاولى ـ استمد من

حيوانية الانسان ما ظهر جليا في البيان الشيوعي اذ حدد المطالب الرئيسية لـــه بـ " الغذاء والسكن والجنس " (

واستمد من ماديته التي اوحت بها " جبرية التطور " التفسير المادى للتاريخ والجبرية الاقتصادية فهو يرى " ان القوى المادية او القوى الاقتصاديــة هي التي تكيف الحياة البشرية وتعطيها طابعها وتنشيء افكارها ومفاهيمها ـ وعقائدها حسب درجتها من التطور ،فاذا انتقلت البشرية من طور الى طـــور بحكم قوة التطور الدائمة المفروضة على الانسان من خارج نفسه والتي لا علاقـــة لها بارادته الذاتية فان صورة الحياة تتغير ومشاعر الناس تتغير وافكارهم ومفاهيمهم وعقائدهم تتغير ويتغير كل شيء في المجتمع من اخلاق وعادات وتقاليـــد تغيرا حتميا " (٢)

أما اليهودى " دوركايم " فقد جمع بين حيوانية الانسان وماديته بنظريته في " العقل الجمعي " التي تقول ان الانسان حيوان خاضع " لجبرية اجتماعية " او قهر اجتماعي يفرضه عليه العقل الجمعي للقطيع البشرى،ويستمد شواهده المؤيدة من عالم الحيوان ومجتمع الحيوان ((٣)

أما المذاهب النفسية فمن اوضح الامثلة عليها " مدرسة التحليل النفسي " :

فاليهودى " فرويد " استمد من حيوانية الانسان نظريته في تفسير الســلوك الانساني من الولادة حتى الوفاة تفسيرا حيوانيا بشعا ،فهو يرى ان الدافع الجنسي هو دافعه الوحيد ،فالمولود يرضع ثدى امه بدافع جنسي ويتبرز بدافع جنســي ويظل يتعامل مع الاخرين بناء على هذا الدافع وحده ، والدين والاخلاق والمثل

---

(٣) معركة التقالية : ١٨ (٢) انظر قواعد المنهج في علم الاجتماع (٤٢و٢٢٢)

العليا كلها نابعة من هذا الدافع ايضا ، وهكذا فالانسان عند فرويد ليس حيوانا ـ فحسب بل هو حيوان جنسي ، وراء كل حركة منه شهوة جنسية ظاهرة او خفية (٥) . واستمد من ماديته " جبرية نفسية " تجعل الانسان خاضعا لغريزته مسيرا بهـا بلا اختيار ، فهو لا يملك الا الانصياع لأوامرها والا وقع فريسة الكبت المدمر للاعصاب . (٦)

أما اليهودي " دوركايم " وعلم النفس ـ بصفة عامة ـ يدرس الانسان كما يدرس أي حيوان ثديي والنظريات النفسية التي استنتجها " بافلوف ، وثورندايك ، وواطس وهول " واضرابهم انما استنبطت من التجارب التي اجراها اولئك على الكلاب والقردة والفئران .. الخ (٧) ! وهكذا تركت نظرية داروين فيما يتعلق بحيوانية الانسان وماديته بصمات واضحة في كل حقل من حقول الفكر وصادفت هوى في نفوس الباحثين الماديين في كل مجال .

---

(٥) انظر (الموجز في التحليل النفسي لفرويد : ٢٢ ـ ٢٤ .

(٦) انظر الانسان بين المادية والاسلام : ٥١ .

(٧) انظر الانسان والعلاقات البشرية : ٣٢٩ .

٤ – فكرة التطور المطلق :

كانت الحياة الاوربية طيلة القرون الوسطى مستغرقة في سكون مطبق وجمود عام أوحى الى العقلية الاوربية الخاملة – آنذاك – بفكرة الثبات المطلق في كل شيء وأسهمت الكنيسة – بطقوسها الجامدة ووقوفها ضد كل جديد – في ترسيخ هذه الفكرة وتعميقها . (١)

وأول هزة تعرضت لها هذه الفكرة كانت على يد " كوبرنيق " – من غير قصد – فدوران الارض الذي نادت به نظريته يناقض المسلمة البدهية في نظر عصره وهي انها ثابتة وما عليها ثابت كذلك ثم ان التقدم في الكشف والبحث الذى ابتدأ منذ عصر النهضة والذي اقتبس حيويته ونشاطه من الشرق المتحضر كان عاملا مؤثرا في اضعاف الايمان بهذه الفكرة .

وظهرت فكرة التطور لدى بعض الباحثين مثل " أوجست كونت " صاحب نظرية التطور العقلي (من الخرافة الى الدين الى الوضعية) وظهرت كذلك لدى " هوبز " الذى يرى ان المجتمع الانساني تطور من الوحشية الغابية الى الحالة الاجتماعية ، وكذلك " روسو " الذى قال بتطور المجتمع من الحالة الطبيعية الى الحالة الفوضوية مما استوجب وجود " عقد اجتماعي " بين الافراد .

لكن هذه النظريات لم تكن من القوة والتعميم بحيث تزلزل فكرة الثبات كلية وان كان لها فضل أثر في التمهيد لذلك .

---

(١) انظر التطور والثبات فصل " عصر التطور " .

وتمت هذه الزلزلة على يد " دارون " ونظريته في التطور العضوى وبعد داروين انتقلت أوربا من الايمان بالثبات المطلق الى الاعتقاد في التطور المطلق .

لقد حدث في القرن التاسع عشر تحول شامل في الحياة الاوروبية كلها بسبب ما أحدثه الانقلاب الصناعي من نقل الناس من البيئة الزراعية الى البيئة الصناعية مما كان له اثره البالغ في اخلاق الناس وتقاليدهم وأوضاعهم عامة فكان ذلك تطورا اجتماعيا واقتصاديا موازيا للتطور العلمي والثقافي .

في ظل هذه الظروف المتغيرة والمتطورة ولدت نظرية التطور في كتاب داروين " اصل الانواع " الذى قال عنه وست :

" لقد كان تأثير هذا الكتاب عظيما ولا شك ، فمن طريق وضع مبدأ جديد للدراسة وهو مبدأ ديناميكي وليس مبدأ استقراريا أو استاتيكيا أن يحدث ثورة في كل فروع المعرفة من علم الفلك الى التاريخ ومن علم الحفريات القديمة الى علم النفس ومن علم الأجنة الى علم الدين " (٢) . والواقع ان التطور الديني الذى اوحت به النظرية ليتجاوز الاثر العلمي الى ميادين الحياة كافة " الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ... الخ ونزلت الضربة القاضية على رأس الدين والأخلاق " . والحق ان داروين لم يقل صراحة : انه لا شيء ثابت على الاطلاق وان الحياة البشرية تمضى في حلقات متباينة تختلف كل لاحقة عن سابقتها اختلافا كاملا ولكن نظريته توحي بذلك وتومىء اليه ، وذلك ان التطور كما شرحه داروين يشتمل على عنصرين بارزين " الحتمية والاضطراب " فكل مرحلة من مراحل التطور أعقبت سلفها بطريقة حتمية بمعنى ان العوامل الخارجية - كما اسلفنا - هي التى تحدد نوعية هذه المرحلة أما خط سير التطور ذاته بمراحله جميعها فهو مضطرب لا

---

(٢) سلسلة تراث الانسانية ٩ : ١٢٥

يسعى الى غاية مرسومة أو هدف بعيد لأن (الطبيعة) التي اوجدته غير عاقلة ولا واعية بل تخبط خبط عشواء ؟!

عن طريق هذين المنصرين أوحت النظرية بتطور حتمي مطلق لا غاية له ولا حدود . الحتمية تجعل الايمان بثبات أى شيء وان كان الدين او القيم أو التقاليد جمودا ورجعية وكل محاولة للثبات على شيء من ذلك هي معركة خاسرة مع القدر الذى لا يقهر ، واضطراب خط التطور يلغى كل المعايير الثابتة المتعارف عليها للحكم على الاشياء ويستبدل بها معيارا واحدا لا ميزة له في ذاته الا عدم قبوله صفة التطور وهو " الزمان " فكل عقيدة أو نظام أو خلق هو أفضل وأكمل من غيره ما دام تاليا له في الوجود الزمني .

يقول لوبون : ان الزمان " اله " لانه " هو الذى يولد المعتقدات فينميها ثم يميتها ومنه تستمد قوتها وفعله يتولاها الضعف والانحلال " .

" ان الزمان هو صاحب السيادة الحقيقية فينا وما علينا الا ان نتركه يعمل لنرى كل شيء يتحول ويتبدل " (٣) .

وهكذا آمنت اوروبا بالتطور المطلق وحسبت كل تغير ـ وان كان انتكاسة وانحطاطا ـ تطورا وتقدما .

فالشيوعية اكبر المذاهب الارضية وأوسعها انتشارا تستمد تفسيرها المادى للتاريخ من هذه الفكرة " فكرة التطور الحتمي " فالمجتمع البشرى مر ـ كما تخيل فلاسفتها ـ بخمس مراحل حتمية لكل مرحلة منها عقائدها وأخلاقها وتقاليدها النابعة من الظروف الاقتصادية والاوضاع المادية .

---

(٣) روح الجماعات : ١٠٣ـ١٠٤

فمثلا في المجتمع الزراعي كان الانسان متدينا لأن الزراعة عملية غيبية لا يستطيع أن يتحكم فيها بجهده الذاتي فلجأ الى الاعتقاد في " قوى غيبية " لتسيير العملية وانجاحها •

وكان المجتمع الزراعي مجتمعا أسريا ذا تقاليد لأن الرجل وهو المنتج الرئيسي فيه وهو الذى يعول المرأة ولذلك كان يرى أن له الحق في امتلاكها وحده ففرض عليها قيودا أخلاقية نشأ عنها أخلاق وتقاليد زراعية •

ثم تطور المجتمع الانساني ـ حتميا ـ وانتقل الى الطور الصناعي فتبدلت الأحوال •• عملية الانتاج لم تعد " غيبية " فهي عملية منظورة يقوم بها الانسان وليس " الله " !! ولذلك فلا داعي للايمان بالغيبيات بل ان التطور ليفرض على المجتمع ان يكون بلا دين •

والمرأة قد استقلت اقتصاديا ومن ثم تحررت من سيطرة الرجل وقيوده فأصبح من حقها ـ أو من واجبها ـ أن تنبذ تقاليد وأخلاق العصر الزراعي وتساير موكب التطور الذى يغرى بل يدفع الى الاباحية الجنسية •

وباختصار ترى الشيوعية أن لكل عصر دينه وأخلاقه وتقاليده ولا ضير في ذلك لكن العيب الشائن هو أن يعيش المرء في عصر الصناعة والتطور متحجرا على دين وتقاليد العصر الزراعي الجامد . ولم يقتصر الأمر على الشيوعية بل ان علوم النفس والاجتماع أو على الصحيح زعماء هذين من اليهود وأتباعهم ليؤمنون بالتطور في كل شيء حتى الدين نفسه ، بل لعل الدين هو الهدف المقصود من العملية كلها !!

فعلم الاجتماع ـ بل يهوديه دوركايم ـ ينفى ان يكون الدين والزواج والاسرة فطرية في الانسان وانما هي من عمل " العقل الجمعي " ذى السطوة القاهرة

على الافراد ، وهذا العقل دائم التغير والتطور والتشكل " وهنا نلحظ عنصر الاضطراب " فاذا قال العقل الجمعي في طور من اطواره ليكن دين أو زواج أو أسرة فليكن ذلك أما اذا قال حسب هواه ليكن لا دين ولا زواج ولا أسرة فسرعان ما يرضخ الافراد لقهره فينسلخون من دينهم وأخلاقهم وتقاليدهم (٤) ويتفق علم النفس مع علم الاجتماع في عدم فطرية الدين ولكنهما يختلفات في تفسير تطوره .

فعلم الاجتماع يرى أن أصل الدين شيء خارجي هو ـ الارواح أو القوى الطبيعية أو المحرم (التابو) ـ وابتدأ الانسان تدينه بالسحر والشعوذة ثم تطور الى عبادة آلهة متعددة ثم تطور الى التوحيد الذى يمثل آخر حلقة في عصر الدين أعقبها مباشرة بفعل التطور ـ عصر العلم الذى ينفي الدين بجملته .

أما علم النفس أو يهوديه " فرويد " فيرى حسب تفسيره الدنس للدين أن أصل الدين هو الشعور بالندم الذى استولى على ابناء الاسرة البشرية البدائية الأولى حين قتلوا أباهم ، ولماذا قتلوه ؟ لانه كان يحول بينهم وبين اللقاء الجنسي مع الأم فابتدأ الدين في صورته الأولى عبادة للأب ثم تطور الى عبادة الطوطم " ثم تطور الى عبادة القوى الخفية في صورة الدين السماوى وهو في الاطوار كلها ينبع من العقدة نفسها عقدة " أوديب " كما يصرح بذلك في كتابه الذات والغرائز . (٥)

والاخلاق تطورت في المراحل نفسها باعتبارها جزءاً من الدين أو مستمدة

---

(٤) انظر التطور والثبات ٧٧ ـ ٨٠

(٥) ص : ٧٧ ـ ٧٨ .

منه بل ان " برتراند رسل " ليرى انها تطورت خلال ثلاث مراحل (أخلاق المحرم " التابو " ثم اخلاق الطاعة الالهية ثم اخلاق المجتمع العلمي) (٦) .

ويقول " وليم جيمس " عن الاثر الداروني في الاخلاق :

" ان فلسفة النشوء والارتقاء قد ألغت المعايير الاخلاقية التي سبقتها كلها لانها رأتها معايير ذاتية شخصية وقدمت لنا بدلها معيارا آخر نتعرف به الخير من الشر وما أن المعايير السابقة معايير نسبية فهي مدعاة للقلق والاضطراب واما هذا المعيار الذى ارتضوه وهو ان الحسن ما قدر له أن يبقى يظهر ويبقى فهو معيار موضوعي محدد " . (٧)

واجمالا فقد آمنت اوربا شرقها وغربها بأن لا شيء ثابت على الاطلاق وهو الايمان الذى عبر عنه " رسل " بقوله :

" ليس ثمة كمال ثابت ولا حكمة لا تقدم بعدها ... وأى اعتقاد نعتقده وان كان مما نظنه بالغ الأهمية ليس بباق مدى الدهر ، ولو تخيلنا أنه يحتوى على الحق الأبدى فان المستقبل كفيل بأن يضحك منا " (٨)

ومن الحق ان نقول ان هناك علماء عارضوا فكرة التطور المطلق لكنهم قوبلوا بالنقد العاصف والاستنكار الشديد بحجة أنهم رجعيون متخلفون يعرقلون مسيرة التطور الحضارى ، يقول كارل بوبر :

---

(٦) المجتمع البشرى ١٩ فما بعدها .

(٧) العقل والدين ٦٨ .

" انني اشعر بشيء من الارهاب مما يميل اليه اصحاب مذهب التطور من إلصاق تهمة الوقوف في وجه الاصلاح والتنوير بكل من لا يشاركهم موقفهم العاطفي ازاء التطور باعتباره تحديا جريئا ثوريا للفكر التقليدي". (٩)

وقال لوبون : " الملوكي بمقتضى كونه ملوكيا يعتقد ان الانسان ليس متولدا من القرد والجمهوري يعتقد الضد تماما " .

وهكذا رسخت فكرة التطور المطلق في كل فرع من فروع المعرفة النظرية وفي كل حقل من حقول التطبيق الواقعي وأصبحت السمة الظاهرة للحضارة المعاصرة .

---

(٨) العقل والمادة : ٢٥٦

(٩) نظرية دارون ... (١٥٤) .

الباب الثالث

العلمانية في الحياة الاوربية

الفصل الاول : علمانية الحكم .

الفصل الثاني : علمانية الاقتصاد .

الفصل الثالث : علمانية العلم .

الفصل الرابع : علمانية الاجتماع والاخلاق .

الفصل الخامس : علمانية الادب والفن .

الفصل السادس : ماذا بقي للدين ؟

الفصل الأول

علمانيـــة الحكـــم

سبق أن ذكرنا فى الباب الاول أن الشريعة المسيحية لم تطبق فى عالـــم الواقع وذكرنا هنالك بعض العوائق التاريخية التى عرقلت قيام مجتمع " اسلامى " تحكمه هذه الشريعة .

على أن اقصاء الشريعة المسيحية عن واقع الحياة لا يعنى انها كانت عديمـــة التأثير فى النواحى السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، فضلا عن السلوك الشخصـى للحكام المسيحيين . وذلك بفضل المنهج الاخلاقى المثالى الذى كان الدعـــاة المسيحيون المخلصون يبثونه بحرارة واصرار والنفوذ القوى الذى كان رجـــال الدين يتمتعون به فى الامم .

وكان للكنيسة آراؤها السياسية التى يمكن أن يستخلص من مجموعهـــا " نظرية سياسية " تعبر عن وجهة نظرها الذاتية وان كانت ـ طبعا ـ لا تعبـــر عن احكام الدين كما أنزل من عند الله .

والنظرية الكنسية فى اكمل صورها اشبه شىء بالنظريات الخيالية التى تتحـدث عن " مدن فاضلة " وهمية ، هذا اذا نظرنا الى " اوغسطين " على انـــه " قديس مسيحى " وليس فيلسوفا رومانيا ، فهو الذى عبر عن هذه النظرية فـــى كتابه " مدينة الله " وفكرة اوغسطين الاساسية صحيحة تماما من جهة انه ليس فـــى الوجود الا مملكتان او مدينتان لا ثالث لهما : احداهما مدينة الله والاخـــرى مدينة الشيطان .

ولكن الخطأ الذى يفسد هذه الفكرة ذاتها عنده يكمن فى تحديده لخصائص كل مدينة ، فهو يرى ان مدينة الله هى التى يحكمها آباء الكنيسة بخـــلاف مدينة الشيطان التى يسوسها رجال الدنيا ! ثم ان الصورة التى تخيلها لمدينـة الله موغلة فى الخيال الى درجة تجعل امكان تطبيق نظريته عمليا خارقـــة نادرة ان لم تكن مستحيلة (١) .

---

(١) انظر معالم تاريخ الانسانية ٣/ ٧٢٤

أما النظرية الاكثر واقعية والتي سادت عمليا طيلة فترة نفوذ الكنيسة فالحكام في نظرها لا يشترط ان يكونوا رجال دين ولكن يجب ان يخضعوا في ذواتهم لسلطة رجال الدين!

فعلى الرغم من قصور النظرية الكنسية وعجزها عن تنظيم شؤون الحياة بسبب تحريفها واهمالها لشريعة الله ونظرتها الخاطئة الى الحياة الدنيا وايمانها بقاعدة " اعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله " بالمدلول الخاص لهذه العبارة ـ على الرغم من ذلك فقد كان الملوك والاباطرة في القرون الوسطى يخضعون ـ في صورة ما ـ لرجال الدين ولا يعدون انفسهم مسيحيين فحسب بل جنودا للمسيحية ـ كما حدث في الحروب الصليبية ـ والخطأ الفادح جاء من قبل الكنيسة اذ وجهت واستغلت عواطفهم الدينية لخدمة مصالحها الذاتية وجهدت في اخضاعهم لا لشريعة الله بل لاهواء البابوات (٢) .

صحيح أن ايمانهم بالدين كان محصورا في الحدود الضيقة التي رسمتها الكنيسة ومشوبا بالتصورات الوثنية لكنهم كانوا يرون انفسهم ملزمين بالاخلاق الدينية في تعاملهم السياسي ـ ولو ظاهرا ـ لان ذلك هو مقتضى كونهم مسيحيين .

وكانت ضرورات العمل السياسي ـ كما يدعون ـ تلجئهم الى مخالفة الروح المسيحية فينكثون بالعهود ويزهقون ارواح الابرياء ويستبيحون الكذب والموارية في سبيل تحقيق مصالحهم السياسية ، غير انهم لم يتخذوا ذلك مسلكا عاما ولم يختلقوا له تبريرا عقليا منافيا لتعاليم الدين .

ربما كان منهم من يتلهف للحصول على مبرر ما ليقيه على الاقل وطأة التناقضات النفسية وعقاب الضمير لكن العثور على ذلك ظل مستحيلا امدا غير يسير .

وصحيح ان الكنيسة اهملت تنظيم شؤون الدولة وان القانون الروماني كان يطبق على مسمع منها ومرأى لكنها كانت متشددة فيما يتعلق بالسلوك الشخصي للحكام يشاركها في ذلك عواطف الشعب وضمير الامة ، وكان الاباطرة مضطرون للتمسك بالاخلاق المسيحية كي يكسبوا ود الكنيسة حيث ان بقاء سلطانهم وشرعيته مرهونان

---

(٢) انظر " الطغيان السياسي " من فصل الطغيان " الكنسي " بالباب الثاني .

برضاها عنهم ، فهى التى تتولى تتويجهم وتقدس حكمهم وتباركه ثم ان من حقها ـ كما قال البابا جريجورى السابع ـ ان تخلع المسيئين منهم وتحل رعيتهم من طاعتهم .

لهذه الاعتبارات يصح القول بأن عملية الفصل بين السياسة وبين الدين والاخلاق بمفهومها المعاصر لم تكن معروفة لدى سياسيى القرون الوسطى ، وان كانت اوربا ـ حقيقة وواقعا ـ لم تحكم بما أنزل الله قط فى اية مرحلة من تاريخها .

واذا تجاوزنا النظرية الكنسية الى الفكر السياسى اللادينى فسنجد نظريات عديدة قبل ان نصل الى النظريات المعاصرة .

واشهر تلك النظريات ثلاث : ١ ـ النظرية الخيالية

٢ ـ نظرية العقد الاجتماعى .

٣ ـ نظرية الحق الالهى .

ـ٠ـ

١ ـ النظرية الخيالية :

عرفت هذه النظرية قديما فى الفكر الاغريقى حيث كان الفلاسفة يهربون من الواقع السىء الى عالم الخيال الواسع ويبنون من الاوهام والاحلام الجانحة مجتمعات مثالية او مدنا فاضلة تتمتع بالوئام التام والايثار المتناهى والمساواة الكاملة فى جو ملائكى حالم !

ومن النماذج القديمة لها " جمهورية افلاطون " (١) لافلاطون (٣٤٨ ق ٠م) ومن أبرز المحاولات التى قام بها مسيحيون لصياغة هذه النظرية " يوتوبيا " لتوماس مور (١٥٣٥) " ومدينة الشمس " لكامبانيلا (١٦٣٩) ٠

والذى يهمنا من هذه النظرية هو انها لاتجعل الدين هو المنهج الذى تقوم عليه الحياة والاساس الذى تنبثق منه كل التصورات والقيم بل ان الانسجام العقلى والمصلحة الدنيوية المجردة هما الدعامة التى بنت النظرية عليهما مجتمعاتها اللادينية وان كان بعض متخيليها كتوماس مور تخيل وجود دين فى مدينته الا انه دين شخصى بارد لا أثر له فى الحياة (٢) ٠ هذه الفكرة الخطرة ترسبت ـ لاشعوريا ـ فى اذهان المثقفين الذين كانوا شغوفين بقراءة مثل هذه المؤلفات ، وولدت فيهم احساسا بان الحياة تكون سعيدة فاضلة لو عزل الدين عن الواقع وبقى طقوسا جامدة لاعلاقة لها بالحياة ٠ بل أوحت اليهم بامكان قيام حياة بهيجة متكاملة بلا دين ٠

ولا شك ان مثل هذه الافكار يسهل استيعابها وتقبلها فى بيئة تخضع لطغيان الكنيسة الاعمى ومضايقاتها المرهقة ٠

---

(١) انظر الكتاب الذى يحمل هذا الاسم ٠ ترجمة : حنا خباز ٠

(٢) انظر سلسلة تراث الانسانية " يوتوبيا " ١/ ٣٨٤ ٠

٢ ـ نظرية العقد الاجتماعي :

كانت الفلسفة المدرسية ـ اشهر المذاهب الفلسفية فى القرون الوسطى ـ تقدس فلسفة ارسطو (٣٢٢ ق.م) وافلاطون والتراث الاغريقى جملة ـ رغم الوثنية المشبع بها هذا التراث ـ وكان مذهب ارسطو ان الانسان " حيوان اجتماعى " (١) أوكما تعبر المصادر العربية " مدنى بطبعه " اى ان الحالة الاجتماعية للانسان مقترنة بوجوده منذ القدم . وكانت هذه النظرية من المسلمات التى لاتحتاج الى دليل .

ولكن أحد الباحثين الاجتماعيين الاوائل وهو " هوبز " خالف ـ وربما عن غير قصد ـ هذه الفكرة حيث اعتقد ان الانسان لم يكن فى الاصل الا ذئبا على اخيه الانسان " على حد تعبيره " وان الحالة الفطرية او "الطبيعية" كانت حربا لاهوادة فيها بين افراد النوع الانسانى ولذلك احتاج الناس الى عقد يتنازل بواسطته بعضهم لبعض عن شيء من الحقوق فى سبيل أمن وسلامة الجميع. ولما كانت طبيعة الانسان كما يراها هوبز هى الشر دائما استلزم الامر وجود قوة نفوذها أعلى من العقد تكون مهمتها تنفيذ العقد اجباريا على الافراد هذه القوة هى الدولة او الحكومة (٢) .

وبغض النظر عن النتيجة الخاطئة التى وصل اليها هوبز وهى تبرير الطغيان بحجة تنفيذ العقد بالقوة فان فكرة العقد ذاتها حظيت بعناية الباحثين من بعده (٣) .

وتلا هوبز " جون لوك " (١٧٠٤) الذى اتفق معه فى وجود عقد اجتماعى بين الدولة والافراد الا انه خالفه فى كون سلطة الحكومة المشرفة على تنفيذ العقد مطلقة فهو يرى ان السلطة مقيدة بقبول الافراد لها ولذلك يمكن

---

(١) تاريخ علم الاجتماع : جاستون بوتول : ٩.
(٢) انظر سلسلة تراث الانسانية " اللواياثان " ج ١ / ٢٥٧ .
(٣) انظر تاريخ النظرية السياسية : ١٠٣.

سحب السلطة منهم بسحب الثقة عنهم . (٢)

واخيرا اكتملت الفكرة على يد " جان جاك روسو " (١٧٧٨) مع فارق أساس بينه وبين هوبز ، ذلك ان روسو يرى ان الحالة الطبيعية للانسان هي الفترة الذهبية من تاريخه ولكن الانسان بفعل الاطماع وتأثير (الاديان) تجرد من النقاء الطبيعي وانتقل الى حالة من الفوضوية اقتضت وجود عقد اجتماعي لتنظيم حياة الناس ومحاولة العودة بهم الى الحالة الطبيعية (٣) .

والملاحظ على النظرية بشكل عام هو اغفالها لدور الدين سواء فيما هو كائن او فيما ينبغي ان يكون الى درجة ان روسو لا يكتفي باهمال الاثر الديني في توجيه المجتمع بل يعد الدين الالهي عاملا من العوامل التي تعوق الرجوع الى الحالة الطبيعية السوية .

وحين يطالب روسو بفصل السياسة عن الدين فانه يتهم الاديان بانها هي التي سببت هذا الفصل حيث نجده يقول : " ان الشعوب القديمة كانت تعبد الملوك وكان لكل دولة ملكها والهها في الوقت نفسه فكانت السياسة والدين شيئا واحدا ولكن الاديان ومن بينها المسيحية فصلت بين العالم المادي والعالم الروحي فهي تتعلق بالعالم الروحي ولا تشرع للمجتمع السياسي فلماذا لا يكون لهذا المجتمع دين سياسي خاص " ؟ .

ونظرا لتهجم روسو على الدين ومطالبته بعزله عن واقع الحياة وصفه بعض الباحثين الغربيين بان مؤلفاته كانت اعلانا صارخا لحرب ضد المجتمع ضد اللاهوت " (٤) .

ومن العوامل المشجعة التي دفعت هذه النظرية الى الامام قيام الثورة الفرنسية على وحي من مبادئها وآراء فلاسفتها ـ لاسيما روسو ـ اذ يعد كتابه الذي يحمل اسم النظرية انجيل الثورة الفرنسية .

---

(٢) انظر مدخل الى علم السياسة : ٣٠
(٣) انظر سلسلة تراث الانسانية ١/٥٧٧
(٤) انظر المصدر السابق ١/٥٨٦ .

وأوحت نظرية العقد الاجتماعى الى الناس بفكرة جديدة هى " الوطنية او القومية " اذ أن العقد انما يكون بين الانسان والمجتمع الذى يعيش فيه وتتفق مصالحه مع مصالح الفرد ورغباته، لا مع مجتمع آخر بعيد مهما كانت قوة الصلة الدينية به . فهى تهدف الى نزع ولاء الفرد من الكنيسة واعطائه للدولة والى قطع الروابط الدينية ليحل محلها روابط وطنية كما انها جعلت القيمة العليا للمصلحة المادية الدنيوية التى بسببها تم ابرام العقد وليست للملكوت الذى تبشر به المسيحية اوالمثل او الفضائل التى كان المجتمع يعدها اغلى مايملك .

لذلك فليس بعيداً ماقاله ويلز من أن روسو كان يلتمس المعاذير لنقض العقد الاجتماعى وهدمه اكثر مما يؤكد ضرورته . (٥)

---

(٥) معالم تاريخ الانسانية ١١٨٧/٤ .

٣ — نظرية الحق الالهي :

فى المرحلة السابقة للاسلام كان الملوك يستعبدون الناس لانفسهم زاعمين ان لهم سلالة عرقية خاصة اسمى من العنصر البشرى المشترك ، وغلا بعض الطواغيت فادعى انه اله او من نسل الالهة كما فعل اباطرة الروم ، ولم يكن ليدور فى خلد أى منهم ان للامة عليه واجبات وحقوقا وان الكرسى والمنصب تكليف لاتشريف ، بل كانوا يرون ان ماتقدمه لهم الامم من مراسم الخدمة والولاء والخضوع المذل والتضحية بالنفس والنفيس لاجلهم ليس الا واجبا مقدسا يقومون به تجاه العرش المحروس !

جاء الاسلام فنسف هذه الفكرة من اساسها ورد العبودية كلها لله وحده ، وفرض على الحكام تبعات ومسؤوليات تناسب مركزهم فى الامة ، فراى الناس فى معظم أنحاء المعمورة الولاة المسلمين يرعون مصالحهم وينهضون باعباء المسؤولية كاملة فى الوقت الذى لا يتميزون فيه عن الامة بكبير فرق .

ولكن الاقطار التى لم يشملها نور الاسلام — لاسيما فى اوربا الهمجية — ظلت ترزح تحت نير الطغاة وظل الفرد الاوربى عدة قرون يعبد الهين من البشر الامبراطور والبابا . الاول يدعى ان له الحق فى حكم الناس وفق مشيئته ويخضعهم لهواه . والثانى يبارك خطواته ويلزم الشعب باطاعته لان ذلك يامر به الله وتمليه السماء .

وظلت عروش اوربا تتوارثها سلالات وعائلات معينة لا يجرؤ احد ان ينافسهم ولا يستسيغ انسان أن يسأل لماذا يحكم هؤلاء وماذا يحكمون ؟ فالرعاع كلهم مقتنعون تماما بانهم يستمدون حكمهم من الله مباشرة !! .

وظهر فلاسفة وباحثون برروا هذا الاستبداد والعبودية وفلسفوها فى قوالب متعددة ، فجاء هوبز ليتملق ملوك عصره مطالبا بان لهم الحق فى سلطة مطلقة يستطيعون بها تنفيذ العقد الموهوم . وكذلك كان " جان بودان " (١٥٩٦) و " جروتس " (١٦٤٥) من المدافعين عن الحكم المطلق " ويعلن بودان ذلك بان الحكم غير المطلق معرض للثورات والفتن وصراع الاحزاب وينكر نظرية العقد الاجتماعى لانها تمنح الفرد الشعور بالمشاركة فى تكوين الدولة .

اما جروتس فيدافع عن الاستبدادية بذريعة انها افضل السبل لتطبيق القانون الطبيعي وان الناس اذا قدارتضوا هذا النوع من الحكم فليس من حقهم أبدا ان يتراجعوا عنه. (١)

وفي القرن التاسع عشر تطورت هذه الفكرات الى فكرة فلسفية معقدة على يد "هيجيل" (١٩٠٠) ومدرسته المثالية التي تمثل حلقة وصل بين العقائد المسيحية وبين النظريات الفلسفية المجردة ، ولعل اعظم ماحققه اساتذتها هو تحويل الدين الى فكر ومنطق .

فتحول "الله" الى "مطلق" والوحي الى "معرفة مطلقة" والمسيح الى "توسط" والشريعة الى "قانون مجرد" اى أن العقيدة هي الحياة نفسها والعقائد رموز تفكك الى حقائق (٢) . ويرى هيجل ان التاريخ هو عبارة عن (تطور منطقي قائم على اساس مفهوم التقدم نحو النظام والمعقولية والحرية) . والدولة ليست مصطنعة عن طريق عقد اجتماعي او غيره بل هي كائن طبيعي له وجوده المتميز اذ هي تجسيد للحرية التي يرنو اليها التطور التاريخي .

والتاريخ ـ في نظره ـ ظل يتطور وفق قانون "الجدلية" حتى بلغ القمة في الدولة البروسية ـ التي كانت معاصرة لهيجل ـ ففيها تجسد المطلق والحرية والالوهية (٣) !!

وعلى الرغم من النقد العاصف الذي تعرضت له النظرية من قبل انصار النظريات الاخرى بسبب تقديسها الزائف للاستبداد ـ فقد كان لها اثر بالغ لا سيما في نفوس الالمان الذين ظلوا على استعداد للانقياد لحكومة دكتاتورية يرون فيها تجسيدا لاعلى مثلهم القومية فكان بسمارك في القرن الماضي وهتلر في القرن العشرين .

---

(١) الفكر السياسي قبل الامير وبعده "ملحق بكتاب الامير" ٢٥٤ ـ ٢٥٥
(٢) سلسلة تراث الانسانية ٨ : ٣٨٥
(٣) انظر الفكر السياسي : ٢٨١ .

واشتق منها (ماكس فيبر) نظريته في الـ " كاريسما " ومعناها ـ عنده ـ القوة الخاصة التي منحتها الطبيعة للقلة المختارة للدلالة على الزعماء الذين يقوم نفوذهم على اعتقاد عام عند الناس بان روحهم من روح الله " مثل يوليوس قيصر ونابليون " (٤) .

وهذه النظرية ـ رغم ان عداوتها للدين ليست كسابقتها ـ الحقت بالدين ضررا بالغا بتمسحها به وانتسابها اللفظي اليه وادعاء ان طواغيتها يستمدون سلطتهم من تفويض الله لهم ، اذ نجم عن ذلك رد فعل عنيف ضد الدين من قبل من يسمون " دعاة الحرية " الذين وجدوا في هذه الدعوى فرصة لمهاجمة الاديان متذرعين بانها تبارك الطغيان وتقدس الدكتاتورية .

والحق الذي لا مرية فيه ان الحكام الذين مارسوا الطغيان متسترين بهذه الدعوى هم ابعد مايكون عن تنفيذ القانون الالهي " اى الحكم بما انزل الله " فوق انهم لا يستطيعون اقامة الدليل على ان الله منحهم الحق في التسلط على الامم واذلال الشعوب باسمه .

وواقع التاريخ يؤكد ان العدل الرباني والطغيان البشري نقيضان لا يجتمعان وان الذين كانوا يحكمون بما انزل الله فعلا ويستندون في سلطتهم الى الوحي الالهي حقيقة هم اعظم حكام البشرية عدلا وانصافا واشدهم رحمة وتواضعا وانهم بفضل ذلك قد حققوا في دنيا الواقع ماكان الفلاسفة يحلمون به في الخيال وهاهي ذي سيرة الانبياء الذين حكموا بني اسرائيل وسيرة النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين ومن حذا حذوهم تظهر فيها الصورة المشرقة والنموذج الرفيع للحكم الامثل . وعكس ذلك تماما كان الحكام الطغاة الذين يتبجحون بنظرية الحق الالهي فهم يمثلون اسوأ النماذج للجبروت والاستبداد .

وهكذا كلما كان الحاكم أقرب الى الحكم بما انزل الله كان حكمه اقرب الى النزاهة والاستقامة وحالت خشية الله بينه وبين اى لون من الوان الطغيان ،

---

(١) انظر الاجتماع لماكيفر وزميله : ٢٩٥ .

وكلما ابتعد عن الحكم بما انزل الله سقط فى مهاوى الظلم وتلطخت صفحة حكمه بصنوف الاستبداد وانواع الجور .

اذن فليست نظرية الحق الالهى على حق فيما تضفيه على حكامها من القداسة المصطنعة والعمل حسب تفويض الله وارادته ، وكذلك ليس خصومها على حق فى دعوى ان الدين يحبذ الطغيان ويشجع على الاستبداد .

ـ ـ

النظريات الحديثة والمعاصرة

انتقد المفكرون السياسيون فى القرن الماضى والقرن العشرين النظريات السياسية السابقة وأبدوا اعتراضاتهم المتباينة عليها .

فهل انتقدوها لانها تعطى "حق الحاكمية " لغير الله وتضرب صفحا عن الدين وضرورة قيام الحياة كلها على تعاليمه وانبثاق معاييرها وتصوراتها كافة من مبادئه واحكامه ..؟

كلا ، لم يحدث ذلك ، بل ان احتمال حدوثه فى هذه المرحلة التاريخية ابعد منه فى المراحل السابقة . اما النظرية "الخيالية " فيرى هؤلاء ان من العبث ان يضاع الوقت فى نقدها أو حسبها ان تكون خيالية بينما هم يعدون أنفسهم " واقعيين " .

واما نظرية الكنيسة القائمة على اساس " مملكة الله " او " مملكة المسيح " كما كانت تسميها ، فما اسهل ان تنتقد ويشدد عليها اللوم فهى نظرية " رجعية " لا لانها مخالفة لحقيقة الدين بل لانها ـ فى نظرهم ـ تقوم على اساس تحكيم الدين .

والدين ـ ايا كانت صورته ـ هو العدو اللدود للباحثين "العلميين " هؤلاء . بعضهم يرى ان الدين عاطفة وجدانية او رابطة روحية تصل قلب الانسان فى فترات من حياته بالسماء ولا ينبغى بحال من الاحوال اقحامه فيما لاعلاقة له به وهو واقع الحياة اليومية بالنسبة للفرد فضلا عن الدولة والمجتمع عامة . والا فالدمار والاستبداد !

ويستشهدون بالتاريخ ـ تاريخ الكنيسة الكاثوليكية ـ التى كان رجالها اعتى الطغاة واظلم الجبابرة .

وبعضهم يغلو ويشتط فيقول ان الدين من اساسه شر محض وداء عضال يجب ان يستاصل ويزال لانه مخدر للشعوب وعائق عن التطور ووسيلة

يتقنع بها المستبدون والمحتكرون لامتصاص ثروات الطبقات الكادحة المنكوبة .

ونظرية " الحق الالهي " ينحى عليها باللائمة للعلة نفسها علة استمدادها من الدين وان كانت نسبتها اليه لاتعد وان تكون من قبيل التزويق اللفظي .

ولنأخذ " هارولد لاسكي " وهو كاتب سياسي بارز مثالا للكتاب المحدثين : يلخص لاسكي هاتين النظريتين بايجاز ثم ينقدهما نقدا " علميا " فيقول :

" يمكننا أن نسمي نظرة الانسان السائدة ابان تجربته البدائية بالنظرة اللاهوتية فالقانون ليس سوى مجموعة من القواعد الالهية التي منحها الاله او الآلهة لمن يعيشون في ظلها وبناء على ذلك فهي خليقة بان تطاع لان مصدرها الوحي المقدس والمثل الواضح على ذلك قوانين موسى وشريعة حورابي .. "

" وتصبح هذه النظرة عند هيجل نظرة كونية عندما ينظر الى سير التاريخ على انه فكرة تكشف عن حرية تتزايد على الدوام وتحقق وجودها خلال تطور الدولة " .

" هذه النظريات كلها تتفق في خاصية واحدة هي انها تجعل ابرام العقد خارج سيطرة الانسان .. !! فجوهر القانون دائما بعيد عن الانسان وعليه ان يجده ويكمن الصلاح في اتباع الانسان شريعة لايد له في وضعها " .

" ومن الواضح قصور مثل هذه النظريات فقد اثبتت البحوث التاريخية خطأ كل النظم التي تدعي انها تعمل في ظل المقومات اللاهوتية . فالاله الذي اوحى بها يتكلم لغة غامضة لاسحر فيها الا على من نصبوا انفسهم اتباعا له " (١)

ومع ان لمناقشة هذه الافكار اجمالا موضعا اخر من البحث فان مثل هذا الكلام لا ينبغي أن نتجاوزه دون تمحيص لاسيما وانه ليس فلتة من كاتب وانما هو اتجاه سائد وظاهرة عامة في الفكر السياسي الغربي .

ان هذا الكلام وماشاكله من مواقف " غير علمية " يتخذها معظم الباحثين اللادينيين حيال اية قضية من قضايا الدين مما لا يليق بالباحث

---

(١) مدخل الى علم السياسية . مقتطفات من ٢٦ ـ ٢٨

النزيه الذى يتحرى الدقة والموضوعية فيما يقول .

ويتجلى فيه بوضوح " جهالة مزدوجة " بحقائق التاريخ وحقائق العلم على حد سواء . اما الجهالة التاريخية فتبدو فى " تعميم الاحكام " وهو خطأ ندر من ينجو منه من كتاب الجاهلية الغربية الصليبية اذ يعممون احكامهم عن الدين والشرائع جاهلين ــ او متجاهلين ــ ان الدين فى صورته الالهية الحقة " الاسلام " لا يصح مطلقا ان يعبر عنه ضمن الاديان والنحل الاخرى "وأن يوصم بما توصم به " المسيحية الرسمية " التى دانت بها اوربا ولا بما توصف به شريعة التوراة المحرفة التى يسميها لاسكى " قوانين موسى " .

ان التاريخ ــ على العكس مما توهم لاسكى ــ ليسجل للامة الاسلامية ابان تطبيقها الكامل لشريعة الله ازهى عصر عرفته البشرية عدالة ورخاء ، وانصع صفحة من صفحاته على الاطلاق ، اللهم الا اذا كانت البحوث التاريخية التى يقصدها لاسكى هى بحوث المتعصبين الغربيين الحاقدين !

واما الجهالة العلمية فتبرز فى دعوى ان القانون الامثل هو الذى يضعه الانسان لنفسه وليس الذى يضعه له " الاله " !

وهى دعوى ناشئة لا عن الجهل بمقام الالوهية فحسب بل عن الجهل الفاضح بحقيقة الانسان وقصور علمه وعجز اداركه ومحدودية معرفته حيث ان فى طبيعته وتكوينه من صفات النقص ونواحى الضعف ما يجعله اعجز واجهل من ان يشرع لنفسه .

وهو مهما اكتشف من نواميس الكون واسرار الوجود فلن يصبح "الها" بحال من الاحوال كما يتوهم المغرورون بالعلم ــ وصفة " الحاكمية " التى تعنى حق التشريع من اخص صفات الالوهية واوجبها .

والانسان فى كل مرحلة من مراحل وجوده ــ خلق ليعبد الله لا ليعبد نفسه بدليل انه يجد نفسه محكوما بسنن ونواميس الهية لا يستطيع ــ بالغا ما بلغ ــ ان يتجاوز نطاقها .

اما الجانب الارادى من حياته فانما اعطاه الله حرية الاختيار فيه ليبتليه ايكفر ام يشكر ، وفى ذلك تكريم له ورفع لقدره بين المخلوقات فان اتبع فيه شريعة الله حصل له الانسجام مع نفسه ومع الكون كله ، وان اتبع هواه وتمرد على خالقه كان التصادم بينه وبين فطرته والكون وعاش عيشة ضنكا فى الدنيا فضلا عن مصيره المحتوم فى الاخرة (٢) .

ومالنا نذهب بعيدا وهاهو لاسكى نفسه يعيب النظريات السياسية قديمها وحديثها ـ كما سياتى قريبا ـ وينقد "الديمقراطية" معبودة قومه نقدا لاذعا ثم يقف عاجزا عن الاتيان بنظرية سياسية عادلة لاتحابى فردا على حساب اخر او تظلم طبقة لمصلحة اخرى (٣) .

وهذا الموقف العاجز يقفه كل الكتاب السياسيين المعاصرين والانسان المصرى يرى بأم عينه الازمة الحادة فى السياسة الدولية على الرغم من النظريات السياسية التى لاحصر لها .

- - -

اما نظرية العقد الاجتماعى فان محور الدراسات الحديثة هو فكرتها القائلة بان العلاقة بين الحاكم والمحكوم مصلحية نفعية متبادلة ولاسند للسلطة الحاكمة سوى ذلك ولكن العيب الذى اخذ عليها هو تصورها الخيالى للعقد ذلك هو العقد الذى لايستطيع اصحاب النظرية اثباته تاريخيا فهو عقد وهمى لجأ الكتاب السياسيون الاوائل الى افتراضه اما هروبا من المواجهة الصريحة للسلطات الحاكمة آنذاك أو تزلفاً لها ـ على اختلاف بين اصحابها . (٤)

اما بعد ان تخلصت الشعوب من عبادة الملوك ورجال الدين وبلغت درجة لابأس بها من الوعى السياسى وفى الوقت نفسه تخلص الكتاب من "احلام الرومانتيكية" واتجهوا الى "الواقعية" فلم يعد هنالك مايدعو الى افتراض نظريات لا اساس لها تاريخيا .

---

(٢) تراجع مقدمة كتاب مبادىء الاسلام للمودودى وفصل لا اله الا الله منهج حياة من معالم فى الطريق

(٣) انظر كتابه : مدخل الى علم السياسة ومقالته فى تاريخ العالم جـ٤

(٤) انظر مدخل الى علم السياسة : ٣٠ وتاريخ النظرية السياسية : ٨٤

وانطلاقا من ذلك وجد علم السياسة الحديث بغيته المنشودة في كاتب آخر يتجلى بنظرة " عصرية " الى الامور وان كان وجوده التاريخي سابقا لمشاهير النظريات الاخرى ذلك هو " نيقولا مكيافيللي " الذى يطلق عليه لقب " اول المحدثين " ويعد كتابه " الامير " مصدر الالهام في العصر الحديث بالنسبة للحكام وللمفكرين السياسيين على حد سواء (٥) .

هذا وقد كان للنظريات اللادينية في القرن التاسع عشر ونظرية التطور بصفة خاصة الاسهام الاكبر في بعث الميكانيللية والباسها لباس العلمي المبهرج بعد أن كانت من قبل مسبة لاصحابها ومدعاة للتنفير من معتنقيها .

لقد كانت " مملكة المسيح " التى يتحدث بابوات الكنيسة الكاثوليكية تشتمل على تنظيمين :

١ ـ التنظيم الروحي ويمثله رجال الدين ومجال عمله الكنائس والاديرة ووظيفته الوعظ والتوجيه للخلاص من " الخطيئة " .

٢ ـ التنظيم الزمني وتمثله الدولة ومؤسساتها المدنية والعسكرية وميدانه شؤون الحياة الدنيوية .

وكلا التنظيمين يمارس نشاطه في ظل روح أخلاقية مسيحية مع تفاوت بالالتزام بهذه الروح .

فمن الوجهة العلمية كان الفصل بين الدين والسياسة موجودا بالفعل اى ان نوعا من العلمانية الموضوعية كان يسود الحياة الاوربية طيلة القرون الوسطى وذلك امر طبيعي ما دام الحكم بما انزل الله غير نافذ في المجتمع .

ولكن اول من تبنى دعوة علمانية ذاتية ودعا بصراحة الى استبعاد الدين وعزله عن جانب مهم من جوانب الحياة هو " مكيافيللي " .

---

(٥) انظر مقدمة كتاب الامير لكريستيان غاوس .

والميكافيلية باعتبارها منهجا عمليا للحكم تقوم كما رسمها واضعها في " الامير " على ثلاثة اسس متلازمة مستمدة من تصور لا ديني صرف هي :

١ ـ الاعتقاد بان الانسان شرير بطبعه وان رغبته في الخير مصطنعة يفتعلها لتحقيق غرض نفعي بحت (٦) ، ومادامت تلك هي طبيعته المتاصلة فلاحرج عليه ولا لوم اذا انساق وراءها .

٢ ـ الفصل التام بين السياسة وبين الدين والاخلاق فقد رسم ميكافيلي للسياسة دائرة خاصة مستقلة بمعاييرها واحكامها وسلوكها عن دائرة الدين والاخلاق و " فرق مكيافيلي " تمام التفريق بين دراسة السياسة ودراسة الشوءون الاخلاقية واكد عدم وجود اى رابط بينهما " (٧) .

صحيح ان مكيافيللي لم ينكر الدين والاخلاق في ذاتهما كما هو الشان في بعض النظريات المعاصرة لكنه يجعل الحكام في حل من التمسك بالضوابط المستمدة منهما ويقصرها على افراد الشعب .

٣ ـ ان الغاية تبرر الوسيلة : وهذه هي القاعدة العملية التي وضعها ميكافيللي بديلا عن القواعد الدينية والاخلاقية . ولذلك فان لها عنده تفسيرا خاصا .

كان الكتاب السياسيون منذ القدم ، ومنهم فلاسفة الاغريق كافلاطون وارسطو وغيرهم يبحثون عن الغاية من الدولة والهدف من وجودها (٨) فراى بعضهم ان غايتها هي تحقيق المثل العليا السامية ولهذا جاء اشتراطهم كون الحاكم فيلسوفا . بينما ذهب اخرون الى انها تنفيذ القانون الالهي او القانون " الطبيعي " كما يسمونه .

ولكن ميكيافيللي ذا النزعة العملية ذهب الى ان الدولة غاية بذاتها والقبض على زمام الحكم هدف برأسه ولا داعي للخوض فيما وراء ذلك .

---

(٦) انظر الامير : ١٤٤

(٧) الامير ، المقدمة : ٣٥

(٨) انظر تاريخ النظرية السياسية : الفصل الثاني الفكر الاغريقي .

وفي سبيل تحقيق هذه الغاية لامانع من سلوك اى سبيل يوصل اليها، واستخدام اية وسيلة من شأنها تسهيل ذلك مهما وصفت تلك السبل والوسائل بانها غير اخلاقية.ومهما تنافت مع الدين ومنهجه في السلوك .

فالمعيار الذى تقاس به صلاحية الوسيلة او عدمها ليس معيارا موضوعيا بل هو معيار ذاتي شخصي ، وللسياسي وحده الحق في الحكم بصحة اى لون من الوان السلوك او خطئه وبطلانه .

تلك صورة موجزة للمكيافيللية كما ظهرت في عصر النهضة .

وبسبب نزعتها اللا أخلاقية الظاهرة عورضت بشدة في الاوساط الدينية والفكرية فحرمت الكنيسة قراءة " الامير " ونقده المؤلفون بعنف . وظلت كلمة " ميكافيللى " اشنع وصف يمكن ان يطلق على انسان متحلل من قيود الدين والخلق متجرد من الانسانية والضمير .

وهكذا بقيت زهاء ثلاثة قرون وهي في موضع المقت والازدراء بينما نمت النظريات التي عُرضت آنفا .

ولما جاء القرن التاسع عشر قرن الانتفاضة الشاملة على الدين والاخلاق فكريا وواقعيا ظهرت نظرية التطور العضوى على يد داروين . وكان قانونها وقاعدتها ان الحياة صراع والبقاء للانسب اى للاقوى بطبيعة الحال .

حينئذ آمن الناس على اساس " علمى ! " بان الوجود مرتبط بالقوة ، وان الصراع الحتمى على البقاء لا يسمح بالتفريق بين وسيلة واخرى فليست العبرة بنوعية الوسيلة لكنها بضمان النتيجة وتحقيق الغاية التي هي "البقاء " في ذاته .

المكيافيللية تقول ان الحق هو القوة !

والداروينية تقول : ان الوجود هو القوة .

والداروينية نظرية علمية اذن فلتكن المكيافيلية كذلك .

وكانت الظروف تهيء لمثل هذه المعادلة ، فالكنيسة فقدت سلطانها الطاغي، والحياة السياسية والاجتماعية في القارة تموج بالصراعات والحروب الطاحنة والشحناء المدمرة . هذا من ناحية .

ومن ناحية اخرى ارتبطت السياسة ـ في ذلك القرن ـ بالاقتصاد ارتباطا قويا فازدادت بعدا عن الدين والمؤثرات الدينية .

والواقع ان السياسة والاقتصاد وكل جوانب الحياة مترابطة ومتلازمة بحيث يصعب فصل كل منها عن الآخر . الا ان الاقتصاد بصفة خاصة اصبح المحور الرئيسي للسياسة الدولية بسبب الاوضاع التي كانت تعيشها القارة الاوربية .

ففي هذه الفترة شهدت الحياة الاوربية انهيار نظام اجتماعي وقيام نظام اخر محله . لقد انهار الاقطاع وولدت الرأسمالية .

كان النظام الاقطاعي الذي المحنا عنه سابقا يمثل صورة بشعة لاهدار الكرامة الانسانية والحط من قيمة الانسان واستعباده بفظاعة لاناس من بني جنسه تجردوا من المعاني الانسانية النبيلة .

كان الانسان في ظل هذا النظام مستعبدا لسلطتين غاشمتين : سلطة السادة الاقطاعيين وسلطة رجال الدين ، فالسيد يملك الاقطاعية بمن عليها من الفلاحين ويسن لها القوانين ويفرض عليها العقوبات كما يشاء اي انه كان يجمع بين السلطتين التشريعية والتنفيذية في آن واحد .

اما رجل الدين فيبارك الاستعباد بحجة انه نتيجة للخطيئة الاولى ويشارك السيد في تسخير العبيد لمصلحته الشخصية اذ ان الكنيسة كما سبق ان اوضحنا جزء لاينفك من النظام الاقطاعي وفي ظل هذا الواقع المزري انبعثت هنالك حركتان لها اهمية قصوى في التاريخ الاوربي : الحركة العلمية ، والحركة الاصلاحية الدينية، وغير خاف الاثر الاساسي فيهما ولهرت " الطبقة البرجوازية " مستندة الى اقوال " لوثر وكالفن " ومستفيدة من ثمار التقدم العلمي التجريبي وظل

دور هذه الطبقة محدودا حتى بدأ مايسمى " الثورة الصناعية " حيث بدأ المصنع يستأثر بماكان للارض من قيمة ونفوذ واشتد التنافس بين رجال الصناعة فى المدن والملاك الزراعيين فى اقطاعيات الارياف،وكانت الصناعة انذاك تحتاج الى ايد عاملة متوفرة ورخيصة والعمال بطبيعة الوضع يعيشون فى الريف تحت سيطرة السادة الاقطاعيين فكان لابد منكسر السور المفروض عليهم واتاحة الفرصة لهم للانفلات من قيود الاقطاعية ، لا لمصلحة حريتهم ولكن لمصلحة السادة البرجوازيين •

حينئذ ظهر المذهب الطبيعى او " الفيزيوقراطى " الذى كان ينادى بشعار " دعه يعمل ،دعه يمر " اى دعه يعمل مايشاء ويمر من حيث يشاء وكان ذلك فتحا جديدا فى الحياة الاوربية •

فعلى الرغم من ان حرية الانسان فى اختيار سبيل الرزق الحلال وحقه فى الانتقال الى حيث شاء من ارض الله كانت بالنسبة للانسان فى الشرق الاسلامى أمرا بديهيا كالماء والهواء فان الحصول عليها فى الغرب الاقطاعى يعد ظفرا بمكسب كبير للغاية •

وكان نجاح الثورة الفرنسية حافزا قويا لبقية الشعوب الاوربية فاندلعت الثورات المتتابعة وارتفعت صرخات المفكرين ممن يسمون " دعاة الحرية " منددين بالمساوئ التى يعج بها المجتمع والقيود التى يرزح الفرد تحت نيرها •

وبسبب ماعانته الشعوب من ويلات الحروب الطاحنة بين الطوائف الدينية لاسيما بين الكاثوليك والبروتستانت وبسبب الطغيان الجائر الذى كان رجال الدين يفرضونه على الناس وبسبب الحقد الصليبى الذى حجب الاوربيين عن الاهتداء بهدى الله والدخول فى دينه الحق ـ بسبب ذلك كانت الحرية التى طولب بها " لادينية " وكان الاساس الذى يراد بناء المجتمع الجديد عليه لادينيا كذلك • واستلهم الباحثون من التراث الفلسفى الاغريقى ومن كتابات " سبينوزا وجون لوك " والموسوعيين الفرنسيين فكرة صياغة المجتمع وفق قوالب

وتنظيمات علميانية .

وفي الظلام تارة وعلانية تارةكانت المنظمات التلمودية تضرم الاحقاد وتؤجج نار العداوة ضد الدين وتدفع الناس دفعا الى الاباحية والالحاد .

والتقت مشاعر الناس وتعلقت عواطفهم بكلمة سحرية خلابة ترمز لمبدأ جديد جذاب اتفق في المناداة به "الطبيعيون" و "النفعيون" والجماعيون" و "الفرديون" ذلك هو مبدأ الديموقراطية . ومن الذى لا تخلب لبه الديمقراطية من الشعوب المضطهدة والعقول المغلولة . ؟ ! الشعب هو سيد نفسه وهو مصدر السلطات ولا وصاية لاحد عليه ..

وللمواطن ـ ايا كانت عقيدته او جنسيته ـ حريات وحقوق لم يكن ليحلم بها من قبل : حرية العمل ـ حرية التنقل ـ حق ابداء الراى ـ حرية السلوك ـ حرية العقيدة ـ حق التظاهر والاحتجاج ..

وله كذلك ضمانات لم تكن ـ وهو في ظل الاقطاع ـ لتدور له في خلد : ضمان الاتهام ـ ضمان التحقيق ـ ضمانة المحاكمة ـ ضمانة التنفيذ . (٩)

كل الناس بهرتهم هذه الشعارات واسكرتهم هذه الاحلام فحاولوا بكل جهدهم نسيان ذلك الماضي الرهيب ، ونبذه بكل قيمه ومثله وان كان من بينها الدين والاخلاق .. وتحرقوا مشتاقين الى مستقبل باهر وضاء وطغى على الفكر والادب اتجاه مغرق في التفاؤل واثق ثقة مطلقة في السعادة والتقدم اللذين لاحد لهما .

وكان هنالك ـ بطبيعة الحال ـ فئة واحدة فقط تدرك النهاية الحقيقية والمغزى العميق للعملية ، هذه الفئة هي طبقة "الرأسمالية" الذين يمثلون الخلاصة المتطورة للطبقة البرجوازية . وغني عن البيان القول بان الرؤوس البارزة في هذه الطبقة هم "المرابون اليهود" (١٠)

---

(٩) حول مولد الديمقراطية ومبادئها يراجع جاهلية القرن العشرين فصل "في السياسة"

(١٠) انظر عيوب الديمقراطية كما ستاتي قريبا .

ولنستمع الى القصة من رواية باحث سياسي غربي :

يقول " كارل بيكر " في كتاب " السبيل الى عالم افضل " :

" كان كل رجل ايا كانت المملكة التي يعيش فيها يدين بالولاء والطاعة للكنيسة ورجالها في الامور الدينية كما كان يدفع للكنيسة مكوسا معينة فضلا عن تقاضيه امام محاكمها التي لها ايضا اختصاص توقيع العقوبة عليه في جرائم ~~معينة فضلا عن تقاضيه امام محاكمها التي لها ايضا اختصاص توقيع العقوبة عليه في~~ جرائم معينة . ولكنه كان يدين في الوقت ذاته بالولاء والطاعة لحكومة بلاده المدنية في المسائل المدنية فكان يدفع لامير المقاطعة او للملك ضرائب اخرى معينة وكان يتقاضى امام محاكم الاديرة او الملك كما كانت هذه المحاكم توقع عليه العقوبة لارتكابه جرائم معينة وهكذا كان امرا مقضيا ان ينشب النزاع بين هاتين السلطتين التي تطالب كل منهما الناس بواجب الولاء لها ولم يكن تاريخ غرب اوربا طيلة العصور الوسطى وفي كل جزء من اجزائه الا تاريخا لهذا الكفاح المستمر بين الكنيسة والدولة . "

ولقد تم انتقال السلطان والقوة من الكنيسة الى الدولة خلال المائة عام التي انقضت في حروب اهلية ودولية بسبب المنازعات الدينية وكانت هذه الحروب كفاحا وحشيا دائما لا يلين ولا يهدأ للظفر بالسلطان السياسي .

" وهكذا اختفى من اوربا الغربية مجتمعها المسيحي الموحد .. واصبحت سيادة هذه الدول واستقلالها حقيقة واقعة .. ولقد جاءت المبادئ النظرية بعد ذلك لتؤيد هذه الحقيقة . فقد عرف مكيافيللي في كتابه المشهور "الامير" الذي نشره قرابة عام ١٥١٣ الدولة بانها قوة سياسية بحتة كما اعلن فيه ان مهمة الامراء والحكام او وظيفتهم الوحيدة هي اكتساب السلطة واستخدامها وهم في استخدامهم لهذه السلطة لهم ان يحكموا وحدهم على الاغراض والغايات والتي تتحقق عن طريقها وهم من اجل ذلك غير مقيدين بقواعد الدين والاخلاق .

وفى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الغت الثورة الديموقراطية الحكم المطلق الذى كان للملوك واحلت محله سلطان الحكومة الذى تولته جمعيات نيابية ينتخبها الشعب .. وجعلت هذه الثورة . الدول على اختلافها اكثر اهتماما بالامور الدنيوية وبالتالى اكثر استقلالا من ذى قبل وهكذا حلت ارادة الشعب محل الحق الالهى .

" وكما كان الناس على استعداد لان يقاتلوا ويموتوا فى سبيل الدين والكنيسة اصبح الرجل على اهبة القتال والموت فى سبيل دولته وشعبه " (١)

ثم ننتقل الى مع "بيكر" الى الكلام عن "الديموقراطية" حيث يقول :

" الديمقراطية العصرية من حيث الفكرة والواقع ان هى الا نتيجة لمعارضة قامت فى وجه ذلك النظام الذى سار عليه المجتمع والحكومة وكان سائدا فى معظم الدول الاوربية خلال القرنين (١٧ و ١٨) وقت ان كان يحكم الدول الملوك ادعوا السلطة المطلقة استنادا الى الحق الالهى وقد استندت سلطة هؤلاء الملوك الى طبقة الاعيان والى سلطة الكنيسة المؤيدة وكانت غالبية الناس وخاصة الاجراء والفلاحين تسام الظلم وتستغل وكان نصيبهم من الحقوق ضئيلا فلم يتمتعوا بالحرية السياسية او حرية العبادة او حرية الكلام او الصحافة او حرية العمل .

" ولم يكن للمواطنين اى ضمان ضد التعسف بهم او القبض عليهم وحبسهم وتفتيش مساكنهم وكانت الثورة الانجليزية والثورتان الفرنسية والامريكية موجهة ضد هذا النوع من الدكتاتورية لاحلال الديقراطية الحرة محلها .

وان الفكرة الرئيسية التى تنطوى عليها الفلسفة الديقراطية الحرة التى كانت تتمثل فى ان الناس يستطيعون ان يحكموا انفسهم بصورة افضل مما لو حكمهم الملوك وطبقة الاشراف ورجال الدين وكان الكتاب يستعملون هاتين الكلمتين " Laissez Faire " تعبيرا عن هذه الفكرة اى دع الناس احرارا فى اعمالهم وكانوا يظنون ان واجب الحكومة ينحصر فى حماية الارواح والممتلكات والمحافظة على النظام وحماية البلاد ضد الاعتداء الخارجى .

---

(١) السبيل الى عالم افضل ص ٧٢

" وكانت الفكرة العامة تنادى بانه اذا سعى كل فرد وراء منافعه الذاتية فان ضربا من التوفيق بين مصالح الشعب المختلفة سرعان مايزداد ظهوره او يقل بصورة آلية وكان يعبر عن هذه الفكرة بايجاز فى العبارة الاتية " ان المنافع الخاصة تؤدى بدورها الى تحقيق المنفعة العامة " .

" وهذه النظرية البسيطة هى نظرية تعمل لمصلحة القوى ضد الضعيف وفى مجتمعات القرن الثامن عشر التى لم تكن حياتها قد تعقدت بعد كانت هذه النظرية تعمل لمصلحة اولئك الافراد القلائل الذين اتاح لهم الحظ ان يقتنوا ثروة (١)

" ولكن بظهور الالات ذات القوى المحركة اصبح واضحا ان المنافسة الصناعية الحرة لم تؤد الى النتيجة التى كان يتوقعها الاقتصاديون والفلاسفة السياسيون فقد كانت الارباح تعود على اصحاب الصناعة والالات وحدهم ونهضت الالات باكبر عبء من العمل فامتلأت البلاد بالعمال العاطلين، ووجد اصحاب المصانع الاحرار ان ذلك فرصة لتخفيض الاجور واطالة ساعات العمل، ووجد العمال ان حريتهم فى اختيار مهنهم كانت محدودة بمقياس الحاجة الى ساعات طويلة فى اى عمل يعرض لهم لقاء اجور تافهة لاتكاد تقيم اودهم، وكانت جموع النساء والاطفال الذين انهكهم الجوع والضعف يشتغلون فى العمل بمعدل ١٢ ساعة فى اليوم داخل حوانيت قذره وخطرة وغير صحية لقاء اجر لاتكاد تقيم أودهم " (١٢)

هكذا جاءت الديمقراطية وهكذا تبددت الاحلام والاوهام التى نيطت بها، واسفرت الثورة الصناعية التى واكبت الثورة الديمقراطية عن وجه كالح لايقل شناعة وفظاعة عن صورة الاقطاع وانقلبت الحرية النسبية التى وصل اليها العمال والفلاحون قيودا ثقيلة ترهق كواهلهم .

وتعالت الصيحات والصرخات من جديد تعلن رفضها للنظام الطبيعى الفردى وتطالب بانظمة " جماعية ديمقراطية " وظهر بقوة صوت " الاشتراكيين الاوائل " ومال اليهم طوائف كثيرة من المثقفين والعمال والفلاحين وشكلوا جبهة مضادة للراسماليين العتاة .

---

(١٢) المصدر السابق : ١٧٣ .

وفى معمعة الصراع بين انصار الديمقراطية الراسمالية الفردية ودعاة الديمقراطية الاشتراكية الجماعية ولدت نظرية التطور التى غيرت مجرى الفكر الغربى باجمعه .

فهذه النظرية باجهازها على " المسيحية الرسمية " افسحت الطريق لابعاد الدين عامة بصفة نهائية عن التاثير فى أى منحى من مناحى الحياة بل مهدت لرفضه رفضا باتا حتى فى صورة الوجدانية المجردة .

وبواسطة قانون الانتخاب الطبيعى وتنازع البقاء المفضى الى بقاء الانسب بعثت الداروينية النزعة المكيافيللية كما أسلفنا ، فلقد كان صراع الدول القومية فى العصر الحديث الذى يشبه فى مظهره صراع انواع الكائنات الحية مدعاة لتبرير المكيافيللية بل لتبنيها وتطبيقها . ويؤكد ذلك " كريستيان غاوس " فى مقدمته لكتاب الامير اذ يقول عن الكتاب :

" اختاره موسولينى فى ايام تلمذته موضوعا لاطروحته التى قدمها للدكتوراه وكان هتلر يضع هذا الكتاب على مقربة من سريره فيقرأ منه فى كل ليلة قبل ان ينام . ولا يدهشنا قول "ماكس ليرز " فى مقدمته لكتاب " احاديث "ان لينين وستالين ايضا تتلمذوا على مكيافيللى " (١٣) .

وتتجلى الروح المكيافيللية بوضوح فى قول انجلز :

"ان الاخلاق التى نؤمن بها هى كل عمل يؤدى الى انتصار مبادئنا مهما كان هذا العمل منافيا للاخلاق المعمول بها " .

وقول لينين : " يجب على المناضل الشيوعى الحق ان يتمرس بشتى ضروب الخداع والغش والتضليل . فالكفاح من اجل الشيوعية يبارك كل وسيلة تحقق الشيوعية" (١٤)

أما الرأسمالية فلاتخفى ابدا حقيقتها المكيافيللية بل ان مايلزكوبلاند " صاحب " لعبة الامم " ليقرر انها منهج السياسة الامريكية . (١٥) .

---

(١٣) الامير : ١٨ = ١٩ المقدمة
(١٤) عن اشتراكيتهم واسلامنا بشير العوف : ٣٦ و ٣٧
(١٥) انظر شرحه الديبلوماسية والمكيافيللية / محمد صادق : ٣٤١ .

واضافة الى ذلك قدمت فلسفة التطور لكل من المعسكرين المتصارعين سندا لكفاحه ضد المعسكر الاخر ومبررا لجدارته وحده بالبقاء دون غريمه .

فالراسمالية ترى انها الحقيقة بالخلود المؤهلة وحدها بمؤهلات الاستمرار والتقدم ذلك لانها العنصر القوى فى الحياة الحديثة فلها ـ حسب قانون الانتقاء الطبيعى وتنازع البقاء ـ الحق فى القضاء على العناصر الضعيفة بتصفيتها جسديا او انهاكها اقتصاديا . وهكذا كانت الدول الراسمالية دولا استعمارية بالدرجة الاولى (١٦) مع ملاحظة ان صورة الاستعمار فى العقود الاخيرة تغيرت عنها فى القرن الماضى .

وغير خاف اثر فلسفة التطور فى الماركسية فقد استغلت النظرية الداروينية وطبقتها بحيث تتفق مع صراع الطبقات واتجه نظر الماركسية الى زاوية اخرى فهى لا توافق على ان البقاء للاقوى لكنها ترى معتمدة على فلسفتها الديالكتية "الجدلية" ان البقاء للاحدث وذلك ماتقول به ايضا فلسفة التطور . (١٧)

وعليه فان الراسمالية ـ فى نظرها ـ اشبه بسلالة منقرضة لا مبرر لبقائها بعد ظهور عنصر احدث منها وارقى تطورا وهو "الماركسية" .

ونستطيع ان نستنتج من ذلك ان هناك جامعا مشتركا لانظمة الحكم اللادينية المعاصرة بالاضافة الى اتفاقها على طرح الدين ونبذ الاخلاق من دائرة العمل السياسى بالكلية . وهذا الجامع يحتوى على ثلاثة اسس :

١ ـ الميكافيللية منهجا عمليا .

٢ ـ فلسفة التطور مبررا للبقاء والاستمرار .

٣ ـ الديمقراطية بصفتها نظاما انسانيا وضعيا يقتنع بهكلا المعسكرين .

---

(١٦) انظر معالم تاريخ الانسانية ٤ : .

(١٧) انظر : كتب غيرت وجه العالم : "اصل الانواع" .

نظرة الى الواقع المعاصر

ان الواقع السياسى المعاصر الذى تنعكس عليه الصورة الحقيقية للجاهلية الاوربية ليزخر بالدلائل القاطعة والبراهين القوية ويعج بالمتناقضات الصارخة والمصارحة والظواهر الغريبة التى تنذر ـ مجتمعة ـ بالمصير المشوءم والنهاية المروعة لعالم لا يوءمن بالله ولا يحتكم الى شريعته •

ونحن المسلمين لا نرى فيما يضطرم به مسرح الاحداث العالمية ـ من مفاسد جمة ومظالم شائنة وارهاب فظيع وعنف مدمر وكوارث جسيمة ـ الا نتيجة طبيعية لعبادة غير الله المتمثلة فى الحكم بغير ما أُنزل الله •

فالنتيجة معروفة لنا سلفا وحكمنا عليها اساسى اعمق من مناقشة تفصيلاتها ومعالجة ظواهرها •

غير انه قد يكون من الضرورى ونحن نعرض الجاهلية المعاصرة كما هى ـ فكرا وواقعا ـ ان نعرض معها الوجه الاخر لها كما يراه بعض مفكريها لكى تكتمل صورة العرض •

هنالك قضية آمن بها المفكرون السياسيون قديما وحديثا هى كما جاءت على لسان "كريستيان غاوس" : أن " الدولة ليست خارج نطاق عالمنا الانسانى فالشكل المعين لهذه الدولة التى يعيش البشر فى ظلها ليس من صنع الله ولا من صنع الشيطان او نوعيهما ، وهى الى حد ما من الاشياء التى خلقها الانسان ولذا من الواجب ان تكون خاضعة كغيرها من الامور التى خلقها لاعادة نظره ودراسته" (١) • وتلك هى علة العلل فى الجاهلية المعاصرة •

يلهث الانسان منقبا عن ذاته وقيمه وأنظمته وموازينه فى حدود الارضية دون ان يرفع نظره مرة واحدة الى السماء •

ومن هنا كان حتما عليه ان يضل ويشقى ويصرخ ويستغيث •

---

(١) الامير ٤٥ ـ المقدمة •

ولقد تعالت صيحات الخطر من الغرب تنتقد وتستنكر وتنذر وتحذر ، وسنعرض هنا بعض ما كشفه الكتاب الغربيون من مساوئ الانظمة السياسية الأوربية بشقيها الرأسمالي والشيوعي .

أولا : الديمقراطية الليبرالية :

الناس في الغرب يقبلون الحوار والنقاش حول أي موضوع ما عدا موضوع " الديمقراطية " فالديمقراطية بمبادئها - كالحرية والمساواة - وحقوقها وضماناتها - كما اسلفنا - منطقة مقدسة لا ينبغي أن تكون موضع جدال وما لها لا تكون كذلك وهم لا يعلمون لها بديلا الا الديكتاتورية ذلك الشبح الرهيب ؟!

ومع ذلك فقد كثرت اعتراضات المفكرين على هذا المبدأ وانتقد من جوانب عديدة ويتلخص نقد " الكتاب الديمقراطيين " للديمقراطية في أمور :

١ - ميوعة الاطلاع وصعوبة تحديده بدقة علمية يمكن بواسطتها التمييز بين الحقيقة وبين الادعاء المزيف .

يقول صاحب كتاب " نظم الحكم الحديثة " :

" كل محاولة تستهدف تحديد الاستعمال الصحيح لاصطلاح - الديمقراطية من شأنها أن تواجه مزيدا من التعقيدات ، وليست البلاد التي تسمى بالديمقراطية تقليديا .. هي التي تظهر المتناقضات والعيوب فحسب بل ان البلاد الشيوعية في العالم والتي تعتنق مفهوما سياسيا مخالفا تماما تدعي بذات التأكيد أنها " ديمقراطيات شعبية " وأن - انتساب البلاد الاخرى الى الديمقراطية انما هو من قبيل الخداع ." (٢)

---

(٢) ميشيل ستيوارت : ٢٩٨ .

ويقول آرنولد توينبي :

" أصبح استخدام اصطلاح الديمقراطية مجرد شعار من الدخان لاخفاء الصراع الحقيقي بين مبدأي الحرية والمساواة " (٣) ويقول رسل عنها : (٤)

" كانت تمنى حكم الاغلبية مع نصيب قليل غير محدود المعالم من الحرية الشخصية ثم أصبحت تمنى أهداف الحزب السياسي الذي يمثل مصالح الفقراء على أساس أن الفقراء في كل مكان هم الاغلبية ، وفي المرحلة التالية أصبحت تمثل أهداف زعماء هذا الحزب ، وها هي الان في أوربا الشرقية وجزء كبير من اسيا يصبح معناها الحكم المستبد لمن كانوا يوما ما نصراء للفقراء والذين اصبحو يقصرون نصرتهم هذه للفقراء على ايقاع الخراب بالاغنياء ، الا ان كان هؤلاء الاغنياء من " الديمقراطيين " بالمعنى الجديد " .

صحيح أن لفظ " الديمقراطية " يعني عند اطلاقه " حكم الشعب " لكن الآراء تتضارب كثيرا حول كيفية الحكم ونوعية الاقتراع والتمثيل وشروط المقترعين وتحديد الفئات السياسية .

ترى الشيوعية ان الدول الرأسمالية ليست ديمقراطية بالمعنى الصحيح لان الحكم فيها حقيقة بيد الطبقة الثرية وأن المصطلح الحقيقي لها هو " دكتاتورية رأس المال " .

وفي الوقت نفسه تقول الرأسمالية ان الدول الشيوعية ليست ديمقراطية لان الحكم بكل سلطانه ينحصر في قبضة قليلة واحدة من الشعب هي " الحزب الشيوعي " ولذلك لا تحسب الدول الشيوعية في عداد العالم الحر .

هذا بالاضافة الى الانقسامات داخل الدول الديمقراطية الليبرالية .

٢ ـ الأحزاب المتشاحنة التي لا تعبر عن ارادة الامة :

ان الواقع المحسوس لينطبق بصراحة بأن النظام الديمقراطي يقضي على وحدة الأمة ، ويفتتها الى تكتلات متناحرة واحزاب متطاحنة لاسباب لم تكن لتستدعي

---

(٣) انظر لغة تراث الانسانية ج ٣ ص ٣٤٢ .
(٤) العقل والمادة : ٢٤١ ـ ٢٤٢ .

التكتل والتحزب لولا ان النظام نفسه يشجع على ذلك ويهيئه • ومع خطورة هذا التمزق على الامة فانه ينبني عليه اثر خطر بالنسبة لتحقيق مصالح الشعب •

وذلك ان الدول الديمقراطية الغربية يوجد بها نوعان من الانظمة :
ـ نظام الحزبين ، ونظام الاحزاب المتنافسة • وندع الكلام حول عيوب النظامين كلاهما لـ " هارولد لاسكى " المشار اليه :

" فى انجلترا مثلا اذا اقتصر الامر على حزبى المحافظين والعمال فسوف يضطر كثير من المواطنين لان يختاروا بين بديلين ليس بينهم وبين احدهما تجاوب كامل خلاق. ولهذا السبب ينهض الادعاء بان نظام الاحزاب المتعدد ة الذى يسمى عادة بنظام المجموعة يتلاءم مع انقسام الرأى بصورة اكثر فاعلية •

ولكن بناء على خبرتنا بنظام المجموعة ـ كما فى فرنسا وحكومة ويمار فى المانيا ـ يبدو انه مصحوب دائما بعيبين خطيرين : ويكمن اكثر هذين العيبين اهمية فى ان هذا النظام عندما يعمل تكون الطريقة الوحيدة التى يتحكم بها فى السلطة التشريعية هى تنظيم نوع من الائتلاف بين المجموعات •• ويكون من نتيجة ذلك ان يستعاض عن تحمل المسئولية بالمناورات وان تصبح السياسة مجردة من التماسك وسعة الافق ••

" والعيب الثانى الذى يظهر بدرجة ملحوظة فى فرنسا هو ان نظام المجموعة يميل الى تجميع السلطة حول الاشخاص اكثر من تجميعها حول المبادىء (٣) •• "

٣ ـ ايجاد طبقة ثرية مسيطرة " دكتاتورية " :

هذا العيب الخطر ملازم للانظمة الديمقراطية الغربية وهو اجلى عيوبها وابرزها وبه تتذرع الشيوعية فى هجومها على العالم "الليبرالى " كما تستغله الاحزاب اليسارية داخل هذه الدول نفسها •

من الحقائق المقررة عالميا ان المصالح المادية هى الدافع الوحيد والمحرك الرئيسى للعمل السياسى وكل دول العالم الديمقراطى لا تخفى حقيقة انها تعمل

(٣) مدخل الى علم السياسة : ٨٥

جاهدة لحماية امتيازاتها وضمان تفوقها الاقتصادى وتوفير " المجال الحيوى " لشعبها وهذا هو القناع الظاهرى الذى تتستر به امبراطوريات المال فى هذه الدول والتى تتحكم فى السياسة الخارجية والداخلية مباشرة او بطريق الضغط على السلطة الحاكمة .

وفيما يحسب الشعب انه سيد نفسه ومقرر مصيره تقوم الطبقة الراسمالية المحتكرة بسن القوانين لحماية مصالحها والزج بسياسة الدول فيما يخدم اغراضها النفعية الخاصة .

يقول لاسكى :

" ان الدولة (الديمقراطية) تبذل الكثير فى سبيل تحقيق المساواة بين المواطنين فيما تمنحهم من ضمانات ، كما تتجه اوامرها القانونية الى حماية الملكية القائمة للامتيازات اكثر مما تعمل على توسيع نطاقها ، فانقسام المجتمع الى فقراء واغنياء يجعل اوامر الدولة القانونية تعمل لصالح الاغنياء .. اذ ان نفوذهم يرغم نواب الدولة وذوى السلطة فيها على ان يكون لرغباتهم الاعتبار الاول " .

" وتعبر الدولة عن رغبات اولئك الذين يسيطرون على النظام الاقتصادى فالنظام القانونى بمثابة قناع تختفى وراءه مصلحة اقتصادية مسيطرة لتضمن الاستفادة من النفوذ السياسى فالدولة اثناء ممارستها لسلطتها لا تعمد الى تحقيق العدالة العامة او المنفعة العامة وانما تعمل على تحقيق المصلحة للطبقة المسيطرة فى المجتمع باوسع معانى هذه المصلحة " .

" ان الحرية والمساواة اللتين حصلنا عليهما كانتا اولا وقبل كل شىء حرية ومساواة لمالك الثروة " (٤) والامثلة الواقعية على ذلك واضحة للعيان ولعل فى الحروب التى خاضتها وتخوضها الولايات المتحدة اصدق دليل على خضوع السياسة الديمقراطية لضغط الطبقة المحتكرة .

فالحرب العالمية الاولى وكذلك الحرب الثانية ثم حرب فيتنام كلها دخلتها امريكا دون ان يكون لها مصلحة مباشرة او يتعرض امنها القومى للخطر وبغض النظر

---

(٤) المصدر السابق : ٥٠ ، ٦٩ ، ٦٤

عن دوافعها ونتائجها كان الشعب الامريكى يرفض تدخل حكومته فى هذه الحرب وكانت المظاهرات الصاخبة تنظم باستمرار احتجاجا على ضياع الارواح والاموال فيما لا جدوى منه.

لكن الطبقة الراسمالية التى تملك مصانع السلاح وشركاتها الكبرى التى تتولى تسويقه تكمن مصلحتها فى اشعال الحروب واستمرارها، والذى حصل ويحصل دوما هو تنفيذ رغبة هذه الفئة القليلة مقابل تجاهل رغبات الشعب كامله . ولما حاول الرئيس " كندى " تقديم المصلحة القومية وعقد اتفاقية وفاق دولى تخلصت منه هذه الطبقة فازهقت روحه بعملية اغتيال غريبة لاتزال اسرارها فى طى الكتمان الى الان .

وليس هذا فحسب ،بل ان امبراطوريات المال لتملك المنظمات الارهابية والعصابات المسلحة الى جانب عصابات الرقيق الابيض والرشاوى بالاضافة الى سيطرتها على وسائل الاعلام واستخدامها فى الفضائح السياسية والمالية والاخلاقية وكلها شباك تنصبها للاقتناص بالقوة تارة وبالاغراء تارة اخرى (٥)

والحقيقة التى يجب الا تغرب عن بالنا فى هذا الصدد هى ان الطبقة الراسمالية المسيطرة ليست سوى مجموع المنظمات الربوية الاحتكارية اليهودية التى تخطط للسيطرة على العالم اجمع وفق اوامر التلمود والبروتوكولات .

٤ ـ تزييف وتطويع الراى العام :

هذا العيب متلازم والعيب الذى قبله فوجود طبقة ثرية مسيطرة يجعل وقوع وسائل الاعلام ـ المكون الرئيسى للرأى العام ـ فى قبضتها امرا طبيعيا . كما ان خضوع وسائل الاعلام لفئة معينة تتيح لها القدرة على تقوية مركزها ودعم نفوذها السياسى والمالى عن طرق تكوين الرأى العام او تضليله،مما يضمن فوز المرشحين الموالين لها ونجاح مخططاتها، يقول " ميشيل ستيوارت " فى معرض حديثه عن مشكلات الديمقراطية وعيوبها :

---

(٥) انظر حول هذه الفقرة : حكومة العالم الخفية : ١٨٤/ جاهلية القرن العشرين : ١٢٦ .

" هناك نفوذ الثروة على تكوين الراى العام ٠ فالديمقراطية تتطلب فرصـــا متكافئة لجميع الذين يريدون الاقناع او التعبير عن الراى ٠ ولقد حاولت الديمقراطيـة توفير ذلك بازالة العقبات القانونية على حرية الكلام والكتابة ٠

" وثمة اتجاه معاصر يتمثل فى ملكية فئة قليلة للصحافة كما وان النفقات الباهظـة لادارة صحيفة تجعل دخول ملاك جدد لميدان الصحافة امرا عسيرا ٠ ثم ان المصالـح الصناعية والتجارية تؤثر على الاذاعة والتلفزيون ومن الجائز مع تقدم الدراسات الخاصـة بعلم النفس والدعاية والاعلام ان تزيد مقدرة القلة التى تستطيع ان تنفق بسخـــاء للتحكم فى وسائل الاعلام على تكييف عقول الهاتين مما ينال من حق الشخص وقدرته علـى التفكير وهو الغرض الاساسى للديمقراطية ٠ وهذه المشكلة هى اكثر المشاكل خطـورة لانها ليست من مخلفات الماضى وانما هى قوة " بلوتوقراطية " (سيطرة رأس المـال) جديدة ظهرت حديثا " (٦) ٠

ويركز " لاسكى " اهتمامه على الصحافة ودورها فى تزييف الراى العام فيقول :

" ان جمع الاخبار ونشرها عمل لا يراعى فيه العرض الموضوعى للوقائع ٠ فالاخبـار سرعان ما تصبح دعاية عندما تتمكن ما تسهام من التاثير فى السياسة كما يميل مضمـون الاخبار فى المجتمع المتفاوت ~~من بيدهم مقاليد~~ الى فائدة من بيدهم مقاليد السلطة الاقتصادية ٠

" ومعظم الافراد يعتمدون على الصحف فى استقاء معلوماتهم وهذه الصحـف تعتمد فى بقائها على الاعلانات التى تستطيع ان تحصل عليها كما ان اصدار الصحـف عموما باهظ التكاليف بحيث لا يستطيع ان يؤسسها الا الاغنياء فقط ٠

" ونظرا لانها تعتمد على المعلن فيتحتم عليها غالبا ان تنشر تلك الاخبار والتعليقات التى ترضى اولئك ٠

وبذلك تكون النتيجة تحيزا صريحا فى نقل الاخبار للحوادث الصحيحة التى قد تقلق الطبقة الغنية او تحرجها " ٠ (٧)

---

(٦) نظم الحكم الحديثة : ٣٢٣
(٧) مدخل الى علم السياسة : ١٠٩ ــ ١١٠

٥ ــ الفتور فى تجاوب المواطنين مع العملية الانتخابية :

تدعى الديمقراطية انها حكم الشعب وان النواب واعضاء الحكومة انما يختارون وفقا لارادة الشعب وانهم تبعا لذلك يمثلون الشعب تمثيلا صادقا •

ولكن هذه الدعوى تناهضها امور عدة منها :

١ ــ الدول التى تقصر حق الانتخاب على فئة معينة لاسباب عنصرية اوجنسية او طائفية لا يمكن ان تعد نسبتها الى الديمقراطية صادقة كما يرى " ستيوارت " ويمثل لذلك بسويسرا التى لم تعط للنساء حق الانتخاب وبالدول التى لا يحظى الملونون او الطوائف الدينية فيها بذلك كبعض الولايات المتحدة وايرلندة (٨) •

٢ ــ بالنسبة للدول التى لاتضع مثل هذه الحواجز بل تحفز المواطنين بكل وسائل الاعلام على الادلاء باصواتهم يلاحظ بوضوح عزوف نسبة ليست قليلة من الشعب عن الاشتراك فى العملية الانتخابية • وتكون النتيجة ان الذى يفوز فى الانتخابات ــ حزبا او فردا ــ يفوز لانه حصل لا على اصوات اغلبية الشعب بل على اصوات اغلبية المشتركين فعلا فى الاقتراع •

فاذا اضفنا الرافضين للانتخابات الى الذين دخلوها معارضين فسنجد غالبا أن الاغلبية الفائزة فى الانتخابات ليست سوى اقلية بالنسبة لمجموع الشعب •

وبذلك لا يصح بحال القول بان الحكومة تمثل الشعب تمثيلا كاملا او صادقا •

وهذا العيب تعترف به الدول الديمقراطية نفسها وليس من دولة تستطيع نفيه وانما تتباهى فيما بينها بانخفاض نسبة الرافضين وتحقيق ارقام قياسية فى عدد المشتركين •

وعلى سبيل المثال يذكر مؤلفو كتاب " نظام الحكم والسياسة فى الولايات المتحدة انه لم تزد نسبة الناخبين عن ٦٦ ٪ من عدد الاشخاص الذين بلغوا سن الانتخاب وفى بعض الاحيان اقل من ٥٥ ٪ وفى سنة ١٩٥٦ ٥ر٦٠ ٪ فقط • (٩)

٦ ــ القضاء على الميزات الفردية :

على الرغم من ان الديمقراطية ــ فى جوهرها ــ نظام فردى كان وجوده اصلا بمثابة رد فعل لاهدار الحقوق الفردية فى ظل النظام الاقطاعى فان الفرد الممتاز

---

(٩) هارولد زينك وزميلاه : ١١٩

في الديمقراطية مفهوم الحق بالنسبة لمشاركته في صياغة القرارات التي تتخذها الحكومة .

هذا العيب لفت نظر بعض النقاد الى آفة تعاني منها الديمقراطية ومنهم اليكسيس كاريل فالدكتور كاريل يعجب كيف رضيت البشرية ان ترزح تحت نير نظام يقضي على المميزات الفردية ولا يقيم للصفوة الممتازة اي وزن في التاثير على سير الاحداث عدا مايتمتع به سائر الناس ويقول :

" هنالك غلطة اخرى تعزى الى اضطراب الاراء فيما يتعلق بالانسان والفرد تلك هي المساواة الديمقراطية . ان هذا المذهب يتهاوى الان تحت ضربات تجارب الشعوب ومن ثم فانه ليس من الضروري التمسك بزيفه الا ان نجاح الديمقراطية قد جعل عمرها يطول الى ان يدعو للدهشة فكيف استطاعت الانسانية ان تقبل مثل هذا المذهب لمثل هذه السنوات الطويلة ؟ .

ان مذهب الديمقراطية لا يحفل بتكوين اجسامنا وشعورنا . انه لا يصلح للتطبيق على المادة الصلبة وهي الفرد . صحيح ان الناس متساوون ولكن الافراد ليسوا متساوين فتساوي حقوقهم وهم من الاوهام ومن ثم يجب الا يتساوى ضعيف العقل مع الرجل العبقري امام القانون .. ومن خطل الرأي ان يعطو (اي الاغبياء) قوة الانتخاب نفسها التي تعطى للافراد مكتملي النمو . كذلك فان الجنسين لا يتساويان . فاهمال انعدام المساواة امر خطير جدا . لقد ساهم مبدأ الديمقراطية في انهيار الحضارة بمعارضة نمو الشخص الممتاز .. ولما كان من المستحيل الارتفاع بالطبقات الدنيا فقد كانت الوسيلة الوحيدة لتحقيق المساواة الديمقراطية بين الناس هي الانخفاض بالجميع الى المستوى الادنى وهكذا اختفت الشخصية " (١٠)

ويؤيد رأيه هذا مايقع فعلا في الدول الديمقراطية عند الاقتراع على قضية اقتصادية مثلا، حيث يكون نصيب عالم الاقتصاد الضليع صوتا واحدا فقط وهو مايحصل عليه الفرد المتوسط او الجاهل . وغالبا ماتكون النتيجة في غير صالح الافراد الممتازين

---

(١٠) الانسان ذلك المجهول : ٣٠٦ ـ ٣٠٧

بسبب انسياق عامة الشعب وراء عواطفهم وخضوعهم للتضليل الدعائي •

٧ ـ تعارض المصلحة الذاتية للفرد والجماعة :

هذا العيب يلقي ضوءا على المحك الذي يظهر حقيقة اي نظام ارضي بشري فالديمقراطية تدعي انها النظام الامثل لتحقيق المصلحة الفردية والجماعية باتاحتها الفرصة للحصول عليها بطريقة قانونية •

لكن المشكلة تكمن في تعارض مصلحة الفرد ذاته ـ وكذلك الجماعة ـ بين اتخاذ هذا القرار أو ضده اذ هو لا يستطيع التوفيق بين مطالبه الخاصة • كما انه لا يستطيع التيقين من كونه نتيجة القرار ستحقق هذه المطالب او تنفيها •

ولنأخذ مسالة رفع الاجور مثالا لذلك :

تطالب النقابات العمال دائما برفع الاجور ـ لكي تكسب اصواتهم ـ وهي اذ تطالب بذلك تعلم يقينا ان رفعها يحقق للعمال مصلحة من جهة لكنه يفوتها من جهة اخرى لانه يكون مصحوبا بارتفاع الاسعار •

ومن ناحية اخرى يقول " بيكر " في سياق نقده لاسلوب التمثيل :

" ان الناس جميعا لهم مصالح كثيرة متعددة . حيث لا يمكن لجانب منها ان ينمو ويطرد الا بسن تشريع يحقق هذا الغرض ولكن هذا التشريع يسن على حساب الاخرين فالزراع والعمال مثلا هم المنتجون والمستهلكون في وقت معا فهم كمنتجين يتطلعون الى اسعار اعلى من تلك التي يبيعون بها منتجاتهم ولكنهم كمستهلكين يتطلعون الى اسعار اقل من تلك التي يشترون بها حاجياتهم " (١١) •

ـ ـ ـ

هذه بعض العيوب التي لاحظها الكتاب الديمقراطيون على الديمقراطية في المبدأ والتطبيق وقد حاول كاتبان فرنسيان صياغتها في عبارات موجزة تكاد مما استنتجاه :

١ ـ " الصراعات الدائمة بين الاحزاب المنقسمة على بعضها •

٢ ـ " الحكومات التي لم يتجاوز متوسط بقائها في الحكم طيلة نصف قرن ثمانية اشهر •

(١) السبيل الى عالم افضل : ١٠٢

٣ ـ المنافسات الحمقاء بين المواطنين .

٤ ـ عدم وجود سياسة متجانسة لمدى طويل .

٥ ـ الخطأ الشديد في تقدم مستوى حياة الجماهير : سياسة الاسكان ، عدم كفاية التربية المدنية والاقتصادية والاجتماعية " (١٢) .

وملاحظة هذه المساوىء هي التي دفعت بالكاتب الانجليزي " ا . د . لندساس " الى القول :

" ان هناك دائما هوة رهيبة بين النظريات الرفيعة عن الديمقراطية التي نقرأ عنها في كتب النظريات السياسية وبين وقائع السياسة الفعلية " (١٣) .

ومع أن كل هذه الانتقادات لم تنفذ الى لب المشكلة واساسها المتمثل في الحكم بغير ما انزل الله وعبادة الاهواء والشهوات من دونه فانها ترشد الى فداحة الخطب وشناعة الغلطة التي وقع فيها المجتمع الغربي بتنكره للحق وتمرده على الله استكبارا وغرورا .

ونحن ان شاء الله سنناقش الموضوع من اساسه العميق في الباب الخامس

(١٢) بوسكيه ، فاتييه : الانسان في المجتمع المعاصر : ١٦٠ (الترقيم مضاف)
(١٣) الانسان والعلاقات البشرية .

ثانيا : النظام الشيوعي

اذا كانت الراسمالية ومعها الافكار الديمقراطية قد ولدت لتكون رد فعل لمساوئ الاقطاع فان اقرب تفسير للشيوعية هو انها رد فعل لمساوئ الراسمالية .

ومع ان الشيوعية تعتقد انها اكتشفت القانون العلمي لحركة التاريخ والحياة وهو مبدأ الديالكتيك " ـ الجدلية ـ وآمنت به ايمانا مطلقا فان تصورها للدولة لا يتفق مع هذا القانون، وأشبه شيء بدولة المستقبل كما حلم بها فلاسفة الشيوعية هي نظرية " يوتوبيا " الخيالية فالنظرية الشيوعية تؤمن بحتمية اضمحلال جهاز الدولة عندما تبلغ البشرية مرحلة اكثر تطبيقا وتشبعا بالافكار الشيوعية . ومعنى ذلك انه سيأتي اليوم الذي يتوقف فيه الصراع بين المتناقضات الى الابد وهو ما لا يقره قانون الجدلية !

اما الدولة الشيوعية المعاصرة فهي ـ وان كانت موقتة ـ مرحلة ضرورية وتتمثل فيها النظرية الشيوعية الملائمة لطبيعتها المرحلية .

وترى الدولة الشيوعية انها دولة ديمقراطية شعبية . حسب التعريف الخاص الذي يقدمه الشيوعيون للديمقراطية وهو انها " شكل سياسي لمجتمع اشتراكي قائم على الملكية العامة لوسائل الانتاج مخطط ومتحرر من الاستغلال " (١)

وتؤمن الشيوعية بمبدأ سيادة الطبقة العاملة او ما تسميه " دكتاتورية البروليتاريا " مقابل دكتاتورية الراسماليين في الديمقراطية الليبرالية .

وتتميز الدولة الشيوعية بالتزامها المطلق بالنظرية كعقيدة شمولية تشمل التصور العام للوجود وتقدم الحلول والتفسيرات لكل نشاطات الحياة ومجالاتها العامة وذلك بربطها جميعا بالعامل الوحيد المؤثر في الحياة وهو العامل الاقتصادي وبصفة خاصة " ملكية وسائل الانتاج " .

ومن هنا ينبغي النظر الى الدولة الشيوعية على انها جهاز اقتصادي يشمل السلطة التشريعية والجهاز التنفيذي وتقع سلطته المطلقة في يد الحزب الشيوعي، والحزب الشيوعي يعتبر نفسه تجسيدا لارادة العمال والفلاحين وهو بهذه الصفة اصدق

---

(١) تاريخ البشرية ٦/٢ ، ١ : ٢٤٧ اليونسكو.

طريق للتعبير عن ارادة الشعب والجهاز الرسمي للدولة يشمل اجهزة معقدة لتنفيذ ارادة السيادة كما يعبر عنها الحزب الشيوعي " .

ويعتقد الحزب انه هو الشعب على الحقيقة " ولهذا فله السلطة الكاملة الشاملة في وضع السياسات الداخلية والخارجية وتقرير صحة النظريات والتوجيه للاستراتيجية السياسية وقيادة كل جهاز في الدولة والاشراف عليه " (٢)

ويقول احد الكتاب الشيوعيين " ان وضع قيادة البلاد في يد مثل هذه القوة المنظمة الهادفة ـ وهي الحزب الشيوعي ـ يطبع المجتمع كله بطابع موحد وهذا ينجح في مقاومة محاولات التدخل من الخارج ويحل مشكلات كبرى بروح الشمل الشيوعي " (٣) . تلك هي ملامح "الديمقراطية الشعبية" التي يهتف لها زعماء الشيوعية وكتابها ويبالغون في اطرائها وتمجيدها .. !

فما رصيد هذه الديمقراطية الفريدة من الحق والعدل ؟ وماهي ايجابياتها ومنجزاتها ؟ ومامقدار سلامتها من عيوب نظيرتها "فيديمقراطية الراسماليين ".؟

ان الواقع المشاهد الذي لايحتاج الى دليل خارجي هو ان انظمة الحكم " الشيوعية الديمقراطية الشعبية ! " هي ابشع انواع الانظمة الاستبدادية "الدكتاتوريات " في التاريخ . وان الدول الشيوعية المعاصرة هي في الواقع اشبه شيء بمعتقلات فسيحة زبانيتها اعضاء الحزب الشيوعي ونزلاؤها الشعب بكامله . وما الستار الحديدي الذي ضربته هذه الدول لاخفاء تلك الحقيقة الا واحدا من الادلة الفاضحة عليها . وهذا ليس حكما نصدره من عند انفسنا ولا هو براي نقلناه عن كُتّاب مناهضين للشيوعية ولكنه شيء من وصف زعماء سياسيين وصل بعضهم الى مرتبة " نائب رئيس " دولة شيوعية والاخرون كانوا في مرتبة " عضو " بالحزب الشيوعي للمستويين القطري والدولي .

كما ان هذه الحقيقة اظهرها مفكرون بارزون في الغرب دفعتهم مساوئ المجتمع الديمقراطي الراسمالي الى اعتناق الشيوعية والدفاع المتحمس عنها فلما انجلت لهم

(٢) المصدر السابق : ٢٢٧ .
(٣) من تعقيب كتبه "بوفين" المصدر السابق ٣٥٤ .

الحقيقة المرة ارتدوا عنها الى غير بديل .

فمثلا ميلوفان دجيلاس النائب السابق لرئيس يوغوسلافيا يقسم المراحل التي مر بها الحكم الشيوعي الى ثلاث : ١ـ حكم ثوري فردي دكتاتوري "لينين "
٢ ـ حكم عقائدي فردي ارهابي "ستالين"
٣ ـ حكم سياسي (غيرعقائدي) جماعي بيروقراطي "خروشوف فصاعدا " .

ويقول عن الانتخابات الشيوعية : " انها سباق يعدو فيه حصان واحد " .

ويقول عن الاحزاب الشيوعية " لقد اكدت هذه الطبقة الجديدة انها اكثر تسلطا في الحكم من اية طبقة اخرى ظهرت على مسرح التاريخ . كما اثبتت في الوقت نفسه انها تحمل اعظم الاوهام وانها تكرر اعتى اساليب الظلم في مجتمع طبقي جديد ". (٤)

ويقارن بين القوانين المعلنة وغير المعلنة قائلا :

" ان كافة المواطنين يدركون ان الحكومة هي في ايدي اللجان الحزبية وتحت رقابة البوليس السري، وبالرغم من ان دور الحزب الشيوعي في الشئون الادارية غير معلن فان سلطته مكرسة في كافة المؤسسات والمنظمات والقطاعات . كما انه في الوقت نفسه ـ ليس هناك اي قانون يعطي البوليس السري الحق في رقابة المواطنين ومع ذلك فانه يتمتع بمطلق الصلاحيات ، ومع انه ليس هناك اي نص قانوني يقضي بضرورة اشراف البوليس السري واللجان الحزبية على السلك القضائي الا ان هاتين القوتين الفاشستيتين تقومان بالاشراف والهيمنة الفعلية على ذلك السلك " (٥)

أما ارثر كوستلر ـ العضو السابق في الحزب الشيوعي والكاتب الروائي البارز ـ فيقول : " ان الكومنترن يتاجر في العناوين والشعارات كما يتاجر مروجو الخمور الممنوعة في انواعها الزائفة المقلدة وكلما كان العميل اقرب الى السذاجة كلما سهل عليهم ان يصبح ضحية لانواع الخمور الفكرية التي تباع تحت عناوين "السلام" و "الديمقراطية " و "التقدم " وما شئت من هذه الاسماء " (٦)

(٤) الطبقة الجديدة (٧٤ ـ ٧٥ ، ١٣١ ، ٥٤) على التوالي .
(٥) المصدر السابق : ١٠٠
(٦) الصنم الذي هوى : ٩٠

ويتحدث اندريه جيد بعد رجوعه عن الشيوعية قائلا :

" ان الناس في روسيا الان يطلب منهم الموافقة والمصادقة على كل ما تفعله الحكومة اما اقل معارضة او نقد فانها تعرض صاحبها لاقسى العقوبات بالاضافة الى اخماد هذه المعارضة وطمسها . ان احسن الناس سجلا في هذا السلم الاجتماعي الجديد من اسفله الى اعلاه هم اكثرهم ذلة وعبودية . اما اولئك الذين تبرز منهم اية ناحية استقلالية فانهم يحصدون او ينفون . ولن نلبث حتى نرى ان هذا الجنس الباسل الذي استحق عن جدارة كل حبنا واعجابنا لم يبق منه الا المنفيون والجلادون والضحايا. لقد اصبح العامل الصغير صاحب الراي الحر كالحيوان المطارد يلقى الجوع والتحطيم ثم الهلاك . انني اسائل نفسي : هل هناك دولة اخرى في العالم ـ بما في ذلك المانيا في عهد هتلر ـ قد كان العقل فيها والروح اقل حرية واكثر ذلة واستعبادا اوجهنا وخوفا منها في الاتحاد السوفيتي ؟ (٧) .

ويصف لويس فيشر ـ الذي عاني التجربة نفسها مع الشيوعية ـ المسخ الفكري هناك بقوله : " ضاعت كل مقاييس الحكم الثابتة ولم يعد احد يدري ماذا يعتنق وماذا يرفض . وقد لاياتي المساء حتى يعلن عن ملائكة الصباح انهم شياطين . ان التشويش العقلي الذي نتج عن هذا افضى الى النفاق والى التقبل الآلي والتلقائي لكل وحي جديد قد ياتي من سماء الكرمليق فهنا على الاقل يجد الانسان الحد الادنى من السلامة والامن لنفسه " (٨) .

وكان من المخدوعين بالديمقراطية الشيوعية " برتراند رسل " الذي اكتشف الحقيقة فكتب مناقضا لهذه الدعوى :

" ان الطبقة العاملة في روسيا في سنة ١٩١٧ " كانت اقلية ضئيلة بين السكان وكانت الاغلبية الساحقة من الفلاحين . فتقرر عندئذ ان يكون الحزب البلشفي هو ذلك الجزء من الطبقة العاملة الذي يتمتع بالوعي الطبقي وان لجنة صغيرة من زعمائه هم الذين يعدون الجزء الواعي طبقيا بين الحزب البلشفي . وهكذا صارت دكتاتورية العمال دكتاتورية اللجنة الصغيرة ثم انتهى الامر بان اصبحت دكتاتورية رجل واحد هو ستالين

---

(٧) المصدر السابق : ٢٢٨

(٨) المصدر نفسه : ٢٦٢ ـ ٢٦٣ .

واذ زعم انه الوحيد ذو الوعى الطبقى بين طبقة العمال اخذ يحكم باعدام الملايين من الفلاحين جوعا ويحكم على ملايين غيرهم بالسخرة فى معسكرات الاعتقال ... (٩)

ولعل خير مانختتم به موضوع الواقع المعاصر للانظمة العالمية التى تحكم بغير ما انزل الله هو العبارة اليائسة التى قالها لويس فيشر :

" بعض الناس يقضى مضاجعهم مايقترفه العالم الراسمالى من جرائم وآثام فيظلون عميا لا يرون جرائم البلشفية وافلاسها وكثير منهم يستغلون نقائص العالم الغربى ليصرفوا الانتباه عن فظائع موسكو المشعة . أما انا فاقول : لعن الله كليهما "! (١٠)

---

(٩) العقل والمادة : ٣٠٢

(١٠) الصنم الذى هوى : ٢٧٤ .

الباب الثالث

الفصل الثاني

" علمانية الاقتصاد "

الفصـــــل الثانـــــي

علمانيــــــــة الاقتصــــــاد

" الاقتصاد " هو الاله الاكبر للجاهلية الاوربية المعاصرة دون منازع ! - والجاهلية الاوربية - مثلها مثل اى جاهلية في التاريخ - لا تنتهج خطا وسـطا متزنا ، بل تتحكم فيها ردود الفعل وتتسم تصرفاتها بالغلو والتطرف والاندفاع فليس طريق الحياة الاوربية الا خطا متذبذبا من أقصى اليمين الى أقصى اليسـار. ولا تستطيع الجاهلية الاوربية ان تنظر الى أى شيء الا من خلال منظار له عدستان متقابلتان : احداهما تكبر كل شيء عن حجمه الحقيقي والاخرى تصغره عن حجمه الحقيقي وبين هاتين تضيع الرؤية الحقيقية .

وهذه الظاهرة تتجلى في كل ناحية من نواحي الحياة ، وربما كانـت في " الاقتصاد " أكثر تجليا " .. كانت اوربا تحتقر الحياة الدنيا وتزدرى ما أحل الله من الطيبات ، وتقدس الفقر والتقشف وتبارك البؤس والشقاء ، لأن ذلك وسيلة للخلاص من الخطيئة وهو الغرض الوحيد من الوجود الانساني . (١)

ثم انقلب الامر رأسا على عقب وتحولت أوربا الى وحش مادى ضار ، وهجمت بكل قواها على المتاع الحسي وتطلعت بكل حواسها الى الشهوات الزائلة ، تريد ان تلتهم كل متعة وتنتهب كل لذة حتى غرقت في الدنيا ونسيت الآخرة بل نبذتهـا نبذا كاملا . ليس هذا فحسب بل ان اوربا عبدت - حقيقة لا مجازا - الانتاج المادى والطواغيت الذين يتحكمون فيه " الطبقة الرأسمالية او الحزب الشيوعي " فالصورة لم

---

(١) يراجع موضوع " الرهبانية " من الباب الاول .

تتغير هي صورة العبودية المذلة ، وانما تغير الطاغوت المعبود فأصبح الرأسمالي أو عضو الحزب بعد أن كان النبيل أو رجل الدين !

هذه العبودية المطلقة وذلك الاتجاه الكلى الى المادية ـ فكرا وسلوكا همـا اللذان يحددان موقف المجتمع الغربي المعاصر من الدين ، وبهما تظهر الجاهلية المعاصرة مجردة عن كل زيف خالية من اى طلاء .

وما علينا الا ان نتأمل مجرى التاريخ الاقتصادى الاوربي وننعم النظر في نظرياته الكبرى من العصر الاقطاعي حتى الان ، وحينئذ لن نفاجأ بهذه الحقائق الواضحة .

اولا : نظرية الكنيسة ونظام الاقطـاع :

على الرغم من ان الكنيسة لم تحاول تغيير بنية المجتمع المسيحى او تنظيم بعض مجالات الحياة على الاقل فقد كان لها أثر فعال في اقتصاد القرون الوسطى من الوجهة النظرية .

أقرت الكنيسة نظام الاقطاعي السائد بل اصبحت مؤسسة من مؤسساته الثابتة ، وأقرت الاضطهاد الفظيع الذى كان يتعرض له أرقاء الأرض رغم تنافيه مع تعاليم الانجيل ، ولكنها في مواقف اخرى كانت أكثر تشددا لا سيما في مسألة " الربا " والواقع ان " الربا " جريمة تشترك في تحريمها كل الرسالات السماوية ، ـ وتحاربها الكتب المقدسة جميعها ، وهي ظاهرة لها مغزاها العميق .

ويتحدث " ول ديورانت " عن ذلك فيقول :

" كانت العقيدة المسيحية في الربا اكبر العقبات في نمو النظام المصرفي وتقدمه " ، وكان جيروم يرى ان الكسب كله حرام ، كما ان أوغسطين يرى أن جميع الاعمال المالية اثم لأنها تصرف الناس عن السعي للراحة الحقة أعني " الله " وكان البابا " ليو الأول " قد رفض هذه العقائد المتطرفة ولكن الكنيسة ظلت لا تعطف على التجارة وترتاب في جميع أنواع المضاربات والمكاسب ، وتعارض جميع صنوف

" الاحتكار " و " الجبأ " و " الربا " وكان هذا اللفظ الاخير يطلق في العصور الوسطى على فائدة المال أيا كان قدرها وفي ذلك يقول أمبروز :

" الربا هو كل مال يضاف الى رأس المال " وقد أدخل جرايتان هـــذا التعريف الجامد في القانون الكهنوتي الذى تسير عليه الكنيسة " .

ثم ان " مجلس لاتران الثالث (١١٧٩) جدد هذا التحريم وقرر ان الذين يجهرون بالربا لا يقبلون في العشاء الرباني واذا ماتوا وهم على اثمهم لا يدفنون دفن المسيحيين وليس لقسيس أن يقبل صدقاتهم " .

أما البابا جريجورى التاسع فقد قال " ان الربا هو كل ما يناله الانسان من كسب نظير قرض ، وظل هذا الرأى قانون الكنيسة الرومانية حتى عام ١٩١٧م "

" وقد ظلت قرونا طوالا تظن أن جميع المرابين يهود " .

" وظل تشريع الحكومات زمنا طويلا يؤيد موقف الكنيسة في هذه الناحيـة وكانت المحاكم الدينية نفسها تحرم الربا ، ولكن تبين ان حاجات التجارة أقـــوى أثرا من خشية السجن أو الجحيم " .

" ثم الغت معظم الدول الاوربية بعد عام ١٤٠٠ ما وضعته من قوانيـــن لتحريم الربا ولم يكن تحريم الكنيسة الا كلاما مهملا يتفق الناس جميعا علــى اغفالـــه " . (٢)

ويرى " جورج ســـول " أن الكنيسة كانت تحرم الربا لسبب نفعي بالاضافة الى الدافع الديني ، فيقول " سول " :

" هذا التأكيد بفساد الربا وشروره ليس فكرة مجردة فحسب ، ولكنه ـ كما هو الشأن بالنسبة الى معظم المذاهب الاخرى البارزة في ذلك الحين وفي عصرنا هذا كان يحقق غرضا هاما حينذاك لاولئك الذين عملوا على ترويج الفكرة " .

" لقد شعرت الكنيسة وحلفاؤها الاقطاعيون في العصور الوسطى ـ وحق ـ أن ثمة خطرا يهدد سلامتهم وسلطانهم نتيجة نمو الرأسمالية ، وان لم يطلق عليها أحد هذة التسمية ، ان استنكار الربا كان من الإغراض الدالة على ان وسائل جديدة

---

(٢) قصة الحضارة : ١٥ مقتطفات من ١٠٤ ـ ١٠٨

في الانتاج والتبادل بدأت تعمل على تقويض دعائم النظام الاقطاعي " (٣)

وعلى أية حال فان اقتصاد القرون الوسطى لم يكن يستطيع التملص من اتباع التعاليم الكنسية التي كانت جزءا من النظام الأخلاقي المسيحي ،كما انه كـان ـ في الوقت نفسه ـ خاضعا ومقيدا بالأعراف الاقطاعية السائدة ،ولذلك كان حتما أن ينهار بانهيار الكنيسة والاقطاع .

ولا شك ان الكنيسة ارتكبت خطأ فادحا باقرارها للواقع السيء وعدم وضع سياسة اقتصادية عامة وعادلة تستمد أصولها من الدين ،كما ان سلوكها الذاتي وطغيانها المالي الفظيع قد جعلاها قدوة للظالمين ، ومحط أنظار المقت والحقد من المظلومين .

واذا حاولنا تحديد النظرية العامة للكنيسة اجمالا ـ مع استثناء مسألة الربا وملحقاتها ـ فان اقرب وصف يفي بالمراد هو أنها نظريـة " طبيعيــة اقطاعية " ومن اليسير ادراك أن هذه النظرية لم يكن لها منهج مستقل بل كانـت تستمد من الأسس الأخلاقية العامة .

صورة مجملة لنظام الاقطـــاع :

ان النظام الذي هيمن على الحياة الاوربية طوال القرون الوسطى وعاصر شباب المسيحية ، وشكل بالاندماج معها ملامح القارة الاوربية آنذاك هو نظـــام " الاقطاع " . ونظام الاقطاع الاوربي يأتي في طليعة الانظمة الجاهلية التـي لا ينفك عنها الظلم ولا ينفصم عنها الطغيان ، والانسان في ظله مسلوب الارادة مهدر الكرامة ضائع الحقوق .

والواقع أن الدول التي تتكون منها القارة الأوربية لم تكن في الحقيقـــة الا مجموعة من الاقطاعيات تخضع لملك أو امبراطور مركزي ، جل همه أن يحصل على الضرائب والجنود من " السيد " مالك الاقطاعية ، أما داخل الاقطاعيـــة

(٣) المذاهب الاقتصادية الكبرى : ٢٢ ـ ٢٣

فكانت تبرز الصورة البشعة للنظام الاقطاعي ٠

ومع ملاحظة أن هذا النظام تختلف صوره شكلا باختلاف العصور والأقاليم فان ملامحه العامة وجوهره الموحد يمكن أن يحصرا في تقسيم المجتمع طبقتين : احداهما في قمة الترف والأخرى في حضيض العوز ، وكل طبقة تتألف من طائفتين ، فالطبقة العليا هي طائفتا : السادة الملاك ورجال الكنيسة ، والطبقة الدنيا هي طائفتا : العبيد ورقيق الارض ، ومن هذه الاخيرة صغار القساوسة والزهاد من رجال الكنيسة ٠

أما حقوق وواجبات كل فرد من هذه الطبقات فكما يلي :

١ - السيد المالك :

هو المسيطر الفعلي وصاحب النفوذ القوى في هذا النظام وقد كان يملك حقوقا لا حصر لها في حين ليس عليه أى واجبات :

" كان من حقه ان يضرب رقيق أرضه أو أن يقتلهفي بعض الاماكن أو الأحوال دون ان يخشى عقابا ٠٠٠ وكانت له في املاكه كل السلطات القضائية والعسكرية ، وكان يستفيد فوق ما يجب من الغرامات التي تفرضها محاكم الضيعة ٠٠٠ وكان في وسع السيد الاقطاعي أن يمتلك اكثر من ضيعة واحدة ٠٠٠ وقد يكون له قصر حصين في كل واحدة منها ، وكان قصره يهدف الى حماية سكانه أكثر مما يهدف الى راحتهم ٠٠٠ يحيط به خندق عميق عريض وسور متصل عال وأبواب حديدية وفي وسطه برج حجرى دائرى يسكن فيه السيد وأسرته ، وكانت جدرانه الحجرية المنيعة عماد قوة الملاك ضد مستأجريهم وضد الملك ٠

" وكان الرجل الذى يمنعه كبرياؤه من ان يكون رقيق أرض ، ولكنه أضعف من ان يعد لنفسه وسائل الدفاع العسكرية يؤدى مراسم الولاء لشريف اقطاعي يركع امامه وهو أعزل عارى الرأس ويضع يديه في يدى الشريف ويعلن أنه رجل ذلك الشريف ، ثم يقسم على بعض المخلفات المقدسة ٠٠ أن يظل وفيا

للسيد الى آخر أيام حياته ، ثم يرفعه السيد ويقبله " (٤).

وكون الانسان مالكا " نبيلا " لا يعتمد على جهوده الذاتية ولا هو مما يمكن اكتسابه فالنبيل يولد نبيلا ويظل كذلك الى الموت ، والعبد يولد عبدا ويعيش حياته كلها في اغلال العبودية ، أي ان المجتمع الاقطاعي يقوم توزيع أعضائه على العامل الوراثي وحده ، الا اذا طرأ تبدل فجائي كامل على الحياة فينقطع لكنه يعود الى التحكم فور استقرار الأوضاع .

٢ _ رجل الدين :

كان رجل الدين بسلطته الروحية سيدا اقطاعيا الى حد ما ، وكان يملك الاقطاعيات ويتحلى بالالقاب الاقطاعية ويورث مرتبته لذريته ، وقد سبق الحديث عن ذلك . (٥)

٣ _ العبد :

" اباحت الكنيسة استرقاق المسلمين والاوربين الذين لم يعتنقوا الدين المسيحي ، وكان الاف من الاسرى الصقالبة او المسلمين يوزعون عبيدا على الأديرة ... وكان القانون الكنسي يقدر ثروة أراضي الكنيسة في بعض الاحيان بعدد من فيها من العبيد لا بقدر ما تساوى من المال ، فقد كان العبد يعد سلعة من السلع كما يعده القانون الزمني سواء بسواء ، وحرم على عبيد الكنائس أن يوصوا لأحد بأملاكهم ... وحرم البابا جريجوري الأول على العبيد أن يكونوا قساوسة ، أو أن يتزوجوا من المسيحيات الحرائر ... وكان القديس توماس أكويناس يفسر الاسترقاق بأنه نتيجة لخطيئة آدم " ( ) واذا كان هذا هو نظر الكنيسة التي تنادى بالمحبة والرحمة فما بالك بمعاملة السيد " رجل الدنيا " لعبيد اقطاعيته ؟!

---

(٤) قصة الحضارة ١٤ : ٤١٨ - ٤٢٤.

(٥) الباب الثاني : الطغيان الكنسي _ ماليا .

( ) قصة الحضارة ١٤: ٤٠٦ .

٤ _ رقيق الأرض :

لم يكن رقيق الأرض عبدا بمعنى الكلمة لكن حاله لا يختلف عن العبد في شيء ، والفارق بينهما أن العبد _ في الاصل _ اما أسير مغلوب واما مخالف للسيد في الدين أو الجنس أو المذهب ، بعكس الرقيق الذى هو أصيل في الاقطاعية وينتمى الى الدين والجنس اللذين ينتمي اليهما سيده .

" والأصل في رقيق الارض أنه رجل يفلح مساحة من الارض ويمتلكها سيد أو بارون وكان في وسع المالك أن يطرده متى شاء وكان من حقه في فرنسا أن يبيع الرقيق مستقلا عن الأرض ... أما في انجلترا فقد حرم من مغادرة الارض ، وكان الذين يفرون من ارقاء الارض يعاد القبض عليهم بنفس الصرامة التي يعاد بها القبض على العبيد " وهذا الصنف هو الصنف الغالب في الاقطاعيات بل هو في الحقيقة يمثل مجموع سكان أوربا تقريبا باستثناء النبلاء ورجال الدين . والمدهش حقا هو تلك القائمة الطويلة من الواجبات التي يؤديها الرقيق للمالك عدا خضوعه المطلق لسلطته وارتباطه المحكم باقطاعيته :

١ _ ثلاث ضرائب نقدية في العام .

٢ _ جزء من محصوله وماشيته .

٣ _ العمل سخرة كثيرا من ايام السنة .

٤ _ أجر على استعمال ادوات المالك في طعامه وشرابه .

٥ _ أجر للسماح بصيد السمك أو الحيوان البرى .

٦ _ رسم اذا رفع قضية أمام محاكم المالك .

٧ _ ينضم الى فيلق المالك اذا نشبت حرب .

٨ _ يفتدى سيده اذا أسر .

٩ _ يقدم الهدايا لابن المالك اذا رقي لمرتبة الفرسان .

١٠ _ ضريبة على كل سلعة يبيعها في السوق .

١١ ـ لا يبيع سلعة الا بعد بيع سلعة المالك نفسها باسبوعين .

١٢ ـ يشترى بعض بضائع سيده وجوبا .

١٣ ـ غرامة اذا أرسل ابنه ليتعلم أو وهبه للكنيسة .

١٤ ـ ضريبة مع اذن الملك اذا تزوج هو او أحد ابنائه من خارج الضيعة .

١٥ ـ حق " الليلة الاولى " وهي ان يقضي السيد مع عروس رقيقه الليلة الاولى . وكان يسمح له احيانا ان يفتديها بأجر ، وقد بقي بصورته هذه في بافاريا الى القرن الثامن عشر .

١٦ ـ وراثة تركته بعد موته .

١٧ ـ ضريبة سنوية للكنيسة وضريبة تركات للقائد الذى يدافع عن المقاطعة (٥).

هذا هو نظام الاقطاع الذى قامت على انقاضه الحياة اللادينية المعاصرة .

ومهما عدد الباحثون من سيئاته ومظالمه فان اعظمها أثرا في الحياة والفكر أمران :

١ ـ **ارتباط النظام الاقطاعي بالدين :**

من الوجهة التاريخية كان النظام الاقطاعي في عنفوان شبابه في الفترة نفسها التي كانت المسيحية فيها في اوج عظمتها ، ثم كان انهيار النظام موازيا لانهيار الكنيسة ، واستنتجت الجاهلية الحديثة من ذلك معادلة خاطئة هي :

ان المجتمع الاقطاعي طبقي ظالم لأنه متدين واذن فزوال الظلم من المجتمع يستلزم نبذ الدين كلية أو على الاقل عزله عن التأثير في مجريات الاحداث ، وتلك كانت نظرية الكتاب " الطبيعيين " الذين وضعوا نواة الفكر الرأسمالي الحديث .

---

(٥) مقتطفات منقولة عن فصل " الاقطاع " قصة الحضارة ١٤/ ٤٠٣ ـ ٤٧ .

وانظر كذلك " حرب الفلاحين في المانيا " فردريك انجلز : ٢٦ ـ ٤٤ .

وتطرفت الشيوعية فنسبت للدين دورا ايجابيا في ارساء قواعد الظلم الاقطاعي بل حملت الدين كامل مسؤولية تأخر الوعي الطبقي وعرقلة جهود الطبقة الكادحة فلم تكتف بالقول بأن الدين يقر الظلم ويوادعه بل جعلت " الدين أفيون الشعوب " الذى يشل حركتها النضالية ويعوقها عن المطالبة بحقوقها (

٢ ـ طابع الثبات المطلق :

كان النظام الاقطاعي نظاما ثابتا الى درجة الجمود : ثابت التوزيع الاجتماعي ، ثابت الحقوق والواجبات ، ثابت الاخلاق والتقاليد ، ثابت الافكار ـ والمعارف ، ثابت الأحوال المعيشية • وكان ذلك مدعاة لأن يصطدم هذا النظام بسنة الله في الكون وفي سير التاريخ ، فقد تزعزع هذا الثبات بالنهضة العلمية وحركة الاصلاح الديني ثم نسف من أساسه بانفجار قنبلة التطور سنة ١٨٥٩ كما سبق • وقد شبه كتاب " تاريخ البشرية " انتقال اوربا من الثبات الى التطور بسفينة كانت راسية في ميناء وادع ثم ابحرت في خضم صاخب الى غاية مجهولة بغير خريطة • (٦)

وهذان الاثران سيظهران بجلاء من خلال عرضنا للنظريات الاقتصادية وان كانا في الواقع قد شملا جوانب الحياة الاخرى ومنها ما سبق عنه الحديث ومنها ما سيأتي باذن الله •

---

(٦) انظر الكتاب المذكور : ٦/٢/١ ص ٢٤ـ٢٥ •

ثانيا ــ المذاهب الاقتصادية اللادينية :

١ ــ المذهب الطبيعي " الفيزيوقراطي " :

كانت المسألة الاقتصادية من أبرز المشكلات التي تصدى لها فلاسفة ومفكرو " عصر التنوير " ــ كما يسمى ــ في القرن الثامن عشر ، وهو العصر الذى بدأت فيه العلوم والآداب تستقل عن المؤثرات الدينية بدرجة ملحوظة .

في ذلك العصر أخذت اوربا الهاربة من نير الاقطاع وأغلال الكنيسة تبحث عن أنظمة ومناهج جديدة متحررة من التلازم التقليدى بين الشؤون الحيوية العامة وبين القواعد الاخلاقية الذى كان منهج القرون الوسطى !

وكانت الجفوة العميقة بين العلم والدين ــ التي مر الحديث عنها ــ سلفا ــ أبرز العوامل في انفصال النظريات الاقتصادية وغيرها عن المثل والقيم الدينية ، وولادة الاله الذى عبده عصر التنوير بسذاجة متناهية : "الطبيعة" .

كان لكل زاوية من زوايا الحياة مذهبها " الطبيعي " وكتابها " الطبيعيون ":
ففي السياسة عرفنا كيف قامت الديمقراطية على أسس " المذهب الطبيعي "
وفي العلم والفلسفة حلت كلمة " الطبيعة " محل لفظ الجلالة ، وهو اجراء ليس المقصود به التغيير اللفظي فحسب ! وفي الشؤون الاجتماعية ظهر كتاب يرون أن المجتمع " الطبيعي " هو المجتمع المثالي الذى يجب أن تعود اليه البشرية ، وفي الاخلاق ظهرت فكرة الأخلاق " الطبيعية " بل لقد كتب ــ فلاسفة كبار عن موضوع " الدين الطبيعي " ! ولعل أوضح تطبيقات المذهب الطبيعي يظهر في الموضوع الذى نحن بصدده وهو " الاقتصاد " .

يستعرض مؤلف كتاب " المذاهب الاقتصادية الكبرى " تاريخ هذا المذهب عموما فيقول :

" اعتمد الناس خلال القرون التي خلت .. على القدامى من أمثال أرسطو وآباء الكنيسة يلتمسون عندهم المعرفة بشأن العالم الخارج عن دائرة

ما يعيشون فيه ، وكفاهم أن يعودوا الى اولئك الائمة ليستخلصوا من كتاباتهم تفسيرا لأي ظاهرة . وحل المنطق الاستنباطي محل دقة الملاحظة وعمق النظرية والتجربة .

" غير أن نفرا من ذوى العقول القوية أخذوا يكتسبون معرفة جديدة أكثر دقة وذلك عن طريق دراسة الطبيعة ذاتها في تواضع وبالاسلوب الموضوعي . فالادراك بأن الارض ليست مركز العالم بل تدور حول الشمس ، والكشف الذى اهتدى اليه هارفي بشأن الدورة الدموية (٧) والنظريات التي طلع بها نيوتن عن الجاذبية والحركة ، كل هذه اعقبتها عشرات من الملاحظات لها مغزاها وأهميتها وان كانت أقل شأنا ودرجة .

" فاذا كانت المصادر القديمة قد اخطأت في نظراتها الى العالم الطبيعي اما كانت كذلك مخطئة في نظراتها الى السلوك البشرى ؟

" أصبح كل شيء موضع التساؤل والشك وعلى ذلك سمى العلم فلسفة ، ولم يعد هناك تمييز بين الميادين التي عنى كل منها بفحصه ، وأخذ الكتاب والمتفلسفون يعيدون البحث في النظم البشرية تماما كما كانوا يفعلون بالنسبة الى الاشياء غير البشرية ، وهم في تصرفهم هذا كانوا يسلمون بأن الانسان جزء من الطبيعة وليس كائنا منفصلا عن بقية المخلوقات أوجدته العناية الالهية وتولت رعايته .

" وأصبح البحث ينصب على تفسير النتائج والأسباب بالنسبة الى السلوك البشرى سواء أكان مرغوبا فيها أم غير مرغوب عن طريق قوانين الطبيعة بدلا من البحث عنها في ارادة الله ، كما قالت الكتب المقدسة او المذاهب الكنسية .

---

(٧) هذا الكشف وكثير من الكشوف غيره كانت جديدة بالنسبة لأوربا وحدها ، يراجع على سبيل المثال " شمس الله تسطع على الغرب " زيغريد هونكة .

ومعنى هذا - بتعبير آخر - أن علينا ان نسترشد في أعمالنا وتصرفاتنا بالعقل دون سلطة القدامى وآرائهم ". (٨)

اذن فقد كان عصر التنوير يرفض بصراحة الحكم بما أنزل الله ، والرجوع الى الله في تنظيم حياته العامة ، أو على الاقل كان كما يقول بعض فلاسفته - يريد الرجوع تحت اسم مستعار هو الطبيعة ، ومن طريق آخر غير طريق الوحي والكنيسة ، وهو " القانون الطبيعي ".

أما اثر هذا المذهب على الاقتصاد خاصة فيوضحه "سول" بقوله :

" سيطرت فكرة الاخرة على المذاهب السائدة خلال العصور الوسطى ، وان لم تسيطر دائما على العادات والتقاليد ، فالمجال الدنيوى بما فيه الحياة الانسانية نفسها ليس سوى مكان يستعد فيه الناس للحياة بعد الموت بما تشتمل عليه من ثواب وعقاب ، فكان على المرء ان يتحمل الألم وهو عالم أنه ليس الا مقدمة لما يتوقع في حياة مستقبله . أما الدافع الفكرى على تقويم العادات الاجتماعية او زيادة الرفاهية الدنيوية فكان ضئيلا اللهم الا من حيث الفائدة الروحية التي يمكن اجتناؤها .

" والان تحول الاهتمام فأصبح محصورا في تحسين الحياة على الارض وكشفت العلوم والمخترعات عن امكانيات الارض لذاتها ، لقد كانت المكاسب المادية ظاهرة في كل شيء وكان لا حد لها من حيث وجود أساليب أفضل وأيسر لانتاج الاشياء ، وسرت روح المغامرة .

" وهنا برز السؤال التالي : أليس في وسع الفلسفة ان تعالج النظم البشرية بنفس الطريقة التي تدرس بها الاشياء المادية ؟ "

" وكان الجواب بالامكان ، ذلك ان المطلوب انما هو تطبيق العقل

---

(٨) جورج سول : ٤٩ - ٥٠ .

على الاساليب التي يستخدمها الناس كما يعيشون (كذا) معا وراح الكثيرون - يصوغون الخطط والمشروعات التي تكفل قيام الحياة المثالية أو اليوتوبيا .

" وصار لزاما على الذين نبذوا الايمان بالله كلية ان يبحثوا عن بديل لذلك ووجدوه في الطبيعة ، أما الذين ظلوا على استمساكهم بالدين ولو باللسان - وان لم يكن في الواقع كما هو اغلبهم - فقد اعتقدوا ان الله يعبر عن ارادته عن طريق الطبيعة وقوانينها وليس بوسيلة مباشرة . وبذلك لم تعد الطبيعة مجرد شيء له وجود فحسب وانما هو شيء ينبغي ان يطاع وصارت مخالفتها دليلا على نقص في التقوى والاخلاق ".(٩)

وتعددت توجهات نظر الفلاسفة الطبيعيين بشأن تنظيم المجتمع لا سيما من ناحية توزيع الثروة بطريقة عادلة الا ان الجامع المشترك بينهم في ذلك هو الفكرة التي سلفت في الفصل السابق وهي " حرية العمل " التي يعبر عنها شعارهم المعروف " دعه يعمل ، دعه يمر " أو " دع الامور وحدها تسير فالطبيعة كفيلة بالتوازن " .

وكانت بقايا النظام الاقطاعي في الواقع ، مع شبحه الماثل في نفوسهم سبب مناداتهم بهذه الشعارات واعتقادهم انها انجع الحلول لمشكلة الظلم الاجتماعي الناجمة عن سوء توزيع الثروة .

أما الاساس العلمي الذى توهموا أنهم أقاموا عليه صرح مذهبهم فهو نظرية " نيوتن " عن الاجرام السماوية وقوانين الحركة الطبيعية ، فكما ان للنجوم والكواكب قانونها الطبيعي الذى يحدد لكل منها مساره الخاص دون ان يحدث بينهما أى اصطدام على الاطلاق فكذلك - في نظرهم - لو ترك الناس الى طبيعتهم ولم يفرض عليهم قوانين خارجية لانتظمت أحوالهم وسارت وفق القانون الطبيعي الذى يكفل تطبيقه الحياة المثالية للمجتمع والافراد دون تعارض

---

(٩) المصدر السابق : ٥٠ ، ٥١

واضطراب ، وقد عرفنا في الفصل السابق كيف استغلت الطبقة المتوسطة المكونة من رجال المصارف واصحاب المصانع المذهب الطبيعي لكي تظفر باليد العاملة التي كانت حكرا على ملاك الاقطاعيات ، ولتضمن حماية الدولة لممتلكاتها ، لان ذلك هو " قانون الطبيعة " .

وقد عبر " راندال " عن ذلك بقوله :

" هكذا كان هذا العلم " اى علم الاقتصاد السياسي " يبدو في الظاهر محاولة مجردة عن المصلحة ، للوصول الى فيزياء اجتماعية للثروة ، لكنه كان في الحقيقة تبريرا منظما للمطالب التي تهدف الى زيادة حرية جمع المال تستعين بالعلوم الجديدة البشرية والطبيعية ". (١٠)

٢ - المذهب الرأسمالي الكلاسيكي :

ليس هذا المذهب في الحقيقة الا تطويرا للمذهب الطبيعي اقتضته الظروف الطارئة والتغيرات الاقتصادية والاجتماعية .

وكان الغرض المنطقي ان يكون هذا المذهب اكثر سماحة واعتدالا في معاملة الطبقة الفقيرة وان يشتمل على خطط ومناهج اصلاحية تكفل الى جانب امتيازات الاثرياء حقوقا منصفة للفقراء .

لكن الذى حصل فعلا هو عكس ذلك تماما ، فقد دعا زعماء هذا المذهب بكل صراحة الى الجشع والاستغلال ، وبرروا الوسائل غير الانسانية التي كانت الطبقة الغنية تمارسها على المعدمين ، ولم يكن الحاحهم الشديد على حرية الفرد وحقه في العمل لمصلحته الذاتية الا تأكيدا لحرية المحتكرين من أرباب المصانع والتجار والصيارفة .

كان المذهب الطبيعي ينسب للأرض القيمة الاقتصادية الكبرى ، فأعطى

---

(١٠) تكوين العقل الحديث : ٢/ ٤٦٨

المذهب الكلاسيكي هذه القيمة للعمل ، وليس مرد ذلك الى الانتقال من العصر الزراعي الى العصر الصناعي فحسب ، بل انه ليعبر عن رغبات الطبقة الجديدة التي تريد أن تفرض نفوذها المالي على المجتمع وتستأثر بالعمال الذين كانت غالبيتهم تعمل في الزراعة .

وتحت ستار التظاهر بالبحث عن أفضل السبل لتحقيق رفاهية المجتمع وتقدمه ، وبناء قواعده على أسس علمية ، كان دعاة المذهب يحملون نزعة لا أخلاقية لم يكن في وسعهم التكتم عليها ، فقد ظهرت في مؤلفاتهم الشهيرة التي يعدها العالم الرأسمالي اليوم أعز تراثه عليه — وان كان قد حور وطور كثيرا من نظرياتها واستبعد الباقي .

وأشهر الرأسماليين الكلاسيكيين " آدم سميث " و " مالتس " و " ريكارد و " اذ على اكتافهم نهض المذهب الفردى الرأسمالي وترعرع . وهذه خلاصة لمذهب كل منهم وآثاره العملية :

آ) آدم سمث (١٧٩٠) :

أما آدم سمث فهو فيلسوف الاستعمار وكاهن الرأسمالية الاكبر ، وكتابه " ثروة الامم " أهم المؤلفات الاقتصادية الكلاسيكية وأبعدها أثرا . يقول " روبرت داونز " في مؤلفه " كتب غيرت وجه العالم " :

" النظرية الاساسية في كتاب ثروة الامم " نظرية ذات نزعة ميكافللية ، وهي ان العامل الاول في نشاط الانسان هو المصلحة الشخصية ، وان العمل على جمع الثروة ما هو الا مظهر من مظاهرها ، وبذلك قرر ان الانانية والمصلحة الشخصية تكمن وراء كل نشاط للجنس البشرى ، وصارح الناس باعتقاده أنها ليست صفات ممقوتة يجب الابتعاد عنها ، وانما هي على العكس عوامل تحمل الخير الى المجتمع برمته ، وفي رأيه أنه اذا أريد توفير الرفاهية للأمة فلابد من ترك كل فرد يستغل اقصى امكانياته لتحسين مركزه بشكل ثابت منظم دون تقييد بأى قيد . فللحصول على غذائنا لا نعتمد على كرم الخمار او الخباز أو الجزار ،

وانما هم يقدمونه لنا بدافع من مصلحتهم الشخصية ،وانّا عندما نخاطبهم لا نتجه الى ما فيهم من دوافع انسانية وانما نتجه الى مصلحتهم المادية ولا نكلمهم عن احتياجاتنا بل عما يعود عليهم من نفع وفائدة " . (١١)

آثار مذهبه :

على الرغم من هذه الروح غير الأخلاقية حظي سمث وكتابه بشهرة واسعة لا يضاهيها اى من المعاصرين له ، ومنحه المفكرون والكتاب لقب " أبو الاقتصاد المصرى " . وليس سبب ذلك الا الخدمة التي أسداها سمث لرجال الاعمال الرأسماليين ، والوسائل التي نبههم لاستعمالها في الوقت الذى اسقط فيه حساب الجموع الغفيرة من الزراعيين والعمال الذين يكابدون البؤس والشقاء .

ولم يقتصر اثر سمث على انجلترا ولا على أوربا وحدها بل كان كتابه المذكور انجيلا للمستعمرين الذين تدفقوا على قارات العالم الاخرى ينهبون خيراتها ويستعبدون شعوبها ، حتى لقد عُدّ الفصل الذى يتحدث عن المستعمرات اشهر فصول الكتاب .

يقول " ماكس لرز " :

" كان اغلب الذين عنوا بقراءة ذلك الكتاب هم اولئك الذين أفادوا فائدة شخصية من الآراء التي وردت فيه ، وهؤلاء هم التجار المحدثون وحلفاؤهم من الاعضاء في برلمانات العالم ولجانهم الثقافية التنفيذية في الجامعات ، وعن طريق هؤلاء اثر الكتاب تأثيرا عظيما في جميع من يليهم من شعوب العالم رغم انها لا تعلم شيئا عن الكتاب ذاته ، كما انه عن طريقهم ايضا احدث آثاره الهائلة في التفكير الاقتصادى والسياسة العالمية " . (١٢)

على ان سمث لم يسلم من المعارضين من ذوى الميول الدينية مثل " رسكن "

---

(١١) ص ٧٣ . (١٢) كتب غيرت وجه العالم : ٨٧ ـ ٨٨

الذى قال عنه :

" انه الاسكتلندى الفبى الهجين الذى يدعو الناس عامدا الى ارتكاب التجديف في الدين بقوله " عليك ان تكره الرب الهك ، وتعصى وصاياه وتشتهي مال قريبك " كما لم يسلم ممن عارضه لاسباب انسانية مثل كثير من احرار المفكرين الذين " لم يغفروا لسمث قط أنه اداة في ذلك الاستغلال الدنيء الذى انتهجه رجال الاعمال واصحاب المصانع اذ اتخذوا من مبدأ " حرية التجارة " وآرائه فيه منهجا لهم في أعمالهم ، فقد انتهز هؤلاء تلك الفرصة فشوهوا كل مبدأ دعا اليه لحماية العامل والزارع والمستهلك والمجتمع عامة ، وفسروها على انها اباحة مطلقة لمصلحتهم الشخصية ، لا تتقيد بأى قيود أو تدخل من جانب الحكومة " (١٣) .

ب) مالتس (١٨٣٤) :

لئن كان سمث ابا الرأسماليه فان مالتس هو محاميها العظيم واذا كان سمث قد اتخذ موقفا سلبيا او شبه سلبي من المعوزين والمهضومين فان مالتس اتخذ حيالهم دورا ايجابيا ، لكنه ـ للأسف ـ ضدهم الى أبعد الحدود .

ظهر في القرن الثامن عشر عدد من الكتاب المغرقين في التفاؤل من امثال " كوندورسيه " و " جدوين " و " توماس بين " وشكلوا مدرسة اجتماعية طبيعية ، تؤمن بأنه اذا تمتع كل فرد بما اسموه " حقوق الانسان " وأزيلت الحواجز الاصطناعية التي تعوق ذلك فان عصرا مزدهرا او " يوتوبيا " حقيقية تنتظر البشرية ، فالطبيعة ـ حسب تعبيرهم ـ وفرت كل لوازم السعادة وهيأتها لبني البشر ، وما عليهم الا أن يحسنوا اقتسامها وتوزيعها .

لم ترق هذه النظرية لمالتس ذى النزعة التشاؤمية ، وكانت معاصرته

---

(١٣) المصدر السابق : ٧٣ ، ٨٨

لهؤلاء الكتاب من أسباب تحمسه للرد عليهم ، فنشر سنة ١٧٩٨ كتيبا بعنوان : " مقال في قواعد ازدياد السكان " اوضح فيه رأيه الصريح ازاء الموضوع .

يقول سول : " ان مذهب مالتس بسيط في جوهره ، فالتكاثر ان لم يحد ، قيد فانه يدعو الى تزايد السكان وفقا لمتوالية هندسية ، في حين أن الزيادة في موارد الغذاء ليست بهذه السرعة أو أنها — بعبارة اخرى — تسير حسب متوالية عددية " . (١٤)

ولم يخف مالتس اعتراضه على حقوق الانسان التي أعلنها " توماس بين " فقد رد عليه قائلا : " ان رجلا يولد في دنيا قد استولى عليها الناس من قبله ، وتملكوا خيراتها ولم يجد العون الطبيعي من والديه " وما دام المجتمع في غنى عن خدماته ، فهذا الرجل لا يستطيع ان يدعى لنفسه حقا في كسرة خبز ، ولا حق له في الوجود في هذا العالم" ، كما انه انتقد البرنامج الذى وضعته الحكومة الانجليزية لاعانة الفقراء بقوله :

" ان قوانين الفقراء في انجلترا تؤدى الى تفاقم حالة الفقراء عامة في ناحيتين :

الاولى : هي انها تعمل على زيادة عدد السكان دون زيادة غلة الأرض لإعالتهم "

والثانية : ان كميات الحاجيات التي تستهلك في ملاجيء الفقراء وهم طبقة غير منتجة تقلل من الانصبة التي كان يجب ان تعطى كاملة للطبقة العاملة " . (١٥)

وهكذا حرم مالتس الاحسان تحريما قاطعا سواء أكان من الدولة أو من الافراد ، وذهب الى " أن كل مشروع لتحسين حالة المجتمع سينتهي الى كارثة " وقال " ان على المجتمع ان يرفض تقديم الاحسان او الاعانات الى الأسر

---

(١٤) المذاهب الاقتصادية الكبرى : ٧٣ ، والمتوالية الهندسية : ٢ ، ٤ ، ٨ ، ١٦ ، ٣٢ .. الخ
والمتوالية العددية : ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ .. الخ

(١٥) كتب غيرت وجه العالم : ٩٧ ، ٩٨ .

التي تعجز عن تدبير وسائل معيشتها " . (١٦)

والمصيبة ان الذى يطرح هذه الافكار ويطالب المجتمع بتطبيقها ليس رجلا " علمانيا " ولكنه " رجل دين " بمرتبة " قسيس " ! رجل دين يبرر سلوك طواغيت الرأسمالية ويحرم البر والاحسان الى المنكوبين ويقول ان ذلك هو قانون الطبيعة الذى يعبر عن ارادة الله ! ان في وسعنا ان نتصور الاثر البالغ والانعكاس الذى تتركه المفارقة العجيبة في ذهن الفرد العادى عن الدين ورجال الدين .

آثار مذهبه :

يقول داونز :

" قوبلت آراء مالتس بترحاب وتحمس اذ تلقفتها الطبقة المثرية وذوو السلطة في زمنه فرددوا وراءه القول بأن الفاقة الاجتماعية وغيرها من المساوئ الاجتماعية يصح ارجاعها الآن الى اسباب الزواج المبكر وكثرة النسل ، وليس لسوء توزيع الثروة في البلاد شأن في ذلك وبالتالي لا يقع عليهم أى لوم ". (١٧)

ويقول سول : " كان مذهب مالتس هذا يخدم مصالح اولئك الذين بالرغم من الارباح الطائلة التي جنوها بفضل نمو الرأسمالية تعرضوا لهجوم عليهم بسبب سوء الحال التي كان عليها فريق كبير من العمال والاجراء .

" لقد قام مالتس بالدفاع اللازم حين أعلن أن شقاء الانسان مرده الى اغفال أحد القوانين الطبيعية (يعني قانون زيادة السكان) وان تجاهل هذا القانون لن يؤدى الى تحقيق أية منفعة اجتماعية في ظل اى نظام

---

(١٦) المصدر السابق : ٩٧ والمذاهب الاقتصادية الكبرى : ٧٤
(١٧) كتب غيرت وجه العالم : ٩٨

اقتصادى ، وان علاج الشقاء في يد هؤلاء التعساء انفسهم ، وأن الالتزام الوكيد على الطبقات العليا من المجتمع ينحصر في تعريف الناس بالموقف الحقيقي •

" ان اراء مالتس هذه هي التي جعلت علم الاقتصاد يعرف باسم العلم القاتم النظرة " (١٨) والحق ان تقبل نظرية مالتس ومثلها نظرية سمث وأضرابهما ليس الا جزءا من ظاهرة فكرية أوربية تستدعى الدهشة والعجب وتستوجب التعليل والتفسير : وهي ميل الفكر الأوربى دائما الى اعتناق الافكار الشاذة والنظريات اللاأخلاقية المتطرفة على الرغم من وفرة الافكار والنظريات الاقرب الى الاعتدال والموضوعية •

وهذه الظاهرة رأيناها ـ في الفصل السابق ـ في " المكيافيللية " ثم هنا، وسنراها في " الماركسية " ثم في " الفرويدية " وكذلك بعض الاتجاهات الأدبية !

وهذا ـ في نظرنا ـ يعود الى مرض متأصل في النفسية الجاهلية اكثر من كونه نتيجة طبيعية للاوضاع الفكرية والاجتماعية غير الطبيعية •

وعلى اية حال فقد كان لمالتس آثاره في العلوم الاقتصادية والاجتماعية لا يزال بعضها مثار نزاع الباحثين ، على ان أقوى أثر لمذهبه ـ جاء بطريقة عفوية ـ هو ايحاؤه بقانون الانتقاء الطبيعي الذى بنى عليه " داروين " مذهبه في تطور الكائنات الحية ، وقد طغى هذا الاثر على غيره نظرا للانقلاب الفكرى الذى أحدثته نظرية التطور • (١٩) ومن ناحية اخرى يجزم " برتراند رسل " بأن ـ " ماركس " سرق من مالتس نظريته في السكان ، ـ ويبدو أنه يعني بذلك الشعار الشيوعي المعروف " من لا يعمل لا يأكل " ـ في الوقت الذى تلمن

---

(١٨) المذاهب الاقتصادية الكبرى : ٧٥

(١٩) انظر فصل " نظرية التطور " من الباب الثاني •

الماركسية فيه مالتس عدو الطبقة الكادحة .(٢٠)

جـ) ريكـــاردو :

يعد دافيد ريكاردو القطب الثالث من أقطاب الفكر الاقتصادى الكلاسيكي ، وكان يهوديا يملك شركة تحمل اسمه جعلته من كبار الاثرياء ، ولمـــا يتجاوز الخامسة والثلاثين من عمره (٢١) وهنا ينبغى ان نقف قليلا لـ

(ان الربا الذى هو عماد الرأسمالية وعصب نظامها ليلازم اليهودى ملازمة الظل لأصله وقد تكون الكنيسة على حق حينما اعتقدت ان كل المرابين يهـــود - كما سلف قريبا - واليهود لا يأكلون الربا ويحتكرون ضروريات الناس بدافـــع شهوة الذهب - التي يشترك معهم فيها سائر البشر - فحسب ، لكنهم يفعلـــون ذلك باعتباره واجبا دينيا يفرض عليهم كتابهم المقدس " التلمود لـ " ضمـــن تعاليمه الصارمة تجاه الاميين .

من هذا المنطلق كانوا يتعاطون الربا الفاحش المشوط بأقسى الرهـــون كما في " تاجر البندقية " الا ان دورهم ظل محدودا حتى قامت الثورتان العلميـــة والفرنسية مع حركة الاصلاح الديني ، وابتدأ العصر الصناعي يمد ظلـه على القارة الأوربية ، عندئذ انتهز اليهود مرحلة التحول الاجتماعي والاقتصادى ليخرجـــوا من " الجيتو " ويحطموا الكنيسة والاقطاع :

الكنيسة لانها عدوهم اللدود دينيا وكذلك اقتصاديا بسبب موقفهـــا من الربا . والاقطاع لان الملاك الاقطاعيين يستأثرون بحظ الأسد من الثـــروة لذلك كانوا محط حقد ومقت النفسية اليهودية الشرهة .

كما ان تحطيم المجتمع وتدمير بنيانه خطوة اولى نحو تحقيق هدفهـــم النهائي " استحمار البشرية " . هذا التحول منحهم فرصة القيام بدور المنافس القـوى

---

(٢٠) العقل والمادة : ٣٠١ (٢١) انظر : موسوعة الهلال الاشتراكية : مادة ريكاردو .

بالملاك الاقطاعيين ، وذلك أن المعهد الصناعي ابتدأ والمال محصور في يد طائفتين اثنتين هما :

الاولى : الملاك الاقطاعيون سواء اكانوا من رجال الكنيسة أم من غيرهم .

والاخرى : المرابون اليهود .

والصناعة تحتاج ـ بالدرجة الاولى ـ الى الثروة لادارة المشروعات الصناعية وتنميتها ثم يد عاملة لتنفيذها ، فأما اليد العاملة فقد كان للمذهب الطبيعي ـ السابق الذكر ـ الفضل في توفيرها بتركيزه على حرية العمل بحسبانها حقا من حقوق الانسان " الطبيعية " وأما المال فكان على رواد الصناعة أن يستقرضوه من احدى الطائفتين السابقتين وفعلا مد هوءلاء ايديهم اليهما يلتمسون ذلك .

وكانت النتيجة ان احجم الملاك الاقطاعيون عن اقراض وتمويل المشروعات الصناعية بسبب ظاهر وهو انهم بمد يد العون لها انما يسهمون في هدم مركزهم المالي والاجتماعي بايجاد منافس قوى لهم ، اذ ان نمو المصنع سيكون على حساب الارض ، ومن ناحية اخرى كانت الصناعة لا تزال في مهدها وليس من الموءكد أن يتحقق ما يتوخى منها ، وهم ليسوا مستعدين للمغامرة في أمر مشكوك في عواقبه .

أما الفئة الاخرى " اليهود " فقد اندفعت لتمويل الصناعة ولم تر في ذلك شيئا من المخاوف . وليس ذلك تكرما من عبيد الذهب ولا هو قصر نظر منهم ، بل لانهم كانوا واثقين من النتيجة ، فهم ـ اولا ـ يريدون ان ينفثوا حقدهم على المجتمع الاقطاعي الزراعي ـ الذى يذلهم ويحتقرهم ـ بتهيئة المناخ لطبقة جديدة تتولى قيادته ، وتكون تحت رحمتهم واشرافهم .

وهم ثانيا مطمئنون الى نتيجة قروضهم فهي مكفولة بالرهون الثقيلة الى جانب الارباح الفاحشة .

هذا مع العلم أن بعض ارباب المصانع كانوا يهودا بأنفسهم ومنهم ريكاردو . وهكذا سقطت الصناعة تلقائيا في قبضة الذهب اليهودى ، وظل الزمن

يزيد ها استحكاما حتى وصلت سيطرتهم الاقتصادية على العالم الصناعي الى الحال التي لا يجهلها أحد اليوم)(٢٢) والان لنعد الى ريكاردو :

لقد خدم سمث اليهود بنزعه القيمة الاقتصادية الكبرى من " الأرض " الى " العمل " لكن ذلك لم يقض على نفوذ الملاك الزراعيين ، فكان الامر يستدعي نظرية "علمية " تدفع العجلة الى الامام بسرعة اكبر ، وكان الناس آنذاك مستعدين لتصديق كل ما هو "علمي " مبهورين به الى أبعد حد .

وجاءت هذه النظرية على يد " اليهودى " ريكاردو :

يرى ريكاردو ان مسؤولية التفاوت الاجتماعي والازمات الاقتصادية تنصب على ما أسماه " الريع " وليس على " الربح " .

والريع هو المكسب الذى يحصل عليه مالك الأرض ، أما الربح فهو مكسب الصناعي الرأسمالي ، ويعلل ذلك معتمدا على نظرية سمث في اعطاء القيمة للعمل ـ بأن الريع ليس ثمنا للعمل ولكنه ناتج عن امتلاك مورد طبيعي للثروة .

وتمشيا مع قانون الاجور الحديدى " الذى اقتبسه عن مالتس يرى ريكاردو أنه "حين يتقاضى الملاك اثمانا أعلى لوسائل العيش فهم لايستغلون العامل ولكنهم يستغلون صاحب العمل الذى يضطر الى اداء أجور عالية لعماله ، بينما هو لا يستطيع ان يرفع من أثمان منتجاته ، لأنها تتحدد في سوق قوامها التنافس " .

ويذهب ريكاردو الى انه نتيجة لذلك فـ " ان الريع في جوهره عدوان على الربح وتميل الارباح في الأجل الطويل الى الهبوط حتى تصل درجة الصفر ، بينما يستولى ملاك الاراضي على الفائض الاقتصادى " .

---

(٢٢) ما بين القوسين مقتبس من محاضرة شفوية للاستاذ محمد قطب القاها ضمن برنامج السنة المنهجية لعام ١٣٩٦ ـ ٩٧ هـ مع اختصار وتصرف ، وتجدر الاشارة الى ان البروتوكولات اعترفت بذلك في مواضع كثيرة .

وكانت اولى ثمرات نظريته أن اقنع الرأسماليون الحكومة الانجليزية بالغاء القوانين التي سنتها للغلال وافسحت المجال لاستيراد الغلال من الخارج فهبطت أرباح الملاك الزراعيين وكسدت سوقهم ، وفي الوقت نفسه انخفضت تكاليف الصناعة كثيرا واتخذ الرأسماليون من انخفاض سعر الغلال ذريعة لتخفيض أجور العمال . وبذلك ضربوا عصفورين بحجر واحد ، ووطدوا مركزهم على حساب المجتمع فنتج عن ذلك أزمات خانقة ذهب ضحيتها جموع غفيرة من العاطلين والمعدمين .

ومن ناحية اخرى تمادى ريكاردو فطالب بتأميم الأراضي أو فرض الضرائب الباهظة عليها ، ومن هنا سقط في خطأ غير مقصود اذ أنه نبه الاشتراكيين الأوائل الى هذه الفكرة مما جعل نتيجتها تكون على عكس رغبة الرأسماليين ورغبة ريكاردو . (٢٣)

---

(٢٣) انظر موسوعة الهلال الاشتراكية مادة : ريكاردو .

الاثر العام للمذهب الكلاسيكي

هرب الطبيعيون من اله الكنيسة والتجأوا الى (الطبيعة) يلتمسون الحق والعدل في قوانينها الابدية (وأخيرا اكتشفوا أنهم انما كانوا يتعلقون بالوهم ،اذ ان هذا الاله الأخرس الأعمى يستطيع كل ان يقول كلٌ باسمه ما يشاء ولا حرج .

وابتدأ الكلاسيكيون من حيث انتهى اولئك ،وأخذوا ينقبون عن معايير ذاتية مصلحية قالوا اول الامر انها تساير قانون الطبيعة ،ثم توسعت هذه العبارة واصبحت المنفعة المادية ذاتها هي القانون والهدف ،واذا كان لا بد من وضع شعار للسياسة الاقتصادية لديهم فهو " تحقيق اكبر ربح بأية وسيلة " أي انها كانت " ميكافيللية اقتصادية " بالفعل .

ومنذ ذلك الحين جرد الاقتصاد تجريدا كاملا واعيا من أى موثر او صبغة دينية بل اخلاقية . ورسمت له دائرة مستقلة تستقى أحكامها ومناهجها النظرية والعملية من مصادر ذاتية خاصة . واختفت من موازين الاقتصاد ومباحثه كل كلمة من كلمات الحق والعدل المجردين فضلا عن الحلال والحرام ،وأصبح الباحثون يختلفون حول القضية من قضايا الاقتصاد وتتضاد آراؤهم نفيا واثباتا في حدود الدائرة الاقتصادية المحصورة ،ولو فرض أن احداً دعم رأيه بأن هذا التصرف او ذاك يحرمه الدين فان موجة من السخرية والاستهجان ستغمره وسيجد نفسه في موقف رجعي حرج للغاية . ذلك ان الجاهلية الغربية قد اقتنعت تماما بأن الدين - ان كان - شيء شخصي لا علاقة له بشؤون الحياة اطلاقا .

وهنا نلمس الحقيقة الواحدة المتكررة وهي ان الجاهلية الاوربية ترفض رفضا باتا ان تتلقى عن الله اى شرع وتصرعلى عبادة طواغيتها المتألهين مهما أذاقوها من ألوان النكال .

وتلك هي بداية الانحراف وأسسه وما لم تقتنع أوربا بتعديل موقفها هذا فان التباحث معها في الفرعيات والجزئيات عبثلا طائل تحته •

وعلى اية حال فان المذهب الكلاسيكي بتبنيه لشعار " تحقيق اكبر ربح بأية وسيلة " قد انتج مشكلتين خطرتين للغاية :

١ — قيام اقتصاد عالمي يجعل الربا والاحتكار اللذين حرمتهما الشرائع قاطبة عموده الفقري وموضوعه الرئيسي ، مما ينذر بكارثة محققة على البشرية وقد ظهرت فعلا اعراض الكارثة وعواقبها الوخيمة جلية فيما بعد عندما قبض المرابون على ناصية الدول وسخروا سياستها وخططها لخدمة مآربهم الخاصة •

٢ — وضع الشعوب التي طبق عليها المذهب على حافة هاوية من الجوع والبطالة والازمات الخانقة في عصر لم يكن للفقراء فيه اى تنظيم أو مقدرة على الضغط للمطالبة بحقوقهم • وهذه في الواقع مشكلة نشأت نتيجة حتمية للمشكلة الاولى •

ولنضرب مثالا لذلك بالدولتين الغنيتين في القرن الماضي " انجلترا وامريكا " : ففي انجلترا — أسبق الدول الى الثورة الصناعية — وصل عامة الناس والعمال منهم خاصة الى درجة من البؤس والفاقة والتسخير لا تكاد تصدق •

كان النساء والاطفال يعملون في مناجم الفحم ويجرون العربات في دهاليز ضيقة تحت الارض مدة ١٦ ساعة يوميا نظير اجور زهيدة ، وكذلك كانت معامل النسيج والمصانع الاخرى تسخرهم بالعمل المرهق في اماكن غير صحية ولا تعطيهم الا الكفاف من الرزق • (٢٤)

وكل البحوث التي تناولت موضوع الثورة الصناعية كشفت هذه الحقيقة

---

(٢٤) انظر تاريخ العالم — هاملتون جـ ٥ فصل : قضية المرأة وتطورها عبر التاريخ " •

بل ان اثرها ليبدو في الادب الانجليزى اذ نجد " ديكنز " كبير الروائين الانجليز يتعرض لحال الملاجئ والفقراء في رواية " أوليفر تويست " ، ويجعل موضوع روايته الاخرى " أوقات عصيبة " هو مشكلة النزاع بين اصحاب المصانع والعمال والاضرار الاجتماعية الناجمة عن الثورة الصناعية . (٢٥)

فاذا انتقلنا الى أمريكا رأينا أيضا حالة مزرية تحدث عنها أحد من يسمون " المصلحين " قائلا :

" اننا جميعا في الشمال والجنوب نعمل في تجارة الرقيق الابيض ، وبقدر نجاح الشخص فيها يزداد احترامه ، وهذه التجارة اشد قسوة من تجارة الرقيق الاسود لانها تفرض المزيد من العمل على عبيدها ، في الوقت الذى لا تحميهم فيه ولا تسوسهم برفق تفاخر بانها تفرض المزيد .

" نعم انه (العامل) بعد انتهاء عمل اليوم يصبح حرا الا انه يظل يرزح تحت عبء العناية بعائلته وبيته مما يجعل حريته سخرية جوفاء باطلة في حين يبقى رب العمل حرا بالفعل ويستطيع ان يتمتع بالارباح التي جناها من عمل الآخرين دون اهتمام بمصلحتهم ورفاههم " ولا عجب من أن يفضل الناس العبودية البيضاء ، اى عبودية رأس المال - على عبودية الزنوج طالما انها تدر ربحا اكثر وتحررهم من جميع المسؤوليات والاعمال التي يقوم بها مالكو العبيد الزنوج .. (٢٦)

وهكذا دفعت الجاهلية الغربية الثمن غاليا وانتقلت الى عبادة طاغوت جديد لا يقل بشاعة واذلالا عن طاغوت الاقطاع .

واقتضت سنة الله الا تدوم فرحة الرأسماليين طويلا فقد كانت تصرفاتهم الجشعة واستغلالهم الشره تضرم الحقد في القلوب وتؤجج نار العداوة ضدهم وانبعثت الشرارة الاولى على يد المفكرين الجماعيين وبلغت ذروتها في الضغينة

---

(٢٥) انظر سلسلة تراث الانسانية : ٢/٥٨٧ والاولى ترجمها منير البعلبكي الى العربيـة .

(٢٦) من كلام جورج فيتزهيو (١٨٨١) في تطور المجتمع الامريكي : ١١٢ فما بعدها .

الماركسيـــــــة .

٣ ـ المذهب الاقتصادى الشيوعي :

مقدمة عن مصادر الفكر الشيوعي :

في مقابل التطرف الذى اتخذه الطبيعيون والرأسماليون الكلاسيكيون نحو الفردية ، تطرف طائفة اخرى فاتجهت اتجاها جماعيا لا يقيم للفرد وزنا الا من جهة كونه مسمارا في الالة الاجتماعية .

والتاريخ يروى ان الفكر الجماعي قديم في أصله وأن عصر التنوير ينحصر جهده في بعثه من جديد ، كما ان الشيوعية قد طبقت عمليا قبل ماركس وانجلز بقرون طويلة ، فنحن نجد ان " جمهورية افلاطون " تشكل نظرية عن امة تسودها روح جماعية خالصة يذوب فيها الفرد داخل كيان المجموع كما نرى في الحركـــــــــة " المزدكية " (١) نموذجا لمجتمع شيوعي تطبيقي .

والحق ان الجاهلية ـ كعادتها الدائمة في التذبذب والتطرف ـ قد عانت ـ ولا تزال ـ مشكلة العلاقة بين الفرد والمجتمع ولم تهتد الى حل وسط لها وأنى لها ذلك ، ففي أوربا الحديثة كان الواقع الذى نجم عن تطبيق المذهـــب الفردى الحر دافعا لبعض ذوى النوايا الحسنة الى فكرة تنظيم المجتمع على اساس من عدالة التوزيع سميت لأول مرة " الاشتراكية "

وترجع نسبة هذه الفكرة الى عدد من الباحثين وأبرزهم " روبرت أوين " و " سان سيمون " و " فورييه " وهم طليعة المفكرين الاشتراكيين في الغرب ، والشيوعية تسمى اشتراكيتهم " الاشتراكية الطوبوية " لانها تميل الى الخيـــــال أما الاشتراكية ماركس فهي الاشتراكية " العلمية " الوحيدة في التاريخ (

---

(١) المزدكية : فكرة شيوعية نشأت في بلاد فارس قبل الاسلام انظر "الملل والنحل"

ومع ذلك فالشيوعية الماركسية تدين لهم بالفضل وتقر بأثرهم عليها ، يقول انجلز : " ان الاشتراكية النظرية لن تنسى قط انها قامت على اكتاف سان سيمون وفوربيه وأوين ، ثلاثة رجال رغم كل مفاهيمهم الخيالية وكل طوبياتهم يعقون بين أعظم المفكرين في كل العصور ، والذى تنبأت عبقريتهم بالكثير مما نثبت نحن صحته علميا " (٢) وذلك هو المصدر الاول من مصادر الفكر الشيوعي .

والمصدر الثاني هو " الفلسفة المثالية الالمانية " التي اخذ عنها الشيوعية الكثير ، لا سيما المبدأ الرئيسي " الجدلية " الذى ميز المادية الشيوعية عن الماديات الاخرى . يقول انجلز :

" ان الاشتراكية العلمية الالمانية ـ وهي الاشتراكية العلمية الوحيدة التي وجدت على الاطلاق ـ ما كان يمكن ان توجد دون الفلسفة الالمانية التي سبقتها ، وخاصة فلسفة هيجل ". (٣)

أما المصدر الثالث ـ وهو المصدر الذى حول الشيوعية من فكرة فلسفية محضة الى نظرية مصطبغة بالصبغة العلمية ـ فهو نظرية داروين .

فعندما قال ماركس " ان الظواهر الاقتصادية يمكن ملاحظتها وتسجيلها بنفس الدقة التي تسجل بها العلوم الطبيعية " فانما كان يشير الى هذه الحقيقة .

وذلك ما اوضحه انجلز بقوله " كما ان داروين اكتشف قانون التطور في تاريخ الانسان الطبيعي ، فكذلك اكتشف ماركس قانون التطور في تاريخ البشرية " .

ويعلق داونز على ذلك قائلا :

" كانت الطريقة العلمية التي اشار اليها (ماركس) في ابحاثه عاملا في

---

(٢) حرب الفلاحين في المانيا : ٢٢

(٣) المصدر السابق : ٢١ ـ ٢٢ .

تقبل الجمهور لآرائه ، اذ كانت تسيطر على أذهان الناس نظرية التطور في القرن التاسع عشر بدرجة اعتقدوا معها امكان تطبيقها على كل مظاهر الحياة ، فلما ربط ماركس نظريته التاريخية في تنازع البقاء بين الطبقات وبين نظرية داروين في التطور ضمن لها الاحترام العلمي الذى أبعدها عن الطعن والتشكك " . (٤)

وهكذا يظهر ان المذهب الشيوعي تصور شامل للوجود وحركة التاريخ ملفق من اشتات فكرية منوعة :

فالاطار الفلسفي مأخوذ عن الهيجلية بعد قلبها رأسا على عقب .

والمنهج التطبيقي منقول عن الداروينية مع اضافة ايحاءات فلسفية خاصة ، ونظرية القيمة وفكرة التأميم منقولتان عن ريكارد و ، كما انها استوحت من سان سيمون والتعس بعض النظريات المتعلقة بالملكية والعمل ، أما الالحاد فمأخوذ من فيورباخ ود ولباخ والماديين الميكانيكيين عموما .

والغريب حقا هو ان الشيوعية تلعن هؤلاء جميعا - كما قال رسل - وتتبرأ من افكارهم الرجعية البورجوازية ." (٥)

والحق أن هناك مصدرا مهما للشيوعية قل من يشير اليه وهو التراث اليهودى والنفسية اليهودية ذاتها ، وهو ما يتجلى في العبودية الخانعة للمال والتأليه الاخمق للمادة وكذلك في الحقد المضطرم على البشرية وكل قيمها وتراثها ومقدساتها . (٦)

---

(٤) هو والنصان قبله : كتب غيرت وجه العالم : ١٥٤-١٥٥ وانظر : الطبعة الجديدة : ٢٠-١٧٢ ومما يلاحظ انه رغم اقتباس فلاسفة الشيوعية المستفيض عن داروين فهم لا يشيرون الى ذلك كثيرا بينما هم يشيدون بكتاب موريس مورجان " المجتمع القديم " ويعدونه حجة للنظرية مع ان هذا الكتاب لا يعدو ان يكون تطبيقا للداروينية . ولعل سبب ذلك ليس الرغبة في تنويع المصادر بقدر ما هو الانفة من مشاركة الرأسمالية في مصدر واحد .

(٥) انظر مثلا نصوص من انجلز : ١٤٣ .

(٦) انظر حول نفسية ماركس : الشيوعية والانسانية للعقاد ، فصل : الموسعي .

ومما يجدر التنبيه اليه ان الشيوعية ـ فكرة وحركة ـ لم تكن لتحظى بالقبول مع تطرفها ازاء الاديان والخلق ومصادمتها للفطرة لولا الجو الاوربي المشحون بالضيق والتبرم من الكنيسة والطائفة الكهنوتية العليا ، تلك التي اضافت الى الطغيان والتحكم وقوفا مستمرا مع الاستغلاليين والمحتكرين ضد البائسين ، ومع الخرافات والاساطير ضد العلم والرقي المادى واستطاعت الشيوعية استغلال الغضبة الهائجة والنفاذ الى عقول السذج فوجهت العداوة العارمة على الكنيسة الى ثورة هوجاء على الدين ذاته .

المذهب الاقتصادى الشيوعي :

ان دراسة الاقتصاد الشيوعي بمعزل عن الفلسفة الشيوعية في اطارها العام ليس اخلالا بالموضوعية العلمية فحسب ، بل هو ضرب من اضاعة الجهد فيما لا طائل تحته لا سيما اذا كان الهدف من الدراسة ايضاح نوع علاقة هذا الاقتصاد بالدين .

والواقع ان مؤلفات الالحاد الشيوعي هي كتب اقتصادية شيوعية ، كما ان الكتب الاقتصادية الشيوعية هي كتب الحاد بالدرجة الاولى ، بحيث لا يمكن الفصل بينهما . ولذلك كان لا بد من عرض المذهب الاقتصادى للشيوعية ممزوجا بفلسفتها العامة .

وتبدأ نظرة الشيوعية الى الدين في التميز عن سواها من أول نقطة على الطريق ، من الالحاد ذاته فالشيوعية تصر على أن لها الحادها الخاص وهو في نظرها الحاد " ايجابي " يقول " غارودي " :

" أما الالحاد الماركسي " فهو في جوهره انس (أى انساني النزعة) منطلقه ليس رفضا بل هو تأكيد ، تأكيد استقلال الانسان ، أما نتيجته فهي رفض كل محاولة لحرمان الانسان من قدرته المبدعة والمبدعة لذاتها " .

ثم يقول في تفصيل ذلك :

" ان ما يميز الالحاد الماركسي البحت هو أنه على خلاف سابقيه ، لم يكتف باعتبار الدين خديعة فحسب ، اصطنعها المستبدون أو مجوف وهم ولد بالجهل بل ان ماركس وانجلز قد بحثا عن الحاجات الانسانية التي تلبيها الاديان بهذه الصورة المخادعة ، فوصلا ـ كما يقول ماركس ـ الى ان الاديان هي في وقت واحد : انعكاس لشقاء فعلي واحتجاج على هذا الشقاء " (٧)

" هذه الحقيقة التاريخية (ان الدين انعكاس لشقاء فعلي) هي التي يلخصها ماركس في تعبير مقتضب " الدين أفيون الشعوب " .

وجريا مع المادية الجدلية وتطبيقا للتفسير الاقتصادى للتاريخ حول علاقة الفكر بالوجود ترى الشيوعية ان الفكر البشرى انعكاس للواقع المادى ، فالمادة هي الاساس الوحيد وعنها ينبثق الفكر وتنبثق المشاعر والاحاسيس ، ومن هذه المشاعر الدين نفسه .

اى ان وجود الناس هو الذى يحدد مشاعرهم وليس العكس .

وعند تفسير الدين على هذا الاساس يقول انجلز :

" من الازمنة الموغلة في القدم ـ اذ وصل الفكر بالناس ـ وهم بعد في جهل تام ببنياتهم الجسدية الخاصة ، وتحت تأثير أحلامهم ـ الى القول بأن افكارهم وأحاسيسهم ليست من فعل أجسادهم ذاتها ، بل من فعل روح خاصة تسكن هذا الجسد وتفارقه لحظة الموت ، منذ ذلك الحين اضطروا لان يصطنعوا لأنفسهم أفكارا عن علاقات هذه الروح مع العالم الخارجي .

" وعلى هذا النحو تماما ـ عن طريق تشخيص القوى الطبيعية ـ ولدت الآلهة الأولى التي اتخذت خلال التطور اللاحق شكلا غير ارضي أكثر فأكثر الى ان حدث أخيرا عملية تجريد .. تنشأ على نحو طبيعي خلال التطور

---

(٧) ماركسية القرن العشرين : مقتطفات : ١٤٤ـ١٤٦ .

العقلي ، أن تولدت في عقل الناس من الآلهة المتعددين ذوى السلطة الضعيفة والمقيدة بعضهم حيال بعض ، فكرة الاله الواحد المنفرد في الديانات التوحيدية " (٨) .

ومع ذلك يستنتج انجلز ان المطالب الجسدية هي منشأ الاعتقادات الفكرية وان الدين ما هو الا " الانعكاس الخيالي للاشياء البشرية في دماغ الانسان " (٩) وما دام أن الوضع الاقتصادى هو الذى يفسر ويحدد المطالب الجسدية فان النتيجة هي ان الدين ناشئ عن الاوضاع الاقتصادية ولا ينبغي ان يفسر الا على ذلك :

" أما المجالات الايدولوجية التي تحوم أعلى في الفضاء كالدين والفلسفة الخ فانها مؤلفة من بقية ـ تعود الى ما قبل التاريخ ، وقد وجدها العهد التاريخي أمامه فالتقطها ـ لما قد نسميه اليوم غباء ، ان هذه التصورات المختلفة الخاطئة عن الطبيعة وعن تكون الانسان ذاته ، وعن الارواح وعن القوى السحرية وهلم جرا ليس لها في الأغلب غير أساس اقتصادى سلبي ، فالتطور الاقتصادى الضعيف لعهد ما قبل التاريخ تكون فيه .. تصورات خاطئة عن الطبيعة " (١٠) .

اذن فالاقتصاد ـ او البحث عن الطعام والشراب ـ هو منبع كل عقيدة وتصور وأساس كل مبدأ وقيمة ، بل ان الشيوعية لتطبق ذلك على كل معنى وسلوك انساني : على العلم والحرب .. على المشاعر والفنون .. على العلاقات الاجتماعية .. على كل شيء . فالعلم ـ مثلا ـ ليس أصله الرغبة الفطرية في اكتشاف الحقيقة ـ فليس في قاموس الشيوعية شيء اسمه الفطرة ، ولكنه كما قال انجلز :

---

(٨) نصوص من انجلز : ٦١

(٩) و (١٠) : المصدر السابق : ١٣٣ ، ١٨٧

" اذا كانت العلوم قد نهضت فجأة بعد ليل القرون الوسطى المظلم بقوة لا ريب فيها ، ونمت بسرعة المعجزة ، فاننا مدينون بهذه المعجزة الجديدة للانتاج " (١١) . وعن الحروب تقول الشيوعية :

" ان ما يسمى بالحروب الدينية .. كانت تتضمن مصالح طبقية مادية ايجابية ، فقد كانت هذه الحروب حروبا طبقية تماما .. ورغم ان الصراعات الطبقية كانت عندئذ مغلفة بشعارات دينية ، ورغم ان مصالح وحاجات ومطالب مختلف الطبقات كانت مختفية خلف ستار ديني فلم يبدل هذا شيئا من الأمر ، ويمكن تفسيره ببساطة من واقع ظروف تلك الايام " (١٢)

وتقول عن الاخلاق :

" ان الناس عن وعي أو لا وعي يستمدون مفاهيمهم الاخلاقية ـ في التحليل الاخير ـ من العلاقات العملية التي يقوم عليها وضعهم الطبقي ، اى من العلاقات الاقتصادية التي ينتجون بها ويتبادلون فيها " (١٣)

وليس أغرب من هذه الافكار الا قول انجلز " ان العمل هو الذى خلق الانسان " وليس الاله كما يقول الرجعيون من البورجوازيين والاقطاعيين (وحتى لا نحسن الظن فنحمل كلامه على المجاز فقد شرح هذه العبارة شرحا وافيا ـ نرى فيه الى جانب الاستنباط العجيب الاستعداد الساذج من الداروينية ـ يقول :

" منذ مئات عدة من الوف السنين .. كان يعيش في مكان ما من الدائرة الاستوائية .. عرق من القردة الشبيهة بالبشر بلغت تطورا رفيعا بوجه خاص ، وقد اعطانا داروين وصفا تقريبا لهذه القردة التي قد تكون أسلافنا .

---

(١١) المصدر السابق :

(١٢) حرب الفلاحين في المانيا : ٤٦

(١٣) نصوص من انجلز : ١٥٩

" وقد اخذت هذه القردة ـ متأثرة بالدرجة الاولى دون شك بنمط معيشتها الذى يتطلب ان تنجز الأيدى من أجل التسلق غير وظائف الأرجل ـ أخذت تفقد عادة الاستعانة بأيديها من أجل السير على الارض واتخذت اكثر فاكثر مشية عمودية ، وهكذا تم اجتياز الخطوة الحاسمة لانتقال القرد الى انسان " (١٤)

واذا كان الاقتصاد بهذه المثابة فلماذا اعتقد الناس ان شيئا آخر غيره هو الذى يسير التاريخ وينشئ الافكار ؟ وكيف غابت هذه الحقيقة عنهم حتى اظهرها فلاسفة الشيوعية ؟ يجيب الشيوعيون عن ذلك بسهولة قائلين : لا غرابة في ذلك فان الانسان أصله قرد وظل يجهل هذه الحقيقة ظانا ان العناية الالهية هي التي خلقته حتى عرف ذلك اخيرا . ويعبر انجلز عن ذلك قائلا : " ينسى الناس ان الظروف الاقتصادية لحياتهم هي منشأ الحقوق التي لديهم ، مثلما انهم نسوا أنهم قد نسلوا من عالم الحيوان " (١٥)

وانطلاقا من تأليه الاقتصاد على هذا النحو وانطلاقا من اعتبار تاريخ الانسان هو تاريخ البحث عن الطعام ، ومن الانتكاس بالانسان وجعل معدته هي العليا وروحه وعقله السفلى ـ جاء التفسير الاقتصادى للتاريخ ، وهو تفسير يقوم على مبادئ نظرية اهمها :

١) حتمية الصراع بين المتناقضات : وذلك يعني بالنسبة للمجتمع البشرى الصراع بين الطبقات ، وبين المصالح المادية المتعارضة ، وهو صراع حام لا يهدأ على الاطلاق ، وسببه الوحيد " البحث عن الطعام " وامتلاك وسائل الانتاج " وقد آمن فلاسفة الشيوعية بحتمية الصراع هذه تطبيقا للفلسفة الجدلية المثالية لهيجل على الواقع المادى .

وملخص هذه الفلسفة ان كل شيء يحمل معه نقيضه المضاد له ، وبالصراع بين النقيضين يتولد جامع بينهما اقوى منهما ، ثم لا يلبث هذا الجامع أن يدخل

---

(١٤) و (١٥) : المصدر السابق : ١٦٠ ، ١٦٢

– بعد ان يصبح قوة ثالثة – في صراع مع نقيضه الذى يحمله معه ، وهكـــــذا د واليك .

٢) في اثناء البحث عن الطعام على مدار التاريخ انقسم تاريخ البشرية خمس مراحل كبرى اقتبستها الشيوعية من " موريس مورجان " وهي :

١ – الشيوعية الأولى " البدائية " .

٢ – الرق (العبودية).

٣ – الاقطـــــاع.

٤ – الرأسماليـــــة .

٥ – الشيوعية الثانية والاخيرة . (١٦)

٣) الانتقال من مرحلة الى اخرى سببه الدائم اكتشاف مادى نشـــــأ عنه تحول جديد في وسائل الانتاج .

فاكتشاف الزراعة – مثلا – نقل البشرية من المرحلة الاولى الى مرحلـــة الرق ، واكتشاف المحراث نقل المجتمع البشرى من الرق الى الاقطـــاع ، واكتشاف الآلة كان الناقل من الاقطاع الى الرأسمالية .

٤) الانتقال من مرحلة الى مرحلة حتمى لا ارادة للانسان فيه :

ان المبادئ الثلاثة السابقة نظرية بحتة أما هذا المبدأ وما بعده فتطبيقية ومن هنا كان اهتمام الشيـــوعية بهما ودفاعها عنهما .

وهذا المبدأ " الحتمية " شرحه انجلز في كتاب " لودفيغ فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية " (١٧) وذكر كيف ان الشيوعية تعمد تمماكسة هيجل في دعوى أن أفكار الناس هي التي تنشئ واقعهم – أى ان الارادة البشرية هـــــي

---

(١٦) انظر : تطور المجتمع عبر التاريخ : سيـفال .

(١٧) لودفيغ فيورباخ : مادى الماني معارض لهيجل وماركس لكن الماركسية بنت فلسفتها على كتبه ، انظر كتاب " مبادئ فلسفة المستقبل " ترجمة اليـــــاس مرقص .

التي تغير الواقع الحيوى _ وأوضح انجلز أن سبب القطيعة بينهم وبين هيجل والمثاليين هي ما اسماه " الثلاثة الاكتشافات عن الطبيعة" :

١ _ اكتشاف الخلية كوحدة تتطور بدءا منها العضوية النباتية والحيوانية كلها عن طريق التكاثر والتباين .

٢ _ اكتشاف تحول الطاقة الذى بين لنا أن كل ما يسمى بالقوى الفاعلة بالدرجة الاولى في الطبيعة غير العضوية ... انما هي جميعا تجليات مختلفة للحركة الشاملة المنتقلة من الواحدة الى الاخرى وفق بعض النسب الكمية .

٣ _ البرهنة الاجمالية التي تحققت للمرة الاولى على يد داروين ، والقائلة ان جميع العضويات الطبيعية المحيطة بنا الان ومنها الناس انما هي نتاج عملية تطور طويلة .. " (١٨)

وواضح ان الجبرية الشيوعية منقولة بحذافيرها عن الداروينية كما اسلفنا فالانسان _ في الداروينية _ خضع دون وعي منه ولا ارادة لعملية التطور البطيئة الطويلة التي قذفت به الى وضعه الراهن دون ان يكون له يد في ذلك . (١٩)

٥) الانتقال من مرحلة الى مرحلة يصحبه تغير حتمي في الافكار والمعتقدات والسلوك :

هذا المبدأ من اخطر المبادئ الفلسفية الشيوعية ، وهو مبني اساسا على فكرة التطور المطلق التي اوحت بها الداروينية كما سبق ، وتطبيقا لهذا المبدأ ترى الشيوعية ان لكل طور تاريخي دينه وأخلاقه وتقاليده وعلاقاته المنبثقة من وضعه الاقتصادى ، فاذا ما انتقل الى طور آخر تغير كل ذلك تغيرا حتميا تبعا لتغير الطور الاقتصادى .

---

(١٨) نصوص من انجلز : ٨٢ _ ٨٣

(١٩) راجع الباب الثاني : فصل " نظرية التطور : آثار الداروينية .

يقول انجـــلز :

" منذ اللحظة التي تطورت فيها الملكية الخاصة للأشيـاء المنقولة كان لا بد لجميع المجتمعات التي تسود فيها هذه الملكية الخاصة ان يكون فيها هذه الوصية الاخلاقية المشتركة : لا تسرق ! فهل يعني أن تصبح هــذه الوصية وصية اخلاقية سرمدية ؟ . كلا ابدا ففي مجتمع ازيلت منه دوافع السرقــة حيث السرقات بالتالي لا يمكن أن يرتكبها مع مرور الزمن غير مجانين ، كم سيضحـك الناس من الواعظ الأخلاقي الذى يود ان يعلن على رؤوس الاشهاد الحقيقــة السرمدية : لا تسرق ! (١٩)

" ولهذا فاننا نرفض كل طمع بأن تفرض علينا أية عقائدية أخلاقيــة كقانون سرمدى نهائي لا يتزعزع بعد اليوم بذريعة أن لعالم الاخلاق هو أيضـا مبادئه الدائمة التي هي فوق التاريخ والفوارق القومية .

" فنحن نؤكد - بالعكس - ان كل نظرية في الاخلاق حتى اليوم انما كانت في التحليل الاخير نتاج الوضع الاقتصادى للمجتمع في ايامها ، كما ان المجتمع قد تطور حتى اليوم ضمن تعارضات طبقية فقد كانت الاخلاق على الدوام اخلاقـا طبقية : اما انها كانت تبرر سيطرة ومصالح الطبقة السائدة ، واما انهـا كانـت - منذ أن تصبح الطبقة المضطهدة على جانب من القوة - تمثل الثورة على هـذه السيطرة ومصالح المستقبل للمضطهدين " (٢٠)

ويقول ماركس :

" ترتبط العلاقات الاجتماعية وتتعلق بالقوى الانتاجيـــة ولدى تحقيقنا لقوى انتاجية جديدة يغير الناس نوع الانتاج ، وعند تغييرهم لنوع

---

(١٩) انظر فصل " علمانية الاجتماع والاخلاق " الاتي .

(٢٠) نصوص من انجلز : ١٦٠ .

انتاجهم وعند تغيير طريقة كسبهم لمعيشتهم فانهم يغيرون كل العلاقات ـ الاجتماعية " (٢١) وبناء على ذلك يعتقد الشيوعيون ان هناك اخلاقا وتقاليد زراعية اقطاعية ، واخرى برجوازية وثالثة شيوعية ، تختلف كل منها عن الاخرى وان الدين وليد البيئة الزراعية وجزء من غيبيتها ، كما ان الالحاد هو سمة البيئة الصناعية وعقيدتها ، ومثل الدين الاسرة والعرض بصفة خاصة ، وليس شيء اكثر رجعية من انسان يعيش في المجتمع الصناعي بدين واخلاق المجتمع الزراعي ، فمثل هذا الانسان جدير بان تلصق به الشيوعية اقذع النعوت وأمر الهجاء بل ستسحقه الحتمية القاهرة .

على هذا الصعيد الفلسفي اما على الصعيد التطبيقي فان الشيوعية تحصر الشرور كلها - منذ بدء الخليقة الى الان - في علة واحدة هي " الملكية الفردية " ولذلك فانهم يؤمنون ايمانا اعمى بأن القضاء على الملكية الفردية وقبض الدولة على وسائل الانتاج كفيل بتحقيق الجنة الأرضية وازالة كل الشرور والمساوئ التي يعج بها التاريخ ولا تستثنى الشيوعية من ذلك شيئا حتى " ا " المرأة " فان الشيوعية الجنسية والاباحية المطلقة هدف صريح من أهداف الثورات الشيوعية في كل مكان ، فالزواج ينتج الاسرة والاسرة في نظرهم اعدى اعداء المجتمع اللاطبقي ، لانها تحتم على المرء ان يتملك ويدخر ، والملكية الفردية تقليد اقطاعي استغلالي ان لم يتم القضاء عليه انتكس المجتمع الى طور تاريخي أدنى !

---

(٢١) بؤس الفلسفة : ١١٢

خاتمة حول وضع الدين في المجتمع الشيوعي :

أصبح جليا بعد العرض الموجز للمذهب الشيوعي أن نعرف موقف الشيوعية من الدين بوضوح :

فهي مبدأ ينكر ـ دون تحفظ ـ ان يكون لهذا الكون اله ، وعبارة " لا اله والحياة مادة " ليست شعارا مجردا بل مادة دستورية في قانون الاتحاد السوفييتي .

والدين في نظرها اوهام وخيالات انعكست عن الوضع الاقتصادى او وضعها المحتكرون من الطبقات العليا ليخدروا الكادحين المنكوبين ، فيستأثروا بكل شيء في الدنيا ويعدوهم بالعوض في الاخرة ، ومن هنا وجبت عليهم محاربته والنضال في سبيل القضاء عليه لتحرير المجتمع من الاستغلال والتحكم الطبقي !

ثم هو فوق ذلك ليس أمرا فطريا في الانسان منذ وجد والى ان تنتهي ـ الدنيا ، بل هو امر عرضي في التاريخ جاء لتلبية رغبة فئة من الناس في مرحلة من مراحل التطور التاريخي للبشرية ، وهي مرحلة جاوزتها البشرية ابتداء من اكتشاف الآلة. فمحاولة التمسك به بعد ذلك انتكاس وعبث يثير الازدراء والاشمئزاز .

أما الاسرة والزواج والاخلاق والفضيلة ... فهي كلها " هراء برجوازى " ! كما ان الحق والعدل الابديين كلام فارغ ، ولا وجود لشيء من ذلك الا في مخيلة المثاليين وأوهامهم .

والدول الشيوعية تتبنى رسميا محاربة الدين ، وتدرس الالحاد والمادية كما يدرس المؤمنون دينهم ، وتبذل كل وسائل التنفير الدعائي والاضطهاد المباشر لاستئصال جذور الدين من مجتمعاتها ، واجتثاث مابقي لديها من رواسب الخلق والفضيلة .

ويرى الشيوعيون ان الانسان الذى يسهم في هدم الاوهام الاقطاعية ويبث الوعي الالحادى في صفوف الطبقة الكادحة هو انسان مناضل شريف ، يعمل

لتطوير بلاده وتنوير شعبها ، وعلى العكس من ذلك أي داعية أخلاقي او مصلح اجتماعي فهو حجر عثرة في سبيل الرقي وأداة للامبريالية العالمية ، وعميل للبرجوازيين والرجعيين ، بل ان كل من يخالف سياسة الحزب الشيوعي ولو مخالفة سلبية بطريق الصمت هو عدو للطبقة الكادحة وعميل للقوى الاستغلالية فاذا شم من صمته رائحة الايمان بدين ما فقد عرض نفسه لعقوبة ادناها العمل سخرة في المعسكرات التأديبية مدة كافية لاذابة كل الافكار الرجعية من دماغه .

والنظرية الشيوعية دين رسمي متعصب لا يقبل الجدل ولا يسمح بالمنافسة، وكل شيء في الدولة الشيوعية لا بد أن ينبثق من العقيدة الماركسية ويتمشى معها : فالعلم يجب تسخيره لتثبيت الفكر المادى والمناداة بأزلية الكون ومادية الحياة والادب والفن لا بد ان يلتزما بما سمي " الواقعية الاشتراكية " ووسائل الاعلام شغلها الشاغل تمجيد النظرية واطراء النظام والاطناب في شرح انجازات الثورة ، والتشهير بمخالفيها .

وهكذا في كل شيء تريد الشيوعية ان تفرض نفسها عقيدة ونظام حياة ومصدر تشريع وأساس علم وفكر وفن وأدب ، فهي فكرة جاهلية متكاملة تقابل تماما الدين بمفهومه الحقيقي الشامل ، وتريد ان تحل محل العقيدة الدينية في مجالات الحياة ونشاطاتها .

الواقع المعاصر للجاهلية الحديثة :

كفرت أوربا بالله وعبدت المادة ، وألقت بالزهد المسيحي وآمنت بالشره اليهودى ، ورفضت ان تخضع نظمها الاقتصادية لله في أية صورة من الصور ورضيت بمبادئ فلاسفة الاقتصاد والحكم بما تمليه اهواؤهم ، فكان لزاماً عليها أن تدفع ضريبة ذلك من أمنها وطمأنينتها ، وأن تنتكس الى مستوى الحياة البهيمية وأن يذيقها جلادوها أقسى انواع النكال وافظع صنوف التعذيب .

وما الامراض الاجتماعية المزمنة والتهالك الاحمق على المادة والضياع المرعب والقلق الذى يخيم على الوجوه ، الا اعراض طبيعية لعبادة غير الله والحكم بغير ما أنزل الله ، لا سيما عبادة المادة وطواغيتها حيث نسي الانسان روحه وأظلم قلبه وتبلد احساسه لحساب المعدة والجسد وغرق في المتاع الحسى حتى غفل عن حكمة خلقه وسر وجوده ومصيره المحتوم في الدار الاخرة .

يقول الاستاذ " محمد أسد " :

" ان الأوربي المادى سواء عليه أكان ديمقراطيا أم فاشيا رأسماليا أم بلشفيا صانعا أم مفكرا ، يعرف دينا ايجابيا واحدا هو التعبد للرقي المادى ، أى الاعتقاد بأن ليس في الحياة هدف اخر سوى جعل هذه الحياة نفسها ايسر فأيسر او كما يقول التعبير الدارج " طليقة من ظلم الطبيعة " ، ان هياكل هذه الديانة انما هي المصانع العظيمة ودور السينما والمختبرات الكيماوية وباحات الرقص واماكن توليد الكهرباء ، واما كهنة هذه الديانة فهم الصيارفة والمهندسون وكواكب السينما وقادة الصناعات وابطال الطيران ، وان النتيجة التي لا مفر منها في هذه الحال هي الكدح لبلوغ القوة والمسرة ، وذلك بخلق جماعات متخاصمة مدججة بالسلاح ومصممة على ان يفني بعضها بعضا حينما تتصادم مصالحها المتقابلة .

" أما على الجانب الثقافي فنتيجة ذلك خلق نوع بشرى تنحصر فلسفته الأخلاقية في مسائل الفائدة العملية ، ويكون اسمى فارق لديه بين الخير والشر انما هو التقدم المادى " (١)

---

(١) الاسلام على مفترق الطرق : ٤٧ _ ٤٨ .

في الغرب الرأسمالي :

ان كثيرا من المفكرين في الغرب قد راعهم التناحر المادي وسيطرة الالة على الانسان وكان ذلك " موضوع جزع شديد عند بعض الاكابر من رجال الفكر ، فجورج برنانوس مثلا يرى في طغيان ذلك العملاق الميكانيكي الرهيب " مؤامرة كونية كبرى على كل حياة داخلية " ثم هذا جول رومان يهوله التباين الشاسع بين ارتفاع منحنى التكنيك وانخفاض منحنى المؤسسات الاجتماعية مع بقاء الطبيعة البشرية دون هذا وذاك ثابتة على خط بياني واحد ، فيبقى واجما مكفهر الوجه ، منقبض النفس أمام معضلة المنحنيات الثلاثة ، وآلبر كامو يتحيف به اليأس عندما يدرك ما استولى علينا من كابوس الخوف والهلع مرده اننا " نعيش في عالم لا ينفع فيه الاقناع تجاه اناس وثقوا وثوقا اعمى بآلاتهم وآرائهم " .

وعبر بعضهم على ذلك قائلا :

" الا ترون الى النظام الصناعي الحاضر كيف جعل من سواد الكادحين سوائم تسير بفعل الغريزة العمياء بدلا من ان تكون أناسي من آدم كرمها الله باستعمال الذكاء .. ناس كالانعام أصبحوا عبيدا للآلات " (٢)

ويقول الفيلسوف " جود " :

" اذا لم نكن على يقين في شأن من الشؤون فان مذهب الاستمتاع بالحاضر واليقين بزوال الحياة بعده مذهب تتمسك به الاجيال المعاصرة أي تمسك وهو يرسم لها طريقا عمليا محددا في العيش والحياة ، ومهما يعني هذا الاتجاه للحكيم المجرب فانه يستتبع بالنسبة لشباب هذا العصر الاستخفاف بالنواحي والقيود التي كانت محور الاخلاق ومدارها والخلاص منها في القرن التاسع عشر ، وكذلك فقدت النواهي الاخلاقية التقليدية قوتها المألوفة بعد ان زال سندها

---

(٢) محاضرات الموسم الثقافي بالكويت ٣/ ٣٢_٣٥ .

من سلطان ما فوق الطبيعة ، وقد كنا نسمع اننا ينبغي لنا عمل الخير لان الخير يرضى عنه الله ، والله تعالى يحب ان يرى عبده صالحا على خط من القناعة والاعتدال في حياته . وما دامت ممارسة الفضيلة مقصودا منها كسب رضى الله فان المرء يحار هل الدافع اليها الظفر بنعيم الجنة أو انه الرغبة في الخلاص من الجحيم المقيم ، ولم يعد للطمع بثواب النعيم في الاخرة او الوعيد بعقابها تلك القوة التي كانت لها قبلا ، فكثير من الناس يستخفون بذلك ، وما داموا لا يطمعون بنعيم الجنان وملذاتها فهم ينغمسون في نعيم هذه الدنيا وملذاتها " (٣)

أما الباحث " توني " فانه يتحدث عن التفكك الذى طرأ على الحياة الغربية نتيجة الايمان بالمادة واقصاء الدين عن شوؤن الحياة و " يبين بوضوح التمييز بين المجتمع الوظيفي الذى يعرف فيه كل فرد مكانه وقيمة عمله لصالح المجموعة وبين المجتمع المتفكك الذى لا يجد فيه سعادة لا في عمل مضمون ولا في قيمة شخصية ثابتة ويوضح ان النجاح في المجتمع المتفكك يقاس بالحصول على الثروة اكثر من المسوءولية الشخصية او اى معيار آخر للقيمة الاجتماعية ، ويقول :

كانت الثورة الصناعية - برغم انها كارثة في تاثيراتها كانت - القمة المنظورة فقط لأجيال في التغير الاخلاقي الخبيث . ويصف توني التغير الاخلاقي هذا على انه يحدث خاصة في علاقة الدين بالتنظيم الاجتماعي في القرن الثامن عشر ، لقد تنازل كلا من الكنيسة والدولة عن ذلك الجزء في محيطها الذى كان يعمل على ابقاء مجموعة عامة في الاخلاق الاجتماعية ، ويقول : كانت الكنيسة اكثر بعدا عن الحياة اليومية للبشر في الدولة ، لقد تكاثر حب الانسانية ولكن الدين الذى كان قوة اجتماعية عظمى ، صار شيئا خاصا فرديا ، كضيعة صاحب الأرض او

(٣) منازع الفكر الحديث : ٢٨٢

ملابس الشغل للعامل " (٤)

وكانت النتيجة التي لا مفر منها هي الشقاء والدمار للفرد والمجتمع، هي المعيشة الضنك التي يصلى سعيرها الغرب المادي .

يقول اليكسيس د وتوكفيل عن المجتمع الامريكي وهو النموذج الرأسمالي البارز:

" رغم ما شاهدت في امريكا من حرية وثقافة يتمتع بها الكثيرون في ظروف هي خير ما يمكن ان تقدمه لهم الدنيا ، فقد كنت المح سحابة من الحزن مخيمة فوق جباههم ، حتى ظننت ان التزمت والقلق يلازمانهم في افراحهم وأتراحهم .

" ان ابن الولايات المتحدة يتعلق بمتاع هذه الدنيا وكأنه على ثقة من أنه لن يموت ابدا - فهو يتعجل اغتراف كل ما يقع في متناول يده ، حتى لتحسبنه خائفا من أن لن يمتد به العمر حتى يتمتع بها كلها (كذا) ، فهو يمسك كل شيء بقبضة متراخية ثم لا يلبث ان يتخلى عنه ليلاحق غيره من الغنائم الجديدة .

" .. وثمة شيء قد تعجب منه للوهلة الأولى يبدو في هذا القلق الغريب المسيطر على عدد كبير من هؤلاء الذين يعيشون في سعادة وبحبوحة كبيرة من الثراء ، ان هذا المشهد قديم قدم الدنيا والجديد فيه هو رؤية شعب بأسره يضرب لنا مثلا على ذلك ."

" ان تذوقهم للمسرات الجسدية يجب ان يعتبر المصدر الرئيسي للقلق الخفي وللتقلب البارزين في افعال الامريكيين الذين يقدمون يوميا أمثلة جديدة عنه ، فالذي يكرس نفسه لمطاردة الرفاه الدنيوي عساه يلحق به ، يسرع دائما ، لضيق الوقت المحدد لبلوغه واكتناهه والتمتع به ، اذ ان تذكره الدائم لقصر الحياة وزوالها شوكة ثابتة تخزه دوما " (٥)

---

(٤) عن المشاكل الانسانية للمدنية الصناعية : ١٨٦ - ١٨٧ .

(٥) تطور المجتمع الامريكي : ٩٦

وها هو الدكتور " اليكسس كاريل " ينحى باللائمة على الذين يظنون ان الاقتصاد هو كل شيء في الحياة ، وأن الرخاء والطمأنينة يمكن ان يحصل عليهما المجتمع والفرد بطريق الخطط الاقتصادية وتنمية الموارد والثروات ، يقول :

" من حسن الحظ أن حادثا لم يخطر على بال المهندسين والاقتصاديين والسياسيين قد حدث ، ذلك ان صرح المالية الامريكية قد انهار فجأة ، وفي بادىء الامر لم يصدق الجمهور وقوع الكارثة فعلا ، ولكن اصغى الى شروح الاقتصاديين في استسلام مؤملا في عودة الرخاء الا ان الرخاء لم يعد ، ولهذا بدا أكثر رؤساء القطيع ذكاء يرتابون ويتساءلون هل أسباب الازمة الاقتصادية مالية فقط ؟

" ألا يجب ان نتهم ايضا فساد وغباء الساسة ورجال المال وجهل وأوهام الاقتصاديين ؟ ألم تهبط الحياة العصرية بمستوى ذكاء الشعب كله وأخلاقه ؟

" لماذا يجب ان ندفع ملايين الملايين من الدولارات كل عام لنطارد المجرمين ؟ لماذا يستمر رجال العصابات في مهاجمة المصارف بنجاح وقتل رجال البوليس واختطاف الناس وارتهانهم او قتل الاطفال بالرغم من المبالغ الضخمة التي تنفق في مقاومتهم ؟

لماذا يوجد مثل هذا العدد الكبير من المجانين وضعاف العقول بين القوم المتحضرين ؟

ألا تتوقف الازمات العالمية على الفرد والعوامل الاجتماعية الاكثر أهمية من العوامل الاقتصادية ؟ " (٦)

لقد فطن الدكتور كاريل الى أن الأمر أعمق من ان يكون مشكلة اقتصادية ولكنه لم يستطع ان يقع على السر الحقيقي لأزمة الانسان المعاصر وهو أنه يعبد غير الله ويحتكم الى غير شرعه !

---

(٦) الانسان ذلك المجهول : ٣١٢ _ ٣١٣

ان الانسان في الغرب يفاخر بأنه يعيش فيما يسمى "العالم الحر" وذلك لانه يرى نفسه أفضل حالا من زميله الواقع في براثن الشيوعية لكنه ينسى انه هو الآخر خاضع لتسخير واستغلال الطبقة الرأسمالية التي تستعبده، دون وعي منه، فهو يتخبط في شباكها دوما ومع ذلك يحسب أنه حر طليق. وهذه الحقيقة مضى في الفصل السابق ما يؤيدها وسنورد هنا ما يدعم ذلك مع ملاحظة التلازم الذى سبق أن أشرنا اليه بين السياسة والاقتصاد خاصة.

يقول ر. م. ماكيفر وزميله :

" ان المجتمع الحديث يتميز بالعديد من المنظمات والمؤسسات الكبيرة، والروابط الاقتصادية والسياسية المنشأة على نطاق واسع، التي تقوم جميعا على تقسيم الوظائف والتخصص حتى يصبح الفرد وكأنه أحد أسنان عجلة في آلة اجتماعية ضخمة، وتنحصر مهمته في اداء عمله بشكل آلي داخل دائرة تخصصه فلا تتهيأ له الا أقل الفرص لاظهار فرديته.

" كذلك ينزعج كثير من الناس لدى ما تتعرض له مواقف الرجل المتحضر وآراؤه من تشكيل بفعل النمط العام للمجتمع الذى يعيش فيه، وربما كان هناك ما يسوغ هذا الانزعاج عندما نرى في الولايات المتحدة الامريكية مظاهر تحديد مستويات الحياة الاجتماعية، بتأثير الاعلان والدعاية المريضة والغذاء الرتيب الذى تقدمه برامج محطات الاذاعة". وانتاج السينما في هوليود، وقد ادت السيطرة على عقول الناس بهذه الكيفية الى تضييق الحدود التي يعمل في نظامها كل من المنتج والكاتب والعامل والممثل، كما حدت من آمال الجماهير واذواقها بحيث لا تتعدى الحواجز التي أقيمت حولها " (٧)

ويتحدث الدكتور كاريل عن الاستعمار الذى يمارسه الرأسماليون بطريق الدعاية فيقول : " تتأثر حياتنا بالاعلانات التجارية الى حد كبير، وهذا اللون من الدعاية يهدف الى تحقيق مصلحة المعلنين اكثر من مصلحة المستهلكين، مثال ذلك لقد أوهمت الدعاية الجمهور أن الخبز الابيض أفضل من الخبز الأسمر، وهكذا

(٧) المجتمع : ١١١_١١٢

ينخل الدقيق مرة بعد أخرى ليجرد من عناصره الغذائية النافعة ، ومعالجة الدقيق على هذا النحو يجعل في الامكان الاحتفاظ به فترات أطول ، كما يسهل صناعة الخبز ، وبذلك يستطيع أصحاب المطاحن والمخابز ان يحصلوا على نقود اكثر بينما يطعم المستهلكون بخبز أردأ وهم يعتقدون أنه خبز ممتاز ، ومن ثم فان سكان البلاد التي يتخذون من الخبز غذاء أساسيا آخذون في الانحطاط والتدهور .

" ان مبالغ ضخمة تنفق في الدعاية ونتيجة لذلك اصبحت كميات كبيرة من المنتجات الغذائية والطبية لا فائدة منها على الاقل وغالبا ما تكون ضارة _ أصبحت هذه المنتجات ضرورية لبني الانسان المتحضرين ، وعلى هذا المنوال فان شراهة الافراد الذين وهبوا ذكاء كافيا يمكنهم من خلق تهافت الجمهور على طلب السلع التي لديهم تلعب دورا رئيسيا في الدنيا العصرية " (٨)

وفي العالم الغربي الرأسمالي كتاب تخصصوا في الكتابة عن المستقبل المشؤوم الذى ينتظر البشرية على يد الطبقة الطاغوتية المسيطرة من اصحاب رؤوس الأموال الضخمة والمستبدين ، وتنبأوا بالقبضة الحديدية التي سيمسك بها هؤلاء القطيع البشرى عن طريق استخدام التكنولوجيا واحدث الدراسات النفسية _ والاجتماعية ، حيث يأتي اليوم الذى يرى الانسان فيه أن أيامه السالفة في ظل نظام الاقطاع أفضل الف مرة منها في هذا العصر الذى يتعرض فيه لمسخ حقيقي وتطويع رهيب .

ولسنا نعني بذلك اولئك الذين كتبوا عن اليهود " فمؤلفاتهم - رغم ما تحويه من حقائق صارخة لا تزال مثارا لشك عند البعض لسبب ما ، غير ان هناك كتابا استخدموا لغة عامة منتهجين أسلوب العرض العلمي او الادبي لاثبات توقعاتهم المفزعة . من ذلك ان كاتبا غربيا مرموقا هو " جورج أورويل " الف كتابا عنوانه " ١٩٨٤ " صور فيه الوضع البشرى المنتظر في تلك السنة تصويرا مرعبا

---

(٨) الانسان ذلك المجهول : ٣٩

" يجعل قراءه يرتجفون " على حد تعبير رسل ، ورغم المعارضة التي قوبلت بها نظريته فقد أيدها الواقع كما ناصرها كثير من المفكرين ومنهم رسل الذى علق عليه قائلا :

" ظل العالم يسير شيئا فشيئا وخطوة خطوة نحو تحقيق كابوس أورويل ولكن التدرج على هذا الطريق قد جعل الناس لا يتبينون المدى الذى قطعوه في هذا الطريق المحتوم "

" ان الموقف الان شبيه بذلك الموقف الذى نشأ من ازدياد قوة الملوك في القرن السادس عشر فقد كان طغيانهم المسرف هو السبب في كل الصراع الذى قامت به الحركات التقليدية وكسبته ، ولكن ما ان تضاءلت قوة الملوك حتى نشأت محلها قوة لا تقل عنها خطورة " (١٩)

وظهر في امريكا استاذ جامعي استطاع بعد جهود مضنية وباستعماله الاساليب الاحصائية والشواهد الواقعية أن يقرب الى الاذهان تشاؤمات " اورويل " ويثبت بقوة ان امبراطوريات المال في الولايات المتحدة قد وصلت في سيطرتها على الانسان الى درجة ربما لم يحلم بها أورويل ولكن اساليبها الخفية وتخطيطها العميق وهيمنتها على وسائل الاعلام تلقى ظلالا كثيفة على غولها البشع فلا يستطيع أن يلمح مخالبه ـ الا القلة النادرة ، يقول هذا الاستاذ وهو " فينس باكارد " :

" اننا نجد تناقضا في مجتمع يحاول ان يضع اناسا على القمر في حين ان ملايين من سكانه في المدن لا يجرؤون على السير وحدهم ليلا في الشوارع او الحدائق المجاورة لبيوتهم " (١٠) ويستعرض في كتابه المسمى " المجتمع العارى) الوسائل الخفية التي تستخدمها امبراطوريات الذهب لتنفيض حرية الانسان والسيطرة على سلوكه وشعوره ويذكر منها :

---

(٩) العقل والمادة : ٢٨٩ ، ٢٩٤

(١٠) المجتمع الامريكي عاريا : ٣٠ واسمه الاصلي " المجتمع العارى " .

١ ـ اجهزة استراق السمع الاليكترونية : وهي اجهزة منها ما يستخدم في التصنت على المكالمات الهاتفية ومنها اجهزة للتصوير والتسجيل في غاية الصغر والدقة ومنها عيون وآذان وعقول اليكترونية ترصد أنفاس فريستها بدقة مذهلة ٠

٢ ـ اجهزة خاصة لكشف الكذب تستعملها الشركات العملاقة في اجراء المقابلات الشخصية مع طالبي وظائفها ٠

٣ ـ التجسس الخفي بواسطة العيون البشرية او العيون التلفزيونية ٠

٤ ـ الاحصائيات والاختبارات النفسية التي يتهافت عليها الجمهور المخدوع بينما تجنى الشركات الاحتكارية من ورائها فوائد ومعلومات مهمة ، وتضع خطوطها المستقبلية على ضوئها ٠

٥ ـ البنوك وشركات التامين ومؤسسات البريد التي تجبر الفرد على الادلاء بمعلومات وافرة عن حياته وثروته وعلاقاته لتستخدم في اغراض لا يعلمها ٠

٦ ـ شركات متنوعة متخصصة في استقاء المعلومات والتجسس على الافراد والهيئات تضع حصيلتها في قوائم تباع او تعار بمبالغ باهظة للشركات والمؤسسات التجارية ٠ (١١)

وقد ادرك حقيقة هذا الكابوس كثير ممن يسمون " مصلحيين اجتماعيين " في امريكا حتى آل الامر باحدهم وهو : هـ ٠ ل ٠ منكن المتوفى سنة ١٩٥٦ الى ان يقول :

" يبدو ان بعض الناس لم يعودوا يجدون العيش في البلاد مستساغا بل انهم يرونه مستحيلا ، وقد ملأ ضيقهم هذا الصحف الاسبوعية ، والسفن المقلعة من نيويورك حاملة شحنة ثائرة منهم تقصد باريس ولندن وميونيخ وروما وغيرها من المدن التي تقع في طريقها ، حيث يحط بعضهم في اى مكان ليهربوا من اللعنات الكبرى والاثام الفظيعة التي جعلت حياتهم لا تطاق في الوطن " ٠

---

(١١) انظر الفصول الرئيسية للكتاب السابق ذكره ، وانظر مثلا : امريكا دولة تحكمها العصابات ٠

ثم يعلل " منكن " ذلك قائلا :

" ان حكومة الولايات المتحدة بسلاحيها التشريعي والتنفيذي جاهلة غير كفء وفاسدة تثير الاشمئزاز في النفس".

" فوزارة العدل في الجمهورية مغفلة غاشة تعمل ضد كل ما هو معقول وعدل ". " السياسة الخارجية للولايات المتحدة في اسلوبها المادي في التداول مع الامم الاخرى سواء اكانت صديقة او عدوة هي سياسة رياء ونفاق ومراوغة ماكرة مخجلة ".

" ان الشعب الاميركي بقبوله كل هذه الشؤون يؤلف اعظم مجموعة من الرعاع الجبناء الحقيرين المستعبدين .. وان هذا الشعب ليزداد جبنا ونذالة وحقارة كل يوم ".

" واني لأجد في بلدي هنا اكثر مما ارى او اسمع به في اي بلد آخر من جنون خاص وعام ، أرى موكبا لا نهاية له من اعمال السلب والاحتيال الحكومية ، واللصوصية التجارية وشنق الاعناق ، والمجون اللاهوتي وقلة الذوق والاختلاس والزنا الشرعي ، وأعمال الاحتيال المتنوعة والدناءة والبلاهة والسخرية والاسراف ، انه موكب ضخم غير معقول يجرى باعظم قوة يمكن ادراكها وتغذيها اعظم جرأة ـ وشذوذ بعيدين عن التصديق " (١٢) ذلك هو ما يقوله كتاب الرأسماليون في مصادر رأسمالية ١٠٠ ٪ وهي اعترافات يخالها المرء للوهلة الاولى من صنع الدعاية البلشفية .

وكل ما ذكره اولئك ليس الا اعراضا لا بد ان يكابدها كل مجتمع أعرض عن ذكر الله وتكالب على المادة ، انه الشقاء الذي لا يخفف حدته ترف مادي ولا نعيم دنيوي ولا تستطيع قشور الحضارة والرقي الصناعي ان تستره لانه أعمق من ان ينال وادق من ان يستأصل .

---

(١٢) تطور المجتمع الاميركي : ٢٦٠ ـ ٢٦٧ .

وغاية ما يستطيع " عقلاء الغرب " ادراكه وتنبيه أقوامهم له هو انهيار صرح حضارتهم وطغيان المادة على الروح لديهم ،ثم يقفون عند ذلك او يصفون العلاج الذي لا يزيد عن مسكنات ضعيفة التاثير هي غاية ما يمكن للعقل البشري المحدود ان يقدمه اذا انقطع عن الله ولم يرتض الاستضاءة بنوره .

ولو كتب للذين يطلقون بين الحين والحين صرخات الويل والثبور على الحضارة الغربية ان يدركوا سنة الله في خلقه وان يضعوا ايديهم على مكمن الداء لتغيرت الصورة بكاملها ، ولكن أنى لهم التناوش من مكان بعيد .

٢ _ في الشرق الشيوعي :

كل ما يردده المستغيثون في الغرب ويستفظعونه من المظالم فان المجتمعات الواقعة داخل الستار الحديدي تعج به بل بأضعافه ، ففي هذه المجتمعات يتناسب الشقاء والتعاسة مع التطرف المغالي في محادة الله والحرب الصريحة على الايمان وعلى كل ما كرم الله به الانسان من خلق وسلوك .

ان الحط من كرامة الانسان والنزول به _ ليس الى مرتبة الحيوان _ بل الى منزلة المادة الصماء هو جزء من جوهر النظام الجاهلي الشيوعي ،وهدف مقصود من اهداف برامجه ومخططاته وما كان لها _ وهي على ما هي عليه من الكفر والعتو _ الا ان تكون كذلك .

وبغض النظر عن المساوئ العامة للشيوعية والشرور التي لم تدع منحى من _ مناحي الحياة الا تغلغلت في اعماقه ، فان الناحية الاقتصادية خاصة كان ينبغي لها ان تكون اليق وأنسب في الدول الشيوعية منها في الغرب . وذلك لان المبرر التاريخي لوجود الشيوعية فكرا وتطبيقا هو المظالم والشرور الرأسمالية ،فاذا جاءت الشيوعية بما يجعل الناس يترحمون على اسياد الاقطاع وطواغيت رأس المال فذلك هو المحير حقا .

كان المفروض في مذهب ينادي بمساواة خيالية بين الناس ، وينـدد

بالطبقة والطبقات والامتيازات والاحتكارات أن يكون ـ على الاقل ـ أقرب النظم العالمية الى المساواة وأقلها فوارق بين الطبقات ، هذا ان لم يحقق أحلامه الموعودة بالفردوس الارضي . ولكن واقع الدول الشيوعية يصادم هذا الفرض كل المصادمة ، وها هو ميلوفان دجيلاس نائب الرئيس " تيتو " في كتابه الذى أسماه (الطبقة الجديدة) :

" ان الطبقة البيروقراطية الشيوعية الجديدة صاحبة الامتيازات الضخمة تستخدم جهاز الدولة كستار وأداة لتحقيق مآربها وأغراضها الخاصة ، واذا ما عدنا لدراسة الملكية فاننا سنجدها ليست اكثر من حقوق الربح وحرية السيطرة ، واذا ما اتجه المرء الى تحديد ربح الطبقة من خلال هذه الحقوق ، وفي اطار تلك الحرية فان الدول الشيوعية تتجه في النهاية الى خلق شكل جديد من اشكال الملكية ، وخلق طبقة حاكمة مستثمرة جديدة ".

" ان الطغيان الشيوعي والارهاب في اساليب الحكم هما الضمانة لامتيازات طبقة جديدة تبرز على المسرح السياسي ".

" لقد سبق ستالين أن اعلن عام ١٩٣٦ مع صدور الدستور الجديد للاتحاد السوفييتي ان الطبقة المستثمرة قد تم القضاء عليها نهائيا ، وفي الحقيقة لقد تم في المعسكر الشيوعي القضاء التام على قوى الرأسمالية الوطنية التي استؤصلت تماما من الجذور ، ولكن مع زوالها بدأت تبرز في صلب المجتمع الشيوعي طبقة جديدة لم يسبق للتاريخ أن رأى لها مثيلا ".

" ولقد اكدت هذه الطبقة انها اكثر تسلطا في الحكم من أية طبقة اخرى ظهرت على مسرح التاريخ " كما اثبتت في الوقت نفسه بانها تحمل اعظم الاوهام وانها تكرس أعتى أساليب الظلم في مجتمع طبقي جديد ".

" لقد تم تأميم المقدرات المادية الا انه لم يجر توزيعها على ابناء الشعب ، بل اصبحت ملكا مكتسبا للطبقة الحاكمة وللاعضاء القياديين للحزب

والبيروقراطيين السياسيين " . " لقد حاز الاعضاء الكبار من افراد النخبة الممتازة على افضل المساكن والبيوت كما شيدت لهم الاحياء الخاصة ومنازل الاصطياف وحصل امناء سر الحزب ورؤساء البوليس السرى ليس على السلطة العليا وحسب ، انما على اجمل المساكن وافخم السيارات وسواها من مظاهر الابهة والعظمة والامتيازات ، أما بقية الاعضاء من دونهم مرتبة فقد حازوا على امتيازات متناسبة مع مراكزهم الحزبية ".

" وليس هناك اية طبقة اخرى في التاريخ تشابه الطبقة الجديدة في وحدة تماسكها ، ووحدة الفكر والعمل في دفاعها عن نفسها ، وفي قدرتها على احكام القبضة على كل ما هو واقع تحت سيطرتها من الملكية الجماعية حتى السلطة الاستبدادية المطلقة ".

" هذه الطبقة الجديدة تتمتع بشراهة وجشع البرجواوية الا انها لا تحتوى أية فضيلة من فضائلها ، ومن جهة اخرى فان هذه الطبقة تشابه الطبقة الارستقراطية في بعض امورها الخاصة ، وبطابعها الانفرادى والانعزالي ولكنها تظل بعيدة عنها في مجال رقتها ونبلها وفروسيتها " . (١)

اما الكاتب الفرنسي " أندريه جيد " الذى اصيب بخيبة امل عظمى في الشيوعية بعد زيارته للاتحاد السوفييتي فيتحدث في كتابه " العودة من الاتحاد السوفييتي " عن هذا الواقع بأسلوبه الادبي قائلا :

" .. ماذا اقول عن فندق " سينوب " الذى كنت اقطن فيه بجوار " سوكوم " لقد كان أرقى وأسمى من كل شيء آخر ، بحيث لا يقارن الا بأفخم فنادق اوربا وأعظمها ... وكان بجوار الفندق مزرعة نموذجية تمده بثمرها ، وكانت المزرعة تشتمل على زرائب نموذجية للخيل والبقر والخنازير وبيوت للدجاج ، وكلها

---

(١) مقتطفات من الكتاب المذكور ص ٥١ ، ٥٤ ، ٧٨ ، ٨١ ، ٨٣ و ٨٤

مهيأة بالوسائل الحديثة ، الا انك اذا عبرت النهر الذى يحد هذه المزرعة رأيت صفا من الاعشاش الحقيرة يعيش في كل حجرة من حجره الصغيرة - ستة اقدام مربعة - أربعة افراد ويدفع كل منهم روبلين ايجارا شهريا ".

" ان اختفاء الرأسمالية لم يجلب الحرية للعامل السوفيتي ، ومن الضر الضرورى للطبقة العاملة في كل مكان أن تعلم هذا ، ان العمال طبعا لم يعد يستغلهم حملة الأسهم الرأسماليون الا انهم مع ذلك يستغلون أبشع الاستغلال وبطرق خفية منحرفة ملتوية بحيث لم يعد العمال يعلمون على من يلقون اللوم .

" ان غالبيتهم العظمى يعيشون تحت مستوى الفقر ، وان اجورهم الهزيلة هذه هي التي تعين على ملء جيوب العمال المميزين الذين يمتازون بانعدام الشخصية وبالتزلف ، والخضوع ، ان الانسان ليروعه ما يلحظه على ذوى الشأن من عدم مبالاة بمن هم أقل منهم شأنا ، كما يروعه ما يظهره الاخيرون من تذلل وعبودية .

" آمنّا بانه لم تعد هناك طبقات او امتيازات طبقية في الاتحاد السوفييتي الا ان الفقراء لا زالوا هم الفقراء بل ان عددهم جد كبير ... انني اخشى ان يكون معنى هذا كله العودة الى نوع من " برجوازية الطبقة العاملة " تشبه البرجوازية الحقيرة التي تركتها في بلدى ، ولقد بدأت فعلا ارى اعراضها ولا شك ان كل رواسب البورجوازية موجودة - رغم الثورة - لدى الكثيرين وان كانت هاجعة راقدة .

" ان الانسان لا يمكن اصلاحه من الظاهر ، فان تغيير القلب واصلاحه أمر جوهرى ولذلك يراودني القلق عندما ارى كل الغرائز البرجوازية تلقى الاطراء والتشجيع في الاتحاد السوفييتي " .

" رغم ان ديمكتاتورية الطبقة العاملة التي طالما نادوا بها لم تتحقق بعد ، الا انه توجد مع ذلك دكتاتورية من نوع اخر ، دكتاتورية الحكومة

الاستبدادية " البيروقراطية السوفييتية " ان العامل السوفييتي البائس مربوط بمصنعه والعامل الزراعي مربوط بمزرعته الجماعية كارتباط " اكسيون " بعجلته ، ان العامل اذا فكر في ترك عمله الحالي لأي سبب شخصي ، كأن يتصور أو يأمل ان يكون في غير هذا المكان أحسن حالا أو أقل سوءا ، أو لمجرد أنه يرحب بالتغيير فانه وهو المصنف المسجل المنظم يصبح على خطر من ألا يجد عملا في أي مكان ، بل انه ان ترك مصنعه ولو ظل باقيا في نفس المدينة يحرم من مسكنه الذى كان من حقه طالما هو في العمل ، والذى يصعب ان يجد غيره في اى مكان آخر رغم انه مع ذلك كان يدفع ايجار هذا المسكن ... ، أما اذا قامت السلطات نفسها بنقل العامل لسبب من الاسباب ، فانه لا يستطيع ان يرفض الانتقال ، فلا هو حر في الذهاب الى حيث يريد ولا في البقاء حيث تجمعت عواطفه الخاصة ومصالحه الشخصية "(٢)

واذا كان هناك الكثير من الشواهد القاطعة تثبت الواقع البشع الذى يعيشه الانسان في ظل الجاهلية الشيوعية ، والمآسي الشنيعة التي يتعرض لها ليس في فكره وروحه فحسب بل وفي قوته اليومي ايضا ، فان بعض المخدوعين بالشيوعية يروعهم التقدم الملموس في المستوى الصناعي ، فيعشي ابصارهم عن الحقائق المرة المصاحبة لهذا التقدم ، فينسون أولا ان سعادة الانسان وطمأنينته هي المقياس الحقيقي لنجاح اى عقيدة او مذهب وليس الانتاج المادى بالغا مابلغ ، وهذه الحقيقة يعترف بها احد المرتدين عن الشيوعية وهو الكاتب القصصي " لويس فيشر " الذى يسخر من نفسه حينما كان يفضل الكيلووات على الانسان مخدوعا بانجازات الثورة الشيوعية في بعض مجالات الانشاء والتعمير(٣)، والحقيقة الثانية هي ان التفوق الشيوعي في المجالات المدنية

---

(٢) والصنم الذى هوى ٢٢٢-٢٢٦

(٣) انظر المصدر السابق .

ضئيل اذا قورن بالمستويات التي وصل اليها الغرب ، وان المجال الذى برز فيه الشيوعيون هو ميدان الانتاج الحربي بصفة خاصة ، وما ذلك الا لإحكام القبضة الحديدية على الشعب وارهابه بدرجة تجعله يطرد من ذهنه كل أمل في الخلاص وكل طمع في عون خارجي .

والحقيقة الثالثة : ان مكاسب هذا التقدم تؤول الى الطبقة الحاكمة المستبدة وحدها ، وان الشعب هو الضحية والثمن فلولا معسكرات العمل الاجبارى لما تحقق كل ذلك.

يقول " د جيلاس " :

اذا كان من الامور الممكنة احصاء الخسائر الناجمة عن نظام الملكية الجديد في المحاصيل الزراعية ، وفي المواشي فانه من الصعب جدا احصاء الخسائر في اليد العاطلة وفي ملايين الفلاحين الذين ، زجوا في المعتقلات وأجبروا على العمل في معسكرات العمل الاجبارى "(٤)

غير ان مؤلف كتاب " نظاما البشرية : الديمقراطية والشيوعية " يعطى ارقاما قد تقرب هذه الحقيقة فيقول :

" في عام ١٩٢٨ كان في روسيا ٣٠ الف عامل سخرة ، وعندما قرر ستالين في مشروع الخمس سنوات انه سينشيء صناعات جديدة في روسيا بدأت معسكرات السخرة تمتلئ بسرعة ، وما ان حل عام ١٩٣٣ حتى كان فيها خمسة ملايين من عمال السخرة ،وبمرور الزمن ارتفع هذا الرقم الى ما يتراوح بين عشرة ملايين وخمسة عشر مليونا .. ولم يكن يرسل الى معسكرات السخرة في بداية الامر غير الاعداء الحقيقيين للحكومة السوفييتية ، ولكن لم تكد تمضى فترة طويلة حتى تم تحويل عدد كبير من الناس الى عمال سخرة لمجرد الشعور بانهم قد يصبحون في يوم من الايام خطرا على الحكومة ، وهذا فضلا عن ان الحكومة

(٤) الطبقة الجديدة : ٨٠

احتاجت الى عمال لتنفيذ مشروعات في مناطق نائية لا يمكن ان تجتذب عمالا يذهبون باختيارهم ".

" وفي الصين ايضا انشئت معسكرات السخرة بسرعة عقب انتصار الشيوعية في الحرب الاهلية عام ١٩٤٩ ، وقد قدر عدد عمال السخرة في الصين الحمراء باكثر من عشرين مليونا "(٥) هذا بالاضافة الى ان التقدم الصناعي ليس معيارا كافيا ، وذلك لسبب كامن في طبيعة العمل الصناعي ذاته ، وهو امكان خضوعه للمراقبة من قبل البوليس السرى الذى يعرف مهمة كل عامل ويستطيع بسهولة ان يكتشف تقصيره ، اذ ان العمل موزع توزيعا دقيقا ، اما العمل الزراعي الذى يصعب خضوعه لمثل هذه المراقبة الالية ففيه تظهر الحقيقة بجلاء : لقد كانت روسيا القيصرية اكثر دول العالم انتاجا للقمح ، بل ان جزءا منها مثل " اوكرانيا " يكفي لامداد اوربا كلها بالغذاء ، ولكن الواقع الحالي يشهد ان الاتحاد السوفييتي يستجدى القمح من اعداء العقيدة " الرأسماليين الامريكان " ويدفع ثمنا له العملة الصعبة ، وهذا هو المحك الحقيقي لمقدار نجاح النظام الشيوعي او فشله في جانبه الاقتصادى الذى يعده اهم وارقى جوانبه .

ويقدم لنا " لويس فيشر " بعض الحقائق عن المزارع الجماعية في روسيا فيقول :

" ان هذه المزارع الجماعية ليست الا نوعا جديدا بارعا من العبودية الجماعية يناسب القرن العشرين ويجبر الفلاح على العمل تحت رقابة بعض شيوعي القرية المختارين ووخزاتهم ، ويجعله عالة على الدولة ومحتاجا اليها دائما في بذوره والاته وحيواناته ومعظم دخله . وكان من الطبيعي ان يلقى

(٥) وليم ابنشتين : ١٦٨ ، ١٦٩

هذا التأميم للزراعة مقاومة عنيفة بعيدة المدى ، وقد شاهدنا كيف كان رد الحكومة على هذه المقاومة ، لقد أرسلت بمئات الالاف من " الكولاك " أواغنياء الفلاحين الى معسكرات العمل الجماعية ،ولم يكف هذا النفى الجماعي لتحطيم القرية ... واستعمل المسؤولون القوة لاجبار الفلاحين على الدخول في هذه المزارع الجماعية ، وكثيرا ما كانت وحدات الجيش الاحمر تظهر في القرية وتنتقل من كوخ الى كوخ ، مصدرة امرها الى السكان بتشكيل مزرعة جماعية . وكان الفلاحون يهددون بالنفى الى سبيريا والتركستان ، كما حدث مع الكولاك اذا تشبثوا بالزراعة الفردية . بهذه الوسائل وغيرها امكن ان تحشر الغالبية العظمى من الفلاحين الروس في المزارع الجماعية ، ولكنهم مع ذلك ظلوا يعارضون او يهدمون المجهود التعاوني فقد كانوا يأملون حتى الان ان تعتبر الحكومة هذه المزارع الجماعية فكرة فاشلة ، ثم تتنازل عنها ،وقد ادت هذه الامور في اوكرانيا الى مجاعة ١٩٣١ - ١٩٣٢ التي ماتفيها الملايين من الناس فكانت القرية تموت بجميع من فيها ، لقد كان ثمن تسرع البلاشفة وتعصبهم غاليا ". (٦)

ويقول اندريه جيد :

" لقد حدث ان زرت احدى المزارع الجماعية النموذجية وهي من ابدع مزارع الاتحاد السوفييتي واغناها ، ودخلت بيوتا متعددة وليتني استطيع ان انقل اليكم ذلك الانطباع المطرد الكئيب الذى يحس به من يدخل هذه البيوت ، من أثر انعدام الفردية انعداما كاملا ، لقد كان في كل منها نفس قطع الاثاث القبيحة ، ونفس الصورة للزعيم" ستالين " ولا شيء غير هذا ، فلم يكن هناك ادنى اثر لأى تحف أو ممتلكات شخصية ، ولو دخل

---

(٦) الصنم الذى هوى : ٢٥٣ .

أحد السكان بيتا غير بيته ناسيا لما أحس بأى تغيير أو اختلاف ". (٧)

هذه هي الامثلة الواضحة لتطبيق الشيوعية والمعيار السليم للحكم عليها ، وتلك هي نتائجها الاقتصادية المزرية ، فضلا عن نتائجها السياسية الفظيعة ، التي تتمثل في وقوع الكثرة الكاثرة من الشعب عبيدا في قبضة الحكومة الاستبدادية ، مرهونين بقوتهم الضرورى وأمنهم المحفوف بالمخاطر ، كما سبق في فصل " علمانية السياسة ".

ومع أن في وسعنا ان نفصل القول فيما سبق - الا اننا سنكتفي بهذا الاجمال ، اذ أن الواقع المعاصر ملء سمع وبصر كل انسان أوتي حظا من المعرفة والنظر ، وليس ادراك هذه الحقائق مما يخفى على الكثير ، ولكن الذى يخفى فعلا ويغيب عن اذهان الناس في الشرق والغرب سواء ، هو سر هذه الادواء الوبيلة الحقيقي ومصدر هذا الشقاء المستديم الذى يطبق فكيه على العالم الغربي الجاهلي ولا يستطيع منه خلاصا .

.. .. ..

الفصل الثالث

علمانية العلم

سبق ان عرضنا فى الباب الثانى فصلا من الصراع بين الكنيسة وبين العلم ولمحنا الخطوط العريضة لتلك المعركة الضارية وعن نتائجها السيئة ووصل بنا العرض التاريخى الى القرن التاسع عشر حيث رأينا فى فصل لاخر كيف اجهزت الداروينية على الرمق الباقى فى حطام مدعيات الكنيسة وتعاليمها .

ولعل من الا وفق ـ قبل ان نعرض لموقف العلم المعاصر تجاه الدين ـ ان نلقى نظرة سريعة على الموقف فى القرن الماضى اذ هو بمثابة الاساس لما تلاه فى هذا القرن . وقد حاول مو ء لف كتاب "تكوين العقل الحديث" ان يجمل الصورة العامة للنزاع بين العلم والدين انذاك فكان هذا الموجز :

" ان نمو العلم الميكانيكى والنقد العلمى للتوراة وانفجار قنبلة التطور عام ١٨٥٩م ابرزت الخلاف بين التقاليد الدينية والعلم الحديث " .

وفصل ذلك فى موضع اخر قائلا :

" أدى النقد التاريخى الى اهمال الكثير من الاعتقادات ، كما هدم العلم الميكانيكى بدوره مقدارا اكبر منها . ومنذ نقد هيوم للمعجزات فى القرن الثامن عشر رفض المتدينون الاحرار الاعتقاد باى خرق للقانون الطبيعى ونظامه وفسروا اخبار المعجزات بانها من نتاج اسباب طبيعية انسانية كالسذاجة والخيال والخرافة . ثم ان التفسيرات الجيولوجية والبيولوجية لماضى العالم قد ادت بالطبع الى اهمال اى اعتقاد حرفى بالحوادث الواردة فى الفصول الاولى من سفر التكوين .

" واخيرا اهمل القرن التاسع عشر بشكل اكيد الاعتقاد بان " الله " مبدأ علمى . فقد اختفى الخالق صانع الساعة الذى تصوره عصر التنوير مع تقدم التفسيرات العقلية والعلمية عن كيفية تشكل الكون . واذا كان المتدينون من الناس ما زالوا يعتقدون بوجود خالق وراء هذه العمليات الطويلة فهم يفعلون ذلك على اسس دينية اكثر منها علمية " (١)

---

(١) راندال : ٢/٢٢٥ ، ٢٤٣ .

وكما ابتهج الماديون بالنصر الحاسم ـ ظاهرا ـ الذى ظفر به العلم على الكنيسة فى معركة " اصل الانسان " والانسحاب النهائى لها من حلبة الصراع فقد كان الفلاسفة النظريون ايضا لايقلون عنهم رغم الخلاف فى وجهات نظر الفريقين الذى بلغ مداه فى الصراع بين الواقعية والمثالية . " والى ذلك يشير " هنترميد " فى كتابه عن الفلسفة :

" فى الجزء الاكبر من القرون الوسطى مثلا كانت العلاقة الرسمية بين الفلسفة والدين تتلخص فى ان للفيلسوف الحرية فى الوصول الى اية نتائج قد يوحى بها تفكيره شريطة الا تكون هذه النتائج متعارضة مع نتائج الوحى واللاهوت المقدس " .

" والواقع ان الفلسفة لم تتمكن من التحرر من هذه القيود الا منذ اقل من قرنين من الزمان حتى فى البلاد الديمقراطية الليبرالية ذاتها بل ان هذه الحرية قد اكتسبت فى مجالات معينة منذ وقت يذكره اناس مازالوا احياء ولما كان هذا الاستقلال قد اكتسب بعد كفاح مرير فمن المنطقى ان ينظر اليه جماعة المشتغلين بالفلسفة على انه اهم الحريات المدنية وان تعده جديرا بانه يحفظ باى ثمن " (٢) .

نعم . ذلك هو الحال وتلك هى النتيجة .

انفلات من قيود الكنيسة وانعتاق من اغلالها وفرحة غامرة بالفكاك من قبضتها والتملص من وصايتها فماذا يتوقع من عبد احس بنشوة الظفر لانه ابق عن سيده ؟ او اسير ، شم نسيم الحرية بالفرار من معتقله ؟

لقد اندفع تيار اهوج فى كل القنوات الفكرية والعلمية فى اوربا تيار يريد ان يجرف كل شىء اسمه " دين " او له علاقة بهذا الاسم ويطمس كل موحى من موحياته ويمحو كل اثر من آثاره . وكانت غاية من يسمون "احرار الفكر " هو الدفع بهذا التيار الى الامام ما امكن وبسرعة اقصى . لا لان ذلك ما يمليه "المنهج العلمى " وحرية الفكر " ولا لانه مقتضى النظر الموضوعى المتسم بالتعقل والتروى بل لانه نتيجة رد الفعل المتهور ضد الكنيسة الذى لاتكاد حدته تخف حتى تلهبها آثار سياط الكنيسة فى ظهورهم .

---

(٢) الفلسفة انواعها ومشكلاتها : ٣٣ .

وكما عرف الناس ورأوا واقع ماقاله " كويت " من " ان كل خطوة الى الامام في البحث عن المعرفة قد حوربت باسم الدين " (٣) فقد بدا لهم مصداق ماقاله "الفرد هوايت هد " : ـ

" ما من مسألة ناقض العلم فيها الدين الا وكان الصواب بجانب العلم والخطأ حليف الدين " (٤)

ومالهم لا يصدقون بذلك وقد رأوا بأم أعينهم سلسلة الهزائم المتلاحقة التى منيت بها الكنيسة امام العلم يضاف الى ذلك طغيانها البغيض الذى يقابل المنجزات العلمية والتيسيرات المذهلة التى حققها العلم فى وسائل الحياة : قالت الكنيسة : ان الارض مسطحة وهى مركز الكون ـ لاجل عملية الخلاص ـ وقال كوبرنيق انها كروية تدور حول الشمس وثبت لهم ان الكنيسة كاذبة والعلم مصيب .
وقالت الكنيسة ان الكون والانسان خلقا فى ستة ايام عادية سنة ٤٠٠٤ ق . م وقال " ليل وداروين " ان عمر الكون يقدر بمئات الملايين من السنين والانسان بالملايين وثبت انهما على حق وان الكنيسة مبطلة .

وقالت الكنيسة ان ١ + ١ + ١ = ١ واثبتت بديهيات الرياضية ان مجموع ذلك = ٣ . وقالت الكنيسة ـ تبعا لارسطو ـ ان الكون مكون من اربعة عناصر وقال العلم ان عناصره تزيد على التسعين (٥) وصدق العلم وكذبت الكنيسة .
وقالت الكنيسة ان التوراة والاناجيل والرسائل كتب موحاة من الله . وقال النقاد التاريخيون انها من صنع مؤلفين غير موضوعيين . وظهر انهم على صواب فيما قالوا ..
وقالت الكنيسة ان الخبز والخمر فى العشاء الربانى يتحولان الى دم وجسد المسيح حقيقة وقال العقل والعلم والبديهة ذلك ابعد المحال .

وقالت الكنيسة ان الرهبانية وسيلة للطهر وفضيلة سامية وقالت علوم النفس والاجتماع انها تصادم الطبيعة وتفضى بالجنس البشرى الى الهلاك المحقق .

---

(٣) تاريخ البشرية . اليونسكو : ١/٢/٦ ص
(٤) الجفوة المفتعلة بين العلم والدين : ١٢
(٥) وصلت الان الى حوالى (١٠٤) عناصر .

وقالت الكنيسة ان المرض سر من الشياطين يمكن مداواته باقامة القداس والتمسح بالصلبان . وقال الطب ان سبب المرض كائنات بالغة الدقة يمكن افناؤها بالمستحضرات الكيماوية ، واخفقت الكنيسة في حين نجح العلم واثبت جدواه ..

وهكذا سلسلة طويلة محزنة في مقدور الرجل العادي ان يستعرضها ليخرج بنتيجة حاسمة هي أن العلم دائما على صواب وان الدين على خطأ باستمرار . لا سيما وان الكنيسة قد علمته ان ليس ثمة شيء يستحق ان يسمى دينا الا تعاليمها المقدسة وازاء ذلك بدا من المنطقي جدا ان تتعالى اصوات الناقمين من العلماء وسواهم :

ليتحرر العلم من قيود الدين ولتذهب تعاليم الدين الى الجحيم .

العلم هو وحده الحق والحكم وهو مصدر النور كما انه منبع الرفاهية اما الدين فجمود ورجعية وخرافات واساطير .

واذا عرضت مسألة فليخرس الدين ولينطق العلم !

ليبحث العلماء ويستخرجوا قوانين الطبيعة واسرار الكون في الهواء الطلق بعيدا عن الدين ! الدين شيء والعلم شيء اخر لا علاقة بينهما الا التضاد . واذا كان لابد من اخضاع احدهما للاخر فليخضع الدين ولتطبق كل حقائق الدين كالوحي والمعجزات والروح والخلود داخل المعامل والمختبرات والا فلتسقط الى الابد !

والحذر الحذر ان يخطيء رجل العلم فيضمن ابحاثه وتجاربه شيئا من مصطلحات رجل الدين او يقحم شيئا من تفسيرات الدين في صلب تفسيراته لمظاهر الطبيعة لان ذلك إفساد للروح العلمية وأي افساد . !

واذا جاز لرجل العلم ان يعتقد شيئا من الدين بدافع شخصي فان عليه ـ كما عبر بوترو ـ بحين يدخل المعمل ان "يترك بالباب معتقداته الدينية ويستعيدها عند خروجه" (٦)

ومن خلال هذا تبين ان موقف الكنيسة كان العامل الاكبر الذي افضى الى المداوة الشرسة للدين من قبل العلم والتحلل الكامل من كل قضاياه ومؤثراته .

---

(٦) العلم والدين في الفلسفة المعاصرة : اميل بوترو : ٣٢

على ان هناك عاملا آخر يرفد هذا العامل ويؤازره وهو عامل داخلي نابع من طبيعة النفسية الجاهلية الاوربية ذاتها ، ومستقر في شعورها أولا شعورها وبامكانه ان يقوم بأثر واضح حتى وان لم يوجد العامل الخارجي المتمثل في موقف الكنيسة ا .

ذلك ان الارث الديني والوثني في النفسية الاوربية يصور العلاقة بين الاله والمخلوقين ـ فيما يتعلق بالعلم والمعرفة ـ على انها صراع محتدم وتنافس ضار، الاله يفرض الجهل على الانسان ويتعمد تجهيله الى الابد بأية وسيلة خشية ان ينافسه على مقام الالوهية لو وقع في يده شيء من نور العلم! والانسان يسلك وسائل شتى ويستعين بوسائط عدة لكي يستغفل الاله ويختطف من وراء أسواره شيئا من العلم يمكنه من التحرر والانطلاق . اما الارث الديني فتمثله " قصة ادم " عليه السلام ـ كما رواها سفر التكوين من العهد العتيق : " واخذ الرب الاله الانسان وجعله في جنة عدن ليفلحها ويحرسها. وامر الرب الاله الانسان قائلا من جميع شجر الجنة تاكل اما شجرة معرفة الخير والشر فلا تاكل منها . فانك يوم تاكل منها تموت موتا " . " وكانت الحية احيل جميع حيوان البرية الذي صنعه الرب الاله فقالت للمرأة : ايقينا قال الله لا تاكلا من جميع شجر الجنة؟ فقالت المراة للحية : من ثمر الجنة ناكل واما ثمر الشجرة التي في وسط الجنة فقال الله لا تاكلا منها ولا تمساه كيلا تموتا . فقالت الحية للمرأة : لن تموتا !! انما الله عالم انكما في يوم تاكلان منها تنفتح اعينكما وتصيران كآلهة عارفين الخير والشر . ورات المرأة ان الشجرة طيبة للماكل وشهية للعيون وان الشجرة مُنية للعقل فاخذت من ثمرها واكلت واعطت بعلها ايضا معها ، فاكل فانفتحت اعينهما فعلما انهما عريانان فخاطا من ورق التين وصنعا لهما مآزر " . " وقال الرب الاله : هوذا آدم قد صار كواحد منا يعرف الخير والشر والان لعله يمد يده فياخذ من شجرة الحياة ايضا وياكل فيحيا الى الدهر فاخرجه الرب الاله من جنة عدن " واما الارث الوثني فخير نموذج له الاسطورة الاغريقية الشهيرة :

" زيوس هو رب الالهة والناس جميعا وكانت الصراعات بينه وبين الالهة تنشب باستمرار وكان بينه وبين الاله " بروميثوس " عداوة ايضا . فخلق بروميثوس الانسان من الطين وعندما انتهى من تشكيله نفخت فيه الروح الالهية "أثينا " وحقد زيوس على الجنس

البشرى وقصد حرمانهم من كل خير فى الدنيا وابتلاهم بحرمانهم من النار التى هى ضرورية جدا للانسان • ولكن بروميثوس سرق النار من السماء او من مصنع هيفايستوس اله النار والحرف وخاصة الحدادة كما علم البشر الفنون والحرف متحديا الاله الاكبر فلما تعلم الانسان ذلك يئس زيوس من مقدرته على اهلاكه لكنه ظل على الدوام يتحين الفرصة للانتقام منه وتقليل فرص المعرفة امامه كيلا يتجاوز حده ويصبح الها • (٨)

هذا ولا يحط من قيمة هذا العامل ان علماء الغرب قد نبذوا الايمان بالله وبالاساطير ايمانا اعتقاديا واصبحت قضايا تاريخية وادبية "فانه من المشهور فى علم النفس ان الانسان قد يفقد جميع الاعتقادات الدينية التى تلقنها اثناء طفولته بينما تظل بعض الخرافات الخاصة فى قوتها تتحدى كل تحليل عقلى فى جميع ادوار ذلك الانسان " (٩) •

هكذا رسخ فى النفسية الاوربية شعور متأصل بان كل ظفر للانسان فى مجال العلم والمعرفة انما هو هزيمة لارادة الاله وكل كشف يعرض له انما هو سرقة واغتصاب من كنزه المحظور • ولذلك اصبح اعز امانيها ليس ان تتحرر من قيود الاله فحسب بل ان " تقهره قهرا " حسب الاستعمال الشائع لدى " العلماء " إ عند إحراز اى تقدم فى اى ميدان • وحتى بعد ان تخلت اوربا عن عبادة زيوس وجوبيتر ورفضت عبادة اله الكنيسة معتنقة عبادة " الطبيعة " ظلت هذه الامنية " قهر الطبيعة " اعظم احلامها •

يقول كتاب " تاريخ البشرية " الذى اصدرته اليونسكو :

"كانت الفكرة العامة فى معظم المجتمعات فى الماضى ان الطبيعة موجودة ببساطة تؤثر فى حياة الانسان على نحو لا يتغير، وازاء قوتها العارمة لم يحاول ان يطوعها كثيرا لاحتياجاته بل كان عليه ان يكيف نفسه وفق ما يلائمها ولكن انسان القرن العشرين قد اخذ بخناق الطبيعة مصمما على ان يستخرج اسرارها وان يستغل مواردها

---

(٨) انظر مثلا اساطير الاغريق جـ ٥ سلسلة تراث الانسانية •
(٩) محمد اسد: الاسلام على مفترق الطرق : ٦١

وأن يقهر آثارها الخطرة " (١٠) .

ويقول نخبة من العلماء السوفيت في كتاب أصدروه :

" الطبيعة كتوم لا تبوح بأسرارها ، فهي تكتب قوانينها بنظام شفرى غامض ثم تحكم غلقها واخفاءها بعيداً في خزانات متينة ، وهي لا تكشف عن أسرارها الا قسراً فلا تعطى الباحثين من هذه الاسرار في كثير من الاحيان الا بدائل للحقيقة فقط " (١١)

وهذا يذكرنا بقول "داروين" ايضا أن الطبيعة كانت تكذب عليه مرارا خلال مشاهداته (١٢) .

واذا كانت هذه هي نظرة العلماء الى الطبيعة ، اى الاله الجميل الذى فروا الى احضانه هربا من سطوة اله الكنيسة ، فما بالك بنظرتهم الى الله تعالى ، الذى لا يتبادر الى اذهانهم عند اطلاقه ـ الا انه اله الكنيسة الطاغى الحقود الذى يتعمد تجهيل الجنس البشرى وحرمه من المعرفة ، ؟ لقد ذهب بهم الغلو الى حد انهم يرفضون ذكر اسم الله على اى بحث علمى او فيه حتى لو كان للتبرك فقط .

ولنفرض ان عالما لا دينيا قاد عقله ونظره الى استنتاج حقائق رائعة واسرار مذهلة لم تملك فطرته حيالها الا ان تستيقظ قائلة : ان الله هو الذى صنع هذا وغير سائغ ان ننسبه الى اى مسمى اعمى غامض كالطبيعة والمصادفة ،، الخ فماذا يكون موقف " احرار الفكر العلميين " منه ، ؟

يقول " ليكونت دى نوى " :

"لا يشعر اللادريون والملحدون بشيء من القلق لكون عالمنا المضى (المضوى) الحى لا يمكن فهمه بدون افتراض الله ، ويظهر بايمانهم بعض العناصر الطبيعية التى لا يعرفون عنها الا النزر اليسير بمظهر ايمان لا عقلى ، وهم يشعرون بذلك ، وقد ظل بعضهم عبيدا للغظية ساذجة وقد بدا لى البرهان على ذلك فى رسالة تلقيتها بعد نشر أحد مؤلفاتى يوجه اليّ صاحبها اشد اللوم لاننى

---

(١٠) ٢/٦ : ١ ص ٢١

(١١) الفضاء الخارجى والانسان : ٢٥

(١٢) فن البحث العلمى و ١٠ ب بفردج ٤٩ .

استعضت عن كلمة " مضاد للمصادفة " وهى مُرضية فى نظره بكلمة "الله " التى يجب ان تنسخ من المعاجم ويمنع استعمالها . " . " ويدل الاعتراض الوارد فى الرسالة المذكورة على ان عدم التسامح المنتشر فى القرون الوسطى لم يمت مع انه انتقل الى المعسكر الثانى . ولحسن الطالع لا يتمتع راسلى بالسلطة الكافية لفرض اعتقاداته الصبيانية على مواطنيه باسم العقل ويمكن التنبه ايضا من ان بعض "احرار الفكر " ينظرون الى الحرية نظرة تشبه نظرة الدكتاتوريين " (١٣)

وحين راى انصار "المنهج العلمى " ان الذى يدعو الباحثين الى الايمان بالله ونسبة الافعال الكونية اليه هو ما يرونه فى الكون من دقة وحكمة واتقان تدل بوضوح على ان له غاية محددة وهدفا مقصودا مما يدعم الايمان بالله ـ لما راوا ذلك ـ بحثوا عن اجدى السبل للحيلولة دون الوصول الى هذه النتيجة فلم يجدوا الا القول المتعصب المتحكم بان الوجود ليس له غاية اصلا . وان القول بذلك ينافى فن البحث العلمى . وقد عبر بعضهم عن ذلك قائلا : " ان العلماء يجب ان يتساءلوا عن "الكيفية " لا عن السبب ان السؤال عن السبب يعنى ان هنالك غرضا عاقلا وراء تصميم الاشياء وان عوامل فوق طبيعية توجه الافعال نحو غايات معينة . وهذه هى وجهة النظر "الغائية " وهى وجهة نظر يرفضها العلم الحالى الذى يجاهد فى فهم طريقة عمل جميع الظواهر الطبيعية وقد اشار فون بروكه الى ذلك ذات مرة قائلا :

" ان الغائية سيدة لا يقدر اى عالم بيولوجى ان يحيا بدونها ومع ذلك فهو يخجل ان يظهر بصحبتها امام الناس " (١٤)

الى هذا الحد بلغت مصادمة الفطرة وبلغ ارهاب اعداء الدين لمن يسايرها وهو ارهاب معنوى يقوم بالدور نفسه الذى كانت السلطات الكهنوتية تمارسه . كما ان لاحرار الفكر طغيانهم الفكرى الذى يضارع طغيان الكنيسة . وكيف لا يكون كذلك وهو انما نشأ رد فعل له ؟ فحين تفرض الكنيسة بالقوة ان يؤمن الانسان بالثالوث

---

(١٣) مصير الانسان : ٢٧٥ / ٢٧٧
(١٤) فن البحث العلمى : ١٠٧ ـ ١٠٨

رغم انفه ، كذلك يوجب هؤلاء ان يكون الانسان ملحدا رغم انفه والفرق بينهما هو مصدر الارغام فقط .

يقول وليم جيمس :

"لا يزال بعض رجال المذهب الوضعي ينادى اليوم قائلا : هناك اله واحد مقدس يقف فى جلاله وعظمته بين انقاض كل اله غيره وكل وثن وهو الحقيقة العلمية وليس له الا امر واحد وقول واحد وهو : أن ليس لكم ان تؤمنوا باله " (١٥)

وعند ما يحرج الباحث العلمى فى مأزق لا يستطيع معه الا أن يقول : "الله " كما فى مسألة نشأة الحياة واصل الكون وامثالها فماذا يصنع ؟ ايساير العقل والفطرة فيصرح بذلك ويعد نفسه مُخلاًّ باسلوب البحث العلمى ومقصرا فى متابعة المنهج العلمى السليم . ام يتوقف عن المسألة نهائيا ؟

ان رواد الفكر الحر " ! قد سبقوا الى حل المعضلة ووضعوا امام الباحث خيارا بين اساليب أحلاها مر . معتقدين انها تؤدى الى المقصود دون اخلال بالمنهج العلمى منها :

١ ـ استعمال صيغة الفعل اللازم واسناده الى ماحقه ان يكون مفعولا فى الاصل . ويظهر ذلك جليا فى اسلوب "جيمس جينز " عند حديثه عن نشأة الحياة الاولى فهو يقول : " الارض مغطاة بالسحب بشكل يسمح بنفاذ ضوء الشمس ويجعل درجة الحرارة ثابتة رغم شدة البرد ليلا ..

اتحد ثانى اكسيد الكربون الموجود فى الهواء مع بخار الماء الذى انبعث من احد الينابيع الحارة بواسطة الشمس ..

نشأ منذلك هلام يتكون من مواد كربوايد راتية امتصت هذه المادة النيتروجين من بعض مركبات النشادر ..

نشأ اول كائن مفترض وهو "البيرثبيون " صادف ان زحف فوقع على جزىء من الطعام فامتصه .

(١٥) العقل والدين : ٩٨

تحول هذا الكائن الى "الهروتوزون" وهو ادنى الحيوانات الموجودة" (١٦)

وكقول "اپارين" :

نشأت الحياة على الارض من تطور المادة غير العضوية نتيجة لسلسلة من التفاعلات الكيمائية" (١٧)

٢ ـ استعمال كلمة "الطبيعة" ذلك المعبود الذى اشرنا الى ظروف تأليهه سابقا . وذلك كالعبارة المشهورة عن داروين "الطبيعة تخلق كل شيء ولا حد لقدرتها على الخلق" .

وكقول هيكل (صاحب نظرية الأثير) :

"الطبيعة تحتوى فى ذاتها على كل القوى المطلوبة لاحداث جميع صور الوجود فيها والانواع ينشأ بعضها من بعض بالتحول طبقا لقوانين وتبعا لترتيب فى الامكان منذ الان تحديده ... فلا شيء فى الطبيعة لا يفسر بالطبيعة ولا شيء تقدم على الطبيعة ولا شيء يسمو عليها . فالطبيعة عند من يعرف قوانينها وخاصة الانتخاب الطبيعى والتطور هى ذاتها التى خلقت نفسها" (١٨)

وهذا الاسلوب اكثر الاساليب استعمالا وهو الذى امتلأت به الكتب "العلمية" وتوء ثره المناهج الدراسية على كافة المستويات .

٣ ـ استعمال صيغة الفعل المبنى للمجهول للتخلص من نسبة الفعل الى فاعل ما : وذلك كما فى قول "جوليان هكسلى" :

"توجد مجموعات لاحصر لها من الظروف المختلفة والتى يمكن ان تتلاءم معها الحياة" . وقوله : "الطريقة المتقنة التى خلق بها الانسان وتركيبه الطبيعى يمكن ان تدرك فقط بوضوح بالنسبة لهيئته" (١٩)

---

(١٦) تاريخ العالم ١/ ٩٤ ـ ٩٥

(١٧) سلسلة تراث الانسانية ٢/ ١٧٤

(١٨) العلم والدين فى الفلسفة المعاصرة (اميل بوترو) : ١٠٥ ـ ١٠٦

(١٩) العلم اسراره وخفاياه : ٥٧٠ ـ ٥٧٨ .

٤ ـ استعمالات اخرى هى اشبه ماتكون بصفات غير صحيحة لله تعالى مثل الاصطلاح الذى اطلقه " ادنكتون " : " مضاد للمصادفة " (٢٠) ومعلوم ان المضاد لها هو الحكمة والتدبير •

هذا وليست معضلة اصل الحياة هى المشكلة الوحيدة التى تواجه " المفكرين الاحرار " ولكنها من اكثر المشاكل اثارة للتخبط والاضطراب بينهم • وهى تصلح نموذجا للمنهج اللاديني الذى يأبى التسليم بأية قوة غير مادية لاتنتظم مع آليته الجامدة •

لقد كانت النظرية السائدة فى القرن التاسع عشر هى نظرية " التولد الذاتى " التى اشتهر بها " اغاسيز " ومؤيدوه • وظل الماديون متشبثين بها باصرار وعناد فى مقابل القائلين بالخلق الالهى حتى انهارت وتقوضت دعائمها على يد " باستور " بعد سلسلة من المشادات والتجارب تؤلف قصة رائعة (٢١) •

حينئذ لم يجد الملاحدة ما يسترون به عورتهم الا نسيجا مهلهلا اسموه " نظرية المصادفة " وكان أشهر ابطال النظرية من انجلترا امثال " جيمس جينز " و " برتر اند رسل " ـ ولاتزال حاليا ـ اوسع النظريات انتشارا بين علماء الاحياء المعاصرين لاسيما فى امريكا •

ولكن هذه النظرية اثارت من علامات الاستفهام ماجعلها عرضة للنقد والتشهير • وتوالت البحوث المضادة لها حتى استطاع العالم السويسرى الشهير " شارل اوجين جى " ان يسدد اليها ضربة قاضية فى منتصف هذا القرن. فقد اثبت بالاساليب الرياضية التى لامراء فيها ان هذه النظرية غير علمية على الاطلاق وان حجم الكون الذى يمكن ان تنشأ فيه أدنى درجة من الحياة بطريق المصادفة هو اكبر من حجم كوننا حسب تقدير " البرت آينشتاين " بأرقام لا يمكن التعبير عنها بالالفاظ •

---

(٢٠) مصير الانسان : ٧١.

(٢١) انظر فصل " باستور " مواقف حاسمة فى تاريخ العلم : جيمس • ب • كونانت •

(كرة نصف قطرها = ١٠ أس ٨٢ سنة ضوئية)[(٢٢)]

وبذلك وقع الماديون فى مأزق جديد اشد حرجا • وكان المفروض ان ينتقلوا الى الاحتمال الحقيقى وهو الخلق الالهى • لكن الغرور والتعصب جعلهم ينتكسون مرة ثانية الى القول بنظرية التولد الذاتى مع محاولات يائسة وتفسيرات جديدة للخروج من التناقض الذى يقعون فيه نتيجة إيمانهم اليهما ثبت بطلانه بالاس •

ولنأخذ مثلا لهذا التفكير المنتكس رجلين احدهما من كبار العلماء الحياة فى الغرب • والاخر رئيس الاكاديمية العلمية السوفيتية •

اما الاول فهو " جورج والد " وقد اسهب فى الحديث عن نظرية التولد الذاتى وفصل القول فى قصة تهافتها وانهيارها لكنه عاد ليقول :

ونحن ننتقل الى المبتدئين فى علم الاحياء هذه القصة لتمثل انتصار العقل على الاعتقاد • وهى تمثل فى الحقيقة عكس ذلك تقريبا • فالنظرة الصائبة هى الاعتقاد فى التولد الذاتى والبديل الاخر الوحيد لها هو الاعتقاد فى الخلق الخارق للطبيعة الذى يعد حدثا فريدا واساسيا •ولا يوجد بديل ثالث لهما

ولهذا السبب فقد اعتبر كثيرون من المشتغلين بالعلوم منذ قرن مضى عقيدة التولد الذاتى كضرورة فلسفية.وإن من اعراض عجزنا الفلسفى حاليا ان هذه الضرورة فقدت تقديرها •

" ورغم ان احداث المشتغلين بعلم الاحياء قد اثلج صدورهم انهيار عقيدة التولد الذاتى فانهم ليسوا على استعداد لتقبل العقيدة البديلة لها وهى الخلق الخاص ومن ثم فقد فقدوا جميع الاحتمالات • " !

وانى لاعتقد انه ليس ثمة اختيار امام المشتغل بالعلوم سوى ان يتفهم اصل الحياة عن طريق فرض التولد الذاتى ، ويبدو التعارض فيما بديناه سابقا فقط فى الاعتقاد ان المقتضيات الحية تبعث تلقائيا فى الظروف الحالية ومن ثم فلابد لنا من مواجهة مشكلة مختلفة نوعا ما وهى كيف يمكن ان تبعث الكائنات تلقائيا فى الظروف

---

(٢٢) اى ١٠ امامها ٨٢ صفرا • انظر مصير الانسان : ٦٥ — ٦٦ وانظر كذلك العلم يدعو للايمان : كريس موريسون والله يتجلى فى عصر العلم : مجموعة من العلماء •

المختلفة في فترة غابرة وتعجز بعد ذلك عن ابداء هذه القدرة " (٢٣)

ورأى والد " انه لو استطاع العلم ان ينتج في المعمل مادة حية من ابسط المواد تركيبا وهي مادة " D.N.E " فإن معضلة النشوء الذاتي ستحل وسترتقي الفرضية الى درجة الحقيقة العلمية •

واخيرا •• وبعد ان اجهد نفسه في بحوث عقيمة حول ذلك اعترف بعجزه بمرارة ولكنه لم يثب الى رشده بل اخذ يمني نفسه ويعلل المتطلعين الى نتائج هذه التجارب بان النشوء الذاتي ممكن علميا ولكن للاجيال القادمة ؟ وبشرط واحد فقط : هو ان تكون التجربة على غير هذا الكوكب ! فهو يقول :

" اذا عجزنا عن تحقيق ما تمناه فليس معناه اننا فقدنا كل شيء ، فسلالتنا البشرية سوف تحاول مرة اخرى في غير هذا المكان " (٢٤)

والنتيجة نفسها تكررت مع الشاهد الاخر " اوبارين " فقد كلفه " ستالين " ان يثبت علميا بان الحياة نشأت تلقائيا من المادة ليدعم بذلك العقيدة الرسمية للدولة • وفعلا امضى اوبارين واعضاء اكاديميته (٢٠) عاما في محاولات دائبة غير مجدية •الا انه في سنة ١٩٥٥ قال :

" ان النجاح الذي حققته علوم البيولوجيا السوفيتية حديثا يؤيد " الوعد " بان مسألة خلق كائنات حية بسيطة بطرق صناعية ليس ممكنا فحسب بل سيتحقق عما قريب " •

وظل الناس يترقبون هذا الوعد ومات ستالين قبل ان تقر عينه بتحقيقه وفي سنة ١٩٥٩ في المؤتمر الدولي للبحار بنيويورك لم يفاجئ اوبارين العلماء بقوله :

" ان جميع المحاولات التي اجريت لتوليد الحياة من مواد غير عضوية سواء تحت ظروف طبيعية او في المعمل قد باءت بالفشل " (٢٥)

---

(٢٣) العلم اسراره وخفاياه : ٣٠٤
(٢٤) المصدر السابق ٣١٨
(٢٥) سلسلة تراث الانسانية ٢/ ١٨٠ •

وبالرغم من هذه الخيبة فلم يرعوعن غيه ويؤمن بالخلق الالهى ، بل وعد وعدا اخر بان فى الامكان توليد الحياة بشرط ان تكون المحاولة على كوكب غير الارض وذلك نظرا لان ظروف الارض الحالية لم تعد مهيأة لذلك " (٢٦) .

ومعنى كلام هذين العالميين !! " : ان على المرء ان يؤمن بنظرية التولد الذاتى رغم انفسه ، فاذا ساوره الشك فى صحتها ورغب التاكد من ذلك فما عليه الا ان يحزم امتعته ويستعد للقيام برحلة فضاء فى اعماق الكون حتى يصادف كوكبا تشابه ظروفه ظروف الارض عند نشوء الحياة الاولى عليها، او ينتظر حتى تاتى الاجيال القادمة وتقوم بهذه الرحلة . وحينئذ سيتاكد لديه تماما ان نظرية الخلق الالهى نظرية رجعية وان نظرية التولد الذاتى نظرية علمية صحيحة ١٠٠ ٪ !! .

على ان هناك حقيقة كبرى غابت عن ذهن العالمين العبقريين وهى انهما لو استطاعا ـ فرضا ـ تحضير مادة حية فى المعمل من المواد غير العضوية لما قالا ان شيئا من المصادفة او النشوء الذاتى او الطبيعة هو الذى أنشأها بل سيقولان بتبجح ان ذلك نتيجة جهودنا وثمرة بحوثنا الدائبة .

ولعل مسألة اصل الحياة تلقى الضوء على الاسلوب الذى ينتهجه الماديون والمنهج الذى يطبقه الباحثون اللادينيون فى ميدان العلم والبحث وهو المنهج الذى يفرض على اتباعه الانسلاخ والتجرد عن كل موحى من موحيات الدين مهما أيدها العلم وهتفت لها الفطرة ويلجئهم الى الهروب من الايمان بالله وان ادى بهم ذلك الى ارتكاب حماقات لا تليق بالقابهم العلمية المريضة .

واذا كان علم القرن العشرين فى اوربا عامة يرفض التحالف مع الدين فان للعلم داخل الستار الحديدى وضعا اشد تطرفا واسوأ استخداما .. ففى الوقت الذى يرفع فيه علماء الغرب الديمقراطى شعار "العلم للعلم" نجد العلماء السوفيت يرفعون شعار "العلم للعقيدة" وفى اوقات اكثر صراحة يقولون "العلم للحزب". وقد صرح احد علماء روسيا قائلا :

---

(٢٦) انظر : الله جل جلاله ـ سعيد حوى : ٥٧

" العلم السوفيتي انما هو علم حزبي ، علم طبقي " ، واخذ يندد بما عدا ذلك من الشعارات معلنا ان ما يقال عن دولية العلم وكليته كلام فارغ تستخدمه الطبقة البرجوازية ومن يصوغون لها مذاهبها .

ويقول رئيس اكاديمية العلوم السوفيتية سنة ١٩٢٩ :

" ان الفيزياء السوفيتيه كالعلم السوفيتي دخلا في حياة الدولة منذ زمن بعيد ووجها كل قواهما الى خدمة بلدنا هذا لاستيفاء كل الحاجات اللازمة لبناء مجتمع شيوعي .

"والفيزياء الشيوعية تبنى عماها على ما اعتنق العالم من المادية المنطقية تلك التى رفع من امرها تاليف لينين وستالين وهى تآليف امدتهما العبقرية فيهما بروح منها " (٢٦) .

والعجيب فى امر علماء الشيوعية ـ وكل امرها عجب ـ ان نتائج بحوثهم معروفة لهم سلفا . فمن المحال ان يخرج اى كشف من كشوفهم عن الدائرة التى رسمها لهم الحزب الشيوعى او يصادم أى رأى من آراء ماركس وانجلز العلمية بالرغم من ان اقصى ما وصل اليه عصرهما من علوم لا يساوى شيئا اذا قورن بالمستوى الحالى فى كل الميادين . ولا يستثنى من ذلك الا التنقيحات والتعديلات التى اجريت رسميا على يد لينين وستالين .

ولذلك فان هذا الجمود الاعمى كان ولا يزال محط نقد وتشهير كثير من المفكرين الشيوعيين لاسيما من كانوا خارج الستار الحديدى . وقد سمى " روجيه غارودى " هذا النوع من العبودية الفكرية مرة " المعتقدية " ومرة "الافكار اللاهوتية " يقول غارودى :

" وهكذا قبلنا فى حماس ـ حتى دون ان تفرض علينا ـ بالمعتقدية الستالينية وكانت هذه الستالينية مركزة كلها فى عشرين صفحة خاطفة يفترض انها تضم خلاصة كتب الحكمة الفلسفية ، وكما كانت هناك (كتب) تعلمك "اللاتينية بلا دموع " واخرى تعلمك "اليونانية وانت تضحك " كانت هذه الصفحات

---

(٢٦) هو وماقبله : مواقف حاسمة فى تاريخ العلم : ٤٨٩ ـ ٤٩٠ .

تضع الفلسفة فى متناول الجميع وفى ثلاثة دروس :
الدرس الاول : فى الامور العامة (الانطولوجيا) مبادىء المادية الثلاثة .
الدرس الثانى : فى المنطق : قوانين الجدلية الاربعة .
الدرس الثالث : فى فلسفة التاريخ : المراحل الخمس لصراع الطبقات .

وطوال العهد الذى سيطر عليه هذا الاسلوب من التفكير لم يكن هناك من فلسفة ماركسية . بل هذر " مدرسوى " (٢٧) يزعم ان عنده الجواب على كل الامور دون ان يعرف طبيعتها من علم الحياة الى فلسفة الجمال مرورا بالزراعة والكيمياء " (٢٨)

وكان ستالين يفرض على العلماء نتائج معينة يجب عليهم الكدح الدائب لاثباتها علميا كما سبق فى مسألة اصل الحياة . كما ان موضوع قوانين الوراثة يعتبر مما يثير السخرية البالغة . فالعقيدة الماركسية تنكر بشدة ان يكون للعوامل الوراثية من الاثر مايزعمه علماء الوراثة البورجوازيين فى الغرب. لان ذلك يضعف قيمة العامل الاقتصادى البيئى الذى هو كل شىء فى نظرها لذلك فان ستالين حسب تعبير " رسل " قد تمادى حتى أصدر قرارا بان قوانين الوراثة الطبيعية يجب ان تصير من الان فصاعدا مغايرة لماكانت عليه وان على الخلايا ناقلات الوراثة ان تنصاع للقرارات السوفيتية لا لذلك القس الرجعى " مندل " . (٢٩)

وقد اوضح ـ ارثر كُستلر ـ العضو السابق للحزب الشيوعى ـ المآسى التى يتعرض لها العلماء السوفيت الذين تقودهم تجاربهم الى نتائج مغايرة لسياسة الحزب الرسمية مهما كان مجال عملهم علميا بحتا كالكيمياء والفيزياء . فمابالك بمن يوصله بحثه الى شىء من الايمان بالله او الدين ؟

---

(٢٧) الفلسفة المدرسية هى فلسفة القرون الوسطى الاوربية .
(٢٨) ماركسية القرن العشرين : ٣٤ ، ٣٥
(٢٩) العقل والمادة ٣٠٥ ـ ٣٠٦ ومندل هو مكتشف قانون الوراثة فى القرن الماضى .

ان مثل هذا الشقى سيتلقى جزاءا رادعا ، ولا يشفع له ما امضاه من سني عمره فى خدمة الحزب الشيوعى (٣٠) .

ونستطيع ان نقول إن طبيعة المنهج اللاديني فى العلم والبحث تفرضها فى الغرب الرأسمالى دوافع نفسية وعوامل تاريخية موروثة بينما تفرضها فى الشرق ـ بالاضافة الى ذلك ـ القوة الارهابية للبوليس السرى .

(٣٠) انظر الصنم الذى هوى : ٧٦ ، وكذلك مواقف حاسمة فى تاريخ العلم : ٤٩٠ فصاعدا .

أثر الفصل بين العلم والدين فى المجتمع المعاصر

عند ما انتصر العلم الحديث على خرافات الكنيسة واساطير القرون الوسطى الاوربية وهدم اساليب البحث وطرق الاستنباط المدرسية التقليدية كان ذلك بلا ريب نصرا كبيرا للانسانية فى كل مكان وفتحا جديدا فى عالم المعرفة والنور.

لكن هذا النصر والفتح اختفيا تحت ركام الاستغلال الهشع لما انجزه الانسان من تقدم فى المعرفة استخدم للقضاء على الدين ذاته وذلك اسمه باسم "العلم" :

لقد صورت المعركة التاريخية بين العلم وبين الخرافة على أنها معركة حقيقية بين الدين والعلم ، ونتيجة لذلك اشتعلت عداوة ابدية بين خصمين لم ينشب بينهما شجار على الاطلاق ولايمكن ان يكون بينهما خصام فى وضع سوى على الاطلاق .

وأيا ماكان الامر فقد نجح المغرضون والهدامون – من الموتورين بطغيان الكنيسة واعداء الجنس البشرى والمتربصين – فى اختلاق هذا الخصام النكد وزحزحت حقائق وقيم الدين من ميدان العلم والبحث ، وظل العلم يمارس عمله متخبطا فى دائرة مغلقة لاعلاقة لها بدين او خلق ولاتهدف الى غاية اسمى ومثل اعلى فماذا كانت النتيجة .؟

ان بعض المنتسبين للعلم يعتقدون عن طيب خاطر .. انهم قد احسنوا صنعا بعزل العلم عن الدين وان اشفاقهم على الدين من مواجهة العلم هو الذى دفعهم الى المناداة بالفصل التام بينهما ، وهى دعوى نجد اذانا مصغية لدى بعض المنتسبين الى الدين كذلك .

ولكن الواقع المحسوس فى أوربا يكذب هذه الدعوى فوق انها فى الاصل تنمّ عن الجهل بالدين اكثر مما تدل على الحرص عليه . ولقد كان " بوترو " على حق حين قال ناقدا هذا الاتجاه فى القرن الماضى :

" لم يعرف العلم ولا الدين ان يقصر كفايته وعمله على ماله من ميدان فسيح اما الحكمة الجارية " اعط مالقيصر لقيصر وما لله لله " فقد فسرت فى ذلك الوقت لا على أن الملكات الدينية في الانسان ليس لها شأن بملكاته العلمية فقط (١) بل على انه يوجد فى الاشياء نفسها عالمان هما الفكر والمادة . الميدان الروحى والميدان الزمنى وليس لاحدهما ان يتدخل فى شان الآخر باى وجه من الوجوه . ولكن هذا الفرض اذا كان توفيقا مريحا فليس هو الحقيقة الواقعة بل يكاد يكون عكس هذا (هو) الواقع " (٢)

ان اصحاب هذا الاتجاه قد ارتكبوا غلطة كبرى ـ وهى من الغلطات الرئيسية للجاهلية المعاصرة ـ وذلك بتوهمهم ان النفس البشرية تقبل التجزئة ويمكن ان يكون لكل جزء منها دائرته الخاصة . لقد كان اول ثمار هذا الفصل ان فشى الالحاد بشكل لم يعرف التاريخ له مثيلا . وقوضت دعائم الدين واجتثت تصوراته وايحاءاته الاخلاقية باسم العلم والمعرفة وطبقت اوربا عمليا النصيحة التى اسداها هيكل وهى ان " التعليم اعظم عمل يقوم به المجتمع الذى يرغب فى التخلص من الاديان " (٣)

فكان ان جردت المناهج التعليمية وكذلك البحوث والدراسات العامة من كل معنى دينى واصبحت علمانية بحته . ووضع التناقض النفسى الشابّ المثقف امام خيار صعب بين الايمان بالله مع وصمة الرجعية والجمود وبين الالحاد المقرون بالتنور وحرية الفكر واختارت الاغلبية الساحقة الالحاد فرارا من التهم الملصقة بالمؤمنين وتمشيا مع " التطور والعصرية " . يقول جود :

"لا استطيع ان أعد اكثر من ستة من معارفى ممن أعدهم مؤمنين بالمسيح والمسيحية فى حين استطيع ان اعد بسهولة اكثر من مئة من معارفى الملحدين ... اصبح من النادر ان تجد مثقفا متدينا .. اصبح الذين يذهبون الى الكنيسة هم فى الاغلب من الطاعنين فى السن او النساء غير المثقفات وهم مع ذلك لا يزيدون على العشر

(١) حتى على هذا التفسير تظل العبارة مرفوضة من وجهة النظر الاسلامية .
(٢) العلم والدين : ٣٨
(٣) المصدر السابق : ١١٤ .

(أى من سكان بريطانيا) (٤) .

وحول ما أسماه كاتبوه " نظرة الناس الى الهتهم فى القرن العشرين " كتب موءلفو " تاريخ البشرية " الذى اصدرته منظمة اليونسكو :

" مع ان يقينيات علم نيوتن فى القرن التاسع عشر قد حلت محلها النسبية العلمية واللا يقين ، فقد زاد تغلغل العلم فى المناطق التى كان يحتلها الدين حين اتجه اصحاب البيولوجيا والكيمياء الى فهم طبيعة الحياة وحين وصل علماء الفلك الى مكتشفات جديدة حول اصول العالم المحتمل ومستقبله . وحين تغلغل علماء النفس فى اغوار الانفعالات وشبه الشعور واكتشفوا منطقة التدين (١) ، وحين ادى تزايد حجم المدن الصناعية باستمرار الى وجود مجتمع غير ملائم دينيا موءثر فى عدد متزايد من سكان العالم .

وفى المناطق التى يسيطر عليها الشيوعيون نشرت المعارف العلمية عن العالم والمجتمع لتكون وسيلة لمحاربة العقائد الدينية واصبح ينظر الى الموءسسات الدينية على انها ستار للاستغلال البورجوازى الذى لامكان له فى المجتمع الحديث " (٥)

والنتيجة التى حدثت فى المجال العلمى التجريبى نفسها حدثت فى مجال الفلسفة النظرية فقد وقع " ديكارت " فى الغلطة نفسها باعتقاده ان الثنائية بين العلم والدين ـ كما حاول ان يحدد فلسفتها ـ ستحول دون انهيار المسيحية وتتيح لكل من الدين والعلم الحرية فى مجاله الخاص ، ولكن آل الامر الى ان تقول الفلسفة الحديثة :

" يتميز موقف الفيلسوف على خلاف موقف الدينى .. بانه موقف تجرد ونظر خالص فهو يرى ان مسألة الله بأسرها من حيث وجوده ومن حيث طبيعته لما هى مسألة مفتوحة تماما . فالفلسفة لاتعرف " امورا مقدسة " لا يمكن الاقتراب منها والمفكر الميتافيزيقى لايشعر عند معالجته لمفهوم الكائن الاسمى بخشوع يزيد على مايشعر به ازاء أية مسألة اخرى من تلك المسائل القصوى التى يحار لها ذهن الانسان .

---

(٤) الجفوة المفتعلة بين العلم والدين : ١١
(٥) ٦ : ١/٢ ص ٢٩٠ ـ ٢٩١ .

وان من اول مايتعلمه دارس الفلسفة ان نفس وجود ميدان الفلسفة هذا بوصفه نشاطا عقليا له دلالته اذ ، يتوقف على حقنا فى مناقشة اية فكرة او اى تصور او اى قيمة او قانون اونشاط أو نظام داخل فى نطاق التجربة البشرية وكما يقال احيانا على سبيل المزاح ، فحتى الله نفسه " ينبغى ان يقدم اوراق اعتماده امام مدخل مدرج الفلسفة " (٦)

وهناك مشكلة اخرى هى فى الواقع امتداد للمشكلة سالفة الذكر وهى " نفى الغائية " التى تبناها العلميون " منهجيا كما سبق تقدمه وانطاقها حتى الف الناس ان يسمعوا منهم ان وجودهم على هذه الارض لاغاية له ولاهدف بل قذف به سير التطور البطىء الطويل صدفة واتفاقا ، او حسب راى هيكل أن " الانسان فى ضوء الفلسفة العلمية لن يكون مركز الكون وغايته بل حلقة فى سلسلة الكائنات كما تتصل الديدان بالاقوريات او الاسماك بالديدان وليس امتياز الانسان الا حالة من التقدم الاستثنائى الذى امتازت به القوريات على انواع جنسها خلال التطور العام " (٧)

وقد عاد ذلك بأسوأ الاثر على الاخلاق والقيم الانسانية التى ظل بنو الانسان محتفظين بها منذ وجدوا على الارض وخرجت فى اوربا اجيال آمنت بالعبثية والعدمية والفوضوية والوجودية واضرابها من اشكال الفلسفات العابثة التائهة وعمت موجة غريبة طاغية من التبرم والضيق بالحياة ومحاولة الهروب من السير فى جادتها واصبح التخلص من التفكير فى ذلك هو الغاية الكبرى لكثير من الناس لاسيما ذوو الاحساس المرهف .

وتنغصت حياة الناس بقلق وذعر لايكادون يستبينون مصدريهما واخذت تعصف بهم دوامة من الحيرة والضياع تزداد سعارا كلما تذكروا ان وجودهم فى هذه الدنيا لايزيد هدفا وحكمة عن وجود ادنى الديدان واحط الحشرات .

---

(٦) الفلسفة انواعها ومشكلاتها : ٣٨ ، ولا يخفى ما فى هذا الهراء من التناقض والسخف اللذين لاداعى لهما الا الغرور الكاذب والجرأة الوقحة .
(٧) العلم والدين : ١٠٥

ونتج عن ذلك ـ مما نتج ـ ان استهان الفرد بنفسه وفقدت حياته معناها وقيمتها فاصبح الانتحار بوسائله المتعددة امرا مالوفا . بل اصبحت المسابقات والمباريات الفردية والجماعية تعتمد بالدرجة الاولى على المخاطرة والزج بالنفس في الاهوال واستاثرت مناظر العنف باهتمام الناس سواء اكانت على الطبيعة ام في وسائل الاعلام .

وقد ضج كثير من الباحثين المشفقين لهذه الماسي المروعة وعلى راسهم الدكتور اليكسيس كاريل وتلميذه ليكونت دي نوى الذى الف حول هذا الموضوع كتابه الشهير " مصير الانسان " وهذه بعض اقواله في مقدمته :

" كان نمو الجهة المادية من الحضارة ابتداء من منتصف القرن التاسع عشر قد اثار اهتمام البشر وجعلهم ينتظرون بشيء من القلق ما يتمخض عنه الغد من معجزة فلم يبق لهم الوقت الكافي للاهتمام بالمشاكل الحقيقية اعني المشاكل الانسانية ، وقد تعاقبت الاكتشافات الرائعة المدهشة بدون انقطاع منذ سنة ١٨٨٠ الى سنة ١٩١٥ فبهرت عقول الناس كما يبهر اول مشهد من السيرك عقول الاطفال وانستهم الماكل والمشرب، وقد اصبح هذا المشهد الجسيم رمزا للواقع وصرف النظر عن القيم الحقيقية وقد طمسها نور الكوكب الجديد .. لقد شعر الكثيرون بالخطر المحدق وانذروا به غير ان احدا لم يصغ اليهم ، لان معبودا جديدا غريبا كان قد ولد ولان عبادة جديدة قد طغت على الشعب هي عبادة المستحدث " .

" وكان من الطبيعي ان يتحول تدريجيا الاحترام الذى كان يستأثر به الكهنة دون سواهم ، الى اولئك الذين افلحوا في تسخير قوى الطبيعة وكشف بعض اسرارها وهكذا انتشرت المادية ويا للاسف ليس بين العلماء فحسب بل بين الشعب ايضا " .

" ان القلق المصرى ناتج على الاخص عن أن الذكاء حرم الانسان كل مبرر لوجوده بأن قوض باسم علم لا يزال في المهد اسس التعاليم التى ظلت حتى اليوم تعطى الحياة الفردية معنى الجهاد وتشير الى هدف سام يجب بلوغه وهي الاديان " .

" ان نكران حرية الارادة ونكران التبعية الخلقية واعتبار الانسان مجرد وحدة

فيزيائية كيماوية وجزءا من مادة حية قل ان تتميز عن الحياة . كل هذا يؤدي حتما ، الى موت الانسان الخلقي وخنق كل روحانية وكل أمل فيه ويؤدي الى ذلك الشعور الرهيب الموهن بالبطلان الكامل .

" والواقع ان مايميز الانسان كإنسان هو وجود الفكرة المجردة والخلقية الروحية فيه ، وهو ان فخر فانما يفخر بها ، وحقيقة وجودها لاتقل عن حقيقة وجود الجسد وهي التي تعطي الجسد قيمة لايحصل عليها بدونها " (٨) .

ومن جهة اخرى كتب مؤلفو " تاريخ البشرية " المشار اليه سلفا يقولون :

" ان سيطرة الانسان على الطبيعة قد كانت من اسباب زلزلة يقينه فيما يتعلق بغاية الحياة الانسانية ، ذلك ان الانسان راضيا بماكتب له وبأن مصيره محدد بقوانين اخلاقية عليا من عند الله فكان يشعر بانه يخدم غرضا ساميا اذا هو سار على هدى الاخلاق الكريمة . وهكذا نرى ان ارتفاع مكان الانسان في مواجهة الطبيعة قد اعطاه احساسا كبيرا بقوته الخاصة ولكنه لم يمنحه الضوابط الاخلاقية لحسن استخدام هذه القوة . ولما كان كل اكتشاف او اختراع جديد ياتي معه باخطاء كبيرة تحدق بالانسان فقد انتابت الانسان الشكوك حول نتائج ما احرز من سيطرة على الطبيعة فالطاقة الذرية قد فتحت للانسان امالا كبرى وكانما قد فتحت له فردوسا جديدا لم يكن يخطر له على بال . ولكن ظهرت بظهورها اخطار كثيرة ـ غير امكانية استخدامها عمدا لاغراض التدمير والخراب .

" وقد اخذ الناس يتساءلون : ترى هل حياتهم لها غاية ؟ ام ان البشرية انما تسير الى الامام بلا تبصر يدفعها الى الحركة ذكاؤها القلق الذي لايستقر على حال ؟ وماهي واجبات الانسان نحو اخوته من البشر ؟ ماهي المبادئ الاخلاقية التي تستطيع ان تهدي الانسان الى خير السبل لاستخدام مقدراته الجديدة كيف يستطيع مع استخدام هذه القدرات ان يختار السبيل المؤدي الى خير البشر ؟ " (٩)

---

(٨) مقتطفات من ٩ ـ ١٧

(٩) ٢/٦ : ١ ص ٢٢

وكان من الاثار السيئة ـ كذلك ـ لفصل العلم عن الدين ذلك التخبط المزعج الذى وقع فيه من يسمون علماء خصوصا فيما يتعلق بالشؤون التى لا يستطيع الادراك البشرى منفردا ان يسبر اغوارها .

فمثلا تعددت النظريات حول نشأة الكون الى درجة تجعل اى مطلع عليها يشك فيها كلها ، ومع ذلك فوجهات النظر فيها اقل اختلافا منها فيما يتعلق بالنفس البشرية وسلوك الانسان وانفعالاته وشعوره وحريته وارادته ففى الغرب اليوم عشرات المدارس النفسية ومئات الاتجاهات الفلسفية ، كل منها يفسر الانسان تفسيرا خاصا ، ويعالجه من وجهة نظر مغايرة ويكفى شواهد على ذلك التحليلية والسلوكية والروحية والعبثية والوجودية والبراجماتية .. و ..الخ .

وكذلك الشأن فيما يتعلق بالبحوث والدراسات الاجتماعية فهناك عشرات من المدارس الكبيرة ينضوى تحتها مالا يحصى من الاتجاهات الاقل شانا ومن اشهرها : المدرسة الاجتماعية المتطرفة " دوركايم " والمدرسة النفسية " جبرائيل تارد " والمدرسة العضوية " سبنسر " والمدرسة الآلية " باركلى ، سيمون " والمدرسة الحيوانية " الداروينيون " والمدرسة الفوضوية " باكونين " .. وكل مدرسة تلعن أختها " (١٠)

اما الاضطراب حول " الذات الالهية " فأوسع من ان يحصر ، فاضافة الى الذين ينكرون وجود الله ـ تبارك وتعالى ـ نجد من يقترح ان يكون الاثير العام هو الاله الذى يمكن أن يوفق بين العلم وبين عقائد رجال الدين " (١١) . ومن يرى ان الله تعالى هو " المركز الذى تنبع منه العوالم كما تنبع الصواريخ من باقة عظيمة مع مراعاة ان هذا المركز ليس شيئا بل هو انبثاق مستمر او نبع متواصل (١٢) . كما بعثت الفلسفات الصوفية القديمة لاسيما وحدة الوجود ، وغلا بعضهم فزعم انه الانسان هو الاله على الحقيقة ! (١٣) بينما اكتفى اخرون بترديد لفظ " الطبيعة " وغلا فريق منهم فى الشك حتى زعم ان الكون كله وهم لاحقيقة له

---

(١٠) انظر على سبيل المثال : علم الاجتماع ومدراسه د . الخشاب .
(١١) هو آرنست هيكل . العلم والدين . وليم جيمس : ٨٩ .
(١٢) برجسون . سلسلة تراث الانسانية : ٢/٤٤٨ .
(١٣) منهم نيتشه ثم جوليان هكسلى ..

ولا وجود لشيء خارج الذهن وليس هناك حقيقة موضوعية على الاطلاق .(١٤) . ووصل الجنون ببعضهم الى حد ان ادعى انه هو الله ـ تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ـ(١٥) أما الحيارى التائهون فجموع لا تحصى .

وكان من نتيجة النفور الشديد من الدين أن اقحم بعض المنتسبين الى العلم انفسهم فيما لا يقع في دائرة علمهم واخذهم شعور من الغرور الكاذب جعلهم يجزمون بامور لا يملكون عليها اى برهان ويتوقعون للعلم البشرى ان يحيط بعالمي الغيب والشهادة .

يقول " رسل " :

" القول بان الانسان حصيلة اسباب غير مقصودة ! وان اصله ونشأته وآماله ومخاوفه وميوله ومعتقداته هي حاصل التركيبات الذرية العرضية وان لا النار ولا البطولة ولا حدة التفكير والشعور تستطيع ان تحفظ حياة الانسان بعد القبر وان كل جهد الانسان على مر العصور وكل العبادة وكل الالهام وكل العبقرية والانسانية مصيرها الى الزوال عند نهاية النظام الكوني وحطامه . كل هذه الاشياء وان كانت نوعا ما عرضة للنقاش فيها فانها اكيدة بشكل حتى ان ما من أية فلسفة ترفضها يمكن ان تعيش " (١٦) .

ويقول هكسلي :

" انى لا افهم اذا صح وجود حياة اخرى تحياها النفوس كيف لا نستطيع ان نجد سبيلا الى استكشاف هذه الحياة الاخرى . فلا شيء مما يتصل بالانسان يمكن ان يتوارى عمدا عن الانسان " (١٧) .

ويقول هيكل :

" لو اعطيت وقتا ومواد كيماوية لصنعت انسانا " (١٨)

---

(١٤) من هؤلاء جيمس جينز انظر الله يتجلى فى عصر العلم : الفصل الاول .
(١٥) منهم نجنسكى . انظر : اللامنتمى : كولن ولسن : ٤٩
(١٦) ليس بالعلم وحده : ١٣٣ ـ ١٣٤
(١٧) عن الطاقة الروحية : برجنسون : ٢٢
(١٨) عن العلم يدعو للايمان : ١٥٠

وهناك كثير من أمثال هذا الغرور الاحمق الذى ولد بالشعور بان الانسان خصم للخالق ، وان فى امكانه ان يسرق علم كل شيء كما سرق النار المقدسة من قبل والا فلو ان لهؤلاء المسمين علماء ايمانا بالله ـ على الحقيقة ـ لكانوا اكثر الناس خشوعا واعترافا بين يديه . وقد بلغ من غرور علماء الغرب وفرط استكبارهم انه حتى نقاد الحضارة الغربية والمتنبئين لها بالانهيار يطلبون الدواء الناجع والحلول السريعة من العلم نفسه ويهيبون بالعلماء الى دراسة مستقبل الجنس البشرى والعمل على انقاذه ، ويطالبون بعقد مؤتمرات دولية لبحث هذه الشؤون . وهكذا تتخبط اوربا وتحار ، ومنهج الله ميسر قريب ! .

بقى أن نشير الى نتيجة أخرى ـ من نتائج فصل العلم عن الدين ـ وهى فى نظر عامة الغربيين اكثر النتائج سوءا مع انها فى نظرنا عرض للمرض وليست هى المرض ذاته ، وهى مشكلة سوء استخدام العلم المتمثل فى الدمار الذى يهدد البشر بتصباح مساء نتيجة الكشوف فى ميدان الذرة والحرب عموما . يقول احد الباحثين فى كتاب "العلم اسراره وخفاياه" :

" ان العلم يواجه ورطة شديدة فالعلم هو البحث عن الحقيقة ، واساس العلم العقيدة الراسخة بان الحقيقة تستحق الاكتشاف وان البحث عنها انما ينبع من اشرف صفة من صفات الروح الانسانية ومع ذلك فهذا البحث عن الحقيقة هو نفسه الذى جعل حضارتنا تقترب من حافة هاوية الدمار . وعندما تواجه الان السخرية التى تحولت الى مأساة ، وهى اننا كلما نجحنا فى توسيع افاق معرفتنا كان ذلك نذيرا بقرب الخطر الذى يهدد بالقضاء المبرم على الحياة البشرية على هذا الكوكب . فهذا السعى وراء الحقيقة امدنا فى اخر الامر بالادوات التى تمكننا من هدم مجتمعنا بايدينا والقضاء على كل الآمال المشرقة لجنسنا ماعسانا فاعلين فى هذا الموقف ؟ . هل نكبح جماح العلم ام نتمسك بطلب الحقيقة رغم مافى ذلك من تمزيق وتبديد لمجتمعنا". (١٩)

---

(١٩) ٣/ ٧٢٠ ـ ٧٢١ .

اما دى نوى " فقد كاد يضع يده على مكمن الداء اذ قال :

" ان الذكاء بنفسه خطر اذا لم يخضع لادراك حدسى اوعقلى للقيم الخلقية وهو لم يفض الى المادية بل الى اعمال فظيعة ، وقد كتب هذا الكتاب قبل اختراع القنبلة الذرية التى تبين ما نقول بطريقة واضحة . وفهم الجمهور ان انتصارا فائقا للعلم تحدى الطمأنينة الانسانية باسرها ، وحينئذ فهمت الامم المدعوة متحضرة ان الاتحاد الخلقى وحده يقدر ان يدفع عنها هذا التهديد وكان الوقت قصيرا فلم نجد سبيلا الى الحماية الا بواسطة اتفاقات خطية ويعلم الكل انه لا قيمة للاتفاقات ولا ثقة بها الا بالنسبة الى الانسان الذى يذيلها بتوقيعه ، واذا لم يكن هذا الانسان مستقيما مخلصا واذا لم يكن يمثل شعبا يحترم كلمته فلا تعنى شيئا على الاطلاق .

" ولاول مرة فى تاريخ الانسان أصبح النزاع بين الذكاء الصرف والقيم الخلقية قضية حياة او موت . وكل ما نأمله هو ان تستفيد الانسانية من هذه الامثولة لكننا لسوء الحظ لسنا واثقين من ذلك " (٢٠)

هذا قليل من كثير من النتائج السيئة التى جلبها الصراع المشؤوم بين دين اوربا وعلمها ودفع اليها التعصب المقيت من قبل دعاة اللادينية فى مجال مفروض فيه أن يكون اعظم طريق الى الله واقوى دافع الى خشيته .

ولعل هذا العرض الموجز يعطينا الدليل القاطع على ان للفصل بين العلم والدين فى اوربا ظروفه واسبابه الخاصة ، ويقدم لنا شاهدا اخر ـ بالاضافة الى شواهد كثيرة ـ على ان الجاهلية المعاصرة مهما تمسحت بالعلم والعقلانية ـ انما تتحكم فيها ردود الفعل المتطرفة جيئة وذهابا دون ان تطعم ـ ولو مرة واحدة ـ لذة الهدوء والاستقرار .

* * *

---

(٢٠) مصير الانسان : ٢٢٦ ـ ٢٢٧ .

الباب الثالث

((الفصل الرابع))

علمانية الاجتماع والأخلاق

* مقـدمــة *

مجتمع القرون الوسطى وأخلاقهـا

كانت أوربا القرون الوسطى تعيش حالة من الهمجية والانحطاط لا يكاد يضارعها فيها أى جزء من العالم آنذاك، لاسيما القرون الثلاثة الاولى التى اصطلح مؤرخو الغرب على تسميتها " العصور المظلمة " وان كان يطلق أحيانا على القرون الوسطى كلها العصور المظلمة تلك التى امتدت قرابة عشرة قرون . (١)

كان التفسخ الاجتماعى والتدهور الاخلاقى يسيطران على حياة اوربا القاتمة ابتداء من غزو النورمانديين البرابرة لجنوب اوربا وسقوط ايطاليا ـ خاصة ـ فى ايديهم . لكن التاريخ مهما أسهب فى وصف التدنى الاجتماعى والاخلاقى لتلك الفترة لا يستطيع أن ينزع منها صفة " البشرية " فهى مهما بلغ انحطاطها لا تصل الى القاع الحيوانى الذى تنغمس فيه اوربا المعاصرة ، والصورة مختلفة بين مجتمعين احدهما بشرى متخلف والاخر حيوانى هابط !

كان لمجتمع القرون الوسطى قيمه وتقاليده واخلاقه البشرية ، وهى قيم مجردة وتقاليد واخلاق قائمة بذاتها لا تتوقف على سند موضوعى أو عامل خارجى أيا كان ، وبغض النظر عن مقدار مراعاتها وتطبيقها عمليا فانها كانت حقائق مقررة لامراء فيها وكان التمسك بها مدعاة للاعتزاز والخروج عليها مصدرا للاستنكار وجرحا فى الفضيلة والرجولة .

أما حراسة تلك القيم والاخلاق ومحاولة ترسيخها فكانت ملقاة على عاتق الكنيسة ومنوطة بجهود الاباء والرهبان الذين يقدمون النماذج العليا لها . غير

---

(١) انظر الموسوعة الذهبية مادة "العصور المظلمة" .

أن الكنيسة بتحريفها لدين الله وابتداعها ماليس منه اجرمت فى حق نفسها وأتباعها . واسهمت من غير قصد فى هدم الاسس الاخلاقية التى قام عليها مجتمع القرون الوسطى وقام عليها سلطانها العظيم .

وقصة أخلاق الكنيسة تحكى تناقضا صارخا وتباينا عجيبا :

فمن جهة " التصور " اشتطت الكنيسة وغلت فى تصورها للفضيلة والخلق الرفيع ووضعت لها الشروط والمواصفات التى تنوء بالجهد البشرى ولا يستطيع استكمالها ـ عدا الملائكة ـ الا حفنة ضئيلة من البشر تتمتع بمزايا غير عادية ولا يصح ان تتخذ مقياسا لسائر بنى الانسان .

ومن جهة " السلوك " تلطخت سيرة رجال الكنيسة وأعضاء الاديرة برذائل وارجاس يترفع عنها الفرد العادى ويتستر عليها الفاجر البذىء ـ وقد سبق الحديث عن ذلك فى الباب الاول ـ اى انها فى الوقت الذى تحلق فيه تعاليمها فى السماء نجد ان واقعها يتخبط فى الوحل ! . فالعفة ـ مثلا ـ خلق انسانى نبيل فطرت عليه البشرية ودعت اليه الاديان كافة ، لكن الكنيسة بالغت فى تصورها لهذا الخلق حتى حرمت ما احل الله وانكرت ما تلح عليه الفطرة وتدعو اليه الغاية من الوجود الانسانى وذلك بابتداعها " الرهبانية " وتنفيرها الشديد من المرأة لذاتها ، فتعاليمها تقول عن النظر المجرد : " اذا نظرت عينك الى معصية فاقلعها فانه خير لك ان تفقد عضوا من اعضائك من أن يلقى جسدك كله فى النار " (٢) .

وانطلاقا من ذلك حرمت الزواج على رجال الدين معتقدة أن رجل الدين لا يجوز له ان يهبط الى مستوى اخلاق الشعب ويشاركهم فى الاستمتاع الدنس . !

---

(٢) هذا القول وأمثاله مما سيأتى تنسبها الاناجيل للمسيح عليه السلام . ولانستطيع ان ننفى انه لم يقلها قطعا . لكننا نقول انه على فرض صحتها فان المقصود منها الترفع والتسامى وليس التكليف .

هذا من الوجهة النظرية . أما الواقع العملي فشيء مختلف تماما فقد كانت الاديرة مباءات للفجور ومواخير للدعارة وكان للبابوات والقساوسة من العشيقات والخطايا ما لا يكون لدى الملوك الدنيويين . وتولى منصب البابوية عدد من الابناء غير الشرعيين لبعض الاباء والكرادلة (٣) .

والمصيبة ان تلك الحقائق لم تكن خافية على الشعب بل كانت حديث الالسنة ومثار الجدل . والجشع على المال والملذات خلق ذميم ـ ما في ذلك شك ـ ولكن الكنيسة غالت في ذمه وتحريمه والدعوة الى الزهد والتقشف الى درجة انها حرمت المال الحلال وقدست الفقر وحظرت سبل الرفاهية وقالت أناجيلها " مرور جمل من ثقب ابرة أيسر من ان يدخل غني الى ملكوت الله " وفي الوقت نفسه كان رجالها اجشع الناس واغنى الملاك واترف الاغنياء .

والتسامح خلق رفيع ومنقبة عظيمة ـ باتفاق العقول والفطر ـ غير ان الكنيسة بالغت في فرضه حتى اوجبت على اتباعها قبول الذل وتحمل الظلم فقالت : " من لطمك على خدك الايمن فأدر له الايسر ايضا ومن سخرك ميلا فامش معه ميلين . ومن نازعك رداءك فاعطه الاخر " . وقالت " باركوا لاعنيكم وصلوا لاجل الذين يسيئون اليكم "

كل هذا في العقيدة والتصور ولكن الواقع العملي يشهد أن الكنيسة ارتكبت من ألوان الظلم وفظائع الطغيان ما يتورع عنه جبابرة الفاتحين وعتاة المستبدين ولم تعرف رحمة ولا تسامحا حتى مع مخالفيها من اتباعها أو أبناء دينها .

وهكذا الحال في سائر الصفات النبيلة والاخلاق المحمودة : تطرف وشطط في التصور واسفاف وهبوط في السلوك وكان لهذا التناقض الصارخ اثره البالغ على الناس في واقع حياة اتباعها أيام مجدها وسطوتها ثم في ثورة اعدائها بعد ان تصدعت اركانها وهوجمت من كل مكان .

كان أتباعها طيلة القرون الوسطى لا يستطيعون الارتفاع عمليا الى المستوى المثالي النظري لاخلاقها ـ ولهم في ذلك العذر ـ فكانوا يتزوجون ويجمعون المال ويثأرون لانفسهم من ظالميهم ويتصرفون في سلوكهم بعيدا عن قيودها التي لا تطاق ولا يلزمون انفسهم بتطبيق قواعد وانماط سلوكية لم يسجل التاريخ انها طبقت ـ بصورتها النظرية ـ على نطاق واسع في أية مرحلة من المراحل . لكنهم كانوا وهم يفعلون ذلك يجدون في انفسهم تناقضا وجفافيا ويشعرون انهم ـ اذ لم يكونوا على الصورة المثلى ـ مقصرون ومخطئون يتعرضون للتأنيب المستمر من اعماق ضمائرهم وكان هذا الشعور ملازما لهم نفسيا رغم انهم مظهريا يمارسون الحياة المادية بكاملها .

---

(٣) انظر مثلا قصة الحضارة : ديورانت ١٤/٣٧٥ ـ ٣٨٠

وتولد من ذلك احساس دائم بالذنب لدى النفسية الاوربية كلما تاقت الى مباح اواستمتعت بمتاع ــ وان كان الحلال المحض ! وهو احساس توارثته الاجيال المتعاقبة حتى اصبح من الرسوخ بدرجة تجعل التخلص منه لابد ان يأتى فى صورة ثورة نفسية هائجة ورد فعل جانح وهو ما فعلته اوربا الحديثة .

هذا من جهة ، ومن حيث النظرة الشكلية العامة نجد ان مجتمع القرون الوسطى كان اسريا فى تكوينه زراعيا فى حرفته ، اقطاعيا فى طبقاته ومراتبه ولكل ميزة من هذه المميزات انعكاسها الواضح على الاخلاق الاجتماعية :

فالنظام الاسرى ساعد على ترسيخ فكرة المحافظة على العرض وقداسة العلاقة الزوجية حتى لقد كان القتل هو العقوبة المترقبة للزوجة الخائنة ــ او للمعتدى على العرض .

وطبيعته الزراعية أسهمت فى المحافظة على الواجبات الفردية وعلى التقاليد المتوارثة منذ القدم والتى كانت مزيجا من تعاليم دينية واعراف اجتماعية تشكل بمجموعها قواعد أخلاقية ثابتة يلتزمها المجتمع .

ولكن هذه الحال ــ فى الوقت نفسه ــ باهمال الكنيسة واحيانا باشرافها ساعدت على تشرب المجتمع لافكار عتيقة وخرافات بالية من بقايا الاساطير القديمة او من اختلاق العقول الساذجة ، روجها الجهل المطبق وهبوط المستوى العقلى للعامة والخاصة فتشابكت مع تلك القواعد الاخلاقية وامتزجت بها هذه بتلك مما اغرى الباحثين الاجتماعيين اللادينيين بالاعتقاد بان تلك الاخلاق وليدة الخرافات نفسها او قرينتها الدائمة .

ونظامه وطبقاته الاقطاعية اضفت عليه صفة الثبات المطلق الذى يميز عصر الاقطاع برمته ، وذلك ما اوحى الى الباحثين بعد انفجار قنبلة التطور فى اوربا بان التقاليد والاخلاق ليست ذاتية ولا ثابتة بل تكتسب سماتها ومميزاتها من طبيعة الوضع الاجتماعى او الاقتصادى .

هذه بعض الملامح الاجمالية الموجزة لاجتماع واخلاق القرون الوسطى وستزداد صورتها وضوحا عند عرض الاتجاهات الاجتماعية اللادينية التى انما نبتت اصلا لتكون ردود فعل لذلك الواقع الاجتماعى نفسه .

النظريات والمدارس الاجتماعية اللادينية

((مقدمـــة))

الفكر الاجتماعى اللادينى قديم الاصول فقد تحدث أُرسطو عن الحيـــاة الاجتماعية للانسان وقال عبارته المشهورة " الانسان حيوان اجتماعى " كمـــا أن أفلاطون كانت له نظراته الاجتماعية التى دونها فى " جمهوريته " وان كانت من صنع الخيـال •

ولما كان عصر النهضة الاوربية وبعثت الاداب والفلسفات الاغريقية انبعـــث التفكير الاجتماعى اللادينى باتجاهيه : الخيالى الممثل فى " الطوبيات " او المدن الفاضلة ، والواقعى الذى يحاول ان يستمد من الفلسفة والعقل ماينا هض بـــه الكنيسة وتعاليمها •

وكانت ريادة هذا المجال من نصيب " ميكافيللى " و " هوبز " اللذيـــن المحنا اليهما فى الفصل الاول من هذا الباب " ويتلخص راى هوبز وميكافيللى فـــى انه عندما تنحرف المعتقدات عن المبادىء الاخلاقية والشرعية يستتبع ذلك فـــى مجال الافكار فترة فراغ نرى فيها ان فكرة العنف هى التى تسود لعدم وجـــود ضابط للشرعية ، وفى راى هذين الكاتبين ان الحياة فى المجتمعات تقوم على استخـــدام القوة وتتلخص السيكولوجية الاجتماعية عندهما فى العبارة الشهيرة ، أن الانســـان ذئب بالنسبة للانسان " وفى قول مكيافيللى " ان ميل الانسان للشر يفوق ميله الـى الخير " ، ويعلق بوتول " على ذلك قائلا عن ميكافيللى " ان اهمية هذا المـــؤرخ الفلورنسى انه جعل لفلسفة التاريخ ولعلم الاجتماع السياسى وجودا مستقلا " (١)

---

(١) تاريخ علم الاجتماع • جاستون بوتول : ٢٤ ، ٢٥

وكان من رواد الافكار الجديدة ايضا الفيلسوف اليهودى " سبينوزا " الذى اشتهر بعداوته للاديان واخلاقياتها • وكان معاصرا لهوبز " وفى رأيه ان الناس يعيشون فى الاصل خاضعين لسيطرة شهواتهم وان حقوق الناس فى نزاع دائم مع قوتهم التى تتعادل فقط مع هذه الحقوق ويهاجم سبينوزا علم الاخلاق الذى كان يسود فى العصور الوسطى والذى يمجد النسك ويدعو للندم والذى يغلب فيه الميل للشقاء فيقول : " ان اللذة خير فى ذاتها والالم قبيح فى ذاته •• وان الحكمة هى التأمل فى الحياة لا فى الموت " •

على أن كاتبا اخر تطرف فى عداوته للكنيسة واخلاقها بدرجة عجيبة وهو " مانديفيل " فى كتابه " اقصوصة النحل " الذى اثار فضيحة وكان له دوى عظيم" فقد ذهب الى " ان النقائص هى بالتحديد التى يدمغها الاخلاقيون كالشراهة والتعجرف والفسق الخ •• وهى التى اتاحت انتشار الحضارة والفنون والتكنيك فهذه الاتجاهات التى اعتبرت مذمومة هى فى الواقع اعظم العناصر الديناميكية التى لولاها لاضمحل الانسان الى حال قريبة من الحيوانية (٢) " •

وهذه البدايات والافكار ظلت مبعثرة لم تنسق فى علم واحد حتى ولد علم الاجتماع باعتباره علما خاصا يدرس العلاقات والظواهر الاجتماعية دراسة مفصلة ضمن قواعد ومعايير خاصة •

— ولادة علم الاجتماع :

" يبدأ نسب العلم واصله فى فرنسا من مونتسكيو (١٦٨٩ ــ ١٧٥٥) فكتابه روح القوانين بحث فى الفلسفة السياسية وكان يعنى بكلمة قوانين "العلاقات الضرورية المستمدة من طبائع الاشياء وقد ميز بين طبيعة المجتمع ومبدأ المجتمع بقوله " طبيعة المجتمع هى بناؤه الخاص المميز ومبدأ المجتمع هو الرغبات والأهواء الانسانية التى تدفعه للعمل " •

" ثم جاء سان سيمون الذى كان ابنا حقيقيا لعصر التنوير ولذا كان يؤمن ايمانا شديدا بالعلم والتقدم كما كان يرغب فوق كل شئ فى انشاء علم وضعى للعلاقات الاجتماعية " •

" واشهر تلاميذه هو اوجست كونت ثم جاء دوركايم وتلاميذه وليفى بريل وقد كانوا جميعا يتابعون نفس التقليد الذى وضعه سان سيمون " •

" أما فى بريطانيا فكان ديفيد هيوم وادم سميث وهوبز وكان هؤلاء الفلاسفة ينظرون الى المجتمع على انه نسق طبيعى اى انه ينشأ من الطبيعة البشرية ذاتها وليس من العقد الاجتماعى وبهذا المعنى كانوا يتكلمون عن الاخلاق الطبيعية والدين الطبيعى والفقه الطبيعى وغير ذلك " (٣)

---

(٢) المصدر السابق : ٣٠

(٣) الانثروبولوجيا الاجتماعية : ادوارد ايفانز : ٣٤ فمابعدها « مقتطفات » .

هذا الاجمال الذى ذكره مؤلف " الانتربولوجيا الاتاجية " يحتاج الى تفصيل بذكر كل اتجاه واعطاء فكرة عن منهجه وارائه .

١ـ نظرية العقد الاجتماعي :

كانت النظرية السائدة قبل " كونت " هى نظرية العقد الاجتماعى وصاحبها هو " جان جاك روسو " وقد سبق شىء من الحديث عنها فى الفصل الاول من هذا الباب . والذى يهمنا منها الان هو نظرتها الى الاخلاق اى الى اسلوب التعامل بين افراد المجتمع . والواقع ان روسو كان جريئا فى تحديه للدين وخروجه على اخلاق وتقاليد عصره فقد نفى العنصر الايمانى من الاخلاق وجعل مدارها الرئيسى المصلحة الدنيوية المجردة ، اى تحقيق افضل وسيلة للتعاون مع المجتمع فى حدود الدنيا فقط ولغرض المنفعة الخاصة او العامة ان أمكن ، وبذلك نشأ للمرة الاولى فى تاريخ المسيحية ـ ان نظر الباحثون للاخلاق على انها مظاهر صورية للتعامل الخارجى لا حقائق وقيم تنبع من ضمير الانسان ويوحى بها وجدانه الايمانى .

ولم يصرح روسو بمعتقده بطريق مباشر بل استخدم خياله لتصور دعائم فلسفية وهمية يقيم نظريته عليها ، وسنتابعه فى افتراضاته حتى نصل معه الى النتيجة المتوخاة : " الاصل فى الانسان الفردية ، وكان سعيدا ايام حياته تلك ومتبعا للقانون الطبيعى ولكن الكوارث ودواعى الاجتماع جعلته يتعلم اللغة ويالف الاجتماع حتى اصبح الانسان الطيب بالطبع شريرا بالاجتماع "

" على ان الاجتماع قد اضحى ضرورة ومن العبث محاولة فضه والعودة الى حال الطبيعة وكل مانستطيع صنعه هو ان نصلح مفاسده بان نقيم الحكومة الصالحة ونهيىء لها بالتربية المواطنين الصالحين " (١) .

أما كيفية تحقيق ذلك فيرى روسو " ان هذا الغرض ممكن التحقيق بان تجمع الكثرة المفككة على ان تؤلف شيئا واحدا وان تحل القانون محل الادارة الفردية وما تولده من أهواء وتجرده من خصومات اى ان يعدل كل فرد عن انانيته وينزل عن نفسه وعن حقوقه للمجتمع باكمله وهذا هو البند الوحيد للعقد الاجتماعى ولا اجحاف فيه اذ بمقتضاه يصبح الكل متساوين فى ظل القانون والقانون ارادة الكل تقر الكلى اى المنفعة العامة " .

وبعد هذه الافتراضات يبدأ روسو فى املاء مقترحاته حول المجتمع المتعاقد :

" لهذا المجتمع دين مدنى لا يدع للفرد ناحية من نواحى الحياة مستقلة عن الحياة

---

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة يوسف كرم : ١٩٥ .

المدنية ويتعين على الدولة أن تنكر دينا كالمسيحية يفصل بين الروحي والسياسي والا تطيق الى جانبها سلطة كنسية اذ لاقيمة لما يفصم الوحدة الاجتماعية وانما لزم الدين لانه مامن دولة قامت الا وكان الدين اساسها على ان يكون هذا الدين قاصرا على العقائد الضرورية للحياة تفرض كقوانين حتى لينفي اويعدم كل من لا يؤمن بها لا باعتباره كافرا بل باعتباره غير صالح للحياة الاجتماعية".

"هذه العقائد هي عقائد القانون الطبيعي : وجود الله والعناية الالهية والثواب والعقاب في حياة اجلة وقداسة العقد الاجتماعي والقوانين، ولكل أن يضيف اليها مايشاء من الاراء في ضميره " . أما بالنسبة للاخلاق فعند روسو أن "كل مايسمى الان حقوقا واخلاقا ويستمد له سندا من العقل هو صناعي ناشيء عن الحياة الاجتماعية التي هي صناعية كذلك وليس في حال الطبيعة اخلاق وحقوق مادام الانسان في تلك الحال مستغنيا عن الانسان مقطوع الصلة به " (٢) .

من ذلك يتضح ان موقف روسو يقوم على امرين :

١ ـ فراره الاعمى من الكنيسة المسيحية وعقائدها واخلاقها لاسيما وانه تعرض هو وامثاله لاضطهادها .

٢ ـ الرومانسية التي يعد اعظم روادها والتي كانت رد فعل لتقديس العقل الذي كان طابع مايسمى عصر التنوير والتي ظهر اثرها اكثر ماظهر في مجال الفن والادب .

هذا وقد سبقت الاشارة الى قيام الثورة الفرنسية على افكار روسو الاجتماعية حتى لقد وُصف كتابه العقد الاجتماعي بأنه انجيل الثورة الفرنسية .

---

(٢) المصدر السابق : ١٩٦ ـ ١٩٨ .

٢ ـ المدرسة الطبيعيـــة :

اذا تابعنا الفكرة القائلة ان فى تاريخ العلم الحديث ثلاث ثورات لكل منهـــا أثره البالغ فى عصره فى اكثر من ميدان فان الثورة " النيوتنية " اى نظرية الجاذبية هى الثورة الثانية من جهة الوجود التاريخى ومن جهة شمول تأثيرها .

لقد برهن نيوتن على ان الكون او " الطبيعة " ليست منفلته ولا مفككة كما كـــان يتوهم الاقدمون ولكنها متسقة بدقة عجيبة يربط بين اجزائها قانون رياضى مطـــرد ولا شىء من مظاهرها يشذ عليه . هذه الفكرة اوحت الى العلماء والباحثيـــن الذين كانت الكنيسة تحصى عليهم انفاسهم وتضيق الخناق على معطياتهم بأن ينعتقوا من ربقتها ويكفروا بالهها مؤمنين باله جديد اسموه " الطبيعة " لكنهـــم اذ تخلصوا من العقيدة المسيحية المزعجة للعقل راوا ان اصعب من ذلك التخلـص من الاخلاق المسيحية التى يراها كل انسان عاقل ضرورية لبقاء مجتمعهم لذلــك لم يتورعوا عن الادعاء بان للاله الجديد قانونه الاخلاقى وشريعته الاجتماعيه الــتى تجعلنا فى غنى تام عن اخلاق وشريعة الكنيسة . ويشترك فى هذا الادعاء الذيـــن أنكروا وجود اله الكنيسة جملة والذين آمنوا به على انه " صانع ساعة " على حـــد تعبيرهم مع انكار الوحى والاديان وهؤلاء يطلق عليهم بمجموعهم اصطـــلاح "الطبيعيين " .

ويرى اولئك ان العقل البشرى قادر بالاعتماد على نفسه ان يكتشف القانـــون الطبيعى الاجتماعى مثلما استطاع نيوتن اكتشاف القانون الطبيعى لنظام الكـــون ومن ثم فليست الاخلاق مرتبطة بالدين بل لا داعى اصلا للوحى والكتب السماوية والهيئات الكهنوتية فكل هذه ليست سوى عوائق تباعد بين الناس وبين القانون الطبيعى الـــذى له وحده أن يسود .

يقــول راندال :

" ان أحد الاركان الاساسية الثلاثة لديانة العقل كان الاعتقاد ان نظــام الطبيعة متضمن لقانون طبيعى فى الاخلاق يجب معرفته واتباعه كاى من المبــادىء العقلية التى تضمنتها آلة العالم النيوتينية،ومعنى ذلك ان مبادىء الصواب والخطــأ والعدالة والظلم كانت بالنسبة الى القرن الثامن عشر منسجمة فى منهج العقــــل والعلم ، وان المسلم به كليا ان لعلم الاخلاق استقلالا عن أى اسس لاهوتيــــة والهية يماثل استقلال اى نوع اخر من المعرفة البشرية،والحقيقة ان الله أمــــر بالمبادىء الاخلاقية مثلما امر بقانون الجاذبية لكن مضمون اوامره كمضمون جميـــع قوانين الطبيعة الاخرى لابد من كشفه بالطرق العقلية والتجريبية للعلم النيوتنى" .

" وقد أحست بعض النفوس الجريئة مثلما احس مونتسكيو بانه لو لم يكن هنــاك اله على الاطلاق وتحررنا كما يجب من عبودية الدين فيجب الا نتحرر من عبودية العدالة وذلك ان مناهج علم الانسان والسياسة والاقتصاد والمجتمع بصورة عامة يجـــب ان تشمل فى نطاقها الاخلاق أيضا " (١) .

أما التخلص من اخلاقيات الكنيسة فقد سلك الطبيعيون اليه طريقا ملتويــــا اذ قالوا : " ان الله لا يقتصر على وضع القانون الاخلاقى فى الكون وانما هو قد بـث فى كل نفس قبسا او صدى لهذا القانون الاخلاقى نفسه وهكذا فان اصغاءنا لصــوت ضميرنا او الالتجاء الى "النور الواضح للعقل الطبيعى" ـ وهى عبارة اثيرة لــدى مفكرى القرن الثامن عشر ـ يؤدى بنا الى كشف نفس الاوامر التى وردت الينا مــن الكتاب المقدس ومن كتابات آباء الكنيسة . وعلى ذلك فان الوحى يدعم الضميــر والضمير من جانبه يدعم سلطة الوحى ومن هنا فاننا نستطيع ان نستدل على واجبنــا

(١) تكوين العقل الحديث : ٥٢٨/١

من مصادر أخرى غير سلطة الكتاب المقدس او القانون الكنسى وحده" (٢)

واشتد الطبيعيون ـ ومن جرى مجراهم ـ فى نقد الاخلاق المسيحية لاسيما بعد التشهير والتكفير اللذين تعرضوا لهما من جانب الكنيسة وحاولوا اثبات خطأ الاخلاق المسيحية وعدم فعاليتها معتمدين على اسس عقلية وادلة تاريخية وواقعية نستطيع حصرها فيما يلى :

١ ـ انها اخلاق اصطناعية غير طبيعية :

ومن السهل ان يجد هؤلاء الادلة الكافية لاثبات هذا الرأى . فقد ذكر "كرسون" وغيره من الباحثين الاخلاقيين أن السيرة السيئة لرجال الدين والسلوك الشائن الذى امتازوا به كان أعظم اثرا فى الهدم الاخلاقى من كل النظريات العقلية المهاجمة لها.

واصحاب هذا الرأى يقولون ان الاخلاق المسيحية كالعفة والايثار والرحمة مبنية على التكليف والاصطناع ـ وهم هنا يلتقون مع روسو ـ وليس ادل على ذلك عندهم من ان رجال الدين انفسهم اول من يخالفها ويصادم دعاواها . ولو كانت هذه الاخلاق " طبيعية " اى متمشية مع القانون الطبيعى لما كانت هذه المفارقة التى يشهد بها الواقع المحسوس . لذلك فان الواجب على المجتمع الذى ينشد الخير والتكامل ان ينفى عنه هذا الزيف والنفاق الذى يسمى " الاخلاق المسيحية " ويستعيض عنها بالاخلاق الطبيعية التى يوحى بها الضمير الداخلى ويدعو اليها الانسجام الماثل فى الطبيعة الخارجية .

٢ ـ أنها اخلاق تعسفية غير عقلية :

يرى هؤلاء ان النظرة المسيحية هى " ان قوام الحياة الاخلاقية هى طاعة القانون ، لكن المشكلة فى نظرهم هى ان هذا القانون " ليس قانونا يكتشفه العقل البشرى وليس بالتالى قانونا يبدو لنا معقولا وانما هو قانون اتانا من الوحى الالهى الذى لا يكون أمامنا الا ان نطيعه سواء أكان يبدو معقولا ام غير معقول منطقيا ام تعسفيا عادلا ام ظالما فمن الواجب اطاعته لمجرد كونه تعبيرا عن الارادة الالهية لا لأننا نرى فيه وسيلة لتحقيق سعادتنا المباشرة ، وبطبيعة الحال فنحن نفترض انه لما كانت القوة التى تسهر على تنفيذ هذا القانون الالهى هى الوهية خيرة ، فسوف يكون بذلك قانونا خيرا يعبر عن حكمة عليا ولكن لما كان خلاصنا يتوقف مباشرة على اطاعتنا لهذا القانون فمن الواضح ان المطلوب منا هو أداء واجبات يحددها بغض النظر عن رأينا البشرى فى هذه الاوامر .. ولقد

---

(٢) الفلسفة انواعها ومشكلاتها : ٢٩٣ .

ظل أداء المسيحي لواجبه يعد حتى يومنا هذا مسألة طاعة لامسألة تبصر وقد أحسن بعضهم التعبير عن هذه الفكرة اذ قال ان سبب كون هذه الطاعة خيرا او حتى سبب كونها لازمة هو امر لاشأن لنا به وكل مايهمنا بحق هو انها لازمة " (٣) .

٣ ـ انها اخلاق نفعية انتهازية :

يرى اولئك ايضا ان الاخلاق المسيحية تقوم على مبدأ " الثواب والعقاب " في العالم الاخر . وتعد الجنة والنار " حافزين لهما اهمية قصوى في السلوك الاخلاقي للمسيحي ، وهناك حجة مشهورة على وجود الله تقول " لو لم يكن الله موجودا لكان من الضروري ابتداعه " ونستطيع ان نتصور انصار هذا الرأي قد اعادوا صياغة هذه الحجة بحيث تصبح " لو لم تكن الجنة والنار موجودتين لكان من الضروري ابتداعهما " وذلك لضمان اقبال الناس على اداء واجباتهم المسيحية " .

ويتلخص رد أولئك على هذا الرأي بانه يجعل " الاخلاق في أساسها مسألة انتهازية ـ أو شطارة ـ وان الاخلاقية ليست الا سياسة حكيمة فلو اردنا اكتساب البركة الالهية او البقاء بمنأى عن المتاعب في هذا العالم وفي العالم الاخر مما فعلينا اطاعة اوامر الاخلاق ولاسيما الاخلاق المسيحية . ومع ذلك فان هذا الموقف لايقتصر على المسيحية الشعبية بل انه على العكس من ذلك قد انتشر على نطاق واسع منذ كانت للناس آلهة يطيعونها او يسترضونها او يبتهلون اليها فقد كانت الاذهان الساذجة تميل دائما الى ان تجعل من العبادات الدينية نظاما للمقايضة يعد فيه العبد بعمل شيء للرب اي بطاعته والتضحية له او مجرد الاعتراف به ويتوقع في مقابل ذلك نعما معينة من الرب " (٤)

تلك بعض الاسس التي ارتكز عليها اولئك في هجومهم على الاخلاق المسيحية . وسنرى آن هذا الهجوم قد تبلور واتخذ صيغا مغايرة اعمق نقدا واقوى اثرا في النظريات التالية .

---

(٣) المصدر السابق : ٢٩٢

(٤) المصدر السابق : ٢٩٣ ـ ٢٩٤ .

٣ ـ المدرسة الوضعية العقلية

أ ـ اوجست كونت :

شهد النصف الاول من القرن التاسع عشر اضطرابات اجتماعية وتقلبات فكرية منوعة، فقد سقطت انظمة واوضاع دامت قرونا متوالية وانهارت قواعد ومبادىء كانت تسد حاجات المجتمع وتلبى رغباته في مجالات كثيرة ولم يعقب هدم الماضي الذي اوغل فيه عصر التنوير بناء جديد للحاضر والمستقبل، وظهر لكثير من المفكرين حقيقة أن الهدم قد يتم بوسائل وافكار خاطئة تماما الى درجة انها لاتستطيع ان تبني شيئا جديدا .

وكان الانجاز الوحيد الذي استقطب الاذهان وبهر الانظار هو التقدم العلمي في مجالات البحوث الطبيعية الا انه مهما بلغ من العظمة لم يكن ليغطي القبائح والامراض التي يعاني منها المجتمع الاوربي المتناقض والتي سببها تدهور وانحطاط القيم الاجتماعية بعد ان عجز الفلاسفة عن الاتيان ببديل لقيم الكنيسة الآخذة في الاضمحلال .

وتساءل كثير من زعماء الفكر : أليس في امكان العقل البشري بعد تحريره من نير الكنيسة البغيض ان يحقق النجاح الذي ظفر به في مجالات الطبيعة فيبتكر "دينا وضعيا" يوازي " العلم الوضعي " الذي استطاع ان يحل محل علم الكنيسة الميتافيزيقي . ؟

وكان ابرز من اجاب على هذا السؤال عمليا هو الفيلسوف الفرنسي " اوجست كونت " رائد المدرسة الوضعية في الفكر والحياة والذي يمثل التيار الاهوج الذي انبعث لمواجهة طغيان الكنيسة وحماقاتها .

ينطلق كونت فى فلسفته الوضعية من زعمه انه اكتشف القانون الاساسى للتقدم البشرى وهو قانون تتابع المراحل الثلاث :

(١) مرحلة الخرافة (٢) مرحلة الدين
(٣) مرحلة العلم "الوضعية" (١)

ويرى كونت انه لكى نتجنب اخطاء المرحلة الثانية لنصل الى "علمية" المرحلة الثالثة فانه على الفكر ان يتجرد من الغيبيات والاوهام ويركز اهتمامه على فكرتى "الواقع والنافع" لاغير وهذا هو أساس الوضعية .

" أما الواقع " فشرط ضرورى لقيام علماء الاجتماع مقام رجال الدين " علينا الان ان نعدل عمل رجال الدين معتمدين على الوقائع وحدها وعلى العقل وحده " .

والمنهج الذى يحقق ذلك فى نظره هو "استخلاص العنصر الوضعى الانسانى الثابت من العناصر الصلبية الهرمة التى تحتويها الاديان التقليدية والتى اتخذت من ذلك العنصر الوضعى مطية لها وبذلك يكتمل المذهب الوضعى ويتوجه على هذا النحو الدين الوضعى " .

والدين الوضعى يقوم على الانتقال من الواقع الى النافع :

يرى كونت أن تعاليم الاديان يمكن تلخيصها فى معتقدين : الله والخلود .

والدين الوضعى يعمد الى اختيار المضمون الوضعى لهذين المعتقدين . فالمضمون الوضعى لفكرة الالوهية هو " فكرة موجود كلى عظيم ازلى تتصل به نفوس العباد فيضفى عليها القدرة على قمع ميولهم الانانية المتنافرة .. " .

والمضمون الوضعى للخلود هو "فكرة مشاركة اهل الحق والعدل .. فى جانب من

(١) انظر سلسلة تراث الانسانية ٢ / ٥ والعلم والدين : برترو : ٤٢

الحياة الازلية للموجود الالهى " ومن هذين المضمونين يستخلص كونت فكرة واحدة شاملة هى "الانسانية" فالانسانية هى الفكرة الوضعية " المتطورة لفكرتى الله والخلود واللتين كانت البشرية تدين بهما فى المرحلة الثانية . ويعتقد كونت ان الانسانية اذا فهمت على هذا النحو فانها تكون هى نفسها الاله الذى ينشده الناس اى الموجود الحق العظيم الازلى الذى يتصلون به اتصالا مباشرا ويستمدون منه الوجود والحركة والحياة " .

وبذلك يصل بنا كونت الى هدفه المراد وهو الغاء العقائد الدينية الغيبية وما يتصل بها من اخلاق ونظم اجتماعية واعتبارها افكارا واوهاما غير "واقعية ولا نافعة " وانما تعبر عن الصورة غير المكتملة للانسانية فى مرحلة دنيا من مراحل تطورها .

أما الاسلوب العلمى الحديث فهو ان يعتنق الناس الدين الوضعى ويعبدوا الاله " غير المشخص" : الانسانية وعليهم ان يستمدوا مثلهم واخلاقهم وقوانين تنظيمهم الاجتماعى من ذخيرته وحدها " ومن هذه الذخيرة من القوى الخلقية المتجمعة على مر الاجيال فى الموجود تفيض الى القلوب الافكار العظيمة والمشاعر النبيلة فالانسانية هى الموجود العظيم الذى يسمو بنا عن انفسنا ويضيف الى ماعندنا من تعاطف قدرا فائضا من القوى التى يحتاج ذلك الميل اليها لاخضاع ميول الاثرة وفى الانسانية يتحاب الناس ويتآخون ثم فى الانسانية يستطيع الناس أن ينعموا حقا بالخلود الذى يتطلعون اليه " (٢) .

تلك هى اسس الوضعية التى اراد كونت ان يتحدى بها تعاليم الدين فى العقيدة والسلوك وقد كان يرى نفسه قادرا على وضع منهج للحياة بديل للمسيحية وهى حماقة مغرورة نتج عنها علم الاجتماع اللادينى الذى مايزال بعض المفكرين يترددفى تسميته علما . (٣)

ويمكن القول بأن آراء كونت وفلسفته لم تكن لتشتهر وتصل من التطبيق الى الحد الذى بلغته لولا تلميذه اليهودى دوركايم الذى طور المذهب ووضع له قواعد محددة واهتم بالمشاكل العملية مضيفا الى ذلك حقدا اعمى وعداوة للدين مريرة .

---

(٢) العلم والدين : ٤٩ ـ ٥٠ " مقتطفات "

(٣) ستيوارت تشيس / الانسان والعلاقات البشرية : ١١ ـ ١٩ .

ب ــ دوركايـــم :

كان من حظ المدرسة الوضعية (والنظرة البعيدة من حسن الحظ الهداميـن التلمود يين) وفي الوقت نفسه من سوء حظ الاخلاق الاوربيةان انفجرت في النصــف الثاني من القرن التاسع عشر الثورة الفكرية الثالثة او " نظرية التطور " .

فالتفسير الالى "الميكانيكى " لنشأة الحياة تجاورها عزز الالية النيوتنيـــــة عن الكون غير العضوى وافسح المجال امام الناقمين على الكنيسة لاستنتاج تفسيـــرات اجتماعية وسلوكية آلية كذلك .

وهكذا اصبح من الواضح أن اثر الداروينية في العلوم الانسانية لا يقل عنه فـــى علوم الطبيعة والحياة لاسيما الايحاءات الخطر أن " حيوانية الانسان مع نفى الغاية من وجوده ، والتطور المطلق " فليس من مؤلف اجتماعى غربى لايبرز فيــــــه هذان الايحاءان بجلاء .

والواقع أن علم الاجتماع كان يعانى صعوبات جمة ويستهدف لانتقادات غيـــر يسيرة لم ينقذه منها الا نظرية التطور التى اشيعت بطريقة مذهلة تثير علامات استفهـام كثيرة . !

ويتحدث دوركايم نفسه عن هذه الصعوبات متفائلا لعلم الاجتماع بنجاح يضاهى نجاح النظريات الطبيعية :

" ليس هناك علم الا وواجه مقاومة من قبل العواطف الانسانية التى كانــت تمس الظواهر الطبيعية وكانت هذه المقاومة لاتقل فى عنفها عن المقاومة التـــى يلقاها علم الاجتماع فى وقتنا الحاضر وذلك لان الظواهر الطبيعية كانت هى الاخـــرى ذات طابع دينى او خلقى اما وقد تحررت العلوم واحدا بعد اخر من سيطرة تلك الفكـرة الشائعة ، فانه يحق لنا الاعتقاد انها سوف تختفى فى نهاية الامر من علم الاجتمـــاع

أيضا ، أى من اخر معاقلها وبذلك تدع السبيل حرا امام العلماء " (١) .

ويعلل د ور كايم توقعاته بالمبررات التى يراها كافية لفصل علم الاجتماع عن الدين ومن ذلك اعتقاده " أن المجال الاجتماعى فى مجال من مجالات الطبيعة لا يفرقه عنها الا انه اشد منها تعقيدا ومعلوم انه من المستحيل ان تختلف الطبيعة اختلافا جذريا عن اصلها من حالة الى حالة فيما يتعلق بالاسس الكبرى " (٢) . أى اننا فى المجال البشرى نستطيع بمقدراتنا الذاتية ان نكتشف ما اكتشفه نيوتن فى الطبيعة من قوانين ثابتة او ما اكتشفه داروين من حركة آليه متغيرة .

ولا يفوت د ور كايم ان يحدد طبيعة مذهبه كيلا يلتبس بالنظريات الاخرى فهو يقول : " ان الوصف الوحيد الذى نرتضيه لانفسنا هو ان نوصف باننا عقليون (لاماديون ولا روحيون) وذلك لان الهدف الرئيسى الذى نرمى اليه ماهو فى الواقع الا محاولة نريد بها مد نطاق المذهب العقلى حتى يشمل السلوك من الناحية التاريخية الى بعض العلاقات السببية ، وأنه من الممكن أيضا تحويل هذه العلاقات بعملية عقلية الى بعض القوانين التى يمكن تطبيقها عمليا فى المستقبل ، وليس مذهبنا الذى خلع عليه البعض اسم المذهب الوضعى سوى احدى نتائج المذهب العقلى "

---

(١) قواعد المنهج : ١٠١ ، وراجع الباب الثانى فصل اثار الداروينية .

(٢) الانسان والعلاقات البشرية : ٢٠ ، قارن بين كلام دوركايم هذا وبين ماجاء فى الكتاب نفسه فى الصفحة السابقة : ١٩ من ان احدى لجان الكونجرس الامريكى وجهت سنة ١٩٥٤م نقدا شديدا لتمويل البحث فى العلوم الاجتماعية بحجة ان الطبيعة هى التى يمكن دراستها اما الطبيعة البشرية فلا .

ولو حاولنا ان نختصر مذهب دوركايم لوجدنا ان محوره ثلاثة اسس :

١ ـ عقل جمعي عشوائي خارج عن شعور الافراد .

٢ ـ هذا العقل يصدر اوامره على شكل " ظاهرة اجتماعية " تتقلب وتتغير بطريقة غير منطقية .

٣ ـ هذه الظاهرة تقهر الافراد وتخضعهم لسطوتها شعروا او لم يشعروا .

وتفصيل ذلك يبدأ من اعتبار الظواهر الاجتماعية اشياء موضوعية لها حقيقتها الخارجية : " ان طريقتنا طريقة موضوعية ذلك لانها تقوم باسرها على اساس الفكرة القائلة بأن الظواهر الاجتماعية اشياء ويجب ان تعالج على انها اشياء " .

" اذا سلم الناس بأن هذا المركب الفريد في جنسه الذي يتكون منه كل مجتمع يؤدي الى وجود بعض الظواهر الجديدة التي تختلف في طبيعتها عن الظواهر النفسية التي تمر بشعور الافراد كل منهم على حدة فلابد من التسليم ايضا بان هذا النوع الجديد من الظواهر لايوجد الا في المجتمع ونعني بها أفراده وانما يوجد في نفس المجتمع الذي اوجدها وبناء على ذلك فان هذه الظواهر تكون خارجة عن شعور الافراد حالة تفرقهم " .

" ان الظاهرة الاجتماعية هي كل ضرب من السلوك ثابتا كان ام غير ثابت يمكن ان يباشر نوعا من القهر الخارجي على الافراد او هي كل سلوك يعم في المجتمع بأسره وكان ذا وجود خاص مستقل عن الصور التي يتشكل بها في الحالات الفردية " .

وهذه الظواهر غير ثابتة وليس لها صور معينة تتشكل فيها :

" انه كلما اصبحت البيئة الاجتماعية اشد تعقدا واسرع تطورا ادت الى تزعزع التقاليد والعقائد المتوارثة التي تتشكل بصور غير محددة شديدة المرونة " .

كما ان العواطف المتعلقة بها ليس مصدرها "الله" او "الدين" كما يتصور الناس ! " لاتمتاز العواطف التي تتعلق بالظواهر الاجتماعية في شيء عن الظواهر الاخرى على مر العصور وهي وليدة التجارب الانسانية ولكن أي تجارب ؟ !

انها تجارب غامضة مهوشة ، وليست هذه العواطف فيما أعلم وليد فكرة علوية مثالية وجدت من قبل ان يوجد هذا العالم الحسى ولكنها نتيجة لالوان شتى من الخواطر والانفعالات التى تراكمت على غير نسق وعلى غير هدى ودون اى تفسير منهجى سليم " (٣) .

ثم ان بيت القصيد في مذهب دوركايم هو تطبيق هذه الاسس الوهمية على الدين وما يتصل به من عقائد واخلاق ويتلخص هذا التطبيق فى ثلاث قضايا :

١ ـ أن الدين ليس الهيا لان فكرة الالوهية ـ فى نظره ـ ليست الا تعبيرا عن البيئة الاجتماعية فى مرحلة من مراحل تطورها ويكون الاله فيها رمزا للدرجة التى وصل اليها تطوره : " اذا اردنا فهم الفكرة التى يكونها المجتمع عن نفسه وعن العالم الذى يحيط به فلا بد لنا من دراسة طبيعة هذا المجتمع لا طبيعة افراده فان الرموز التى يتخذها المجتمع شعارا له يستعين بها على التفكير فى ذاته تختلف باختلاف الحالات التى يوجد فيها فاذا تصور المجتمع مثلا انه ينحدر من سلالة حيوان اسطورى واتخذ هذا الحيوان شعارا له فمعنى ذلك أنه يتألف من احدى تلك الجماعات الخاصة التى نطلق عليها اسم العشيرة

اما اذا استعاض عن هذا الحيوان الاسطورى بجد انسانى اسطورى هو الاخر فمعنى ذلك أن طبيعة العشير قد تغيرت ، واذا تخيل المجتمع وجود الهة أخرى اسمى مقاما من الهته المحلية والعائلية واعتقد انها تسيطر على تلك الالهة الاخيرة فمعنى ذلك ان الطوائف المحلية التى يتكون منها هذا المجتمع قد اخذت تميل الى التركز وتتجه الى تكوين وحدة اجتماعية وان درجة التركز التى يدل عليها وجود معبد يضم جميع الالهة (Pantheon) مقابل درجة التركز التى وصل اليها المجتمع فى ذلك الوقت نفسه .

" واذا لم يرتض المجتمع بعض الوان السلوك فان السبب فى ذلك يرجع الى أنها تخدش بعض عواطفه الاساسية وتقوم هذه العواطف على اساس من طبيعة المجتمع كما ان عواطف الفرد ترجع الى تركيبه الطبيعى وتكوينه العقلى . "

" وان الواجب الذى ينبغى القيام به فى هذا الصدد هو ان نبحث عن طريقة تداعى التصورات الاجتماعية وتنافرها واتحادها واقترانها وذلك بان نقارن بين الديانات الاسطورية والقصص والتقاليد الشعبية " (٤)

---

(٣) مقتطفات من قواعد المنهج على التوالى : ٢٧٩ ، ٣١ ، ٥١ ، ٢٠٣ ، ١٠٠
(٤) المصدر السابق : ٣٣ ، ٣٥

٢ ـ أن الدين ـ بناء على ماسبق ـ ظاهرة اجتماعية يفرضها العقل الجمعي بقدرته القاهرة على الافراد في بعض الهيئات والمراحل دون ان يكون لهم حرية اختيار في ذلك وهذا يعني انه لو فرض عليهم ـ احيانا ـ الا يكون لهم دين مطلقا لكانوا غير متدينين ولا يملكون الا الانصياع لذلك :

" اني حين أؤدي واجبي كأخ او زوج او مواطن او حين انجز المعهود التي أبرمتها اقوم بأداء واجبات خارجية حددها العرف والقانون وعلى الرغم من ان هذه الواجبات لا تتعارض مع عواطفي الشخصية وعلى الرغم من انني اشعر بحقيقتها شعورا داخليا فان هذه الحقيقة تظل خارجة عن شعوري بها، وذلك لانني لست انا الذي الزمت نفسي بها ولكني تلقيتها عن طريق التربية . وكذلك الامر فيما يمس العقائد والطقوس الدينية فان المرء من يجدها تامة التكوين منذ ولادته، وانما كانت هذه العقائد اسبق في الوجود من الفرد الذي يدين بها للسبب الاتي : وهو أن لها وجودا خارجيا بالنسبة اليه .. ولا توجد هذه الضروب من السلوك والتفكير خارج شعور الافراد فقط ، بل انها تمتاز ايضا بقوة آمرة قاهرة هي السبب في انها تستطيع ان تفرض نفسها على الفرد اراد ذلك ام لم يرد " (٥) .

٣ ـ ثم يصل دوركايم الى نتيجة خطرة وهي ان الدين ليس فطريا ومثله الاخلاق والاسرة وذلك راي اقتبسه علماء الاجتماع التالون له وعمموه في ابحاثهم دون ان يدرك هؤلاء او بعضهم الدافع التلمودي الهدام لدى دوركايم لان يقول به :-

" ان الناس يفسرون عادة نشأة النظام الاسري بوجود العواطف التي يكنها الاباء للابناء ويشعر بها الابناء تجاه الاباء كما يفسرون نشأة الزواج بالمزايا التي يحققها كل من الزوجين وفروعهما .. وليس الامر على خلاف ذلك فيما يتعلق بالظواهر الخلقية ، فان الاخلاقيين يتخذون واجبات المرء نحو نفسه اساسا للاخلاق وكذا الامر فيما يتعلق بالدين فان الناس يرون انه وليد الخواطر التي تثيرها القوى الطبيعية الكبرى او بعض الشخصيات الفذة لدى الانسان ..الخ ولكن ليس من الممكن تطبيق هذه الطريقة على الظواهر الاجتماعية اللهم الا اذا اردنا تشويه طبيعتها " (٦)

---

(٥) المصدر السابق : ٥١

(٦) المصدر السابق : ٢٠٩ ـ ٢١٠

" ومن هذا القبيل أن بعض هؤلاء العلماء يقول بوجود عاطفة دينية فطرية لدى الانسان ، وان هذا الاخير مزود بحد ادنى من الغيرة الجنسية والبر بالوالدين وصحبة الابناء وغير ذلك من العواطف ، وقد اراد بعضهم تفسير نشأة كل من الدين والزواج والاسرة على هذا النحو ولكن التاريخ (٧) يوقفنا على ان هذه النزعات ليست فطرية فى الانسان وعلى انها قد لاتوجد جملة فى بعض الظروف الاجتماعية الخاصة ، ولذا فهذه العواطف المثالية نتيجة للحياة الاجتماعية وليس اساسا لها أضف الى ذلك انه لم يقم برهان قط على أن الميل للاجتماع كان غريزة وراثية وجدت لدى الجنس البشرى منذ نشأته وانه من الطبيعى جدا ان ينظر الى هذا الميل على أنه نتيجة للحياة الاجتماعية التى تشربت بها نفوسنا على مر العصور" (٨) .

هذا هو دوركايم وتلك هى دعاواه التلمودية مغلفة بغلاف العلم والبحث ، ومع الاسف فمذهبه اكبر المذاهب الاجتماعية الغربية ورغم "كلاسيكيته" لايزال له أثر عظيم فى الدراسات المعاصرة . (٩)

---

(٧) اتصلح هذه الكلمة العامة دليلا علميا فى مسالة خطرة كهذه ام انها شهوة الهدم اليهودى المتستر .

(٨) قواعد المنهج فى علم الاجتماع : ٢١٩

(٩) انظر مثلا : المجتمع : ماكيفر وزميله : ١٦ ـ ١٧

٤ ـ النظـرة الشيوعية للمجتمع والاخـلاق :

سبق في فصل الاقتصاد من هذا الباب ان تحدثنا عن المذهب الشيوعي ومرقفه من الدين من خلال التفسير المادي للتاريخ • وقد المحنا هنالك الى موقفه من الاخلاق ايضا وذلك لان الشيوعية ـ كما هو معلوم ـ تجعل الاقتصاد اساس كل شيء وغايته •

وقد يكون من الضروري هنا التحدث عن النظرة الشيوعية للمجتمع والاخلاق استقلالا وان كانت في واقع النظرية واجهة اقتصادية فحسب :

ان الشيوعية في هدفها لاتختلف عن المدرسة السالفة الذكر فماركس ودوركايم اخوان في اليهودية ونظيران في التصور التلمودي الذي يطمح الى نسف عقائد واخلاق الاميين ولكن كلا منهما يسلك طريقا غير طريق صاحبه وكأني باليهود يخططون لكي يصلوا الى هذا الغرض من كل منفذ وباي سبيل فهم يرسمون للاميين طرائق شتى ويدعون لهم الخيار في ان يسلكوا ايا منها ولكنها كلها في الحقيقة ـ روافد تؤدي الى الهدف نفسه : تدمير الدين والاخلاق •

فنظير العقل الجمعي العشوائي عند دوركايم يخلق ماركس الحتمية التاريخية العمياء •[ذاك يفرض جبرية اجتماعية قاهرة وهذه تفرض جبرية اقتصادية قاهرة كذلك• ويتفق الاثنان في ان المجتمع " يتطور " وان الاخلاق كذلك " تتطور " وان لاشيء من القيم والمثل ثابت اطلاقا • كما يتفقان في النظرة الحيوانية للانسان فهو اما حيوان اجتماعي او حيوان اقتصادي واتفاقهما هنا ليس غريبا بعد ان عرفنا ان الداروينية من امضى الاسلحة التي استغلها اليهود بمكر ودها ء •

ومعلوم ماتقوله الشيوعية من ان " الدين أفيون الشعوب " وانه " الانعكاس الخيالي للاشياء البشرية في دماغ الانسان " وانه نابع اصلا من " اساس اقتصادي سلبي "

وان الاله ماهو الا " تشخيص للقوى الطبيعية التى تؤثر على طعام الانسان " الى آخر هذه السلسلة من الهراء والزيف التى تقوم على الوهم الكاذب والخيال الخاطىء ولا تعبر عن حقيقة الا عن العداوة الحاقدة للدين .

اذا عرفنا ذلك فما نظرة الشيوعية الى المجتمع والاخلاق ؟ .

" يلاحظ بوخارين فى كتابه " نظرية المادية التاريخية " انه ينبغى دون شك التحرز من جعل الشعور الجمعى حقيقة غيبية ولكن هذا التعبير يشير مع ذلك الى ظاهرتين يمكن ملاحظتهما دائما فى كل مكان :

١ — ان هناك فى كل عصر اتجاها سائدا فى الافكار والعواطف والحالات النفسية اى سيكلوجية سائدة تلون الحياة الاجتماعية باكملها .

٢ — ان هذه السيكلوجية السائدة تتغير تبعا لتغير طابع العصر ومعنى ذلك فى لغتنا انها تتغير تبعا لظروف التطور الاجتماعى ويفسر المؤلف ذلك بانه فى الواقع توجد خصائص سيكلوجية عامة تتصف بها جميع طبقات المجتمع ..

"وعلى هذا النحو نجد فى النظام الاقطاعى سمات سيكلوجية مشتركة بين السيد النبيل وبين الفلاح مثل : التعلق بالاشياء القديمة والروتين والتقاليد والخضوع للسلطة والخوف من الله والركود الفكرى والكراهية لكل جديد .. الخ وهذا يعود فى الوقت نفسه الى سمة الركود فى المجتمع والى ان الفلاح كان تحت النظام الابوى سيدا وابا فى اسرته كما ان السيد كان سيدا وابا فى ضيعته " (١) .

ذلك هو تطبيق قول ماركس " ان وجود الناس هو الذى يعين مشاعرهم " وليس العكس . فالمجتمع الاقطاعى ذو البيئة الزراعية مجتمع متدين له تقاليد وفيه اسرة

---

(١) مقدمة فى علم الاجتماع : ارمان كوفيليه : ١١٧ .

والمحافظة على المرض فيه خلق اصيل فاذا تطور المجتمع واصبح صناعيا واستقلت المرأة اقتصاديا فان ذلك يستوجب تغيرا حتميا يساير التغير الاقتصادى والبيئى الحتمى هو الاخر ، ومعنى ذلك الا يظل المجتمع الصناعى المتطور محتفظا بشيء من الدين والاخلاق والتقاليد الزراعية الرجعية بل يجب ان يستحدث دينا جديدا وان كان "الالحاد" واخلاقا جديدة وان كانت "النفعية او المكيافيللية" وتقاليد جديدة وان كانت "الدياثة والاختلاط" .

ولما كانت الاخلاق مستمدة من الواقع الاقتصادى اساسا او البيئى على سبيل التعميم فان الشيوعية ترى كما ان لكل مرحلة اخلاقها الخاصة فان لكل بيئة بل لكل طائفة اخلاقها الخاصة ايضا . وليس هناك من معنى مشترك بين بنى الانسان .

" باية اخلاق يعظوننا اليوم ؟ انها اولا الاخلاق الاقطاعية المسيحية الموروثة من ايمان القرون الماضية وهى بدورها تنقسم اساسيا الى اخلاق كاثوليكية واخلاق بروتستانتيبة . الامر الذى لا يمنع انقسامها ثانية الى اقسام فرعية تذهب من الاخلاق الكاثوليكية واليسوعية ومن الاخلاق البروتستانتينية والارثوذكسية حتى الاخلاق الانفلاتية والى جانب هذا تقوم الاخلاق البرجوازية الحديثة ثم من جديد الى جانب هذه اخلاق المستقبل اخلاق البروليتاريا " .

واجابة على تساؤل " ما الصحيح اذن من هذه الاخلاق ولا واحد منها بمعنى مطلق نهائى ؟ " تجيب الشيوعية : " لكن الاخلاق التى تحتوى على النصيب الاوفى من العناصر الواعدة بالبقاء هى بالتاكيد الاخلاق التى تمثل فى الحاضر انقلاب الحاضر ، تمثل المستقبل . انها اذن الاخلاق البروليتارية " . ثم لكى تصل الشيوعية الى هدفها المقصود لامانع من ان تستدل على الدعوى بالدعوى نفسها :

" منذ نرى لكل من طبقات المجتمع الحديث الثلاث : الارستقراطية الاقطاعية ، والبرجوازية والبروليتاريا اخلاقها الخاصة فليس يمكن الا ان نستنتج من هذا ان الناس عن وعى او لا وعى يستمدون مفاهيمهم الاخلاقية فى التحليل الاخير من العلاقات العملية التى يقوم عليها وضعهم الطبقى اى من العلاقات الاقتصادية التى ينتجون بها ويتبادلون فيها " .

ثم تمثل الفلسفة الشيوعية لذلك : " منذ اللحظة التي تطورت فيها الملكية الخاصة للاشياء المنقولة كان لابد لجميع المجتمعات التي تسود فيها هذه الملكية الخاصة ان يكون فيها هذه الوصية الاخلاقية المشتركة : لاتسرق ، فهل يعني هذا ان تصبح هذه الوصية وصية اخلاقية سرمدية . ؟

كلا ابدا ففي مجتمع ازيلت فيه دوافع السرقة حيث السرقات بالتالي لا يمكن ان يرتكبها مهرور الزمن غير مجانين ، كم سيضحك الناس من الواعظ الاخلاقي الذي يود ان يعلن على رءوس الاشهاد الحقيقة السرمدية : لاتسرق !

ولهذا فاننا نرفض كل طمع بان تفرض علينا اية عقائدية اخلاقية كقانون سرمدي نهائي لا يتزعزع بعد اليوم بذريعة ان العالم الاخلاق هو ايضا مبادئه الدائمة التي هي فوق التاريخ والفوارق القومية " (٢)

ومن هذا المنطلق تبنت الشيوعية المذهب الميكافيللي نظريا وعمليا ـ كما مر في فصل السياسة ـ وقد أتى "اكتازيو سيلوني " بمثال على ذلك له مغزاه العميق : كان سيلوني باعتباره عضوا بارزا في الحزب الشيوعي الايطالي يشارك في جلسات الشيوعية الدولية وهو يحدثنا انه في أحد الاجتماعات نشب خلاف حول تطبيق قرار اصدرته اللجنة المركزية ، وقد ابدى بعض الاعضاء وجهة نظر مخالفة تجاه القرار ظهر انها معقولة فماكان من المندوب الروسي الا ان قال : " على جميع الفروع ان تعلن انها تخضع للقرار الذي صدر ثم تتصرف على عكس ذلك تماما " فقام المندوب الانكليزي مقاطعا " ولكن هذا يعتبر كذبا " ، يقول سيلوني : " وقد قوبل ذلك الاعتراض النزيه بعاصفة من الضحك الصادق الصادر من القلب والذي لا أحسب مكاتب الشيوعية الدولية الكئيبة قد سمعت مثله من قبل وقد ذاعت هذه " النكتة " سريعا في طول موسكو وعرضها اذ أن اجابة الانكليزي التي لاتصدق لم تلبث ان نقلت بالهاتف الى ستالين وكبار الموظفين في روسيا وكانت تثير في كل مكان عاصفة من الانبساط والضحك " (٣)

هذا وسنرى ان شاء الله بعض الواقع الاخلاقي الشيوعي ان كان لدى الشيوعية شيء اسمه أخلاق .

---

(٢) نصوص من انجلز : ١٥٩ ـ ١٦٠

(٣) الصنم الذي هوى : ١٢٦

٥ ـ النظرية العضوية والنفعيـــون

من بين النظريات الاجتماعية الكبرى تبرز النظرية العضوية التى يعد " هربرت سبنسر المع ممثليها (١) • ومن بين النظريات الاخلاقية " النظرية النفعية " التى حمل لواءهـــا " بنتام " و " آدم سمث " و " جون ستيوارت مل " ويمثلها فى هذا القـــرن " برتر اند رسل " •

ويصح لنا ان ننظر الى هاتين النظريتين ونعالجهما على اساس انهما يمثـــلان اتجاها واحدا فبالاضافة الى اتفاقهما فى البيئة " انجلترا " فهما تتقاربان او تتحـدان فى النظر الى الدين والاخلاق وهى الزاوية التى نعالج موضوعنا من خلالها كما انهمـــا يستمدان مفهوماتهما عن الانسان والمجتمع من نظرية التطور لاسيما النظرية الاولـــى التى يبدو هذا الاستمداد واضحا فى مسماها نفسه •

أما هربرت سبنسر فيرى ان " الاديان تخضع لقانون التطور كما تخضع جميـــع الظواهر الاخرى " ويأتى بتفسير خاص لنشاة الدين يتحدث عنه " بوترو " قائلا :

" ان نقطة البداية فى الاديان تبعا للترتيب التاريخى هى الواقعة الاولية التـــى تتعدد فينتج عنها صور مختلفة لا نهاية لها ليست شيئا اخر سوى مايسميه سبنســـر بالقرين " double " فالانسان يرى فى صفحة الماء صورته او قرينه وكذلك يرى نفســه فى الرؤيا كما يرى فيها صورة غيره من الناس •• وفى الانسان نزعة طبيعية تميل بـــه الى الاعتقاد ان القرين لايتلاشى ، كل مافى الامر انه ينصرف ولعله يظهر مرة اخرى فـــى حلم مستقبل حتى اذا حانت منية المرء سهل عليه الاعتقاد بان هذه الانا الغامضـــة لاتزال باقية وانها تنظل كثيرا وقليلا شبيهة بنفسه فهى اذن تشبه شبها بعيــــدا

---

(١) انظر علم الاجتماع ومدارسه : مصطفى الخشاب ج : ٣

أو قريبا ذلك الكائن المرئى الذى كانت قرينه ، ومن هنا نشأ الاعتقاد فى الارواح والكائنات الفائقة على الطبيعة وفى قوتها وتاثيرها فى حياة الانسان وهذا هو الاصل التاريخى للاديان فى نظر هربرت سبنسر والذى يلتقى فيه مع الابيقورية ثم تفرع عن هذا الاعتقاد المعتقدات والطقوس والنظم الكهنوتية .

" ولكل كائن واقعى قرينه الذى يمكن ان يعتبر روحا وقد احتشدت الارواح الدنيا على مر الزمن تحت سلطان الارواح العليا التى سميت بالالهة ثم انتهت هذه الالهة ذاتها الى الخضوع لاله واحد . وقد سعى الانسان الى تمثل هذه القوى الفائقة على الطبيعة والى جعلها قريبة ومحبوبة منه فنشأت من هذه الرغبة الخرافات الدينية او " الميثولوجيا " والرقى والعبادات والنظم التى نمت حسب قانون التطور ذاته الى الحد الذى لم تعد تحتفظ فيه لنفسها احيانا الا باثار ضعيفة جدا من اصلها .

" واذ فقدت هذه النظم بعد التطور الشديد لاعتقادات الناس اعتمادها على هدفها الاول فقد ظلت قائمة كرابطة اجتماعية وهى صفة بالغة الاهمية خلعها التطور على هذه النظم واصبحت الاديان من الان فصاعدا تمثل استمرار الجماعات ولذلك كان للافراد مصلحة عظمى فى احترامها " (٢) .

هكذا اجهد سبنسر خياله فى اختلاق جذور بعيدة واصول وهمية للدين كما فعل كونت ودوركايم وماركس ـ ليصل الى النتيجة الاخيرة وهى ان الاديان رابطة اجتماعية مصلحية وعلى هذه النتيجة مدار المذهب الاخلاقى النفعى فالواقع انه لم يزد على انه اعطى هذا المذهب قوة جديدة . ولناخذ "برترود اند رسل" نموذجا لهذا المذهب لانه لا يعبر عن المدرسة النفعية التى ابتداها بنتام فحسب بل يتحدث عن الواقع العملى لهذا المذهب الذى يسيطر على الحياة الغربية .

(٢) العلم والدين : ٧٨ ـ ٧٩

يقول رسل : " فصل الاخلاق عن اللاهوت اصعب من الفصل المماثل الذى حدث فى حالة العلم .. فالعديد من المفاهيم الاخلاقية التقليدية يصعب تفسيره بل وكثير منها يصعب تبريره الا على اساس من افتراض وجود اله او روح عالمى "او على الاقل هدف كونى ثابت .

" وانا لا اقول ان هذه التفسيرات والتبريرات مستحيلة دون اساس دينى ولكن اقـول بأنها بدون مثل هذا الاساس تفقد قدرتها على الاقناع وقوة الارغام السيكولوجى . وقـد كانت احدى الحجج التى يفضلها المتمسكون بالدين دائما انه بدون الدين يصيـر الناس اشرارا وقد انكر مفكروا القرن التاسع عشر الاحرار فى بريطانيا من بنتام الى هنـرى سيدجوك هذه الحجة انكارا شديدا " .

" ان موضوع امكان استقلال الاخلاق على اى صورة اجتماعية مناسبة عن الدين يجـب اعادة بحثه باكمله " (٣) . وقد قام رسل فعلا بذلك فوصل الى نتيجة مفادها أن الديـن ليس مصدر الاخلاق بل ان الاخلاق قد مرت بثلاث مراحل من التطور :

(١) اخلاق المحظور (تابو) — اى المحرم (٢) اخلاق الطاعة الالهيـة

(٣) الاخلاق الحديثة وهى اخلاق نفعية عقلية .

يقول رسل فى تفصيل ذلك :

"توجد المعتقدات والمشاعر الاخلاقية فى جميع المجتمعات الانسانية المعروفة حـتى أكثرها بدائية .. وبعض هذه المعتقدات مما يمكن الدفاع عنه على أسس عقلية بيد ان الغالبية الساحقة من المعتقدات فى المجتمعات البدائية خرافية بحتة . "

" والمحظور (تابو) هو احد المصادر الرئيسية للاخلاق البدائية فهناك بعض الاشياء خاصة تلك التى تخص رئيس القبيلة تحمل فى طياتها المنع واذا لمستها تموت . واشياء اخرى يقال انها مكرسة للروح ويجب الا يستعملها سوى ساحر القبيلة وبعض الاطعمـة مشروعة وبعضها غير مشروع وبعض الافراد يعتبرون قذرين حتى يتطهروا وينطبق ذلك خاصة على مثل اولئك الذين تلوثهم بعض الدماء فلا يقتصر الامر على من ارتكبوا جريمة القتل بل انه ينطبق على النساء اثناء الولادة ودورات الطمث " (سفر اللاويين : ١٥ ، ١٩ ، ٢٩)

وتظل صور الفضيلة التى اساسها "المحظور" باقية فى المجتمعات المتمدينة مدى اكبـر مما تدرك الناس فقد حرم فيثاغورث اكل البقول وكان امبيدوكليس يعتقد ان مضغ اوراق الغار فيه خطيئة ويرتجف الهندوكيون من مجرد فكرة اكل لحم البقر بينما يعتبر المسلمـون

---

(٣) المجتمع البشرى : ١٩

واليهود المتمسكون بالدين الخنزير غير طاهر .. وفي سنة ١٩١٦ ارسل احد رجال الدين من سكوتلانده كتابا الى الصحف يعزو عدم نجاحنا في الحرب ضد الالمان الى أن الحكومة شجعت زراعة البطاطس في ايام الاحاد . وجميع هذه الاراء لا يمكن تبريرها الا على اساس المحظور .

" وانتشار القوانين التي تحرم صورا مختلفة من الزواج بين افراد العشيرة هو مثل من خير الامثلة على المحظور فالقبيلة تقسم احيانا الى مجموعات وعلى الرجل ان يتخذ زوجته من مجموعة اخرى غير مجموعته . وتحرم الكنيسة الارثوذكسية زواج اباء الطفل الواحد في العماد ولم يكن الرجل يستطيع الى عهد قريب في انجلترا ان يتزوج اخت زوجته المتوفاة .

ومثل هذه الزيجات لا يمكن تبريرها على اساس ان الزيجات المحرمة تتضمن أي ضرر ولا سبيل الى الدفاع عنها الا على اساس من المحظورات القديمة .

" بل واكثر من ذلك ان صور الزواج من المحارم التي لم يزل معظمنا يعتبرها مما لا يتفق والشرع يستفظعها معظم الناس الى حد لا يتناسب مع الضرر الذى ينجم عنها ويجب أن نعتبر ذلك أثرا من آثار المحظور الذى كان موجودا قبل التبرير العقلي " (٤) .

" وقارن مثلا بين النفور المشمئز من زواج المحارم والتحريم الهادئ لجرائم مثل التزوير التى لا يدخل فيها عنصر الخرافة لان المتوحشين لا يستطيعون ارتكابها " (٥)

ثم ينتقل رسل الى الحد يث عن المرحلة الثانية :

" كلما بدأ الناس يتقدمون في المدينة قل قبولهم لمجرد المحظورات فاحلوا محلها الاوامر والنواهي الالهية ، فالاوامر العشرة تبدأ " ثم تكلم الله بجميع هذه الكلمات قائلا :

" ونجد في التوراة من اولها الى اخرها ان الرب هو الذى يتكلم ..

" وهكذا تصبح الطاعة جوهر الاخلاق والطاعة الاساسية هي طاعة المشيئة

---

(٤) يقول رسل ص : ٣٧ " لنفرض ان قنبلة ذرية قضت على سكان الكرة الارضية ولم يبق سوى شقيق وشقيقته فهل يجب عليهما ان يدعيا الجنس البشرى ينقرض" ويالها من دقة علمية وموضوعية في الاستدلال !!

(٥) المصدر السابق : ٢١ ـ ٢٢

الالهية ، بيد أن هناك صورا اخرى عديدة من الطاعة تستمد شرعيتها من ان الوان عدم المساواة الاجتماعية مصدرها مشيئة الله ، فالرعايا تجب عليهم طاعة الملك والعبيد طاعة سادتهم والزوجات طاعة ازواجهن والابناء طاعة ابائهم " (٦).

أما المرحلة الثالثة فيرى رسل ان لها اساسا قديما ايضا ولكن لم يعظم شأنها الا فى العصر الحديث : " ولقد كان هناك من اول الامر اساس مختلف للمشاعر والقواعد الاخلاقية وهو مبدأ الاخذ والعطاء او التراضى الاجتماعى . ولا يعتمد هذا كما هو الحال فى النظم الاخلاقية الاخرى .. على الخرافة ولا على الدين . انه ينبعث بصفة عامة عن الرغبة فى حياة هادئة . فعندما اريد شيئا من البطاطس مثلا فانى قد اتسلل ليلا واستولى على بعض منه فى حقل جارى ، وجارى قد ينتقم بان يسرق الفاكهة من شجر تفاحى .. وفى النهاية سنرى ان الامر يكون اقل ازعاجا واكثر راحة لو ان كلا منا احترم مال الاخر " .

" بالرغم من ان نظاما مثل هذا قد تساعده المحظورات او الشرائع الدينية الا انه يستطيع ان يظل قائما حتى بعد انهيارها حيث انه يتضمن على الاقل من ناحية النوايا مزايا للجميع ومع تقدم المدنية عظم الدور الذى يلعبه هذا النظام باطراد فى التشريع والحكم والاخلاق الخاصة ، ولكنه لم ينجح فى الايحاء بذلك الاحساس العميق من الاستفظاع او التوقير المتصل بالدين او المحظور " (٧) ولعل هذا الاستدراك من رسل (بالاضافة الى التراضى الاجتماعى والحياة الهادئة التى تسود الغرب اليوم (!)) يكفى لبيان قيمة العنصر الايمانى فى الاخلاق .

---

(٦) و (٧) المصدر السابق : ٢٤ / ٢٦ .

٦ ـ الدراسات النفسية الحديثة

يرى بعض الباحثين أن علم النفس المعاصر هو احدث العلوم جميعا لانه آخر علم استقل عن الدين والفلسفة ، ويعزون ولادة هذا العلم الى ثلاثة عوامل برزت فى منتصف القرن الماضى :

اولها : المنجزات الجديدة فى الطبيعيات وعلم وظائف الاعضاء .

والثانى : شارلس داروين الذى قدم عرضا لارائه عن علم الحياة التطورى الحديث .. والف كتابا بعنوان : " التعبير عن الانفعالات عند الانسان والحيوانات " ..

والثالث : ابحاث " التجريبيين الذين اسسوا لاول مرة " معامل الدراسات النفسية الحديثة " (١) .

واشهر المدارس النفسية المعاصرة على المستويين النظرى والتطبيقى ـ لاسيما من جهة صلتها بموضوع الاخلاق ـ مدرستان :

الاولى : المدرسة السلوكية (Behaviourism)

يرى " هارى ويلز " أن قيام علم نفس مادى يناهض الافكار الرجعية والمثالية كان يفتقر الى حلقة مفقودة هى ما أسماه " الميكانيزم المادى الذى يمكنه ان يفسر لنا كيف نتج وينتج الوعى بالطبيعة وكيف يعكس الوعى الواقع " .

ويقول : " لقد ظلت المادية تعانى ضعفا ما منذ ان كانت تفتقد هذه الحلقة اى منذ كان الميكانزم العصبى مجهولا واستغل المثاليون هذا الضعف واستفاد منه الرجعيون لنشر الجهل وتشويش الفكر وخلق اساطير عن الطبيعة البشرية " (٢)

---

(١) انظر هارى ويلز : فرويد وبافلوف ١/ ١٦ ، ١٧

(٢) المرجع السابق : ٨١ ، ٨٣

والباحث الذى استطاع ان يسد هذه الثغرة هو " بافلوف " بنظريته عن "الافعال المنعكسة الشرطية " . والمبدأ الاساسى الذى تقوم عليه المدرسة السلوكية هو " حيوانية الانسان وماديته " وذلك نتيجة لايمانها الاعمى بنظرية داروين وهو ايمان يبدو جليا سواء فى كتابات بافلوف او فى تجاربه العملية ، فقد كانت احدى المشاكل الكبرى التى يتوهم بافلوف انه وضع لها العلاج الناجح هى مشكلة " نشأة الوعى وتطوره فى النوع الانسانى منذ ان كان قردا الى أن أصبح انسانا " ويقول ايضا : " اكتسب عالم الحيوان فى مسيرة تطوره حتى بلغ مرحلة الانسان اضافة فريدة مكملة لميكانيزم النشاط العصبى " (٣) ويعنى بذلك النظام الاشارى .

أما خلاصتها الفكرية فتتمثل فى انكار الروح وانكار استقلالية العقل، والايمان بالجسد وحده واعتبار السلوك البشرى بأكله " افعالا شرطية منعكسة " لاغير أى أن السلوكية تدعم النظرية الماركسية القائلة ان " واقع الناس هو الذى يعين مشاعرهم " وتسند نظرية انجلز فى أن العمل هو الذى خلق الانسان اى طوّره عن القردة ومن هنا اطلق عليها الفيلسوف "جود " اسم " المادية الحديثة" (٤).

وعن ذلك يتحدث هارى ويلز قائلا :

" ونظرية بافلوف عن نظام الكلام وهو نظام قاصر على الانسان وحده هى النظرية التى تملأ الثغرة التى اشار اليها انجلز فى كتابه عن الانتقال من مرحلة القردة الى الانسان ".

(٣) المصدر السابق : ٨١/٨٣

(٤) انظر الفصل الذى كتبه عنها فى " منازع الفكر الحديث " .

" وهكذا نجد ان نظرية بافلوف عن العمليات العصبية الراقية اذ تمـــلأ تلك الثغرة فى المعرفة البشرية انما تقدم اسهاما جليلا للمادية ، فهى تزودنـا بالحلقة الاخيرة فى البرهان على صدق القضية المادية الاساسية القائلة بـــان الوعى او العقل البشرى ثانوى بالنسبة للمادة ومشتق منها .. ولهذا السبب نفسه تلقت المثالية ضربة ساحقة وان لم تكن القاضية والاخيرة وهى المذهب القائـــل بأن المادة ثانوية للنشاط العقلى ومشتقة منه " (٥)

" ان علم دراسة النشاط العصبى الراقى هو خطوة جديدة تؤكد وتعمـــق نظرية المعرفة المادية القائلة بان الوعى والمعرفة انعكاس للواقع وان الحق تطابـــق معه وفى هذا يقول لينين " يعكس الوعى الوجود بوجه عام وهذا هو مجمـــل موقف كل المذاهب المادية والاحساسات هى المواد الاولية التى يستخرج منهـــا الفكر والعلم التجريبيان الحقائق والقوانين التى تعكس الطبيعة وحركة العالـــم الخارجى ، وحجر الزاوية لاى نظرية مادية فى المعرفة هو القول بان الاحســـاسات صور للواقع انها منبهات صادرة عن الموضوعات الخارجية ولهذا يقول لينين " ان كل مفكر مادى يرى ان الاحساس ليس سوى رابطة مباشرة تربط العقل بالعالم الخارجى انه تحول لطاقة الاثارة الخارجية الى حالة ذهنية ويتم تحول هذه الطاقة من خـــلال الجهاز العصبى وهو ما اكتشفة بافلوف وعبر عنه فى صورة " الميكانزمات " المترابطـة التى تربط بين النظامين الكلامى والحسى " (٦) .

ذلك باجمال هو مضمون النظرية السلوكية عن الانسان وتفسيرها لتصرفاتـــه وقد كان لها مع فكرها المادى نظريا اسوأ الاثر فى التطبيق الواقعى فقد استغلهـــا

---

(٥) ،(٦) فرويد وبافلوف : ١ /٨٨_٩٢

الهدامون لنفي الفطرة وانكار القيم الخلقية المجردة كما ان طواغيت السياسة عرفوا كيف يستخدمون تجاربها على الشعوب بدلا من الكلاب مثلما استخدموا قانون الانتخاب الطبيعي من قبل وقد فصل العلامة " مالك بن نبي " الحديث عن ذلك مؤيدا بالشواهد الواقعية " (٧) .

والواقع ان بافلوف لم يكن الاول في القائلين بنظرية الفعل المنعكس الشرطي ولا هو اول السلوكيين فقد سبقه الى النظرية استاذه " ستشينوف " الذى الف كتابا اسماه : " الافعال المنعكسة للمخ " سنة ١٨٦٦ ، ولكن ظروف ماقبل الثورة الشيوعية كانت متحفظة تجاه الفكر الهدام ولذلك فان لجنة الرقابة في بطرسبرج شمت من الكتاب رائحة التآمر والافساد وناشدت النائب العام " لاتخاذ اجراء ضد كتاب الاستاذ أ.م ستشينوف المادي المتطرف على اساس انه يقوض دعائم الاخلاق في المجتمع لقد صاغ السيد ستيشنوف نظريته في ثوب رسالة علمية بيد ان اسلوبها ابعد مايكون عن الصيغة العلمية ذلك لانه كتبها باسلوب يسهل على القارىء العادي ان يفهمه . وتؤكد لنا هذه الحقيقة فضلا عن رخص سعر الكتاب ان المؤلف يقصد عامدا ان تكون نظريته سهلة التناول لاكبر عدد من القراء ويلزم عن هذا ان كتاب السيد ستشينوف " الافعال المنعكسة للمخ " مقصود به افساد الاخلاق فهو خارج عن القانون اذ يمثل خطورة على ضعاف العقيدة من الناس ومن ثم تجب مصادرته واعدامه " (٨) .

---

(٧) انظر كتاب "الصراع الفكري في البلاد المستعمرة " كما ان العلامة وحيد الدين خان قد رد على النظرية في كتابه الاسلام يتحدى ، فصل "الايمان بالاخرة" .

(٨) انظر فرويد وبافلوف ٤١ ، ٤٥ ،

ذلك ماتعرض له الاستاذ اما بافلوف التلميذ فقد كانت حكومة ستالين تقيم له المهرجانات وظل محط التكريم والتعزيز حتى وفاته سنة ١٩٣٦م ولاغرابة في ذلك " (٩) .

الثانية : مدرسة التحليل النفسي : (Psychoanalysis)

بافلوف وفرويد متعاصران وبينهما اوجه شبه لاسيما في النتائج والمقاصد التي وصل كل منهما اليها . الا ان الخلاف بينهما - في المنهج - عميق ، ذلك ان بافلوف انطلق من "الشعور" في حين ان فرويد انطلق من " اللاشعور " واعتمد بافلوف على تجارب موضوعية بينما اعتمد فرويد على تصورات ذاتية وتحليلات خاصة .

ومؤلفات فرويد جميعها تعبر عن " يهوديته " اكثر مما تعبر عن منهجه العلمي ان كان له علم او منهج ! وهذه " اليهودية " تظهر جلية في التدنيس والتلويث المتعمدين للجنس البشري . وهي ظاهرة بارزة في التوراة المحرفة (١) كما تتجلى في الافساد المتعمد للاخلاق والتآمر الخبيث على القيم الانسانية وهما مضمون وفحوى " التلمود " (٢) .

ويكفي للدلالة على ذلك موقف فرويد من المسيح عليه السلام " اقدس شخصية لدى اوربا النصرانية " . كان التلمود يصف المسيح عليه السلام باقذع النعوت واشنع الالقاب ولكن الكنيسة كانت تلاحقه في كل مكان بالحرق والمصادرة مما اضطر الحاخامات

(٩) انظر فرويد وبافلوف ٤١/٤٥ .

(١) دنست التوراة المحرفة الجنس البشري عامة ابتداء بالانبياء - نوح يسكر ، لوط يزني بابنته وهو سكران . داود يعشق زوجة قائده ويعرضه للقتل ليظفر بها الخ ماشوهت به سيرتهم الناصعة المعصومة وانتهاء بالسلالات البشرية "كنعان وذريته ملعونون ، الحيثيون ، الاشوريون الخ . الشعوب السهمة الملعونة كل ذلك بهدف تدعيم الزعم الفاسد بان اليهود شعب الله المختار وتبرير وسائلهم الخبيثة لابتزاز اموال الاميين وافساد اخلاقهم .

(٢) انظر الكنز المرصود في قواعد التلمود .

الى ترك مكان العبارات التى تذكر المسيح عليه السلام خالية ووضع مربعات فارغة محلها او الايماء اليه من طرف خفى . (٣)

غير ان فرويد استطاع بذكائه الخبيث وتمسحه بالعلمان يثأر للتلمود فجاء بتلك العبارات بنصها واقذع منها ونشرها علانية فى محاضراته وكتبه وهو آمن من ان تمسه يد سوء (٤) . وقس على ذلك موقفه من الدين والاخلاق .

وهذا يقودنا الى معرفة مدى التفسخ الذى وصلت اليه البيئة الاوربية والانهيار الدينى والخلقى الذى اجتاحها فكانت بيئة ملائمة لتفريخ افكار فرويد وتقبلها مما دفعها الى تفسخ اعظم .

فالفكر المادى تغلغل فى النفوس والنزعة الحيوانية المنفلتة اصبحت هى الصبغة العامة للحياة والثورة الصناعية وما صاحبها من تغيير فى البنية الاجتماعية وتفكك فى الحياة الاسرية ، هيأت ـ جميعها ـ الجو للهدم الاخلاقى والعقائدى ثم كانت الحروب الاقليمية والعالمية (الاولى) فقوضت دعائم المجتمع الاوربى وافقدته الثقة فى كل مبادئه ومعتقداته ونشرت الرعب والذعر فى القلوب وحطمت كل الاعراف والقوانين والاخلاقيات .

وصحب ذلك اسفاف مريع وهبوط شائن فى الادب والفن يسرته وعممته دور السينما وكتب الجنس وقصصه ولوحاته .

---

(٣) انظر التلمود : ظفر الاسلام خان . فصل "المسيح فى التلمود" .

(٤) انظر مثلا : "خمس حالات من التحليل النفسى جـ٢" .

يضاف الى ذلك ماكان يختلج دوما فى النفسية الاوربية من حقد عارم على الكنيسة وتحفز دائب للانتقام منها وشعور لا ينفك بالنقص والذنب وهو ما اورثته الرهبانية لها • كل هذه الامور هيأت الجو الملائم للهدامين التلمود يين لاطفاء الجذوة الباقية ونهش المزعة الاخيرة من جسد الخلق والفضيلة •

وقد عرفنا دورهم فى الثورة الفرنسية ثم فى قيام الراسمالية وتعرضنا لاستغلالهم للداروينية ثم عرضنا لماركس ودوركايم وافكارهما الهدامة والان يصل بنا البحث والزمن التاريخى الى ثالث الثلاثة " فرويد " وهو اكثرهم جرأة واصرحهم اسفافا •

والحق انه لم يفت بعض الباحثين الغربيين ان يدركوا الدوافع والمنطلقات الخفية للفكر الفرويدى بارجاعها الى يهوديته وتطبيق نظريته على نفسه وقد قال بعضهم : " من المؤكد ان مفهوم الانا العليا يجد مصدره فى ديانة درويد الاولى اليهودية " ان هذه الانا العليا هى القانون المتبطن بدءا من الشخصية الرئيسية الالهه باعتبارها ابا او من شخصية موسى باعتباره ابا ووسيطا معا " (٥) •

ولكن هذا الادراك لاحول له ولاطول امام الانتشار الفظيع للفرويدية الذى جاء كما لو كانت كشفا علميا مذهلا ويقع عبء ذلك على عاتق الصحافة الغربية التى تعمل دائما تحت تاثير المذهب اليهودى ووحى من المرابين اليهود •

---

(٥) بيير دوجيرولا : ٢٥٦ وفى الشرق طبق بعض المفكرين نظرية فرويد ووصلوا الى النتيجة نفسها وابرزهم من المسلمين الاستاذ محمد قطب " الانسان بين المادية والاسلام " ومن غيرهم صبرى جرجيس "الفكر الفرويدى والتراث التلمودى" •

تبدأ نظرية فرويد من زعمهبانه اكتشف المدخل الوحيد والسليم لدراسة النفس البشرية والحكم على سلوكها وهو " عقدة اوديب " ويعتقد فرويد انه اكتشاف عظيم حقا :

" يحق لى ان اقول انه لو لم يكن للتحليل النفسى الا فخر اكتشاف عقدة اوديب المكبوتة لكان ذلك وحده خليقا بان ينظمه فى عداد اثمن ماكسب الجنس الانسانى حديثا " (٦) .

فاى شىء ياترى عقدة اوديب هذه الجديرة بهذا التهويل ؟ .

يقول فرويد فى بيانها " يبدأ الولد الصغير فى سن مبكرة يشعر بالحب نحو أمه ، وهو حب كان فى الاصل متعلقا بثدى الام كما انه اول حالة من حالات حب الموضوع (٧) تنشأ على صورة الاعتماد على الام اما فيما يتعلق بالاب فان الولد يقوم بتقمص شخصيته وتبقى هاتان العلاقتان جنبا الى جنب لفترة من الوقت ثم تاخذ الرغبات الجنسية المتجهة نحو الام تزداد فى الشدة وياخذ الاب يبدو كانه يعوق تحقيق هذه الرغبات وعن ذلك تنشأ "عقدة اوديب " ثم ياخذ تقمص شخصية الاب بعد ذلك يتخذ صفة عدائية ، ويتحول الى رغبة فى التخلص من الاب لكى ياخذ مكانه من الام ، وتصبح علاقته الوجدانية مع الاب منذ هذه اللحظة متناقضة .

---

(٦) الموجز فى التحليل النفسى : ٦٦

(٧) الموضوع ـ عنده : الشىء الذى تتجه نحوه الطاقة الغريزية ويكون هدفا للتفريغ والاشباع .

" ويبد وكأنما هذا التناقض الوجداني - وهو امر طبيعي في التقمص منذ البداية - قد أصبح الان واضحا ، ويتكون من موقف التناقض الوجداني نحو الاب وعلاقة الحب الشديدة نحو الام مضمون عقدة اوديب الايجابية البسيطة عند الولد .

" وبزوال عقدة اوديب يصبح من الواجب الاقلاع عن حب الام ، وقد يملأ مكانها باحد امرين : اما بتقمص شخصية الام واما بتقمص شخصية الاب بدرجة شديدة . وترجع عقدة أوديب الكاملة الى الثنائية الجنسية الموجودة في الاصل عند الاطفال ، ومعنى هذا ان الولد لايقف فقط موقف التناقض الوجداني مع أبيه وموقف المحب من امه ، وانما هو يسلك ايضا في نفس الوقت سلوك البنت ويبدى ميلا انثويا عاطفيا نحو ابيه كما يبدى اتجاه العداء نحو امه والغيرة منها " (٨) .

واذا سمع احد هذا الكلام وتناوله على اساس انه صادر من انسان جاد يعني مايقول فان من بين الاسئلة التي يثيرها يبرز سؤال عن امكان وجود شعور جنسي لدى الاطفال ؟ . ولايدع فرويد هذا السؤال بلا جواب ، بل يفصل القول في ذلك معتمدا على " الخيال اليهودي " الدنس : " الحياة الجنسية لاتبدأ أولاً عند البلوغ وانما تتبدى عقب الميلاد بمظاهر واضحة " . " فنشاهد في عهد الطفولة المبكر علامات للنشاط الجنسي لايمكن ان ينكر عليها صفة الجنسية الا الرأى المفروض القديم " !!

وهذه عند فرويد هي المرحلة الجنسية الاولى ويتبعها فترة " كمون " لاتجد فيها آثار النشاط الجنسي ، أما الثالثة فهي مرحلة البلوغ .

---

(٨) الذات والغرائز : ٦٤/٦٨ .

ويعلق فرويد على ذلك مستنتجا " وهذا يؤدى بنا الى حقيقة هامة وهى أن الحياة الجنسية ترد على دورتين ، وهو مالانجده الا عند الانسان ولاشك ان له أثرا بالغ الاهمية فى تكوينه " . اما الدليل العلمى على ذلك فيعتقد فرويد انه الفرض القائل بان الانسان انحدر عن حيوان ثديى كان يبلغ النضج الجسمى فى سن الخامسة .

وهذا الدليل " العلمى! " لا يزودنا فرويد باية معلومات عنه ولا يخبرنا عن مصدره التاريخى العلمى . ولعله أعتمد على موجة رواج فرضية داروين التى بدأ فرويد ابحاثه فى عنفوان شبابها وكانت شهرتها الطاغية المدمرة تقطع اى تساؤل يثار حولها .

وعلى اية حال فان فرويد يشرح ذلك كما لوكان حقيقة علمية ثابتة فصلا فيقول : "اول عضو يظهر بوصفه منطقة شهوية تعرض مطالبتها اللبيدية (٩) على النفس هى الفم منذ الميلاد فالحاح الطفل فى المص وتشبثه به فى مرحلة مبكرة ينم بوضوح عن حاجته الى الاشباع .. يمكن بل يجب ان توصف بانها جنسية " .

أما المرحلة الثانية فهى "المرحلة السادية الشرجية لان الاشباع فيها يطلب فى العدوان وفى وظيفة الاخراج " .

و "المرحلة الثالثة نسميها "المرحلة القضيبية " .. ومع المرحلة القضيبية وفى خلالها تبلغ الجنسية الطفلية الاولى ذروتها وتقترب من اضمحلالها ومن الان فصاعدا تختلف مصائر الصبيان والبنات فيدخل الصبى الطور الاوديبى وياخذ يعبث بقضيبه عبثا تصحبه اخيلة انه يزاول نوعا من النشاط الجنسى ذا صلة بأمه .. ! (١٠)

(٩) اللبيدو عنده : الطاقة النفسية المتعلقة بالغرائز الجنسية

(١٠) الموجه فى التحليل النفسى ٢٢ـ٢٥ وانظر معالم التحليل النفسى ٦٢ـ٦٧ .

والى الان فان غرض فرويد من هذه الفرضيات والاوهام القذرة مايزال غير واضح تماما لكنه يأخذ في ايضاحه باضافة فرض اخر ناشىء عن عقدة اوديب هو ما أسماه " الانا المثالي " :

" فالانا المثالي هو اذن وريث عقدة اوديب ولذلك فهو ايضا نتيجة اقوى الدوافع واهم التقلبات التي مرت بالليبيد و في الهو (١١) وتكون هذا الانا المثالي يقوم الانا بالتغلب على عقدة اوديب كما يقوم في نفس الوقت بوضع نفسه تحت سلطة الهو " (١٢) .

واذ قد وصلت السلسلة الوهمية الى هذا الحد يبدأ فرويد في الافصاح عن مرماه البعيد :

" من السهل ان نبين ان الانا المثالي انما يكون من جميع الوجوه ماينتظر من طبيعة الانسان السامية، ومن حيث انه بديل لشوقه نحو الاب فهو يحوى على الاصل الذى منه نشأت جميع الاديان وان حكم النفس بان الاناقد فشل في تحقيق ماهو مثالي عنده انما يحدث بالاحساس بعدم الجدارة وهو الاحساس الذى يثبت به المتدين شوقه وعندما يكبر الطفل تنتقل سلطة الاب الى المدرسين والى الاشخاص الاخرين ذوى النفوذ وتظل سلطة اوامرهم ونواهيهم باقية في الانا المثالي وهي تستمر تزاول رقابتها على الاخلاق في صورة الضمير " .

---

(١١) الهو : حسب نظريته ـ هو ذلك القسم من النفس الذى يحوى كل ماهو موروث وغريزى وثابت في الانسان .

(١٢) الذات والغرائز : ٧٥

" ان الدين والاخلاق والشعور الاجتماعي ــ وهي العناصر الاساسية لما هو اسمى في الانسان ــ انما كانت في الاصل شيئا واحدا وقد اكتسبت هذه الاشياء تبعا للغرض الذي وضعته في كتاب "الطوطم والمحرم عن عقدة الأب اثناء نشوء النوع الانساني فاكتسب الدين والوازع الخلقي عن العملية الحقيقية للتغلب على عقدة اوديب نفسها .." (١٣)

وقبل ان نتعجل ونقول ان هذا الهراء المتعمد لا دليل عليه ولا غرض له الا الانتقام المتعمد من "الاميين " بتلويث دينهم وأخلاقهم فانعلينا ان نبحث عن الغرض الذي ذكره فرويد عن الانسانية في مرحلتها الاولى فلعل فيه شيئا من العلمية " اوقل : شيئا من النظافة .

قرأ فرويد لداروين انه " في عالم البقر تتجه الثيران الفتية للحصول على البقرة الام فتجد اباها عائقا في الطريق فتتجه كلها نحوه لتقتله فاذا فرغت من ذلك عادت فاصطرعت فيما بينها حتى يتغلب احدها ــ وهو اقواها ــ فيفوز وحده بالام ويصبح هو السيد الجديد " .

ونقل فرويد بخياله الجانح هذه القصة من عالم الحيوان الى عالم الانسان ليبني عليها فرضه المزعوم فهو يذكر في كتابه "الطوطم والمحرم " ان الابناء في مطلع البشرية اتجهوا نحو امهم بدافع الجنس واذ رأوا اباهم يحول دون ذلك قتلوه وبعدها احسوا بالندم على قتله وعمدوا الى تقديس ذكراه فعبدوه وبذلك نشأت العبادة البشرية الاولى " عبادة الاب " ثم تحولت الى عبادة الطوطم وهو الحيوان الذي اعتقد الابناء ان له صلة بالاب وكان تحريم اكل الطوطم احد المحرمين الكبيرين لدى البدائيين اما المحرم الثاني فهو الزواج من المحارم واصله ان هؤلاء الابناء راوا انهم سيتقاتلون من اجل الحصول على الام فاتفقوا على تحريمها

---

(١٣) الذات والغرائز : ٧٦ ــ ٧٧

على الجميع ومن ذلك نشأ اول تحريم جنسى وظلت البشرية تحرم الزواج منهـــا ثم انتقل الى سائر المحارم " (١٤) .

يقول " فلوجنل " :

" كان أكثر تطبيقات علم النفس على الانثروبولوجيا اثارة هو بلا شك مؤلف فرويـــد " الطوطم والمحرمات " .. وقد حاول فرويد فى تطبيقه لتلك الافكار على الطوطميـــة ان يشرح احد المحرمين الكبيرين للمجتمع الطوطمى وهما تحريم اكل الحيوان الطوطـم وتحريم الزواج الداخلى فارجعهما الى جانبى مركب " اوديب " : الرغبة فـــــى قتل الاب والزواج من الام ، وبهذا الشكل يبدو عيد الطوطم .. ومشتقاته .. بما فى ذلك تناول الخبز المقدس فى الكنيسة المسيحية ضاربة الجذور فى اتجـــاه الرجل البدائى المتناقض وجدانيا " (١٥) اى بين محبة الاب من ناحية والرغبـــة فى قتله للحصول على الام من ناحية .
وبهذا يتضح تهافت الأسس التى قامت عليها الفرويدية ، أما أثرها الهدام فسيأتى بيانه قريبا .

اذا ادركنا ذلك وادركنا " القيمة العملية " لهذا الخط فلن نحتاج الا ان ننقل ما تقوله بروتوكولات حكماء صهيون :

" يجب ان نعمل لتنهار الاخلاق فى كل مكان فتسهل سيطرتنا .. ان فرويـــد منا وسيظل يعرض العلاقات الجنسية فى ضوء الشمس لكى لا يبقى فى نظر الشبـــاب شىء مقدس ويصبح همه الاكبر ارواء غرائزه الجنسية وعندئذ تنهار اخلاقه " (١٦).

---

(١٤) انظر التطور والثبات فى حياة البشر : محمد قطب : ٤٨ـ٤٩ ويرى فرويـــد بعد ذلك ان الانسان قد تطور وفى اثناء تطوره مرض بالدين " اننا ان حاولنا ان نحدد للدين مكانه فى تاريخ تطور الانسانية لم يبد انه كسب خالد بقدر ما يبدو انـــه نظير للمرض النفسى الذى لابد ان يجتازه الانسان المتحضر وهو يتطور من ســـن الطفولة الى سن النضج " محاضرات تمهيدية فى التحليل النفسى ١٥٩ .

(١٥) علم النفس فى مئة عام : ٢٣٣ .

(١٦) البروتوكولات :

واقع المجتمع اللاديني المعاصر

بمجموع الاتجاهات والمدارس الفكرية وتضافر عوامل اخرى مساندة كفرت اوربا بالدين والاخلاق ونبذ المجتمع كل مقوماته المستمدة من هذين واصبحت القيم العليا فيه هى القيم المادية النفعية تحدوها ميكافيللية صريحة واضحى التعامل الاجتماعى قائما على الرابطة المصلحية وحدها ممثلة فى " عقد اجتماعى " او " اخلاق تجارية وكما ترى فلسفة الذرائع " البراجماتيزم " (١) لم يعد للاخلاق قيمة ذاتية وانما يحكم على اى تصرف وتعامل من خلال ماينجم عنه عمليا من المصلحة النفعية ..

فماذا جنت المجتمعات الغربية من ذلك كله .. ؟

يقول موءلفو " تاريخ البشرية " :

" كانت فكرة الانسان عن نفسه كما ظهرت فى منتصف القرن العشرين تعكس فهمه المتغير لعلاقته بالمجتمع والطبقة والله : ففى معظم انحاء العالم وخلال طبقات اجتماعية كثيرة وعلى نطاق واسع راى الناس انهم قد سيطروا على قوى جديدة وفرص جديدة وانهم بسبيل هذه السيطرة فاعتقدوا انهم بصدد فجر جديد لا يمكنهم الا اجتلاء ملامحه بسرعة اما مستقبله واحتمالاته فتدعو الى الابتهاج والى الذعر فى وقت واحد .

---

(١) فلسفة يتزعمها وليم جيمس وجورج سانتيانا وهى المعروفة بالفلسفة العملية لانها تنكر القيم المجردة والاحكام الموضوعية ولاتوءمن الا بالنتيجة العملية لاى سلوك وتدين بها امريكا المعاصرة .

لقد احس الناس في طول العالم وعرضه انهم في سفينة قد انقطعت اسبابها بالبر وعليهم ان يقودوها بغير خريطة عبر بحار مجهولة ، كان هذا عند البعض بمثابة مغامرة كبرى لاتخلو من نشوة وكان عند البعض الاخر خطرا يهدد بالويل الكبير لقد وجد الانسان الحديث نفسه في موقف ملئ بالمتناقضات، وكلما ازداد سيطرة على بيئته زاد شعورا بعجزه امام القوى التي كان اطلاق بعضها من صنعه، وكلما زادت درايته بالعالم خارج نطاق بيئته المباشرة قلت قدرته على التصرف المباشر ازاء كثير مما يبدو انه يؤثر على حياته اليومية، وكلما زادت المعرفة الجديدة من تقويضها لليقينيات السابقة وكلما غيرت القوى الاجتماعية في النظم القديمة تزايد شعور الانسان بالحاجة الى مصدر من مصادر الامن والطمانينة يقوم عنده مقام المصادر التي فقدها " (٢)

انه الافلاس وانها الحيرة والضياع ..!!

يقول : ر. بوسكيه وزميله عن مشكلة الانسان المعاصر :

" اين انا ؟ في اى عصر ؟ وفي اى وضع مازلت مشتبكا ؟ اهناك مايربطني بالماضي والمستقبل وبالاخرين من اهل عصري ؟ هل يمكن ان يجلب لي ذلك شيئا ما ؟ وبكلمة واحدة اين مكاني ؟ . "

" هكذا يبدو الانسان في المجتمع المعاصر مسيرا بالهيئة التي يعيش فيها لقد فقد اعظم نصيب من حريته الداخلية ومن احساسه بمسؤولياته ولن تكون الانسانية سيدة مصيرها قبل ان يظفر الانسان بحريته الباطنه واحساسه

---

(٢) ٢/٢٦ : ١ ص ٢٤ ـ ٢٥

بمسؤولياته ولكن أهو مستطيع هذا ؟ ذلك هو السؤال الذى يجب أن نضعه لانفسنا . " .

" إن مجتمعنا منظم فى مجال التقنية والاقتصاد تنظيما عظيما ولكنه ليس كذلك فى المجال البشرى فنحن نعيش على اراء واخلاقيات واجتماعيات وفلسفات وسيكلوجية القرن التاسع عشر ومازلنا كأجدادنا أو أجدادنا ومن المحتمل اننا مازلنا نعيش على تنظيم ينتمى الى القرن التاسع عشر ، لم يعد من الممكن ان نحيا فى عصر الصواريخ وفق قواعد عصر الحصان ويمكن تفسير التفاوت بين التقدم الاقتصادى والتقدم الاجتماعى بسوء التكيف وسوء نظام مجتمعنا " .

" ان التطور الاقتصادى ليترجم الاختراعات العلمية التقنية الى ثروات جديدة وبيد و الانسان وكأنه يغزو شيئا فشيئا الكوكب الذى يعيش فوقه ، عرف الطبيعة سيطر على الطاقة ، استغل موارد الارض ظاهرها وباطنها .. ومع هذا لاينتفع المجتمع كله من هذه الحركة .. حتى داخل البلاد الصناعية نجد غالبا نفس الفوارق حسب الاقاليم والفئات الاجتماعية ويزيد من خطورة هذه الفوارق ازدياد الحاجات التى تثيرها اغنى الجماعات وكذلك التقدم الفنى والتنظيم التجارى وتلك دائرة جهنمية تدل على نقص فى التنظيم الاجتماعى وكفاح مرير تحاول فيه كل مجموعة وكل فرد الدفاع عن مصالحه الخاصة قبل كل شيء " (٣)

ولنستمع الى تجربة شاب اوروبى معاصر وهو يروى معاناته ومعاناة جيله كله :

---

(٣) الانسان فى المجتمع المعاصر : مقتطفات : ١٦/٤٤/١٣٢/٢٢٠

" لقد تميزت العقود الاولى من القرن العشرين بالفراغ الروحي ، لقد اصبحت جميع القيم الاخلاقية التي الفتها اوربا عدة قرون غير ذات شكل مقرر محدود ، وذلك بفعل الفظائع التي كانت قد حدثت مابين عام ١٩١٤ ـ ١٩١٨ ولم يكن يبدو ان مجموعة جديدة من القيم ستفرض نفسها ، لقد كان في الجو شعور من الهشاشة والخطر واحساس مسبق بالجيشان الاجتماعي والعقلي جعل المرء يشك فيما اذا كان من الممكن ان يكون هناك مرة اخرى استقرار في افكار الانسان ومساعيه ، كان كل شيء يبدو وكانه يسيل في فيضان غير منتظم ولم تستطع الحيرة الروحية لدى الشباب ان تجد لنفسها موطىء قدم وبسبب فقدان المقاييس الاخلاقية الموثوق بها لم يستطع احد ان يقدم الينا ـ نحن الشباب ـ اجوبة مرضية عن كثير من الاسئلة التي كانت تحيرنا كان العلم يقول " المعرفة هي كل شيء " ونسي ان المعرفة دونما هدف اخلاقي لايمكن ان تؤدي الا الى الفوضى والغموض .

" ان المصلحين الاجتماعيين والثوريين والشيوعيين لم يكونوا يفكرون الا بمقتضى ظروف خارجية اجتماعية اواقتصادية ومن ناحية اخرى فان رجال الدين التقليديين لم يعرفوا شيئا افضل من ان يعزوا الى الههم صفات مقتبسة من عاداتهم الخاصة في التفكير، تلك العادات التي كانت قد اصبحت باردة لامعنى لها منذ زمن طويل وعندما راينا نحن الشباب ان هذه الصفات الالهية المزعومة كثيرا ماكانت تتناقض الى ابعد الحدود مع ماكان يجرى في العالم من حولنا كنا نقول لانفسنا " ان القوة الدافعة للقضاء والقدر تختلف بصورة جلية واضحة عن الصفات المعزوة الى الله واذن فان الله غير موجود " .

" ولم يخطر الا لعدد قليل جدا منا ان السبب في كل هذه الفوضى والاختلاط قد يكون مرده الى استبداد حماة الدين الذين يزعمون انهم هم الصالحون والذين كانوا يزعمون ان من حقهم ان يعفوا الله والذين يالباسهم اياه ثيابهم الخاصة قد فصلوه عن الانسان ومصيره .

هذا التحول الاخلاقي في الفرد كان يمكن ان يؤدي الى الفوضى الاخلاقية والشك او الى ايجاد ملتمس شخصي خلاق لما يمكن ان يشكل الحياة الطيبة .

" وفي ابان العملية العامة لانحلال المقاييس الاخلاقية الثابتة بعد الحرب العظمى زال كثير من الحواجز بين الجنسين ، ان ما حدث لم يكن في اعتقادي ثورة على المحافظة التي كانت سائدة في القرن التاسع عشر بقدر ما كان ارتدادا سلبيا من واقع كانت بعض المقاييس الاخلاقية المعينة فيه ابدية غير قابلة للشك الى حالة اجتماعية كان كل شيء فيها مدعاة للشك ، انتقال رقاص الساعة من اعتقاد الامس المريح باستمرار تقدم الانسان ورقيه الى الصحو المرير الذي دعا اليه شبنجلر الى النسبية الاخلاقية لنيتشه فالى العدمية الروحية التي غذاها واحتضنها التحليليون النفسيون " (٤)

والحق ان واقع المجتمعات اللادينية في الارض مما يكاد يعجز الادراك عن تصور فظائعه واهواله وان ما تعانيه من ازمات وتتلوى فيه من جحيم قد اعيى الفلاسفة واقلق بال المصلحين وروع قلوب المشفقين وأثار تشاؤمية الشعراء والروائيين حتى ان كثيرا من الناس هناك نفض يده من كل أمل في الخلاص من دائرة مستحكمة الحلقات واستسلم الى حلم الموت اللذيذ يتعجله بيده او يرتقبه بفارغ الصبر . !

وليس في استطاعتنا ان نلم اطراف الحديث عن هذا المجتمع الساقط الهابط من كل زواياه ولكننا سنكتفي بعرض صور من مأساته من خلال مناقشة قضية واحدة من قضايا الدين والخلق وهي في الواقع القضية الخلقية الكبرى في التاريخ .

---

(٤) محمد اسد ، الطريق الى الاسلام : ٨٥ — ٨٨ .

نموذج واحد للمأساة !

ان خير مثال يمكن ان يتخذه المرء مقياسا للمستوى الاخلاقى فى اوربا لهو قضية " العرض " ومكانة المرأة فى المجتمع فقد تفاوتت هذه القضية بين تزمت الرهبانية الكنسية وانحلال الاباحية الفرويدية ، واتخذت مسارا تاريخيا جديرا بالملاحظة والتتبع .

كانت الكنيسة تردد ماقالته الاساطير الاغريقية من ان المرأة هى السبب فى الشر فى الارض وهو ما عمقته التوراة المحرفة بجعلها المرأة سببا فى اغواء الرجل والوقوع فى الخطيئة (١) . وجريا على ذلك قال احد رجال الكنيسة لتلاميذه مرة :

" اذا رايتم امرأة فلا تحسبوا انكم ترون كائنا بشريا بل ولا كائنا وحشيا وانما الذى ترون هو الشيطان بذاته والذى تسمعون هو صفير الثعبان " (٢) .

وقد تكون " راى ستراتشى " احدى المطالبات بحقوق المرأة فيما بين الحربين صادقة حينما قالت عن الرهبانية " يستفاد من النظرية التى اوحت بهذا التطاول على المرأة ان الشهوة الجنسية هى أشنع الخطايا جميعا ، وانها كانت فى الحقيقة الخطيئة التى سببت سقوط الانسان ، وان العفة الكاملة هى اعلى مثل فى الحياة وانه يجب ان يلعن النساء لانهن سبب الغواية ، وكان يقال ان الشيطان مولع بالظهور فى شكل انثى وانما لما زار النساك بهذه الصورة فى كهوفهم الجبلية وصفوة القول أن مجرد التفكير فى النساء كان خطرا وان المرأة نفسها كانت نحسا من النحوس " (٣) .

وقد انعكس هذا المفهوم على وضع المرأة فى عصر الاقطاع عامة اذ كانت كما نقل راندال : " تربى المرأة الخادمة لتتعلم اصول حياة الزوجية فتعمل بشروط منهكة قاسية وتتغذى بلحم فج بسيط وترتدى ثيابا رثة وتظل تحت العبودية والرق ، واذا حملت يؤخذ الطفل من رحمها للعبودية .. تباع المرأة الخادمة المستعبدة وتشرى كالحيوان " (٤) .

---

(١) انظر " اساطير الاغريق من سلسلة تراث الانسانية وسفر التكوين صح ٣/
(٢) اشعة خاصة بنور الاسلام : ٢٩
(٣) تاريخ العالم ١ / ٢٩٧
(٤) تكوين العقل الحديث ١ / ١٤٦

لكن على الرغم من هذا فقد كان العرض له قيمته العظمى وكانت المحافظة عليه معيار الشرف والرجولة اى انه كان هناك ارتباط تاريخي بين اهدار قيمة المرأة معنويا واقتصاديا وبين المحافظة الشديدة على العرض وهي ثغرة لم تتعدم من ينفذ منها فيما بعد . وبقيام الثورة الفرنسية بدأت الشرارة الاولى فى القضية التى اسميت " قضية المرأة " وتعتقد راى ستراتشي[*] ان الثورة فى ظاهرها لم تفد النساء فائدة مباشرة " وترى أن فائدتها تعود الى "ان النظرية المعنوية للحرية البشرية كانت قد سادت وكان لابد من ان تظهر دلائلها ان عاجلا وان آجلا " (٥) .

عندئذ ظفر الهدامون ببغيتهم المنشودة وسنحت لهم الفرصة التي طال ارتقابها الا ان الموضوع لم يبرز الى حيز الواقع الملموس الا بعد الانقلاب الصناعي الذى جر الويلات والمصائب على المجتمعات الغربية عموما والطبقة الدنيا خاصة . فقد استغل الراسماليون الربويون عوز الناس والمجاعة التى اجتاحت الاسر الكادحة لتشغيل النساء فى مصانعهم بأجور زهيدة وكان النساء فى مناجم الفحم يجررن العربات المحملة فى دهاليز واطئة ويحملن اثقالا عظيمة من الفحم الى السطح ويرقين سلالم شديدة الانحدار أو درجا حلزونية (٦) . وعلى الرغم من ذلك فلم يخل الامر من فائدة نسبية للنساء الفقيرات اذ ادى الى تحسين نسبي فى معيشتهن والى شيء من التعديل فى القيمة الاجتماعية للمرأة . وقد ركز الهدامون وابواقهم على هذه الفائدة النسبية واسموا هذا التحول الاجتماعي "تحريرا للمرأة " وراج هذا الاصطلاح فى الصحافة حتى اصبح رمزا خداعا للمخطط الذى كان الهدامون التلموديون يدبرونه فى الخفاء . واسهم الكتاب ـ على اختلاف مقاصدهم ـ فى ترسيخ ذلك حتى لقد قال هارولد لاسكي بعد الحرب الاولى : "لم تتحرر النساء من اغلالهن الا بعد ان جعل الانقلاب الصناعي جهودهن الاقتصادية مظهرا مالوفا من مظاهر المجتمع فلم يكن بد من الاعتراف بهذه الجهود وعندئذ فتحت لهن ابواب الاعمال التى ظن الناس ان دخولهن فيها ضرب من المحال وما زاد عدد المختزلات وعاملات المصانع والحوانيت فاصبحت هذه الزيادة وحدها تحتم تحريرهن من القيود السياسية وكان

---

(٥) تاريخ العالم ١/٤٠٠

(٦) المصدر السابق ١/٤٠١

حقهن في حماية مصالحهن الاقتصادية يتضمن ان القضاء والجمعية التشريعية بل الشرطة لم يكن يستطاع ابقاؤها مغلقة دونهن وتجادل الناس خمسين عاما في هذا الامر فلم ينتهوا الى شيء ذي غناء حتى جاءت الحرب بضراوتها فاوضحت ما للمرأة من شأن خطير في الحياة الاقتصادية ولم يعد في وسع الرجل الذي اشاح عن كل نداء ان يعرض عما انطوى عليه هذا المشهد الذي زادته الحرب روعة وجلالا ". (٧)

هكذا صور البعض ولكن الواقع كان شيئا اخر يختلف تمام الاختلاف مما حدا بالكثرين الى رفع صيحات الخطر والتحذير حتى من النساء انفسهن :

تقول الكاتبة الانجليزية " انى رود " عن ذلك :

" اذا اشتغلت بناتنا في البيوت خوادم او كالخوادم خير واخف بلاء من اشتغالهن في المعامل حيث تصبح البنت ملوثة بأدران تذهب برونق حياتها الى الابد .

أياليت بلادنا كبلاد المسلمين حيث فيها الحشمة والعفاف والطهارة رداء الخادمة والرقيق اللذين يتنعمان بارغد عيش ويعاملان معاملة اولاد رب البيت ولا يمس عرضهما بسوء . نعم انه عار على بلاد الانكليز ان تجعل بناتها مثلا للرذائل بكثرة مخالطتهن للرجال، فما بالنا لانسعى وراء مايجعل البنت تعمل مايوافق فطرتها الطبيعية كما قضت بذلك الديانة السماوية وترك اعمال الرجال للرجال سلامة لشرفها " (٨) . وتقول الكاتبة اللادى كوك ايضا :

" ان الاختلاط يألفه الرجال ولهذا طمعت المرأة بما يخالف فطرتها وعلى قدر الاختلاط تكون كثرة اولاد الزنا ولايخفى مافي هذا من البلاء العظيم على

---

(٧) المصدر السابق : ١/ ٤٠٩

(٨) الاسلام روح المدنية : مصطفى الغلاييني : ٢١١

المرأة فياأيها الاباء لا يغرنكم بعض دريهمات تكسبها بناتكم باشتغالهن في المعامل ونحوها ومصيرهن الى ماذكرنا فعلموهن الابتعاد عن الرجال اذدلنا الاحصاء على أن الهلاء الناتج من الزنا يعظم ويتفاقم حيث يكثر الاختلاط بين الرجال والنساء الم تروا ان أكثر اولاد الزنا امهاتهن من المشتغلات في المعامل ومن الخادمات في البيوت ومن اكثر السيدات المعرضات للانظار .

ولولا الاطباء الذين يعطون الادوية للاسقاط لراينا اضعاف ما نرى الان ولقد أدت بنا الحال الى حد من الدناءة لم يكن تصوره في الامكان حتى اصبح رجال مقاطعات من بلادنا لا يقبلون البنت مالم تكن مجربة اعنى عندها اولاد من الزنا فينتفع بشغلهم وهذا غاية الهبوط في المدنية . فكم قاست هذه المرأة من مرارة الحياة حتى قدرت على كفالتهم والذى اتخذته زوجا لها لا ينظر لهؤلاء الاطفال ولا يتعهدهم بشيء يكون . ويلاه من هذه الحالة التعيسة . ترى من كان معينا لها في الوحم ودواره والحمل وأثقاله والفصال ومرارته " (٩) .

وكتب احد علماء الاخلاق قائلا :

" ان النظام الذى يقضى بتشغيل المرأة في المعامل ودور الصناعات مهما نشأ عنه من الثروة فان نتيجته كانت هادمة لبناء الحياة المنزلية لانه هاجم هيكل المنزل وقوض اركان العائلة وفرق الروابط الاجتماعية فانه بسلبه الزوجة من زوجها صار بنوع خاص لا نتيجة له الا تسفيه اخلاق المرأة لان وظيفة المرأة الحقيقية هي القيام بالواجبات المنزلية كتربيتها اولادها وترتيبها مسكنها والاقتصاد في وسائل معيشتها مع القيام بالاحتياجات العائلية ولكن المعامل سلختها من كل هذه الواجبات بحيث اصبحت المنازل غير منازل واضحت الاولاد تشب على غير التربية الحقيقية لكونها تلقى في زوايا الاهمال وطفئت المحبة الزوجية وخرجت المرأة عن كونها الزوجة الظريفة والقرينة المحبة للرجل وصارت زميلته في العمل والمشاق (١٠)

لكن هذه التحذيرات البالغة لم تغير من الواقع شيئا وانما نبهت القوى الشريرة الى اسكات مثل تلك الاعتراضات بايجاد البديل غير الطبيعي . فقد شُيدت المحاضن ودور الرعاية لتربية اولاد الزنا وتنوعت الادوية المانعة من الحمل بدلا من المسقطة للجنين

---

(٩) المصدر السابق : ٢١٢

(١٠) دائرة معارف فريدى وجدى : ٨/٦٣٩

واستطاع الهداموون ان يجعلوا تعليم البنات حقيقة واقعة وهى خطوة من غير المستطاع الرجوع عنها كما ان الازمات الاقتصادية ـ التى كان لهم دور فيها ـ دفعت بالعجلة الى الامام واصبحت القضية الشاغلة للنساء وللكتاب النسائيين هى المطالبة بمساواة الرجل فى الاجور ومناهج التعليم والمقاعد النيابية ٠٠ الخ وتنوسيت المشكلة الاساسية " مشكلة خروجها من البيت " حتى لم تعد تجد من يتحدث عنها ٠

وقام كتاب وصحفيون يفلسفون الواقع ويطالبون بالمزيد ٠ فقال برتراند رسل :

" انى لا اميز فرقا البتة بين ما يسمونه الذكر وما يسمونه الانثى ، نعم يستحسن فى المراة التى سيعهد اليها بالعناية بالاطفال الصغار ان تتلقى قدرا معينا من الاعداد المهنى لكن هذا لا يستلزم من الفروق الا شبه ما بين الزارع والطحان وهذا ليس اساسيا باية حال من الاحوال ولا يتطلب منا اعتبارا ونحن فى مستوانا الحاضر " (١١) ٠

وتطورت المطالب حتى اصبح الكتاب النسائيون يطالبون بالمساواة بين الرجل والمرأة فى الفساد ويصبون اللعنة على المجتمع الذى ينكر زنى الفتاة ويغض نظره عن الجريمة نفسها بالنسبة للفتى ٠ يقول رسل ايضا : " يجب ان يعالج الجنس من البداية كشىء طبيعى مبهج ومحتشم ٠ واذا اردنا ان نفعل خلاف ذلك فاننا نكون سممنا العلاقات فيما بين الرجل والمرأة وبين الاباء والاولاد " ٠

" ان الفضيلة التى تستند الى الجهل لاقيمة لها وان الفتيات لهن نفس الحق فى المعرفة (الجنسية) كالفتيان " (١٢) ٠

" وهناك شىء اساسى فى تعليم حب الجنس فلا ينبغى اعتبار الغيرة الحاحا مبررا على الحقوق بل هى ماساة لمن يشعر بها ٠ وهى خطأ بحق من تستهدفه " (١٣) ٠

ويضرب امثلة لذلك فى كتاب اخر : " فى ولاية نيويورك حيث يعتبر الزنا جريمة عقوبتها السجن لم تقم حركة ذات اثر لتغيير القانون فى هذا الشأن ٠ ويقول كثير من الناس " وماذا يهم القانون اذا كان لا يطبق " وانا اعتقد ان هذه الحجة وهمية الى حد كبير ٠ على الرغم من ان هذا القانون لا يطبق عادة فانه يمكن ان يحركه زوج تحدوه روح انتقامية " (١٤) ٠

---

(١١) و (١٢) فى التربية : ٤٦ ، ٢٥٦

(١٣) المصدر السابق : ١٥٤

(١٤) المجتمع البشرى : ١٢٦ ٠

ولكن الرجل الذى كان له اعظم الاثر فى هدم الفضيلة وفتح اعمق ازمة فى تاريخ الاخلاق _ على حد تعبير فوجيرولا _ (١٥) هو فرويد ونظريته فى التحليل النفسى يقول فلوجل : " الحق ان بعض المحللين النفسيين كانوا يومئون الى ان الموانع التقليدية التى تفرضها مستوياتنا الخلقية عبء تنوء بها الطبيعة البشرية وكان من اثر ذلك ان المتحمسين من غير المختصين كانوا يدعون الى التخلى الكامل عن التحكم وفرض النظام سواء فى ميدان التعليم او ميدان العلاقات الجنسية او غير ذلك من الميادين الى درجة جعلت الاباء يخشون من ممارسة ابسط انواع الرقابة على ابنائهم مخافة اصابتهم بالكبت او الامراض العصبية " .

ويقول : " ان التحليل النفسى بصرف النظر عن الافراط فى الحماس وسوء الفهم وسوء الاستخدام قد ساعد فعلا على تقويض اركان الاخلاق التقليدية . فلقد كشف عن شىء من السذاجة والخرق فى عمل السلطات الرقابة الخلقية فى الانسان " (١٦)

ويقول الفيلسوف " جود " :

" ولكن مذهب التحليل النفسى قد أثر فى موقف الانسان من الاستغراق فى الحاضر والاستمتاع به وحرى ان يقال ان هذا التاثير قد اتى بصورة مباشرة من ان يقال انه أتى عن طريق ما بعثه من الشك فى الاخلاق التقليدية وما تنطوى عليه من القيود والمحرمات فهو بالاضافة الى نزعة الثقة من الاتجاهات القديمة التى تنحو الى القصد والزهد فى الحياة قد اقام مذهبا ايجابيا يحمل الناس على ممارسة الحاضر والانغماس فى تجاربه فلم يقتصر على القول بان من العبث ان نحرم انفسنا طلبا للخلاص الموعود فى الاخرة بل جعل من واجبنا ان نلتمس اللذات ونغفل عن شئون الروح . فالتحليل النفسى مسؤول عن هذه العقيدة الايجابية التى تتلخص فى التعبير عن النفس . فكان من تعاليم فرويد ان كبح الدوافع الغريزية وكظم الرغبات الشعورية فيه اضرار بالشخصية يتناول اسسها العميقة .. " بل ان النزعات الطهرية التى تنحو الى الزهد والتقشف وترى فى حرمان النفس وانكارها اسمى الفضائل وتلتزم بالقيود والمحظورات هى نفسها وليدة للدوافع اللاشعورية فقد اظهر فرويد انها نوع من التبرير يتمسك به اولئك المحرومون من لذائذ الحياة او الذين لا يسعهم الاستمتاع بها " (١٧) .

---

(١٥) الثورة الفرويدية : ١٩٨
(١٦) الانسان والاخلاق والمجتمع : ٤٢ ، ٤٣
(١٧) منازع الفكر الحديث : ٢٨٣ .

وأثر الفرويدية في انهيار الفضيلة والدعوة الى الاباحية اوضح من ان يذكر. ولنكتف بمثال على ذلك وهو ما قاله احد المؤلفين في كتاب اسمه "توجيه المراهق" :

" ساعد التعليم المختلط بين البنين والبنات ومعرفة الفتيات ان اشتراكهن في الالعاب الرياضية لا يعوق عملية الولادة فيما بعد على انتشار العلاقات اليومية الطبيعية السوية بين الفتيان والفتيات ذلك انهم يشاهدون بعضهم بعضا في حجر الدراسة ويشتركون معا في بعض الالعاب والتمثيليات بل ويدرسون موضوعات واحدة . وهذا كله يتيح للفتيان والفتيات ان يفهم بعضهم بعضا وبدلا من ان ينظر الفتيان الى الفتيات نظرة سطحية تقوم على الاغراء الجسدي والتفاهة العقلية والجمود الروحي فانهم ينظرون اليهن على انهن زميلات وصديقات بينما تستجيب الفتيات اللاتي حصلت تربيتهن لهذا ويستطعن ان يعرفن الفتيان معرفة تتسم بالامانة .

" ونجد ان كل شيء يؤيد هذا التعارف الوثيق بين الفتيان والفتيات فعالم اليوم يعمل فيه الرجال والنساء ويلعبون جنبا الى جنب فكيف يتسنى لهم ان يفعلوا ذلك اذا قضى كل جنس زهر شبابه في عزلة تامة عن الجنس الاخر يجتر خيالاته واوهامه عن فروق بين الجنسين لا اساس لها من الصحة .

" ولن يضيع عنصر الخيال الذي يسعى الى توفيره الفتيان والفتيات في علاقاتهم نتيجة مابينهم من تعارف وثيق بل على العكس فانه يحصنهم من الفتنة بحيث يكونون اقدر على التمييز في اختيار الشريك الذي يبحث عنه كل منهم .

" وقد يكون هذا السلوك نوعا من التكييف المنحط من وجهة النظر الاخلاقية الخالصة ولكن الشباب يستطيعون بل ويفهمون هذا النوع من انواع السلوك الذي لا يتفق حقيقة مع صالحهم . (١٨) " .

وظل هذا السعار يزداد وظلت تلك الدعوات المحمومة تطغى على كل وسائل الثقافة والاعلام وتهيمن على اعراف وتقاليد المجتمع حتى وصل انهيار الاخلاق والاستهانة بالفضيلة الى حد ان اصبح "الامريكيون يعتقدون ان بقاء البنت عذراء قد يسبب الاصابة بمرض السرطان . لذلك يتخلصون من العذرية بسرعة " واصبحت اخر صرعات الشذوذ الجنسي ممارسة الجنس مع اطفال دون سن الثالثة يتم اختطافهم من المكسيك ويباعون في الاسواق كالرقيق او الدجاج . (١٩) واصبح طلبة المدارس الابتدائية يشاهدون عروضا سينمائية جنسية ضمن الانشطة الدراسية اليومية ويحملون المخدرات الشديدة التاثير في حقائبهم الدراسية واضحت الخيانة الزوجية " الفاحشة " تقليدا شائعا

(١٨) د جلاس توم : ١٨٨ / ١٩٠
(١٩) مجلة الدعوة المصرية : ٢٦/ ١٣٩٨ هـ .

لا يستطيع احد انكاره • بينما يمارس البنات البغاء والعلاقات المحرمة تحت سمع وبصر الوالدين والمجتمع كاى وسيلة ترفيهية •

وهاهو الواقع المحسوس فى الغرب يشهد ان التدنى الاخلاقى لاسيما ما يتصل بالعرض قد سفل الى درجة من الدياثة والسخف لانجد لها نظيرا حتى فى عالم الحيوان •

وقد يقول قائل : ان مسالة الاخلاق من اساسها غير معترف بها فى الغرب فلا معنى للقول بان المجتمع اللاديني يعيش بلا اخلاق • اذ لاضير _ فى نظر ذلك المجتمع _ ان يقال انه لا اخلاق له مادام لا يرى فى الاخلاق الا القيود التى فرضتها الكنيسة أو التقاليد البالية الموروثة من العصر الزراعى •

لكننا نقول : هل المسألة مسألة اخلاق تنتهك وتقاليد تخالف فحسب ؟

ان الدكتور اليكسيس كاريل يرى ان من اسباب تدهور الحضارة المعاصرة ان الناس يصادمون ما اسماه القوانين الطبيعية التى تعنى فى القاموس الاسلامى "سنن الله فى الكون " ويقول انهم " لم يدركوا انهم لا يستطيعون ان يعتدوا على هذه القوانين دون ان يلاقوا جزاءهم " (٢٠) • فكل مخالفة لفطرة الله التى فطر الناس عليها لابد ان تتقاضى جزاءها من سعادة المجتمع وطمأنينته • وذلك منطوق قوله تعالى : " فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى • ومن اعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة اعمى "

وليس فى تاريخ البشرية اجمع نموذج للضلال والشقاء والمعيشة الضنك يوازى النموذج الذى تقدمه الحضارة الغربية المعاصرة •

لقد ضج عقلاء الغرب وجأروا بالشكوى وحق لهم ذلك وهم يرون انهيار حضارتهم ويشهدون مأساة مجتمعهم بأعينهم • ولم يفت بعضهم ان يدرك ان مخالفة الفطرة وتعطيل وظيفة الامومة وخروج المرأة تزاحم الرجل فى معترك الحياة هى سبب فعال فى هذا الانهيار السريع والشرور الاجتماعية المدمرة •

يقول " شبنجلر " فى مؤلفه الشهير " تدهور الحضارة الغربية " :

"عندما يبدأ الفكر المادى لشعب رفيع الثقافة والعلم بان يعتبر الانجاب الاطفال هو قضية لها وجوهها المؤيدة والمناهضة فعندئذ تكون نقط الانعطاف العظمى قد جاءت وحان اوانها •• وعندما يتوجب علينا ان نقدم اطلاقا الاسباب لقضية من قضايا الحياة عندئذ تصبح الحياة ذاتها مشكوكا فى امرها ومدار تساؤل •• وكما هى الحال فى مدننا نحن معشر الغربيين اصبح اختيار الرجل للمرأة لا بوصفها اما لأولاده كما هى الحال بين الفلاحين والبدائيين بل بوصفها " رفيقة حياة " معضلة للعقول ومشكلة • فالزواج عند

---

(٢٠) الانسان ذلك المجهول : ١٠

" أبسن " يدعو على انه الامتزاج الروحي الارقى حيث يكون فيه كل من الفريقين حرا طليقا .. وهكذا بمقدور "شو" ان يقول : "انه مالم تفكر المرأة بأنوثتها وواجبها ازاء زوجها واطفالها والمجتمع والقانون وازاء كل انسان اخر ماعدا واجبها ازاء نفسها فانها لاتستطيع انتحرر انوثتها ".

" ان المرأة الفلاحة هي أم وان كامل رسالتها ـ هذه الرسالة التي تحن اليها منذ طفولتها ـ انما تحتويها تلك الكلمة أم . ولكننا نرى اليوم امرأة "ابسن" المرأة الرفيقة الزميلة الخدنة تخرج الينا ونراها بطلة جميع آداب المدن العالمية العظمى ابتداء من الدراما الشمالية حتى الرواية الباريسية ، فهي بدلا من ان يكون لها اطفال لها تصادمات وتناقضات نفسية وما الزواج غير فن من براعة هدفه تحقيق التفاهم المتبادل .

" وسيان اكانت القضية ـ قضية معارضة انجاب الاطفال ـ هي قضية السيدة الامريكية التي لن تتقاعس على حضور اي موسم حفلات باي ثمن او قضية السيدة الباريسية التي تخشى ان يهجرها عشيقها او قضية بطلة " أبسن " التي لاتنتمي الى احد ماعدا نفسها فالقضية واحدة وجميعهن ملك ذواتهن فقط ، وكل واحدة منهن عاقر عقيم وعطفا على ما أورد تجد الواقعة ذاتها في الاسكندرية وفي المجتمع الروماني وبداهة في كل مجتمع متمدن آخر .

" .. عند هذا المستوى تدخل المدنيات مرحلة من تدن وتناقص مرعبين في السكان وتستمر هذه المرحلة قرونا من الزمن وهنا يضمحل كامل هرم الانسان الحضاري ويتلاشى ويزول " (٢١) .

هذا التوقع من شبنجلر ليس متشائما كما قد يظن بل اصبح الواقع المعاصر يدعو الى التصديق به الى درجة اليقين وتلك سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا .

ولنعد الى الوراء قرابة خمسين عاما حيث السعير لم يتضح أواره والبلاء لم تكتمل أطواره لنجد كاتبا امريكيا متفلسفا ينادي بالويل والثبور ويرفع عقيرته اسى للمصير المرعب الذي ينتظر امته . نجد " ول ديورانت " يقول سنة ١٩٢٩ م :

" .. ثقافتنا اليوم سطحية ومعرفتنا خطرة لاننا اغنياء في الالات فقراء في الاغراض وقد ذهب اتزان العقل الذي نشأ ذات يوم من حرارة الايمان الديني وانتزع العلم

---

(٢١) جـ : ١ : ٢٨٢ / ٢٨٣

منا الاسس المتعالية لاخلاقياتنا ويبدو العالم كله مستغرقا فى فردية مضطربة تعكس تجزؤ خلقنا المضطرب ، اننا نواجه مرة اخرى تلك المشكلة التى اقلقت بال سقراط نعنى : كيف نهتدى الى أخلاق طبيعية تحل محل الزواجر العلوية التى بطل أثرها فى سلوك الناس ؟ اننا نبدد تراثنا الاجتماعى بهذا الفساد الماجن من جهة وبهذا الجنون الثورى من جهة اخرى ، حيث نفقد الفلسفة (١) التى بدونها نفقد هذه النظرة الكلية التى توحد الاغراض وترتب سلم الرغبات ، اننا نهجر فى لحظة مثاليتنا السلمية ونلقى بانفسنا فى هذا الانتحار الجماعى للحرب، وعندنا مئة الفسياسى وليس عندنا " رجل حكيم " واحد . اننا نطوف حول الارض بسرعة لم يسبق لها مثيل ولكننا لا نعرف اين نذهب ولم نفكر فى ذلك او هل نجد هناك السعادة الشافية لانفسنا المضطربة أو اننا نهلك انفسنا التى اسكرتنا بمعرفتنا بخمر القوة ولن ننجو منها بغير الحكمة " .

" واختراع موانع الحمل وذيوعها هو السبب المباشر فى تغير اخلاقنا فقد كان القانون الاخلاقى قديما يقيد الصلة الجنسية بالزواج لان النكاح كان يؤدى الى الابوة بحيث لا يمكن الفصل بينهما ولم يكن الوالد مسؤولا عن ولده الا بطريق الزواج اما اليوم فقد انحلت الرابطة بين الصلة الجنسية وبين التناسل وخلقت موقفا لم يكن آباؤنا يتوقعونه لان جميع العلاقات بين الرجل والمرأة آخذة فى التغير نتيجة هذا العامل ويجب على القانون الاخلاقى فى المستقبل ان يدخل فى حسابه هذه التسهيلات الجديدة التى جاءت بها الاختراعات لتحقيق الرغبات المتأصلة " .

" فحياة المدينة تفضى الى كل مثبط عن الزواج ، فى الوقت الذى تقدم فيه الى الناس كل باعث على الصلة الجنسية وكل سبيل يسهل اداءها ولكن النمو الجنسى يتم مبكرا عما كان من قبل كما يتاخر النمو الاقتصادى . فاذا كان قمع الرغبة شيئا عمليا ومعقولا فى ظل النظام الاقتصادى الزراعى فانه الان يبدو امرا عسيرا وغير طبيعى فى حضارة صناعية اجلت الزواج حتى بالنسبة للرجال حتى لقد يصل الى سن الثلاثين ، ولا مفر من ان يأخذ الجسم فى الثورة وان تضعف القوة على ضبط النفس عما كان فى الزمن القديم وتصبح العفة التى كانت فضيلة موضعا للسخرية ويختفى الحياء الذى كان يضفى على الجمال جمالا ويفاخر الرجال بتعداد خطاياهم

وتطالب النساء بحقها فى مغامرات غير محددة على قدم المساواة من الرجال ويصبح الاتصال قبل الزواج امرا مألوفا وتختفى الضحايا من الشوارع بمنافسة الهاويات لابرقابة البوليس . لقد تمزقت اوصال القانون الاخلاقى الزراعى ولم يعد العالم المدنى يحكم به " .

" ولسناندرى مقدار الشر الاجتماعى الذى يمكن ان نجعل تأخير الزواج مسؤولا عنه ولا فى ان بعض هذا الشر يرجع الى مافينا من رغبة فى التعدد لم يهذب لان الطبيعة (!) لم تهيئنا للاقتصار على زوجة واحدة ويرجع بعضها الاخر الى ولاء المتزوجين الذين يؤثرون شراء متعة جنسية جديدة على الملال الذى يحسونه فى حصار قلعة مستسلمة ولكن معظم هذا الشر يرجع فى اكبر الظنون فى عصرنا الحاضر الى التاجيل غير الطبيعى للحياة الزوجية وما يحدث من اباحة بعد الزواج فهو فى الغالب ثمرة التعدد قبله . وقد نحاول فهم العلل الحيوية والاجتماعية فى هذه الصناعة المزدهرة وقد نتجاوز عنها باعتبار انها امر لامفر منه فى عالم خلقه الانسان. وهذا هو الرأى الشائع لمعظم المفكرين فى الوقت الحاضر . غير انه من المخجل ان نرضى فى سرور عن صورة نصف مليون فتاة امريكية يقدمن انفسهن ضحايا على مذبح الاباحية . وهى تعرض علينا فى المسارح وكتب الادب المكشوفة تلك التى تحاول كسب المال واستثارة الرغبة الجنسية فى الرجال والنساء المحرومين ـ وهم فى حمى الفوضى الصناعية ـ من حمى الزواج ورعايته للصحة " .

" ولا يقل الجانب الاخر من الصورة كآبة لان كل رجل يؤجل الزواج يصاحب فتيات الشوارع ممن يتسكعن فى ابتذال ظاهر ويجد الرجل بارضاء غرائزه فى هذه الفترة من التأجيل نظاما دوليا مجهزا باحدث التحسينات ومنظما باسمى دروب الادارة العلمية ويبدو أن العالم قد ابتدع كل طريقة يمكن تصورها لاثارة الرغبات واشباعها (٢٣) .

" وأكبر الظن ان هذا التجدد فى الاقبال على اللذة قد تعاون اكثر مما نظن مع هجوم داروين على المعتقدات الدينية وحين اكتشف الشبان والفتيات وقد اكسبهم المال جرأة ان الدين يشهر بملاذهم التمسوا فى العلم الف سبب وسبب للتشهير بالدين . وأدى

---

(٢٣) هكذا يظن ديورانت ولكن جد بعده اشياء وأشياء !!

التزمت فى حجب الحياة الجنسية والزهد فيها الى رد فعل فى الادب وعلم النفس صوّر الجنس مرادفا للحياة . وقد كان علماء اللاهوت قديما يتجادلون فى مسألة لمس يد الفتاة أيكون ذنبا ؟ اما الان فلنا ان ندهش ونقول اليس من الاجرام ان نرى تلك اليد ولا نقبلها . لقد فقد الناس الايمان وأُخذوا يتجهون نحو الفرار من الحذر القديم الى التجربة الطائشة .

" وكانت الحرب العظمى الاولى اخر عامل فى هذا التغيير ذلك ان الحرب قوضت تقاليد التعاون والسلام المتكونين فى ظل الصناعة والتجارة وعودت الجنود الوحشية والاباحية، حتى اذا وضعت الحرب اوزارها عاد الاف منهم الى بلادهم فكانوا بؤرة للفساد الخلقى وادت تلك الحرب الى رخص قيمة الحياة بكثرة ما أطاحت من رؤوس ، ومهدت الى ظهور العصابات والجرائم القائمة على الاضطرابات النفسية وحطمت الايمان بالعناية الالهية وانتزعت من الضمير سند العقيدة الدينية . وبعد انتهاء معركة الخير والشر بما فيها من مثالية ووحدة ظهر جيل مخدوع والقى بنفسه فى احضان الاستهتار والفردية والانحلال الخلقى واصبحت الحكومات فى واد والشعب فى واد آخر ، واستانفت الطبقات الصراع فيما بينها واستهدفت الصناعات الربح بصرف النظر عن الصالح العام ، وتجنب الرجال الزواج خشية مسئولية وانتهى الامر بالنساء الى عبودية كاملة والى طفيليات فاسدة ورای الشباب نفسه قد منح حريات جديدة ، تحميه الاختراعات من نتائج المغامرات النسائية فى الماضى وتحوطه من كل جانب ملايين المؤثرات الجنسية فى الفن والحياة .

" حتى اذا سئمت فتاة المدينة الانتظار اندفعت الى عالم لم يسبق له مثيل فى تيار المغامرات الواهية فهى واقعة تحت تاثير اغراء مخيف من الغزل والتسلية وهدايا من الجوارب وحفلات من الشمبانيا فى نظير الاستمتاع بالمباهج الجنسية " .

" واخيرا تجد الرفيق الذى يطلب يدها للزواج ويعقد عليها لا فى الكنيسة — لانهما من احرار الفكر الذين الحدوا عن الدين ولم يعد للقانون الخلقى الذى ظل جاثما على ايمانهما المهجور اثر فى قلبهما . انهما يتزوجان فى قبو المكتب البلدى (الذى يفوح منه عبير السياسة) ويستمعان الى تعاويذ العمدة . انهما لا يرتبطان بكلمة الشرف بل بعقد من المصلحة ، لهما الحرية فى اى وقت فى التحلل منه فلا مراسيم مهيبة ولا خطبة عظيمة ولا موسيقى رائعة ولا عمق نشوة فى الانفعال تحيل الفاظ وعودهم الى ذكريات لا تمحى من صفحة الذهن ، ثم يقبل احدهما صاحبه ضاحكا ويتوجهان الى البيت فى صخب .

" انه ليس بيتا ! فليس ثمة كوخ ينتظر الترحيب بهما انشىء وسط الحشائش النضرة والاشجار الظليلة .. بل يجب ان يخفيا انفسهما خجلا فى زنزانة سجن ، ليس هذا المسكن شيئا روحيا كالبيت الذى كان يتخذ مظهرا ويكسب روحا قبل ذلك بعشرين

عاما بل مجرد شيء مادي فيه من الجفاف والبرودة ماتجده في مارستان فهو يقوم وسط الضوضاء والحجارة والحديد ..

" وتصاب المرأة بخيبة امل فهي لاتجد في هذا البيت شيئا يجعل جدرانه تحتمل في الليل والنهار ولاتلهث الا قليلا حتى تهجره في كل مناسبة ولاتعود اليه الا قبل مطلع الفجر ، ويخيب امل الرجل .. ويكتشف بعد قليل ان هذه الحجرات تشبه تمام الشبه تلك التي كان يعيش فيها وهو اعزب وان علاقاته مع زوجته تشبه شبها عاديا تلك العلاقات غير البريئة التي كان يعقدها مع المستهترات من النساء " .

" ولما كان زواجهما ليس زواجا بالمعنى الصحيح ـ لانه صلة جنسية ـ لا رباط ابوة ـ فانه يفسد لفقدانه الاساس الذي يقوم عليه ، ومقومات الحياة ، يموت هذا الزواج لانفصاله عن الحياة وعن النوع وينكمش الزوجان في نفسيهما وحيدين كأنهما قطعتان منفصلتان وتنتهي الغيرية الموجودة في الحب الى فردية يبعثها ضغط حياة المساخر ، وتعود الى الرجل رغبته الطبيعية في التنويع ، حين تؤدي الالفة الى الاستخفاف ، فليس عند المرأة جديد تبذله اكثر مما بذلته " .

ويتوقع ديورانت آنذاك هذه الكوارث :

" لاريب ان زواج المتعة سيظفر بتاييد اكثر فاكثر حيث لا يكون النسل مقصودا وسيزداد الزواج الحر مباحا كان ام غير مباح ومع ان حريتهما الى جانب الرجل اميل ، فسوف تعتبر المرأة هذا الزواج اقل شرا من عزلة عقيمة تقضيها في ايام لا يغازلها احد سينهار " المستوى المزدوج " وستحث المرأة الرجل بعد تقليده في كل شيء على التجربة قبل الزواج ، سينمو الطلاق وتزدحم المدن بضحايا الزيجات المحرمة ثم يصاغ نظام الزواج باسره في صور جديدة اكثر سماحة وعندما يتم تصنيع المرأة ويصبح ضبط الحمل سرا شائعا في كل طبقة يضحى الحمل امرا عارضا في حياة المرأة او تحل نظم الدولة الخاصة بتربية الاطفال محل عناية البيت .. وهذا كل شيء " (٢٣)

(٢٣) نقلت هذه المقتطفات من كتاب الاسلام ومشكلات الحضارة ص ١٣٢ ـ ١٤٠

ولقد تحقق كل ماتوقع واعظم منه ، ونجم عنه الشقاء المستديم للمرأة وللمجتمع كله ، أما المرأة فقد دفع بها الوضع الاجتماعى الذى لايرحم الى ان اصبحت تطرد من المنزل بعد سن الثامنة عشرة لكى تبدأ فى الكدح لنيل لقمة العيش ،واذا مارغبت ـ أو أجبرتها الظروف ـ فى البقاء فى المنزل مع اسرتها بعد هذه السن فانها تدفع لوالديها ايجارغرفتها وثمن طعامها وغسيل ملابسها بل تدفع رسما معينا مقابل اتصالاتها الهاتفية . (٢٤) واذا حظيت الطريدة باى عمل فانها تستشعر دوما تهديد البطالة والازمات الاقتصادية وتظل خاضعة لاستغلال الراسماليين اوعبودية الدولة ـ ان كانت شيوعية ـ ويؤدى ارهاقها المستمر وقلقها الدائم ـ الى ان تفقد طبيعتها الانثوية وتضحى عرضة للامراض العصبية وفى بعض الاحيان لاتجد وسيلة للخلاص من هذا الكابوس الرهيب افضل من الانتحار ، وقد تضخمت المشكلة وتعقدت وسرت آثارها فى كيان المجتمع كله حتى لم يعد من الممكن الرجوع الى الحالة السوية الا بتغيير جذرى ينقض بناء المجتمع من اساسه وهذا التغيير بعيد الاحتمال فى المجتمع الغربى اللاهث نحو الهاوية بل ان الصيحات التى يطلقها الكثيرون ممن ذاقوا مرارة التجربة من النساء والرجال لاتجد لها صدى يذكر .

تقول " اجاثا كريستى " اشهر كاتبة انجليزية للمؤلفات البوليسية :

" ان المرأة الحديثة مغفلة لان مركزها فى المجتمع يزداد سوءا يوما بعد يوم فنحن النساء نتصرف تصرفا احمق لاننا بذلنا الجهد الكبير فى السنين الماضية للحصول على حق العمل والمساواة فى العمل مع الرجال . والرجال ليسوا اغبياء فقد شجعونا على ذلك معلنين انه لامانع مطلقا من ان تعمل الزوجة وتضاعف دخل الزوج ومن المحزن ان نجد بعد ان اثبتنا نحن النساء اننا الجنس اللطيف (اننا) نعود اليوم لنتساوى فى الجهد والعرق الذى كان من نصيب الرجل وحده " (٢٥) . وفى استفتاء لمعهد غالوب فى امريكا :

" ان المرأة متعبة الان ويفضل ٦٥ ٪ من نساء امريكا العودة الى منازلهن ، كانت المرأة تتوهم انها بلغت امنية العمل اما اليوم وقد ادمت عثرات الطريق قدمها واستنزفت الجهود قواها فانها تود الرجوع الى عشها لاحتضان فراخها " (٢٦) .

ولكن المرأة الغربية المنكوبة اذ تحاول الرجوع الى البيت ووظيفة الامومة لاتستطيع لان المشكلة اتسع نطاقها الى درجة تتعذر معها العودة الحقيقية ولو حصل شىء من ذلك فان المجتمع الذى تعود الانحلال والاختلاط يستنكره ويأباه

---

(٢٤) انظر المرأة بين الفقه والقانون : مصطفى السباعى : ٣٠٠
(٢٥) مجلة الاعتصام العدد ٣ السنة ٤١ / ١٣٩٨ هـ
(٢٦) المرأة بين الفقه والقانون : ٢٥٩

بل اصبح الزواج رغم هشاشته - مصدر ازعاج للقائمين على تلك المجتمعات فقد طلعت الصحافة الغربية يوما بخبر يقول :

" انزعجت السلطات التعليمية في سكوتلانده بسبب موجة الزواج التي تعصف بالمدرسات فقد تبين انه خلال عام ١٩٦٠ عينت ١٥٦٣ مدرسة في سكوتلانده وفي نهاية العام الدراسي تركت الف منهن الوظيفة للزواج . وقالت السلطات ان الزواج يهدد النظام المدرسي " (٢٧) .

وحيال ذلك ماذا في وسع المرأة ان تفعل ؟ باى شيء تواجه المجتمع النكد الذى يلهب ظهرها بالسياط ويقطع عليها طريق العودة الى فطرتها ؟ ليس هناك الا احد سبيلين : اما الانتقام من هذا المجتمع الظالم بترويعه وتعكير صفوه كما جاء في التقرير الذى نشرته الصحف من انه "بلغت عدد سرقات المتاجر الكبيرة في انجلترا خلال عام ١٩٦٠ نحو ٣٢١٩٤ سرقة هذا عدا الحالات التى لم تبلغ الادارة البوليس والغريب ان ٦٠ ٪ من هذه السرقات ارتكبتها نساء جاوزن سن البلوغ و ٣٠ ٪ ارتكبها ذكور أقل من السابعة عشرة وتقول الاحصائيات ان كل السارقات من النساء لم يكن في حاجة للمال " (٢٨) . نعم انها ليست الحاجة للمال ولكنها الرغبة في الانتقام وتفريغ السخط .

واما الانتقام من نفسها بالانتحار كما فعلت الممثلة الشهيرة " مارلين مونرو " التى كتبت قبيل انتحارها نصيحة لبنات جنسها تقول فيها :

" احذرى المجد .. احذرى من كل من يخدعك بالاضواء .. انى اتعس امرأة على هذه الارض .. لم استطع ان أكون اما .. انى أمرأة افضل البيت .. الحياة العائلية الشريفة على كل شيء .. ان سعادة المرأة الحقيقية في الحياة العائلية الشريفة الطاهرة بل ان هذه الحياة العائلية لهى رمز سعادة المرأة بل الانسانية " وتقول في النهاية " لقد ظلمنى كل الناس .. وان العمل في السينما يجعل من المرأة سلعة رخيصة تافهة مهما نالت من المجد والشهرة الزائفة " (٢٩) .

وليس غريبا ان تؤكد الاحصائيات العالمية ان نسبة محاولات الانتحار عند النساء اكثر منها عند الرجال يقول تقرير كتبه احد الاطباء الاجتماعيين في فينا :

" وقد لوحظ ان النساء اكثر محاولة من الرجال ففى عام ١٩٤٨ كان عدد المحاولات

---

(٢٧) و (٢٨) المصدر السابق : ٢٥٧ - ٢٦٨ .

فى النساء ٣٨١ وهذا يوافق ٥٨ر٦١ ٪ من المجموع وفى عام ١٩٥٦ م كان العدد ٥٩٠ اى بنسبة ٥٦ر٧٣ ٪ وفى عام ١٩٥٩ كانت النسبة ٥٥ر٩٢ ٪ كما لوحظ ان نسبة المحاولات فى الفتيان والفتيات الذين تتراوح اعمارهم بين ١٤ عاما و ٢٠ عاما ترتفع باستمرار فعند الفتيان كانت النسبة فى عام ٤٨ ـ ٦ر٥ ٪ وفى عام ١٩٥٦ م ـ ٦ر٥٣ ٪ وفى عام ١٩٥٩ م ١ر٨١ ٦ ٪ . واما عند الفتيات فالتصاعد مخيف ففى عام ١٩٤٨ حاولت ٥٠ فتاة الانتحار وهذا يشكل نسبة ٧ر٦٩ ٪ من مجموع محاولات الانتحار فى تلك العام وفى عام ١٩٥٦ حاولت ٨٩ فتاة الانتحار وهذا يشكل نسبة ٥٥ر٨ ٪ وفى عام ١٩٥٩ حاولت ١٥٠ فتاة الانتحار وهذا يعنى نسبة ١٤ر٢٠ ٪ وهذا يعنى ان كل تسعة ايام توجد ست محاولات انتحار اربع منها من جانب الفتيات واثنتان من جانب الفتيان (٣٠) . وهذا غير المصائب التى يوقعها المجتمع بالمرأة والتى هى فى الواقع معاول تهدم المجتمع بكامله اذ لا انفصام بين مشكلة المرأة فى ذاتها ومشكلة المجتمع الذى تعيش فيه . من ذلك مانشرته الصحف الامريكية فى عام ١٩٧٧ م من ان فتاة امريكية فى احدى الولايات الوسطى بالقرب من مدينة غير مشهورة وجدت مقتولة قد طرحت جثتها فى الغابة وحمل البوليس الجثة الى المستشفى ونشر اعلانا يتضمن سن الفتاة وصفاتها الجسدية لكى يحضر قريبها لتسلم الجثة . ثما ذا كانت النتيجة . ؟ .. تقول الصحف : ان المستشفى تلقى ١٢٠٠ مكالمة من انلس كل منهم يشك فى انها قريبته ويستوضح بعض صفات الفتاة اخرى بينما حضر الى المستشفى شخصيا قرابة ٥٠٠ شخص لمعاينة الجثة . (٣١) .

وهذا يعنى ان هؤلاء فقدوا فتيات يحملن نفس تلك الصفات وفى السن نفسه فكيف بمن يحملن صفات اخرى وفى مراحل من العمر اخرى ؟ واذا كان هذا على مستوى المدينة والولايات فكيف بالولايات كلها .؟ والاغرب من ذلك كيف يقع هذا كله فى امريكا بلد الاباحية المطلقة . ؟؟

ومن ذلك ايضا نسب الطلاق المرتفعة باطراد حيث كانت نسبة الطلاق فى امريكا سنة ١٨٩٠ = ٦ ٪ واخذت تزداد حتى وصلت سنة ١٩٤٨ الى ٤٠ ٪ ولم تنخفض عن ذلك اذ ان تلك النسبة هى نسبة الطلاق لسنة ١٩٧٨ م . (٣٢) .

اما المفاسد والشرور الاجتماعية الناتجة عن خروج المرأة عن فطرتها فاكثر من ان تحصر وسنحاول ايجازها فيما يلى :

---

(٣٠) المصدر السابق : ٢٧٣ ـ ٢٧٤

(٣١) مجلة الدعوة بالرياض صفر ١٣٩٧ هـ

(٣٢) انظر السلام العالمى والاسلام سيد قطب : ٥٦ وجريدة المدينة عدد ٤٣٠٦ / ٩٨ هـ .

١ ـ فساد التربية : فبعد ان اصبحت عودة المرأة لوظيفتها الاساسية مستحيلة ولم يعد عملها موضع نقاش كان لابد من ايجاد محاضن ودور لتربية الاطفال وعنها يقول اليكس كاريل : " لقد ارتكب المجتمع العصرى غلطة جسيمة باستبداله تدريب الاسرة بالمدرسة (كذا) استبدالا تاما ولهذا تترك الامهات اطفالهن لدور الحضانة حتى يستطعن الانصراف الى اعمالهن او مطامعهن الاجتماعية او مباذلهن او هوايتهن الادبية او الفنية او اللعب بالبريدج او ارتياد السينما .. وهكذا يضيعن اوقاتهن فى الكسل . انهن مسئولات عن اختفاء وحدة الاسرة واجتماعياتها التى يتصل فيها الطفل بالكبار فيتعلم منهم امورا كثيرة . ان الكلاب الصغيرة التى تنشأ مع جراء من نفس عمرها فى حظيرة واحدة لاتنمو نموا مكتملا كالكلاب الحرة التى تستطيع ان تمضى فى أثر والديها والحال كذلك بالنسبة للاطفال الذين يعيشون وسط جمهور من الاطفال الاخرين واولئك الذين يعيشون بصحبة راشدين اذكياء . لان الطفل يشكل نشاطه الفسيولوجى والعقلى والعاطفى طبقا للقوالب الموجودة فى محيطه . اذ انه لايتعلم الا قليلا من الاطفال الذين هم فى مثل سنه وحينما يكون وحده فقط فى المدرسة فانه يظل غير مكتمل ولكى يبلغ الفرد قوته الكامنة فانه يحتاج الى عزلة نفسية واهتمام جماعة اجتماعية محددة تتكون من الاسرة" (٣٣)

٢ ـ جنوح الاحداث : وهو نتيجة طبيعية لفساد التربية وفقدان الاسرة ولنأخذ مثلا لذلك الاحصائيات التى اوردها رئيس شرف الرابطة الدولية لقضاة الاحداث :

" بلغ عدد الاحداث المحكومين فى فرنسا سنة ١٩٣٩ م : ١٢١٦٥ وبلغ سنة ١٩٦٨ : ٤٤٠١٦ حسب جدول احصائى " .. وقد صار هذا التزايد فى عدد الاحداث المنحرفين منذرا باوخم العواقب اذ بلغت ارقامه ضعفيها تقريبا فى مدى ثمانى سنوات .سنة ١٩٦٠ ـ ٢٦٨٩٤ " .

" ونسجل للمناسبة ان الارتفاع التى كانت سنة ١٩٥٩ = ١٥٫٢ بالالف لفئة الصبيان المنحرفين ١٦ ـ ١٧ سنة بلغت ٢٥٫٧٨ بالالف سنة ١٩٦٥م .

وفى الولايات المتحدة نجد ان نسبة ازدياد حالات الانحراف بين الاحداث الذين تقل اعمارهم عن ١٨ سنة قد بلغت ١٧ ٪ بينما لم يزد عدد السكان فى الاحداث الذين تقل اعمارهم عن ١٨ سنة الا ٣ ٪ " .

وبلغت نسبة ارتفاع عدد الفتيات المنحرفات سنة ١٩٦١ م ١٨٫٦ ٪ عن سنة ١٩٦٠م بينما لم يبلغ هذا الارتفاع اكثر من ١٤٫٢ ٪ عند الفتيان للسنة نفسها .

---

(٣٣) الانسان ذلك المجهول : ٣٠٥

ولابد لمن يريد أن يكوّن فكرة دقيقة عن مشكلة الانحراف فى واقعها الراهن ان يضيف الى المنحرفين المعروفين رسميا عددا اخر من المنحرفين لم تكتشفه السلطات بعد ولابد كذلك أن نضيف عددا اخر .. لم يتخذ بحقهم اكثر من اجراء اخضاعهم لدورات تثقيفية واصلاحية .. " وعلينا ان نضيف عدد اخر من الاحداث المشردين باعتبار ان القانون الفرنسى لايعتبر تشرد الاحداث جرما يعاقب عليه القانون " .

وليس الجديد هو هذه الاحصائيات مما اكثرها ولكن الجديد هو ان جان شازال حاول تحليل اسباب الانحراف فذكر من جملتها ان " الاطفال الذين يحرمون من عناية الام وعطفها والذين لا يمكنهم ان يشعروا بحرارة المشاركة العميقة مع الام يعبرون عن اختباراتهم العاطفية على شكل ردات فعل من النوع العدائى والمعارض وتعطش مفرط الى المتعة وحاجة طاغية الى التسلط وهكذا تكون على طريق الجنوح (٣٤) ، اى ان رئيس شرف الرابطة الدولية لقضاة الاحداث ادرك الحقيقة ولكن بعد فوات الاوان .

والحق ان المجتمع الذى تقوم قيمه واسسه الاخلاقية على اللادينية ايا كانت الفلسفة التى يؤمن بها ـ هو بيئة مناسبة للاجرام والجنوح بطبيعته اذ ليس لديه مايعوض التربية الاسرية المفقودة ولذلك وصلت الحال فى بعض الدول الى درجة لاتكاد تصدق ولنكتف بالتقرير الذى اصدره النائب الاتحادى العام فى الولايات المتحدة عن الجرائم الامريكية المسجلة رسميا " تقع جريمة قتل كل ٤٣ دقيقة جريمة قتل ، وتقع جريمة لغتصاب امرأة كل ١٩ دقيقة . وجريمة سرقة كل دقيقتين وجريمة سطو على المنازل كل ج ٢٠ ثانية . وجريمة سطو على السيارات كل ٤٨ ثانية وجريمة اختطاف كل ٢٠ ثانية " . وجاء فى مجلة الجيش الامريكى عدد فبراير ١٩٧٦ م انه وقعت ضمن نطاق الجيش الامريكى (٥٥٢١٠) جريمة اغتصاب فى عام ١٩٧٤ م اى بزيادة قدرها ٩ ٪ عن عام ١٩٧٣م (٣٥) .

هذا مع العلم ان النسب اخذة فى الارتفاع باطراد .

---

(٣٤) الطفولة الجانحة ٨ ـ ١٣ ، ٥٣٦

(٣٥) مجلة المجتمع ـ العدد ٣٥٠ .

٣ ـ فساد الفطرة :

يقول مؤلف كتاب " الثورة الفرويدية " :

" ان مثال الولايات المتحدة او مانعرفه على الاقل من الحياة الجنسية فى هذه البلاد يوضح لنا ان تحرر المرأة المتزايد من خلال النظر فى المعاصرة يمكن ان يعطل المحتوى الجنسى للعلاقة مابين الرجل والمرأة تعطيلا خطرا ففى المرحلة الاولى فان العراقيل التى تحول دون طغيان الشهوانية تزول . وفى المرحلة الثانية فان مايصيب المراة من ذكورة جزئية يؤدى الى بعض فقدان الرجولة فى الرجل " (٣٦) .

" اى اننا بغض النظر عن الاباحية الحيوانية فى ميدان العلاقة الجنسية الطبيعية بين الرجال والنساء نجد احصاءات محيرة عن الشذوذ الجنسى لدى الجنسين تبلغ نسبتها حسب تقرير كنزى ٢٠ ٪ فاذا فرضنا ان تلك النسبة لم تزدد خلال العشرين سنة الاخيرة ـ وهو افتراض خاطىء وعلمنا ان سكان امريكا ٢٤٠ مليونا فمعنى ذلك ان ٤٨ مليونا من الامريكيين شاذون جنسيا !!

واغرب من ذلك ان ٢٠ مليونا منهم يمارسون الشذوذ بصفة تنظيمية علنية فقد نشرت الصحف " ان وفدا يبلغ تعداده عشرين شخصا يمثلون منظمات اللواطة والسحاق فى الولايات المتحدة الامريكية قاموا بمقابلة السيدة مارغريت مساعدة الرئيس كارتر للعلاقات العامة للمطالبة بحق حرية العمل فى المؤسسات العسكرية والسماح بمزيد من اللواطة فى مكتب التحقيقات الفدرالى ووكالة الاستخبارات ووزارة الخارجية

---

(٣٦) فوجيرولا : ص ٢٠٠

ومنح صفة معفى من الضرائب لمنظماتهم • وقال رئيس الوفد : ان هذه هي المرة الاولى في تاريخ الولايات المتحدة التي راينا فيها ان الرئيس كارتر مناسبة للاعتراف بحقوق ومتطلبات عشرين مليون امريكي من الجنسين يمارسون عملية اللواط والسحاق والشذوذ الجنسي بانواعه " (٣٧) •

وأسوأ من هذا ان تطالب البرلمانات في دول الشمال " سكندنافية " باعتبار عقد الرجل على الرجل عقدا قانونيا مشروعا يقام في الكنيسة بل لقد تم عقد فعلي في احدى الكنائس بولاية كاليفورنيا • (٣٨)

أما صلة ذلك بخروج المراة من البيت وتفكك الاسرة فقد اعترف بها ايضا " جان شازال " وان كان جرى في تعبيره عنها على المصطلحات الفرويدية يقول في كتابه المشار اليه : " اذا تعقد الطفل بمشاعر اوديبيه من تاثير التفكك العائلي اوالاخطاء السيكولوجية العميقة فقادته هذه المشاعر الى التعلق بامه والاحساس تجاه والده بالعدائية تختلط بها الحاجة الى التمثل به فانه يستطيع ان يعبر عن طريق الجنوح عن اضطراب واقعة الانفعالي العاطفي وحين يتعلق بامه يصير خجولا وسلبيا وقد يتطور بسرعة خلال مراهقته نحو الاستمناء والصداقات الخاصة واللواط • يخشى المراة حين لاتمثل بالنسبة اليه صورة الامومة ويكون ذوقه انثويا ومشبعا بالتصنع احيانا وقد تلاحقه صورة الاب وقد يرغب عندئذ في مرافقة رجال ناضجين وقد يجذبه لسوء الحظ بعض المصابين بالشذوذ الجنسي والولد الذي يتعلق بامه يشمل بعدوانية كل الذين يظهرون له ان وجودهم يسلبه عطف الامومة " (٣٩)

---

(٣٧) المجتمع العدد ٣٥٠ نقلا عن الدستور الاردنية

(٣٨) انظر مجلة الدعوة المصرية العدد ١٣٩٨/٢٦

(٣٩) الطفولة الجانحة : ٥٣

٤ ـ الامراض العقلية والعصبية :

جاء فى تقرير لمنظمة الصحة العالمية اعدته لاجتماعها السنوى فى جنيف لسنة ١٩٧٨ :

" يعانى حوالى ٤٠ مليون شخص من امراض عقلية اكيدة فى العالم وهناك اكثر من ٨٠ مليونا ممن يعانون تخلفا خطيرا من جراء الافراط فى تعاطى الادوية والمخدرات والمشروبات بالاضافة — الى مائتى مليون شخص يعانون من اضطرابات عقلية اقل خطرا ولكنها تعرضهم للتخلف العقلى ايضا " (٤٠) .

اما الولايات المتحدة بصفة خاصة فتقول الاحصائيات :

" ان المرض العقلى يشكل اخطر تهديد لصحة ابناء شعبها اذ يشير تقرير المعهد القومى للصحة العقلية الصادر فى يوليو ١٩٥٤ ان عدد المرضى الذين ترعاهم مستشفيات الامراض العقلية يناظر مرضى المستشفيات الاخرى مجتمعة على اختلاف انواعها ولا يندرج بطبيعة الحال فى هذا الاحصاء عشرات الالاف من الحالات المرضية التى لم تقصد المستشفيات وانما تولى علاجها اذا قدر لها ان تحظى بالعلاج اطباء الامراض العقلية " (٤١) .

وقد فطن بعض الباحثين الى ان السبب فى تدهور صحة الجيل الحاضر لاسيما الصحة العقلية ليس هو تعاطى المخدرات والمسكرات فهذه اعراض للمشكلة الحقيقية وهى فقدان رعاية الام وما تمنحه من التوازن النفسى ، فقد نشرت الدكتورة " ايدا ايلين " بحثا " بينت فيه ان سبب الازمات العائلية وسر كثرة الجرائم فى المجتمع هو ان الزوجة تركت بيتها لتضاعف دخل الاسرة فزاد الدخل وانخفض مستوى الاخلاق .. وتنادى الخبيرة الامريكية بضرورة عودة الامهات فورا الى البيت حتى

---

(٤٠) جريدة الندوة العدد ٥٨٤٨ لعام ١٣٩٨

(٤١) بافلوف وفرويد : ١٦٠

تعود للاخلاق حرمتها وللابناء والاولاد الرعاية التي حرمتهم منها رغبة الام في ان ترفع مستواهم الاقتصادى وقالت الدكتورة ايلين : ان التجارب اثبتت ان عودة المرأة الى الحريم هو الطريق الوحيد لانقاذ الجيل من التدهور الذى يسير فيه" (٤١)

نبذة عن المجتمع الشيوعي :

كان ماسبق لمحة عن البهيمية الهابطة والمعيشة الضنك والحياة النكدة التي يصلى سعيرها المجتمع الغربى المعاصر وهى سحابة مظلمة تغطى سماء اوربا كلها وترسل صواعقها وشواظها على كل ركن من اركانها ولكن " الرفاق " في موسكو يزعمون ان ذلك الوجه الكالح خاص بالمجتمعات البورجوازية وان شرور الغرب الاجتماعية مردها الى طبيعته الطبقية ونظامه الراسمالى . لذلك فهم يزعمون ان المجتمع العمالى "البروليتارى" مجتمع سليم متكافىء ذو اخلاق من النوع الذى تحدث عنه انجلز سلفا .

ولعل فيما اوردنا سابقا عن الوضع السياسى والاقتصادى داخل الستار الحديدى غنى في الرد على هذه المزاعم فمجتمع ركيزته الحقد وقوامه التجسس وطابعه الذعر والارهاب لايمكن بحال ان يكون مجتمعا انسانيا سليما . وانى يكون كذلك وهو يهدر قيمة الانسان وكرامته في مقابل زيادة الانتاج ويجعل الغرض الاساسى لوجوده هو الكدح في معسكرات العمل او المزارع الجماعية .

ان الحزب الشيوعي الذى يتحكم في اقوات الناس ويعلق سيفه الرهيب فوق رؤوسهم ، يملك فرصة اكبر للتحكم في اخلاقهم وعاداتهم ويتعمد ان يصوغ البشر في قوالب معينة حصيلتها النهائية افساد الانسانية وتحطيمها ، فالفرد في ظل

---

(٤١) المرأة بين الفقه والقانون : ٢٥٣

الانظمة الحمراء مجبر على أن يحشر هو وكامل افراد اسرته في غرفة واحدة هي غرفة جلوسهم ونومهم ومطبخهم ثم هي غرفة في مجمع إسكاني ضخم غير متجانس ، فالشقة التي تتكون من ست غرف يكون معدل سكانها ثلاثين نسمة ينتمون لست أسرة منها اسرة من البلد نفسه ومنها اسرة تعرض ربها للنقل التاديبي من احدى الجمهوريات النائية، وثالثة تسكنها ـ مثلا ـ اسرة قادمة من احدى الدول " الديمقراطية الشعبية التابعة لموسكو " وهكذا .. ويشترك سكان الشقة في دورة مياه واحدة بالاضافة الى أن دورات المياه العامة قد تكون بنيت بلا أبواب منذ انشائها ، وحيثان الغرفة لاتحتوى الا على سرير واحد فردى فان الابوين ينامان عليه في حين ينام الابناء ذكورا واناثا حتى من البالغين على المنضدة متلاصقين وهي المنضدة التي يستعملونها للمطبخ بالنهار. (٤٢) وهذا بالطبع غير المساكن العمالية الملحقة بالمصانع والتي يحشر فيها العمال والعاملات الذين يصلون الى عدة الاف في المصانع الكبرى .

ويبلغ تعمد الافساد في الدول الشيوعية حدا يجعل السياح العاديين الذين يتاح لهم التجول في البلاد الشيوعيه يرونه بوضوح . يقول سائح سويسرى : " لقد انحطت القيم الاخلاقية في اكثر بلاد العالم بعد الحرب العالمية الثانية ولكن الفرق بين ماهي عليه الحالة في البلاد الشيوعية وماهي عليه في البلاد الاخرى هو ان الحكومات الشيوعية هي التي تسعى الى افساد الاخلاق وتحث عليه كما ان أوضاع الناس وفقرهم ونظام حياتهم الذى فرضته عليهم الشيوعية كل اولئك تدعو الى افساد الاخلاق وتشجعه . فماذا ينتظر المجتمع من أناس تحشر الاسرة كلها الاب والام والفتيات والفتيان الكبار والصغار في غرفة واحدة هي غرفة نومهم وجلوسهم ومطبخهم . ان هذا النوع من الحياة والفقر وانعدام الوازع النفسي والديني كلها امور تحض على فساد الاخلاق حتى ولو لم تتيسر الاسباب . فكيف والحكومة هي التي تيسر كل شيء لفساد المجتمع ، ففي اكثر البلاد الشيوعية وفي امهات المدن بصورة خاصة اوجد الشيوعيون اماكن خاصة للفساد ولست أقصد بذلك بيوت الدعارة بل اقصد بذلك تلك الحدائق الواسعة ذات الخمائل الوارفة التي يتوارى بها الفجار عن اعين الناس او يرتكبون الفاحشة على اعين الناس بلا حرج ولا مبالاة .. اوهي شوارع تترك بلا نور ليلا لتسهيل الدعارة .. وقد صرح الماريشال تيتو في احدى خطبه موجها كلامه للشعب قائلا : لقد تركنا لكم الخمر والنساء فخذوهما واتركوا لنا السياسة " ! .

والمرأة ... التي هي ميزان الاخلاق ارخص سلعة في البلاد وهي ترمى بنفسها على الرجل ولاسيما على الغريب وكل ماتطلبه هو ان يتزوجها ولو موقتا لكي يتسنى لها

---

(٤٢) انظر الديمقراطية والشيوعية : وليم اينشتاين : ٢٦٣ ـ ٢٦٤ .

الفرار من الهلاد والخلاص من جحيم الشيوعية . وبالتالى فانى رأيت الناس يعيشون فى الهلاد الشيوعية كما تعيش الههائم . وانى لاخشى اذا طال — لاقدر الله — عمر الشيوعية ان يظهر الى عالم الوجود اناس يختلفون عن الهشر ويرجعون بالمدنية التى وصلنا اليها بالاف السنين الى حياة الغاب " .

" .. لذا فانى ارى بان العالم سيظل قرونا بعد القضاء على الشيوعية حتى يستعيد كرامته وانسانيته اذ لابد من تربية جديدة صالحة حتى يكون انسانا صالحا " (٤٣) .

أما فيما يتعلق بالزواج فان الزواج المعترف به من الوجهة النظرية فى الغرب الرأسمالى باعتباره العلاقة المشروعة بين الجنسين لا يحظى بذلك هناك فالشيوعية تعد الزواج وما ينشأ عنه من الاسرة وتربية الاطفال اثرا من آثار البورجوازية وبقية من تقاليد العصر الاقطاعى لاتليق بالمجتمع العمالى الحديث . فالبيان الشيوعى يقول :

" ان الاسرة البورجوازية سوف تختفى بشكل طبيعى باختفاء راس المال .. اما التهريج البورجوازى عن الاسرة واهميتها فى التربية وعن اهمية العلاقة بين الولد وابويه فهو مما يثير الاشمئزاز . ان تقدم الصناعة الحديثة سوف يقطع كل الصلات العائلية بين افراد الطبقة العاملة " (٤٤) .

ويتحدث ارثر كستلر العضو السابق للحزب الشيوعى عن المعادلة الشيوعية الصعبة فيقول : " اما بخصوص الدافع الجنسى فقد كان مقررا ومعترفا به الا اننا كنا فى حيرة بشأنه .. كان نظام الاسرة كله عندنا اثرا من اثار النظام البورجوازى ينبغى نبذه لانه لا ينمى الا الفردية والنفاق والاتجاه الى اعتزال الصراع الطبقى بينما الزواج البورجوازى لم يكن فى نظرنا الا شكلا من اشكال الهغاء يحظى برضاء المجامع وموافقته الا ان السفاح والاتصال الجنسى العابر كان يعتبر ايضا شيئا سيئا غير مقبول .. من هذا نرى ان الفضيلة البورجوازية شيئا سيئا كما ان السفاح .. كان سيئا كذلك .. اما الموقف الصائب الذى ينبغى ان نتخذه نحو هذا الدافع الجنسى فهو الفضيلة العمالية التى تتلخص فى ان الانسان ينبغى له ان يتزوج ويخلص لزوجته وينجب ابناء عماليين . فاذا تساءلت : اليست هذه الفضيلة البورجوازية التى استنكرناها من قبل ؟ قيل لك ان هذا التساؤل ايها الرفيق يدل على انك لا زلت تفكر بالطريقة الالية لا بالطريقة الجدلية .. ان نظام الزواج الذى يعتبر فى المجتمع الرأسمالى مظهرا من مظاهر الفساد والتحلل يتحول " منطقيا " الى عكس ذلك فى المجتمع العمالى السليم . فهل فهمت

---

(٤٣) انظر دوماز : عائد من الجحيم . مقتطفات : ٥٦ — ٦٥
(٤٤) عن الصنم الذى هوى : ٢٤

أيها الرفيق ام تحب أن أعيد عليك جوابي بطريقة " محكمة " اكثر من هذه ؟ (٤٥)

وما تحدثنا عنه من التفكك الاسرى والتفسخ الاجتماعي في الغرب موجود بعينه في الدول الشيوعية مع اضافة شيء آخر اكثر خطورة وهو الشعور الدائم بالهلع والرقابة البوليسية والشك والحذر من كل انسان حتى افراد الاسرة الواحدة لا يمكن ان يقوم بينهم تواد وتفاهم كاملان كما يكون بين خلق الله الاخرين . وقد مرت في فصل علمانية السياسة قصة الطفل "البطل" الذى وشى بوالده الى الحكومة فحكمت عليه بعشرة اعوام من السجن والعمل سخرة . (٤٦)

والمرأة ـ خاصة ـ تعاني شقاء لاحدود له فهي لاتملك ان تبث شكواها فضلا عن المطالبة بشيء من حقوقها حتى زميلاتها في المصنع او المزرعة لاتستطيع ان تفاتحهن بكل مايعتلج في صدرها لا ن احتمال تسرب ذلك الى الادارة ماثل للعيان وعقوبته لا يطاق تصورها . وهي "عاملة" بحكم طبيعة النظام وصرامته ولذلك فهي محرومة من ارضاء غرائز الامومة وعواطفها الانثوية مقهورة مكبوتة . اما الاطفال فالمحاضن التي تقيمها لهم الدولة اكثر منها في الغرب كما انها أردأ منها في اساليب التربية ووسائل المعيشة وهذا يضاعف الهلاء الاجتماعي ويزيد المجتمع انحدارا الى الهاوية .

وذلك الوضع لاتدعو اليه الظروف الاجتماعية فحسب بل هو جزء من الفلسفة الشيوعية فقد ذكر انجلز أن من التدابير التي يجب على البروليتاريا ان تتخذها " تربية جميع الاولاد منذ ان يصبحوا قادرين على الاستغناء عن عناية الامهات في مؤسسات عامة تابعة للدولة وعلى حساب الامة .. والحق المتساوى في الارث للاولاد الشرعيين وغير الشرعيين " (٤٧) .

وصفوة القول أن المجتمع الشيوعي هو احط المجتمعات البشرية المعاصرة سواء من الناحية الاخلاقية او من ناحية الطمأنينة النفسية والسعادة الاجتماعية فهو مجتمع منحل مذعور يخيم عليه كابوس شقاء مطبق الى حد ان الانسان لا يستطيع ان يفكر في أمل حقيقي للخلاص .

وهذا التفسخ الفظيع والشقاء المريع الذى تعاني منه أوربا اللادينية بشقيها الرأسمالي والشيوعي هو النتيجة الطبيعية والعقوبة العاجلة لكفرها بالله وتنكرها لدينه والاحتكام الى أهواء البشر وتخرصات المضللين . وانه لمن سنن الله في خلقه انه اذا لم تعد الى الله وتتمسك بهداه فان المستقبل سيكون أمر وأنكى .

...

(٤٥) المصدر السابق ٥٦ ـ ٥٧
(٤٦) انظر الديمقراطية والشيوعية : وليم اينشتاين : ١٦٢
(٤٧) نصوص من انجلز : ٤٨

الباب الثالـــــث

الفصـــل الخامــــس

علمانيـــة الأدب والفــــــــــن

توطئـــــــة :

الأدب ـ ومثله الفن ـ مجال رحب وميدان فسيح تنوء به الدراســـات المتخصصة المستفيضة فضلا عن البحوث المنهجية الدراسية والأدب الأوربى خاصـــة له قصته الطويلة وتاريخه السحيق فوق أن معظم قضاياه كانت وستظل مثار نــــــزاع ومدار جدل شديد بين الباحثين والنقاد ، وتلعب الاتجاهات السياسية والخلافات القومية والمذهبية دورها في ذلك •

واذا وافقنا الرأى القائل بأن الأدب هو " صورة الحياة وانعكاسها ـ الواضح " فما بالك بصورة حياة كحياة أوربا حائرة مضطربة متهافتة متناقضة ؟ !

وهذه الأمور وغيرها ـ مما لا يخفى على المطلعين ـ تجعل البحث فـــى هذا المجال محفوفا بالمتاعب وتستنفذ جهد الباحث دون أن يستطيع أن يخــــرج بخلاصة متناسقة تعبر على الأقل عن مدى جهده ، ان لم تعط الصـــورة المطلوبـــة للموضوع •

ومن الجلى " أننا لا نبحث في الأدب من حيث هو أدب وانما ننظر اليــــه من خلال المنظار العام للموضوع أى من جهة علاقته بالدين ، كما أننا مقيدون بالحجم الذى لا ينبغى أن يتجاوزه هذا الجانب من جوانب الحياة البشرية •

ومراعاة ذلك تستدعى عرض الموضوع وصياغته ضمن منهج خاص يتميـــز بأمـــور :

١ ـ التركيز على ما له صلة قوية بموضوع بحثنا وعرضه بما يتناسب مع مقتضـــى الحال حجما وأسلوبا •

٢ - البعد - ما امكن - عن الخلافات حول المذاهب الأدبية وتصنيف المدارس والانتماءات ، وتقويم المواد والشخصيات الأدبية •

٣ - البعد عن الغموض الذى يكتنف الدراسات المصرية والذى سيظهر طرف منه - رغم ارادتنا - عند الحديث عن مدارس الضياع •

هذا وسنراعى - كالعادة - التسلسل التاريخى في عرض المعالم الكبرى لعملية التحول الى العلمانية التي بلغت ذروتها في الأدب والفن المعاصرين •

١ - عصر النهضة الأوربية " الكلاسيكية الجديدة " :

يقترن مسمى " عصر النهضة " الأوربية بالحركة التي نشأت في أيطالية - المركز الحضارى الاسلامي الثاني في أوربا - واستهدفت بعث الآداب الاغريقية القديمة التي أطلق عليها اسم " الآداب الانسانية " (١) تمييزا لها عن كتابات رجال الكنيسة اللاهوتية •

لقد فوجئت أوربا الغارقة في سبات القرون المظلمة بنور الحضارة الاسلامية فانبهرت به وأحست بواقعها المرير تحت ضغط الكنيسة التي جثمت على فكرها وشعورها وسلوكها وأفقدتها الاحساس بانسانيتها •

وهذه اليقظة المفاجئة أوقعت النفسية الأوربية في مأزق حرج اذ تصادم في داخلها دافع ومانع قويان : الاول : دافع الاستمتاع بنور الاسلام والدخول في فردوس حضارته حيث التوازن الفريد بين الدنيا والآخرة ، وبين الروح والجسد ، ففى ظله تنطلق انسانيتهم لتعبر عن ذاتها بعيدا عن أغلال الرهبانية وشطط الكنيسة •

---

(١) من العجيب ان تستورد الجامعات في العالم الاسلامي هذه التسمية دون وعي مع العلم بأن الاسلام ليس فيه ذلك التناقض بين ما هو الهى وما هو انسانى في هذا المجال •

والآخر مانع التعصب المقيت والعداوة الحاقدة للاسلام وحضارته تلك التي عمقتها الحروب الصليبية وبلغت أقصى مداها في المد الاسلامي الذي قام به المجاهدون الاتراك .

وكان المانع أقوى من الدافع فخرجت أوربا من ذلك التناقض النفسي بالبحث عن وسيلة تتيح لها الخلاص من براثن السلطة الكهنوتية الطاغية دون ان تتخلى عن تعصبها وعداوتها للاسلام وأهله ولم تكن تلك الوسيلة سوى عملية " اجترار الماضي " ببعث تراثها الوثني الاغريقي والالتصاق به لا سيما جوانبه الشهوانية البهيمية .

وهذا الاتجاه ـ بطبيعة الحال ـ أزعج الكنيسة وان كان أفضل لديها بكثير من احتمال اقبال أتباعها على الاسلام . وحاولت جهدها أن تسير الموجة لصالحها وتسيطر على الوضع بحيث تبقى عقائدها وتصوراتها تصبغ الأدب وتوجهه وتظل بصماتها بارزة في فنه المنحوت والمرسوم .

ولكن عوامل التحرر والانطلاق كانت أقوى من حواجزها واستطاع عصر النهضة أن يخطو خطوات كبيرة وجريئة للوصول الى علمانية كاملة للأدب والفن عليها قام الأدب العلماني الحديث وارتكز .

ونستطيع أن نستعرض بعض ملامح الأدب والفن في ذلك العصر معتمدين على بحوث وتحليلات بعض المفكرين الأوربيين فنجد أن أبرزها مايلي :

١ ـ بعث التراث الوثني الاغريقي :

هذه هي الخطوة الأولى نحو الانفلات من سلطة الكنيسة والانقضاض على فكر وتقاليد القرون الوسطى ، فمن طريق احياء الآداب الاغريقية استطاع أدباء وفنانو النهضة النفاذ الى عالم آخر خارج عن مألوف عصرهم ولا أثر فيه لشيء من اللاهوتيات . لقد نفذوا اول الأمر من كوة صغيرة لكنها ظلت تتسع حتى انتقض

بناء الكنيسة والتقاليد من أسلسه ، وطلعوا على الفكر الأوربي بمفهومات جديدة ومعايير مغايرة سبقوا بها النهضة الفكرية العقلانية ، وذلك ما يعده الفكر الحديث أعظم مآثر النهضة •

يقــول " برنتن " :

" انه طالما كانت العصور الوسطى في الواقع عصورا دينية وطالما ان عصر النهضة يعني على الاقل محاولة العودة الى الوثنية اللادينية ان لم نقل الزندقة فان فن العصور الوسطى يرتبط بالكنيسة أما فن عصر النهضة فيتمتع بحرية بوهيمية • وهذه هي حقيقة الأمر ، وكان النحاتون والرسامون في ذروة عصر النهضة يقلدون العرى الكلاسيكى كما يقلدون كل شيء كلاسيكى آخر ، فالفنان بدأ يقود شيئا يشبه نوع الحياة ، وحشيا فاحشا مجازفا ولكنه عظيم الأهمية ومن المفروض أنه لا يزال يقود ، " •

" لقد كان فنانو عصر النهضة الذين كرسوا جل حياتهم الفنية لغرض جعل المعتقدات المسيحية واضحة تبدو في اجمل مظاهرها للعيان ، يستمرون في القيام بالاعمال التي ورثوها عن الرواد السابقين للعصور الوسطى ، هذا وقد تحول الفن في العصور الحديثة الى فن علماني تقريبا حتى أن الفن الديني كاد يختفي أو بالأحرى أصبح في الدرجة الثانية استنتاجيا وتقليديا •"

" ان الكتاب الخياليين هم الفنانون القريبون من قلب الوضع الانساني نحو الحياة • ان بترارك ورابله وشكسبير وسرفانتس والرسامين والنحاتين والموسيقيين الذين لا نزال نعلم أسماءهم هم نوع من الرجال الذين ينشدون طريقا وسطا بين المسيحية التقليدية كما خلفتها العصور الوسطى وبين العلمانية الحديثة التي يبدو أنها تقلع جذور السحر والسومن الكون (١،١) •• كان هؤلاء الفنانون في تمرد مدرك كثيرا ضد التقليد المسيحى خلال العصور الوسطى ،لقد

انكروا مستندا وبات عليهم — وهذا اكثر اهمية — أن يبحثوا بل يقيموا مستندا آخر ، فقبول هؤلاء العلماء المجرد لأى شيء كتبه قدماء اليونانيين والرومانيين لم يكتف به رجال الفكر ، وككل شخص ألمّ بكل ما له علاقة بالعقل عاد هؤلاء الفنانون الى اليونانيين والرومانيين ،وكانوا بذلك كالمهندسين المعماريين حيث أعادوا تجديد موادهم " (٢)

٢ — الاهتمام بالحياة الدنيا والوجود الانسانى فيها :

وذلك الاهتمام نشأ رد فعل لتركيز الكنيسة على عالم الآخرة وحصركل النشاط الفكرى والفنى لاتباعها في مجال الحديث عن الثالوث والقديسين والملائكة والمعجزات وكبت المشاعر والأحاسيس الانسانية أيا كانت مالم تكن في حدود دائرتها اللاهوتية ، ومن هنا أطلق على الحركة بكاملها وصف " للانسانية " .

وقد قام " دانتى " ت ١٣٢١م في هذا المجال بمثل ما قام به " مكيافيللى " في مجال السياسة فقد خرج على الكنيسة خروجا صريحا وناقض تقاليدها ومقاييسها ، وابتداء منه أخذ الأدب الأوربى يحل الانسان شيئا فشيئا محل " الاله " فالاهتمام بالانسان الذى نبه اليه دانتى ومعاصروه كان المنطلق لمحاولة تأليه الانسان وتصويره على انه اله حقيقى وهي المحاولة التي بدأت في القرن التاسع عشر واكتملت على يد " سارتر " وأشياعه في هذا القرن مرورا بتأليه الطبيعة الذى دعا اليه عصر التنوير ،يقول " داونز " :

" يقف (دانتى) كما وقف صديقه ومعاصره المصور الرسام " جيوتو " على رأس حقبة جديدة في تطور الفكر البشرى ولما كان كلاهما فنانا عظيما فانهما عبرا أصدق تعبير عن ذلك الشيء الجديد الذى ما كان يجيش في صدور الكثير

---

(٢) منشأ الفكر الحديث : ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٣

من معاصريهم ولكنهم لم يستطيعوا الافصاح عنه كما أفصحا .

وهذا الشيء الجديد هو " الانسانية " هو الاهتمام بشئون الانسان فى الحياة الدنيا . ونستطيع أن نتفهم خطورة هذا الجديد الذى يزاحم القديم اذا قارناه بالعقائد المسيطرة على أذهان الناس في ذلك العصر عن الحياة والكون .. ومؤداها ان الحياة الدنيا ليست الاتمهيدا لاستقبال الحياة الاخرى ، وقد هيمن هذا الاعتقاد على الناس في القرون الوسطى جيلا بعد جيل تحت سطوة الكنيسة وسيطرتها الماتية على جميع نواحى النشاط الانسانى وجميع المؤسسات الاجتماعية بينما كان علم العلماء كله يدور حول المبادئ الدينية والعقائد الكنسية " .

" ثم جاء عقب ذلك عصر الاستنارة وهو أول تبدل جديد طرأ على الناس في نظرتهم للحياة فاتجهوا الى أحضان الطبيعة يستوحون منها أسرار الكون ووضعوا ثقتهم المطلقة في مقدرة العقل الانساني ، وقد نادى بهذا نفر من عباقرة ذلك العصر ، ... كان مجالهم الفكرى في ناحية الاهتمام بشئون الانسان في هذه الدنيا وترك الاهتمام بشئون الآخرة " .

" وأما (جيوتو) فكان فنان هذه النهضة كما كان دانتى شاعرها فقد أخذ جيوتو يرسم على جدران كنائس مدينة (أسيزى) صورا وأقاصيص لحياة القديس فرانسيس عرض بها رسوما من الناس والطبيعة والطير والحيوان والزهور من واقع الحقيقة والمشاهدة وهو حدث جديد في الفن وخروج على التقليد القديم في تصوير العذراء والطفل يسوع وتصوير القديسين " .

" ان ملحمة الكوميديا (٣) كانت حدثا جديدا في الأدب ، حدثا ضخما لم يسبق له مثيل ، فليس اذن من العجب أن يدعوها الناس بلقب " الالهية "

---

(٣) اثبت كثير من الباحثين أن هذه الملحمة مقتبسة عن رسالة الغفران للمعرى أنظر مثلا مقال الدكتورة عائشة عبد الرحمن بسلسلة تراث الانسانية ج ٢) ٤٢٤ .

لأنهم شعروا عند ظهورها أن ادبا أوربيا جديدا قد انبثق فجره " .

" ان الناس كانوا يعتقدون ما علمتهم اياه الكنيسة من أن كل انسان يكفر بالمسيحية جزاؤه جهنم ، وأما من يؤمن بها فمآله الى الجنة وجاء دانتي فخرج على تلك العقيدة القديمة وأقام موازين جديدة للعقاب والثواب على أساس من الأخلاق ... وعندما ننظر اليوم الى الوراء نجد شاعرا يوزع بالقسطاس العقاب والثواب " بدلا من ان يوزعها البابا " فاننا لا نرى في عمله شيئا خارقا غير أنه بالقياس الى عصره كان لا شك انقلابا خطيرا " .

" وقد صدق الشاعر بوب " عندما عبر عن فلسفة القرن التالي (١٨) بقوله : " ان خير دراسة يقوم بها البشر هي دراستهم للانسان " وقد كان شكسبير قبله خير من قام بهذه الدراسة . والحق ان شكسبير يمثل أرقى ما بلغت اليه حركة النهضة الأوربية بأجمعها ، وهي في لبابها تتلخص في اكتشاف الجنس البشري لقيمته وأهميته التي كانت قد ضاعت على مر العصور" (٤)

وجدير بالذكر أن دانتي في ملحمته قد أدخل البابوات كلهم قاع جهنم الا بابا واحدا أدخله الجنة. ودلالة ذلك لا تخفى . (٥)

٣ ـ العودة الى الاباحية الرومانية :

رد فعل للرهبانية والتزمت المغالى اللذين كانا يسيطران على الحياة الاجتماعية الأوربية في ظل الكنيسة قام رواد النهضة بتجديد شباب الكلاسيكية وبعث المذهب الأبيقوري في التمتع بضروب الملذات والانغماس في الشهوات الجسدية ، ومن هنا أهمل المثك أو كادوا جانب الآلهة وأساطيرها وصراعها من التراث الكلاسيكى الاغريقي والرومانى وانصب اهتمامهم على الجانب الاباحي

---

(٤) كتب غيرت وجه العالم مقتطفات من ٣٦٢ ـ ٣٦٨

(٥) انظر تاريخ أوربا العصور الوسطى : فشر : ٢/٢٧٧ .

فليس مرد ذلك الى قوة ايمانهم بالعقيدة المسيحية بقدر ما كان الرغبة في اشباع نزواتهم المكبوتة وميولهم العاطفية قبل اى شيء آخر .

وهكذا كان عصر النهضة يتسم بطابع كلاسيكى خاص يقدس الجسد ويعبد اللذة في وقت لا تزال الرهبانية فيه هي المثل الأعلى ، ووجه زعماء ذلك العصر أنظار الناس الى مثالب الرهبانية بحجة منافاتها " للانسانية " وهو الوصف الذى كانوا يتسترون به .

يقول مؤلف " تكوين العقل الحديث " :ـ

" الحقيقة أن هذا الاهتمام بالانسانية عاش بصورة قوية واضحا منذ العصور التى سبقت غزوة المسيحية للبرابرة ، فالحياة التي صورها هوميروس في الملاحم الوثنية تعكس لنا الوجود الانسانى .. وجل ما استطاع التقليد المسيحى هو أن يشوه سمعتها .. وقد انتشر خلال القسم المتأخر من القرون الوسطى تيار من الأغانى المبتذلة تمجد التمتع الصريح بالحياة وملذاتها ، وكانت هذه الاغانى كثيرة التحرر مفرطة في وصف النواحى الحيوانية " .

" على النحو التالى :

نحن في تجوالنا مغتبطون مشرقون ...

نأكل حتى الشبع نشرب حتى الثمالة ..

نمرح الى الأبد نهل من الجحيم ..

تلتصق صدورنا ببعضنا .. "

وحالما نشأ أدب علمانى عامى فقد صدر نفس التمتع الوثنى بخيرات الحياة الرفيع منها والوضيع فالشعراء المغنون " التروبادور " حولوا الفروسية المسيحية الى تمجيد للحب الانسانى .. ومن الجدير بالملاحظة ان أكثر هذه القصائد صراحة وواقعية نشأت من الثقافة البرجوازية في المدن ، فالأقاصيص الفرنسية البذيئة وصفت بصورة حاذقة التمتع بضروب الحياة " كما كان يحصل

في الواقع وتميزت بشغف خاص بسرد قصص الماكرين الأوغاد ومثالب الكهنة كما نجد ذلك في قصائد شوسر ومعروف صور الاوغاد التي رسمها بوكاشيو ".

" والحقيقة أنه ابتداء من القرن الثاني عشر فما بعده زاد احتدام هذا الموقف وهذه الاهتمامات .. ويتحدث الفن عن نفس القصة التي يتحدث عنها الأدب فالعذراوات والقديسون والاقدمون .. يتحولون الى رسوم واقعية .. وتنقلب صور العذراء التقليدية البيزنطية الى فتيات قرويات ايطاليات.

ولكن أهم ما أخذ العلماء الانسانيون عن .. الاغريق كان التمتع السعيد الطبيعي السليم بخيرات الحياة في حضارة رفيعة .. ووجدوا هنا أن اللذات غير الضارة والميول الطبيعية تعتبر الوسائل التي بواسطتها ينظم العقل حياة صالحة ، وأنها ليست من الشيطان فلا داعى اذن الى اعتبارها ذنبا اما أن يقهر بعون الهى أو ينهل منه في خجل وشعور بالعار .. "

" أدى كل هذا بالطبع الى ثورة على الأخلاق المسيحية فبدلا من المحبة حل الفرح باستعمال الانسان للقوى التي وهبه الله اياها وحلت الحرية والمسؤولية بتوجيه العقل محل الخضوع لارادة الله ، وأخذ البحث الفكرى الجرئ يحتل بالتدريج مكان الايمان ".

" وانفجرت العاصفة بكامل عنفها على رأس الراهب ، ذلك ان فشل الراهب في تحقيق الطهارة التي بشر بها جعلت أدب القرون الوسطى منذ ولادته يعطى لزلات الراهب صورة أكثر بشاعة ، وصورته بأنه أكثر حيوانية من سواه . وجاء أحذق الايطاليين وأجرؤهم اطلاقا لورنزفالا ... فأنكر في كتابه " حياة الرهبانية" كل قيمة للتقشف والقداسة وذهب أبعد من ذلك في رسالته عن اللذة التي يتفق فيها مع المذهب الابيقورى فأعلن أن المرأة المتزوجة بل المستهترة أيضا هي أفضل من الراهبة ،لأنها تسعد الرجل أما الراهبة فهي تعيش في تبتل لا فائدة منه ، ويمعت موت الانسان في سبيل بلاده ، أو من أجل أى مثل أعلى بأنه لا يقره العقل ".

" هذا التحول المفاجئ يوحي في بعض الأحيان بالرجوع الى ما يشبه الوثنية الخالصة ، ويمثل الفن الايطالي أحسن تمثيل المزج الكامل بين المسيحية والوثنية فلو القينا نظرة على بعض الرسوم الشهيرة هل نستطيع التفريق بين الله والملاك والعذراء والصبي وكيوبيد والقديس .. "

" ثار الايطاليون على الأخلاق المسيحية واستبدلوا بها مجرد التمتع بالملايين من اشكال الجمال .. لكن الشعوب الشمالية وجدت في الحياة اكثر من الجمال وقد مثل هذه الروح فيما كتب رابليه الكبير .. وتتجسم روح ثورة النهضة في مقطع يطلب منارا بليه فيه أن نهرب من " أولئك الرعاع ذوى العقول الزائفة الماكرين والقديسين المزورين الوقورى الهيئة المرائين مدعى الايمان ، - الاخوان الخشنين الرهبان الذين يلبسون النعال .. اهرب من هؤلاء الرجال عليك بكراهيتهم واحتقارهم قدر ما اكرههم أنا واننى لاقسم لك أنك ان فعلت فستجد نفسك أفضل حالا " (٦)

هكذا كان عصر النهضة ثورة على المسيحية التقليدية واعلانا للعودة الى الوثنية وهذه وان كانت في الواقع عملية سلبية الا أنها خطوة لا بد منها لكل حركة جديدة فمن الطبيعي أن تنصب أنظار رواد النهضة الى هدم كيان الواقع الذى رضخت له أوربا ألف عام قبل ان يفكروا في ماهية الواقع الجديد .

---

(٦) " مقتطفات من : راندال " : ٢/ ١٨٥-١٩٨

٢ ـ العصر الحديث :

آ ـ الرومانسية :

لسنا في حاجة الى إعادة القول بأن حياة أوربا هي عبارة عن خط بياني متذبذب تحكمه ردود الفعل المتناقضة ،فقد أصبح ذلك حقيقة مقررة بعد أن رأينا شواهده ، في كل مجال ، وهنا في مجال الأدب نلمس تلك الحقيقة بوضوح :

فالضبطة الكلاسيكية لم تدم طويلا اذ سرعان ما جرت عليها سنة أوربا في الارتداد ،واذا كان أعظم ايجابياتها هو الاهتمام بالانسانية وايقاظ العقل الأوربي المطمور ليأخذ مركز التوجيه في الحياة فانه حتى هاتان لم تستقرا دون تطوير أو تغيير .

وكان التطوير من نصيب الأولى أما الأخرى فكان نصيبها التغيير بل الثورة ، ومن هذين انبثق المذهب الجديد الذى عرف بـ " الرومانسية " والذى يقترن تاريخيا بمسمى " عصر التنوير " .

أولا : تطور النزعة الانسانية :

لعل أصدق تعبير عن هذا التطور هو ما قاله مؤلفو كتاب " ثلاثة قرون من الأدب " :

" ان القرن الثامن عشر لم يخصص للدين وانما خصص للعلم والسياسة فلم يعد زعماؤه قساوسة مسيحيين .. بل فلاسفة طبيعيين .. لقد كان التغير عميقا ومن نواح عدة كان القديم والجديد على طرفي نقيض . فالتطلع الى ما وراء أشياء هذا العالم قد تراجع أمام التطلع الى أشياء هذا العالم ، لقد أصبح القديس الدائر حول محور الله عالما انسانيا محوره الانسان والحياة التي كانت تسير بهدي الكتاب المقدس ، ولم يعد العالم مكانا حيث العناية

الالهية دائمة الحضور والفعل تضبط وتدير كل ما يحدث حتى التافه منه (١)، فلمين العقل صار العالم الآن جزءا من آلة الكون التي وقد أخذت تدور مرة استمرت في الدوران لنفسها وبنفسها (١) حتى الله ذاته لم يعد شخصيا ،أبا يُحب ويُرهب ، بل أصبح قوة عاقلة سحيقة البعد لا شخصية ، " علة أولى " أدارت الآلة وتركتها تعمل بنظام كامل وفق نواميس رياضية فيزيائية ، ويسوع ابن الله أصبح يسوع ابن الانسان (٢))

" لم يعد موضوع البحث للجنس البشرى هو الله ، بل الانسان " .

" وتحسين حال الانسان يمكن توقعهما لا عن طريق الدين بقدر ما يمكن توقعهما عن طريق العلم والتربية والسياسة التي بها يستطاع اصلاح المجتمع " (١)

وهكذا اصبحت ثورة عصر النهضة المبهمة تملك منهجا عقليا ومسارا محددا وبذلك تواجهنا صورة وثنية جديدة أكثر وضوحا .

وهذا هو المميز الأول للرومانسية وعنه نشأ " تأكيدها على سيادة القلب وحياة النفس الداخلية " بمعنى حصر كل الاهتمامات في حدود الكائن البشرى بل في اعماق النفس الفردية . وينتقد الرومانسيون الأدب الكلاسيكى بأنه " كان الهدف منه تصوير البشر لا كما هم فعليا ولكن كما هم مثاليا " (٢) مما جعل الأدب تقليدا وليس تعبيرا ، ولذلك فقد أهمل الرومانسيون الملاحم وحوروا المسرحيات ،ونحوا بالأدب منحى شخصيا داخليا ، فالكتابة الفنية تأتى في صورة اعترافات أوسيرة ذاتية والشعر يصبح غنائيا عاطفيا يعبر عن المعانى الوجدانية للبشر كالعشق والفرح والألم ويبتغى ـ بالدرجة الاولى ـ اثارة السامع وامتاعه .

(١) أشرف على الكتاب : فورستر وفوك : ١/ ٤٤ـ٤٥

(٢) المصدر السابق : ١/ ١٤٤ .

وكان من ابرز العوامل الاجتماعية المهيئة لذلك طابع " الفروسية " التي كانت في ريعان شبابها اذ احتضنت الرومانسية حتى اندمجت في كيانها وأصبح الرومانسيون اللسان المعبر عن الحياة الفروسية بخصائصها وفضائلها . (٣)

وقد أفصح بعض زعماء المذهب عن علاقة " رد الفعل " القائمة بين الاتجاه الرومانسي والمسيحية ،فالمسيحية كما عرفوها تكبت الانسان ـ و " تصيبه بالميلانخوليا " ! ومن ثم فهي مسؤولة عما اصاب الانسانية من الانطواء والكآبة " وقد عزا الناقد الرومانسي الألماني شليجل الكآبة الى الدين المسيحي الذي جعل الانسان منفيا يشتاق الى وطنه البعيد " (٤).

وانطلاقا من ذلك وتمشيا مع التركيز على التعبير عن الذات جهد أولئك في ان يحولوا الشوق الصوفي المسيحي الذي كان يتجه الى الله أو " يسوع " الى حب عذري أو اباحي يعبر عنه في أسلوب غنائي ويتجه الى الجمال الخارجي للمحبوب الذي كان في الغالب امرأة وأحيانا "الطبيعة " .

ثانيا : الثورة على العقلانية التي سادت القرنين (١٧ و ١٨) :

سبق أن عرفنا كيف فاجأ عصر التنوير أوربا المسيحية بتلك الكلمتين ـ المقدستين لديه " الطبيعة والعقل " وجعل الاولى رمزا خفيا للوثنية يحل محل اسم " الله " في المسيحية والثانية وسيلة الى فهم الاله الجديد بدلا من وسيلة المسيحية " الوحي " !

ولقد وثق الهاربون من طغيان الكنيسة الجلي في مقدرة العقل وثوقا

---

(٣) حول تأثر الفروسية بالشعر العربي انظر مثلا : عالم العصور الوسطى ج ج كولتون : ٩٦ـ٩٧ ، ترجمة جوزيف نسيم، (دار المعارف) .

(٤) ثلاثة قرون من الأدب : ١/ ١٣٤

أعمى ، وكان لكشف كبرنيكس وقوانين جاليلو ونيوتن ومبادئ بيكون وديكارت العقلية أعظم الاثر في تمجيد العقل بل عبادته ، ولما كان جل همهم اغاظة الكنيسة والانتقام من عبوديتها فقد اشتطوا وغلوا في ذلك الى أبعد الحدود .

لكنهم ما كادوا يلتقطون انفاسهم وتستقر أعصابهم من مطاردة الكنيسة حتى بدأ بعضهم يبحث عما اذا كان اله " العقل " جديرا بما أُعطي من قيمة وتقديس أم لا ؟

وكانت النتيجة مرة ، وهي أن العقل عاجز حقا عن تفسير الطبيعة وان كان كذلك فهو أعجز عن تفسير النفس الانسانية وفهمها .

وتساءل أولئك أليس من طريق للثورة على الكنيسة والوصول الى فهم الطبيعة والانسانية الا طريق العقل وحده ؟

واستطاعوا أن يكتشفوا طريقا آخر أرحب من العقلانية بمنطقها الجامد وقوالبها المحددة ، وأقوى من العقل اختراقا للأسرار وتبديدا للغموض ، الا وهي " الشعور العاطفي " ذلك الشعور الذي يمتطي آفاق الخيال الواسعة فيسبر أغوار الذات الانسانية العميقة ويستجلي جمال الطبيعة ! وهكذا أخذ الرومانسيون يرتفعون رويدا رويدا عن الأرض ويحلقون في الفضاء السحيق ولكن الى غير الله ومن غير طريق المسيحية !

كانوا يتحدثون عن الحب ويبحثون عن الجمال ويفلسفونهما في أساليب ضبابية كثيفة ، كما كانوا يتحدثون عن الشياطين والملائكة والسحر والعوالم المجهولة في محاولات دائبة يائسة لاستكناه أسرار الكون وتحقيق السعادة الداخلية .

وأصبحوا ينقبون عن الحقائق الأبدية لا في الكتاب المقدس ولا في المؤلفات العقلية ولكن في صفحة الطبيعة الخلابة ومناظرها الحالمة ، وكل هذا أفضى بهم بالطبع ــ الى مثالية مغترقة جوفاء أعظم في بعض جوانبها من تلك التي انتقدوها على الكلاسيكيين .

ونتيجة أخرى مهمة هي أن الرومانسية باعتقادها أن غاية النشوة وقمة السعادة تكمن في أن يطلق الانسان عنان نفسه لتذوب في حب الطبيعة وتفنى فيها كما يفنى الصوفي في معبوده ، ولذا أحلت " الطبيعة " محل " الله " والشعور محل العقل ـ بهذا الاعتقاد ـ تكشفت عن صورة وثنية جديدة : " وكل الكلام الجميل المعسول الذى قيل لتبرير هذه الوثنية : أن الطبيعة " محراب " الله وان الجمال " صورة الله " اننا نعبد الله في خلقه .. الى آخر هذه الجمل " الرومانتيكية " البراقة .. كل هذا الكلام لا يستطيع أن يخفى تلك الروح الوثنية الغارقة في الوثنية التي تعبد المحسوس في حقيقة الأمر لأنها تعجز عن ادراك " الله " بالروح .. والروح غنية عن المحسوسات " (٥)

ولقد عبر روسو ـ رائد الرومانسية ـ عن ذلك أوضح تعبير فى " راهب سافوى " الذى هو صورة لذاته ، انه راهب بالفعل ولكنه يختلف جذريا عن رهبان الكنيسة فهو راهب في صومعة الطبيعة يسبح بحمدها ويقدسها .

وفى كتابات روسو (الاعترافات مثلا) وقصائد بوب (مقال عن الانسان) وجوته (فاوست) وكذلك كيتس ولامارتين وأضرابهم نماذج واضحة للمذهب الرومانسى في أوج مجده . ولما كان أعظم أثر للرومانسية ينحصر في رد الفعل الذى نجم عنها بولادة الأدب الواقعى اللادينى الحديث فلن نفيض فى الحديث عنها اكثر من هذا .

ب ـ الواقعيـــة :

كانت الرومانسية بخيالها الجانح صورة صادقة لعصرها " عصر الهروب " الهروب من طغيان الكنيسة ، الهروب من نير الاقطاع البغيض ،

---

(٥) جاهلية القرن العشرين : ٢٢٦ ـ ٢٢٧

الهروب من تقاليد الماضي المرير (١) وجاءت الثورتان الفرنسية والصناعية وجاءت الحروب الدينية والقومية وتغيرت ملامح الحياة تغيرا بارزا فكان لا بد لصورة الحياة " الأدب " أن تتغير كذلك •

كانت أوربا الكلاسيكية والرومانسية قد عادت كما أسلفنا الى الوثنية وعبدت الانسان أو الطبيعة بطريقتها الخاصة ، أما الان فالصورة تتخذ مظهرا آخر فلم ينحصر الاهتمام بالانسان دون الآله فحسب ، بل اقتصر ـ من الانسان ـ على وضعه الدنيوي ومكانته الاجتماعية ، على واقعه المعيشي وجزء معين من نزواته ورغباته والظروف المحيطة به التي يتأثر بها سلبا وايجابا •

هذا التحول من الانسانية بمفهومها الكلي عند الكلاسيكيين ومن الطبيعة والمثالية الفردية عند الرومانسيين الى الانسان العادي المشخص سيتخذ سريعا صورة وثنية جديدة تعبد " الانسان " وتحله محل " الاله " !

وكعادة أوربا ـ لا تعرف الطريق السوي ولا الموقف الوسط ـ سقطت سقوطا مفاجئا من الفضاء السحيق الى الوحل الهابط •

كانت الرومانسية تحاول تصوير أعلى ما يمكن أن يصل اليه الانسان من القوة والمثالية في مواجهة تحدي الاله أو الطبيعة أو حتى نزواته وأهوائه ، فجاءت الواقعية لتصوره في ادنى ما يمكن أن يصل اليه من الهبوط في لحظات الضعف القاتلة !

كان يصارع الاقدار ويحاول اخضاع الطبيعة فاذا به ينهزم بضعف أمام نزوة عابرة ولذة ساقطة. لقد اخذ الواقعيون على الرومانسيين مآخذ ـ ليست بعيدة عن الحقيقة ـ فهم ينكرون عليهم اهمالهم لشؤون الجماهير واغفالهم لحقوق الانسان المهدرة وسكوتهم على المظالم التي يعج بها المجتمع في حين كانوا

---

(١) وهي من هذه الناحية " واقعية " ! انظر ثلاثة قرون من الأدب ٢/٢٥٨ وجاهلية القرن العشرين ٢٢١ •

محلقين بأحلامهم بحثا عن الجمال والروعة والمثالية جاعلين هدفهم الاسمى " الفناء في الطبيعة " ا

بل قالوا ـ والتاريخ يسعفهم بشيء من الأدلة ـ ان الرومانسيين كانوا من الطبقات الارستقراطية أو من المقربين اليها ، وكانوا شعراء البلاطات وندماء الاباطرة ،فهم وأدبهم جزء من ذلك الواقع الظالم الذى يجب رفضه الى الابد .

وأخذوا عليها انها في كل اعمالها الفنية كانت تقتصر على تصوير الانسان المثالى واللحظة المثالية والمنظر المثالى ، متناسية أن البشر المثاليين هم قلة نادرة في الناس ، ومتخلية تماما عن الانسان السوى والحياة العادية بكل مشاكلها ومظاهر هنا ... الخ ما أخذوا وما نقدوا .. فبالاعتماد على مثل هذه المبررات رفض أولئك الرومانسية وعابوا فنانيها ، لكنهم لم يرفضوها ـ بالطبع ـ لأنها حركة وثنية متسترة بل ان المتأمل لا يجد في تلك المبررات العديدة ما يشير الى ذلك .

ولذلك فبدهي أن ينتقل الفن من انحراف الى انحراف، من وثنية الى أخرى ـ شاء ذلك الواقعيون أم أبوا ـ ولعل في تتبعنا لخطوات الواقعية الأولى وملامحها ما يلقى الضوء على ما نقول .

الأهداف الأولى للحركة الواقعية :

شغل الواقعيون الأوائل أنفسهم من خلال رواياتهم التي انتزعت مكان الصدارة من الشعر الرومانسى بنقد ومناقشة احوال الفرد والمجتمع ، وهذا ليس انحرافا ـ بالطبع ـ بل هو أمر مطلوب ، ولكن الانحراف جاء من جهة الموقف الذى اتخذه أولئك من الدين والأخلاق والتقاليد أثناء تصويرهم للمشاكل الانسانية الواقعية ـ هذا اذا سلمنا أن هدفهم هو تصوير المشكلة وعرضها

وليس شيئا في أنفسهم يريد ون تقديمه من خلال ذلك التصوير ! (٢) وهذا الموقف الذى يضعنا على أول الطريق الى الوثنية المعاصرة ـ تركز في قضيتين متقاربتين :

الأولى : الثورة على التقاليد الاقطاعية والمسيحية :

وذلك قد لا يبدو في الحقيقة أن يكون جزءا من الثورة على طغيان الكنيسة وظلم الاقطاع يتخذ مظهرا مغايرا ، واذا كان بلزاك (١٨٥١) هو أحد الرواد القدامى للواقعية فلنقتطف شاهدا على ما نقول من أحدى رواياته وهو محاورة بين قسيس عجوز وامرأة لم توفق في حياتها الزوجية :

" قال العجوز : على أى حال يا سيدتى الماركيزة هل فكرت قليلا في كتل الآلام البشرية ؟ هل رفعت عينيك نحو السماء ؟

قالت : لا يا سيدى اذ تثقل القوانين الاجتماعية بشدة على قلبي وتمزقه لي تمزيقا حتى لا أستطيع الارتفاع بنفسى الى السماوات ، ولعل القوانين ليست في قسوة آداب المجتمع ، أوه ! المجتمع !

ـ علينا يا سيدتى أن نطيع هذه وتلك فالقانون هو الكلمة والآداب هي أفعال المجتمع .

عادت تقول الماركيزة مبدية حركة اشمئزاز " طاعة المجتمع " ؟

هيه ! يا سيدى ان شرورنا جميعها تنشأ عنه ، لم يضع الله أى قانون للشقاء ولكن عندما تجمع الناس بعضهم مع بعض أفسدوا عمله (٣) ونحن " نحن النساء " لقد عاملتنا المدنية بأسوأ مما عاملتنا الطبيعة به ، فالطبيعة تفرض علينا الآلام البدنية التى لم تخففوها في حين أضافت المدنية المشاعر التي ـ

---

(٢) لا شك أن في الادب الاوربى الواقعى كتابات انسانية هادفة كما فى بعض روايات ديكنز وتولستوى وهيجو .

(٣) من هذه العبارة يبدو تأثر بلزاك بنظرية روسو عن العقد الاجتماعى .

تخونونها باستمرار ، اذ تخنق الطبيعة الكائنات الضعيفة على حين تحكمون عليها أنتم بأن تعيش كي تقوموا بتسليمها الى شقاء دائم ، ويودى الزواج ـ وهو نظام يرتكن اليه المجتمع ـ الى اشمارنا نحن وحدنا بأثقاله ، فللرجل الحرية وللمرأة الواجبات ، علينا أن نهبكم حياتنا بأكملها وليس عليكم من حياتكم نحونا الا لحظات نادرة ، ثم ان الرجل يختار هناك حيث نرضخ نحن عن عمى ، أوه ! يا سيدى لعلى أستطيع أن اقول لك كل شيء .. فالزواج على نحو ما يطبق اليوم يبدو لي دعارة مشروعة منه تنبع كل آلامنا .. " وبعد أخذ ورد تعود الماركيزة فتقول للقسيس :

" ... انكم تفضحون المخلوقات المسكينة التي تبيع نفسها في مقابل بعض الدراهم لرجل عابر ، فالجوع والحاجة تحللان هذه العشرة العابرة ، هذا في حين يغفر المجتمع ويشجع الزيجات المباشرة برغم بشاعتها بين فتاة ساذجة ورجل لم تره أكثر من ثلاثة أشهر ، فتباع طول حياتها ، لا شك ان الثمن مرتفع اذا كنتم عندما تسمحون لها بالمكافأة على آلامها تقومون بتشنيفها ولكن لا .. اذ أن المجتمع يفترى على أفضل الفاضلات من بيننا ! ذلك مصيرنا فى وضوح من كلا وجهيه : الدعارة العامة والخزى والفضيحة ، أو الدعارة الخفية والشقاء " (٤)

والآن نستطيع أن نحكم بما اذا كانت واقعية بلزاك تهدف الى تصوير ـ مأساة بعض النساء أم تهدف الى تصوير افلاس رجل الدين وتهافت وفظاعة التقاليد ، وليس غريبا بعد ذلك أن تصر معظم الروايات الواقعية على تصوير المجتمع في صورة العدو اللدود الذى يكبل الفرد ويحد حريته وتطلعاته .

---

(٤) امرأة في الثلاثين : ١٤٥ ، ١٥٤ ترجمة عبد الفتاح الديدى .

الثانية ـ الهجوم المباشر على حقائق الدين :

منذ بدء حركة النهضة نجد روح الكراهية للدين من قبل الأدباء والفنانين واضحة في انتاجهم الشعرى والفنى ، الا أن هذه الروح كانت تعبر عن نفسها من خلال الهجوم على رجال الدين وفى القليل تجرأت على الهجوم المباشر على حقائقه ،من ذلك ما رأينا في كوميديا دانتى وما سبق من قول رابليه ، وكذلك هناك مسرحيتا موليير " المتزمت " و " طرطوف " والأخيرة تصور نفاق رجال الدين وجشعه (٥) ومثلها قصة " صاحب الطاحون " لشوسر ، يقول مؤلف " قصة الفكر الغربى " :

" يرد كثيرا في الأدب الشعبى الوسيط ذكر القسيس الجشع والقسيس الفاسق والقسيس المغرور الذى تشغله أمور الدنيا ،وكذلك لا يعطينا شوسر صورة طيبة عن رجال الدين .. ومع ذلك فلم يكن في كل هذا الا قليل من المرارة وانما كان يرمى الى انزال القسيس الى المستوى البشرى العام ولم يقصد الى تحدى بناء المسيحية الفلسفى والدينى أى نظرتها الشاملة الى الكون كما قصد الى تحديها في أيام فولتير وتوم بين .. " (٦)

ثم تطور الأمر اكثر من ذلك في كتابات عصر التنوير الا ان رجل الدين ـ بمفاسده وطغيانه ـ لا يزال هو المنفذ الى مهاجمة الدين ويظهر ذلك جليا في قصة الراهبة " لديدرو زعيم الموسوعيين الفرنسيين التى مثلت في الستينات بباريس تحت اسم " المتدينة " بناء على اعتراض الكنيسة . (٧)

---

(٥) ترجمها للعربية : يوسف محمد رضا ،وفى سلسلة تراث الانسانية ١/ ٢٣٣ " وقد أثارت ضيق رجال الدين حتى نادى احدهم بحرق موليير حيا " .

(٦) جرين برنتن ٢٩٦ ـ ٢٩٧ .

(٧) حدثنى بذلك شاب مغربى مسلم يدرس فى فرنسا .

وجاءت الواقعية فاتخذت دور الهجوم المباشر على حقائق الدين مقرونة بالتشهير برجاله أو منفردة عنها ، وبدأ ذلك مبكرا وصريحا وها هوذا "جوستاف فلوبير" يعطى الشاهد على ذلك في روايته " مدام بوفارى " التي حوكم بسببها آنذاك :

ففى أحد فصولها تسأل ربة النزل القسيس عما اذا كان يريد جرعة من النبيذ فيعتذر وينصرف " وما أن اطمأن الصيدلى الى انه لم يعد يسمع وقع قدمى القس .. حتى أبدى رأيه في مسلكه فوصفه بأنه ناب ، فقد بدا رفضه أبغض ألوان الرياء اذ أن القساوسة يحتسون الخمر فى الخفاء ، ويحاولون أن يستعيدوا الأيام التي كانت الكنيسة تتقاضى فيها الضرائب من رعاياها .

" صاحبة النزل : انه رغم قولك يستطيع أن يطوى أربعة من أمثالك على ركبتيه ، لقد ساعد رجالنا على تخزين الحشب الجاف ..

الصيدلي : مرحى ، أرسلو بناتكم اذن ليعترفن أمام رجال من هذا الصنف (!) لو كنت في مركز الحكم لأمرت بأن يفصد القساوسة في كل شهر .. في سبيل مصلحة البوليس والأخلاق .

كف عن هذا يا مسيو هومية فأنت كافر لا دين لك .

ـ بل لى دين ، دينى الخاص ، وان لدى من التقوى ما يفوق ما لدى هؤلاء .. رغم نفاقهم ودجلهم اننى على العكس أعبد الله ، أومن بالكائن الأعلى أومن بوجود خالق كيفما يكن كنهه .. ولكنى في غير حاجة لأن أذهب الى الكنيسة .. لأسمّن من مالى رجالا لا يصلحون لشئ .. ان المرء ليستطيع أن يهتدى الى الله في غابة أو فى حقل أو حتى بمجرد تأمل قبة الأثير .. ان إلهى هو اله سقراط وفرنكلين وفولتير وبيرانجيه ، اننى من أنصار الايمان الذى دعا اليه قس " سافوا " (روسو) ومن المؤمنين بمبادئ ثورة ١٧٨٩ الخالدة ، ولا أستطيع أن أعبد الها مزعوما يسير في حديقته وعصاه في يده ، ويودع أصدقاء ،

أجواف الحيتان ،ويموت صارخا ثم يبعث بعد ثلاثة ايام ،هذه جميعا في حد ذاتها سخافات تناقض تماما كل قوانين الطبيعة ، وفي هذا ما يوضح لنا ضمنا كيف أن القسس ظلوا دائما متشبثين بجهل صلد لا يلين يحاولون أن يدفنوا البشر معهم في جوفه " (٨)

على مثل هذا نمت الحركة الواقعية وترعرعت مصورة ومواكبة الحياة الأوربية التي أخذت تتحلل من عقائد المسيحية الكنسية وأخلاقها شيئا فشيئا .

٣ ـ الأدب المعاصر " من الواقعية الى اللامعقول " :

ان اى باحث في الأدب المعاصر لا بد أن يرى بوضوح موءثرات جديدة وقوية أدت به الى الحال الراهنة وميزته عن المدارس والاتجاهات السابقة .

وليس ضروريا ـ بالطبع ـ أن تكون هذه الموءثرات أدبية محضة ،فما دام الأدب هو صورة الحياة فان كل التحولات التي طرأت على الحياة الأوربية سوف يصحبها تحول مماثل في الفن والأدب ، ويرى أحد النقاد الغربيين أن هناك أربعة من المفكرين يعود اليهم الفضل في الاتجاهات الفنية والنقدية الحديثة هم " دارون وماركس وفريزر وفرويد " (١)

والحق ان لدارون وفرويد خاصة أعظم الأثر في ذلك :

أما الدارونية فان الفلسفة الحيوانية التي بنيت عليها ولدت في النفسية الأوربية شعورين عميقين لا يمكن للأدب الأوربي مهما تعددت مدارسه ومناهجه الا أن يكون تعبيرا عن احدهما :

١ ـ حيوانية الانسان التي تلغى المشاعر الروحية تماما وتجعل الكائن البشرى كتلة من اللحم والعظم كأى حيوان آخر ولا هم له الا ارواء غرائزه البهيمية والحصول على اكبر قسط من المتاع الجسدى المحض .

---

(٨) ٨٧ ـ ٨٨

(١) ستانلى هايمان : النقد الأدبى : ١٥٨

٢ ـ والشعور بتفاهة الحياة وحقارتها ونفي أية غاية سامية لوجودها وهو الشعور الذى عبرت عنه مدارس الضياع المختلفة تحت اسماء وشعارات شتى .

وأما الفرويدية فقد عمقت الاتجاه البيلچيوانى موصلة اياه الى الخضيض وصاغته في فلسفة نظرية منمقة تجعل الوصال الجنسى هو الغاية والوسيلة وهو محور الحياة ومحور البحث ومناط التفكير وعلة العلل .

وعمقت كذلك الشعور بالضياع والحيرة فقد تركزت فلسفتها الجنسية حول الجوانب المجهولة ـ ان لم نقل المختلقة ـ كالعقل الباطن واللاوعى واللاشعور والأنا المثالية .. الخ وكأنها بذلك قدمت العوض المعاكس للايمان والاحساس الروحى .

وهناك غير ما سبق عوامل ومؤثرات كثيرة :

فهناك الحرباء العالميتان وهما الكارثة التي حطمت القيم والأعراف والقوانين ، وأذهلت بفظائعها المروعة عقول البشر ، ولا يزال التهديد الذرى واحتمال نشوب حرب ثالثة يسيطر على مخيّلة الناس ويؤرق شعورهم .

وهناك التفسخ الاجتماعى حيث الأسرة محطمة والمشاعر النبيلة مفقودة والتنافس الضارى على أشده ، مما جعل الانسان يعيش في دوامة رهيبة من القلق لا يجد موطئ قدم تسكن نفسه اليه منذ ولادته حتى مماته .

وهناك ـ ايضا ـ النظريات العلمية الجديدة لا سيما " النسبية " ودورها يتجلى في انها أفقدت الناس قيمة الأحكام المطلقة والايمان والثقة فى أية أسس ثابتة عامة ، ثم انها تستعمل في بحوثها عن الكون والانسان أرقاما مذهلة يعجز العقل عن تصورها وتتكلم بلغة محيرة مربكة تجعل المرء فريسة تناقض حاد بين ايمانه الوثيق بعلميتها وصدقها وبين عجزه عن ادراك مدلولاتها وتفسير معمياتها .

وهناك الوسائل الفنية الجديدة كالسينما والتلفزيــون والصحافة المتطــورة ودور النشر الكبيرة تلك التي جعلت تعميم المادة الأدبيــة وذيوعها أمرا ميســورا للغاية وخلقت جوا من التنافس الحاد بين المؤلفين والمنتجيــن والرسامين .

بهذه المؤثرات جميعا تأثر الأدب المعاصر وانفصل بالتالى عن الديــن انفصالا حاسما ، ومهما قيل في تعداد مدارسه ومذاهبــه فانه يتذبذب بيـــن اتجاهين رئيسيين هما : الاباحيــة ، والضياع !

ويطلق النقاد على الأدب المعاصر في الجملة مسمى " اللامعقـــــول " وهو اطلاق له ما يبرره لا سيمافي مدارس الضياع ، ولا يرون أى تناقض بين ذلـــك وبين وصفه بأنه " أدب واقعى " فان واقعية القرن العشرين تتجلى فـــــى " لامعقوليته " !

والواقع أن الارتداد من الواقعية الى اللامعقول يشبه الانتقال مـــــن الكلاسيكية الى الرومانسية مع اختلاف صورى فقط ، على أن رباط الوثنيـــــــــــة يظل هو الرباط المشترك بين الجميع .

أولا ــ الاتجاه الاباحـي :

في كل مراحل التاريخ الادبى الاوربى لم ينفك الفن عن الاباحية ، الا ان صورها كانت تختلف وتسير متطورة ولكن الى أسفل . وما أصدق قـــول برنتن :

" ان الخشونة والفحش من الصفات الدائمة تقريبا في ثقافتنا الغربية " (١) فالاغانى البذيئــة والمسرحيات الرقيعة في عصر النهضة تعقبها عبادة اللذة والجمال في الرومانسية ثم تصبح الدعوة صريحة الى الفجور والفاحشة في الأدب الواقعـي وتظل صورتها تكبر وتسفل حتى تصل الى الأدب المكشوف .

وبذلك بعدت الشقة جدا بين رهبانية الكنيســة والفن وصار بينهما هـــوة لا قرار لها . واذا عرفنا انه ماتزال نسب تمثال افروديت " الهة الحب " عنـد الاغريق هي المقياس لأجســاد ممثلات هوليود (٢) فلن يخفى علينـا ارتكـــاس هذا الاتجــاه الى الوثنية .

ولنبدأ بالطريق من أوله ــ متجاوزين عصر النهضة ــ لنجد تلـــــــك المجموعة من الأدباء في العصر الحديث الذين كرسوا فنـهم وحياتهم للاباحية .

فهناك " الفريد دى موسيه " شاعر " الليالى " الذى كان " ابيقوريـــا بأوسع معانى الكلمة " ومعاصروه أمثال " بروسبير " صاحب قصة " كولومبيــــا " والكسندر دماس " الكبير والصغير " والاخير مشهور بقصة " غادة الكاميليا " وفلوبير صاحب " مدام بوفارى " ومعهم الكاتبة العريدة " جورج ساند " صاحبـــــة " ليليا " و " أنديانا " وينبغى " الا ننسى " ستندال " صاحب " الأســـود والأحمر " وأوسكار وايلد (٣) وأمثالهم كثير .

---

(١) قصة الفكر الغربى : ٢٩٧ .

(٢) انظر المصدر السابق : ٨٥ .

(٣) انظر سلسلة تراث الانسانية تحت هذه الاسماء المذكورة لا سيما ج : ٢ ، ٧ .

وكل أدب هؤلاء محصور في تمجيد الرذيلة وتبرير أعمال الماهرات ـ والاشفاق عليهن ، ودخل هذا الاتجاه مرحلة أتم بالمدرسة " الطبيعية " التي يتزعمها الكاتب اليهودى " أميل زولا " صاحب " الأرض " و " البهيمة " وغيرها وهي مدرسة اباحية متخصصة .

وعن هذا الاتجاه يقول أحد عظماء الأدب الأوربي " تولستوى " سنة ١٨٩٨ :

" أصبح المقياس الوحيد للفن الجيد والفن الردئ هو اللذة الشخصية فالخير هو ما يبعث اللذة في نفوسهم وهذا هو الجميل ، وبذا ارتدوا الى تصور الاغريقيين البدائيين الذين أدانهم أفلاطون ، وطبقا لهذا الفهم في الحياة تكونت نظرية في الفن " (٤) ويقول :

" اننا نشبه الفن المعاصر ـ مع غرابة هذا التشبيه ـ بامرأة تبيع جسدها لارضاء الذين يستفون اللذة بدلا من أن تجعله مستودعا للامومة ، فالفن المعاصر يشبه الماهر في أدق التفاصيل فهو مثلها ليس وقفا على عصر معين ، وهو مثلها مبهرج ، وهو مثلها قابل للبيع دائما ، وهو مثلها كله اغراء وكله هدم " (٥) .

ثم جاء فرويد وجاءت الحرب الأولى فاكتسب هذا الاتجاه قوة دافعة واستشرت رذائله في الأوساط العامة وانهال الاقبال على انتاجه الرخيص ووجدها الهدامون والمتكسبون فرصة لنفث سمومهم واستغلال مشاعر الناس واللعب بعواطفهم واثارة غرائزهم ، ويبرز هنا اسم " ديفيد هربرت لورانس " ـ ١٩٣٠ ـ الذى كتب عدة روايات منها : " أبناء وعشاق " و " عشيق ليدى تشاترلي " والاخيرة " أثارت ضجة كبرى في انجلترا بسبب جرأتها المتناهية في تصوير العلاقات الجنسية ولم تنشر كاملة الا مع بداية الستينات " (٦) .

(٤ و ٥) عن دراسات ادبية : يوسف الشارونى : ٨٤ و ٩٤ .

(٦) سلسلة تراث الانسانية ٧/ ٢٦٣ .

وبعد، طلع ولسن بـ " مذكرات مقاطعة هيكث " سنة ١٩٤٦ التي صادرتها محكمة القضايا الخاصة بعد ان بيع منها خمسون الف نسخة في نحو لأربعة أشهر . وهي تصور بالتفصيل الدقيق كما قال هايمان : عشرين دورا من ادوار العملية الجنسية يقوم بها أربع عاهرات .. » (٧)

وهناك عدد لا يحصى ممن تفننوا في تصوير اعمال الدعارة والعهر مبررين ومسوغين وأوقفوا حياتهم الأدبية لذلك ، حيث الجمهور يتلهف لقراءتها والمنتجون يتسابقون لاخراجها مشاهد حية ، ولا غرابة في ان اكثر الروايات الأدبية العالمية انتشارا هي اكثرها اسفافا ورذيلة .

وهذا كله في نطاق الادب الجاد او الهادف « " الذي يعد جزءا من التراث الحضاري البشري والذي تكتبه شخصيات أدبية مرموقة وترصد له الجوائز والمسابقات الدولية والقومية ويكتب له النقاد والمعلقون .

أما ما يسمى "أدب الجنس" او الأدب المكشوف الذي لا يصح أن يسمى أدبا بحال ، فهو في كل العالم الغربي ملء السمع والبصر يملأ الحوانيت ويستنفد الصحافة ويسيطر على دور العرض السينمائي ويستغرق أوقات الملايين من الناس ، حتى الأطفال تكتب لهم مسلسلات جنسية وروايات جنسية ومسرحيات جنسية .

ثانيا ـ الاتجاه الضائع :

لم تستطع كل المذاهب الفكرية والفلسفات الاجتماعية أن تعطي الانسان المعاصر ـ أو القرد حسب تعبير كامو ـ أي نوع من أنواع الثقة والاطمئنان .

بل على العكس كان دورها الفعال ينحصر في اجتثاث موروثات

---

(٧) النقد الأدبي : ستانلي هايمان .

الكنيسة الهيتة التي كانت رغم هشاشتها تقدم شيئا من الاستقرار والثقة في المصير .

وكانت العوامل النفسية والاجتماعية التي أشرنا اليها سلفا تهدم كل أمل في الوصول الى السعادة والايمان بالقيم المجردة أيا كانت .

وأمام العملاق الميكانيكى الرهيب وسيطرة الآلة الطاغية شعر الانسان بأنه قد سحق وأن وجوده قد تضاءل الى حد أدنى مما كان عليه وهو يواجه جبرية الكنيسة واضعا مصيره بين يدى قدرها المحتوم .

وهنا تحققت نبوءة شبنجلر وتكهنات أورويل عن مستقبل الجنس أو القطيع البشرى ، وأصبحت مشكلة الانسان العظمى في الحياة هي وجوده حيا ، فالكلمة التي قالها أوغسطين " أصبحت أنا نفسى مشكلة بالنسبة لنفسى " لم تعد خاصة بالفلاسفة بل باتت تردد ها شفاه الفرد العادى من أجيال الضياع !

ويتساءل الأديب المعاصر :

" هل لحياتنا معنى ؟ ما هو ؟ ما هو مكان الانسان في العالم ؟ هنا يظهر حالا لماذا كانت الاغراض البلزاكية مطمئنة انها تنتمى : الى عالم يكون الانسان فيه سيدا وهذه الاغراض كانت أموالا وأملاكا لا هم الا امتلاكها والاحتفاظ بها .. وكان ثمة هوية ثابتة بين هذه الاغراض ومالكها ، صورة بسيطة هي في الوقت نفسه ميزة ووضعية اجتماعية ، كان الانسان سبب كل شىء مفتاح الكون وسيده الطبيعي بالحق الالهى ، أما اليوم فلم يبق الكثير من كل هذا .. " .

ومع ذلك فهو يتبجح قائلا :

" اننا لا نؤمن ابدا بالمعانى الجامدة الجاهزة التي يقدمها النظام الالهى القديم للانسان وعلى أثره نظام القرن التاسع عشر العقلانى ولكننا نضع كل أملنا في الانسان : ان الاشكال التي خلقها هى التى تستطيع

اعطاء العالم معنى " (١) وهذا هو دستور اللامعقول .

ان الادب المعاصر يرفض الايمان بالمعانى المحددة والقيم الثابتة المجردة تبعا لعدم ايمانه بهدف كونى ثابت ،انه لا يريد أن يؤمن بذلك الهدف سواء في صورة " القدر " بالشكل الذى تقرره لاهوتيات الكنيسة او فى صورة المثال كما تخيله أفلاطون وفلاسفة الاغريق ، ففي نظر أدباء الضياع ينبغى ألا يكون هنالك ارادة تسير الحياة الانسانية على خطة مرسومة الى هدف مقصود ، كما أنه ليس هناك نموذج سام يفوق الادراك تكون الحياة الحسية انعكاسه وصورته الموازية له .

والسبب الذى دفعهم لانكار ذلك هو توهمهم أن الايمان بشىء منه يتعارض مع ما زعموه " حرية الانسان " من جهة ، ومع ما يظهر في الكون من تناقض وتقلب تعجز عقولهم عن تفسيره من جهة أخرى .

ولم يظل هذا الاعتقاد فكرة مجردة بل بنى عليه الدستور العلمى للفن الذى ينص على ان " الفن للفن " يقول بعضهم تحت عنوان : الالتزام الوحيد الممكن للكاتب هو الادب :

ليس من الصواب الزعم أننا نخدم في رواياتنا قضية سياسية مهما كانت قضية تبدو لنا عادلة وحتى لو كنا في حياتنا السياسية نحارب في سبيل انتصارها ،ان الحياة السياسية تضطرنا دون انقطاع الى افتراض معانى (كذا) معروفة : معانى تاريخية ، معانى اخلاقية ،ان الفن أكثر تواضعا أو أكثر طموحا ،ففى نظره ليس هناك من شىء معروف مسبقا ، وقبل العمل لا يوجد شىء : لا يقين ولا قضية ولا رسالة ، فالظن أن عند الروائى شيئا يريد أن يقوله وأنه يبحث بعد ذلك كيف يقوله يمثل أخطر عمل مناقض للحقيقة" (٢) .

---

(١) معجم الأدب المعاصر : ٦٢ ، ٦٣ .

(٢) المصدر السابق : ٦٣ .

هذا الاحساس بالضياع وعدم الانتماء في عالم يعج بالمعضلات الحضارية والمآسي الانسانية جعل الرواية المعاصرة تتخذ بطلها من نوع آخر ملائم لاتجاهها ، ويستطيع المرء ان يعد نوعية البطل مؤشرا حقيقيا لتحديد الانتماء الفنى وتطوره ، فالأدب الكلاسيكى كان بطله هو ما يدل عليه المعنى الأصلى لكلمة بطل ، ثم حولت الرومانسية بطلها الى العاشق أو الصوفى ، أما بطل الرواية الواقعية فهو غالبا الشهواني أو المادى ، وفى أدب الضياع المعاصر نجد ان البطل هو الصعلوك أو المتشرد أو هو اجمالا ذلك الانسان الذى مصيره الخيبة والدمار .

أمثلة من أدب الضياع :

١ - " القضية : كافكا " (١) :

تصور أزمة انسان عادى كان يعيش حياة طبيعية كسائر الناس يفاجأ برجال شرطة غريبين يلقون القبض عليه ويحاول عبثا أن يعرف السبب . ويحدث ان تحال قضيته الى محكمة غريبة في اشخاصها وقانونها وبنائها ويظل يترافع مدافعا عن نفسه دون ان يعرف ما هية القضية ، ويظل رهن الاعتقال الا أنه اعتقال غير مألوف فهو حر مأسور في آن واحد ، يخضع للملاحقة والمتابعة في كل مكان ، ويظل يشكو حاله لمعارفه وأصدقائه ويبحث عن محام قدير لكنه يكتشف - يا للمصيبة - بأن معارفه كلهم اعضاء مجهولون في المحكمة الغريبة ! حتى رجل الدين الذى لقيه صدفة في احدى الكنائس هو ايضا عضو في المحكمة ، وبعد فصول طويلة معقدة من المحاكمة ومع أنه لا يزال يجهل التهمة تنتهى حياة المتهم " ك " (٢) بأن يقتاده مجهولان ويغتالانه في خارج البلدة ، وكانت آخر كلمة قالها (مثل الكلب)

---

(١) هو فرانتس كافكا ، اديب المانى ١٨٨٣-١٩٢٤ اشتهر بهذه الرواية . انظر سلسلة تراث الانسانية ٥/٨٠٧ .

(٢) من الواضح أنه رمز لاسم كافكا .

يعنى نفسه .

وتنتهى صفحات الرواية وفصول المحاكمة مبتورة والموضوع لا يزال معلقا فهى في الحقيقة لم تتم ولا يريد كافكا أن تتم !

والقضية في حقيقتها ، هي قضية الوجود الانسانى على هذه الارض ، قضية الحياة ذاتها كما تبدو للانسان اللامنتمى ، فمن خلال رؤيته يبرز الى الوجود دون سابق استشارة ، ويظل رهن الحياة تتقاذفه أقدارها وبطويه الليل والنهار وهو قابع في متاهة يلهث ويتحسر حتى يداهمه الفناء المحتوم دون أن يعرف السر في وجوده والقضية التي لأجلها جاء ثم ذهب واضمحل !

٢ ـ الشيخ والبحر " همنغواى " :

هنا يأتى اللامنتمى بنموذج آخر لتصوير المأساة الانسانية وتجسيد المعضلة والمنعطف للحضارة البشرية حيث تكون الكارثة والخسارة الفادحة هي النتيجة والثمرة من عمر طويل وخبرة كافية وصراع مرير في الاعماق !

فالشيخ الصياد افنى عمره في منازلة أقدار البحار ، وقد توغل هذه المرة في أعماق المحيط لا تنقصه الخبرة ولا يعوزه السلاح ، غير انه يظل متشبثا باصرار ميت على ان تفوز شبكته بأكبر نصيب ، وبعد معاناة قاسية ومغامرات مضنية يظفر بما يروى أحلامه ، ويجنح بزورقه طالبا بر الامان ، لكنه يفاجأ بعقبات ومهاجمات شتى تجعل الاحتفاظ بالصيد أعظم مخاطرة من الحصول عليه ، وينفذ زاده وتتحطم بقايا سلاحه وتخور قواه والتماسيح والقرشان العظيمة لا تكف غاراتها الشرسة على زورقه ، وأخيرا وبعد جهد جهيد وجراح بالغة يصل الى الشاطئ وليس لديه من الصيد الثمين الا هيكله العظمى في حين قد فقد كل شئ !!

وكما صور همنغواى أزمة الحضارة البشرية وأزمته الشخصية فقد تقمص شخصية الشيخ الخاسر ، وآثر ان يغادر الحياة بعد أن ظهرت له أعراض الكارثة ، ولم

يجد وسيلة الا ان يبادرها بالانتحار ((٣)

٣ ـ الساعة الخامسة والعشرون :

رواية طويلة ألفها الكاتب الروماني " كونستانتان جيورجيو " وهي من اعظم الاعمال الادبية التي تناولت بالتحليل المستفيض والتصوير الدقيق مأساة الضياع المتمثل في انهيار الحضارة الغربية وسحق انسانية الانسان ، يقول فيها :

" انني اشعر أن حدثا خطيرا قد وقع حولنا ، انني اجهل اين انفجر ومتى بدأ وكم سيدوم ؟ لكنني اشعر بوجوده ، لقد اخذنا في الدوامة ولسوف تمزق هذه الدوامة جلودنا وتحطم عظامنا الواحد تلو الآخر ، انني أشعر بهذا الحدث الهائل شعورا لا يضاهيه الا احساس الجرذان المسبق الذى يدعوهم الى هجر مركب على وشك الغرق ، لن يكون لنا أى مأوى فى أى مكان من العالم " . (٤)

ويصور جورجيو سبب المأساة بأن التقدم الآلى المجرد من القيم وتفوق الآلة الطاغي على الانسان وذبول انسانيته أمامها ـ كل هذا سيفضي بالمجتمع البشرى الى نهاية مرعبة ، اذ يظهر سلالات من نوع خاص لا هي بشرية ولا هى آلية ، أسماها المؤلف " الرقيق التكنى " وبحكم كثرة الرقيق التكنى فانه سوف يثور للسيطرة على العالم وسينتصر فعلا ويعود البشر الحقيقيون أقلية ضئيلة على الارض :

" المجتمع الحديث الذى يحوى على رجل واحد مقابل كل ثلاثين عبدا تكنيا ، ينبغى ان ينظم وأن يعمل حسب النظم التكنية لانه مجتمع خلق وبنى على احتياجات ميكانيكية وليست انسانية ، وهنا تبدأ الفاجعة (( ) ان المخلوقات

---

(٣) انتحر همنغواى سنة ١٩٦١ (انظر مجلة العربى عدد ٥٢) والقصة ترجمها : منير البعلبكي .

(٤) عن تهافت العلمانية د . عماد الدين خليل : ١٧٥ .

البشرية مرغمة على الحياة والتصرف وفق قوانين تكنية غريبة عن القوانين اللانسانية" وعند ما يثور العبيد الآليون فماذا ستكون النتيجة ؟

" ان هذه الثورة ستحدث على سطح الارض كلها ، ولن تستطيع الاختفاء الا في الغابات ولا في الجزر ولا في اي مكان ، لن تستطيع أمة في العالم ان تحمينا (!!) سوف تتشكل جيوش العالم كله من مأجورين يناضلون ـ ويكافحون من اجل تدعيم المجتمع الآلي الذي لن تعيش فيه الفردية ، ولعل هذا العصر هو الفترة الاكثر ظلمة في تاريخ البشرية ، اذ لم يحدث لحد الآن أن احتُقر الانسان الى هذا الحد ، والحياة البشرية لم تعد لها قيمة الا بوصفها مصدر حركة ، والقياسات أضحت علمية محضة ، وهذا هو قانون ـ بربريتنا الآلية المظلمة ولسوف نصبح بعد النصر الكلي عبيدا آليين " (٦)

ثم يتحدث المؤلف عن سلالة " المواطنين " في الشرق والغرب في امريكا وروسيا في ظل الشيوعية والديمقراطية على حد سواء فيقول :

" ان الانسان لم يستطع السيطرة على كل الحيوانات المفترسة ، غير ان حيوانا جديدا ظهر على سطح الأرض في الآونة الاخيرة ، وهذا الحيوان الجديد اسمه المواطنون ، انهم لا يعيشون في الغابات ولا في الادغال ولكن في المكاتب ، ومع ذلك فانهم أشد قسوة ووحشية من الحيوانات المتوحشة في الادغال لقد ولدوا من اتحاد الرجل مع الالات ، انهم نوع من ابناء السفاح (!!) وهم أقوى الاصول والاجناس الموجودة الان على سطح الارض ، ان وجههم يشبه وجه الرجال ، بل ان المرء غالبا ما يخلط بينهم ولكن لا يلبث المرء حتى يدرك بعد حين انهم لا يتصرفون كما يتصرف الرجال بل كما تتصرف الالات ، ان لهم مقاييس وأجهزة تشبه الساعات بدلا من القلوب ، وادمغتهم نوع من الآلة ، فهم بين

---

(٥) المصدر السابق : ١٨١

(٦) المصدر السابق : ١٨٢ .

الآلة والانسان ، ليسوا من هذه ولا ذاك . انهم رغمات الوحوش الضارية مع انهم ليسوا وحوشا ضارية بل انهم مواطنون .. انها سلالة اكتسحت الارض " .

والنتيجة التي يستخلصها المؤلف من وجود هذه السلالة هي " ان كلمة مواطن لم تعد مرادفة لمعنى انسان " (٧)

ويتعرض المؤلف في روايته الطويلة لضروب الافلاس والضياع التي ستمنى بها البشرية في كل ناحية : في الاجتماع والسياسة ، في الابداع والشعر في الانسانية . في كل شيء ، ويقول " ان كل ما تستطيع الحضارة تقديمه للانسان : الاصفاد " !! (٨)

وينبغي ان نشير هنا الى عدة اعمال فنية في الاتجاه نفسه لا تقل عما ذكرنا : " قلعة اكسل " لادموند ولسن ، " البحث عن الزمن الضائع " لبروست ، والعالم الطريف آلدوس هكسلي و " كوكب القردة " لبيويل بيل و " رحلة في دنيا المستقبل " لويلز .

وعلى مستوى المسرحية تجد " البيت المحطم للقلب " وهي " احدى مسرحيات شو ويعرض فيها افلاس حضارتنا الحديثة كما تجلى عقب الحروب الكبرى " (٤)

أما الشعر فيلمع اسم " اليوت " وقصيدته " اليباب " أو الارض القفر (The waste land) وقد كان لهذه القصيدة أثر كبير في الشعر الحديث وهي تصور مشكلة الانسان المعاصر الذي يبدو للشاعر تافها مشلول القوة محطم الارادة يعيش في عالم يستحق الفناء " .

---

(٧) المصدر السابق : ١٨٦ .

(٨) = = : ١٩١ .

(٤) النقد الادبي : ٦٥ .

نمـــاذج من مدارس الضـياع :

١ _ الوجوديـــة :

ليست الوجودية _ كما حددها سارتر في " الوجودية مذهب انسانى " (١) سوى صورة من صور الضياع ، وحتى ان صدقنا زعمها أنها " ثورة الانسانية ضـد كل ما هو لا انسانى " فهي ليست الا ثورة سلبية يائسة ، لم تستطع أن تشخص الداء فضلا عن تقديم الدواء وكل ما تستطيع أن تقول بصدق انها قدمتـه للانسانية هو عرض وابراز بعض جوانب المأساة البشرية ، تلك المأسـاة التي تعبر عنها جملة واحدة " البحث عن الاله " فهي ترفض الايمان بالله كما تصوره الأديان ولكنها لا تجد البديل ، والانسان الذى تحاول تأليهه محصور مقهـور أمام القدر الكونى وأمام سيطرة الآلة وأمام وضعه التاريخى المحدد ، وحـول ايجاد مخرج من هذا التناقض تأتى الفلسفات الوجودية بشعارات شتى كالحريـة عند سارتر والعبث عند البير كامو .

وما دامت الوجودية أولا وأخيرا تعبيرا عن الضياع والافلاس فلنأخـذ أحد أبطال البير كامو نموذجا للانسان الوجودى المتمثل في كامو نفسه :

" اننى لأفكر أحيانا بما سيقوله عنا مؤرخو المستقبل ، فعبارة واحـدة تكفى لوصف الانسان الحديث : كان يجامع ويقرأ الصحف ، وبعد هذا التعريـف لن يكون ثمة مجال لمزيد من البحث " (٢) " كان وجودى يتألف من الجسـد بصورة خاصة وهذا يفسر توافقى الداخلي وتلك السهولة في تصرفاتي التي كـان الناس يشعرون بها .. "

---

(١) ترجمه للعربية : يوسف كمال الحاج .

(٢) السقطة : ٩ _ ١٠

" كن واثقا من أنني أتصرف بسهولة في كل شيء ولكنني في الوقت نفسه لم أكن لأقنع بشيء ، كانت كل غبطة تجعلني أشتهي أخرى ، وقد تنقلت من بهجة الى بهجة ، وكنت في بعض المناسبات أرقص ليالي كاملة ويزيد جنوني اكثر فاكثر بالناس والحياة ، وفي بعض الاحيان حين يتاخر الوقت في تلك الليالي وحين يملأني الرقص والنشوة الخفيفة وحماستي الوحشية وانطلاق الجميع بعنف بنشوة ذاهلة تعبى ، كان يلوح لي في اللحظة التي أكون فيها منهوكا وبسرعة البرق — أنني كنت أفهم سر المخلوقات والعالم ، ولكن التعب كان يختفي في اليوم التالي ويختفي معه السر وأعود الى الاندفاع من جديد .." (٣)

" والمرء حين يكون صاحيا مزودا بالقليل من المعرفة الذاتية غير قادر على العثور على سبب واحد لاسباغ الخلود على هذا القرد الشهواني (يعني نفسه) عليه ان يبحث عن بديل لذلك الخلود ، ولأنني كنت أحن الى الحياة الابدية ، كنت اذهب الى الفراش مع البغايا وأشرب الخمر ليالي بكاملها .. " (٤)

" آه ، يا عزيزي ، ان عبء الايام مخيف بالنسبة لمن هو وحيد بدون اله ، بدون سيد ولهذا يجب على المرء ان يختار سيدا ، الها بدون ميزاته المألوفة ، ثم ان تلك الكلمة قد فقدت معناها ولم تعد تستحق ان يجازف المرء بصدم احد بها " . (٥)

٢ — الرمزية :

مدرسة ظهرت أصلا في القرن التاسع عشر رد فعل للنزعة الميكانيكية التي ادعت الاحاطة بفهم الكون وتفسيره عن طريق العقل والعلم وأنكرت

---

(٣) المصدر السابق : ٢٦ — ٢٧

(٤و ٥) المصدر السابق : ٨٥ ، ١٠٨ — ١٠٩ .

كل ما لا يندرج تحت سلطة المنطق وادراك الحواس ، اذ اعتقد الرمزيـــون ان تلك النزعة قاصرة عن تفسير الواقع فضلا عن العوالم المجهولة في الكـــون والنفس ، وحملهم ذلك " الى الشعور بأن وراء الامكان الايجابى ســـرا لم يكشف ومجهولا لم يستكنه والى جانب هذه النزعـة الى المجهـــــول أدلى علم السيكولوجيا بأن في الانسان حالتين : واعيـة يدركها العقـــل والايجاب وغير واعية قصر العقل عنها ، وقد تكون هذه الزاوية في الانسان هي الحقيقة وقد يكون الواقع الموضوعى سرابا .. " (٦) على هذا الاساس قـــام الادب الرمزى محاولا تطويع اللغة والاحداث للتعبير عن الحقائق المجهولـــة التي تلح الفطرة عليها بينما هي ـ في نظرهم ـ ستظل مجهولة الى الأبد ولا وسيلة قط الى تقريبها الا هذا الاسلوب .

ومن أشهر زعمائها بودلير و رامبو .

٣ ـ الســـريالية :

مدرسة حديثة تهتم أكثر بالشعر والرســـم تبتدئ من الخـــط الذى تبتدئ منه الوجودية ولكنها تفترق عنها في الايغال في اللامعقول ـ والاعراض عن الخوض في حقائق التاريخ والمعادات الفكرية والبحـث المنطقـــي فيما يفوق الادراك الى الخوض في أعماق المجهول بلا موضوعية .

والأصل في هذه الحركـة هو نظرية فرويد عن العقل الباطـــــــن ، فالسريالية تريد " أن تجعل من العقل الباطن الحقيقة النفية بالذات ، وتحـول الفن الى كتابة آلية لايضاحه " .

---

(٦) الرمزية والادب العربى : أنطون غطاس : ١٧ .

" ولم يكن مطمحها الأول أن تؤسس نزعة انسانية جديدة ، أى ان تعطى العالم تلاحما ، اتجاها ، لقد كانت على العكس تعارض كل تلاحم بحالة سخط لتغيير الحياة وبلوغ ما فوق الواقع الذى يلغى التناقضات التى مزقت الانسان : واع ولا واع ، وعالم ، أنا ، طبيعي وما فوق الطبيعى " (كذا) .

أشهر شعرائها بريتون وأراغوان وقد حدد بريتون الطريق الوحيد للبحث عن المطلق بأنه " املاء الفكرة في غياب كل رقابة يمارسها العقل " (٧)

٤ - أدب التفسخ :

نوع من أدب الضياع يميل الى التشاؤم والابتذال ويتميز بأن أبطاله هم نوع من " الكائنات التي فقدت الثقة بنفسها ومستقبلها والتي لا تؤمن ابدا بامكان قيامها اليوم بحياة انسانية " .

وقد جعل روائيوه علمهم في " الوسوسة الفيزيولوجية واستغلال بؤس البهيمة البشرية ، كأنهم جعلوا شعارهم شعار أبطال ريمون : غير أن ليست الخليقة شيئا الا بالاحشاء التي تقودها ، كأنه لا يوجد على الارض شيء أجمل من أسماء انسانية كلها حيوانية ومن بالوعات المدن الكبرى " . (٨)

٥ - أدب المستحيل :

اتجاه حديث ظهر بعد الحرب العالمية الثانية متأثرا بفظائعها ترتكز فلسفته على الالحاد القانط واعتقاد أن الانسان " هو ميت مؤجل بحيث لا يهتم أحد بانقاذه " . يقول معجم الأدب المعاصر :

---

(٧) انظر معجم الادب المعاصر : ٣٠ ، ٧٦

(٨) المصدر السابق : ٤٣ .

" والمستحيل وأساطيره لم تسيطر عبثا منذ عشرين سنة (اى ١٩٤٥) على أدب قد نما تحت لواء ـ الدعوى ـ فاذا كان كتاب كامو هو الكتاب المفتاح لعام ١٩٤٧ فلأنه كان يحمل آنذاك .. تلك الفكرة القائلة : ان كل مجتمع في هذه الايام يحمل جحيمه في نفسه وان كل مدينة يمكن ان تموت بالطاعون ان أجيال ما بعد الحرب لا تزال تبدو تحت ضوب عاقبة جرح السنوات الأربعين: ما فائدة الصراع والصلاة والتأمل والايمان ؟ ! فالعالم الذى يتعذب فيه الناس ويموتون هو نفسه العالم الذى تتعذب فيه النمال وتموت : عالم طاغ وغير مفهوم ..

" عشرون سنة ودخان هيروشيما يعلمنا أن العالم ليس جديا ولا دائم البقاء ـ ان ملاحظة روجيه نيميه هذه قد أبداها جيل بكامله جيل أبناء المستحيل ". (٩)

٦ ـ الأدب العدمى :

نوع آخر اكثر تشاؤما وقنوطا ، انتاجه هو عبارة عن ذلك " العمل المؤلم الذى يصرخ بصوت عال في كل صرخة من صرخات المبتورة " ان الانسان قد مات " وحيث ما من شىء ولا شخص ولا لغة على الخصوص تستطيع اغاثة ذرة الوجود تلك التي انكمشت في استحالتها الأساسية ، وتعلن أنها تنتمى الى العدم وأنها ستعود اليه والى الأبد وأنها لا تتخيل نهاية أخرى سوى نهاية القذارة التي تنتظر صيد الماء ؟ " (١٠)

---

(٩) بيار بواديفر : انظر ٤٨ ـ ٥٠

(١٠) المصدر السابق : ٤٦ .

أدب الهروب والحلـــــم :

صورة اخرى من صور الضياع يقول عنها المصدر السـابق :

" انه ادب لا يرفض أخلاق وغيبية أبائنا فقط ، ولكنه يرفض الحقيقـة النفسية وواقعية ملاحظته ، يرفض فهم الأجهزة الالية للروح لأنه ليس هنـاك ايمان بعمل النفس ويراد التقاط الحياة في منبعها والجثوم مباشرة على الزخم الحيوى وامساك جذور الوجود المعقدة ، إنهاصوفية بدون اله " .

أشهر رواده ، بلانشو وباتاى والاخير " كان يحلم بشعر ينكـــــــر الطبيعة ومطلق يستغنى عن القيم " . (١١)

هذا وهناك مدارس واتجاهات أخرى كالتكعيبية والمستقبليـــــــة .. الخ لا تختلف في جوهرها عما سلف .

---

(١١) ص : ٥١

الفصل السادس

ماذا بقي للديــــن ؟

هذا هو السؤال الذى يراودنا الان بعد تلك الرحلة الطويلة !

لقد رأينا كيف استوصلت جذور الدين من كل مجال من مجالات الحياة : في السياسة والاقتصاد وفي الاجتماع والاخلاق وفي العلم والفــن ·· فماذا بقي للدين بعد ذلك ؟ هل بقي له شيء يذكر سـواء على الصعيد النظـرى أو في واقع الحياة ؟ (١)

أما على المستوى العلمى والفكرى فان اوربا ـ شرقها وغربها ـ قـد استبعدت بصفة مطلقة ان تكلف نفسها البحث في اية قضية من القضايا منطلقـة من الدين او متأثرة به ، وأن تستفتى الدين فى أى شأن من الشؤون ·

فالعداوة التقليدية المريرة بين الكنيسة والعلم قضت على كل احتمـال من ذلك ، والمبدأ الاساسي الذى قامت عليه الحياة الاوربية المعاصرة هو عبادة الهوى وتحكيمه من دون الله فالانسان المعاصر الذى شب عن الطـوق واستغنى عن الاله لم يعد بحاجة الى الرجوع اليه !!

ليكتب اى باحث ما شاء : نظرية ،نقدا ،خرافة ،لغوا،ساقطـا مجونا وفحشا ··الخ اى شــيء ،وليبد رأيه بكل حرية ما دام لا ينبع من المنطقة المحرمة : منطقة الدين منطقة الحلال والحرام ·

ومن هنا جاءت كلمة " جورج سانتياتا " وهو يلخص المزاج الثقافـي للعصر :

" ان حياتنا بكاملها وعقلنـا قد تشبعا بالتسرب البطيء الصاعد لروح

---

(١) لا يعنى هذا بطبيعة الحال أن اوربا تخلت عن تعصبها للمسيحية ضد غيرها والاسلام خاصة ـ ولكن التعصب ليس دليل التدين بل له تعليل آخر سيأتــي في موضوع التخطيط الصليبي اليهودى ضمن اسباب العلمانية في العالـــم الاسلامـي ·

جديدة هي روح ديمقراطية دولية متحررة وغير مؤمنة بالله " (٢)

وهكذا نجد الباحثين العلميين ـ حتى من كان منهم يذهب الى الكنيسة يوم الاحد ـ يكتبون في كل التخصصات من منطلق العداوة العمياء للدين :

" فالذى يتحدث في علم النفس يقول ان الدين كبت ينبغى أن يحطم لكي لا يؤذى الكيان النفسى للفرد !

والذى يتحدث في الاقتصاد يقول ان الاقتصاد الصناعى يحتاج الى مجتمع متحرر من القيود الموروثة من المجتمع الزراعي ومن بينها كذلك احتجاز المرأة لمهمة الأمومة ! اذ ينبغى ـ في المجتمع الصناعى ـ ان تخرج المرأة لتعمل !

والذى يتحدث في الاجتماع ينظر بعين السخرية الى تلك السذاجة التي كانت تخيل للناس أن الدين فطرى وأنه شيء منزل من السماء ! ألا يعلم الناس أن البشر هم الذين ابتدعوا الدين أيام جهالتهم وسذاجتهم ؟ ! انظروا الى المجتمعات المتأخرة التى ما تزال تعيش في الأحراش في افريقيا واستراليا .. وستجدون بذرة الدين هناك في الجهل والسذاجة والخرافة والأسطورة .. ثم انظروا الى التقدم الحضارى في القرن العشرين ! أما تستحون من أن يكون في ضمائركم ووجداناتكم بقية مما ورثتموه عن سكان الغابات والأحراش ؟ !

والذى يتحدث عن العلوم .. العلوم البحتة .. لا ينسى الدين كذلك ! انه يذكر الناس بيوم كان الناس متدينين فكانوا لجهالتهم الشديدة ينسبون ما يحدث في الكون كله الى الله ! يا لجهالتهم ! لم يكونوا يعرفون القوانين

---

(٢) تكوين العقل الحديث ٢ / ٣٣٤ وسانتيانا احد اقطاب الفلسفة العملية الامريكية (Pragmatism) .

الطبيعية التي تحكم الكون .. أما " نحن " العلماء في القرن العشرين ..

والذي يتحدث في الفن .. يزرى بتلك الأيام التي كان التحدث عن الجنس فيها يعتبر "عيبا" تأباه الأخلاق ! تبا لكم أيها المتأخرون كم كنتم تحجبون من ألوان الجمال الممتع البهيج الأخاذ ! انظروا الينا نحن المتحررين ! اليوم نحن نجعل الجنس فنا قائما بذاته .. لحظة الجنس "كون" كامل .. تعالوا نتتبعه من جميع أقطاره .. تعالوا نصفه داخل النفوس وفى واقع الحياة .. تعالوا نكشف متعه ومباهجه .. تعالوا نعرّ الناس ذكورا وإناثا ونطلقهم ينشطون نشاط الجنس .. ونمسك الكاميرا للتسجيل " (٣)

والذي يتحدث في السياسة يرثى لحال الانسان أيام القرون الأولى حين كان يحكم ويخضع لقوانين غيبية لا يد له في وضعها ، وكان محروما باسم الطاعة الالهية من كل حقوقه وحرياته !!.. الخ من يكتبون ويتحدثون ..

هذا على صعيد الفكر والبحث فماذا على صعيد الحياة العملية !

ان الشرق الشيوعي يعترف صراحة بأنه قد قضى أو فى سبيل القضاء على كل شكل من أشكال العبادة والمظاهر الدينية حتى الشخصي منها ، ولذا فلا حاجة للحديث حوله أما الغرب الرأسمالي الذي يقول ان علمانيته من الطراز اللاديني (Non-Religious) وليست من الطراز المضاد للدين (Anti-Religious) فان الأمر في ظاهره يبدو مختلفا بعض الشيء :

ان دعاة اللادينية من المخادعين والمخدوعين هناك يقولون انه لا ضرر على الدين من قيام الحياة على اللادين !! فالكنائس ستظل مفتوحة

---

(٣) التطور والثبات : ١٤٩ ـ ١٥٠

بل ان عددها ليزداد وهناك يوم الأحد حيث تقفل الدوائر الرسمية وغير الرسمية أبوابها في حين يكون هاظ الكنائس ومنشدوها في ذروة نشاطهم ، وهناك الحرية الشخصية التي لا تضع على حرية العقيدة أى قيد وتتيح لأى متحمس للدين أن ينضم الى سلك الرهبانية أو يشترك في جمعية خيرية أو يسافر ضمن بعثة تبشيرية الى الخارج ، وله الحق ان يوصى عند احتضاره بكل تركته وقفا على الكنيسة .

كما ان من حق الكنيسة ان تقيم طقوسها ومراسمها وحفلاتها بلا اعتراض من الدولة بل أن رجال الحكومة احيانا يتشرفون بحضورها .

أما الزواج فلا تزال غالبية الجماهير ترى ولو نظريا ان اقامة طقسه في الكنيسة أفضل من العقود المدنية او الزواج بلا عقد .

وكل هذه الامور ــ في نظرهم ــ تجعل الدين يحتفظ بمكانته ــ ونفوذه ــ ضمن دائرته الخاصة بطبيعة الحال ــ وتتيح له ان يوجه اتباعه ــ في نطاق هذه الدائرة ــ كما يشاء . ومعنى ذلك أن المخاوف التي يبديها بعض الناس على الدين من جراء تعميم الاجراءات التطبيقية اللادينية على مستويات الحياة عامة لا مبرر لها اطلاقا !

ومن نافلة القول ان نقول ان الدين كما أنزله الله لا يصح بحال ان ينعزل في زاوية من زوايا الحياة أيا كانت ، لكننا نقول بالنسبة لأوربا انه حتى هذه الزاوية التي يوهم دعاة اللادينية الناس بأنهم تركوها للدين لم تظل دينية خالصة بل طغت عليها موجة التحلل من الدين حتى افقدتها معناها وتركتها مظاهر صورية جوفاء لا أثر لها في مشاعر الناس ولا في سلوكهم .

وليس ذلك بغريب فان طبيعة التصور والتطبيق العلماني تقوم على أن " ما كان لشركائهم فلا يصل الى الله وما كان لله فهو يصل الى شركائهم " كما ان طبيعة الحياة ــ بل سنة الله فيها ــ وطبيعة النفس البشرية لا تسمح ابدا بأن يعيش الدين واللادين وينموا باطراد في مجتمع واحد او نفس واحدة .

ولذلك فان المجتمع الغربي منذ مطلع القرن العشرين قد تخلى حقيقة عن الدين ، فقد " كان مفهوم الدين نفسه قد حط من مقامه وأصبح لا يعني سوى واحد من امرين : الطقوس المتحجرة التي كان يتبعها اولئك الذين كانوا متمسكين عن طريق العادة ـ والعادة فقط بتراثهم الديني ، أو اللامبالاة الساخرة من قبل اولئك الذين كانوا " احرارا " بدرجة اكبر والذين كانوا يعتبرون الدين خرافة عتيقة يمكن للمرء في بعض المناسبات أن يمتثل لها خارجيا ولكنه يخجل منها في سره كما يخجل من شيء لا يمكن ان يدافع عنه عقليا " (٤)

وقد اراد احد الصحفيين الامريكيين أن يعبر عن مدى طغيان المادية وانحسار الدين فقال :

" ان الانجليز انما يعبدون بنك انجلترا ستة ايام في الاسبوع ويتوجهون في اليوم السابع الى الكنيسة " (٥) لكن الواقع ان الامر أشد من ذلك ، فان الذين يذهبون يوم الاحد الى الكنيسة هم قلة ضئيلة ثم ان هذه القلة لا تجد من الدين في الكنيسة ما يمس شغاف قلوبها بل ربما وجدت من مظاهر الفساد ودواعي اللذة ما لا تجده في الاماكن المعدة لذلك .

لننظر الى اليوم ـ أو على الاصح الساعة التي يمنّ اللادينيون على الدين أنهم تركوها له ما مقدار أثرها وعطائها ؟

يقول الاديب الامريكي الشهير " أمرسن " (١٨٨٢) :

" ان يوم الدين قد فقد الان عند القسيس سناء الطبيعة انه يوم بغيض يسرنا انقضاؤه .. اننا ننكمش عندما تبدأ الصلاة التي لا تسمو بنا وانما تقضي علينا وتسيء الينا وانا حينئذ لنتوق أن نلتف في اردیتنا ونلتمس مكانا

[illegible]
(٤) الطريق الى الاسلام : ٨٢ .
(٥) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ١٨٢ .

معتزلا لا نستمع فيه الى احد ، أصغيت مرة الى واعظ فأغراني بشدة الى ان اقول أني لن اقصد الكنيسة مرة اخرى ، فالناس كما ظننت يذهبون الى ما ألفوا الذهاب اليه والا لما قصد أحد المعبد في المساء " (٦)

ويقول ان " الدعوات بل والعقائد الثابتة في كنائسنا أشبه شيء بالبرج الفلكي في دندرة أو الاثار الفلكية عند الهندوس تحول انعزالا تاما عن اي شيء مما يوجد اليوم في حياة الناس واعمالهم .

" واحسرتاه على الرجل التعس الذي يدعى الى اعتلاء المنصة (للوعظ) ولا يعطى خبز الحياة ، ان كل ما يقع تهمته له . هل يطلب المعونة للارساليات الاجنبية والداخلية ؟ أم هل يحث الناس على طريقة ربانية للعيش ؟ وهل يستطيع ان يطلب الى زميل له ان يأتي الى الاجتماعات الدينية يوم السبت في حين انه وهم جميعا يعرفون ان اقصى ما يتوقعونه هناك ضئيل ؟ وهل يدعوهم دعوة خاصة للعشاء الرباني ؟ انه لا يجرؤ على ذلك واذا كان القلب لا يدفيء هذه الشعائر فان صورتها الجوفاء الجافة الصارخة تصبح واضحة ، فلا يستطيع ان يجابه رجلا ذا فطنة يدعوه بغير وجل وماذا عساه قائل في الشارع للقروي الجريء الذي يكفر بالله ؟ ان القروي الكافر يرى الخوف في وجه القسيس وهيئته ومشيته " .

" لا أحسب احدا يستطيع ان يقصد احدى كنائسنا وافكاره معه دون ان يحس أن ما كان للكنيسة من سلطان على الناس قد ولى او هو في سبيل الانتهاء ، لقد فقدت الكنيسة سيطرتها على عواطف الاخيار ومخاوف الاشرار ، واصبحت نصف الدوائر الدينية تنشد لمجرد النشيد ، وبدأت البوادر تدل على ان الاخلاق والدين تختفي من الاجتماعات الدينية ، سمعت رجلا

---

(٦) مختارات من مقالات أمرسن : ٣٧ .

متدينا يقيم لليوم الديني وزنه يقول في مرارة القلب : يبدو أنه من الاثم ان يقصد المرء الكنيسة يوم الاحد " (٧)

ولقد مضى على وفاة امرسن قرابة قرن من الزمان ، فماذا عساه ان يكتب لو عاش في هذا العقد حيث وصلت الكنائس الى الحد الذى يتحدث عنه من رصده عن كثب فقال :

" وبعد ان انتهت الخدمة " الدينية في الكنيسة ، واشترك في التراتيل فتية وفتيات من الاعضاء ، وأدى الاخرون الصلاة .. دلفنا من باب جانبى الى ساحة الرقص الملاصقة لقاعة الصلاة .. يصل بينهما باب .. وصعد "الاب " الى مكتبه واخذ كل فتى بيد فتاة وبينهم وبينهن أولئك الذين واللواتى كانوا وكن يقومون بالترتيل ويقمن " وكانت ساحة الرقص مضاءة بالانوار الحمراء والأضواء الزرقاء وقليل من المصابيح البيضاء وحمى الرقص على انغام " الجرامفون " وسالت الساحة بالاقدام والسيقان والتفت الاذرع بالخصور والتقت الشفاه والصدور .. وكان الجو كله غراما .. حين هبط الأب من مكتبه والقى نظرة فاحصة على المكان ومن فى المكان وشجع الجالسين والجالسات ممن لم يشتركوا فى الحلبة على ان ينهضوا فيشاركوا وكأنما لحظ أن المصابيح البيضاء تزيد نسبتها فتفسد ذلك الجو " الرومانسى " الحالم ، فراح في رشاقة الأمريكانى وخفته ، يطفئها واحدا واحدا وهو يتحاشى ان يعطل حركة الرقص أو يصدم " زوجا " من الراقصين في الساحة .. وبدا المكان بالفعل أكثر " رومانسية " ثم تقدم الى " الجرامفون " ليختار أسطوانة للرقص تناسب ذلك الجو وتشجع القاعدين والقاعدات على المشاركة فيه . واختار .. اختار اغنية امريكية مشهورة اسمها (But baby it is cold outside)

(ولكن الجو ـ يا صغيرتى ـ بارد فى الخارج .

(٧) المصدر السابق : ٨٠ و ٨٢

وهي تتضمن حوارا بين فتى وفتاة عائدين من سهرتهما وقد احتجزها الفتى في داره وهى تدعوه أن يدعها تمضى لتعود الى دارها فقد تأخر الليل وأمها تنتظرها ، وكلما تذرعت بحجة أجابها بتلك اللازمة " (ولكن الجو يا صغيرتى بارد في الخارج) .

" وانتظر الاب حتى راى خطوات " بناته وبنيه " تنساب على موسيقى تلك الاغنية المثيرة بدا راضيا مغتبطا ، وغادر ساحة الرقص الى داره تاركا لهم ولهن اتمام هذه السهرة اللذيذة البريئة .. على ان يسلم مفتاح الكنيسة في داره آخر " زوج " ينصرف من الكنيسة فالانصراف يكون تباعا حسب مزاج كل زوج !!! " (٨)

هكذا اضطرت الكنيسة الى مسايرة الواقع بعد أن رأت الفتور المتزايد في اقبال الناس عليها فقد اصبحت الحفنة التي تقصدها هي مجموعة من العجائز الجاهلات والمتسولين وشواذ الناس .

وقد اقلقت هذه الحالة المتردية بعض المشفقين على الدين من الكتاب الاجتماعيين حتى قال اثنان منهم في كتاب اصدراه :

" قد يحسب البعض انه ليس هناك من صلة مباشرة بين الحياة اليومية ومشاكل العيش من جهة وبين الدين من جهة ثانية ، ولكن هذا الرأى كان يبدو غريبا لو عرض في القرون الوسطى مثلا بل لعله كان يعد كفرا او دعوة الى الكفر في راى الكنيسة آنذاك ، لان مجال الكنيسة كان يتناول كل ما قد يصدر عن الانسان من قول اوعمل ، اما ابناء هذا العصر الذين بلغوا من حياتهم ما بلغوا بفضل فلسفات تحل العقل والمنطق فوق كل شيء فقد يصعب عليهم ان يفهموا فهما تاما تلك الحقبة من الزمن التي كان يعيش

---

(٨) الاسلام ومشكلات الحضارة : سيد قطب ٨٢ـ٨٣

فيها الانسان ضمن دائرة رسمتها له الكنيسة وقوانينها ونظمها " .

" أُجري منذ زمن قريب استفتاء عن الدور الذى يلعبه الدين في حياتنا اليومية فكانت النتيجة ان الدين لا يلعب دورا كبيرا على الاقل على المستوى الشعورى ـ في قرارات الالاف من الاشخاص .. وليس السبب ان هؤلاء غير متدينين فكثيرون منهم من رواد الكنائس بل السبب انهم لا يرون صلة بين تصرفاتهم اليومية وبين تدينهم واكثرهم يعترف بأن الدين لا ينفذ الى اعماقهم . وطالما آلمت هذه الظاهرة الكثيرين خصوصا رجال الكنيسة الذين يتنبهون الى انهم لم يبلغوا الا القشور من الانسان وانهم عجزوا عن ايصال الدين الى صميم الانسان واعماقه " (٩)

يقول الفيلسوف الانجليزى "جود":

" سألت عشرين طالبا وتلميذة كلهم في اوائل العقد الثاني من اعمارهم: كم منهم مسيحى بأى معنى من معانى الكلمة ، فلم يجب بـ " نعم " الا ثلاثة فقط ، وقال سبعة منهم : انهم لم يفكروا في هذه المسألة ابدا ، اما العشرة الباقية فقد صرحوا انهم معادون للمسيحية " (١٠)

فاذا كان الدين قد فقد قيمته في قرارات النفوس ومشاعر الجمهور بهذه الصفة فهل يليق باحث أن يسأل بعد عن دوره في واقع الحياة الغربية ؟ وهل يمكن ان يكون ذلك الا نتيجة العلمانية التي اطبقت على نواحي الحياة وتسربت في كيان الافراد والجماعات ؟

ان هذا المجتمع الذى يزعم أن علمانية من النوع غير المضاد للدين هو نفسه الذى تجرى فيه هذه الاستفتاءات وهو نفسه الذى قال احد كتابه التربويين يصف العنت الذى لقيه من جراء حمله للكتاب المقدس لا تدينا

---

(٩) مارلى تشايلد وزميله : البداية أم النهاية : ٦ ، ١٢٧

(١٠) عن ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين : ١٨٢

بل هواية الاطلاع فقط .

" لقد قرأت الكتاب المقدس في العشرينات من عمري وليس ذلك امرا عاديا الا في تقليد الأسر المتدينة حيث تكون قراءة الكتاب المقدس طقسا من الطقوس (!) لقد كانت محنة ان احمله معي في طريقي للعمل وفي عودتي على مدى أشهر . وقد تغلبت على المشكلة فلففته بالورق كما لو كان كتابا من الكتب المدرسية . وبذلك اخفيته عن الانظار كأنما هو شيء شائن (!) ومع ذلك فلم اكن لأفتحه في طريقي للعمل الا ان من جلس بجواري استطاع ان يكتشفه فنظر الي شزرا كأنما كنت امارس وضع احمر الشفاه (!) وغالبا ما يظنك الناس قسيسا او داعية دينيا متعصبا " (١١)

فاذا كان هذا هو الحال والدين شيء شخصي محدود حسب المزاج فقط فهل بقي له بعد ذلك من شيء ؟ ؟ !

---

(١١) رائد للثقافة العامة : كورنيلوس هيوسبرغ : ١٥٤

الباب الرابع

العلمانية في الحياة الاسلامية

الفصل الاول

اسباب العلمانية في العالم الاسلامي

اولا : انحراف المسلمين .

ثانيا : التخطيط اليهودى الصليبي .

ـ ـ

انحراف الامة الاسلامية

الحديث عن تأخر الامة الاسلامية وانحطاطها في القرون الاخيرة طويل ومتشعب ولكن السمة البارزة في ذلك التأخر تلك التي تجعله يتدنى عن مستوى فترات الانحطاط السابقة هي الانحراف عن فهم الاسلام نفسه وانحسار مفهوماته التصورية في معان ضيقة ومدلولات محدودة • وهذا الانحراف هو نتيجة وسبب في آن واحد •

نتيجة للوهن الذى اصاب الامة الاسلامية " حب الدنيا وكراهية الموت " والذل الذى ابتليت به عقوبة على ترك الجهاد بالمفهوم الواسع للكلمة • ومعلوم من فقه التربية الايمانية ان الله يعاقب على الذنب بالذنب وهي أقسى صنوف العقوبات ، وهكذا عوقبت الامة الاسلامية على انحرافها العملي ، والسلوكي بانحراف أشد منه في العقيدة والتصور •

وهو سبب لما تلاه من احداث جسام ومخاطر جمة اجتاحت الرقعة الاسلامية من اقصاها الى ادناها نذكر منها على سبيل التمثيل :ـ

الركود العلمي العام الذى هيمن على الحياة الاسلامية في عصر كانت اوربا فيه قد نفضت غبار الماضي وحثت الخطى على طريق العلم والاكتشاف • والضعف المادى والمعنوى الذى جعل البلاد الاسلامية لقمة سائغة للكفار ، وجعل اوربا تلتهمها قطعة قطعة حتى كادت تسيطر على الحرمين الشريفين ! ولقد كانت هزيمة العثمانيين في (سان جونار) وتقهقر المماليك السريع امام نابليون مؤشرا واضحا على هذين اى " الركود العلمي والضعف المادى والمعنوى " وبداية خطرة لنهاية الزعامة الاسلامية ليس على العالم بل على ارض الاسلام ! وحين نقول ان هذا الانحراف هو سبب التدهور والانحطاط فاننا لا ننسى العوامل الخارجية المتمثلة في تفوق الكفار علميا وعسكريا والحقد الصليبي الأعمى الذى بث سرايــاه

الفكرية المضللة جنبا الى جنب مع السرايا الاستعمارية،لكن المنطق الاسلامي الثابت يؤكد انه مهما بلغت القوة الخارجية ومهما كان التخطيط المضاد فان المسلمين لن يؤتوا الا من قبل انفسهم ،حسب القاعدة المطردة التي سنها الله تعالى " ذلك بان الله لم يك مغيرا نعمة انعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم " -الانفال ٨/ ٥٣- وأوضحها الرسول صلى الله عليه وسلم " ودعوت ربي الا يهلك أمتي بسنة عامة والا يسلط عليهم عدوا من سوى انفسهم فيستبيح بيضتهم حتى يقاتل بعضهم بعضا "(١)

ولذلك فمن الطبيعي ان يكون حديثنا عن اثر هذا الانحراف مع انتشار العلمانية في العالم الاسلامي أسبق وأولى من الحديث عن التخطيط اليهودي ـ النصراني الذى لا ننكر دوره في نشرها والذى لا يصح ان نغفل عنه او نقلل قيمته • وعلى سبيل الاجمال نستطيع ان نقول : كما ان العلمانية ظهرت في اوروبا نتيجة لتحرير الدين النصراني فقد ظهرت في العالم الاسلامي نتيجة انحراف المسلمين •

اما مظاهر هذا الانحراف فيمكن ايجازها فيمايلي :

١ ـ الانحراف في مفهوم الالوهية :

لن نتحدث الآن عن التضاد التام بين عقيدة " لا اله الا الله " وبين العلمانية فلذلك الحديث موضع آخر لكننا سنتناول بايجاز الحالة الواقعة تاريخيا في العصور الاخيرة الاسلامية :

ان بعض علماء السلف يقسمون توحيد الالوهية قسمين متلازمين :ـ

١ ـ توحيد الطاعة والاتباع (الحاكمية)

٢ ـ توحيد الارادة والقصد (العبادة)

---

(١) مسلم مع النووى ١٨/ ١٤ والترمذى ٤/ ٤٧٢

وجريا على هذا التقسيم سنجد ان حالة الامة الاسلامية كان كمايلي :

آ - في الطاعة والاتباع (الحاكمية :

نسي المسلمون تلك القاعدة التوحيدية العظمى : " لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق " وغفلوا عن قوله تعالى " اتبعوا ما انزل اليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه اولياء " وبذلك صرفوا هذا النوع من العبادة او جزءا منه الى الحكام والولاة وعلماء المذاهب المتعصبين ومشايخ الطرق الصوفية، بالاضافة الى المشعوذين الذين تهيأ لهم الجو بما كان يسيطر على الامة من جهل وسذاجة . وقد كانت الدول التي تتقاسم العالم الاسلامي ثلاث دول : الدولة المغولية في الهند ، والدولة الصفوية في فارس ، ثم الدولة العثمانية في حوض البحر الابيض المتوسط .

وبالنسبة للدولة الصفوية يمكن القول بانها كانت منحرفة انحرافا يجعل انتسابها للاسلام اسميا فقط . فقد كانت شيعية رافضية وكان الحكم فيها يجري على اراء واهواء علماء الشيعة المتعصبين ، وكان الشغل الشاغل لملوكها مهاجمة الدولة العثمانية لا لشيء الا لانها سنيّة . وكان العوام يقدسون الملوك والعلماء جريا على المذهب الرافضي الذى يجيز العصمة لغير الانبياء . (٢)

اما الدولة المغولية : فكانت باستثناء بعض الملوك مثل اورنك زيب جاهلة بحقيقة الاسلام . وكان فهمها له مختلطا بكثير من الخرافات والتصورات الخاطئة ، ولا غرابة في ذلك فان المغول لم يعتنقوا الاسلام الصافي بل دخلوا فيه على الصورة التي وجدوا الامة الاسلامية تعيشها في اواخر العصر العباسي الثاني حيث كانت الصراعات المذهبية والفكرية والطوائف الباطنية قد نخرت جسم الامة مما هيأ لهم اكتساح العالم الاسلامي، وبعدها دخلوا في دين الامة المغلوبة لا في

---

(٢) انظر " الكافي " باب ان الائمة معصومون من الخطأ .

صورته المثلى بل في صورته القائمة يومئذ •

هذا الجهل بالاضافة الى كون المسلمين اقلية بين الهند وسجعل الغاء الشريعة الاسلامية من قبل الانجليز لا يقابل بكبير معارضة •

اما الدولة العثمانية : فعلى الرغم من كونها اصلح الدول الثلاث عقيدة وسلوكا فانها كانت بعيدة عن منهج الخلافة الراشدة بعدا يزداد اويقل حسب نوعية خلفائها •

ان اى باحث نزيه لا يستطيع ان ينكر مآثر الدولة العثمانية ومزاياها التي تستحق الثناء والتقدير فهي التي جعلت المد الاسلامي في اوربا الشرقية يبلغ مداه بعد ان فقد المسلمون بلادهم في اوربا الغربية بسقوط الاندلس ، وهي التي كسرت الكماشة الاوربية التي كادت تطبق فكيها على العالم الاسلامي ولم تتمكن من ذلك الا بعد انهيار الدولة العثمانية •

كما ان روح الحماس للدعوة الاسلامية ونشر الدين الاسلامي في اوربا احدى مآثرهم التي خلدها التاريخ •(٣)

غير ان هذه المآثر لم تجنب الدولة العثمانية الاستمرار في خط الانحراف الذى ورثته عن اسلافها ثم الزيادة فيه بحسن نية ودون وعي • ومن مظاهر ذلك فيما يتعلق باصول الحكم ومنهجه ان الدولة العثمانية كانت تطبق عمليا المذهب الحنفي بتعصب وعارض علماؤها " شيوخ الاسلام " فتح باب الاجتهاد ذلك الذى اغلق منذ القرن الرابع لاسباب ليس هذا مجالها • وتتمثل هذه المعارضة في العداء الذى واجهت به الدولة الحركات والافكار التجديدية التي كانت تنبذ الجمود وتدعو الى الانطلاق الفكرى المستمد مباشرة من الكتاب والسنة كدعوة الامام محمد بن عبد الوهاب ١٢٠٦ والامام الشوكاني ١٢٥٠ هـ والشيخ الالوسي

---

(٣) انظر الفصل الخاص بالاتراك من كتاب : الدعوة الى الاسلام ، توماس ارنولد •

١٣٤٢ هـ (٤) وغيرهم وكان من النتائج السيئة لذلك مايلي :

١ ـ استمرار الحكم على طريقة "الملك الجبرية" الوراثية الذى ابتدأ في عهد الامويين وقد يقال ان هذا الامر أقره العرف ، وله ايجابياته لا سيما في اسرة مجاهدة كآل عثمان : ولكن كان في الامكان على الاقل ان يكون مبدأ الشورى هو القاعدة الاساسية للحكم مع استمرار الخلافة وراثية اما ان تترك الامور على تلك الحال فان الطريق الى الاستبداد والظلم مهيأة وهو ما حصل فعلا من بعض السلاطين والولاة بصفة خاصة ، ثم ان واقع الظروف العالمية كان يحتم ذلك ، فقد كان معاصرو العثمانيين من أباطرة وملوك الغرب تضطرب عروشهم تحت مطارق الدعوات التحررية والمطالبة بالمشاركة في الحكم وحرية الشعب في اختيار الولاة .. الخ فكان على الدولة العثمانية ان تتمظ بذلك وتقطع الطريق على دعاة التغريب بالعودة الى الاصول الاسلامية الراشدة . نعم حاولت الدولة ذلك لكنها محاولة جاءت متأخرة بل كانت في الواقع بضغط من دعاة التغريب انفسهم ولم تكن عملا ذاتيا واعيا .

٢ ـ قصور الاستنباط الفقهي عن مجاراة الوقائع المحدثة : ان كون الشريعة الاسلامية منهجا كاملا شاملا للحيارة البشرية منذ نزولها الى ان يرث الله الارض ومن عليها لا يخرج شيء من احداثها ووقائعها مهما استجد ومهما تغيرت الظروف والاحوال عن دائرتها الرحبة ، لهو امر بدهي في التصور الاسلامي ، والشك فيه يعني بداهة اتهام البارى جل شأنه بالنقص والبداء ومن ثم فهو الكفر المحض .

وكون الحياة البشرية عرضة لتغيرات لا يدرك مداها أو وقائع حادثة لايستطيع العقل البشرى على الاطلاق ان يتصور أبعادها بحكم حجبة عن علم الغيب ، يجعل المجتهد في الشريعة مهما كانت سعة افقه ودقة نظره يظل محصورا بواقع بيئته

---

(٤) انظر مثلا : الاتجاهات الفكرية والسياسية والاجتماعية ... ، على المحافظة :

وواقفا عند النقطة التي وصلت اليها البشرية على خط سيرها الطويل •

هاتان الحقيقتان آمنت الامة الاسلامية بأولاهما ايمانا جازما وغابت الثانية عن اذهان البعض متأثرين بالواقع الذى ظل قرونا عديدة راكدا لا جديد فيه •

ومن هذا البعض كان خلفاء وعلماء الدولة العثمانية الذين عارضوا فتح باب الاجتهاد أو قيدوه في دائرة التراث المأثور عن فقهاء الحنفية السابقين •وفي الوقت الذى كان الفقه فيها جامدا كانت الحياة حسب سنة الله جارية متطورة •

وبذلك حدث لاول مرة في تاريخ المسلمين ان ضاقت دائرة الفقه الواقعي بل والافتراض (٥) عن الاحاطة بأحداث الحياة كلها ، وكان الذى ضاق بطبيعة الحال هو فقه المتون والحواشي ولم تضق الشريعة نفسها وما كان لها ان تضيق •

يقول الشيخ محمد الغزالي :

" مع ان الزمن لا يقف ، ومع انه تحدث للناس أقضية بقدر ما أحدثوا من فجور ومع ان الجماعة الانسانية تدخل في أطوار متباينة من ناحية العلاقات الدولية والاوضاع الادارية والاقتصادية والسياسية ، ومع ضرورة بقاء الدين مهيمنا على توجيه القافلة السائرة ، مع هذا كله فان التفكير الاسلامي الفقهي توقف في أغلب ميادين المعاملات ان لم يكن جمد فيها كلها ، وأغلقت ابواب الاجتهاد بضعة قرون حتى انكسرت اخيرا تحت ضغط الحاجات الملحة وصحب انكسارها فوضى منكرة في الفهم والتطبيق ... " (٦)

والمؤسف ان الذى حصل اول الامر هو ان باب الاجتهاد لم يفتح ولم يكسر بل استوردت القوانين الاجنبية الكافرة •

لكن الطريق الملتوية البطيئة التي سلكتها عملية الاستيراد والتي كان

---

(٥) يمتاز الفقه الحنفي بكثرة افتراض المسائل غير الواقعية وتقدير الاحكام لها لتكون جاهزة حال وقوعها •

(٦) الاسلام والطاقات المعطلة : ٩٨ •

حسن النية أحد أسباب تقبلها لم تلفت الانظار الى خطورتها : فقد بدأت هذه الطريق باسم الاصلاح والتنظيم الذى تقتضيه الظروف الواقعية :

الجيش العثماني لم يعد يصلح ان يبقى مجموعات من المتطوعين يحملون السيوف ويمتطون الخيول فالظروف العسكرية الدولية تقتضى وجود جيش منظم مدرب يستخدم الوسائل الحديثة ويفرغ نفسه لمهمة الجهاد .

ووضع اللوائح النظامية لهذا الجيش لم يكن في مقدور مجلس العلماء لأنه كان بعيدا عن مثل هذه الشؤون التي يراها شكلية لا تستحق الاهتمام ، كما انه لم يكن في مقدور قادة الجيش نفسه لان الجمود العلمي والذهني الذى ليس من الاسلام في شيء قد كاد يقضى على كل فرصة للتطور والابداع . اذن ما الحل؟

لجأت الدولة العثمانية الى ملوك اوربا الذين كانوا لا يزالون في نظر العثمانيين حتى ذلك الحين خنازير حقيرة (٧) ـ يطلبون منهم ايفاد مدربين للجيش العثماني . وجاء المدربون من المانيا وفرنسا والسويد ولاول مرة في التاريخ الاسلامي يتولى تدريب وتنظيم الجيش الاسلامي خبراء كفرة .

وكانت هذه هي البداية ثم تلاها بعد ذلك ما تلاها .

عندما أريد اصلاح الجهاز الادارى استوردت ايضا الطرائق الغربية في تقسيم الولايات وتنظيم وتحديد مسؤوليات الولاة والقضاة . وعندما اريد اصلاح الجهاز التعليمي بنيت المدارس ووضعت المناهج على نمط يحاكي النمط الاوربي ويقتبس منه .

وعندما اريد اصلاح منهج الحكم اصر دعاة التغريب على ان تكون مجالس نيابية على الطريقة الغربية وان يوضع دستور مكتوب ذو قواعد وبنود على النمط

---

(٧) انظر ما كتبه شبنجلر حول رحلة توماس مور .

الأوربي وكان لهم ما ارادوا ٠

وليس غرضنا الان تفصيل هذه الامور ولكن القصد هو ايضاح ان توحيد الطاعة والاتباع انتقص من حقه بطريقة غير واعية ولا مقصودة ٠ لقد نتج عن ضيق ـ الدائرة الفقهية عن استيعاب الحياة ان ظلت القوانين المستوردة تحتل رويدا رويدا مواقع جديدة من الحياة الاسلامية دون ان تلفت النظر الى خطورتها الى ان جاء الوقت الذى اصبح اقتباس هذه القوانين امرا مقررا ومنهجا لا غبار عليه ٠

ومن الانصاف والحق ان نقول ان تلك الاقتباسات كانت تأخذ صفة تنظيمية لا تشريعية وهكذا كان يسميها العثمانيون " تنظيمات " لكنها على اية حال مهدت الطريق الى استيراد التشريعات لا سيما بعد تكوين " مجلس المبعوثان " ٠

وبذلك نصل الى الغرض الاساسي وهو ان انحراف المسلمين ـ بجهلهم بحقيقة دينهم وسنة الله في الحياة وعجزهم عن مسايرة الاحداث ـ كان المنفذ الرئيسي لتسرب العلمانية الى الشرق المسلم ٠

ب ـ الانحراف في توحيد الارادة والقصد (العبادة) :

ظهرت الصوفية في العصر العباسي لاسباب تاريخية منها ضعف الخلافة المركزية او انحرافها ، وانغماس الناس في الترف وانصرافهم عن الاهتمام بالدار الاخرة ٠٠ غير ان الانحراف قد أصاب الفرق الصوفية بدرجة تتناسب تناسبا عكسيا مع قربها من التمسك بالسنة والاقتداء بالسلف الصالح ٠

وكان من الاخطاء الاساسية في الفكر الصوفي النظرة العدائية الى الحياة الدنيا تلك التي يبدو أنها متأثرة بالفكر البوذى والفلسفة الاشراقية ٠ وحدث أن " أقبل العامة بقيادة المتصوفين ـ على الطقوس والأوراد وأقبل الحكام ومن في حواشيهم وركابهم على الشهوات والملذات (٠

وهذا الخلط الصوفي الاحمق ، يعتبر اول صدع اصاب التفكير الاسلامي في صميمه بل اول تصدع اصاب كيان الامة الاسلامية ـ فيما بعد ـ بالانهيار " (٨) فقد نتج عن هذا الانفصام انحسار مفهوم العبادة في دائرة الشعائر والأذكار ، بل في الحقيقة كان الالتزام بتلك النظرة يعني تعذر القيام ببعض اركان الاسلام لا لاسيما الزكـاة .

والعبارة المنقولة عن بعض زعماء الصوفية عند سماع قوله تعالى " يسبحون الليل والنهار لا يفترون " وهي " ونحن ما بالنا نفتر ؟ ! " تنم في الواقع عن الجهل بحقيقة العبادة في الاسلام وغاية الوجود الانساني على الارض التي اوضحها القرآن الكريم تفصيلا .

بعد ان كان المسلم ـ ايا كان عمله الدنيوى ـ يستشعر في قرارة نفسه انه يعبد الله تعالى حتى وهو يكدح على عياله وحتى وهو يطلب العلم او يعلمه وحتى وهو يجوب الارض في طلب الرزق او التعرف على المعمورة بلا انفصام او ازدواجية ـ اصبح المريد وقد انحصر مفهوم العبادة لديه في الصلوات والأذكار يجد مساحة كبيرة من حياته فارغة فيلجأ الى الشيخ لتعبئة هذا الفراغ ، وعندها يقوم الشيخ بتشريع ما لم يأذن الله به فيكلف المريد بحفظ المتون الطويلة من الاوراد لترديدها وبالاف التسبيحات ، واحيانا يكلفه بالسياحة في الارض بلا زاد ليقوى يقينه ويصدق في توكله ! ! وبذلك ادى انحسار مفهوم العبادة الى انحراف العبادة نفسها واستقائها من غير معين الكتاب والسنة .

ولندع الصوفية انفسهم ولننظر الى اثرهم المعنوى في الامة . كان ضمير الفرد العادى من العامة يستشعر الحيرة والالم وهو يرى الناس فتنتهن :

---

(٨) الاسلام المفترى عليه . محمد الغزالي ٦٨ .

فئة صالحة تعمل للاخرة وتتقرب الى الله بانواع الطاعات والقربات لكنها لا حظ لها من الدنيا ، واخرى فاسقة عاصية مقصرة في حق الله تعالى تتمتع بملاذ الحياة ونعيمها ، ولا يكاد يرى لهاتين ثالثة . ويبدو الخيار امامه صعبا أيكون مع الاولى فيقضي على نفسه بالحرمان والفاقة ، او ينضم الى الثانية فيقع في المحارم ؟

ومعظم الأمة بطبيعة الحال لم ينقطعوا عن الدنيا لكنهم كانوا يعملون فيها والاحساس بالندم والذنب ينتابهم لانهم يرون انهم لا يعبدون الله حين يقومون بذلك وغاب عنهم ان ذلك جزء من الغاية العظمى التي خلقوا لأجلها (٨) .

وكل هذه الانحرافات وقعت قبل احتكاك الغرب اللاديني بالشرق بل قبل قيام الدولة العثمانية .

وعندما سيطر العثمانيون ازداد الامر سوءا وتطورت الانحرافات حتى توهم الناس ان العبادة نفسها هي بالدرجة الاولى ما يأمر به المشايخ والأولياء من البدع ، ووقعت الامة في شرك حقيقي بما كان السذج والجهلة بل وبعض العلماء يمارسونه من بدع الأضرحة والمشاهد والمزارات وتقديس الموتى والاعتماد عليهم في جلب النفع ودفع الضرر ، ووصل الامر الى حالة مزرية جدا حين كانت جيوش المستعمرين تقتحم المدن الاسلامية والمسلمون يستصرخون السيد او الولي الذي كان قد مضى على وفاته مئات السنين (٩)

وامتد البلاء الى الأربطة والثغور التي بنيت اساسا للجهاد ومقارعة الكفار اذ تحولت الى زوايا وتكايا للصوفية وفي احسن الاحوال أصبحت مدارس علمية صرفة لا اثر للتربية الجهادية فيها وحتى مناهجها التعليمية كانت متخلفة ومحدودة . (١٠)

وبالاضافة الى الصوفية ساعد الفقهاء المتاخرون وكتب الفقه المبوبة ـ من

---

(٩) و (١٠) انتشرت الزوايا على السواحل الاسلامية للبحر الابيض وخاصة في الشمال الافريقي ، وقد اعادت الحركة السنوسية اليها الصبغة الجهادية فترة من الزمان .

(٩) من ذلك البيت المشهور : يا خائفين من التتر لوذوا بقبر أبي عمر .
انظر : كتائر الايمان ، الغزالي ٨٠ ، ٢٢ وقصة العنز المقدسة ! ، الجبرتي ١/ ٤٠١-٤٠٢ .

غير قصد ـ على مد هذا الانحراف بتقسيمهم الاحكام الشرعية الى عبادات ومعاملات واضعين في القسم الاول الاحكام التعبدية المحضة ، وفي الاخر الاحكام التعبدية المتعلقة بالنشاط الاجتماعي والاقتصادى وما شاكلها ، لم يقولوا ولم يعتقدوا ان ـ القسم الثاني ليس عباديا لكنهم وضعوا القسمة لاعتبارات فنية اصطلاحية لا تمس جوهر الموضوعات ، ولا أدل على ذلك من ان الكتب الفقهية المؤلفة في القرنين الاول والثاني وكذلك كتب السنة بصفة عامة تخلوان من هذه القسمة غير ان هذا التقسيم اصبح ـ بعد ظهور وانتشار الصوفية وحدوث الانفصام العملي في الحياة الاسلامية ـ اصبح من دعائم هذا الانفصام ، يقول الشهيد سيد قطب رحمه الله : " ان تقسيم النشاط الانساني الى عبادات و " معاملات " مسألة جاءت متأخرة عند التأليف في مادة " الفقه " ومع انه كان المقصود به ـ في اول الامر مجرد التقسيم " الفني " الذى هو طابع التأليف العلمي ، الا انه ـ مع الاسف ـ انشأ فيما بعد آثارا سيئة في التصور ، تبعته ـ بعد فترة ـ آثار سيئة في الحياة الاسلامية كلها . اذ جعل يترسب في تصورات الناس أن صفة " العبادة " انما هي خاصة بالنوع الاول من النشاط الذى يتناوله " فقه العبادات " بينما اخذت هذه الصفة تبهت بالقياس الى النوع الثاني من النشاط الذى يتناوله " فقه المعاملات " [= وهو انحراف بالتصور الاسلامي لا شك فيه فلا جرم يتبعه انحراف في الحياة كلها في المجتمع الاسلامي " (١١)

وانبثق من هذا الانحراف وواكبه انحراف في مفهوم آخر هو ركن من اركان الايمان وهو " القدر " :

٣ ـ الانحراف في مفهوم الايمان بالقدر :

لقد كتب احد المستشرقين الالمان وهو يؤرخ لحال المسلمين في عصورهم الاخيرة يقول :

---

(١١) خصائص التصور الاسلامي : ١٣١ .

" طبيعة المسلم التسليم لارادة الله والرضا بقضائه وقدره والخضوع بكل ما يملك للواحد القهار • وكان لهذه الطاعة اثران مختلفات : ففي العصر الاسلامي الاول لعبت دورا كبيرا في الحروب اذ حققت نصرا متواصلا لانها دفعت في الجندى روح الفداء ، وفي العصور الاخيرة كانت سببا في الجمود الذى خيم على العالم الاسلامى فقذف به الى الانحدار وعزله وطواه عن تيارات الاحداث العالمية " (١٢)

ان هذا الرجل وهو كافر ادرك هذه الحقيقة : حقيقة الفرق بين الايمان بالقدر كما فهمه السلف وبين الايمان الذى ابتدعه الخلف متاثرين بالمتصوفة • فالذنب ليس ذنب العقيدة بل ذنب المعتقدين • وقد صاغ ذلك شاعر الاسلام محمد اقبال شعرا فقال :

من القرآن قد تركوا المساعي	وبالقرآن قد ملكوا الثريا
الى التقدير ردوا كل سعي	وكان زماعهم قدرا خفيا
تبدلت الضمائر في اسار	فما كرهوه صار لهم رضيا (٣)

نعم ، لا شك ان ما اصاب المسلمين من ذل وهوان وهزائم معنوية وحسية كان بقدر الله الذى لا يخفى عليه شيء بل سيان في علمه ما كان وما سيكون ، لكن المسلمين في العصور الاخيرة حرفوا هذا المفهوم فاتخذوا من الايمان بالقدر مبررا واهيا لعجزهم وانهيارهم متناسين ان اقدار الله انما تجرى عليهم وفق سنة الثابتة التي اوضحها لهم لكنهم غفلوا عنها واهملوها ، فالمسؤولية مسؤوليتهم وحدهم ولا يظلم ربك احدا •

لقد انقلب التوكل الذى كان الباعث القوى لحركة الجهاد والانطلاق في الارض والاخذ باسباب الحياة الى تواكل رخيص مذموم سماه المتصوفة " يقينا " وسماه الاخرون " قناعة " واحتسبه الكل عند الله !

(١٢) باول شمتز ، الاسلام قوة الغد العالمية : ٧٨ •
(١٣) ضرب الكليم : ٩

يقول الامام ابو حامد الغزالي (٥٠٥ هـ) - وهو يعد من معتدلي الصوفية - في بيان مقامات التوكل :

" الاول : مقام الخوّاص ونظرائه وهو الذى يدور في البوادى بغير زاد ثقة بفضل الله تعالى عليه في تقويته على الصبر اسبوعا وما فوقه ، او تيسير حشيش له او قوت ، او تثبيته على الرضا بالموت ان لم يتيسر شيء من ذلك ... المقام الثاني : ان يقعد في بيته او في مسجد ولكنه في القرى والامصار وهذا اضعف من الاول ، ولكنه ايضا متوكل لانه تارك للكسب والاسباب الظاهرة معول على فضل الله تعالى في تدبير امره من جهة الاسباب الخفية ، ولكنه بالقعود في الامصار يتعرض لأسباب الرزق ... " (١٤)

واذا علمنا ان هذا الكلام يكتب والحملات الصليبية على اشدها ادركنا مدى الانحراف ...

لقد استسلم المسلمون لنوم طويل ـ محتجين بالقدر ـ فلم يوقظهم الا هدير الحضارة الغربية وهي تدك معاقلهم وتقتحم حصونهم ، وكانت المفاجأة المذهلة التي زعزعت ايمان الامة بدينها ، وهو الايمان الذى كان خامدا باردا لا حراك له ، وفي لحظة الانبهار والانذهال هذه ، قال المستشرقون والمبشرون وأذنابهم : ان الدين وعقيدة القدر خاصة هو سبب التاخر والجمود في العالم الاسلامي ، وصدقهم المغفلون الذين كانوا لا يعرفون من شعائر الدين الا ما رسمه لهم مشايخ الطرق من صلوات واوراد ، ولا من قواعده ، الا ان من الايمان ان يرضى المرء بما كتب له ـ على المفهوم الخاطيء لها ـ ، وباسم الزهد في الدنيا ، والاستسلام الخانع للذل والفقر - تحت ستار الايمان بالقدر ـ وهما ما تطوعت به الطرق الصوفية وشجعته البيئة الجاهلة المنحطة ـ تقهقرت الحضارة الاسلامية وذبلت حتى لفظت انفاسها

---

(١٤) احياء علوم الدين : ٤/ ٢٣٣ ، والخوّاص أحد مشهوري الزهاد المتصوفة .

على يد الغزو العسكرى والحضارى القادم من الغرب .

ذلك ان المعادلة الخاطئة التي كانت تقول ان الصلاح قرين الفقر والفساد صنو الغنى ، قد تطورت واتخذت بعد اليقظة المنبهرة شكلا اخر فاصبحت تقول : ان الكفر والدنيا قرينان والدين والتاخر قرينان .

وكان هذا هو الظاهر من حال اوربا والعالم الاسلامي في اوهام العامة : ان اوربا كافرة وبيدها مقاليد الدنيا ونحن مسلمون ـ على المفهوم الخاطئ طبعا للاسلام ـ وفي الوقت نفسه متأخرون ! وليس من شأننا الان مناقشة هذه الافكار وانما هدفنا ان نعرضها بايجاز بالغ لنصل الى النتيجة النهائية ، وهي ان هذا الانحراف في التصورات الاسلامية كان المنفذ الذى تسربت منه العلمانية كاحدى مظاهر الغزو الفكرى لتقول للناس ان الدين لا علاقة له بالحياة ولا بالسلوك العملي وانما هو رابطة قلبية بين العبد وربه يستحق بها النجاة والفوز في العالم الأخروى .

صحيح ان العلمانية فكرة اجنبية وفدت الينا مع الاستعمار ودعمت بأذياله ومؤسساته الظاهرة والخفية ولكن شيئا من ذلك ما كان ليحدث لولا اننا كنا مصابين بما اسماه مالك بن نبى " قابلية الاستعمار " او كما سماه العلامة المودودى " قابلية الاستعباد " (١٥)

ولا ادل على ذلك من ان الامة الاسلامية تعرضت للغزو الصليبي ثم لهجمة التتار الشرسة وخسرت المعركة سنين طويلة غير انه لم يدر بخلدها ان تخنع للامة الغالبة او ان تقتبس شيئا من مناهجها ونظمها وتقاليدها . ومع استيعابنا لهذه الحقيقة فسنورد نماذج من المسلمين المفتونين بالحضارة الغربية باعتبارهم دعامة من الدعامات الاساسية التي ارتكزت عليها العلمانية في العالم الاسلامي :

---

(١٥) الاول في كتابة شروط النهضة والثاني في كتابه : واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم .

نماذج لتقبل المسلمين الذاتي للأفكار العلمانية :

لقد سبق الحديث عن الثورة الفرنسية وطبيعتها اللادينية والاثر التلمودى فيها ، كما اننا تحدثنا عن المذهب الطبيعي " الفيزيوقراطي " في فصل السياسة والاقتصاد ، وفي فصل الصراع بين الدين والعلم عرضنا ايضا للفلاسفة الطبيعيين وآرائهم .

والآن لنقرأ هذه الاقتباسات من كلام شيخ مسلم درس في فرنسا لنرى كيف انه يذكرنا بما سبق الحديث عنه هناك وكأنما هو يترجم مع الشرح عبارات روسو وفولتير التي اوردنا نماذج منها سلفا .

" ومن زاول علم اصول الفقه ، وفقه ما اشتمل عليه من الضوابط والقواعد جزم بأن جميع الاستنباطات العقلية التي وصلت عقول أهالي باقي الامم المتمدنة اليها وجعلوها اساسا لوضع قوانين تمدنهم واحكامهم ، قلّ ان تخرج عن تلك الاصول التي بنيت عليها الفروع الفقهية التي عليها مدار المعاملات . فما يسمى عندنا بعلم اصول الفقه يشبه ما يسمى عندهم بالحقوق الطبيعية او النواميس الفطرية ، وهو عبارة عن قواعد عقلية تحسينا وتقبيحا ، يؤسسون عليها احكام المدنية . وما نسميه بالعدل والاحسان يعبرون عنه بالحرية والتسوية ، وما يتمسك به أهل الاسلام من محبة الدين والتولع بحمايته مما يفضلون به عن سائر الامم في القوة والمنعة يسمونه محبة الوطن " .

... " ولما كانت اعمال كل نوع من انواع المخلوقات وكل عضو من اعضاء أفراد ذلك النوع منقادة لنواميس طبيعية عمومية خصته به الحكمة الالهية كان لا يمكن مخالفة هذه النواميس بدون اختلال للنظام العام والخاص ، وهذه النواميس الطبيعية التي خصت بها العالم القدرة الالهية عامة للانسان وغيره ... فينبغى للانسان ان لا يتجارى على هذه الاسباب ويتعدى حدودها ، حيث ان المسببات الناتجة عنها منتظمة محققة ... فعلى الانسان ان يطبق اعماله على هذه الاسباب التي تقدم ذكرها ويتمسك بها والا

عوقب عقابا الهيا لمخالفة خالق هذه الاسباب ... وأغلب هذه النواميس الطبيعية لا يخرج عنها حكم الاحكام الشرعية ، فهي فطرية خلقها الله سبحانه وتعالى مع الانسان وجعلها ملازمة له في الوجود ، فكأنها قالب له نسجت على منواله وطبعت على مثاله وكأنما هي سطرت في لوح فؤاده بالهام الهي بدون واسطة ، ثم جاءت بعدها شرائع الانبياء بالواسطة والكتب التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، فهي سابقة على تشريع الشرائع عند الامم والملل ، وعليها في ازمان الفترة تأسست قوانين الحكماء الاول وقدماء الدول وحصل منها الارشاد الى طرق المعاش في الازمنة الخالية كما ظهر منها التوصل الى نوع من انتظام الجمعيات التأنسية عند قدماء مصر والعراق وفارس واليونان ، وكان ذلك من لطف الله تعالى بالنوع البشرى حيث هداهم لمعاشهم بظهور حكماء فيهم يقننون القوانين المدنية لا سيما الضرورية لحفظ المال والنفس والنسل ..." (١)

ويقول في مؤلف آخر مثنيا على الدستور الفرنسي " الشرطة " :

" فيه امور لا ينكر ذوو العقول انها من باب العدل .. ومعنى الشرطة في اللغة اللاتينية ورقة ، ثم تسومح فيها فاطلقت على السجل المكتوب فيه الاحكام المقيدة ، فلنذكره لك وان كان غالب ما فيه ليس في كتاب الله تعالى ولا في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لتعرف كيف قد حكم عقولهم بأن العدل والانصاف من اسباب تعمير الممالك وراحة العباد ، وكيف انقادت الحكام والرعايا ، لذلك عمرت بلادهم وكثرت معارفهم وتراكم بناهم وارتاحت قلوبهم و ولا تسمع فيها من يشكو ظلما ابدا والعدل اساس العمران " (٢)

ويقول شيخ آخر معاصر له بوجوب " تحذير ذوى الغفلات من عوام المسلمين عن تماديهم في الاعراض عما يحمد من سيرة الغير الموافقة لشرعنا بمجرد ما انتقش في

---

(١) رفاعة الطهطاوى : المرشد الثمين : ٣٦ — ٣٨

(٢) تخليص الابريز : ١٤٠

عقولهم من ان جميع ما عليه غير المسلم من السير والتراتيب ينبغى ان يهجر وتآليفهم في ذلك يجب ان تنبذ ولا تذكر ".

وهو يعني بذلك اقتباس الطرائق الغربية في الحكم كالدستور المدون والمجالس النيابية ... الخ اهـ يقول عن الممالك الاوربية :

" وانما بلغوا تلك الغايات والتقدم في العلوم والصناعات بالتنظيمات المؤسسة على العدل السياسي وتسهيل طرق الثروة ... وملاك ذلك كله الامن والعدل اللذان صارا طبيعة في بلدانهم ، وقد جرت عادة الله (كذا) في بلاده ، ان العدل وحسن التدبير والتراتيب المحفوظة من اسباب نمو الاموال والانفس والثمرات ". ويقول مؤيدا ومستشهدا :

" سمعت من بعض اعيان اوربا ما معناه (ان التمدن الاوربي تدفق سيله في الارض فلا يعارضه شيء الا استأصلته قوة تياره المتتابع ، فيخشى على الممالك المجاورة لأوربا من ذلك التيار الا اذا حذوه وجروا مجراه في التنظيمات الدنيوية فيمكن نجاتهم من الغرق " (٣)

أما جمال الدين الأسد اباوى المشهور بالافغاني فهو يقول بصراحة :

" ان الامة هي مصدر القوة والحكم وارادة الشعب هي القانون المتبع للشعب والقانون الذى يجب على كل حاكم ان يكون خادما له وأمينا " (٤)

ويقول احد المتاثرين به وهو عبد الله النديم :

" ولئن قيل ان التجارب دلتنا على ان الشورى لا تنجح في الشرق او ان الشرقيين غير عقلاء كما يزعم محبو الأثرة والانفراد بالتسلط ، قلنا ان اتحاد الشرقي مع الغربي في الخلق يرد هذه الدعوى الباطلة ، وانما ثابر الغربيون على العمل

---

(٣) خير الدين التونسى : اقوم المسالك في معرفة احوال الممالك : ٩٠ ، ٩٨ ، ١٦٦

(٤) الاتجاهات الفكرية والسياسية والاجتماعية : على المحافظة : ١٠٢

بالشورى وأخذوا يصححون الاغاليط ويراجعون الاخطاء ويتبادلون الجدل عن عزائم صادقة حتى تربت الملكات وتصورت المطالب امامهم بصور الواقعيات " (٥)

ومن اوضح الادلة على تأثر المسلمين بالغرب وتقبلهم للفكر الدخيل ما نراه في كلام جمال الدين المذكور وتلامذته من محاولة ـ لعلها الاولى في التاريخ الاسلامي ـ للتقريب بين الاسلام والمذاهب البشرية الوضعية ، فهو يقول عن الاشتراكية :

" وهكذا دعوى الاشتراكية .. وان قل نصراؤها اليوم فلابد ان تسود في العالم يوم يعم فيه العلم الصحيح ويعرف الانسان انه واخاه من طين واحد او نسمة واحدة وان التفاضل انما يكون بالانفع من المسعى للمجموع " . ويقول " أما الاشتراكية في الاسلام فهي ملتحمة مع الدين الاسلامي ملتصقة في خلق اهله ، منذ كانوا أهل بداوة وجاهلية ، وأول من عمل بالاشتراكية بعد التدين بالاسلام هم اكابر الخلفاء من الصحابة ، واعظم المحرضين على العمل بالاشتراكية كذلك من اكابر الصحابة ايضا " (٦) . أما تلميذه الشيخ محمد عبدة فيستحسن الانظمة ـ الجمهورية النيابية معتقدا انها هي الوسيلة الحديثة للشورى الاسلامية ، يقول :

" والمبايعة لا تتوقف على صحتها على الشورى ولكن قد يحتاج فيها الى الشورى لاجل جمع الكلمة على واحد ترضاه الامة فاذا امكن ذلك بغير تشاور بين اهل الحل والعقد كأن جعلوا ذلك بالانتخاب المعروف الان في الحكومة الجمهورية وما هو في معناها حصل المقصود " (٧) .

ونحن لا نورد هذه الاقوال الا لغرض واحد هو بيان انبهار الامة الاسلامية بالغرب ونظمه واستعدادها الذاتي للتلقي عنه تلقائياً تدل هذه الشواهد وغيرها انه لن يكون فيه تمييز ولا اختيار . واذا كان هؤلاء وامثالهم تطوعوا بتسويغ

---

(٥) المصدر السابق : ١٠٤

(٦) المصدر السابق : ١٨١ ـ ١٨٢

(٧) تفسير المنار ٤/ ٢٠٣ ، وللشيخ دور اخر سياتي الحديث عنه في فصل تال .

النظم اللادينية في امتهم ، وهيأوا النفسية الاسلامية لتقبلها مندفعين بدوافع نفسية ذاتية ـ وهو امر قابل للجدال ـ فقد جاء بعدهم اناس مفروضون صرحاء ـ اتخذتهم القوى المتآمرة على الاسلام أصابع لمخططاتها ومحاول لهدم الكيان المادي والمعنوي للأمة الاسلامية وهؤلاء نؤجل الحديث عنهم الى فصوله المناسبة على ان الدلالة المشتركة بين اولئك وهؤلاء هي ان الامة الاسلامية نفسها هي المسؤولة اولا واخرا عن الغزو الفكري والحرب النفسية الشرسة على الاسلام والتي كانت دعاوى العلمانية احدى طلائعها .

....

.

٢ ـ التخطيط اليهودى الصليبي :

ليس في تاريخ العداوات عداوة تماثل في شراستها وأبديتها ذلك النوع الذى تواجه به طوائف اليهود والنصارى الامة الاسلامية •

ان هذه العداوات المتغلغلة العميقة ليس موضوعها خلافا مذهبيا ولا نزاعا سياسيا ولا مطامع اقتصادية أىانها باختصار ليستمما يمكن تسويته واجتثاث آثاره •

ولا يفلح في تعليلها ما يقوله المستشرقون ومنهم جب من أنه " حدث قبل في حياة محمد (صلى الله عليه وسلم) أن بدأت تتشابك سيوف المسلمين والمسيحيين وظلتكذلك حتى اليوم ، ولهذا ظل العالم المسيحى الاوربي عدو الاسلام الالد (١) " لان هذه الحروب نتيجة وليست سببا والا فما الداعي لنشوب هذه الحروب اصلا ؟ وكم عرف التاريخ من حروب أعقبتها صداقات وعلاقات (ان القضية أبعد من ذلك وأعمق • انها قضية حق وباطل ، نور وظلام ، يقين وخرافة ومن هنا كانت الشقة بعيدة وكان اللقاء مستحيلا •

ومع ادراكنا لهذا فلا علينا ان نتحدث عن الدور الذى ادته الحروب الصليبية في هذا الشأن • المهم أن نبحثه باعتبارها مظهرا للعداوة لا علة فيها • ان العلاقة بين البلاد الاسلامية وبين اوربا خاصة ـ بصفتها مهد العلمانية ـ لا يمكن ان تدرس بغير الحروب الصليبية •

فهذه الحروب أضفت على تلك العداوة الأبدية الراسخة مظهرا جديدا وأذكتفيها روحا مغايرة ، وبذلك اختلفت آثارها ونتائجها عن الحروب السابقة الاخرى التي لم تنطفئ قط •

---

(١) وجهة الاسلام : ١٧ـ١٨ •

ولذلك الامر سبب نفسي يتعلق بوجود اوربا وتكوينها السياسي والاجتماعي والحضاري بصفة عامة ، وهو ان الحروب الصليبية " حدثت في اثناء طفولة اوربة في العهد الذي كانت فيه الخصائص الثقافية قد اخذت تعرض نفسها وكانت لا تزال في طور تشكلها . والشعوب كالافراد ، اذا اعتبرنا ان المؤثرات العنيفة التي تحدث في اوائل الطفولة تظل مستمرة ظاهرا او باطنا مدى الحياة التالية وتظل تلك المؤثرات محفورة حفرا عميقا حتى انه لا يمكن للتجارب العقلية في الدور المتاخر من الحياة والمتسم بالتفكير اكثر من اتسامه بالعاطفة ان تمحوها الا بصعوبة ، ثم يندر ان تزول اثارها تماما .

" وهكذا كان شأن الحروب الصليبية فانها احدثت أثرا من اعمق الاثار وأبقاها في نفسية الشعب الاوربي ، وان الحمية الجاهلية العامة التي اثارتها تلك الحروب في زمنها لا يمكن ان تقارن بشيء خبرته اوروبة من قبل ، ولا اتفق لها من بعد ، لقد اجتاحت القارة كلها موجة من النشوة ، كانت ـ في مدة على الاقل ـ عنفوانا تخطى الحدود التي بين البلدان والتي بين الشعوب والتي بين الطبقات ، ولقد اتفق في ذلك الحين ، وللمرة الاولى في التاريخ ان اوروبة ادركت في نفسها وحدة ، ولكنها وحدة في وجه العالم الاسلامي ويمكننا ان نقول من غير ان نوغل في المبالغة ان اوربا ولدت من روح الحروب الصليبية ... ولد تفكرة " المدنية الغربية " واصبحت هدفا واحدا تسعى اليه جميع الشعوب الاوربية على السواء ، وكانت تلك المدنية الغربية عداوة للاسلام وقفت عُرّابا في هذه الولادة الجديدة " (٢)

هذا التحليل العميق الواعي يقضي على كل التساؤلات حول استمرارية العداوة بين اوربا والمسلمين ويلغي زيف الشبهات التي تقول ان عداوة اوربا تنطلق من دوافع غير دينية ، او ان الحروب الصليبية نفسها كانت حربا اقتصادية !!

---

(٢) الاسلام على مفترق الطرق ، محمد أسد : ٥٥ـ٥٦ ، والعراب تعبير كنسي يقصد به وكيل الطفل المعمد (الحاشية) .

لقد تلا الحروب الصليبية تصفية الوجود الاسلامي في الاندلس بصفة لا نظير لها في التاريخ ثم كان سقوط القسطنطينية في ايدى المسلمين حادثا رهيبا اذهب عن اوربا حلاوة انتصارها في الاندلس، وبعدها جاءت طلائع الحروب الصليبية متخفية برايات المكتشفين الجغرافيين، ثم جاءت الروح الصليبية كامنة في مدافع نابليون التي تضمنا على اول محاولة ضخمة من اوربا الحديثة لاستئصال شأفة الاسلام وبذر جذور اللادينية في أبنائه ، والحق ان الجنرال اللنبى لم يكن اكثر صراحة حين وقف على جبل الزيتونة في الحرب العالمية الاولى قائلا " الان انتهت الحروب الصليبية " كما ان الواقع التاريخي يؤكد ان هذه الحرب لن تنتهي وان الذى خدع بعض المستغفلين هو اختلاف فصولها ومظاهرها •

وها هو " جان بول رو " يقرر ذلك قائلا :

" لقد اعتدنا ان نتحدث عن ثمان حملات صليبية الاولى بدأت منها ١٠٩٦م والاخيرة انتهت ١٢٧٠ غير ان هذا التقسيم لا يبدو متجاوبا كثيرا مع الواقع ، ويمكننا ان نزيد هذا العدد اذا اخذنا بعين الاعتبار جميع الدفعات التي وجهت الى الشرق •• "

" •• فقد قُذف بملايين الاوربيين الى شواطئ الشرق ومهمتهم تغيير المعتقدات الشرقية ومن اجل الوصول الى ذلك كان عليهم ان يخربوا هذا الشرق " !

نعم ان الهدف هو " تغيير المعتقدات الشرقية " التي هي بطبيعة الحال الاسلام • فما دام هذا الهدف لم يتحقق فان الحملات هي كلها صليبية والعداوات كلها صليبية •

يؤكد ذلك (رو) قائلا " لم يكن القضاء على الدولة العثمانية الا مظهرا من مظاهر الهجوم العام الذى يشنه الاوربيون على الدول الاسلامية ، ومن جزر الفلبيين الى قلب افريقيا عمل الرجل الابيض على بسط سيطرته على الرجل المسلم وفرض عليه مفاهيمه في الوجود وطرق معيشته وتفكيره ومخططاته وتكتيكه •

ويقـــول رو :

" ان الحرب بين الاسلام والمسيحية دامت ثلاثة عشر قرنا " وقسمهـــــــا الى اربع مراحل رئيسية جاعلا المرحلة الرابعة منها هي " طرد الاتراك مـــــن ممتلكاتهم والقضاء على قوة الاسلام في آسيا الوسطى وفرض الاستعمار او الحمايــــة على القسم الاكبر من ديار الاسلام " (٣)

ولم لا يكون الامر كذلك واول عمل قام به الانجليز في الهند هو الغـــاء الشريعة الاسلامية ، واول عمل قام به نابليون في مصر هو تعطيل الشريعــــــــة واحلال القانون الفرنسي محلها ، واول عمل قام به اذناب المخطط اليهــــودى الصليبي في تركيا هو الغاء الشريعة الاسلامية ثم اعلان تركيا دولة لا دينية !!

ومنذ ان احكمت اليهودية العالمية انشوطتها على العالم الغربـــــي وأوقعته اسيرا في شباكها الاخطبوطية اتخذت العداوة مسارا واحدا تحفـــزه الروح الصليبية وتوجهه الافعى اليهودية ، فقد تشابكت وتداخلت مصالـــــح الطرفين وكان الغرب الصليبي مستعدا للتخلي عن كل حقد وعداوة الا عداوتـــه للاسلام ، في حين كانت الخطط التلمودية تروم تسخير العالم الصليبي ـ بعـــد ان شلت قواه وركبت رأسه ـ للقضاء على عدوها الاكبر الاســـــلام .

ولتوضيح ذلك نكتفي بتقرير كتبه المستشار الاول للرئيس الامريكـــــي جونسون سنة ١٩٦٤ م . ومعلوم خضوع رؤساء امريكا للضغط اليهودى . وهـــو يعطينا بالاضافة الى ما أشرنا اليه ، لمحة عامة عن الخطـة العلمانية فـــي العالم الاسلامي وآثارها المجملـة .

يقـــول التقريــــر :

" ... يجب ان ندرك ان تلك الخلافات بين اسرائيل والعرب لا تقـــوم

---

(٣) الاسلام في الغرب : ٤١ ـ ٤٢ ـ ٤٣ ـ ٥٦ ـ ٦٩ ـ ٧٠ .

بين دول او شعوب بل تقوم بين حضـــارات ".

" لقد كان الحوار (الصراع) بين المسيحية والاســـلام محتدما على ـ الدوام منذ القرون الوسطى بصورة اوباخرى ، ومنذ قرن ونصف خضع الاســـلام لسيطرة الغرب اى خضعت الحضارة الاسلامية للحضارة الغربية ، والتراث الاســلامي للتراث المسيحى ، وتركت هذه السيطرة آثارها البعيدة في المجتمعات الاسلامية حتى بعد انتهاء اشكالها السياسية ، بحيث جعلت المواطن العربي يواجـــــه معضلات ومشكلات هائلة وخطيرة في السياسة والاجتماع والاقتصاد والعلم ، لايدرى كيف يتفاعل معها في علاقاته الداخلية والخارجية على السواء ".

" لقد تحرر حقا من سيطرة الغرب السياسية لكنه لم يستطع التحرر مـــن سيطرة الغرب الحضارية ، ان ثروته البترولية تصنع وتسّوق بالعقول الغربيـــة والأساليب الغربية والآلة الغربية ، ان الجيوش العربية التي هي مصـــدر غروره القومي تستعمل السلاح الغربي ، وترتدى البزة الغربية بل تسير على انغـام الموسيقى الغربية ، حتى ان ثورته على الغرب مستمدة من المبادئ والقيـــم والمفاهيم التي تعلمها من الغرب ، حتى ان معرفته بتاريخه وحضارتـــه وتراثه تعزى الى المثقفين الغربيين ".

" ان غلبة الحضارة الغربية في الشرق وهي العدو القديم للحضارة الاسلامية قد أورثت العربي المسلم الشعور بالضّعة والمهانة والصغار امام طغيـــان تلك الحضارة التي يمقتها ويحترمها في نفس الوقت ".

" لقد استطاعت بعض الدول الشرقية كتركيا وايران تطوير علاقتها بالـدول الغربية على اساس مصالحها القومية ، لكن السياسة الغربية ما تزال تعيش على أحلام وأمجاد وأوهام الامبراطورية الاسلامية التي كانت تقسم العالم الى قسمين متعارضين متناقضين يعادى احدهما الاخر ويضمر له الشر هما " دار الاســـلام " اى ـ الامبراطورية الاسلامية ، و " دار الحرب " اى اعداء تلك الامبراطورية علـــى

أساس الحديث " الكفرملة واحدة " . (٤)

وتجدر الاشارة الى ان خطة العمل الموحد المشترك بين الصليبية واليهودية أصبحت لزاما وواجبا مشتركا على كلا الطرفين بعد الموقف الصلب الذى واجه به السلطان عبد الحميد ـ رحمه الله ـ هرتزل ، اذ تعين بعدها ان القضاء على الخلافة الاسلامية ضرورى لمصلحة الفريقين : النصارى الذين كانت ولهم الاستعمارية تتحين الفرصة للأخذ بثأر الحروب الصليبية ، واليهود الذين ايقنوا ان فشلهم مع السلطان يستوجب التركيز على العالم الصليبي وتسخيره لمآربهم التلمودية . وبلغت الخطة ذروة التوحد بعد قرار المجمع المسكونى الذى ينص على تبرئة اليهود من دم المسيح عليه السلام والذى كان يهدف الى محو كل أثر عدائي مسيحى لليهود وبالتالي ايجاد كتلة يهودية نصرانية واحدة لمجابهة الاسلام . (٥) واذا كانت العداوة لم تتغير ولم تتبدل فان الخطة تغيرت كثيرا !

الحروب الصليبية التي كان قوامها مجموعات من الأوباش والهمج كانت خطتها عسكرية بحتة وهدفها تدمير الكيان الاسلامي بالقوة .

والحروب الصليبية الاستعمارية كانت خطتها تقوم على هدف القضاء على الاسلام ولكن بواسطة احتلال اراضيه احتلالا مباشرا ، والمستشرق " كيمون " الذى كان يفكر بعقلية الحروب الصليبية يضع للعالم الغربي خطة لتدمير الاسلام يقول فيها :

" اعتقد أن من الواجب ابادة خمس المسلمين والحكم على الباقين

---

(٤) عن معركة الاسلام ، الصواف ، ١٨٣ـ١٨٤ ، ومن الضرورى لمعرفة بعض اساليب المخطط الخبيث الاطلاع على كتاب لعبة الامم " لسكوبلاند .

(٥) انظر فصل : متى تنتهي هذه الاحقاد : حصاد الغرور ، محمد الغزالي .

بالاشغال الشاقة وتدمير الكعبة ووضع قبر محمد وجثته في متحف اللوفر " (٦)

والمبشر بالكراف يقول " متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب يمكننا حينئذ ان نرى العربي يتدرج في سبيل الحضارة التي لم يبعده عنها الا محمد وكتابه " (٧)

ولعل هذا التفكير البربري يستمد دلالته من انهاء الوجود الاسلامي في الاندلس ويطمع في ان يتكرر ذلك في المشرق •

ولكن كان هناك تفكير ذكي اتعظ بالهزائم العسكرية المتلاحقة التي مني بها الغرب ، ونقب عن السر العظيم لصلابة المسلمين وانتفاضاتهم المفاجئة ووجد السر فعلا انه الاسلام نفسه ولا شيء سواه •

" ووضع خطته الخبيثة بناء على هذه النتيجة ، خطة لا تقوم على ابادة المسلمين ولا على احتلال اراضيهم وانما تقوم على ابادة الاسلام نفسه واقتلاعه من نفوس ابنائه وضمائرهم ، او تقليص دائرته وعزله عن واقع الحياة • "

" واذ تحول الصراع من حرب المسلمين الى حرب العقيدة الاسلامية ذاتها تغيرت ملامح وجوانب المعركة : لم يعد ميدانها الرئيسي الارض ولكنه الأدمغة ولم تعد وسيلتها الوحيدة السيف بل الفكر ولم تعد جيوشها الاساطيل والفرق ولكنها المؤسسات والمناهج بالدرجة الاولى • "

" واكبر احتياطات هذه الحرب هو التكتم الشديد عن ذكر الاسلام او التصريح بعداوة المسلمين ، ولتتخذ المعركة ما شاءت من أسماء وشعارات بعد ذلك • لتوصف بانها معركة بين الشرق والغرب ، او بين اليمين واليسار او بين المصالح القومية ، ولتنعت بأى شيء عدا وصفها بانها " دينية " لان هذا

---

(٦) جلال العالم : قادة الغرب يقولون ••• : ٤٦
(٧) الغارة على العالم الاسلامي : ٣٧

الوصف جديد باستثارة الحمية الجهادية ، واستثارتها تعني فشل الخطة برمتها وتكرار مأساة حطين من جديد .

" واول من لفت انظار العالم الغربي الصليبي الى هذه الخطة هو القديس لويس ملك فرنسا وقائد الحملة الصليبية الثانية الذى هزم وأسر في المنصورة ثم افتدى نفسه وعاد الى بلاده ليوصي بني ملته بنصيحته الغالية : " يقول مؤرخو الغرب وعلى رأسهم المؤرخ " جوانفيل " الذى رافق لويس التاسع : انخلوته في معتقله بالمنصورة أتاحت له فرصة هادئة ليفكر بعمق في السياسة التي كان اجدر بالغرب ان يتبعها ازاء العرب المسلمين " .

فماذا ارتأى لويس بعد ان فكر وقدر ؟

لقد كانت معالم سياسته الجديدة واتجاهاتها وأسسها على النحو التالي :

اولا ـ تحويل الحملات الصليبية العسكرية الى حملات صليبية سلمية تستهدف ذات الغرض لا فرق بين الحملتين الا من حيث نوع السلاح الذى يستخدم في المعركة ...

ثانيا ـ تجنيد المبشرين الغربيين في معركة سلمية لمحاربة تعاليم الاسلام ووقف انتشاره ثم القضاء عليه معنويا واعتبار هؤلاء المبشرين في تلك المعارك جنودا للغرب .

ثالثا ـ العمل على استخدام مسيحيي الشرق في تنفيذ سياسة الغرب .

رابعا ـ العمل على انشاء قاعدة للغرب في قلب الشرق العربي يتخذها الغرب نقطة ارتكاز له ومركزا لقواته الحربية ولدعوته السياسية والدينية ، ومنها يمكن حصار الاسلام والوثوب عليه كلما اتيحت الفرصة لمهاجمته .

" وقد عين لويس التاسع لانشاء هذه القاعدة الاراضي الممتدة على سواحل البحر الابيض من غزة حتى الاسكندرية وتشمل فلسطين والاردن والبلاد المقدسة ثم لبنان ... " (٨)

---

(٨) عن معركة المصحف ، محمد الغزالي : ٢٠٤ ، ٢٠٦ ـ ٢٠٧ .

وقد قدر هذه النصيحة حفيده "نابليون" الذى اصدر عقب احتلالـه لمصر بيانا افتتحه ببسم الله الرحمن الرحيم وقال فيه :

" ان الفرنسيين انصار النبى قد قهروا البابا وفرسان مالطة فليصدقنا المصريون اذ قلنا اننا حقا مسلمون " .

" اذا لم توافقوا على ارائي فاسمحوا لي على الاقل ان اتوسل اليكم حاميا وصديقا للاسلام ولا يهمنى ان تعترفوا بى مسلما حقيقيا او تنكروا وجودى بتاتا فشعورى نحو عبيد الله لن يتغير " (٩)

بل حاول تشييد جامع كبير باسمه وكان يرتدى العمامة ويحضر احتفالات المولد ... الخ

اما اعماله الحقيقية التي قدم لأجلها من بلاده فما كانت لتخفى على بصير ، والدرس نفسه وعته بريطانيا عندما وقف رئيس وزرائها جلادستون في مجلس العموم البريطاني يتحدث عن خطة الاستعمار البريطاني في العالم الاسلامي فقال :

" ما دام هذا القرآن موجودا بين أيدى المسلمين فلن تستطيع اوربة السيطرة على الشرق ولا ان تكون هي نفسها في امان " (١٠)

من هذا المنطلق الماكر بدأت المخططات لأخراج الامة الاسلامية من دينها وتعريتها من مقومات وجودها وحملها ـ كما يقول جب ـ على العلمانية وانتظمت جيوش الغزو في ثلاثة اجنحة كبرى هي :

١ ـ قوى الاحتلال المباشر

٢ ـ المستشرقون

---

(٩) احمد جل الوحيد "نابليون المسلم : ٢٠ ، ٢١

(١٠) جلال العالم : قادة الغرب يقولون : ٣٨ .

٣ - المبشرون (كما يسمون) ؛

٤ - وجب ان نضيف جناحا رابعا هو : الطوائف اليهودية والنصرانية والباطنية في العالم الاسلامي .

اولا : قوى الاحتلال المباشر :

قدمت جيوش الاحتلال العسكرى الى العالم الاسلامي تقودها عقليات غير العقلية البربرية الصليبية فهي تتمتع بقسط كبير من الدهاء والخبث وهي تعرف سلفا ان لها اعظم من مهمة اجدادها ، وان نجاح هذه المهمة يتوقف على الدقة في تنفيذ الخطة الجديدة .

وقد قطفت اولى ثمرات الخطة عندما استطاعت ان تحارب جيوش الدولة العثمانية بأناس مسلمين ساروا في ركاب اللنبى حتى فتح القدس .

وهي اول حرب صليبية في التاريخ يكون قوامها مغفلون منتسبون الى الاسلام ؛ وبمقتضى اتفاقية " سايكس - بيكو " توزعت عساكر الصليبيين الجدد العالم الاسلامي عدا اجزاء قليلة وابتدأت دوائر الاستعمار تنفذ مخططها المرسوم . وتتلخص جهود هذا الجناح فيما يلي :

١ - القضاء على الحركات الاسلامية الجهادية كحركة المهدى في السودان وعمر المختار في ليبية وعبد القادر الجزائرى وعبد الكريم الخطابي في المغرب الاقصى واسماعيل الشهيد في الهند ، أما في مصر فقد اعدم الامام الشهيد حسن البنا بعد ان عجزت المخططات عن احتواء دعوته ، ثم ضربت الحركة بطريق غير مباشرة .

٢ - الغاء المحاكم الشرعية واحلال القوانين الوضعية محلها : لا تكاد جيوش الاحتلال تضع اقدامها على ارض اسلامية حتى تبادر بهذا العمل لانهم يدركون نتائجه البالغة .

واول قطر بدأ فيه الغاء الشريعة الاسلامية . كما يقول الاستاذ المودودى هو الهند ، فحتى سنة ١٧٩١ كانت الشريعة هي القانون العام فيها ولكن

الانجليز تدرجوا في الغائها حتى تم ذلك في اواسط القرن الماضي يلي ذلك ـ الجزائر التي بدأ الغاء الشريعة فيها عقب الاحتلال الفرنسي سنة ١٨٣٠ ثم مصر التي ادخل اسماعيل (عميل فرنسا) القانون الفرنسي فيها ولم تأت سنة ١٨٨٣ حتى كان نصيب الشريعة لا يتجاوز الاحوال الشخصية الا قليلا .

ثم تونس حيث ادخل الفرنسيون قانونهم سنة ١٩٠٦ ليتدخل حتى في الاحوال الشخصية وفي سنة ١٩١٣ وضعوا في المغرب قانونا مدنيا مماثلا لما في تونس . (١١)

أما بلاد العراق والشام فقد تاخرت في ذلك بسبب تبعيتها للقضاء العثماني الذي يعتمد على مجلة الاحكام العدلية ولم تلغ الشريعة الا بعد الغاء الخلافة وثبوت اقدام الانجليز والفرنسيين فيها .

٣ ـ القضاء على التعليم الاسلامي والاوقاف الاسلامية : ادرك المستعمرون ان اعظم وسيلة لابعاد المسلمين عن دينهم هو ان يكونوا جهلاء به ، واتعظوا بمصير " كليبر " (١٢) على يد طالب الازهر سليمان الحلبي ، وما ذاقوه من مقاومة في الهند والمغرب تزعمها علماء الشريعة وطلابهم . فوضعوا المخططات الماكرة لتقليص التعليم الديني تدريجيا واحلال التعليم اللاديني محله ، واشهر هذه المخططات مخطط كرومر ودنلوب في مصر الذى انتهج سياسة بعيدة المدى دقيقة الخطى في القضاء على الازهر ومعاهده وكتاتيب القرآن ، ووضع نموذجا خبيثا للدس على الاسلام وتشويه تاريخه خلال المنهج التعليمي ولا ادل على نجاح هذه الخطية من بقاء آثارها الى اليوم في مصر والدول العربية عامة " (١٣)

وفي العراق وضع المستر (كوك) خطة مماثلة حولت العلماء الى موظفين

---

(١١) انظر دفاع عن الشريعة : علال الفاسي : الفصل الثاني عشر .

(١٢) الحاكم العسكرى الفرنسى لمصر ايام احتلال نابليون .

بمديرية الاوقاف وحجة تنظيم الاوقاف اداريا ومنهجيا قضى على التعليم الديني الذى كان يعيش على اموال الاوقاف بل اقفلت الجوامع التي كان القرآن يحفظ فيها ٠ (١٤)

وفي بلاد المغرب كان الفرنسيون يحولون الجوامع والزوايا الى اصطبلات للخيول ومخازن للسلاح بعد طرد طلابها في الوقت الذى كان فيه التعليم اللاديني يدعم بكل وسيلة ٠ (١٥)

وبلغ هذا العمل قمته بالجامعات والكليات التي بنيت في اسلامبول والقاهرة وبيروت ولاهور وغيرها ـ تلك التي كانت ولا يزال ما بقى منها ـ لا دينية صرفة ٠

٤ ـ استخدام الطوائف غير الاسلامية واحياؤها : وهذه الخطوة من اخبث الخطوات وأعمقها دلالة ،فحيثما حل المستعمرون يقومون بنبش العقائد الميتة او تنظيم الطوائف غير الاسلامية ويمهدون لها السبل لتولى المناصب المهمة مثيرين حقدهم على المسلمين بالزعم بأن الفتح الاسلامي كان استعمارا لهم وان المسلمين متعصبون ضدهم الخ ٠٠ ففي بلاد الشام تعهدت فرنسا بدعم النصارى وسلمتهم الوظائف العليا ونظمت فلولهم في جمعيات ومؤسسات عسكرية ومدنية وعند انشاء الجامعة السورية ـ مثلا ـ عينت لها مديرا نصرانيا هو قسطنطين زريق ٠

اما الطوائف الباطنية فقد استطاعت بواسطة المستشرقين ان تبعث عقائدها وتنشر كتبها ،وسمى الفرنسيون " النصيرية " علويين واصطنعوهم عملاء لهم وحرضوهم على الالتحاق بالجيش حتى احتلوا قيادته العليا ، واخيرا استطاعوا ان يتحكموا في الاكثرية المسلمة وان ينظموا فرقا عسكرية حديثة خاصة بهم ٠٠

---

(١٣) انظر كتاب هل نحن مسلمون ،محمد قطب : ١٣٦ فما بعدها ٠

(١٤) انظر كتاب المخططات الاستعمارية : ١٤٨ فما بعدها ٠

(١٥) انظر الغزو الفكرى ، جلال كشك : ٤٨ ٠

وفي مصر اقيمت القضية نفسها " قضية التعصب " على قدم وساق وتحت ستار اللاتعصب واللاطائفية مكن للاقباط من بناء الكنائس والمدارس بكثرة وتولى المناصب الوزارية في الحكومة برعاية الانجليز، ومعروفة سيرة الخائن يعقوب القبطي الذى تعاون وقومه مع الفرنسيين حتى سموه " الجنرال يعقوب " (١٦)

وفي معظم دول افسريقية خرج الاستعمار مخلفا وراءه حكومة نصرانية تحكم شعوبا تصل نسبة الاسلام في بعضها الى ٩٩٪

اما الهند فقد تحول المسلمون فيها بعد الاستعمار من قوة حاكمة الى اقلية ضعيفة ينهشها الانجليز والهندوس والسيخ والبوذيون من كل جانب •

وهذا غير الطوائف التي احدثها الاستعمار لهدم العقيدة الاسلامية كالبابية والبهائية والقاديانية التي تتضح عمالتها له بمرور الايام • (١٧)

٥ ـ اصطناع العملاء من ابناء المسلمين : كان من النصائح التي قدمها القسيس زويمر للمبشرين قوله :

" تبشير المسلمين يجب ان يكون بواسطة رسول من انفسهم ومن بين صفوفهم لان الشجرة يجب ان يقطعها احد اعضائها " (١٨)

وقد نفذت هذه النصيحة في البلاد الاسلامية جميعها واستطاع ـ المستعمرون ان يكونوا من العناصر الضعيفة الايمان قوى منظمة بعضها احزاب سياسية وبعضها اتجاهات فكرية تربت على عين الاستعمار وسمعه وحشيت اذهانها بما أملاه اعداء الاسلام وظل الشعور بالنقص والتبعية للغرب هو احساسها الدائم •

واختير من تلك القوى افراد قدر المستعمر انهم افضل المطايا لـه

---

(١٦) انظر المصدر السابق ١٠٣

(١٧) انظر رسالة الماجستير التي قدمها الاخ احمد سعد حمدان بعنوان " عقيدة ختم النبوة والفرق المخالفة لها " •

(١٨) الغارة على العالم الاسلامي : ٨٠ •

فصنع لهم بطولات ضخمة وأثار حولهم الغبار الكثيف حتى خيل للامة أن على ايديهم مفتاح نهضتها وبناء مجدها فطأطأت لهم الرأس حتى اذا تمكنوا منها انزلـــوا بها من الذل والدمار وخراب العقيدة ما لم تذقه على يد اسيادهم •

وان كتاب " الرجل الصنم " (١٩) الذى كتبه ضابط تركي سابق ليقدم لنا واحدا فقط من هؤلاء الافراد المصطنعين نسج على منواله في عالمنا العربى كثير •

وليستدل على ذلك من ان القوى التي حكمت العالم الاسلامي بعـــد رحيل الاستعمار لم تكن الحركات الجهادية التي جابهت المستعمرين بل كانـــت احزابا وقوى مشـــبوهة ، تشهد اعمالها وآثارها بانها جنت على الامـــــــة ما لم يجنه الأعداء الساقرون مما يعطى الدليل الواضح على تنفيذ المخـــــطط اليهودى الصليبي قد وكل اليهم مع اختـــــلاف في الادوار وتنـــوع فـــي الاخراج •

٦ ـ تنفيذ توصيات المستشرقين والمبشرين والاشراف على انجـــــاح مهامـــهم وتذليل العقبات التي قد تعترض جهودهم • هذا غير الهـــــدف الظاهـــر للاســـــتعمار وهو اذلال العالم الاســـــلامي وتسخير ابنائـــــه وثرواته لاطماع المستعمرين !

---

(١٩) كتاب يتناول حياة مصطفى كمال اتاتورك باسلوب علمى وتحليل دقيق ، ترجمه الى العربية : عبدالله عبد الرحمن •

٢ ـ المستشرقون :

المستشرقون ادمغة الحملات الصليبية الحديثة وشياطين الغزو ـ الثقافي للعالم الاسلامي ، ظهروا في حلبة الصراع في فترة كان المسلمون فيها يعانون من الافلاس الحضاري والخواء الروحي وفقدان الذات مما جعل الفرصة سانحة لاولئك الاحبار الرهبان وجنود الصليبيين الموتورين كي يثأروا لهزائمهم الماضية وينفثوا احقادهم الدفينة .

واقتضت خطة وجودهم في عصر يمجد العلم ويضفي عليه قداسة الوحي في العصور السابقة ان يخلعوا عن كواهلهم مسوح الرهبان والاحبار وسلاح الميدان ويرتدوا لباس العلم ومسوح المعرفة ، ثم جندوا الاف المخطوطات ومئات المؤسسات الثقافية المختلفة لمعركة استئصال الاسلام وعكفوا في صوامع البحث يديرون الصراع المرير بخبث ودهاء .

وما كان ليغيب عن بالهم ان القضاء على الاشلاء الباقية من الكيان الاسلامي الضخم وسد كل الطرق التي قد تهيء لبعث الحياة فيها لا تتم الا بسلب الامة ذاكرتها متمثلة في تراثها العظيم وفي الوقت نفسه شن حرب نفسية شرسة لابادة ما لا يزال عالقا في اذهان المسلمين من عقائد الاسلام ومفهوماته ، وان لم تكن الابادة التامة فلتكم الزعزعة والتفتيت .

وتتلخص جهودهم العملية في هذه الفقرات التي يقتضي المقام ايجازها :

١ ـ الطعن في حقيقة الاسلام وحقيقة القرآن والنبوة فقالوا عن الاسلام انه تطوير محرف لليهودية والنصرانية ، أو هو جزء من مجموعة الاديان الشرقية تولد من احتكاك الوثنية العربية بأديان فارس والهند . وان القرآن من وضع محمد (صلى الله عليه وسلم) او هو من املاء راهب نسطوري تعلم محمد على يديه

مدة طويلة في الشام ! (أو هو نتف من نسخ التوراة والانجيل المهجورة وآراء ـ المتحنثين من العرب كورقة بن نوفل مع اقتباسات من الحكمة الشعرية لبعض المتأملين الروحانيين كأمية بن الصلت ... الخ ثم قالوا ان القرآن بعد وفاة محمد (صلى الله عليه وسلم) كان موزعا بين بعض الصحابة في العظام والجلود وجزء منه محفوظ في الصدور حفظا غير تام ولا متناسق وبعد سبعين سنة ـ اى بعد ان تبعثرت العظام والجلود وبعثرت الحفاظ ـ وجد المسلمون ان الضرورة تقتضي جمع القرآن فاجتمعوا (كما يجتمع رجال اللاهوت !) وأحضر كل منهم ما كان في حوزته منه واتفقوا على تنظيمه وتبويبه لكنهم تشاجروا في مواضع كثيرة واخيرا فرضت السلطة الحاكمة نسخة معينة واحرقت كل النسخ المخالفة بدون مبرر ونتيجة لذلك جاءت النسخة المعتمدة غير متحدة الموضوع ولا متناسقة السياق ـ بالاضافة الى كونها غير مرتبة فالسور التي وضعها ـ او جمعها او .. ـ محمد في أول ادعائه النبوة وضعت في اخرها بينما وضعت الاخيرة في اولها . الخ ثم يقولون ان اليسار الاسلامي ـ الشيعة والرافضة ـ ظل يحتفظ بنسخ اخرى تبلغ اضعاف النسخة المتداولة التي كان يعتقد ان قسما كبيرا منها قد فقد بسبب شاة تسللت الى موضعها فاكلت الجزء المتعلق بالخلافة والسياسة من بعد محمد !!

اما نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فقد قالوا عن تلقى الوحي انه نوبات من الصرع والهستيريا او نوع من العبقرية الشعرية في احسن تقديره او ان محمدا لم يكن الا اللسان المعبر عن المذهب الذى كان يعتقده الراهب بحيرا " وكان يمليه عليه في الصحراء العربية ويكتبه ثم يدعي انه وحي من الله .

وقالوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه انه كان مجهول النسب ولذلك دعى ابن عبد الله كعادة العرب فيمن يجهلون أباه ! وان اسمه الاصلي قثم فلما عبده العرب سموه محمدا للتقديس وانه كان (حاشاه صلى الله عليه وسلم) رجلا شهوانيا ومعاقر الخمرة .. بل تطرف بعض المستشرقين اليهوديين فقالوا انه شخصية خيالية !

أما الطعن في السنة فقالوا ان محمدا في حياته كان يعد كل ما يتكلم به قرآنا ، وبعد موته ونشوب النزاع السياسي بين المسلمين احتاجت الاطراف المتنازعة الى تأييد آرائها واذ لم تجد ما تؤيدها به من القرآن نسبت كل فرقة الى محمد أقوالا كثيرة لصالحها . ومن مجموع هذه الاقوال كتب علماء المسلمين بعد ثلاثة قرون - اى بعد ان يكون كل شيء قد ضاع واختلط - كتبا سميت كتب الحديث والسنة والزموا المسلمين بالايمان بها كالقرآن ، فاعتقدها المسلمون - باستثناء اليسار طبعا - وسموا اتباعها اهل السنة تمييزا لهم عن اليساريين !!

ثم يعمدون الى النقد المفصل للسنة فيطعنون في كبار حفاظها كأبي هريرة والزهرى ويقولون ان بعض الشخصيات كعروة بن الزبير - الذى يروى عن خالته عائشة أم المؤمنين شخصية خيالية !! (١) .

٢ - القول بان الاسلام استنفذ لأغراضه :

وهي دعوى تاتي في صور شتى ، منها وصف الاسلام بانه دعوة اخلاقية جاءت لانقاذ المجتمع العربي من عاداته السيئة كعبادة الحجارة ووأد البنات والسلب والنهب وشرب الخمر الخ ..

وتارة يوصف بانه حركة اجتماعية تهدف الى تغيير البنية الاجتماعية القبلية والاستبدال بها تركيبا اجتماعيا قوميا متحضرا للعرب .

ومرة يقال - وهو خاص بالمستشرقين الشيوعيين - ان الاسلام ثورة غير ناضجة ضد الطبقة التي كانت تسود المجتمع المكي تولدت من الصراع بين الطبقة الكادحة مثل محمد وبلال وصهيب والطبقة الرأسمالية امثال الوليد بن المغيرة وامية بن خلف .

---

(١) هذه الطعون وما سيليها مما لا يخفى على المطلعين لاستفاضتها ، وعلى سبيل التمثيل يحسن الرجوع الى دائرة المعارف الاسلامية مادة "اصول" ومادة "بحيرا" والى "حياة محمد" لكل من وليم موير واميل درمنغم ، ومحمد في مكة: مونتغمرى واط والحضارة الاسلامية : آدم متز ، الصوفية في الاسلام : نيكلسون ، دراسات في حضارة الاسلام : جب ، العقيدة والشريعة : جولد تسيهر .. وما شاكلها .

وأقوال اخرى مؤداها اعتبار الاسلام ظاهرة معينة في فترة زمنية محددة يجب ان يدرس وينظر اليها كما لو كان قطعة من الأحافير القديمة لا علاقة لها مطلقا بالواقع المعاصر .

٣ ـ القول بان الاسلام طقوس وشعائر روحية او على احسن الاحوال دين بالمفهوم الغربي الضيق ، فلا دخل له بأمور الحكم والحياة الاجتماعية والنشاط الاقتصادي .. الخ

وقضية الخلافة بدعة لا اساس لها في الاسلام ، ومحمد انما جاء ليؤسس دينا ولم يكن يهدف الى تكوين دولة .. وعندما خرجت جيوش الاسلام الاولى لم يكن هدفها الا السيطرة على المستعمرات الرومانية الخصبة واكراه اهلها على الاسلام لكن العرب الفاتحين اعجبوا بالتنظيمات السياسية والادارية التي كانت لدى الروم فاقتبسوها منهم ثم ادخلوها في صلب عقيدتهم بغرض التلبيس على العوام وضمان استمرار نفوذهم . ومنذ ذلك الحين ظهرت البدعة القائلة ان الاسلام دين ودولة في آن واحد !!

٤ ـ القول بان الفقه الاسلامي مأخوذ من القانون الروماني :

وهي دعوى مركبة على الدعوى السابقة هدفها اسقاط توحيد الالوهية من جهة وتهوين شأن الاخذ من القوانين الوضعية من جهة اخرى فما دام الفقه القديم مستقى من اصول اوربية فما المانع اليوم من الاقتباس من القوانين الاوربية كالقانون الفرنسي او السويسري .. الخ .

٥ ـ الادعاء بان الشريعة الاسلامية لا تتلاءم مع الحضارة :

وواضح ان هذا الادعاء يقوم على استغلال الشعور بالنقص والاحساس بالتخلف الذي وخز الامة الاسلامية عند احتكاكها بالحضارة الاوربية ، فقالوا ان الاسلام دين قبلي صحراوي وشعائره وتشريعاته لا تنسجم مع الحياة العصرية المتمدنة ، وكيف يصح ان يعيش الانسان في عصر الصواريخ والطائرات

على شريعة الصحراء والجمال ،بل ان هذه الشريعة نفسها هي سبب التخلف وداء الشرق العضال ، وان السبيل الى التطور والحضارة لهو نبذ محمد وكتابه .

٦ ـ الدعوة الى نبذ اللغة العربية وهجر حروفها واساليبها :

وهي دعوى موازية للدعوى السالفة وتحتج بالحجة نفسها ـ عدم ملاءمتها للحضارة ـ وغرضها مسخ الامة وقطع صلتها بدينها نهائيا ، ومنها تفرع القول بأن النحو العربي غير علمي وافتعال التضاد بين قواعد النحو واللغة وبين اساليب القرآن بقصد هدم الاثنين .

والزعم بان الشعر الجاهلي وكثيرا من شعر صدر الاسلام منحول و لان اللغة والتفسيرات يستمدان الشواهد منه .

٧ ـ اثارة ما سمى " قضية تحرير المرأة " :

وهي دعوى ركز عليها اولئك لعلمهم بنتائجها المتعددة التي منها الطعن في الشريعة ذاتها لانها سبب احتقار المرأة بزعمهم ، ونشر الاباحية والانحلال في المجتمع الاسلامي ، والقضاء على الاسرة الذى يؤدى الى تجهيل النشء بدينه ويتيح لهم الفرصة لتربية ابناء الاسلام كما يشاؤون ، فقالوا ان الاسلام يحتقر المرأة لذاتها ولا يجعل لها قيمة معنوية سوى الاستمتاع المجرد ، وانه يبيح بيع وشراء وسبى النساء وانه يوجب على المرأة ان تعيش وتموت جاهلة مهملة بما يفرض عليها من الحجاب ، ويعد حقها في الترفيه والاستمتاع عارا شنيعا في حين يتاح للرجل كل وسائل اللذة بالتسرى وغيره ...

ومزاعم اخرى كثيرة كان الواقع السيء يمدهم بأدلتها ويسهل لهم اثارتها .

٨ ـ تهوين شأن الحضارة الاسلامية وتشويه تاريخها :

يزعم المستشرقون ان اعظم مآثر المسلمين الحضارية هو نقل التراث اليوناني ـ نقله فقط وحفظه من الضياع ـ وان روائعهم العمرانية مقتبسة من الفن البيزنطى ..الخ

اما تشويه التاريخ الاسلامي فلم يدعوا وسيلة لذلك الا سلكوها حتى سلبوه كل فضائله ، وحصروه في الناحية السياسية ليصبح سلسلة من المشاحنات والمؤامرات والدسائس ، ثم كرسوا الحديث عن الحكام في موضوعات الحريم والجوارى والشعراء وعمدوا الى عظمائه في الحرب والسلم فوصفوهم بالجمود والتزمت ومعاداة التحضر ، واتخذوا من الخزعبلات المدسوسة في التراث مصادر لتشويه سيرهم ، ومن هنا بذلوا جهودهم لترجمة ونشر تلك الخزعبلات ومنح الدرجات العليا للباحثين فيها ، وكانت ثمرة ذلك كله ان مفهوم الحضارة الاسلامية لا يتجاوز عند غالبية المثقفين معنى كلمة " فولكلور " .

٩ ـ بعث الحركات الهدامة والطوائف الضالة وتضخيم ادوارها :

هذا العمل جزء من تشويه تاريخ الإسلام الا انه استأثر باهتمام بالغ منهم لانه يحقق اغراضا كثيرة في آن واحد ، فقد حرصوا على تجديد الغزو الفكرى البائد الذى نظمته الطوائف والفرق المنحرفة كالباطنية بفروعها المتعددة من اسماعيلية وقرامطة وبابكية ، والعبيديين المسمين فاطميين ، والزنج اصحاب الثورة المعروفة ، والدروز ، والمتصوفين وفرقهم ، مع العناية الخاصة بالشخصيات الضالة كالحلاج وعبد الله بن سبأ وعبد الله بن ميمون القداح والحاكم العبيدى .. .. الخ هذا غير الفرق التي احدثت للغرض نفسه كالقاديانية والبابية وفروعهما .

١٠ ـ نبش الحضارات القديمة واحياء معارفها :

تخصص عدد من المستشرقين في هذا المضمار ، فعكفوا على دراسة اللغات البائدة ، والتنقيب عن آثار الغابرين ، ولفقوا من رفات هذه ما أسموه التاريخ الحضارى للعرب ثم مدوا آثار تلك الحضارات الى العصر الحاضر ، فبدا الفتح الاسلامي وحضارته نشازا في هذه السلسلة ، او في احسن الاحوال عاملا من بين عوامل عدة ، ومن امثلة ذلك بعث الفرعونية في مصر والفينيقية والاشورية في الهلال الخصيب والحميرية في اليمن ، واختلقوا القومية الطورانية لحساب الجمعيات

السرية التركية ـ كما سيأتي ـ ونجم عن ذلك نتائج خطيرة : منها تحسين سمعة الجاهلية وتمجيد طواغيتها الغابرين ، وبث النعرات الانفصالية وقطع صلة الامة بماضيها الحقيقي ، او على الاقل باشغالها عنه ، وتهيئة النفوس لتقبل امكان قيام الحياة المتحضرة بدون الاسلام كما عاشت تلك الحضارات قبله .

١١ ـ وضع منهج لا ديني للبحث العلمي :

لو لم يكن من ثمرة جهودهم الا ذلك لكفى ، فان جامعات العالم الاسلامي المعاصرة تدرس التراث الاسلامي وفق ذلك المنهج الذى يتمسح بالموضوعية والحياد العلمي وهو أبعد ما يكون عنهما ، ومن اوضح واقرب الامثلة على ذلك ما نلحظه في كتابات كثير من الباحثين المسلمين من اصرار على استعمال عبارة قال القرآن عند ايراد الايات احترازا من قول " قال الله " واطلاق لفظة " محمد " تماما كما يستعملها المستشرقون بدون ذكر الرسالة او الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم .

ومع كون هذا المنهج لا دينيا فهو في الوقت نفسه علمي لانه غالبا يدور على هذه الاسس :

١ ـ " يعمل المستشرقون على اخضاع النصوص للفكرة التي يفرضونها حسب اهوائهم والتحكم فيما يرفضونه من النصوص وكثيرا ما يحرفون النص تحريفا مقصودا ويقعون في سوء الفهم ـ وعن عمد احيانا ـ حين لا يجدون مجالا للتحريف .

٢ ـ " يتحكم المستشرقون في المصادر التي يختارونها فهم ينقلون من كتب الادب ما يحكمون به في تاريخ الحديث النبوى ، ومن كتب التاريخ ما يحكمون به في تاريخ الفقه ، ويصححون ما ينقله الدميرى في كتاب (الحيوان) ويكذبون ما يرويه الامام مالك في الموطأ " (٢) ويهاجمون صحيح البخارى ويمجدون كتاب الاغاني والف ليلة وليلة .

وعلى الرغم من ذلك سرت عدوى هذا المنهج في ابناء المسلمين الى حد يثير الريبة والعجب . وقبل ان نختتم الكلام عن اساليب المستشرقين ينبغي

---

(٢) اساليب الغزو الفكرى : على جريشة : ٢٤ـ٢٥

ان نشير الى ان اعمالهم تسير وفق خطة مدروسة ولذلك فهي تتغير تبعا لمقتضيات التغير ، بعد تقييم نتائج المرحلة السابقة ، ولذا فلا غرابة ان تختفي من كتبهم الاساليب الاستفزازية والطعن المكشوف اذ يبدو ان خطة " احتواء الفكر الاسلامي " هي المعمول بها حاليا •

وايا ما كانت النتائج فان ما اضطلع به هؤلاء من مهمة تدمير المقومات الاسلامية وتمهيد الارضية الفكرية التي تقوم عليها الحياة اللادينية في الشرق ـ قد آتى أكله في اكثر من ميدان •

٣ ـ المبشرون :

كما ان للمستشرقين والمبشرين اهدافا مشتركة فان لهم وسائل متداخلة ويمكن القول بان ميدان المستشرقين الاساسي هو الثقافة والفكر ، بينما يركز المبشرون جهودهم في النواحي الاجتماعية والتربوية •

وليس غريبا ان يجهل المسلمون الدوافع الحقيقية للتبشير فقد كان يجهلها بعض اتباع الارساليات التبشيرية انفسهم ، اذ لم يكن الجميع يدركون ابعاد الخطة الجديدة ومراميها بل كانت العقلية الصليبية التي استثيروا بها من بلادهم لا توحي لهم بكل ذلك •

وهذا ما اضطر القس زويمر ـ رئيس مؤتمر القدس التبشيري ـ الى ايضاح ذلك فقال :

" ايها الاخوان الابطال والزملاء الذين كتب الله لهم الجهاد في سبيل المسيحية واستعمارها لبلاد الاسلام ، فأحاطتهم عناية الرب بالتوفيق الجليل المقدس ، وان كان يخيل الى انه مع اتمامكم العمل على اكمل الوجوه ، لم يفطن بعضكم الى الغاية الاساسية منه " " اني اقركم على ان الذين أدخلوا من المسلمين في حظيرة المسيحية لم يكونوا مسلمين حقيقيين ، لقد كانوا

كما قلتم " احد ثلاثة : اما صغير لم يكن لاهله من يعرّفه ما هو الاسلام او رجل مستخف بالاديان لا يبغى غير الحصول على قوته وقد اشتد به الفقر وعزت عليه لقمة العيش ، وآخر يبغى الوصول الى غاية من الغايات الشخصية . ولكن مهمة التبشير التي ندبتكم دول المسيحية بها في البلاد المحمدية ليست هي ادخال المسلمين في المسيحية فان في هذا هداية لهم وتكريما (!) وانما مهمتكم ان تخرجوا المسلم من الاسلام ليصبح مخلوقا لا صلة له بالله ، وبالتالي لا صلة تربطه بالاخلاق التي تعتمد عليها الامم في حياتها ، وبذلك تكونون انتم بعملكم هذا طليعة الفتح الاستعمارى في الممالك الاسلامية ، وهذا ما قمتم به في خلال الاعوام المائة السالفة خير قيام ، وهذا ما هنئكم عليه وتهنئكم دول المسيحية والمسيحيون جميعا كل التهنئة " .

" لقد قبضنا ايها الاخوان في هذه الحقبة من الدهر من ثلث القرن التاسع عشر الى يومنا هذا على جميع برامج التعليم في الممالك الاسلامية ونشرنا في تلك الربوع مكامن التبشير والكنائس والجمعيات والمدارس المسيحية الكثيرة التي تهيمن عليها الدول الاوربية والامريكية " .

" والفضل اليكم وحدكم ايها الزملاء انكم اعددتم بوسائلكم جميع العقول في الممالك الاسلامية الى قبول السير في الطريق الذى مهدتم له كل التمهيد . "

" انكم اعددتم نشئا (في بلاد المسلمين) لا يعرف الصلة بالله ولا يريد ان يعرفها واخرجتم المسلم من الاسلام ولم تدخلوه في المسيحية وبالتالي جاء النشء الاسلامي طبقا لما اراده الاستعمار المسيحى لا يهتم بالعظائم ويحب الراحة والكسل ولا يصرف همه في دنياه الا في الشهوات . فاذا تعلم فللشهوات واذا جمع المال فللشهوات وان تبوأ اسمى المراكز ففي سبيل الشهوات يجود بكل شيء " .

" ان مهمتكم تمت على اكمل الوجوه وانتهيتم الى خير النتائج وباركتكم المسيحية ، ورضى عنكم الاستعمار ، فاستمروا في اداء رسالتكم فقد اصبحتم بفضل جهادكم المبارك موضوع بركات الرب " (١)

اما الوسائل المستخدمة لذلك فهي كثيرة نذكر منها :

١ ـ ادخال من استطاعوا من المسلمين في الديانة النصرانية ـ وهذا وان لم يكن الغاية الاساسية ـ كما قال زويمر ـ فهو يؤدي الى زعزعة ايمان الاخرين وتثبيط هممهم ، والواقع ان الكنائس النصرانية تغتبط بذلك جدا لأنه اخذ بالثأر من الاسلام الذى اجتاح ديارها قديما ، كما انه نوع من التعويض الايسخ للخسارة الفادحة التي انزلتها اوربا الحديثة بالمسيحية .

٢ ـ فتح المحاضن والمدارس والكليات والجامعات في انحاء العالم الاسلامي : ولو اننا اخذنا مثالا على ذلك افريقية وحدها فسوف نجد ان ارقاما مذهلة للمراكز التعليمية فيها : فهناك معاهد تعليمية يبلغ عددها ٦٧١ و ١٦ معهدا اما الكليات والجامعات فتبلغ ٥٠٠ كلية وجامعة ، ويبلغ عدد المدارس اللاهوتية لتخريج القسس والرهبان والمبشرين ٤٨٩ مدرسة ، اما رياض الاطفال فيتجاوز عددها ١١١٣ روضة .

ويبلغ عدد ابناء المسلمين الذين يشرف المبشرون على تعليمهم وتربيتهم وتوجيههم اكثر من خمسة ملايين (٢)

٣ ـ تحطيم عقيدة الولاء والبراء : تلك التي تمثل حاجزا نفسيا منيعا في نفوس المسلمين تجاه الكفار ، وذلك باخفاء الدوافع التبشيرية تحت ستار المساعدات ـ الانسانية ، فقدموا المعونات الطبية والغذائية ، وأدخلوا بعض وسائل المدنية

---

(١) عن جذور البلاء : ٢٧٥

(٢) اين محاضن الجيل المسلم : يوسف العظم : ٣٤ـ٣٥ ويحسن الرجوع الى رسالة الماجستير المقدمة من الزميل : خضر مصطفى عن التبشير في نيجريا .

مستغلين واقع المسلمين الذى هو احوج ما يكون الى مثل هذه المعونات والوسائل •

وقد ركز المبشرون اهتمامهم في السنوات الاخيرة على اندونيسيا وبنغلاديش كما ابتدأوا في اليمن بنشـــاط مستغلين الفقر الذى يعم هذه الدول •

٤٤ ـ الاهتمام بافساد الريف الاسلامي :

ان جهود المستشرقين مهما عظمت تظل محصورة في نطاق الثقافـــة والمثقفين ، ولذلك اهتم المبشرون بالريف الذى يتميز بمحافظته على التقاليـــد الاسلامية ،مما يجعله اقل تقبلا للافساد ، الا ان تفشى الجهل والمرض وغلبـــة العوز على ابنائه يتيح لهم مناخا مناسبا ،فانشأوا المراكز الاجتماعية والصحية والمهنية واسسوا المدارس والمحاضن المختلفة ونظموا برامج توطين البدو ومحو الامية بين الكبار بهدف النفاذ الى عقول اكبر قدر ممكن من طبقات وقطاعات الشعب •

٥ ـ التركيز على افساد المرأة المسلمة :

رأى المبشرون ان حجاب المرأة المسلمة يقف سدا منيعا دون افسادها وبالتالي افساد الاجيال المؤمنة ، فبذلوا كل جهودهم لاخراجها من حرزها الذى لم يستطيعوا اقتحامه عليها ، ولا شيء يعدل التعليم في ذلك ، ولهذا قالت احدى المبشرات :

" في صفوف كلية البنات في القاهرة بنات آباؤهن باشاوات وبكوات ، وليس ثمة مكان اخر يمكن ان يجتمع فيه مثل هذا العدد من البنات المسلمات تحت النفوذ المسيحى ، وليس ثمة طريق الى حصن الاسلام اقصر مسافة من هـــذه المدرسة " (٣)

كما سخروا اجهزة الاعلام المختلفة وانشأوا مراكز الفساد تحت ستار الترفيـــه او الفنون للغرض نفسه •

٦ ـ السيطرة على وسائل التربية والاعلام والتوجيه ، واستخدامها لنشر سمومهم وتوهين العقيدة الاسلامية في النفوس ، وعرض الشبهات حول كمال وصلاحية الشريعـــة

---

(٣) المخططات الاستعمارية لمكافحة الاسلام : الصواف : ٢٢٠ •

اوعلى الاقل الانحراف بهذه الوسائل عن مقاصدها الصحيحة الى العبث واللهو ، مع صرف العناية الى الاطفال والنفاذ الى عقولهم من خلال تلك الوسائل .

٧ ـ تشجيع تحديد النسل :

تلك البدعة التي لم يعرفها المسلمون قبل قدوم هؤلاء ، وهي جزء من مخطط الغرب الرامي الى ضمان سيطرته على الاجناس غير البيضاء والمسلمين بصفة خاصة ، لانهم ـ مع كونهم عدوه الألد ـ اكثر امم الارض تناسلا والايحاء المستمر لهم بان سبب الضائقات الاقتصادية ينحصر في زيادة نسبة المواليد ، هذا في الوقت الذى يشجع فيه المبشرون الطوائف غير الاسلامية كالاقباط والموارنة على الاكثار من النسل .

٨ ـ استهلاك جهود العلماء والدعاة في مقاومة افكار التبشير ووسائله مما يضيق عليهم الفرصة للعمل والبناء ، ويعطل جهودهم المثمرة .

٩ ـ مراقبة العالم الاسلامي والتجسس عليه وجس نبض الامة ورصد الحركات الاسلامية ، وقد ثبتت صلة الارساليات التبشيرية بدوائر الاستخبارات الدولية وهذا هو المفروض والمتوقع ما دامت الغاية واحدة .

.. .. ..

.

٤ ـ نصارى العرب :

ليس غريبا ان يكون اول من دعا الى العلمانية بشعارها الصريح او تحت اسماء اخرى كالقومية والوطنية هم نصارى الشرق ، فان الحياة المطمئنة التي كفلها لهم المجتمع الاسلامي ـ بل المحاباة الزائدة في الكثير من الاحيان ـ لم تكن لتطفئ نار الحقد المتأججة في صدورهم ، واذ كانوا يدركون ان هيمنة الشريعة الاسلامية هي العائق الاكبر لشفاء غيظهم ونفث احقادهم فقد استماتوا في سبيل انهاء هذه الهيمنة واحلال الانظمة اللادينية محلها • وانطلاقا من ذلك وجد المخطط اليهودى الصليبي فيهم بغيته المنشودة لهدم الخلافة الاسلامية وبالتالي القضاء على الحكم الاسلامي بعزل الشريعة عن ميدان الحياة وتوجيه المجتمع (راجع البند الثالث من مخطط لويس التاسع) •

ولم يكن يخفى على هؤلاء ما ألحقته العلمانية بدينهم في أوربا ، بل ان ذلك هو الدافع للمناداة بها في الشرق لكي تقضى على الاسلام ايضا •

صحيح ان انتشار العلمانية سوف يؤثر على النصرانية ايضا مهما بذلت الاحتياطات ، ولكن ما دامت تقضى على الاسلام فلا بأس ، على حد قول الشاعر :

اقتلوني ومالكا واقتلوا مالكا معي

وجهود نصارى الشرق في هذا المضمار كثيرة لا يتسع المجال لتفصيلها ، ولكن يمكن تقسيمها قسمين :

١ ـ الاعمال السياسية :

وقد كانوا على صلة وثيقة بالجمعيات الهدامة في الغرب وشبكات الجاسوسية العالمية ، ولذلك كونوا الجمعيات السرية التي تناهض الخلافة الاسلامية وتدعو الى حكومة لادينية وطنية او قومية ، من هذه الجمعيات : جمعية بيروت (فارس نمر) وجامعة الوطن العربي (نجيب عازورى) والجمعية القحطانية ، ثم الحزب القومي السورى (انطون سعادة) واخيرا حزب البعث (ميشيل عفلق) ..(١)

(١) تراجع الرسالة المقدمة من الزميل صالح العبود بعنوان القومية العربية في ضوء الاسلام •

٢ ـ الاعمال الفكرية :

كان هؤلاء اول من نشر الثقافة والفكر الغربيين مستخدمين الوسائل الحديثة لا سيما الصحافة ، فأصدروا صحفا كثيرة منها : الجنان والمقتطف والهلال ، وكان محرروها أمثال نصيف اليازجي ويعقوب صروف وجرجي زيدان يمثلون طلائع اللادينية في الشرق الاسلامي .

واتجه قسم منهم الى التراث والتأليف الموسوعي اتجاها يشابه طريقة المستشرقين فألفوا المعاجم اللغوية والقواميس للترجمة وبعض الموسوعات والبحوث ، ومن هؤلاء احمد فارس الشدياق (٢) وبطرس البستاني ولويس شيخو ـ

وبعضهم انكب على الفلسفات الغربية فنشر مؤلفاتها ومجد زعماءها ودعا العرب الى اعتناقها واقامة حياتهم على أسسها ، من هؤلاء شبلي شميل الداروني المتطرف وسلامه موسى .

كما ظهر منهم شعراء أذكوا بشعرهم الحماس القومي ضد الاسلام مثل ابراهيم اليازجي وبشارة الخوري والشاعر القروي وشعراء المهجر .

ويعترف البرت حوراني بأنه " قد نادى بفكرة مجتمع قومي علماني فريق من الكتاب المسيحيين (٣) السوريين ، وينقل عن احدهم (شبلي شميل) قوله :

" ليس الحكم الديني والحكم الاستبدادي فاسدين فحسب بل هما غير طبيعيين وغير صحيحين ، فالحكم الديني يرفع بعض الناس فوق سواهم ويستخدم السلطة لمنع نمو العقل البشري نموا صحيحا ... وهما يشجعان العقل على البقاء في حالة الجمود وبذلك يعرقلان التقدم التدريجي الذي هو ناموس الكون ، لكن بالامكان تصور نظام للشرائع والحكم يقوم على نواميس الكون ويسمح

---

(٢) يقال انه أسلم اخر عمره والله اعلم .

(٣) القومية العربية في ضوء الاسلام : ٨٠ .

"المكون ان يستمر وللانسان أن يعيش وفقاً لطبيعته"

بالتالي لتطور النمو الى ان يقول " والامم تقوى بمقدار ما يضعف الديـــن . فهذه اوربا لم تصبح قوية ومتمدنة فعلا الا عندما حطم الاصلاح والثورة الفرنسية سلطة الاكليروس على المجتمع وهذا يصح ايضا على المجتمعات الاسلامية " (٤)

ويتحدث شحن فرح انطون بانه " كان هدفه السياسي شبيها بهدف الشميل سواء من كتاب عصره اللبنانيين ذلك انه توخى وضع أسس دولة علمانية يشترك فيها المسلمون والمسيحيون على قدم المساواة التامة " وينقل عنه قوله " ان العالم قد تغير فالدول الحديثة لم تعد قائمة على الديـن بل على امرين : الوحدة الوطنية وتقنيات العلم الحديث " .

وقوله " اما في العصر الحديث فالوحدة تتم بخلق الولاء القومي والفصل بين السلطة الدينية والسلطة المدنية " (٥)

وصدر مثل هذه الدعاوى عن معظم الكتاب والصحفيين النصارى وبامكان المرء ان يلمس شيئا من ذلك في اى كتاب لسلامة موسى أو مقال لأمير بقطر مثلا .

أما الجمعيات والاحزاب السياسية فغير خاف ما تقوم عليه أسسها وشعاراتها من تنكر للاسلام ودعوة صريحة الى اللادينية .

وقد اتخذت الانظمة المعادية للاسلام من الاقليات النصرانية ذريعة لرفع الشعار العلماني " الدين لله والوطن للجميع " (٦) ومنع تطبيق الشريعة الاسلامية .

---

(٤) المصدر السابق : ٨٣ ـ ٨٤ .
(٥) = = : ٨٦ .
(٦) انظر المسيحية والقومية العربية عيادى العبد الميادى : ١٢ .

هذه هي المعالم الرئيسية للمخطط اليهودى الصليبي ، وهو بـلا شك مخطط ذكي خبيث يملك من وسائل التأثير وفرص العمل ما يفوق به الحملات الصليبية السالفة ، فهو فكر تدعمه القوة وحضارة يمدها العلم ونضال يحكمه النظام •

غير ان ذلك كله لا يعني ان نلقى عليه تبعاتنا وننسب اليه انهيارنـا كأنما هو قوة اسطورية اجتاحتنا بغتة دون أن نستطيع لدفعها يدا •

اننا ـ كما سبق ـ لم نؤت الا من قبل انفسنا وما غوقبنا الا بما كسبت ايدينا ، نحن الذين اعطينا الكفار الفرصة ليخططوا ضدنا وأسهمنا بعللنا وأدوائنا في انجاح مخططاتهم • ان الله تعالى يقول " وان تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا " فلولا افلاسنا من الصبر والتقوى ، بل ومن الايمان والتصور السليم ما كان لهذه المخططات من أثر ، وان كان فهو كالجرح الذى سرعان ما يندمل او الاغفاءة تعقبها الوثبة •

وحين نقول اننا كنا مسلمين حقيقيين حتى جاء الكفار فأفسدوا علينا ديننا ودنيانا فاننا لا نكون مخطئين في تصورنا فحسب ، بل نكون قد قطعنا على انفسنا الطريق الصحيح للعودة • ذلك الطريق الذى يبدأ أساسا من معرفتنا باننا كنا منحرفين ، وفهمنا لأسباب ومظاهر الانحراف والاستقامة •

وسوف نرى مصداق ذلك في الفصل التالي حيث نعرض مظاهر العلمانية في العالم الاسلامي ، وسيتضح من خلال العرض ان تلك المظاهر ما كانت لتوجد لولا العوامل الذاتية الكامنة في انفسنا ومجتمعاتنا •

•• •• ••

البـــاب الرابـــع

الفصـــل الثانـــى

مظاهر العلمانيـــة في الحيـــاة الاسلاميـــة

أولا ـ في الحكم والتشـريع :

روى الامام احمد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " لينقضـن الاسلام عروة عروة ، فكلما انتقضت عروة يتشبث الناس بالتي تليهـا وأولهن نقضـا الحكم وآخرهن الصـلاة " (١) .

ولقد بدأ الانحراف في تصرفات الحكام المسلمين قديما غير ان النقـض الواعى لهذه العروة لم يظهر الا في العصر الحديث حين بلغ المسلمون قـرارة الضعف وغاية التدهور . كان الاسلام طيلة القرون السابقة أعمق في النفـوس مـن أن يستبدل به أى منهج آخر ، وكانت الجاهلية أحقر من أن تطاولـه أو تطمـع في أبنائه .

غير ان الحال في العصر الحديث قد انعكس تماما فلم يبق مـن الاسلام ـ واقعيا ـ الا تلك التصورات الخاطئة التي سلف الحديث عنها وفـي الوقت نفسه كانت الجاهلية الاوربية المنتفشـة تتولى قيادة الفكر البشرى وتوجيـه الحضارة الانسانية ، ونتيجة لهذا الوضع المزدوج تسربت العلمانية الى العالـم الاسلامي وانتقضت تلك العروة الكبرى .

فمن الوجهة السياسية لم يكن في العالم الاسلامي شيء يمكن ان يسمى الوعى السياسى بل كان الأمر متروكا لأهواء الحكام حتى ان الوصف الذى يطلقـه بعض الباحثين الغربيين على حال المسلمين في القرن الماضي ـ رغم ما فيه من مبالـغة ـ ليس بعيدا عن الصحة ، ومن ذلك قول أحدهم :

---

(١) المسند ٢٥١/٥

" قد كتبت شريعة موجزة في جبهة كل شرقي ـ شريعة ليس لها مثيل في الوصايا الاوربية العشر ، وهى : عليك أيها الرجل الشرقي أن تجل الرجل الذى يقيمه الله عليك ملكا وتقدسه وتعبده ، فاذا أحبك أحبه واذا استلب أموالك ومتاعك واضطهدك شر اضطهاد فأحبه على ذلك ايضا ، واياك ان تحول عن هذا له ، لأنه سيدك وأنت عبده ، ومولاك المتصرف بك تصرف صاحب الأمانة في أمانته " (٢) .

ومن الوجهة التشريعية كان القضاء ـ غير المنظم ـ في العالم الاسلامي يعتمد على الشروح والحواشي والمختصرات المتأخرة التي كانت اقرب الى الطلاسم والمعميات الى حد جعل الذين يفقهونها ـ لاسيما مع الركود العلمي العام ـ قلة ضئيلة ، ثم انها في الحقيقة لم تكن المصدر الوحيد للتشريع فبجانبها كانت أهواء ذوى السلطة وأعراف المجتمع وتقاليد القبيلة ... الخ

واذ كان سبب هذا الواقع المؤلم هو ـ كما سبق ـ الانحراف في تصور الاسلام وفهمه وبالتالى في تطبيقه وتحكيمه ، فقد كان الحل الوحيد الصحيح للمشكلة هو العودة الى الاسلام ايمانا جازما وعقيدة خالصة وتطبيقا كاملا .

لكن هذه العودة لم تقع بل كان انحراف أخطر وأعظم أنتجه الشق الثاني من الأزمة وهو تفوق الجاهلية وسيطرتها العامة .

هذا التفوق وتلك السيطرة كانا دون شك مذهلين في كل ميدان . ولكن المسلمين ـ المتخلفين فهما وواقعا ـ رأوهما أعظم بكثير جدا من حقيقتهما الى حد أن الصدمة النفسية التي حاقت بالأمة الاسلامية احتاجت الى عشرات السنين لتخفيف آثارها والى الكثير من المحاولات والتجارب المتدرجة .

وفي النماذج التي سيقت سلفا عن امكان تقبل المسلمين الذاتي للعلمانية

---

(٢) ستودارد ، حاضر العالم الاسلامي : ٤١/٤

ما يوضح هذه الحقيقة .

ومن أهم القضايا التي يجدر الانتباه اليها أن الانحراف غير المقصود ابتدأ من منطلق التخلص من جمود الفقه الاسلامى أمام التغيرات الحيوية الجديدة ، ومن توهم المسلمين بأن سبب تخلفهم هو عجزهم التنظيمى والادارى وأن محاكاة أساليب الحياة الغربية جديرة بالقضاء على ذلك التخلف ، وعلى هذا الأساس قامت الحركة المسماة " حركة الاصلاح " في جناحى العالم الاسلامى تركية ومصر .

في تركيـــة :

في سنة ١٢٥٥ هـ ١٨٣٩ م أصدر السلطان عبد المجيد مرسومه الشهير : " لا يخفى على عموم الناس أن دولتنا العلية منذ مبدأ ظهورها وهى جارية (على) رعاية الأحكام القرآنية الجليلة والقوانين الشرعية المنيفة بتمامها ، ولذا كانت قوة ومكانة سلطنتنا السنية ورفاهية وعمارية أهاليها وصلت حد الغاية ، وقد انعكس الامر منذ ١٥٠ سنة بسبب عدم الانقياد والامتثال للشرع الشريف ولا للقوانين المنيفة بناء على طرو الكوارث المتعاقبة والأسباب المتنوعة ، فتبدلت قوتها بالضعف وثروتها بالفقر .. واعتمادا على المعونة الالهية .. قد رؤى من الآن فصاعدا أهمية لزوم وضع وتأسيس قوانين جديدة ـ تتحسن بها ادارة ممالك دولتنا العلية المحروسة ، والمواد الأساسية لهذه القوانين هي عبارة عن الأمن على الأرواح وحفظ العرض والناموس والمال وتعيين الخراج وهيئة طلب العساكر للخدمة ومدة استخدامهم .. " (١)

والحق ان الاصلاح كان ضروريا جدا ، وليس لأحد أن يعترض على الفكرة في ذاتها ، ولكن ما صاحبها من سوء الفهم وغبش التصور بالاضافة الى

---

(١) تاريخ الدولة العلية العثمانية : ٢٥٤ .

مرونة الاصطلاح وسعة مدلولاته ،كل ذلك أدى آخر الأمر الى سحق الشريعة الاسلامية بكاملها تحت شعار الاصلاح نفسه ـ وهو ما فعله أتاتورك ـ .

وفي استطاعتنا ان نلحظ ذلك من أول الطريق بمطالعة تقرير اللجنة المشكلة لدراسة الحالة التشريعية في البلاد والتي انبثق عنها اخراج مجلة الأحكام العدلية :

" لا يخفى على حضرة الصدر العالي أن الجهة التي تتعلق بأمر الدنيا من علم الفقه كما أنها تنقسم الى مناكحات ومعاملات وعقوبة ، كذلك القوانين السياسية للأمم المتمدنة تنقسم الى هذه الاقسام الثلاثة (!) ويسمى قسم المعاملات منها القانون المدني (!) لكنه لما زاد اتساع المعاملات التجارية في هذه الاعصار مست الحاجة الى استثناء كثير من المعاملات كالسفتجة التي يسمونها حوالة وكأحكام الافلاس وغيرهما ـ من القانون الأصلي ووضع لهذه المستثنيات قانون مخصوص يسمى قانون التجارة .. " (٢)

هكذا كانت الثلمة الأولى في الشريعة متمثلة في قانون التجارة ، والمصيبة الكبرى هي الاساس الفكري الذي بني عليه القانون وهو اعتباره جزءاً من القانون المدني الذي هو بعينه ما يسمى في الاصطلاح الفقهي المعاملات!! (٣)

ثم تلك الفكرة الدخيلة : مقارنة الاسلام بالانظمة الكافرة واعتبار أممها " متمدنة " ! هذه السذاجة والغفلة عند منفذي الاصلاح الأوائل أصبحت عند الشباب التركي الدارس في أوربا فكرة واعية ومبدأ مرسوما . ومن ثم استبد أولئك المثقفون ثقافة غربية بمسمى الاصلاح وحددوا مواصفاته الخاصة التي ترمي في النهاية الى نبذ الاسلام والتمسك بركاب أوربا الكافرة .

سرت في قلوب أولئك روح التفرنج وتطور الأمر الى ان " نشأت

---

(٢) المصدر السابق ٢٩٨ ـ ٢٩٩ .

(٣) راجع ما ذكرناه في الفصل الأول عن هذه القسمة .

حركة ثورية تطالب بالاصلاح الداخلي الذى تمثل عندها في وضع حد لسلطة عبد الحميد المطلقة ، وكان قادة هذه الحركة من مختلف الاتجاهات والميول والارتباطات لا يجمعهم الا هذا الهدف ... وهو قيام حكومة دستورية ، ثم لا يتفقون على شيء بعد ذلك المطلب .

نظرياتهم السياسية متعددة بقدر ما اتيح لكل منهم أن يقرأ في اللغة الاجنبية التي يتقنها (صباح الدين وقع بيده كتاب أدموند ديمولان عن سر تقدم الانكليز السكسونيين (٤) ومن ثم اعتنق فكرة اللامركزية ..

وأحمد رضا كان من سوء حظه أنه تعرف على " أوغست كومت " فاعتنق الوضعية الى حد الاصرار على تأريخ منشوراته بالتاريخ الخاص للوضعيين وحذف التاريخ الهجرى ليقود بهذه المنشورات دولة الخلافة (

وأحمد رضا أمه نمساوية وأبوه كان يعرف باسم " انكليزى علي بك " نظرا لميوله للانكليز وحبه لهم . (٥)

ونامق كمال كان وطنيا متأثرا بالنزعة القومية التي عاصرها اثناء اقامته في العواصم الأوربية المختلفة . (٦)

ووقع الصدام المحتوم بين هذه الحركة وبين السلطان عبد الحميد ـ رحمه الله ـ الذى كان يروم الاصلاح الحقيقى ممثلا في دعوته الى الجامعة الاسلامية واعلان الجهاد .

وفي سنة ١٨٩٧ استطاع بحنكته ودهائه أن يشل هذه الحركة ويستميل كثيرا من عناصرها ، ولكن الجو الذى خلقته هذه الحركة والأفكار التى نشرتها ضد الاسلام كانت دافعا مشجعا لنشوء حركات سرية تآمرية تتمسح بشعارات وأهداف هذه الحركة وتخفى في اعماقها ما لم يكن في الحسبان .

---

(٤) ترجمه للعربية : احمد فتحى زغلول .

(٥) القومية والغزو الفكرى ، جلال كشك : ٢٦٢ ـ ٢٦٣ .

(٦) انظر الصراع بين الفكرة الاسلامية والفكرة الغربية ، الندوى : ٥٤ ، وفيما يتعلق بحركة الاصلاح التركى والأثر الاوربى فيها يحسن الاطلاع على كتاب (أربرى): الدين فى الشرق الأوسط ، فصل : Religion and anti religion - الجزء الثانى : ٦١٥ - ٦١٦ .

نستطيع القول ان الحركة السالفة الذكر والتي تزعمها مدحت باشا وأعوانه تصور الجانب الذاتي من المأساة ، وها قد تهيأ الجو لأعداء الأمة المتربصين كي يقضوا على الاسلام عقيدة وشريعة معتمدين على ذلك الجانب .

ذلك أنه في تلك السنة نفسها ١٨٩٧ اجتمع المؤتمر الصهيوني الأول وقرر أن تقوم دولة اسرائيل في فلسطين التابعة لحكم عبد الحميد .

وبسبب ان السلطان رفض باصرار المساومة على فلسطين ولكون الحقد اليهودي على الاسلام لم يخمد طوال العصور ، ونظرا لنجاح التجربة اليهودية في أوربا فقد اقتضى الأمر تدمير الخلافة العثمانية بثورة شبيهة بالثورة الفرنسية في أهدافها وشعاراتها فاتحة (لتكون) ظهور دول علمانية في العالم الاسلامي على النمط الأوربي ومن ثم تفتح الطريق أمام الهدف الأعظم والحلم القديم " قيام حكومة يهودية عالمية دستورها التلمود وملكها من نسل داود " (٧)

ولا غرابة اطلاقا في ان تكون اليد الطولى في هذا التدمير لأولئك اليهود الذين وسعتهم سماحة الاسلام حين ضيقت عليهم أسبانيا النصرانية . (٨)

ولا غرابة كذلك في ان يجد التلموديون عناصر اسلامية من المغفلين أو ضعاف الايمان يبذلون تضحيات عظيمة ويشكلون التغطية الضرورية اللازمة للمؤامرة .

من هذين العنصرين (اليهود الدونمة والمأجورين أو المغفلين من أدعياء الاسلام) تكونت الحركة العلمانية المسماة بحركة " الاتحاد والترقي " التي كانت تسير وفق طقوس الماسونية العالمية .

ولندع رأى شيخ الاسلام فيهم (٩) ولننظر ما قاله "سيتون واطسن ":

---

(٧) ليس في هذا أي مبالغة فقد توقع سرجي نيلوس ناشر البروتوكلات الروسي القضاء على حكم القياصرة في روسيا وعلى الدولة العثمانية تنفيذا لمخططات اليهود وحدث ذلك كله بعد موته بسنين .

(٨) أخرج فرديناند وايزابيلا اليهود من الاندلس بعد سقوطها في أيديهما فالتجأوا الى الدولة العثمانية .

(٩) هو مصطفى صبرى ـ انظر الاتجاهات الوطنية ٢/٧٨ وما بعدها مع الهوامش .

" ان الأدمغة الحقيقية في الحركة كانت يهودية أو يهودية ـ مسلمة . وقد جاءت مساعداتها المالية من الدونمة الاغنياء ومن يهود سلانيك ومن الرأسماليين الماليين أو شبه الماليين في فينا وبودابست وبرلين وربما في باريس ولندن ايضا" .

" ان الحقيقة البارزة في تكوين جمعية الاتحاد والترقي أنها غير تركية وغير اسلامية فمنذ تأسيسها لم يظهر بين زعمائها وقادتها عضو واحد من أصل تركي صاف ... ولم يكن أحد من الناس يجروء أن يتنبأ ان هذه الفئة اليهودية المغمورة المعروفة بالدونمة ستلعب دورا رئيسيا في ثورة كان لها نتائج خطيرة في سير التاريخ " (١٠) .

وبعد صراع مرير مع الخليفة وقفت فيه كل القوى الدخيلة والعميلة ضده انتصرت هذه العصبة وأقصت عبد الحميد عن الخلافة بالقوة سنة ١٣٢٥ هـ ١٩٠٩م وكان الذى أخذ بثأر هرتسل منه هو "قره صو " اليهودى ! وبزواله زالت العقبة الأخيرة في طريق مخططها اللادينى !

فصلت تلك العصبة الخلافة عن السياسة واختارت سلطانا جديدا لم يكن يساوى في نظرهم الا أحد البابوات الموقتين ، ورأوا أن المناخ لم يتهيأ بعد لالغاء منصب الخلافة .

اما فكرة الجامعة الاسلامية فقد أبطلها أولئك ونادوا بفكرة القومية الطورانية معلنين أن حركتهم تهدف الى تتريك الولايات العثمانية ، وكانوا يقصدون ـ العرب ـ مما دفع العرب الى التعلق ببريطانيا ووضع مستقبلهم في يد عميل المخابرات لورانس منادين هم أيضا بالثورة العربية والقومية العربية .

ويذكر برنارد لويس أن المستشرقين ومنهم الكونت قسطنطين يوزريسكى

---

(١٠) القومية والغزو الفكرى : ٢٦٩ ـ ٢٧٠ .

الذى ادعى الاسلام وتسمى مصطفى جلال الدين هم الذين أسسوا فكرة الطورانية • (١١) ثم أعلنت عصبتهم الدستور ذلك الصنم الذى جعلته دعايتهم العريضة أعظم الغايات وجاء الدستور معبرا عن أهدافهم اللادينية اذ رفع شعارات الماسونية ، وشدد على الحرية الدينية ومساواة غير المسلمين بالمسلمين في كل شىء باسم الوحدة الوطنية ، وعطل عمل المحاكم الشرعية باسم الاصلاح والتقنين ، مما أتاح الفرصة لاعداء الاسلام كي يتمكنوا من العمل بكل حرية ونشاط •

واذا اعتبرنا افكار " ضياء كوك ألب " مؤشرا للانتماء الفكرى لهذه الحركة فسنجدها دون ادنى شك حركة لادينية سافرة ، لكن الناس ظلوا مترددين بشأنها لانها لم تظهر أهدافها الحقيقية فقد كان المخطط ينفذ بدقة ماهرة •

لقد كانت اللعبة العالمية تقتضى اصطناع " بطل " تتراجع امامه جيوش الحلفاء الجرارة ؛ وتعلق الامة الاسلامية اليائسة فيه أملها الكبير وحلمها المنشود ، وفي اوج عظمته وانتفاخه ينقض على الرمق الباقى في جسم الامة فينهشه ويجهز عليها الى الأبد ؛ (١٢) وهذا أفضل قطعا من كل الـ " مائة مشروع لتقسيم تركيا " (١٣) وهدم الاسلام •

وتمت صناعة البطل بنجاح باهر ووقف يتحدى الحلفاء وألقى باليونان في البحر (٤) ولم ير الحلفاء بدا من التفاوض معه ؛ وكانت ثمرة المفاوضات هي ـ الاتفاقية المعروفة باتفاقية " كيرزن " ذات الشروط الأربعة :

(١١) الغرب والشرق الأوسط برنارد لويس : ١٢٧

(١٢) أنظر فصل صناعة الزعيم من كتاب عندما يحكم الطغاة ، د • جريشة وفي ظلال القرآن ٨٦/٨ ، والدبلوماسية والميكافيللية ، محمد صادق: ١٤٩ •

(١٣) عنوان كتاب ألفه : جوفار ولخصه الأمير شكيب أرسلان في حاضر العالم الاسلامي •

(١٤) الأبطال الحقيقيون لحرب الاستقلال ذكرهم مؤلف كتاب " الرجل الصنم " وعلى العموم فان شجاعة المجاهدين الاتراك هي التي مكنت أتاتورك من ركوب الموجة انظر الفصل الرابع من الكتاب •

" ١ ـ الغاء الخلافة الاسلامية نهائيا من تركيـا •

٢ ـ أن تقطع تركيـا كل صلة مع الاسـلام •

٣ ـ أن تضمن تركيا تجميد وشل حركة جميع العناصر الاسـلامية الباقيـة في تركيا •

٤ ـ أن يستبدل الدستور العثماني القائم على الاسـلام بدستور مدنـي بحت " (١٥)

يصف المؤرخ " آرمسترونج " خطوات تنفيذ الاتفاقيـة قائلا :

" انطلق كمال أتاتورك يكمل عمل التحطيم الشامل الذى شرع فيـه وقد قرر أنه يجب عليه ان يفصل تركيا عن ماضيها المتعفن الفاسد ، يجـب عليه أن يزيل جميع الانقاض التي تحيط بها ، هو حطم فعلا النسيج السياسـي القديم ، ونقل السلطنة الى ديمقراطية ، وحول الامبراطورية الى قطـر فحسب ، وجعل الدولة الدينية جمهورية عادية ، انه طرد السلطان (الخليفـة) وقطع جميع الصلات عن الامبراطورية العثمانية ، وقد بدأ الان في تغيير عقليـة الشعب بكاملها وتصوراته القديمة وعاداته ولباسه وأخلاقه وتقاليده وأسـاليب الحديث ومناهج الحياة المنزلية التي تربطه بالماضي " (١٦) •

وامتدح توينبى عمله واعتبره أعظم من هتلر عبقرية في فن الهدم وقطع الصلـة بالماضي ، وقال : " ان الدولة القومية التركية التي أقامها مصطفى كمـال على النسق الغربى تبدو ـ وقت كتابة هذه السطور ـ عملا ناجحا لم يتحقق مثلـه حتى ذلك الوقت في اى بلد اسـلامى آخر " (١٧) •

وامتدحه ولفرد كانتول سمث ـ على طريقته الخاصة ـ قائلا :

" ••• رأينا تركيا في سبيل رفعة شأنها وخلق مثلا عليا جديدة لـم

---

(١٥) المخططات الاستعمارية لمكافحة الاسلام : ١٧٤ والتفصيلات في الكتاب السابق •

(١٦) الصراع بين الفكرة الغربية ••• : ١٦ •

(١٧) مختصر دراسة التاريخ : ٣/ ١١٣ •

تتردد في سحق السلطات الدينية وألغت تعاليمها وحررت الاسلام وكشفت النقاب عن الدين الحق القويم ")) (١٨) .

نصب مصطفى كمال نفسه الها من دون الله يشرع للأمة كما يشاء ، فلفق قانونا فريدا يتكون اكثره من القانون السويسرى والقانون الايطالي وغيرهما وأكمل الباقي من عنده ، ومع ذلك فهو يدعي أنه كله من عنده ، قائلا :

" نحن لا نريد شرعا فيه قال وقالوا ولكن شرعا فيه قلنا ونقول " (١٩)

ويصف أحد الكتاب الغربيين جلسة في مجلس النواب فيقول ان مصطفى كمال وقف قائلا :

" ان التشريع والقضاء في أمة عصرية يجب ان يكونا عصريين مطابقين لأحوال الزمان لا للمبادئ والتقاليد " .

ثم اقتفاه وزير العدل شارحا ومفسرا :

" ان الشعب التركي جدير بأن يفكر بنفسه بدون أن يتقيد بما فكر غيره من قبله ، وقد كانت كل مادة من مواد كتبنا القضائية مبدوءة بكلمة قال المقدسة ، فأما الآن فلا يهمنا أصلا ماذا قالوا في الماضي بل يهمنا أن نفكر نحن ونقول نحن " (٢٠) .

ويعترض عليه مرة أحد القانونيين بقوله :

" ان هذا النظام الذى تريدون وضعه لا يوجد في أى كتاب للقانون " .

فيتلقى الجواب التالى :

– ان النظم ليست الا أشياء وامورا تكيفت ومرت من التجارب .. علي أن أنفذ ما أريد وعليكم أن تدرجوا ما أعمل في الكتب ")) (٢١)

ونتيجة التطرف والغلو المفرط والأعمال التي لا مبرر لها الا تنفيس الحقد

---

(١٨) الاسلام والخلافة : على الخربوطلي : ٢٨٥ .
(١٩) حاضر العالم الاسلامي : ٣/ ٣٤٣ .
(٢٠) المصدر السابق : ٣/ ٣٤٤ ، ٣٤٥ .
(٢١) الرجل الصنم : ٢٠٥ .

الأوربي على الاسلام ومركب النقص الذى كان يستشعره الكماليون ـ اتخذت تركيا المتعلمنة تدبيرات واجراءات غريبة حقا :

فقد ألغت بالعنف والارهاب الكتابة التركية بالاحرف العربية ثم تجرأت فحرمت الاذان بالعربية ، وكتبت المصحف أو ترجمته بلغتها الهجين ، وحددت تعدد المساجد وأقفلت كثيرا منها أو حولته الى ما لا يتفق وقداسته كما فعلت بجامع أيا صوفيا ، وألغت وزارة الاوقاف • وفرضت بقوة السلاح المسخ الفكرى وحتى المظهرى على الأمة لا سيما معركة القبعة الأوربية التي سالت لأجلها الدماء ، وألغت الاعياد الاسلامية ، وحطمت بصورة استبدادية مظاهر الحشمة والحياء الاسلاميين ، فأكرهت النساء على تقليد المرأة الغربية في كل شيء وحاربت بشدة صارمة كل من اعترض طريقها من المتورعين وحتى المعتدلين شيئا ما من الكماليين • (٢٢)

ولذلك فان حكومة تركيا العلمانية الكمالية هي كما وصفها الامير شكيب أرسلان ـ ليست حكومة لا دينية من طراز فرنسا وانجلترا فحسب ، بل هي دولة مضادة للدين كالحكومة البلشفية في روسيا سواء بسواء ، اذ أنه حتى الدول اللادينية في الغرب بثوراتها المعروفة لم تتدخل في حروف الاناجيل وزى رجال الدين وطقوسهم الخاصة وتلغى الكنائس • (٢٣)

والحقيقة المرة ان مصطفى كمال قد خلق نموذجا صارخا للحكام في العالم الاسلامي وكان لأسلوبه الاستبدادى الفذ أثره في سياسات من جاء بعده منهم ، كما أنه اعطى الاستعمار الغربى مبررا كافيا للقضاء على الاسلام فان فرنسا مثلا بررت تنصير بلاد المغرب العربى وفرنجتها بأنه لا يجب عليها أن تحافظ على الاسلام اكثر من الأتراك المسلمين أنفسهم !!

وليس أعجب من هذا الرجل وزمرته الا من ينادون اليوم ـ من الزعماء ـ

---

(٢٢) انظر تاريخ الشعوب الاسلامية ، بروكلمان ، فصل " تركية " والاسلام في الغرب " جان بول رو : ١٨١ ، ١٨٦ ، والصراع بين الفكرة الاسلامية والفكرة الغربية : ٥٩ ـ ٦٣ •

(٢٣) حاضر العالم الاسلامي : ٣٣٦/٣

باقامة حكومات علمانية في بلادهم ويقولون ان مصطفى كمال هو قائدهم الروحي .

في مصر :

يقول توينبي ان مصر بدأت تتجه نحو الاصطباغ بالصبغة الاوربية منذ ايام محمد على متفوقة على تركيا (١) كما يرى جب أنها سبقت تركيا في ذلك .(٢) وكان الخديوى اسماعيل مفتونا بالغرب ، وقد مهد بسياسته الفاشلة لتدخل بريطانيا في شؤون مصر ثم احتلالها نهائيا .

ومع الاحتلال جاء كرومر بمخططه الخبيث وبدأت القوى العالمية تشرف على حركة الغاء الاسلام أو عزله عن شؤون الحياة كلها .

والحق انه لم يكن لكرومر ولا لغيره أن ينجح لولا الزعماء والعلماء الذين تطوعوا بخدمته ، فالحزب الوطنى ـ أول حزب سياسى في مصر ـ يعلن برنامجه الرسمى سنة ١٨٨٢م ونجد فيه :

" الحزب الوطنى حزب سياسى لا دينى فانه مؤلف من رجال مختلفي العقيدة والمذهب ، وأغلبيته مسلمون لأن تسعة أعشار المصريين من المسلمين ، ـ وجميع النصارى واليهود وكل من يحرث أرض مصر ويتكلم بلغتها منضم اليه ، لأنه لا ينظر لاختلاف المعتقدات ، ويعلم ان الجميع اخوان وأن حقوقهم في السياسة والشرائع متساوية " (٣) .

والثورة العرابية لو قدر لها ان تنجح فربما كانت سبقت مصطفى كمال بأشياء كثيرة فها هو احد زعمائها يقول :

" كنا نرمى منذ بداية حركتنا الى قلب مصر جمهورية مثل سويسرا ، ولكنا وجدنا العلماء لم يستعدوا لهذه الدعوة لأنهم كانوا متأخرين عن زمنهم

(١) مختصر دراسة التاريخ : ٣/ ١١٣ .

(٢) وجهة الاسلام : ٤٢ـ٤٣ .

(٣) الاتجاهات الوطنية : ١/ ١٥٤ .

ومع ذلك فسنجتهد في جعل مصر جمهورية قبل أن نموت " (٤) ولهذا فما الذى يمنع كرومر بعد ذلك ان يقول :

" ان الاسلام ناجح كعقيدة ودين ولكنه فاشل كنظام اجتماعى ، فقد وضعت قوانينه لتناسب الجزيرة العربية في القرن السابع الميلادى ولكنه مع ذلك أبدى لا يسمح بالمرونة الكافية لمواجهة تطور المجتمع الانسانى " (٥)

ثم ان كرومر قد حرص على ان يؤكد للمصريين " ان المسلم غير المتخلق بأخلاق اوربية لا يصلح لحكم مصر ، كما أكد ان المستقبل الوزارى سيكون للمصريين المتربين تربية أوربية " (٦) ومن هنا كانت رغبة المحتلين الشديدة في تعاون العلماء (المتنورين) معهم ، وهي الرغبة التي تجلت في تشجيعهم للحركة " الاصلاحية " واحتضانها .

كان زعيم الاصلاح في مصر هو الشيخ محمد عبده الذى اثاره تقدم الغرب وتخلف المسلمين في كل ميدان فهب يدعو الى الاصلاح متاثرا بفكر جمال الدين الأسد آبادى الشهير بالأفغانى ، وكان أمل المخطط اليهودى الصليبي — كما أوضح كرومر وجب وغيرهما — أن تكون حركة الشيخ مماثلة تماما لحركة " سير احمد خان " مؤسس جامعة " على قره " بالهند التي تسمت " المعتزلة الجدد " وكانوا مفتونين بحضارة الغرب منبهرين بها الى أقصى حد .

ولكن ظروف مصر غير ظروف الهند ، كما ان الشيخ وان كان اعتزاليا متطرفا (٧) لم يستطع أن يصدم المشاعر الاسلامية بأكثر مما فعل حيث قامت ضد بعض تصرفاته ضجة في كثير من أنحاء العالم الاسلامي (الفتوى الترنسفالية ، فتوى اباحة صناديق التوفير ..) . وليس ثمة شك في أن " مصر الحديثة " التي يريدها كرومر هي دولة لا دينية لا صلة لها بالاسلام وحكومتها ستكون

---

(٤) المصدر السابق : ١/ ١٥٩ .

(٥) = = : ١/ ٢٥٩ ، ٢٦٠ .

(٦) = = : ١/ ٢٦١ .

(٧) لعل هذا هو أقرب ما يصح أن يوصف به الشيخ من الانتماءات المذهبية وان كان في الواقع له اتجاه مستقل أحيانا ، وتظهر اعتزاليته أو عقلانيته في تأويلاته المشهورة للملائكة والجن والطير الابابيل وقصة آدم .. الخ اما صديقه كرومر فيقول عن عقيدته : " أشك في ان صديقي عبده .. كان في الحقيقة لا أدريا " نقلها عنه جب ص ٣٩٩ دراسات في حضارة الاسلام .

على الشرط الذى مر آنفا ،أما محمد عبدة فلم تكن لديه كما يبدو صورة واضحة ،وانما كان يهدف الى الاصلاح الذي ينشده في ظل الاحتلال الانجليزى . ولهذا فان التعاون بين كرومر والشيخ يعنى تقديم تنازلات من الاخير للأول ، أما المد والمشترك لهما فهم العلماء " غير الاحرار " الذين كانوا ــ رغم ما فيهم ــ ينفرون من المحتل والعمل معه في اية صورة !

وابتدأ محمد عبدة عمله الاصلاحى بمهاجمة الأزهر ونقد المحاكم ونقد الحياة الاجتماعية وكرومر من ورائه يقطف الثمار .

لقد كانت بريطانيا ــ كعادتها ــ عازمة على الغاء الشريعة الاسلامية فور تمكنها في البلاد ، غير أن كرومر رأى أن أفضل وسيلة لذلك هو تفريغ المحاكم الشرعية من محتواها بأن يتولاها علماء " ذووطابع تحررى " تتم تربيتهم باشرافه هو والشيخ في معهد خاص لقضاة الشرع ، وقوى عزمه على ذلك المعلومات التى يذكر أنه حصل عليها عن الكلية التي أنشأتها في سراجيفو حكومة النمسا والمجر (٨) لتخريج قضاة الشرع المسلمين والتي يقول عنها انها " كلية اثبتت نجاحها من كل الوجوه " ويتحدث عن ذلك في تقريره السنوى لحكومته عام ١٩٠٥ :

" .. وقد وضعت هذه المعلومات تحت تصرف لجنة ذات كفاية ممتازة يرأسها المفتى الاكبر السابق (محمد عبده) بقصد وضع خطة مشابهة تلائم ظروف مصر وحاجاتها ، وقد أتمت اللجنة عملها في شهر يونية السابق ووضعت النظم المقترحة تحت تصرف الحكومة ... وهذه النظم تزود الطالب ببرامج ثقافية ذات طابع تحررى لا تحصر الطالب في الدراسات الدينية الخاصة " (٩)

والعجيب حقا أن محمد عبده لم يكن يرى حرجا من اقتباس القوانين التشريعية الغربية ، ما دام ذلك يحقق (الاصلاح -في نظره-) بل يقول العقاد

---

(٨) انظر كيف اتفق المخطط الصليبي هنا وهناك ، و " الكفر ملة واحدة " .

(٩) الفكر الاسلامى دراسة وتقويم ،غازى التوبة : ٣٠ .

- وهو من المعجبين به - انه " علم ان المراجع العربية لهذه القوانين لا تعطيه الاحاطة الواجبة بتلك المبادئ في أصولها المأثورة عند فلاسفة التشريع الغربيين فشرع في تعلم اللغة الفرنسية " (١٠) كما أن اعجابه بالثقافة الغربية هو الذى جعله يبالغ في انتقاص الازهر مطلقا عليه لفظ " الاصطبل او المارستان أو المخروب " ويحاول اصلاحه واصلاح التعليم كله على الطريقة الغربية ويقول :

" ان كان لى حظ من العلم الصحيح .. فاننى لم أحصله الا بعد أن مكثت عشر سنين اكنس من دماغى ما علق فيه من وساخة الأزهر وهو الى الآن لم يبلغ ما أريد له من النظافة " (١١) .

لا شك ان الازهر كان بحاجة الى الاصلاح ، ولكن الاصلاح الذى يريده الانجليز - ومعهم الشيخ - كان من نوع آخر ، لا سيما وأن شيخ سليمان الحلبي يهدد كرومر كل حين (١٢) .

وكان من أعظم خطط الانجليز للقضاء على الشريعة الاسلامية انشاء " مجلس شورى القوانين " الذى كانوا يحكمون مصر من خلاله ، والذى قدم الشيخ له خدمات جليلة مما دفع المستشار القضائي الانجليزى الى رثائه في تقريره عن الحاكم لعام ١٩٠٥ قائلا :

" ولا يسعنى ختم ملاحظاتي على سير المحاكم الشرعية في العام الماضى بغير ان أتكلم عن وفاة مفتى الديار المصرية الجليل المرحوم الشيخ محمد عبده فى شهر يوليه الفائت وأن أبدى أسفى الشديد على الخسارة التي أصابت هذه النظارة بفقده ... " .

---

(١٠) " محمد عبدة " سلسلة اعلام العرب : ١٠٩ .
(١١) الفكر الاسلامى الحديث ، غازي التوبة : ٢٧ .
(١٢) انظر ص: من هذه الرسالة .

الى ان يقـول :

" وفوق ذلك فقد قام لنا بخدمـة جزيلـة لا تقدر في مجلـس شورى القوانين في معظم ما احدثناه اخيرا من الاصلاحات المتعلقة بالمواد الجنائية وغيرها من الاصلاحات القضائية ، اذ كان يشرح للمجلس آراء النظارة ونياتهـا ويناضل عنها ويبحث عن حل يرضى الفريقين كلما اقتضى الحال ذلك (!) وانه ليصعب تعويض ما خسرناه بموته نظرا لسمو مداركه وسعة اطلاعه وميله لكـل ضروب الاصلاح والخبرة الخصوصية التي اكتسبها أثناء توظفه في محكمة الاستئناف وسياحاته الى مدن أوربا (!) ومعاهد العلم .. " (١٣) .

وقد يكون أخطر آثار محمد عبده التي تعد ركيزة من ركائز العلمانيـة في العالم الاسلامي اضعاف مفهوم " البراء والولاء ، ودار الحرب ودار الاسلام " اذ كان الشيخ أعظم من اجترأ عليه من المنتسبين للعلماء ، لا بتعاونه مع الحكومـة الانجليزية الكافرة فحسب ، ولكن بدعوته الصريحة الى موالاة الانجليز وغيرهم ـ بحجة ان التعاون مع الكفار ليس محرما من كل وجه ـ ودعوته الى التقريـب بين الأديان .

حقيقة ان الرأى العام الاسلامي قد ثار على بعض فتاوى الشـيخ التي أباح بها موالاة الكفار ـ ولكن تأثيرها في الامة لا شـك فيه ، لا سـيما في تلك الفترة الحرجة التي تتميز بغبش الرؤيـة واختلاط المفهومات .

ويليها في الخطورة فتواه حول اباحة الربا بطريق صناديـق التوفير معتمدا ـ كما يرى العقاد ـ على مفهوم الآيـة من أنه لا يحرم من الربـا الا الأضعاف المضاعفة !

وأخيرا فان الشيخ ـ بقصد أو بدون قصد ـ قد أوجد القاعـدة

---

(١٣) الفكر الاسلامى .. : ٢٥ .

التي ارتكز عليها من يسمون دعاة الاصلاح (١٤) للتعلق بأذيال الغرب واقصاء الاسلام عن توجيه الحياة ، اذ ظلوا ينقضون عرى الاسلام عروة عروة حتى ان المعركة الان أصبحت تدور ضد قانون الاحوال الشخصية وهو البقية الضئيلة من آثار الشريعة الاسلامية والميزة الاجتماعية التي تميز المسلم من غيره •

لم يكن محمد عبده علمانيا ولكن أفكاره تمثل بلا شك حلقة وصل بين العلمانية الأوربية والعالم الاسلامي ،ومن ثم فقد باركها المخطط اليهودي الصليبي واتخذها جسرا عبر عليه الى علمانية التعليم والتوجيه في العالم الاسلامي وتنحية الدين عن الحياة الاجتماعية بالاضافة الى ابطال العمل بالشريعة والتحاكم الى القوانين الجاهلية المستوردة ،واستيراد النظريات الاجتماعية الغربية ، وهو ما تم جميعه تحت ستار " الاصلاح " ايضا • (١٥) أما الجماهير الاسلامية فقد اتخذت أفكار الشيخ الاصلاحية مهربا نفسيا لتقبلها للتغيير العلماني المتدرج في الدول الغربية •

وقد صور محمد المويلحي في عمله الرائع " حديث عيسى بن هشام " شيئا من ذلك على لسان أبطال الرواية ، اذ يسأل أحدهم متعجبا كيف ساغ للمصريين أن يأخذوا بقانون نابليون المخالف للشريعة ؟ فيجيب الآخر بأن المفتي أقسم بالله أنه موافق للشريعة • (١٦)

هذا وقد عاصر محمد عبدة رجل آخر من دعاة الاصلاح ايضا هو عبد الرحمن الكواكبي (ت ١٩٠٢) يحق لنا ان نقول انه أول من نادى بفكرة العلمانية حسب مفهومها الأوربي الصريح فهو يقول :

" يا قوم وأعنى بكم الناطقين بالضاد من غير المسلمين أدعوكم الى تناسى الاساءات والأحقاد ، وما جناه الاباء والاجداد ، فقد كفى ما فعل ذلك

---

(١٤) من الانصاف أن نذكر ان الشيخ ندم على طريقته في الاصلاح مفضلا عليها طريق التربية الفردية ،انظر كتاب العقاد " الاسلام في القرن العشرين " : ١٤٧ •

(١٥) أنظر حول آثار الفكر الاصلاحي : غازي التوبة : ٥٤ والاتجاهات الوطنية ١/ ٣٥٥ واساليب الغزو الفكري : ٢٠١ ـ ٢٠٥ • وقول جب عنهم (كانه تلاميذه الحقيقيون من صفوف العلمانيين) دراسات في حضارة الاسلام : ٢٢٠ •

(١٦) انظر ج ١ ص : ٧٢ ـ ٧٣ • /

على أيدى المثيرين ، وأجلكم من أن لا تهتدوا لوسائل الاتحاد وأنتم المتنورون السابقون ، فهذه أمم أوستريا وأمريكا قد هداها العلم لطرائق الاتحاد الوطنى دون الدينى ، والوفاق الجنسي دون المذهبي ، والارتباط السياسى دون الادارى ..

" دعونا ندبر حياتنا الدنيا ونجعل الأديان تحكم الأخرى فقط (!) دعونا نجتمع على كلمات سواء ، ألا وهي فلتحيا الامة ، فليحيا الوطن ، فلنحيا طلقاء اعزاء " (١٧)

واقتفى هذين عدد من الكتاب والصحفيين المشبوهين ـ من أدعياء الاسلام وغيرهم ، يطالبون بضرورة فصل الدين عن السياسة وابعاده عن واقع الحياة وأن ذلك هو الحل الوحيد لمشاكل الشرق ، وكان لسموم المستشرقين ودسائس المبشرين أعظم الاثر في ذلك .

وقد هوجمت الشريعة الاسلامية بكاملها وتوالت حملات التشكيك معلنة عدم ملاءمتها لمقتضيات العصر وظروف التطور ، ومن ابرز الموضوعات التى نوقشت :

١ ـ الجانب الاقتصادى : فقد حرص المغرضون على تضخيم فتوى محمد عبده ليبتروا هذا الجانب بكامله عن الشريعة ، وممن استخدموا لذلك حفنى ناصف الذى قال " ان الربا بفائدة ليس من أنواع الربا المحرم ، وان سبب تخلف مصر هو عدم فتح بنوك على الطريقة الغربية " (١٨) ثم تلاه من تلاه حتى استصدرت فتوى من أحد شيوخ الازهر البارزين باباحته ، ولا يزال هذا هو رأى من يسمون أصحاب الاتجاه المصرى . (١٩)

وقد تم عمليا عزل الشريعة عن هذا المجال المهم منذ زمن بعيد الا أن

---

(١٧) طبائع الاستبداد : ١١٢ ـ ١١٣ .

(١٨) انظر حفنى ناصف تاليف محمود غنيم سلسلة اعلام العرب : ١٦١ .

(١٩) انظر مجلة الدعوة المصرية عددى محرم وصفر سنة ١٣٩٩ هـ .

المفوضين ما يزالون حريصين على اختلاق ما يبرره •

٢ ـ الجانب الاجتماعي : اذ كانت افكار محمد عبده أيضا منطلقا للهجوم على موقف الشريعة من المرأة ، وسيأتي لهذا الموضوع فصل مستقل باذن الله •

أما الموضوع الاساسي وهو الحكم بغير ما انزل الله في السياسة والقضاء فقد كان له بعد محمد عبده تاريخ آخر •

لقد أتم المستعمرون ـ عمليا ـ اقصاء الشريعة بل اسدال الستار على هذا الموضوع من أساسه ، وزرعوا الأحزاب السياسية المتباينة التي تتفق جميعها في عدم رفع شعار الاسلام او الدعوة الى تحكيمه •

وعقب الغاء مصطفى كمال للخلافة سنة ١٣٤٣ هـ وفيما كان الرأى العام في العالم الاسلامى مأخوذا بهول الصدمة طلع رجل أزهرى بفكرة غريبة مريبة يقول المستشرق " شمتز " (٢٠) انها كان لها الفضل في تخفيف وطأة ما فعله أتاتورك على مشاعر المسلمين ، ذلك هو علي عبد الرزاق صاحب كتاب " الاسلام وأصول الحكم " !

جمع عبد الرزاق في كتابه بين أسلوب المستشرقين في تحوير الفكرة ـ واقتطاع النصوص وتلفيق الواهيات ، وبين طريقة الباطنية في التأويل البعيد ، وسرد نبذا من سير الطواغيت ونتفا من أقوال متملقيهم ، وعمد الى مغالطات عجيبة ـ كل ذلك ليدلل على ان الاسلام كالمسيحية المحرفة علاقة روحية بين العبد والرب لا صلة لها بواقع الحياة •

ولم يفت " الشيخ " أن يدلنا على أحد مراجعه الرئيسية لنستكمل ما قد يكون فضيلته عجز عن بيانه فهو يقول في الكتاب نفسه :

" واذا اردت مزيدا في البحث فارجع الى " كتاب الخلافة " للعلامة (؟)

---

(٢٠) الاسلام قوة الغد العالمية : ١٦٠ مع مراعاة أنه لم يذكر الكتاب صراحة بل قال " فتوى من الازهر " •

السير تومس آرنلد ففي الباب الثاني والثالث منه بيان ممتع مقنع ». (٢١) ثم يقول :

" تكلم عيسى ابن مريم عليه السلام عن حكومة القياصرة وأمر بأن يعطى ما لقيصر لقيصر .. " " وكل ما جرى في احاديث النبي عليه الصلاة والسلام من ذكر الامامة والخلافة والبيعة الخ لا يدل على شيء أكثر مما دل عليه المسيح حينما ذكر بعض الأحكام الشرعية عن حكومة قيصر » (٢٢)

ويقول :

" ان يكن الفقهاء ارادوا بالامامة والخلافة ذلك الذي يريده علماء السياسة بالحكومات كان صحيحا ما يقولون من أن اقامة الشعائر الدينية (الشعائر فقط) وصلاح الرعية يتوقفان على الخلافة بمعنى الحكومة في اي صورة كانت الحكومة ومن اي نوع ، مطلقة او مقيدة فردية او جمهورية استبدادية او دستورية أو شورية ، ديمقراطية أو اشتراكية او بلشفية ، لا ينتج لهم الدليل أبعد من ذلك ، أما ان أرادوا بالخلافة ذلك النوع الخاص من الحكم (يعني الحكم الاسلامي) فدليلهم أقصر من دعواهم وحجتهم غير ناهضة » (٢٣)

هذا ولسنا بصدد استعراض ذلك الكتاب المريب ، ولكن تجدر الاشارة الى أنه كان لها آثار بعيدة فقد ترجم الى اللغات الاجنبية وأصبح مرجعا معتمدا للدراسات الاسلامية هناك ، وقام بتقريظه والثناء عليه كل المهتمين بهذه الدراسات في الغرب ، وظهرت آثاره في كتاباتهم (٢٤) وهلل له سماسرة الاستعمار من الكتاب والصحفيين باعتبار مؤلفه عالما متحررا متنورا ، ووضعه البعض على رأس مرحلة فكرية عصرية ... الخ

---

(٢١) الاسلام واصول الحكم : ٤١ المطبوع مع نقد وتعليق ممدوح حقي .

(٢٢) المصدر السابق : ٤٥

(٢٣) المصدر السابق : ٨٣ .

(٢٤) انظر مثلا ما كتبه جب عن الخلافة في كتابه : دراسات في حضارة الاسلام .

ووجدت الاحزاب السياسية فيه ضالتها المنشودة ، فلم تعد تتحرج من اعلان انتمائها للاتجاهات السياسية اللادينية شرقيها وغربيها ، وبراءتها من الدين والمتدينيين . أما الكتب التي ألفت في الرد عليه فقد حاصرتها الدوائر الاستعمارية وأهملتها وسائل الاعلام حتى لم يكد يظهر لها صدى عند غير القلة المخلصة .

وفي الفترة التي اعقبت الغاء الخلافة كانت معظم اجزاء العالم الاسلامي خاضعة للاستعمار وكانت مخططاته الماكرة تنفذ بدقة وعناية وكانت حركات الجهاد الاسلامي في كل قطر تسعى للخلاص من براثنه هادفة الى بعث اسلامي جديد ، لكن الاستعمار والاحزاب السياسية غير الاسلامية كانت ترمي الى عكس ما تهدف اليه تلك الحركات . وفيما كانت مصر مؤهلة لقيادة العالم الاسلامي من جديد وكان الاستعمار يلم شعثه لمغادرتها ثارت زوبعة حول صلة الاسلام بالحكم تزعمها كتاب نصارى أمثال سلامه موسى ولويس عوض وأناس يدعون الاسلام .

من بين هؤلاء خالد محمد خالد الذى كتب كتابه " من هنا نبدأ " هادفا الى ما قصده على عبد الرازق من قبل ولكن بأسلوب أذكى وأحدث .(٢٥)

ومن قبله كان الشيخ عبد المتعال الصعيدى " يحاول هدم الحدود الاسلامية المستقرة في الكتاب والسنة زاعما ان الأمر بها للندب لا للوجوب وأن الامر لا يقتضى التكرار الدائم الى آخر هذا اللغو المتهافت " . (٢٦)

ثم ظهرت أفكار كثيرة تبرر انتهاج الطرائق الغربية في الحكم والعمل بالقوانين الجاهلية ، وأسهمت وسائل الاعلام ـ لا سيما الصحافة ـ في نشر وتعميم تلك الافكار حتى استحكمت غربة الشريعة وخفت صوت المكافحين عنها ،

---

(٢٥) انظر رد الشيخ الغزالي عليه في كتابه : من هنا نعلم .
(٢٦) من هنا نعلم : ١٣ .

بل أصبح - في نظر الغالبية العظمى - رمزا للرجعية والتأخر . (٢٧)

واكتفى البعض بالقول بأن الدين للواقع وان التفكير السياسي الاسلامي في أزمة ، وأن ضرورات العصر تقتضي غض النظر عن بعض أسس الحكم الاسلامي ، وأنه لا بأس من اشتقاق القوانين والتشريعات من الفقه والقوانين الغربية سواء (٢٨) . هذا من الوجهة الفكرية أما من الناحية العملية فان واقعنا المشاهد اليوم لهو خير دليل على ما بلغته العلمانية من التغلغل في الحياة الاسلامية ، فعلى الرغم من فشل التجارب الديمقراطية واخفاق المحاولات الاشتراكية فان الرقعة الاسلامية المريضة ما تزال تتخبط وتضطرب بين شعارات وأنظمة ومفاهيم الغرب اللادينية ، أما الشريعة الاسلامية فقد غابت لا من الواقع فحسب بل من الشعور والوجدان على النحو الذى صوره "جب" بدقة اذ يقول :

" أن التعليم عن طريق المدارس المصرية والصحافة قد ترك في المسلمين من غير وعي منهم أثرا جعلهم يبدون في مظهرهم العام علمانيين الى حد بعيد ، وذلك هو اللب المثمر في كل ما تركته محاولات الغرب من أجل حمل العالم الاسلامي على حضارته من آثار . فالواقع أن الاسلام كعقيدة لم يفقد الا قليلا من قوته وسلطانه ، ولكن الاسلام كقوة مسيطرة على الحياة الاجتماعية فقد مكانته ، فهناك مؤثرات اخرى تعمل الى جانبه ، وهي في كثير من الاحيان تتعارض مع تقاليده وتعاليمه تعارضا صريحا - ولكنها تشق طريقها الى المجتمع الاسلامي في قوة وعزم .

" فالى عهد قريب لم يكن للمسلم اتجاه سياسى (يخالف الاسلام) ولا أدب الا الادب الدينى ولا اعياد الا الاعياد الدينية ولم يكن ينظر الى العالم

---

(٢٧) انظر ما كتبه مصطفى امين في اخبار اليوم تاريخ ٢٧/٨/١٣٩٧هـ

(٢٨) من هؤلاء فتحي عثمان وعبد الرزاق السنهورى والمدرسة المصرية .

الخارجي الا بمنظار الدين وكان الدين هو كل شيء بالقياس اليه •

" أما الآن فقد أخذ يمد بصره الى ما وراء عالمه المحدود ... وصار يقرأ مقالات في مواضيع مختلفة الألوان لا صلة لها بالدين بل ان وجهة نظر الدين فيها لا تناقش على الاطلاق ، وأصبح الرجل من عامة المسلمين يرى ان الشريعة الاسلامية لم تعد هي الفيصل فيما يعرض له من مشاكل ، ولكنه مرتبط في المجتمع الذي يحيا فيه بقوانين مدنية لا يعرف أصولها ومصادرها ، ولكنه يعرف على كل حال أنها ليست مأخوذة من القرآن !

" وبذلك لم تعد التعاليم الدينية القديمة صالحة لامداده في حاجاته الروحية فضلا عن حاجاته الاجتماعية بينما أصبحت مصالحه المدنية وحاجاته الدنيوية هي اكثر ما يسترعي انتباهه ، وبذلك فقد الاسلام سيطرته على حياة المسلمين الاجتماعية ، وأخذت دائرة نفوذه تضيق شيئا فشيئا حتى انحصرت في طقوس محدودة ، وقد تم معظم هذا التطور تدريجيا عن غير وعي وانتباه ، وكان الذين ادركوا هذا التطور قلة ضئيلة من المثقفين ، وكان الذين ساروا فيه عن وعي وتابعوا طريقهم فيه عن اقتناع قلة أقل ، وقد مضى هذا التطور الى مدى بعيد ، ولم يعد من الممكن الرجوع فيه ، وقد يبدو الان من المستحيل مع تزايد الحاجة الى التعليم ومع تزايد الاقتباس من الغرب أن يُصدّ هذا التيار أو تعاد الى الاسلام مكانته الاولى من السيطرة التامة التي لا تناقش على الحياة السياسية والاجتماعية " •

وينتهي " جب " الى القول : ان العالم الاسلامي سيصبح خلال فترة قصيرة جدا علمانيا في كل مظاهر حياته " (٢٩) •

---

(٢٩) عن مذكرة المذاهب الفكرية للسنة الرابعة بكلية الشريعة ـ الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة ـ علما بأنني لم اعثر على النص في الترجمة المتداولة لكتاب وجهة الاسلام ، لكن تأكد لدي بايراد الدكتور محمد محمد حسين له مع اختلاف ضئيل انظر الاتجاهات الوطنية : ٢/٢١٨ـ٢٢٠ •

ويقول في موضع آخر ـ وكأنما هو يستدرك على ما أوردنا :

" ... وكان طبيعيا ان يبقى الاسلام ... وقد يكون الدين الرسمي للدولة ، ولكنه سلب الحقوق التشريعية ونزل الى مكانة الديانة المسيحية في الدول الاوربية وقد اختلف تطبيق هذا المبدأ بطبيعة الحال وفق ظروف كل اقليم " . (٣٠)

---

(٣٠) وجهة الاسلام : ٥١ ، ويستحسن الاطلاع على ما كتبه جان مينو في " القوى الخفية " : ١٤٢ .

ثانيا ـ في التربية والثقافة :

قبل ان يصطدم الغرب المتحضر بالشرق المتخلف كانت التربية في الأخير متأخرة أسلوبا وموضوعا ، وكانت الثقافة جامدة ومحدودة .

كان نصيب الامة الاسلامية من المعرفة ينحصر في بقايا التراث الفكري الذي دونه علماء الكلام والفقه واللغة في عصور ازدهار الحضارة الاسلامية تلك البقايا التي تسمى " الكتب الصفراء " او الثقافة التقليدية ، وفي أحسن الاحوال " الثقافة الاصلية " ـ كما في بلاد المغرب ـ .

ولا شك ان هذه البقايا تشكل جانبا من جوانب الثقافة الاسلامية في مفهومها الواسع ـ بغض النظر عن مدى صدقها في تمثيل حقيقة التصور الاسلامي المفترضة في ذلك الجانب ـ ولكن من المؤكد أن ذلك لا يصح اعتباره الصورة الكاملة المثلى للثقافة الاسلامية ، ومن ثم فان الحكم على الاسلام من خلال النظرة لذلك الجانب وحده خاطئ يقينا .

ولسنا الآن بصدد الحديث عن مفهوم العلم في التصور الاسلامي ولكن الذي يهمنا هو ايضاح ان المستوى العلمي للمسلمين في القرن الماضي لا يمثل هذا المفهوم أبدا بل انه ـ في بعض الاحيان ـ ليتنافى معه تمام المنافاة .

ولنأخذ شاهدا قريبا لذلك من الأزهر الذي صُبت عليه اللعنات لجموده وتخلفه !!

كان الأزهر منذ تأسيسه يدرس في حلقاته المكتظة الفلك والجبر والهندسة والطب كما يدرس الفقه والنحو والحديث سواء بسواء بلا حرج ولا غضاضة .

وظل كذلك الى عصر ليس ببعيد ، فها هو ذا الجبرتي يورد في تاريخه أسماء كثيرين ممن نبغوا في هذه العلوم بالنسبة لعصرهم ـ منهم والده ـ وان

كان مستواهم متخلفا بالنسبة لما هو عليه حال معاصريهم في الغرب ، ذلك ان هؤلاء يمثلون الدفعات الاخيرة لحضارة منهارة ، في حين يمثل أولئك ـ الغربيون ـ طلائع متقدمة لحضارة فتية • ومع ذبول الحضارة الاسلامية التدريجي تقلص ميدان العلم ليقتصر على العلوم الضرورية التي لا يمكن للمجتمع الاسلامي أن يحيا بغيرها ، وأهملت العلوم الاخرى لا تحريما لها ولكن عجزا وتهاونا يمليها الواقع المنهار من كل ناحية •

وفي فترة الركود العلمي تلك ولدت اجيال بررت ذلك العجز والتهاون بصنوف المعاذير ثم استلغت الانغلاق وفسرت الدين نفسه تفسيرا ضيقا وحددت علومه تحديدا نابعا من واقعها المظلم لا من حقيقة الدين وجوهره •

وفيما كانت الاوضاع تنحدر الى الهاوية تلقت الأمة ضربة عنيفة من يد نابليون ـ طليعة الحضارة الغربية الكافرة ـ أيقظتها هذه الضربة من نومها ولكنها أفقدتها صوابها !

لقد فتح المسلمون أعينهم على وسائل جديدة ، وامكانيات حديثة تسندها علوم ناهضة ، وتعززها بحوث دائبة ، وكان من الممكن ـ عقلا ـ أن ينهضوا من كبوتهم مستفيدين مما رأوا ، ولكنهم ـ واقعا ـ لم يفعلوا ذلك لأنهم :

اولا ـ لم يكونوا يملكون القدرة على التمييز وتقدير التجربة حق قدرها ، و :

ثانيا ـ كان اقتران العلوم الجديدة بتلك الحملة الصليبية الوحشية ـ التي انتهكت حرمة الازهر نفسه ـ دافعا لمقت تلك العلوم ورفضها اطلاقا •

وحدثت نفرة شديدة بين علم الازهر الذى كان يعتقد أنه يمثل الثقافة الاسلامية اصدق تمثيل وبين علم الغرب الذى بدا لأعين الأزهريين علما غريبا خاصا بالكفار •

من هذا الخطأ التاريخي تقريبا نشأت الازدواجية الخطرة في العالم

الاسلامي : تعليم ديني ضيق محدود ، وتعليم لا دينى يشمل نشاطات الفكر كلها •

" وقد حاول محمد علي في أول الأمر أن يدخل العلوم الحديثة ضمن مناهج الازهر ، الا انه خشى معارضة الأزهريين ، فقام على الفور بانشاء نظامه التعليمى الحديث ، وهكذا انقسم التعليم في مصر الى نظام دينى ونظام مدنى حديث " (١)

ولما كان اللقاء بين شيخ الأزهر و " جومار " (٢) مستحيلا فقد كان لا بد من الصراع بين أتباع وثقافة كل منهما ، ورأى أبناء جومار أن القضاء على الأزهر يكون ببقائه جامدا معزولا عن الحياة ومتغيراتها ، فاستصدروا من الخديوى اسماعيل سنة ١٨٧٢ " القانون الخاص بتنظيم الأزهر واصلاحه !! " وتنص فقرة ب منه على :

" تحديد الدراسات التي تعطى بالازهر باحدى عشرة مادة هي : الفقه وأصول الدين والتوحيد والحديث والتفسير والنحو والصرف والمعانى والبيان والبديع والمنطق " (٣)

ووافق ذلك هوى في نفس علماء الأزهر ، وبذلك قطع الطريق أمام وعي ذاتي لاصلاح الازهر حقيقة •

أما المدارس الحديثة التي انشأها محمد على وأولاده فقد كانت مجالاتها أرحب وفرصها أوسع ، وكانت البعثات الى الخارج قائمة على قدم وساق •

والناحية الاشد خطورة هي الوسائل التي ينتهجها كلا النظامين التعليميين : النظام الدينى " كما سمي " يقوم في الكتاتيب المتفرقة في القرى

---

(١) تاريخ ونظام التعليم في مصر : منير عطاالله وزملاؤه : ٧٩ •
(٢) استاذ فرنسى عهد اليه محمد علي بالاشراف على الطلبة المبتعثين •
(٣) تاريخ ونظام التعليم في مصر : ١٠٥ •

والأمصار للمرحلة الابتدائية ، والجامع الأزهر للمرحلة العليا •

والكتاتيب يدرّس فيها " فقهاء " (٤) يجتمع حولهم الطلبة في مظاهر ريفية يحملون الألواح القديمة والمصاحف ، والفقيه يتوسطهم بعمامته وفي يده عصا طويلة ، ويقوم بتلقينهم بطريقة تغاير روح التربية الاسلامية المأثورة التي كانت في عصرها أرقى أساليب التربية العالمية •

وطلاب الجامع نفسه يتحلقون في أروقته مفترشين الحصر البالية يتصدرهم شيخ لا يكاد يختلف في مظهره وطريقته عن فقيه الكتاب • (٥)

وعندما يكمل الطالب دراسته تكون شهادته اجازة خطية يكتبها له الشيخ بيده ناعتا تلميذه بالالقاب العلمية العريضة •

أما ايرادات هذا التعليم فتأتى من هبات وصدقات المحسنين وأوقاف المتبرعين وهدايا رجال الدولة ، أى أنها فوق كونها غير منظمة يصحبها أيضا المن والرياء •

وعلى عكس ذلك كانت المدارس الحديثة :

فلها أبنية فخمة ووسائل متقدمة وميزانيات ثابتة ومناهج حديثة يديرها خبراء فرنسيون يشعر مظهرهم وتصرفاتهم بالحداثة والتحضر !!

ولندع النظام الازهرى على جموده الذى سيظل عليه حتى ينسف كلية ـ كما سنرى ـ ولنتابع سير التعليم اللاديني واتجاهاته الثقافية •

يتحدث " جب " عن شيء من ذلك قائلا :

" وكانت المصادر الاولى التي أخذ الفكر الاوربى يشع منها هي المدارس المهنية التي انشأها محمد علي والبعثات العلمية التي ارسلها الى أوربا ٠٠" •

---

(٤) الفقيه في عرف ذلك الزمن هو معلم الكتاب •

(٥) انظر مثلا : زعماء الاصلاح لمحمد امين : ٢٨٥ •

ويذكر ان منها " مدرسة الالسن التي كان يشرف عليها العالم الفذ رفاعة الطهطاوى (١٨٠١ ـ ١٨٧٣) " وهو تلميذ جومار البار (.

ثم كانت " الموجة الثانية من موجات التغريب في عهد الخديوى اسماعيل ، ويمكننا أن نختار محمد عثمان جلال (١٨٢٩ ـ ١٨٩٨) تلميذ رفاعة مثالا للجناح المتقدم من هذه الحركة ، فقد كانت أبرز آثاره الأدبية ترجمات لبعض المؤلفات الفرنسية ذات الشهرة ، مثل بول وفرجيني ، وخرافات لافونتين وبعض ملاهي موليير ، والأمر الذى يجدر التنويه به في عمله هذا ليس هو فكرة الترجمة في ذاتها بل الروح التجديدية التي تكمن وراءها (.) فقد ترجم لافونتين الى شعر سهل لا تصنع فيه ولا رهق ، الا أنه حين ترجم ملاهي موليير كتبها بلهجة العامة في مصر ، ولم يكن الوقت قد حان بعد للاقدام على مثل هذا العمل الجرئ (.) غير أن ما تجلى في تلك الخطوة من انفكاك تام من أسر الماضي كان دليلا على روح العصر ، قال الخديوى اسماعيل " ان مصر أصبحت قطعة من أوربا " ولذا كان لا بد للأدب المصرى من أن يعبر عن استقلاله عن التقاليد الآسيوية والافريقية " (. (٦)

كانت حركة التغريب الاولى فرنسية الاتجاه ، فلما احتل الانجليز مصر أصبحت الحركة انجليزية واتخذت طابعا جديدا أعمق وأوسع ، فقد كان الاستعمار الانجليزى يهدف الى ما ذكره اللورد ميكالى عن الهند :

" يجب ان ننشئ جماعة تكون ترجمانا بيننا وبين ملايين من رعيتنا وستكون هذه الجماعة هندية في اللون والدم انجليزية في الذوق والرأى واللغة والتفكير " (٧) .

---

(٦) دراسات في حضارة الاسلام : ٣٢٠ ـ ٣٢١ .

(٧) نحو التربية الاسلامية الحرة ، الندوى : ٣٢ .

فالاستعمار ـ كما قال أحد شعراء المسلمين في الهند ـ أذكى من فرعون الذى استخدم سياسة قتل الأولاد ، ولم يفتح لهم مدارس وكليات تقتلهم من حيث لا يشعرون كما فعل المستعمرون • (٨)

فقد افتتحوا مدارس غربية قلبا وقالبا في المراكز الثقافية الكبرى للعالم الاسلامي ورسموا المخططات لاستئصال التعليم الأصلي •

من هذه المدارس الكليات التبشيرية التي انشئت في لاهور وبيروت واسلامبول والقاهرة وغيرها ، عدا المدارس الأقل شأنا التي انتشرت في الهند وبلاد الشام ومصر وبصفة أظهر في بلاد المغرب •

ومما لا شك فيه ان هذه المدارس كان لها أعظم الأثر في توجيه النهضة الفكرية وجهة لا دينية وتوسيع الهوة بين التعليم الديني واللاديني كما شجع الاستعمار واحتضن الحركات الفكرية والأدبية التي قام بها النصارى ـ لا سيما الشاميون ـ حيث كانت جمعياتهم وصحفهم في الشام ومصر من أشد أجنحة التغريب تأثيرا •

أما احتواء التعليم الأصلي والسيطرة عليه فأقوى الشواهد عليه المخطط البطيء الماكر ، الذى وضعه كرومر ووزيره القسيس دنلوب في مصر ، والذى استخدم أحدث ما وصلت اليه التربية وعلم النفس في عصره لاخراج جيل ممسوخ قابل للاستعباد •

" فتح دنلوب مدارس حكومية ابتدائية تدرس العلوم " المدنية " وتعلم اللغة الانجليزية ـ لغة الاستعمار ـ وتخرج موظفين كتبة في الدواوين التي يحتلها ويديرها الانجليز ، يقبضون رواتب تمد بالجنيهات لا بالقروش ؛

---

(٨) انظر روائع اقبال :

" ولم يكن الأمر في حاجة الى مزيد من الاغراء . فمن ذا الذى يبعث بابنه بعد اليوم الى الازهر الا الفقراء العاجزون عن دفع المصروفات ، وهو يرى له المستقبل المضمون في وظيفة الحكومة حيث " يرطن " بلغة السادة المستعمرين ؟

" وانصرف الناس القادرون ـ من ذوات انفسهم عن الأزهر ، واتجهوا الى مدارس الحكومة بعد الثورة الاولى التي اثارها الحس الباطني المسلم على هذه المدارس " الكافرة " التي لا تعلم القرآن ولا تعلم الدين ، وأصبح هؤلاء المتعلمون " طبقة " جديدة تستمد طبقيتها من أنها من ابناء الأسر أولا ، ومن مركزها الاجتماعي في وظيفة الحكومة ثانيا ، ومن التشجيع الظاهر والخفى الذى تتلقاه من سلطات الاستعمار بعد هذا وذلك " (٩)

وبالاضافة الى اسلوب التربية السيء المتعمد لم يشأ دنلوب أن تخلو المدارس تماما من الدين ـ ولو فعل ذلك لكان أفضل ـ بل قرر مادة " دين " لكنه جعلها مادة ثانوية في قيمتها الدراسية ثم ان حصصها كانت (توضع في نهاية اليوم المدرسي وقد كلّ التلاميذ وملوا وحنوا الى الانفلات من سجن المدرسة البغيض الى فسحة الشارع أو رحب البيت ، وكانت هذه الحصص توكل الى أسنّ مدرس في المدرسة ، يسعل ويتفل ، ويمثل امام التلاميذ ضعف الحياة الفانية المنهارة .. فيرتبط الدين في وجدانهم بالعجز والفناء والشيخوخة ، كما يرتبط بالملل والضجر والنفور " (١٠)

وقرر كذلك ـ لغاية خبيثة ـ مادة " لغة عربية " ، وفي الوقت الذى كان فيه مدرس اللغة الانجليزية يتقاضى شهريا اثنى عشر جنيها كاملة كان زميله مدرس اللغة العربية لا يقبض سوى أربعة جنيهات ، مما جعل الفرق

---

(٩) هل نحن مسلمون : ١٣٦ـ١٣٧ .
(١٠) المصدر السابق : ١٣٩ .

بينهما في المكانة الاجتماعية شاسعا ،وجعل اللغة العربية في ذاتها موضع الاحتقار والازدراء . (١١)

وليس انكى من ذلك الا المناهج التي كانت تدرس في مدارس الحكومة والتي كانت مملوءة بالطعن والسموم فيما يتعلق بالاسلام وتاريخه وحضارته ،ومفعمة بالتقدير والاكبار الذى يصل درجة التقديس فيما يتعلق بأوربا وتاريخها وحضارتها .

ومن بين طلاب هذه المدارس تنتقى نخبة معينة للابتعاث الى أوربا وهناك يتم المسخ الكامل لها ،لكي تعود الى بلادها فتقبض على مقاليد الفكر والثقافة وتوجهها حسب ارادة السادة المستعمرين .

والعمل نفسه ـ مع اختلاف في الوسائل ـ سلكته فرنسا في الشام وبلاد المغرب ، وقد نشأ نتيجة لهذه التربية الاستعمارية ـ جيل مقطوع الصلة بدينه ،مفتون بالغرب وتياراته الثقافية المختلفة التي تتفق في شيء واحد هو تحللها من الالتزام بالدين ،يتحدث " ولفرد كانتول سمث " باجمال عن التأثير الثقافي الغربي قائلا :

" ان من أهم اسباب حركة الحرية والاباحية التي تسود اليوم في العالم الاسلامي ، ومن اكبر عواملها نفوذ الغرب ، فقد بلغت هذه الحركة أوجها في أوربا من أواخر القرن التاسع عشر الى الحرب العالمية الاولى ، وهكذا شأن نهضة أوربا وتقدمها ، وقد سافر كثير من الشباب المسلم الى الغرب واطلعوا على روح أوربا وقيمها وأعجبوا بها الى (أبعد) حد ، وينطبق هذا بخاصة على الطلاب الذين درسوا في جامعات أوربا بعدد لم يزل يزداد مع الايام ،وهم الذين سببوا استيراد كثير من أفكار الغرب وقيمه الى العالم الاسلامي ، وقد

---

(١١) انظر بالتفصيل : هل نحن مسلمون : ١٤٢ـ١٤٣ .

حازت قصب السبق في هذا المضمار تلك المعاهد الثقافية التي قامت بتربية جيل بأكمله على النمط الغربي الحديث ، وكان مما صدره الغرب الى العالم الاسلامي تلك الافكار المتعددة الجديدة التي تقع من الاهمية بمكان ، والاتجاهات العقلية الدقيقة الفجة (كذا) والميول الحديثة التي كان في نشرها أوفر نصيب لنمط التعليم الغربي الحديث ، ويفوقها في ذلك تأثير معاهد الغرب الحقوقية والسياسية والاجتماعية الجديدة ، ونفوذها الزائد ، ومنها ما يسلط اجبارا وما يحاول تسليطه ، وبينما قام بعض المسلمين لمقاومة هذا التيار رحب به البعض الآخر ، ان بعضهم قد وقع تحت تأثير هذه التربية رسميا ، وبعضهم قد رحب بهذا التيار بدافع من أنفسهم ، وأنتج ذلك أن كثيرا من المسلمين اعترفوا بهذه النظريات والمعاهد كحقيقة ثابتة ، وخضعوا لها بالتدريج ، وهكذا استمرت عملية التغريب بسرعة وقوة بالفتين". (١٢)

لم يمض على سيطرة الاستعمار فترة من الزمن حتى كان العالم الاسلامي خاضعا لتأثير التربية والفكر الغربيين خضوعا يتفاوت حسب الاقاليم المختلفة .

ففي تركيا ـ التي لم تحتل احتلالا مباشرا ـ بلغ التأثير ذروته في الردة العقائدية والفكرية العنيفة التي انتهجها أتاتورك لطمس الاسلام بيد من حديد . وفي الهند فقدت الثقافة الاسلامية ريادتها وتقوقعت في المؤسسات الاهلية الصغيرة ، وضاع كثير من نشاطها في زحمة الصراع الداخلي والخارجي . أما في العالم العربي فلعل أصدق وصف لحاله هو ما قاله " توينبي " من أن الصراع الفكري فيه بين الافكار الغربية والاسلام لم ينتج عملا عضويا ناجحا مثل ذلك الذي في تركية وانما كان نتاجه هجينا لا هو غربي ولا هو اسلامي " (١٣)

---

(١٢) عن التربية الاسلامية الحرة : ٣٦ـ٣٧ .

(١٣) مختصر دراسة التاريخ : ٣/ ١١٣ .

وقد قال أحد المستشرقين " ان في القاهرة مائتي مطبعة وسبع عشرة ،تصدر ما معدله كتاب أو نشرة واحدة في اليوم " ثم يستدرك موضحا أن " اكثرية ما يصدر هو ترجمات للقصص الغربية " (١٤) وهذا يعطينا الدليل على مدى ما وصلت اليه الهجنة ، فان أمة تتجه الى القصص الغرامية في وقت هي أحوج ما تكون فيه الى ترجمة العلوم التطبيقية والأخذ بأسباب النهضة الجديدة بهذا الوصف •

وقد أخرج هذا الهجين الممسوخ دعوات ونتائج سيئة نذكر منها على سبيل التمثيل مايلي :

١ ـ الدعوة الى الارتماء في احضان الغرب وأخذ حضارته دون وعي ولا تمييز : وقد تزعم هذا الاتجاه كثير من هجناء الفكر ، منهم صاحب كتاب (مستقبل الثقافة في مصر) الذى يقول :

" بل نحن قد خطونا أبعد حدا مما ذكرت فالتزمنا أمام أوربا أن نذهب مذهبها في الحكم ونسير سيرتها في الادارة ، ونسلك طريقها في التشريع التزمنا هذا كله امام اوربا ،وهل كان امضاء معاهدة الاستقلال ومعاهدة الغاء الامتيازات الا التزاما صريحا قاطعا امام العالم المتحضر بأننا سنسير سيرة الأوربيين في الحكم والادارة والتشريع ؟ فلو هممنا الآن أن نعود أدراجنا وأن نحيي النظم العتيقة لما وجدنا الى ذلك سبيلا ، ولوجدنا أمامنا عقابا لا تجتاز ولا تذلل عقابا نقيمها نحن لأننا حراص على التقدم والرقي ،وعقابا تقيمها أوربا لأننا عاهدنا على ان نسايرها ونجاريها في طريق الحضارة الحديثة " (١٥) ويقول عن التعليم خاصة :

" من الناس من يريد التعليم مدنيا خالصا ، وأن لا يكون الدين جزءا من

---

(١٤) دراسات في حضارة الاسلام : ٣١٨

(١٥) عن الاتجاهات الوطنية : ٢/ ٢٣٤ وللتوسع في الموضوع يراجع نقد مستقبل الثقافة في مصر : سيد قطب •

أجزاء المنهج المقومة له ، على أن يترك للاسر النهوض بالتعليم الديني وأن لا تقيم الدولة في سبيل هذا التعليم من المصاعب والعقاب ما يجعله عسيرا ، ومنهم من يرى أن التعليم الديني واجب كتعليم اللغة وكتعليم التاريخ القومي ، لانه جزء مؤسس للشخصية الوطنية ، فلا ينبغي اهماله ولا التقصير في ذاته ، وواضح جدا ان هذا الرأى الأخير هو مذهب المصريين ، وأن من غير المعقول أن يُطلب الى المصريين الآن ان يقيموا التعليم في بلادهم على اساس مدني خالص وأن يترك الدين للأسر " (١٦) .

ومثل طه حسين سلامة موسى الذى يقول متحدثا عن نفسه :

" انه شرقي مثل سائر مواطنيه ولكنه ثار على الشرق عندما أيقن أن عاداته تعوق ارتقاءه ، ودعا الى أن يأخذ الشرقيون بعادات الغربيين كي يقووا مثلهم ، ولكنه لم يجن من هذه الدعوة غير الكراهية والنفور ، وأحس بالتناقض العميق بينه وبين المجتمع ، وهو تناقض كاد يفصل بينه وبين مواطنيه ، فان اسلوب حياته وأهدافه الثقافية والسياسية والروحية تنأى عن عادات مجتمعه ، انه ليخالف سائر الكتاب اذ هو وان كان يكتب بالعربية فانه يفكر تفكيرا أوربيا " (١٧)

ومن هؤلاء احمد لطفى السيد وصهره اسماعيل مظهر وقاسم أمين .

٢ ـ احتقار الماضى الاسلامي وتربية الاجيال تربية لا دينية حديثة :

ولنأخذ مثالا على هذا ما قاله مؤلف كتاب " مصر ورسالتها " :

" عندما فتح العرب مصر عام ٦٤٠ كانت ولاية بيزنطية تحكم من القسطنطينية وعندما غزا الفرنسيون مصر عام ١٧٩٨ وجدوها ولاية عثمانية تحكم من نفس القسطنطينية التي حملت اسما جديدا هو استامبول أو الاستانة ، ولم يكن حالها عام ١٧٩٨ بأحسن من حالها عام ٦٤٠ ، كان الناس في بؤس وذل وكان البلد في خراب " .

---

(١٦) الاتجاهات الوطنية : ٢/ ٢٣٥

(١٧) الأدب للشعب : ١٣١ .

" فكأن اثنى عشر قرنا من تاريخ هذا البلد ضاعت سدى ، كأن هذه السنوات الكثيرة قد انقضت ونحن نيام بعيدين (كذا) عن الوجود ! "

" شيء لم يحدث في تاريخ بلد مثل مصر أبدا ، تصور اثنى عشر قرنا ونصف تذهب سدى ! قد يقال قد قامت خلالها دول وأمجاد .. ولكنها تلاشت كأن لم تغن بالأمس وعاد المصرى ـ وهو مدار هذا التاريخ ومقياسه ـ بالضبط كما كان في أواخر عصر الرومان .. "

(ما الذى حدث ؟)

" الذى حدث أننا تخلينا عن رسالتنا (!) واتجهنا بكليتنا نحو الشرق فاختل ميزان تاريخنا وكان ذلك الانكسار العظيم " (١٨)

وبناء على هذه الافكار طولب بتربية الأجيال الجديدة تربية لا صلة لها بذلك الماضى ، وها هي ذى بعض نصوص من نشرة مؤتمر التربية العربى المسمى " الحلقة الدراسية العربية الأولى للتربية وعلم النفس " :

" يجب ان تعمل التربية العربية على خلق خصائص جديدة في الشخصية العربية الناشئة بحيث تستأصل منها رواسب العصر التركي والاستغلال الاستعمارى وتصنع بدلا منها خصائص مضادة تتحقق بها القومية العربية الشاملة في المستقبل القريب . فالمواطن العربي يجب ان يكون شخصا تقدميا يؤمن بفلسفة التغيير والتطور يجب ان يعتبر نفسه مسؤولا عن المستقبل لا عن الماضى ، ومسؤولا أمام الاجيال القادمة لا أمام رفات الموتى .. " !! (١٩)

وعن التربية التقليدية ـ كما أسماها ـ يتحدث المحاضر نفسه عن التربية الاسلامية باحتقار شديد ممثلا لها بقوله :

" كان الطفل يشترى من أسواق النخاسة ... ثم يدخل القلعة وتتبع معه

---

(١٨) حسين مؤنس : ٨١ـ٨٢ .

(١٩) من كلمة " أبو الفتوح رضوان " في المؤتمر : ٧٧ من النشرة .

طريقة التلقين الدقيق فيخرج منها بعد أعوام قليلة مسلما متعصبا لاسلامه ، وملوكا يعتقد أنه ملك للأمير الذى اشتراه ورباه ... "

الى ان يقول " لهذا كانت طريقة التلقين سيئة السمعة كطريقة تربوية ، لأنها تؤدى الى تعصب حيواني عاطفي غير قائم على الفكر والاقتناع" (٢٠)

وعلى لسان محاضر آخر يقول المؤتمر :

" في تجاربنا الخاصة أن أخطر ما تتعرض له سيكولوجية الاطفال في هذا الصدد هو التعصب الديني " (٢١) ويشرح مفهوم الدين كما يتصوره :

" الدين اداة للفكر يسند المجتمع عن طريق القدوة والتعليم والارشاد والترغيب والترهيب ... والتربية الدينية الخاطئة قد تعمل في تزييف الاهداف وفي جعلها أداة للشر الغريزى ، وكثيرا ما يستغل الدين لأغراض السياسة الحزبية ، وربما نتج عن هذا الارتباط بين الدين والسياسة أخطر ما يهدد العلاقات والروابط القومية .

" ويرى الكثرون ان الكتب السماوية ليس من أغراضها أن تكون موسوعات يبحث المؤمنون فيها عن مشاكل العصر كي يجدوا فيها حلا لمشكلات العمال في القرن العشرين على سبيل المثال ، بل هي أداة الهام تلهم المؤمن لاستعمال الفكر في حل مشاكله الطارئة " (٢٢)

٣ ـ تطوير الازهر (تطويعه) :

كان الازهر ـ رغم تخلفه ورغم تقصيره في ابراز الثقافة الاسلامية المتكاملة ـ قلعة اسلامية يحسب لها اعداء الاسلام كل حساب ، وكان فيه رجال يلتهبون غيرة على الاسلام ويجابهون الطاغوت ـ داخليا كان أم خارجيا ـ بكل جرأة .

---

(٢٠) النشرة السابقة : ٧٨

(٢١) من كلام " التجانى الماص؟ في المؤتمر : ١٨٥ من النشرة .

(٢٢) النشرة السابقة : ١٩٢ ـ ١٩٣ .

فهو الذى قاوم الحملة الفرنسية وقتل أحد منسوبيه قائدها ، وهو الذى تزعم الثورة الشعبية سنة ١٩١٩ ، وفوق هذا كان رابطة اسلامية عامة تهتز لما يحدث على الرقعة الاسلامية الكبيرة .

ولذلك ظل الأزهر سنين طويلة محط المقت ومصب اللعنات من قبل دعاة التغريب واللادينية ، حتى جعلوه رأس المشاكل الثقافية في مصر والعقبة الكؤود في سبيل النهضة !

وأعظم من تجرأ على الأزهر في القرن الماضى - عن حسن نية وربما عن شعور بالنقص - هو خريجه الشهير الشيخ محمد عبده الذى سبق شيء من الحديث عنه . وربما كان هذا من أهم أسباب التقدير والتمجيد اللذين حظى بهما الشيخ من المستشرقين والمبشرين وأذنابهم بلا استثناء .

ثم جاء طه حسين ولطفى السيد وأضرابهما مبتدئين من حيث انتهى محمد عبده وجيله ، وطالبوا بالحاح أن تزال هذه الصخرة العتيقة التي تعترض الجسر الثقافي المريض الذى يمتد من أوربا الى مصر عابرا البحر الابيض المتوسط ، أى أن يستبعد آخر أثر شرقي من مصر التي اكتشفت - حسب رأيهم - أن هويتها غربية ١٠٠ % .

وكان على الازهر اما ان يساير الموجة العاتية فيفقد رسالته واما ان يحكم على نفسه بالفناء .

ورأى اذيال الغرب وكذلك " المتحررون ! " من علماء الازهر أن الوسيلة المثلى للخروج من الأزمة هي تطوير الازهر ، أى أن يفقد رسالته في سبيل الاحتفاظ بوجوده !

وصدرت القوانين من سنة ١٩٣٦ حتى سنة ١٩٦١ بشأن تطوير الازهر (٢٣)

---

(٢٣) انظر تاريخ ونظام التعليم في مصر : ١٥٦ ، ٢٢٣ .

واستطاع دعاة اللادينية أن يدخلوا تاء التأنيث على الجامع الازهر وبذلك تحول من وكر لثقافة العصور الوسطى الى مركز ثقافي عصري مدني !!

أما اثر هذا الانتصار للثقافة المستوردة في معاهد الثقافة الاسلامية خارج مصر ـ التي كانت تعد الازهر أبا روحيا أو على الاقل سندا قويا لها ـ فقد كان سريعا وواضحا اذ تم تطويع البقية الباقية منها اما بدوافع ذاتية واما بقوانين اجبارية .

٤ ـ الدعوة الى العامية :

ليست اللغة العربية أداة الثقافة الاسلامية فحسب ، بل هي مقوم من مقومات الشخصية الاسلامية للفرد والمجتمع ، وليس غريبا أن يشن المستشرقون والمبشرون عليها هجمات شرسة تتعلق بألفاظها وتراكيبها ومقدرتها على مسايرة العصر ، فقد كانوا يرومون هدم القرآن بهدم لغته ليصبح كالانجيل اللاتيني لا يقرؤه الا رجال الدين غير ان المؤسف حقا هو أن يتصدى لمقاومة العربية اناس يحملون اسماء اسلامية كانت الفصحى سبب بروزهم الفكري ، ويكتبون بها سمومهم الرامية الى الغائها ، وان يعد ذلك جزءا من التفكير الاصلاحي وهدفا من اهداف المصلحين !

كان زعيم الاصلاح الشيخ محمد عبده محقا في رفض الأسلوب الكتابي القائم على الصناعة اللفظية والدعوة الى كتابة سلسة حرة ، ولكنه ـ دون ان يدري ـ فتح الباب لهدم العربية ـ لأول مرة في تاريخها ـ وذلك أنه دعا الى " تصحيح الخطأ المشهور من اخطاء النحو والصرف التي كانت تتخلل الكتابة في عصره " (٢٤)

وعلى هذا الاساس وضعت القاعدة الخاطئة " صحيح مشهور خير من فصيح مهجور " ثم توسع فيها حتى جاء اليوم الذي طولب فيه بهدم النحو العربي كله !

---

(٢٤) عن كتاب " قاسم امين " : ما هو حسن فهمي : ٢٣ .

وكان عبد الله النديم ـ تلميذ محمد عبده ـ ممن أسهم في هذا المجال لا بالدعوة الى العامية بل باستخدامها في لغة الصحافة ، ذلك أن مجلة " الاستاذ " التي كان يصدرها تحتوى في كل عدد من أعدادها مقالا او اكثر باللهجة الدارجة . (٢٥)

ثم جاء الجيل المستعبد للغرب معلنا عداوته للثقافة الاسلامية واللغة العربية وأشهر زعمائه احمد لطفي السيد ، وزميله ورفيق عمره عبد العزيز فهمي ،وزوج أخته اسماعيل مظهر ثم صديقه الحميم طه حسين .

ولعل تسليط شيء من الضوء على حياة لطفي السيد ـ أستاذ الجيل كما سموه ومحور هذه الدعوى ـ يعطينا لمحة عن دوافع الفكرة وأهدافها :

كان لطفي السيد من أخلص تلاميذ محمد عبده له واتيحت له الفرصة اكثر من شيخه اذ عاش بعده ما يزيد على الاربعين سنة أى أنه عمر اكثر من تسعين عاما .

وأهم مناصبه الثقافية توليه لادارة الجامعة المصرية عند تأسيسها ،ثم توليه لوزارة المعارف آخر عمره .

أما أعماله السياسية فقد كان زعيما لحزب الأمة باعتباره رئيس تحرير " الجريدة " صحيفة الحزب واشتهر بعداوته لفكرة الجامعة الاسلامية ورفعه شعار مصر للمصريين وشعار " سياسة المنافع لا سياسة العواطف " (٢٦)

ولا يستطيع الكاتبون عن حياته أن يخفوا أنه فاوض " كِتْشْنَر "

---

(٢٥) انظر المجلد الاول منها ـ بمركز البحث العلمى في مكة المكرمة .

(٢٦) انظر كتاب " احمد لطفي السيد " : حسين فوزى النجار : ١٨٣ وفيما يتعلق بشعار مصر للمصريين انظر ما كتبه برنارد لويس في الغرب والشرق الاوسط : ١٢٢ .

ثم " جراهام " على أن تنفصل مصر عن تركية وتصبح دولة مستقلة يحكمها الخديوى تحت وصاية بريطانيا .(٢٧) أما فكره فكان متأثرا جدا بداروين ومل وروسو وأضرابهم من الغربيين (٢٨) وكان مع كل ناعق من دعاة التفرنج والعنصرية فقد " حظيت دعوة قاسم امين لتحرير المرأة من تأييد لطفي السيد بما لم تحظ به من كاتب أو صحفي آخر " (٢٩) .

وعند ما اصدرت الحكومة قرارا بنقل صديقه وشريك دعوته طه حسين من الجامعة ـ بسبب الضجة التي ثارت حوله ـ لم يسع لطفي السيد الا أن يقدم استقالته من منصب وزير المعارف احتجاجا على ذلك .(٣٠)

ومع زعمه أن الفصحى معقدة وقديمة نراه يمضي ربع قرن من حياته في ترجمة كتب أرسطو .(٣١)

وقد ذكر مؤرخ حياته حسين فوزى النجار بعض الحوادث التي تدل ـ كما يرى ـ على انه كان لايؤمن بالغيبيات والقوى الخفية(٣٢) وقد علل لطفي السيد لتأخر مصر وتقدم الغرب بأن مصر تستعمل لغتين لغة للثقافة وأخرى للتخاطب . والحل الذى يراه وقد طلب الاقتراحات الكثيرة هو النزول بالفصحى الى مستوى العامية حتى يتم مع الزمن توحيد اللغتين في لغة واحدة ـ هي بالطبع " العامية " (٣٣)

أما زميله الاول عبد العزيز فهمي فقد كان اكثر جرأة منه حين دعا الى كتابة العربية بالحروف اللاتينية وهي الدعوة التي ولدت لحسن الحظ ـ ميتة !

وأما صديقه طه حسين فقد كانت دعوته للعامية صدى واضحا لكتابات المستشرقين . وكذلك آراؤه في الشعر الجاهلي . ورحم الله الرافعي فقد فضح هذه الدعوى وعرّى كاتبها .(٣٤)

---

(٢٧) انظر احمد لطفي السيد : ١٨٧ ـ ١٩٠ .
(٢٨) = = : ٩٤ ، ١٧٧ .
(٢٩) احمد لطفي السيد : ٢١٤ .
(٣٠) = = : ٢٧٨ .
(٣١) = = : ٨٩ الحاشية .
(٣٢) المصدر السابق : ٩٢ .
(٣٣) أنظر بعض مقترحاته للموضوع في فقه اللغة ،على عبد الواحد وافى : ١٨٤ .
(٣٤) انظر كتابه " تحت راية القرآن " .

لقد كان كل دعاة العامية أناسا مشبوهين وصلتهم بالدوائر الاستعمارية واضحة وذلك ما يؤكد أنها كانت جزءا من المخطط اليهودى الصليبى للقضاء على الاسلام ، بل انه من المؤكد أن الدعوة العامية انما ظهرت أصلا من أفكار المستعمرين وفي احضان المبشرين يتضح ذلك من أسماء دعاتها الأوائل أمثال "بوريان وماسبيرو" (٣٥)

وجدير بالذكر ان الذى خلف عبد العزيز فهمي في المجتمع اللغوى هو توفيق الحكيم الذى دعا الى قاعدة "سكّن تسلم" (٣٦) وليس مثل هذه الدعوة أسوأ الا ان تفتح كليات اللغة العربية والآداب في البلاد العربية أقساما لما أسموه "التراث أو الأدب الشعبي" وأن تحضر فيه رسائل جامعية عليا • على ان الفكرة لم تقتصر على مصر فقد كان لها اذيال في الشام منهم المتطرف كسعيد عقل ومنهم المتدرج كبعض المهجريين •

٥ ـ اقتباس الانظمة والمناهج اللادينية من الغرب :

لم يقتصر الامر على مناهج كرومر ودنلوب ، فقد كان أذيال الفكر الغربى لا يقلون عنهما رغبة في صبغ مصر والعالم الاسلامي بالصبغة اللادينية الغربية •

وقد كان من اهداف أعداء الاسلام ما أوصى به مؤتمر القاهرة التبشيرى المنعقد سنة ١٩٠٦ من وجوب انشاء جامعة علمانية على نمط الجامعة الفرنسية (٣٧) لمناهضة الأزهر والذى قالوا انه "يتهدد كنيسة المسيح بالخطر" ؛ وقد قام الأذيال بتنفيذ المهمة اذ انه بعد انتهاء المؤتمر بسنتين تقريبا أسس أحمد لطفي السيد وزملاؤه الجامعة المصرية ، وكان النص الاول من شروط انشائها هو : ألا تختص بجنس أو دين بل تكون لجميع سكان مصر على اختلاف

---

(٣٥) انظر حصوننا مهددة من داخلها ، د • محمد محمد حسين : ٢٥١ •
(٣٦) انظر زعماء وفنانون وأدباء ، كامل الشناوى : ١٨١
(٣٧) الغارة على العالم الاسلامي : ٧ •

جنسياتهم وأديانهم فتكون واسطة للألفة بينهم " (٣٨).

وهذا الشرط الجائر ـ في جامعة تقوم في بلد مسلم وعلى نفقات شعب مسلم ـ انعكست آثاره على مناهج التعليم في الجامعة ، فلم يكن من بينها شيء من علوم الاسلام احتراما لمشاعر القلة غير المسلمة ، وهكذا كان التعليم الجامعي الحديث علمانيا من البداية ، وكان نتاجه تلك الجموع المستعبدة للغرب فكرا وسلوكا ، النافرة من دين آبائها وأجدادها .

ولم يكن الأمر مقصورا على المناهج بل تعداها الى أسلوب التربية وفلسفة السلوك فقد طبق الاختلاط بين الذكور والاناث في الجامعة المصرية التي كانت مركزا لانصار دعوة قاسم امين المريبة ، وتبعتها معظم جامعات العالم الاسلامي ، كما ادخلت التقاليد الغربية المنافية للاسلام فى صلب النظام الجامعي ، اذ شيدت في اطاره معاهد عليا للرقص والتمثيل والنحت والموسيقى ، كيف لا وقد قال قاسم أمين صديق لطفي السيد في كتابه " كلمات " :

" لعل اكبر الاسباب في انحطاط الامة المصرية تأخرها في الفنون الجميلة : التمثيل والتصوير والموسيقى " (٣٩)

والمؤسف ما اثبته العقاد من ان دراسة الفنون الجميلة من بنات افكار محمد عبده (٤٠) وقد يكون امر المناهج أهون خطرا لو أنها إذ أهملت العلوم الشرعية البحتة حورت المقررات الاخرى بما يوافق التصور الاسلامي ، وحذفت منها الايحاءات الفلسفية غير العلمية التي لا مبرر لها الا ظروف الصراع بين الكنيسة والعلم في أوربا ، كما اسلفنا في مواطنها ـ ولكن الواقع ان انظمة التعليم في العالم الاسلامي تدرس تلك العلوم بصورتها الغربية المعادية للدين ، دون التفريق بين دين ودين .

---

(٣٨) احمد لطفي السيد : ٢٦٢

(٣٩) قاسم امين : ٣٩.

(٤٠) انظر فصل الفنون الجميلة من كتاب : محمد عبده .

صحيح أن الاستعمار فرض تلك الانظمة فرضا ، ولكنها لا تزال بعد رحيله كما كانت أو أشد ، بل انها لتطبق في بلاد لم تطأها لمستعمر قدم !

ولا يعوزنا ان نمثل لهذا فهو ملء السمع والبصر :

الداروينية ـ التي عرضنا سلفا رأى الباحثين المحققين من الغربيين فيها ـ تدرسها مناهجنا على أنها حقيقة علمية في مواد كثيرة كالاحياء والتاريخ الطبيعي وعلم الأرض .. سواء ذُكر داروين او لم يذكر .

ونظرية فرويد المتهافتة نجدها مقررة في أقسام علم النفس في الجامعات قاطبة على أساس انها نظرية علمية كذلك !

وفي أقسام الاجتماعيات تدرس نظرية دوركايم ، بل يدرس علم الاجتماع بكامله على المنهج الغربي ، ونحن نعلم مما سبق انه ـ كعلم النفس ـ بنى اصلا على أسس لا دينية .

وفي اقسام الكيمياء والفيزياء والفلك والطب .. الخ تدرس مناهج محشوة بايحاءات فلسفية أو وثنية تظهر في العبارات المسمومة مثل " المادة لا تفنى ولا تستحدث " ومثل " خلقت الطبيعة كذا " .

وكذلك تعمد تفسير وقوع الزلازل وسقوط النجوم وتكوين الجنين وما أشبهها تفسيرا ماديا صرفا .

ومن ذلك أيضا الاتيان ببعض ما ثبت في القرآن والسنة تحت العبارة التقليدية "كان الناس قبل ظهور العلم الحديث يعتقدون كذا " أو "كانت الكتب القديمة تقول كذا " ومثلها " كان الناس قديما ينسبون ما يعجزون عن تفسيره الى القوى الغيبية الخفية " .

واجمالا نجد أن هذه المناهج يغلب عليها ـ ان لم تكن كلها ـ الطابع المادى .

أما المقررت الأدبية البحتة ـ وهي التي لم يكن متوقعا أن تتأثر بافكار الغرب ـ فقد يعجب المرء اذا علم أنها ربما فاقت المقرارات العلمية في ذلك .

ويكفى في هذه العجالة أن نلم بمادتي التاريخ والمطالعة في معظم المناهج المعاصرة :

أما التاريخ فقد صيغ منهجه في قالب غربي فهو مقسم اقساما ثلاثة كبرى :

١ ـ التاريخ القديم : وهو يشمل الحضارات الجاهلية التي لا توصف بذلك اطلاقا .

٢ ـ تاريخ العصور الوسطى : ويشمل فترة ما قبل ظهور الاسلام بقليل ثم يتدرج فيه تبعا للمنهج الغربي التاريخ الاسلامى كله تقريبا .

٣ ـ التاريخ الحديث : وهو يبتدئ ـ غالبا ـ من قدوم حملة نابليون لاحتلال مصر التي تسمى "فجر النهضة الحديثة"، وينتهى بالتاريخ المعاصر .

ولا يخفى ما في هذه القسمة ـ في حد ذاتها ـ من ايحاءات ودلالات ،

هذا في المنهج أما المضمون : فقد حشيت مقررات التاريخ بدسائس المستشرقين وسموم المبشرين ، وكتبت بأساليب شديدة التأثر بالاساليب الغربية التي تفسر التاريخ تفسيرا ماديا ، أو على ضوء رؤى فلسفية خاصة ، مع اسقاط أو التقليل من قيمة العامل الايمانى الذى هو أسس العوامل في التاريخ الاسلامي .

فنحن نقرأ في هذه المقررات مثلا : أن غزوة بدر كان هدفها تعويض ممتلكات المسلمين بمكة ، وأن فتح مصر ـ خاصة ـ كان سببه ما عرفه عمرو بن العاص عنها في الجاهلية من خصوبة الأرض ووفرة الخيرات .. وأن فتح الاندلس هدفه مد الامبراطورية الاسلامية الى أوربا .. وأن العالم العربي خضع للاستعمار التركي عدة قرون .. وان حركة الشيخ محمد عبد الوهاب أول ثورة عربية ضد الاحتلال التركي .. الخ

وعموما كتب التاريخ الاسلامي على شكل سلسلة عنيفة من الصراعات والدسائس السياسية ، وكتبت الحضارة الاسلامية على شكل ألوان فولكلورية .

أما المزايا العظيمة للتاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية ـ تلك التي لم تجتمعا قط في تاريخ وحضارة أمة على وجه البسيطة ـ فهي مغفلة أو مشوهة •

أما مادة " المطالعة " فكأنما هي ملخص موجز للغزو الثقافي الغربي اذ تحوى موضوعات منوعة يجمعها الاعجاب بالغرب وتمجيد حضارته ورجالها ، والخلو من التصورات الاسلامية والقيم الايمانية الا قليلا •

فاذا تصفحت أحد هذه المقررات لا سيما " المطالعة الثانوية " فلن تعدم ان تجد فيه مثل هذه الموضوعات :

" ماجلان قاهر البحار ، كيف اكتشفت أمريكا ، ابراهيم لنكولن محرر العبيد ، تحرير المرأة ، ظهور القومية العربية ، نابليون فاتح اوربا عمر بن ابي ربيعة ، هدفك في الحياة ، الوطنية الصادقة •• "

٦ ـ استيراد المذاهب اللادينية في الفكر والادب :

كانت فلسفة كومت الوضعية في فرنسا ونظرية داروين في انجلترا من اعظم النظريات التي تاثر بهما الفكر الغربى كما سبق ـ وقد عاصرت اليقظة المنبهرة في العالم الاسلامي هاتين النظريتين وهما في أوج عظمتهما فتأثرت بهما أبلغ التأثر ، ومن ثم سارت النهضة الفكرية والأدبية الحديثة مسلرا غريبا حتى آل الأمر الى الواقع الفكرى والأدبي المعاصر ، على أن الادب خاصة تأثر ـ بالرومانسية التي اكتهلت في تلك الفترة ، وفي هذا القرن استوردت الواقعية واللامعقول بمدارسه المتعددة •

أما الفكر فقد تأثر الشيخ محمد عبده بفلسفة كومت العقلية ، حتى لنستطيع ان نقول إن اتجاهه الاعتزالي يعزى اليها لا الى المعتزلة المسلمين ، ومعلوم تأثر كل زعماء الفكر في مطلع هذا القرن بالشيخ من قريب أو بعيد •

وكان من الاثار الخطرة ما حاول الشيخ ومدرسته القيام به من التوفيق بين الايمان والنزعة العقلية ، وبغض النظر عن مدى نتائجها ومقدار توفيقهم فيها نجد أنها بدت أقل خطرا في/الوقت ذلك من النزعات المتأثرة بفلسفة التطور لاقتران الاخيرة بالمروق الصريح من الدين والدعوة الى الالحاد • (٤١)

فقد ظهر ثلاثة من الكتاب أسهموا بصفة بارزة في نقل الداروينية الى الشرق بطريق الترجمة المباشرة وبالدراسة المستفيضة في الصحف هم : شبلى شميل وسلامه موسى واسماعيل مظهر (٤٢) والاولان نصرانيان أشهرا الحادهما وكفرهما بكل دين (٤٣) أما الاخير فمسلم الاصل الا انه كتب ما لا يتردد أحد في نسبة قائله الى الكفر ، وكان لكتبهم وأبحاثهم الاثر الكبير في جيلهم ومن تلاه حتى انك لن تجد من المعاصرين من كتب في موضوع أصل الانسان الا هو سائر على الطريق نفسه •

ولما كان انتشار الالحاد في العصر الحديث ـ أو على الاقل الشك واللاأدرية ـ يشكل ظاهرة بين المفكرين والمثقفين فلنكتف به مثالا على استيراد المذاهب الفكرية الحديثة •

" وكان من ضمن القائمين بهذه الحركة " اسماعيل احمد ادهم " الذى جاء الى مصر (من تركية بعد اعلان العلمانية) وحاول نشر الافكار الالحادية بين أهلها • وقد الف رسالة صغيرة عنوانها : " لماذا أنا ملحد ؟ " وطبعها في مطبعة التعاون بالاسكندرية ومما جاء فيها " أسست جماعة نشر الالحاد بتركيا ، وكانت لنا مطبوعات صغيرة اذكر منها : ماهية الدين ، قصة تطور الدين ونشأته ، العقائد ، قصة تطور فكرة الله ، فكرة الخلود " " وبعد هذا افكرنا

---

(٤١) كتب الشيخ الجسر الرسالة الحميدية ، التي تعد خارقة بالنسبة لعصره بين فيها ان الداروينية فيحال ثبوت فكرتها عن التطور لا تدعو مطلقا الى الالحاد ، انظر الفصل المخصص لذلك من كتاب قصة الايمان لنديم الجسر.

(٤٢) ألف شبلى شميل : فلسفة النشوء والارتقاء ، وسلامه موسى : نظرية التطور وأصل الانسان واسماعيل مظهر : ملقى السبيل في مذهب النشوء والارتقاء •

(٤٣) ولعلهما انما يتظاهران بذلك لغرض خبيث فقد كان سلامة موسى عضوا في جمعية الشبان المسيحيين •

في الاتصال بجمعية نشر الالحاد الامريكية ،وكان نتيجة ذلك تحويل اسم جماعتنا الى " المجمع الشرقي لنشر الالحاد " وكان صديقي البحاثة اسماعيل مظهر في ذلك الوقت ـ ١٩٢٨ ـ يصدر مجلة العصور في مصر وكانت تمثل حركة معتدلة في نشر حرية الفكر والتفكير والدعوة للالحاد " (٤٤)

وكتب اسماعيل مظهر في عدد مارس ١٩٢٨ من مجلته مقالا جاء فيه :

" أما تفكير الانسان الجدي فأصبح في تحديد علاقته لا بواجب الوجود ولكن بالكون ،فبعد أن أسقط العلم الانسان عن عرش الملائكة العلوي وأنزله الى أفق الحيوان ،أخذت الانسان فكرة جديدة ليست بأقل إشكالا من الفكرة التي ملكت زمامه من ناحية الاديان .

" بعد أن اظهر النشوئيون أصل الانسان الحيواني وأثبتوه علميا (!) وبعد ان اثبت الجيلوجيون قدم الأرض والفلكيون قدم النظام الشمسي وأظهر هؤلاء بأبحاثهم سلسلة التدرج الطويل التي مضى عليها الكون لينتهي بظهور الحياة فوق الارض أخذ العقل الانساني سمته نحو التفكير كما هي عادته فيما يختص وراء هذه السلسلة الطويلة من قصد ،وهل كانت متجهة بكل ما فيها من الصور لأن تنتهي بالانسان على انه القصد الاخير منها ؟

" أما الثابت حتى اليوم فليس مما يرضي نزعة التفاؤل في مصير الانسان ولست ادري لماذا لايشارك الانسان الحيوانات في نهايتها المحزنة ما دام يشاركها في بداياتها الجميلة " (٤٥) وينتهي تأثره بداروين الى قوله :

" اكتفت الاديان بالقول بأن الغاية من خلق الانسان والجن هي ان يعبدوا الله ،فكرة حسنة ولكنها غير صحيحة (!) اذ لو صح هذا اذن لاعتقد

---

(٤٤) ذيل الملل والنحل ، محمد سيد كيلاني : ٩١ (مطبوع مع الملل والنحل)

(٤٥) المصدر السابق : ٩٨ .

بجانبه بأن الله في حاجة لأن يعبده الانس والجن (!) ولظهر النظام الكوني في مجموعه بمظهر شيء ما خلق الا ليمضد الحياة الانسانية التي يجب أن تسخر لعبادة الله ، وهذا في معتقدى أبعد الاشياء عن ان يكون الغاية من وجود الانسان » (٤٦)

والحق ان اسماعيل مظهر لم يكن الا نموذجا لكتاب كثيرين يتفاوتون في درجة التصريح بما يعتقدون لكنهم متساوون في المنطلق والغاية مثل منصور فهمي ولطفى السيد وامين الخولي وطه حسين واخيرا صادق العظم (صاحب كتاب نقد الفكر الديني) وآخرين ممن لا تأويل لما يكتبون الا الخروج على الاسلام غير أن بعضهم تخفى تحت اقنعة البحث العلمى أو التمذهب الأدبى حتى لا يصدم مشاعر الجماهير فتنصرف عن انتاجه .

وكما ظهر ذلك في الكتاب فقد ظهر في الشعراء وبيد ولي أن شعراء مصر أقل من شعراء العراق كالرصافى والزهاوى في ذلك ، فالزهاوى مثلا (١٩٣٦) يمتلىء ديوانه بالافكار الالحادية التي لا تخرج في جملتها عن نظرية داروين اونظرية هيكل الاثيرية التي هي في الواقع امتداد للداروينية ، من ذلك قوله :

انى افكر في الطبيعة فاحصا ... فيعد تفكيرى من الالحاد
ووجدت ان الكائنات سلالة ... لا فرق بين خفيها والبادى
أما الزمان فان في دورانه ... ما يربط الآزال بالآباد (٤٧)

وقوله :

ما حياة قديمها غير باد ... لك الا تطور في جماد
انها تتبنى لها في نظام ... كل ما يقضى حاجها من عتاد (٤٨) كذا

---

(٤٦) المصدر السابق : ١٠٠
(٤٧ و ٤٨) ديوان الزهاوى : ٥٢٥ ، ٥٩٩ .

ومن رباعياتـه :

ما نحن الا أقـرد   من نسـل قرد هالـك
فخر لنا ارتقاؤنـا   في سلّم المـدارك (٤٩)

بل نجده يهجو المخالفين لنظرية داروين من معاصريه :

ان الذين عن الاقراد قد بعدوا   لم يجحدوا أنهم منهن قد ولدوا
أما الألى لم يزالوا في مداركهم   أدنى الى أصلهم منهم فقد جحدوا (٥٠)

وعن الاثير يقـول :

ما لأجل الانسان يشتغل الكو   ن وتأتي بعد الدهور الدهـور
كل شـيء فانه في تلاش   بتوالى الأزمان الا الاثيـر (٥١)

ويقول :

انما هذه الحياة شـرار   من زفير الأثير ثار شـعاعـا

وأشد منه قوله :

ولعل الاثير في كل أرض   وسـماء كالله في التأثيـر
ولعل الذاتين واحدة في الأ   صل والخلف جاء في التعبير (٥٢)

هذا وقد كان من نتيجة شيوع هذه الافكار في الفكر والشعر والصحافة التمهيد لانتشار الافكار المادية لا سيما الشيوعية ،وتغذيتها بروح الشـك العام في كل شـيء تقريبا ،حتى أصبح الشباب المثقف في العالم الاسلامى فريسـة الشكوك القاتلة والوساوس الشيطانية ، وانتظم كثير منهم في صفوف المنظمات اليسارية وغيرهـا من الاحزاب اللادينية ، لا سيما بعد الحرب العالمية الثانية حيث أصبحت الاشتراكية " موضة العصر " كما يقولون !

---

(٤٩) ديوان الزهاوى : ٥٢٥ ، ٥٩٩ .
(٥٠ و ٥١) = = : ٤٤٤ ، ٥٠
(٥٢) ديوان الزهاوى : ٤٧٢ ، ٤٧٥ .

ومثل المذاهب الفكرية كانت المذاهب الأدبية ؛

فالرومانسية وجدت صدى لها في الشرق كما في روايات جرجي زيدان التي شوه بها التاريخ الاسلامي ليحاكي الرومانسيين الانجليز ، أما المازني فلم تكن رومانسيته واضحة فحسب (٥٣) بل انه ليكتب في احد كتبه تحت عنوان الفصل عبارة منقولة عن الكتاب المحرف المسمى المقدس تقليدا أعمى للكتاب الغربيين في القرن الماضي اذ كان من عاداتهم ان توضع على رأس كل فصل عبارة شهيرة . (٥٤)

على ان فريقا من الادباء اتجه بادئ الامر الى الترجمة ، فتمت ترجمة أعمال معظم ادباء أوربا المشهورين من شكسبير الى تولستوى ، ومع ان بعضها روائع انسانية فقد كان الاتجاه الاباحي هو الطاغي على الترجمات كما في اعمال الكسندر دوماس واميل زولا واناتول فرانس .

وظل الاتجاه الاباحي هو المسيطر تقريبا على حركة الترجمة الأدبية تحت ستار الواقعية حتى الحرب العالمية الثانية ، ثم ظهرت أصداء اللامعقول على أثر نضوجها في الغرب حينئذ ، كما ظهرت الكتابة الأسطورية التي اتخذها سارتر وكامو أسلوبا للتعبير عن فلسفة الضياع والعبث ، الا انهما استخدما أساطير اليونان .

أما العرب أمثال طه حسين وتوفيق الحكيم فقد استخدموا التاريخ الاسلامي والقصص القرآني كما في " على هامش السيرة " و " الفتنة الكبرى " و " اصحاب الكهف " ... الخ

---

(٥٣) انظر كتابه : ابراهيم الثاني .

(٥٤) انظر دراسات في حضارة الاسلام ، جب : ٣٩٢ .

وقد اسهمت وسائل الاعلام ــ التي يدير معظمها أناس علمانيون ــ من صحافة واذاعة ومسرح .. اسهاما قويا في تنمية الاتجاه الاباحي وتعميمه ، وبالتالي في هبوط الادب أسلوبا ومضمونا كما في كتابات احسان عبد القدوس وشيعته نثرا وأعمال نزار قباني وزمرته شعرا .

ومع أن الأدب الحديث في غالبه علماني موضوعيا ـ فقد ظهرت له دعوات علمانية ذاتية ، تطالب بفصله عن الدين بل وعن الاخلاق تحت شعارات " الفن للفن " و " الأدب غير الملتزم " و " الأدب للشعب " و " الأدب للواقع " ..

وممن طالب بفصل الأدب عن القيم الدينية سلامة موسى ، فمن كلامه قوله عن رسالة الادب :

" ان رسالته العصرية دينية ولكنها مع ذلك بشرية ، وهذه الجملة الاخيرة تحتاج الى تفسير ، ذلك ان الأديان الغيبية القديمة كانت تحملنا تبعات وتطالبنا بواجبات ولكن القيم الاخلاقية والاجتماعية في هذه الاديان كانت قيم الآخرة ولم تكن قيم الدنيا ، فكان علينا ان نكون صالحين نمارس الفضيلة ونصلي ونصوم حتى نستمتع بالفردوس ولا نتعرض للعقوبة بعد الموت فالقيم هنا أخروية ، ولكن الأدب الفرنسي العصرى بل الأوربي كله يحملنا ايضا تبعات ويطالبنا بواجبات ولكن القيم الاخلاقية والاجتماعية فيه هي قيم الدنيا فقط ، فيجب ان نكون صالحين لأن نمارس الفضيلة كي نخدم المجتمع البشرى ونرقى بشخصيتنا أخلاقا ومعارف ونجعل من كوكبنا فردوسا نجد فيه السعادة والخير والشرف " (٥٥)

وكما برزت الوجودية في انتاج أنيس منصور والماركسية في كتابات نجيب محفوظ برز الاتجاه الضائع التائه نهج اللامعقول في شعر بدر شاكر السياب كما في " انشودة المطر " والشاعر اللبناني الملقب " أدونيس " .

---

(٥٥) الأدب للشعب : ١١٢ .

على ان الاتجاه اللامعقول ليفض الى الثورة على الأدب الأصيل في ـ مضمونه ومحتواه بل تعداه الى الشكل والاسلوب ـ مثلما فعل اليوت اليهودي (٥٦) بالشعر الانجليزي ـ وذلك بظهور ما يسمى الشعر الحر الذى هو في الحقيقة نوع من الهذيان والاسهال العقلي ـ على حد تعبير الشيخ الغزالي في احدى محاضراته .

وقد بدأه باكثيروالسياب بترجمة الشعر الأوربي الى عربية منثورة ثم جاء الجيل التالي الذى كان هزيلا ممسوخا في كل شيء فانحصر انتاجه في هذا الهذيان .

وما دمنا قد تعرضنا لذكر ذلك الغثاء فلنأت بمثال له :

يقول أحد ادعيائه (محمد الفيتورى) :

" نار خطايانا
تسيل في حنايانا
فلنتكئ على عظام موتانا
ولنصمت الآنا ...
برج كنيسة قديمة وراهب قلق
وغيمة تشد قدميها وتعبر الأفق
ورجل بلا عنق ..
وامرأة على الرصيف تنزلق
وقطة في أسفل السلم تختنق
وصوت ناقوس يدق
يرسم دورة على الفضاء ويدق ... الخ "

---

(٥٦) انظر تهافت العلمانية عماد الدين خليل، فصل الشهود، علماً بأنه اليوت يدعي انه غير ذلك، انظر ترجمته في (الشعر بيه روادثلاثة) منح خوري .

يقول الشيخ الغزالي بعد ايراد هذا الغثاء :

" ودعك من أضغاث الاحلام التي ينقلك الى جوها هذا الكلام المفكك ..
ودعك من تقطع الروابط العقلية بين هذه الالفاظ المتصيدة ،فهي كما قيل :
سمك ،لبن ،تمرهندى ...

" ولكن الشيء الذى لا تدعه والذى يثير انتباهك حتما هو جراثيم الاستعمار الثقافي أو الغزو الصليبي الذى سيطر على هذا الشاعر الهائم .

" فهو في القاهرة المدينة المعروفة بشمسها الصاحية ومآذنها السامقة وصبغتها الاسلامية الأولى ، ولكن التبعية الفكرية والنفسية الغالبة على هذا الشخص التائه جعلته لا يرى الا الغيوم وأبراج الكنائس والرهبان القلقين ورنين النواقيس وكأنه في لندن أو رومة لا في مصر !! " (٥٧)

---

(٥٧) حصاد الغرور : ١٩٤ ـ ١٩٥

ثالثا ـ في الاجتماع والأخلاق :

كانت الحياة الاجتماعية في العالم الاسلامي قد انحرفت منذ بضعة قرون ، لكن صورة الانحراف لم تبلغ أوجها الا في مطلع العصر الحديث حيث أصبح المجتمع في اخلاقه وتقاليده وعاداته ينطلق من منطلقات غير اسلامية اذ غلبت الأعراف الجاهلية والعواطف المتهورة والعادات المستحدثة على الاخلاق الاسلامية الأصيلة ، غير ان الناس بحكم العاطفة الدينية الموروثة وما جلبوا عليه من الغيرة على فضائل الخلق كانوا ينسبون كل قيم وموازين وأعراف مجتمعهم للدين ، أو ـ على الاقل ـ يلتمسون لها فيه أصولا ، ورسخ ذلك الانحراف المتمسح بالدين حتى أصبح هو الواقع المألوف الذى كان لدى الناس استعداد للوقوف في وجه من يحاول تغييره سواء أكان مجددا اسلاميا أم مفسدا أجنبيا ، وهم ـ على أى حال ـ يبررون موقفهم بالاستناد الى الدين .

وفي القرن الماضى احتك المجتمع الاسلامي المنحرف بالمجتمع الغربي الشارد عن الدين ، ومنذ اللحظة الاولى أحس الغرب ـ المغرور بتقدمه المادى ـ بتفوقه الاجتماعي على الشرق الذى لا شك انه كان لديه من الفضائل ما يفتقده الغرب ، لكن نظرة الغالب الى المغلوب لا تسمح بالرؤية الصحيحة عادة ، لا سيما والروح الصليبية من ورائها .

وبالمقابل أحس المجتمع الشرقي بالانبهار القاتل واستشعر النقص المرير ، ولم يتردد الغربيون الكفرة في القول بأن سبب تخلف الشرقيين هو الاسلام فقد استمدوا ذلك من الوهم الذى كان يسيطر على اولئك بأنهم مسلمون حقا !

وهكذا كان الطريق مفتوحا لمهاجمة الاخلاق الاسلامية وتدمير مقومات المجتمع من خلال مهاجمة ذلك الواقع المتخلف الذى لا يمثل الاسلام ، وكان النموذج الغربي المشاهد ـ الذى فصل الاخلاق عن الدين ـ يزيد الأمر قوة ووضوحا .

واذ علمت قوى الصليبية الحاقدة ـ من مستعمرين ومبشرين ومستشرقين ـ أن البؤرة التي تتجمع فيها أصول أخلاق ومقومات المجتمع المسلم هي المحافظة على العرض وأنها مفترق الطريق بين هذا المجتمع وغيره ـ فقد وضعت المخططات الماكرة لسلب هذه الميزة من المسلمين بافساد المرأة المسلمة واشاعة الدياثة بينهم .

ولما كانت الامة الاسلامية هي المسؤولة ـ أولا وآخرا ـ عن كل هذا ، ولما كان الجانب الذاتي من المشكلة هو الأخطر والأهم ، فسوف نوليه جل اهتمامنا .

وفي بداية الامر علينا أن نستحضر في أذهاننا الصورة الساخرة التي وصف بها المؤرخون المسلمون دياثة الافرنج الصليبيين (١) لنقارنها بهذه الصورة التي يقدمها لنا الجبرتي ضمن حوادث سنة ١٢١٦ هـ :

" ومنها تبرج النساء وخروج غالبهن عن الحشمة والحياء ، وهو أنه لما حضر الفرنسيس الى مصر ومع البعض منهم نساؤهم كانوا يمشون في الشوارع مع نسائهم وهن حاسرات الوجوه لابسات الفستانات والمناديل الحرير الملونة ويسدلن على مناكبهن الطرح الكشميرى والمزركشات المصبوغة ويركبن الخيول والحمير ويسوقونها سوقا عنيفا مع الضحك والقهقهه ومداعبة المكارية معهم وحرافيش العامة فمالت اليهم (اى الى الفرنسيين) نفوس أهل الأهواء من النساء الأسافل والفواحش فتداخلن معهم لخضوعهم للنساء وبذل الأموال لهن ، وكان ذلك التداخل أولا مع بعض احتشام وخشية عار ومبالغة في اخفاءه ، فلما وقعت الفتنة الاخيرة بمصر وحاربت الفرنسيس بولاق وفتكوا في أهلها وغنموا أموالها وأخذوا ما استحسنوه من النساء والبنات صرن مأسورات عندهم ، فزيوهن بزى نسائهم وأجروهن على طريقتهن في كامل

---

(١) انظر الاعتبار أسامة بن منقذ : ١٣٥

الاحوال ، فخلع اكثرهن نقاب الحياء بالكلية وتداخل مع اولئك المأسورات وغيرهن من النساء الفواجر ولما حل بأهل البلاد من الذل والهوان وسلب الاموال واجتماع الخيرات في حوز الفرنسيس ومن والاهم وشدة رغبتهم في النساء وخضوعهم لهن وموافقة مرادهن وعدم مخالفة هواهن ولو شتمته او ضربته بتاسومتها (؟) ـ فطرحن الحشمة والوقار والمبالاة والاعتبار ، واستملن نظراءهن واختلسن عقولهن لميل النفوس الى الشهوات وخصوصا عقول القاصرات ، وخطب الكثير منهم بنات الاعيان وتزوجوهن رغبة في سلطانهم ونوالهم فيُظهر حال العقد الاسلام وينطق بالشهادتين لانه ليس له عقيدة يخشى فسادها ، وصار مع حكام الاُخطاط منهم النساء المسلمات متزينات بزيهم ومشوا معهم في الاُخطاط للنظر في امور الرعية والاحكام العادية والامر والنهي والمناداة ، وتمشي المرأة بنفسها اومعها بعض أترابها وأضيافها على مثل شكلها ، وأمامها القوّاسة والخدم وبأيديهم العصي يفرجون لهن الناس مثل ما يمر الحاكم ويأمرن وينهين في الاحكام .

" ومنها أنه لما أوفى النيل أذرعه ودخل الماء الى الخليج وجرت فيه السفن وقع عند ذلك من تبرج النساء واختلاطهن بالفرنسيس ومصاحبتهم لهن في المراكب والرقص والغناء والشرب في النهار والليل في الفوانيس والشموع الموقدة وعليهما الملابس الفاخرة والحلي والجواهر المرصعة وصحبتهم آلات الطرب وملاحو السفن يكثرون من الهزل والمجون ويتجاوبون برفع الصوت في تحريك المقاديف بسخيف موضوعاتهم وكثائف مطبوعاتهم (؟) وخصوصا اذا دبت الحشيشة في رؤوسهم وتحكمت في عقولهم فيصرخون ويطبلون ويرقصون ويزمرون ويتجاوبون بمحاكاة الفاظ الفرنساوية في غنائهم وتقليد كلامهم شيء كثير " (٢)

---

(٢) عجائب الآثار : ٢/٤٣٦ ـ ٤٣٧ .

اذن فقد ظهرت مؤشرات واضحة على ان من المسلمين من هو مهيأ نفسيا لتقبل اسلوب الحياة الاجتماعية اللاديني الوافد من الغرب وأن منهم من هو على استعداد لأن يدعو أمته لذلك لو حظى بالعناية اللازمة وعاش عيشة أوربية .

ومنذ ايام محمد علي ابتدأت حركة الابتعاث الى الدول الأوربية ، وكان من اشهر المبتعثين الاوائل الشيخ رفاعة الطهطاوى الذى يعد كذلك من رواد الاصلاح . هذا الشيخ المبتعث كتب عن مدينة باريس " باريز " كتابا يصف فيه لابناء امته الحياة الاجتماعية في فرنسا آنذاك و تعرض فيه لوصف النوادى ـ والمراقص فقال :

" والغالب ان الجلوس للنساء ولا يجلس احد من الرجال الا اذا اكتفت النساء ، واذا دخلت امرأة على أهل المجلس ولم يكن ثم كرسى خال قام لها رجل واجلسها ولا تقوم لها امرأة لتجلسها ،فالانثى دائما في المجالس معظمة اكثر من الرجل ، ثم ان الانسان اذا دخل بيت صاحبه فانه يجب عليه ان يحيى صاحبة البيت قبل صاحبه ولو كبر مقامه ما امكن ،فدرجته بعد زوجته أو نساء البيت " (٣) .

" ويتعلق بالرقص في فرنسا كل الناس وكأنه نوع من العياقة والشلبنة(؟) لا من الفسق ، فلذلك كان دائما غير خارج عن قوانين الحياء ، بخلاف الرقص في ارض مصر فانه من خصوصيات النساء لأنه لتهييج الشهوات ، اما في باريس فانه نطٌ مخصوص لا يشم منه رائحة العهر ابدا ، وكل انسان يعزم امرأة يرقص معها فاذا فرغ الرقص عزمها اخر للرقصة الثانية ، وهكذا ، وسواء كان يعرفها او لا ، وتفرح النساء بكثرة الراغبين في الرقص معهن لسآمة انفسهن من التعلق بشيء واحد ،كما قال الشاعر :

---

(٣) تخليص الابريز في تلخيص باريز : ١٦٨

أيا من ليس يرضيها خليل ولا ألفا خليل كل عام

أراك بقية من قوم موســى فهم لا يصبرون على طعام

وقد يقع في الرقص رقصة مخصوصة بأن يرقص الانسان يده في خاصــرة من ترقص معه ، وأغلب الاوقات يمسكها بيده ، وبالجملة فمس المرأة ايا كانت في الجهة العليا مــن البدن غير عيب عند هؤلاء النصارى ، وكلما حسن خطاب الرجل مع النساء وجههن عد هذا من الادب " (٤)

هذا الكلام يوحي لقارئه بدلالات نذكر منها اثنتين :

١ ـ ان الاخلاق ليست مرتبطة بالدين ، وهي فكرة انقدحت في ذهن الشــيخ لكنه لم يستطع ان يعبر عنها بجلاء ، فها هو المجتمع يمارس الوان الدياثة التي لا يرضاها الدين طبعا ولكنها مع ذلك ليست خارجة عن قوانيـن الحيــاء ولا يشم منها رائحة العهر بل هي معدودة في باب الادب !

وقد نمت هذه الفكرة وترعرعت حتى قيل صراحة : ان الحجاب وســيلة لستر الفواحش وان التبرج دليل على الشرف والبراءة ، ومن ثم فلا علاقــة بيــن الدين والاخلاق .

٢ ـ ان هذا المجتمع الديوث يكرم المرأة ويحترمها ، وفي المقابل نرى المجتمـع الاسلامي يحافظ على العرض لكنه يحتقر المرأة ـ حسب الواقــع آنذاك ـ وبذلك نصل الى المفهوم الذى وجد في اوربا نفسه وهو أن حقــوق المرأة مرتبطة بتحررها من الدين فما لم ينبذ الدين فلن تحصل على هــذه الحقــوق !

وقريب من قصد رفاعة ما قصده احمد فارس الشدياق اذ وصف بأسلوبــه المقامي الخاص الحيــاة الغربيــة ووضع المرأة فيها في كتابه "الساق على الساق" (٥)

---

(٤) المصدر السابق : ١١٩

(٥) انظر مثلا : فصل في وصف باريس : ٦٢٣ .

وهكذا وجدت البذرة الاولى لما سمى " قضية المرأة " .

على ان الحركة التي تقوم على الوعي لا على السذاجة لم تكن منطلقة من آراء هذين ـ رفاعة والشدياق ـ وأمثالهما ، بل من افكار شخصية اخرى هي شخصية جمال الدين الأسد اباذى المعروف بالافغاني .

كان جمال الدين متاثرا بشعارات الماسونية ـ التي رفعتها الثورة الفرنسية لا سيما شعار المساواة ، واعتقد ان من اعظم علل الشرق ان المرأة فيه ليست متساوية مع الرجل في الحقوق والواجبات ، وكان من تلاميذه الذين سرت فيهم هذه الفكرة محمد عبده ، وقاسم امين الذى كان مترجما لجمعية العروة الوثقى (٦) وقد سبق الحديث عن الاول اما الاخير فهو مبتعث الى فرنسا للدراسة يقول عنه مؤرخ حياته :

" ويعود قاسم الى قاعة المحاضرات بجامعة مونبلييه وهو أشد رغبة في تعرف المزيد عن الحياة في اوربا ، وهناك يجد زميلته "سلافا" .. فلا يتردد في سؤالها ان تصحبه الى المجتمعات الفرنسية وتقبل هي في سرور باد ، وصحبته فتاته الى كثير من الحفلات وتعرف الى كثير من الأسر فوجد حياة اجتماعية تختلف عن الحياة في مصر ، وجد السفور بدل الحجاب والاختلاط بدل العزلة والثقافة بدل الجهالة " (٧) .

وعاد قاسم الى مصر يحمل الى امته فكرة خطرة عرضها على اصدقائه فتردد بعضهم وأيده اكثرهم وخاصة الزعماء مثل : سعد زغلول ومصطفى كامل واحمد لطفي السيد (٨) وكذلك على شعراوى زوج هدى شعراوى ـ الملقبة بزعيمة الحركة النسائية وغيرهم ممن قال عنهم كرومر " اسميهم حبا في الاختصار اتباع المرحوم المفتى السابق الشيخ محمد عبده " (٩)

---

(٦) انظر قاسم امين : ٢٠ و ٣٤

(٧) قاسم امين : ٤٠

(٨) سبق الكلام عن لطفي السيد وسياتي الحديث عن سعد زغلول اما مصطفى كامل فيذكر مؤرخ حياته انه كان له ام روحية فرنسية تدعى جولييت آدم .. الخ انظر مصطفى كامل حياته وكفاحه ، احمد رشاد : ٧١ .

(٩) احمد لطفى السيد : ١٣٧ .

واظهر قاسم فكرته تلك في كتابيه " تحرير المرأة " و " المرأة الجديدة " وعند صدور الاول شك كثيرون في كونه كاتبه لما حواه الكتاب من عرض ومناقشة الاقوال الفقهية والادلة الشرعية التي كان مثل قاسم قليل البضاعة منها ، ولكنهم لم يشكوا في ان الذي دفعه الى الفكرة احد رجلين اما كرومر واما محمد عبده (١٠) وحل لطفي السيد الاشكال في كتابه قصة حياتي اذ يقول :

" ان قاسم امين قرأ عليه وعلى الشيخ محمد عبده فصول كتاب " تحرير المرأة " في جنيف عام ١٨٩٧ قبل ان ينشره على الناس " (١١)

وجاء مثل هذا في كتاب " قاسم امين " ايضا . (١٢)

وعلى اية حال فقد ظهر كتابه " تحرير المرأة " الذي يمكن تلخيص افكاره فيما يلي :

١ ــ ان المرأة مساوية للرجل في كل شيء و " ان تفوقه البدني سببه استعمال الاعضاء " (١٣) ــ ويتضح من هذا تعريضه بالقرآن الكريم وتأثره بالدارونية ــ .

٢ ــ " ان الانتقاب والتبرقع ليسا من المشروعات الاسلامية لا للتعبد ولا للأدب بل هما من العادات القديمة السابقة على الاسلام والباقية بعده " وهي عادة عرضت على المسلمين " من مخالطة بعض الامم فاستحسنوها واخذوا بها وبالغوا فيها وألبسوها لباس الدين كسائر العادات الضارة التي تمكنت في الناس باسم الدين والدين منها براء " لكن بالنسبة للامم الاخرى فان هذه العادة " تلاشت طوعا لمقتضيات الاجتماع وجريا على سنة التقدم والترقي " (١٤).

٣ ــ ان الحجاب ليس عائقا عن التقدم فحسب بل هو مدعاة للرذيلة وغطاء للفاحشة في حين ان الاختلاط يهذب النفس ويميت دوافع الشهوة !

---

(١٠) قاسم امين : ١٥٨ .
(١١) احمد لطفي السيد : ١٣٣ .
(١٢) ص: ١٥٨ ــ ١٥٩ .
(١٣) تحرير المرأة : ١٩ .
(١٤) = = : ٧٩ ، ٦٨ ، ٦٧ .

وقد حرص قاسم على تبرئة نفسه من تهمة الدعوة الى تقليد الغرب في مناداته بهذه الفكرة (١٥) مدعيا ان الدافع الوحيد هو الحرص على الامة والغيرة على الدين والوطن ، فهو يزعم أن أصل فكرته هو الرد على " داركور " المستشرق الذى هاجم الحجاب ، ولست ادرى ماذا ترك قاسم لداركور !

لكن كتابه الثاني " المرأة الجديدة " يكذب ادعاءاته تلك فهو يقول فيه :

" هذا هو الداء الذى يلزم ان نبادر الى علاجه وليس له دواء الا ان نربى اولادنا على ان يتعرفوا شؤون المدنية الغربية ، ويقفوا على اصولها وفروعها وآثارها ، واذا أتى ذلك الحين ـ ونرجو ألا يكون بعيدا ـ انجلت الحقيقة امام اعيننا ساطعة سطوع الشمس وعرفنا قيمة التمدن الغربي وتيقنا ان من المستحيل ان يتم اصلاح ما في احوالنا اذا لم يكن مؤسسا على العلوم العصرية " (١٦)

وقد طبق ذلك في بيته فاحضر لابنتيه مربيتين ـ احداهما فرنسية والاخرى انجليزية (١٧) وظل قاسم حريصا على دعوته/ داعيا الى فكرته " الى آخر نسمة من حياته القصيرة ففي ليلة وفاته بالسكتة القلبية في ٢٣ ابريل ١٩٠٨ كان يقدم طالبات رومانيات في نادى المدارس العليا " (١٨)

وقد ناصر قاسما وايده كثير من الزعماء والادباء والصحفيين منهم غير من ذكرنا سلفا الشاعر ولي الدين يكن الذى يقول من قصيدة له :

" أزيلي الحجاب عن الحسن يوما وقولى مللتك يا حاجبه
فلا أنا منك ولا انت مني فرح ذاهبا ها أنا ذاهبه " (١٩)

والشاعر العراقي الزهاوى ، ومن ذلك قوله :

---

(١٥) انظر تحرير المرأة : ٨٣ .
(١٦) قاسم امين : ١٩٢ ـ ١٩٣ .
(١٧) المصدر السابق : ٧٧
(١٨) احمد لطفي السيد : ٢١٥ .
(١٩) ولي الدين يكن ، مناهل الادب العربي : ٤٥

هزأوا بالبنات والامهات وأهانوا الزوجات والاخوات
هكذا المسلمون في كل صقع حجبوا للجهالة المسلمات
سجنوهن في البيوت فشلوا نصف شعب يهم بالحركات
منعوهن ان يرين ضياء فتعودن عيشة الظلمات
.. ان هذا الحجاب في كل ارض ضرر للفتيان والفتيات (٢٠)

وكانت الصحافة اعظم المؤيدين للفكرة التي انتشرت في بلاد الشام والمغرب على اثر نجاحها في مصر ،

اما بلاد الشام فمن الواضح ان الدعوة فيها تعرقلت بالنسبة لمصر حتى ان اول كتاب يتحدث عنها لم يصدر الا سنة ١٩٢٨ اى بعد وفاة قاسم بعشرين سنة ، وهو الكتاب الذى الفته ـ أو ألف باسم ـ نظيرة زين الدين بعنوان " السفور والحجاب " ولعل مما يثير الانتباه ان الذى قرظه هو علي عبد الرازق صاحب " الاسلام واصول الحكم " وكان مما قال :

" اني لاحسب مصر قد اجتازت بحمد الله طور البحث النظرى في مسألة السفور والحجاب الى طور العمل والتنفيذ ، فلست تجد بين المصريين الا المخلفين منهم من يتساءل اليوم عن السفور هو من الدين أم لا ومن العقل أم لا ، ومن ضروريات الحياة الحديثة ام لا بل نجد هم حتى الكثير من الرجعيين المحجبين منهم يؤمنون بان السفور دين وعقل وضرورة لا مناص لحياة المدنية عنها " .

" ... اما اخواننا السوريون فيلوح ان للسفور والحجاب عندهم تاريخا غير تاريخه في مصر ، فهم لم يجتازوا بعد طور البحث النظرى الذى بدأه بيننا المرحوم قاسم أمين منذ اكثر من عشرين سنة ، ولكنهم على ذلك يسيرون

---

(٢٠) ديوان الزهاوى : ٣١٩

معنا جنبا الى جنب في الطور الجديد الذى نسير فيه ، طور السفور الفعلي الكلي الشامل " (٢١)

وأما بلاد المغرب فقد كانت تونس أسبقها الى السفور والدعوة اليه اذ كتب الطاهر الحداد سنة ١٩٣٠ كتابه " امرأتنا في الشريعة والمجتمع " وفي الامكان اخذ نموذج لتأييد فكرته من المحاولة الفنية التي اشترك فيها محمود بيرم شاعرا وعلى الدعاجي راسما ، ذلك ان الشاعر قام " يؤرخ للمراحل التي قطعتها المرأة التونسية قبل ان تلقى الحجاب وذلك من خلال ستة عشر بيتا جسمت كل رباعية منها مرحلة من مراحل تطور الحجاب أبرز معانيها ووضحها على الدعاجي بأربعة رسوم ظهرت فيها المرأة في وضعيات متباينة .

" ترسم الابيات الاولى والصورة امرأة ضرب البرقع سفحا دون ظهور أى جزء منها ، وقد شبه بيرم انسدال ذلك البرقع الأسود على ذلك الوجه الصبوح بانسدال الليل على النهار :

سجى الليل الا يرجى لهذا الليل من آخر

سواد يحجب الحق كقلب الجاحد الكافر

" وعندما دحرجت المرأة في الصورة الثانية جزءا من النقاب ظهر القليل من نور وجهها المكفن ، فوصف الشاعر هذه المحاولة بالنور الخادع ..

يلوح النور خداعا كلون الضاحك الغادر

هباء يرسل الشك لقلب الجازع الصابر ..

" وتزيح المرأة في ريشة الرسام الدعاجي ذلك الخمار حتى الذقن دفعة واحدة تستقبل نور الحياة والشمس ، فيرى الشاعر في هذه الخطوة المحتشمة بداية لصبح من الثقة المتبادلة بين الجنسين :

---

(٢١) مجلة الهلال اغسطس ١٩٢٨ .

بدا الصبح وفي الصبح | تجلى روضها الناظر
وقال الورد في الخدين | غضوا عن دمى الطاهر ..

" وفي النهاية لا تجد المرأة موجبا لبقاء هذا النقاب متدليا عند الجيد فتزيحه دفعة واحدة ، وتنتزع معه بذلك رواسب التقاليد الضيقة ، فتظهر الشمس لعين الحق ويغمر نورها الدنيا :

وفي الشمس ترى الدنيا | جميعا حسنها باهر
يرتل كل ذى صوت | ثناء المبدع القادر
ويعلم كل ذى عين | ما الحسناء بالعاهر
هنالك تحكم الافهام | بين العف والفاجر " (٢٢)

هذا من الوجهة النظرية اما التطبيق الواقعي للفكرة فقد حمل العبء الاكبر منه الحركة التي أسميت " حركة النهضة النسائية " واشهر رائداتها : هدى شعراوى وسيزا نبراوى سكرتيرتها ، وباحثة البادية ومنيرة ثابت ، وقد التف حولهن عصبة ممن خلعن رداء الحياء وسخرن انفسهن لخدمة الدوائر الصليبية .

اشتد الحماس لهذه الحركة ــ في فترة عصيبة حرجة ــ وهذا التوقيت المشبوه يوحى بأن وراء الاكمة ما وراءها ! ــ ذلك انه في سنة ١٩١٩ هبت مصر في وجه الاستعمار ووقف الشعب بشجاعة مع عدد من المخلصين حقيقة يطالب بحقه من الحرية والحياة ، وفي تلك الظروف الصاخبة التي تتميز بالغليان والاضطراب وفي غمرة الثورة العارمة نشطت دعوتان مريبتان متآخيتان ، احداهما استغلت ظروف الثورة لسلخ الامة عن انتمائها وهي الدعوة الى اللادينية تحت ستار الشعار الذى رفعته الزعامات المصطنعة " الدين لله والوطن للجميع " والاخرى : دعت

---

(٢٢) مجلة الفكر ، تونس ، ديسمبر ١٩٧٥ ، عدد خاص عن المرأة في عام المرأة !

الى نسف الفضائل الاسلامية من خلال دعوتها الى " تحرير المرأة " •

في ذلك الجو العاصف انبرت هدى ورفيقاتها للدفاع عن حقوق الوطن وطرد المحتلين ولكن بماذا ؟ لقد خرجن في مظاهرة ومزقن الحجاب واحرقنه في ميدان عام ، وكان هذا اعظم اسهام منهن في الثورة ، واذ حدث ان الجنود البريطانيين — لحاجة في نفس يعقوب — طوقوا الشوارع ساعة المظاهرة واعتدوا على بعض المتظاهرات — فقد بدا ذلك في اعين الشعب محاولة من بريطانيا لمنع المرأة المصرية من التحرر ، وبذلك اكتسبت الحركة صفة البطولة الوطنية !! (٢٣)

وتظهر الحقيقة أجلى وأوضح اذ علمنا انه في تلك الفترة نفسها كان أتاتورك يهدم الاسلام تحت زيف البطولة الوطنية ايضا •

لقد اعتبرت هذه البطولة مبررا كافيا للانقضاض على الاخلاق بل لمهاجمة احكام الاسلام علانية ، اذ ردد دعاة الاباحية قولهم : أليس الجنس اللطيف الذى أدى دوره في الثورة الوطنية باخلاص جديرا بأن يتساوى في كل شيء مع الجنس الخشن ؟ اتريدون ان تقدم المرأة للوطن كل شيء ولا يقدم الوطن لها شيئا ؟ !

ولكن الحق لم يلبث ان انكشف واذا بالحركة النسائية في حقيقتها حركة عميلة مريبة ترتبط خارجيا بالدوائر الاستعمارية وداخليا بالزعماء المصطنعين •

أما ارتباطها بالاستعمار — والجمعيات التبشيرية خاصة — فيؤيده خطاب هدى شعراوى الذى القته في مؤتمر الاتحاد النسائي الدولى بروما ، وهذه مقدمته :

---

(٢٣) انظر كتاب " سعد زغلول " بقلم سكرتيره : محمد ابراهيم الجزيرى : ٢٠٣ فما بعدها •

" انه ليسرني حقيقة ان ارى نفسي بينكن في هذه الجمعية المحترمة التي امكن للمرأة المصرية ان تجيء لتناقش في حقوقها لاول مرة في التاريخ ، وانه لمما يدعوني الى الاغتباط والفخر اختيارى لاظهار تلك الرابطة بين بنات النيل واخواتهن في اوربا " (٢٤)

وتختتم خطابها قائلة :

" والان قبل ان اعود ارجوان تسمحن لي ايتها السيدات على طلبكن بالحاح ابداء الرغبة في اشراك المرأة المصرية في واجب " الاتحاد " الجليل ولنا عظيم الرجاء في ان نصل بفضل نصائحكن الغالية التي نعتبرها السبيل الهادى والنسج على منوالكن الذى نجد فيه خير كفيل الى تحقيق آمالنا ورغائبنا ، ونضع تحت تصرفكن انفسنا في خدمة مبادئكن ونشر آرائكن " (٢٥) .

أما صلتها بالزعماء المصطنعين فيؤكدها بصفة قاطعة سكرتير سعد زغلول ـ زعيم حزب الوفد ـ في كتابه عن حياته فقد ذكر ان سعدا هو الزعيم الحقيقي للحركة النسائية مستشهدا بخطابه الذى القاه بمناسبة زيارة وفد مختلط من طلبة مدرسة الحقوق الفرنسية لمصر ، ومنه :

" اننى من انصار تحرير المرأة ومن المقتنعين به لانه بغير هذا التحرير لا نستطيع بلوغ غايتنا ويقيني بهذا ليس وليد اليوم بل هو قديم العهد فقد شاركت منذ امد بعيد صديقي المرحوم قاسم بك امين في افكاره التي ضمنها كتابه الذى اهداه لي (يريد كتاب المرأة الجديدة) .. " (٢٦)

ويضيف الكاتب ان زوجة سعد كانت مثقفة ثقافة فرنسية وانه كان يمنحها الحرية الكاملة (!) ويبدو من سيرة زوجة سعد انها اول زوجة زعيم سياسي عربي ـ تقريبا ـ تظهر معه سافرة في المحافل والصور ، وتتسمى على الطريقة

---

(٢٤) المرأة وآراء الفلاسفة : ١٤٢
(٢٥) المصدر السابق : ١٤٤ .
(٢٦) سعد زغلول : ٢٠٣ .

الغربية " صفية زغلول " كما انها اول من اتخذت بدعة لقب " أم المصريين "(٢٧)

ويذكر الكاتب ان " صفية زغلول " هي الزعيمة النسائية الحقيقية لكنها آثرت الا تظهر ذلك واسندت هي وزوجها الامر الى هدى شعراوى التي عينها سعد " رئيسة لجنة الوفد المركزية للسيدات " (٢٨) .

على ان سكرتير الزعيم يثبت ـ دون ان يدرى ـ ادانة الزعيم والحركة النسائية وارتباطهما بالاستعمار ، وذلك في معرض حديثه عن صديقة سعد " منيرة ثابت " الملقبة " الفتاة الثائرة " و " اول صحفية مصرية " فهو يقول :

" كانت الوزارة الزيورية تضطهد الصحافة الوفدية وتغلق جرائدها واحدة بعد اخرى ولا تسمح لوفدى بأية رخصة جديدة ، وعلى حين فجأة غابت الانسة منيرة ثابت اياما عن بيت الامة ثم عادت تحمل رخصتين لصحيفتين جديدتين باسم " الامل " و " لسبوار " اولاهما عربية سياسية اسبوعية والثانية فرنسية سياسية يومية ، وقدمتهما للرئيس (سعد) لتكون رهن تصرفه اما كيف حصلت على الرخصتين فلا أعرف عنه الى اليوم شيئا " (٢٩) .

وكان من ثمرة الحركة النسائية ولادة الصحافة النسائية ،فقد صدرت مجلة " فتاة الشرق " قبل الحرب العظمى الاول ، ومما تجدر الاشارة اليه ان كل عدد من اعدادها يحوى نماذج وصورا لازياء الشهر (٣٠) التي ظهرت في أوربا ، الامر الذى مهد لوقوع المرأة المسلمة في شباك مصيدة الازياء اليهودية كما وقعت المرأة النصرانية في الغرب .

وأسهمت المجلات غير النسائية بنصيبها في الحركة فكانت " الهلال " ومثلها المقتطف والمصور تنشر الى جانب المناقشات الفكرية للموضوع صور المتبرجات

---

(٢٧) سعد زغلول : ٢٠٤ .
(٢٨) = = : ٢٠٨ .
(٢٩) = = : ٢١٢ .

(٣٠) انظر المجلد الاول من المجلة المذكورة سنة ١٩١٣ ،مركز البحث العلمي .

من شرقيات وغربيات وتحيطها بهالة من التعظيم تغرى القارئات بمحاكاتهن •

وفي المجال التعليمي حرص لطفي السيد وطه حسين واتباعهما على ان يكون التعليم مختلطا فيه الذكور والاناث واشتد الصراع في الجامعة من اجل ذلك ، وكتب الرافعي " شيطان وشيطانة " ردا على طه حسين وسهير القلماوى ، كما كتب مقالا يحيي فيه طلبة الجامعة الذين رفضوا الاختلاط (٣١) ولكن الانتصار كتب لدعاة الاختلاط ،فقد كان في صفهم الزعماء السياسيون ـ ومعظم الصحف ، وكل القوى الدخيلة من مبشرين ومستشرقين في الجامعة وغيرها ، اذ ان هذه القوى مجتمعة فزعت لظهور الحركة الاسلامية الطلابية وحاربتها اشد الحرب •

ولم يقنع الكتاب النسائيون بما حققته الدعوة من مكاسب ونجاح ولعل مرد ذلك الى ان الأسياد ينتظرون المزيد ،بل ظلت الحرب النفسية مستمرة فبعضهم يغرق في المبالغة والوهم حتى يجعل وضع المرأة هو المسؤول عن مشكلات مصر من اولها الى آخرها ، كما قال سلامه موسى :

" تعدد مشكلاتنا يوهم اختلافها في الاصل وانها لا يتصل بعضها ببعض ، ولكن المتأمل المفكر يستطيع ان يجد النقطة البؤرية لجميع هذه المشكلات والنقطة البؤرية الوحيدة هنا هي أن نظامنا الاقطاعي في نظرته للعائلة ومركز المرأة والاخلاق الأبوية والنظرة الاجتماعية ،كل هذا يعود الى مشكلة واحدة هي أن آراءنا الاقطاعية القديمة التي ورثنا معظمها عن الدولة الرومانية الملعونة (لا يريد ان يعترف بالاسلام) لم تعد تصلح للحياة المصرية وأن متاعبنا وأرزاءنا واصطداماتنا تنبع من هذا الكفاح الذى نكافحه نحو حياة ديمقراطية جديدة نتخلص بها من الحياة الاقطاعية القديمة " (٣٢)

---

(٣١) وحي القلم : ٣/ ١٦٣ •

(٣٢) الأدب للشعب : ٦٦ـ٦٧ •

أما اسماعيل مظهر فقد جمع شبهاته القديمة وآراء غيره ونسقها في كتاب أسماه " المرأة في عصر الديمقراطية " جاء فيه :

" ومضى الكثيرون متعامين عن الحق الواضح الجلي قائلين بأن قضية المرأة قضية محلولة وان الزمن القديم قد وضع لها القواعد وفصل الفصول وأتم الفروع ، مؤتمين في ذلك بنظريات وأقوال أبلاها الزمن وناء عليها الدهر ، فأصبحت مهلهلة فضفاضة بادية العورات ، ولكنهم يحاولون سترعوراتها بالثرثرة الفارغة كقولهم " المرأة للبيت " وقولهم " الرجل قوام على المرأة " وقولهم كما قيل من قبل " المرأة ليس لها نفس " .. " (٣٣)

وفيه : " لقد اتخذ الرجعيون الذين يرهبون التطور فرقا من أوهام سلطت عليهم أو رغبة في بسط سلطانهم على النساء ... من بضعة نصوص أشير بها الى حالات قامت في عصور غابرة سبيلا الى استعباد النساء استعبادا أبديا ، لقد خضت المرأة في ذلك العصر أن تقر في بيتها وأن لا تتبرج تبرج الجاهلية الأولى " (٣٤) ثم أخذ يناقش كلا الدليلين :

" ان المعنى الذى يستخلصه أصحاب الرجعية من حض المرأة على ان تقر في البيت معنى غامض كل الغموض في هذا العصر . وبالرغم من ذلك الغموض الذى يكتنفه فانهم لا يريدون أن يفسروه حتى تتحدد المعانى القائمة في نفوسهم منه . أما اذا ارادوا ان تكون المرأة سجينة البيت فكيف يوفقون بين هذا المعنى وبين حاجات الحياة الضرورية ؟ واذا ارادوا أن يكون تفسيره أن تقر المرأة في البيت اذا لم يكن لها ما يشغلها خارجه ، فذلك هو الواقع في حياتنا الحديثة " (٣٥)

" .. ولكن المصيبة التي أصابنا بها أولئك المستغرقين (كذا) في

---

(٣٣) ص : ٩٦
(٣٤) ص : ١١٨
(٣٥) ص : ١٢٠

النظر في الحياة بمنظار القبلية البدائية ، انهم يعتقدون أن كل تجمل تبدو به المرأة هو تبرج وأنه تبرج الجاهلية الاولى ، ذلك في حين ان كلمة "التبرج" ليس لها حدود التمرينات الرياضية ، وفي حين أنه لم يصلنا عنهم وصف شامل لتبرج ـ الجاهلية الاولى !!! "

" .. فغالب الظن بل الأرجح تغليبا أن المقصود بـه (أى التبرج) ـ عادة ألفت في الأزمان الأولى كانت في نشأتها شعيرة من شعائر الوثنية ، أى شعيرة دينية ، فان البغاء على ما يعرف الآن من تاريخه وتطوره قد نشأ في أوله نشأة دينية ، فكان شعيرة من شعائر التقرب من الآلهة ... "

ثم يقول :

" فلما جاء الاسلام ... عطف الى ناحية المرأة فاعتبرها نصف انسان وأضفى عليها من الكرامة والاحترام ذلك القدر الذى لا يزال حتى الان موضع انبهار كل المشترعين " " .. غير أن خمسة عشر قرنا من الزمان كافية في الواقع لأن تهيء العقلية الانسانية الى خطوات اخرى في التشريع للمرأة ... "

" ومن هذه الناحية لا أرى ما يمنع مطلقا من أن ترفع المرأة الى منزلة المساواة بالرجل في جميع الحقوق المدنية والسياسية : في الميراث وفي قبول الشهادة وفي العمل وفي الاستقلال الفكرى والاقتصادى ، وبالجملة في جميع الاشياء التي تكمل بها انسانيتها ، ذلك بأنها انسان " (٣٦)

ثم تلاه خالد محمد خالد وكتابه " الديمقراطية أبدا " وكان نصيب المرأة من ديمقراطيته شيئين :

١ ـ حق المرأة في وقف تعدد الزوجات ، وعلى ذمته ينسب الى محمد عبده أنه قال " يجب تحريم التعدد الآن عملا بحديث لا ضرر ولا ضرار " (٣٧)

٢ ـ تأميم الطلاق ـ على حد تعبيره ـ (٣٨)

---

(٣٦) ص ١٣٧ ـ ١٣٨ (٣٧) ص ١٦٤

(٣٨) الكتاب المذكور انظر : ١٦٤ـ ١٦٥ .

أما حسين مؤنس فيعد الحجاب الاسلامي هو العائق الاكبر في سبيل انتماء مصر للغرب ذلك انه ربطها بالمجتمعات الشرقية المتخلفة في حين أن المرأة المصرية القديمة كالمرأة الأوربية الحديثة سواء بسواء وحضارتهما واحدة، يقول:

" وقد انهارت المجتمعات الشرقية كلها بسبب ظلمها للمرأة وحرمانها اياها من مكانها وحقها الطبيعيين، وهذه حقيقة لم يتنبه لها معظم من يدرسون تواريخ هذه الدول الشرقية من المشارقة ولكنها معروفة للدارسين من أهل الغرب لأن مجتمعهم (م) يقوم على غيره من المجتمعات، وهذه الحقيقة ـ على ما يبدو من بساطتها ـ تفرق بين مجتمع ومجتمع وحضارة وحضارة، بل هي الحد الفاصل بين الحضارات التي أينعت وعاشت والحضارات التي ذبلت وماتت "

" والحضارة المصرية القديمة من الطراز الذى اعطى المرأة حقها واعترف بها ومنحها حقها كاملا في البيت وفي ميدان العمل والحياة، بل ان عينك لا تقع على رسم مصرى قديم الا وجدت المرأة فيه الى جانب الرجل ورأيتها رافعة الرأس تسير معه وتعمل معه ..

" وحضارة مصر مشتركة من هذه الناحية الأساسية مع حضارتنا الراهنة وأنا أقول " حضارتنا " لأنك سترى أن ما نسميه اليوم بحضارة الغرب ان هو الا الحضارة المصرية القديمة متطورة في اتجاه مستقيم " (٣٩)

وهكذا ظل الناعقون يصيحون من كل مكان ويسلكون كل اتجاه ـ فكريا أم عمليا ـ حتى آل الأمر الى الواقع المؤلم الذى عبر عنه أوفى تعبير " جان بول رو " بقوله:

" ان التاثير الغربي الذى يظهر في كل المجالات ويقلب رأسا على عقب المجتمع الاسلامي لا يبدو في جلاء أفضل مما يبدو في تحرير المرأة " (٤٠)

---

(٣٩) مصر ورسالتها : ٥١ـ٥٢

(٤٠) الاسلام في الغرب : ١٧٨ .

(م) " يقوم على المرأة والرجل بجتمعين، ومن ثم فهم يعرفون أهمية المرأة فى المجتمع الانسانى، ويشيرون الى ذلك ويقررون أنه أساس تقدم مجتمعهم " ـ عبد الأعلى ـ

لقد عمت الفوضى الاخلاقية العالم الاسلامي من أقصاه الى ادناه على تفاوت في ذلك ، وتولى الجيل الذى رباه المستعمرون تربية جيل جديد اكثر مسخا وانحلالا ، وحوربت احكام الله على يد أبطال الاستقلال اكثر مما حوربت بأيدى المستعمرين ، ولنستمع الى " رو " وهو يقرر ذلك قائلا :

" في تركية سنة ١٩٢٩ صدر قانون مدني على غرار قانون " نوشاتيل " المدنى السويسرى فحرم تعدد الزوجات وقضى على الحجاب والحريم ونظم الطلاق ، وفي برهة وجيزة جعل من المرأة التركية شقيقة المرأة السويسرية وصنوها " (٤١)

ثم يقول :

" والمرأة التركية عصرية تماما فهي ترتدى أثواب السهرة العارية الكتفين والظهر كما لا تحجم عن ارتداء " المايو " ولكنها تتحاشى التطرف في ذلك ، وأما الغزل وأحاديث الغرام فهي امور لا تتم في العلن وكذلك التقبيل لا يجرى جهرا ، وما من أحد يشكو من التفكك الخلقي " (٤٢)

" وفي المغرب تمكن العهد الاستقلالي من ان يحقق في بضع سنوات ما لم يستطعه الاستعمار في عشرات السنين .

" وفي الجزائر أوحت الثورة للنساء بالكفاح فخرجت العذارى المحاربات من بيوتهن ونزعن الحجاب لأول مرة منذ أن اعتنقت بلادهن الاسلام ، وهنا تكون المعركة النضالية قد فعلت ما عجز السلام عن فعله " أى كما فعلت الثورة الشعبية المصرية .

وفي تونس " أعلن السيد بورقيبة عدة قرارات هي بمثابة ثورة اجتماعية جديدة (١٠ آب سنة ١٩٥٦) وكان المقصود بهذه الثورة منع تعدد الزوجات

---

(٤١) الاسلام في الغرب : ١٨١ .

(٤٢) المصدر السابق : ١٨٦ .

وجعل السن الدنيا لزواج الفتاة الخامسة عشرة ثم تحرير المواطنين والمواطنات الذين تخطوا العشرين من عمرهم من موافقة الوالدين اذا ما أرادوا عقد الزواج ، وفى نفس الوقت أعلن السيد بورقيبة ... بأن الطلاق لا بد من أن يخضع للمحاكم .. " (٤٣)

هذا وقد نشرت مجلة العربي في استطلاع لها عن تونس صورة للوحات الدعاية المنصوبة في الشوارع ففي كل ميدان لوحتان احداهما تمثل اسرة ترتدى الزى المحتشم مشطوبة باشارة (×) والاخرى تمثل اسرة متفرنجة متبرجة ومكتوب تحتها " كوني مثل هؤلاء " !

أما القرارات التي أشار اليها رو فهي تلك القوانين التي تعاقب من يتزوج ثانية بالحلال وتبرئ بل تشجع من يخادن عشرا بالحرام !

على أن السلاح الفتاك الذى استخدم لهذه الفضيلة وتقويض المجتمعات الاسلامية ونقل الأوبئة الاجتماعية الغربية هو وسائل الاعلام من صحافة واذاعة وسينما وتلفزيون ، تلك التي تعرض بصور فنية وأساليب متطورة كل ضروب الفتنة وصنوف الانحلال ، وقد اصبحت بما لديها من قدرة التأثير وسعة القاعدة تشكل جبهة عريضة عاتية تبدو حيالها أية محاولة للاصلاح أو نداء للفضيلة عاجزة جدا . (٤٤)

الى جانب ذلك يأتي التعليم المختلط والنوادى المختلطة والشواطيء (البلاجات) المختلطة ، وتأتي الازياء الخليعة المستوردة من بيوت اليهود في الغرب ، وتأتي موانع الحمل ووسائل الاجهاض .

الى جانب ذلك يكون الاختلاط الفاضح في دوائر الحكومة والمؤسسات وفي وسائل المواصلات وفي الشقق والمساكن وفي كل مكان في معظم أقطار العالم الاسلامي .

---

(٤٣) المصدر السابق : ١٨٨ ـ ١٨٩ .

(٤٤) انظر كتاب سقوط القاهرة ، عبد المنعم شميس .

ومن هنا فلا عجب ان سمعنا بين الحين والحين عن جرائم اجتماعية تضاهي تلك التي تحدثنا عنها في أوربا وأمريكا من قتل واختطاف واغتصاب وتشرد • ولا عجب ان تنتشر الامراض الاجتماعية الفتاكة الناشئة عن فقد كل من الجنسين خصائصه المميزة ، وليس ما نشاهده من تخنث الرجال وترجل النساء الا صورة من ذلك •

ولا عجب أيضا ان تتقوض البيوت وتنهار الأسر ويصبح جنوح الأحداث مشكلة اجتماعية تعاني منها بلاد تدعي أنها اسلامية •

ان التربية غير السليمة لا يمكن ان تنتج الا جيلا غير سليم ، وها هو ذا الجيل المعاصر المنكود تتجاذبه الشهوات والشبهات وتمزقه التناقضات والغوايات ، وتغتاله النزوات المتهورة والاغراءات القاتلة ، فلا يستطيع الا أن يسلم نفسه ذليلا لشياطين الجن والانس ينهشون فكره وجسمه ويلهبون ظهره بسياطهم حتى يسقط شلوا ممزقا على مذبح الفسق والاباحية •

والعجيب حقا أنه مع هذه النذر كلها لا تزال الدعوات المحمومة على أشدها ولا تزال الموجة في عنفوانها ولا تزال الصيحات تتعالى من كل مكان مطالبة بنبذ التقاليد وفصل الأخلاق عن الدين •

((الباب الخامـــس))

حكم العلمانية في الاســـــلام

الفصل الاول : هل للعلمانية في العالم الاسلامي مبـــــرر ؟

الفصل الثاني : حكم العلمانية في الاســـــــــلام .

ـ ـ ـ

الفصل الاول

هل للعلمانية فى العالم الاسلامى مبرر ؟

العلمانية فكرة مستوردة لايشك فى ذلك أعداؤها ولا يمارى فيه أحد من دعاتها ومعنى ذلك بداهة انها ليست من صميم الاسلام ولاهى حتى من انتاج المنتسبين اليه ، ولذلك وجب - قبل كل شئ - أن ننظر اليها نظرتنا الى اية بضاعة مستوردة من جهة حاجتنا اليها أوعدمها ، فمالم نكن بحاجة اليه فان المفروض فينا باعتبارنا عقلاء أن نميز ونختار ونأخذ أخذ الواعى الحذر .

وبتطبيق هذه البدهية على العلمانية نجد انها بضاعة نحن فى غنى تام عنها ، أى ان من الحمق والغباء ان نستجلبها حتى وان كانت نافعة وجدية بالنسبة للمجتمعات والظروف التى أنتجتها ، فكيف اذا كانت كما سبق - مادخلت مجالا من مجالات الحياة الا وثمرتها الشقاء المطبق والضيع المرير .؟

ثم انه يجب سلفا الا ننسى اننا لسنا مخيرين اصلا فى قبول هذه الفكرة او رفضها ، واننا - حتى ونحن نناقشها على ضوء هذه البدهيات - انما نناقشها من قبيل الفرض الجدلى والنزول الى مستوى الخصم " وانا أو اياكم لعلى هدى او فى ضلال مبين " والا فان ماسياتى تقريره من حكم العلمانية فى دين الله لا يدع لنا فرصة للتفكير او التردد .

وبالرغم من ذلك نقول : " هل للعلمانية فى العالم الاسلامى مبرر ؟ هل لها مايسوغها من الاسباب سواء أكان فى العقيدة أم الشريعة ، فى التصور أم فى التطبيق .؟

وقبل أن نفكر فى الجواب سوف تستولى على أذهاننا تلك المشاهد المروعة التى عرضت سابقا عن الحياة العلمانية فى الغرب ولسان حالها يصرخ فى وجوهنا

أن احذروا أن تلقوا بأنفسكم فى الجحيم ٠ !

واذا استعرضنا بصرعة خاطفة ماسبق أن تحدثنا عنه سلفا من قصة العلمانية فى اوربا مرتبطة بأسبابها ودوافعها فسوف نصل دون جهد الى نتيجة واضحة هى ان العلمانية رد فعل خاطىء لدين محرف واوضاع خاطئة كذلك ، وانها نبات نكد خرج من تربة خبيثة ونتاج سىء لظروف غير طبيعية ٠

فأوربا نكبت بالكنيسة وديانتها المحرفة وطغيانها الاعمى وسارت احقابا من الدهر تتعثر فى ركابها ثم انتفضت عليها وتمردت على سلطتها ، فانتقلت الى انحراف اخر وسارت فى خط مضاد الا انه أعظم خطرا وأسوأ مصيرا ٠

انتقلت من جاهلية تلبس مسوح الدين الى جاهلية ترتدى مسوح التقدم والتطور ، وهربت من طغيان رجال الدين والاقطاعيين فوقعت فى قبضة الرأسماليين واعضاء الحزب الشيوعى ٠

وذلك الانتقال وهذا الهروب دفعت اليه ظروف تاريخية بيئية نابعة من واقع الحياة الاوربية خاصة ، مع العلم بانه لم يكن ضروريا ان يتخذ رد الفعل الاوربى تلك الصفة بعينها وأن مجيئه على هذا الشكل ليس حتميا ٠

اى انه لم يكن حتما على مجتمع ابتلى بدين محرف ان يخرج عنه ليكون مجتمعا لادينيا بل الافتراض الصحيح هو ان يبحث عن الدين الصحيح ٠

فاذا وجدنا مجتمعا اخر يختلف فى ظروفه عن ذلك المجتمع ومع ذلك يصر على ان ينتهج اللادينية ويتصور انها حتم ضرورة فبماذا نحكم عليه ؟ ٠٠ وكيف يكون الحكم ايضا اذا كان هذا المجتمع الاخر يملك الدين الصحيح ؟ ٠ ان اول مالاحظناه فى دين اوربا هو التحريف فى العقيدة والشريعة : عقيدة التثليث المستغلقة المضطربة والاناجيل المحرفة المتضاربة ثم النظرة القاصرة التى فصلت

الدين عن الدولة والحياة وحصرته فى الاديرة والكنائس •

فهل ذلك أو شيء منه فى الاسلام ؟

ـــــــ

لنبدأ بالتثليث أى مايتصل بعقيدة الالوهية :

وبدون أدنى مبالغة نقول انه ليس من دين ولا نحلة على وجه الارض ايسر فهما واعظم اتساقا مع الفطرة وموافقة للعقل من العقيدة الاسلامية بل هى الفطرة ذاتها التى يعد ماعداها انحرافا وضلالا والتى لاتتغير بحال :

" فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن اكثر الناس لا يعلمون " (الروم : ٣٠) •

هذه العقيدة الفطرية تشرحها سورة واحدة صغيرة قلّ ان يوجد مسلم لا يستظهرها " قل هو الله أحد • الله الصمد • لم يلد ولم يولد • ولم يكن له كفوا أحد • " وهى السورة التى نزلت جوابا الهيا للمشركين عندما سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يصف لهم ربه • (١) • هكذا وحدانية سهلة سلسة تتشربها النفس البشرية بطريقة تلقائية دون تعقيد او تكلف • فلا اقانيم ولا ابوة وبنوة ولا تشبيه ومكافأة •

وهذه الحقيقة هى التى تجذب اهتمام وتركيز دارسى الاسلام من اول لحظة وتدفع من كتبت له الهداية منهم الى نفض ماعلق بفطرته من ركام والدخول فى دين الله بكل طمانينة ذلك ان " اول مايستشعره القلب والعقل امام العقيدة الاسلامية

ـــــــــــــ

(١) انظر لباب النقول المطبوع مع الجلالين : ٣٨٤ •

هو الاستقامة والبساطة والوضوح ، .. وهذه السمة التى تجذب الافـــراد الذين يدخلون فى هذا الدين من الاوربيين والامريكيين المعاصرين فيتحدثـــون عنها بوصفها اول ماطرق حسهم من هذا الدين وهى ذاتها السمة التى تجتـذب البدائيين فى افريقيا واسيا فى القديم والحديث لانها سمة الفطرة التى يشتـــرك فيها الناس اجمعين متحضرين وبدائيين " (٢) .

ويأتى مصداق ذلك على لسان أحد الداخلين فى الاسلام من النصارى :

" بدأت أدرس الاديان بصفة عامة والاسلام على وجه الخصوص فايقنت فـــى غضون دراستى ان دنيا تفكيرى واحساسى اقرب للاسلام منها للمسيحية وبالتدريج اكتشفت ان الاسلام كمنهج حياة كان ينسجم من كافة الوجوه مع فطرتى البشريـــــة واستطيع هنا ان اضرب مثالا نظريا واخر عمليا :

"عندما درست وجهة النظر الاسلامية حول النبى عيسى عليه السلام عرفت اننى لـم يحدث قط أن آمنت بان عيسى عليه السلام ابن الله ، كما عرفت فيما بعد مـــن أستاذ بروتستانتى ان عددا كبيرا من المسيحيين ـ حوالى ٨٠ ٪ منهم ـ اقـــرب الى الاسلام منه الى المسيحية فى هذه الناحية على الاقل من عقيدتهم . أمـــا من الناحية العملية فحتى قبل اسلامى كنت انفر من الخمور والرقص وما شابه ذلـــك من الامور التى عرفت فيما بعد انها محرمة فى الاسلام ، وهكذا كان الاســـلام بالنسبة لى كعملية اكتشافى لفطرتى " فطرة الله التى فطر الناس عليها لاتبديـل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ولكن اكثر الناس لا يعلمون " (٣) .

---

(٢) خصائص التطور الاسلامى : ٢٢٨

(٣) رجال ونساء اسلموا ، عرفات كامل العشى : ١/ ٢٤ ـ ٢٥ .

والعجيب في قضية التثليث ان تنسب اوربا الفضل في انكارها الى فلاسفة عصر التنوير (ق ١٨) من امثال فولتير وهوبين ، ويعرب بعض الباحثين عن دهشتهم لان عقلية جبارة كتلك التى يتمتع بها ديكارت لم تستنكر هذه العقيدة ولو بكلمة واحدة .

هذا في حين ان الاسلام ـ دين الله الحق ـ سبق الى نقض هذه العقيدة وابطالها ليس من خلال تنفيره العام من الشرك وانكاره المطلق له فحسب بل افرد الحديث عنها استقلالا وفصله من وجوه منوها بانها عقيدة وثنية قديمة وهى الحقيقة التى لم تعرفها اوربا الا بعد ظهور علم مقارنة الاديان الذى يعد من احدث علومها النظرية . قال تعالى : " وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بافواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل " (٤)

أما بالنسبة للاناجيل فان سلامة القرآن الكريم من التحريف وحفظه بنصه الكامل حفظا ابديا لامر حسى مقطوع به لا يمارى فيه الا مكابر ينكر عقله وحسه قبل ان ينكره ففى امكان الشاك وحقيقة ذلك ان ياخذ نسخة مطبوعة من القرآن الكريم من ماليزيا مثلا واخرى من مصر وثالثة من امريكا ثم يقارن بينها وبعد ان يتضح له انها متطابقة تماما ـ وهو ما لابد منه ـ فليقارن احداها باية نسخة مخطوطة منه سواء فى احدى مكتبات الهند او فى احد متاحف اوربا ليجد الحقيقة عينها تتكرر لديه . (٥)

وقديما يذكر الامام البيهقى رحمه الله قصة واقعية مروية عن القاضى يحيى بن اكثم قال : " دخل يهودى على المامون فتكلم فاحسن الكلام فدعاه المامون الى الاسلام فابى فلما كان بعد سنة جاءنا مسلما فتكلم فاحسن الكلام فقال له المامون : ماكان

---

(٤) انظر : فى ظلال القرآن : ٤ / ٢٠٠

(٥) لا يحتج احد بالطبعات التى تصدرها احيانا هيئات معادية للاسلام فهى تفتضح بمجرد صدورها .

سبب اسلامك ؟ قال : انصرفت من حضرتك فاحببت ان امتحن الاديان فعمدت الى التوراة فكتبت ثلاث نسخ فزدت فيها ونقصت وادخلتها الكنيسة فاشتريت مني وعمدت الى الانجيل فكتبت ثلاث نسخ فزدت فيها ونقصت وادخلتها البيعة فاشتريت مني . وعمدت الى القرآن فعملت ثلاث نسخ فيها نقص وزيادة وادخلتها الوراقين فتصفحوها فلما ان وجدوا فيها الزيادة والنقصان رموا بها فلم يشتروها فعلمت ان هذا كتاب محفوظ فكان هذا سبب اسلامي .

* قال يحيى ابن اكثم فحججت تلك السنة فلقيت سفيان بن عيينة فذكرت له الحديث فقال مصداق هذا في كتاب الله تعالى . قلت في اي موضع ؟ قال : قال الله تعالى في التوراة والانجيل : (بما استحفظوا من كتاب الله) فجعل حفظه اليهم فضاع . وقال " انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون " فحفظه فلم يضع " (٦)

وهذه الحقيقة الكبرى تقف كالصخرة الصماء امام جهود المستشرقين وفلول الحاقدين على الاسلام قديما وحديثا لم يستطيعوا منها نيلا ولا تحويلا .

أما تحريف الشريعة بفصلها عن شئون الحياة وقصرها على طائفة مخصوصة بل على فترات محدودة من حياة تلك الطائفة — فقد حفظ الله تعالى دينه الحق من ذلك أيضا ، ولم تمر على الاسلام تلك الظروف التاريخية السيئة التي حالت دون تطبيق شريعة عيسى عليه السلام :

فالرسول صلى الله عليه وسلم لم يلحق بالرفيق الاعلى حتى كانت للاسلام دولة يقوم كل جليل من امرها ودقيق على هديه الالهي دولة فريدة في عالم الارض كله واستمرت دولة الاسلام تنمو وتتسع وانضوى تحت حكم الله شعوب وامم العالم المتحضر من بلاد الصين الى المحيط الاطلسي ولم يبق خارجا عن دائرته الا اوربا

---

(٦) الخصائص الكبرى : ١٢٨/٣

التى كانت مطمورة الظلمات بعضها فوق بعض والقبائل الوحشية فى اواسط أفريقية وشمال وجنوب شرق آسيا .

وهكذا لم تتعرض الشريعة الاسلامية لاضطهاد يذهب معالمها ويطمس حقائقها ويجعل تطبيقها فى واقع الحياة امرا مستحيلا كما حدث للنصرانية .

هذا بالنسبة للعوامل الخارجية اما العوامل الذاتية فان الشريعة الاسلامية سلمت من عبث العابثين وتحريف المبطلين . فعلى الرغم من كثرة الفرق الهدامة والطوائف المتهورة فانها جميعا عجزت عن تحقيق اهدافها وغمرها التاريخ فى طياته والشريعة غضة طرية كانما انزلت اليوم .

أما القرآن فامر حفظه ـ كما سبق ـ اشهر من ان يدور حوله نقاش .

وأما السنة فسلامتها وحفظها معجزة من معجزات هذا الدين الخالدة فقد قيض الله لها رجالا يستظهرون مئات الالوف من الاسانيد والاحاديث غيبا ، لو أن احدهم شك فى كلمة بل فى حرف لذكر ذلك فى روايته اداء للامانة وتبرئة للذمة . واستنبط المسلمون علما لا نظير له بين الامم السابقة واللاحقة وهو علم " مصطلح الحديث " الذى وضعت له اصول وقواعد يذهل لها الباحثون المعاصرون ومايزال فى الامة علماء معاصرون محتفظون بسلسلة السند حتى رسول الله صلى الله عليه وسلم مع ان الكتب المدونة تملا الافاق .

ونتيجة للضبط المتقن والدقة البالغة كانت الامة واثقة كل الثقة فى قدرة علمائها على كشف كل مدسوس على السنة ، فقد جىء الى الرشيد " بزنديق " فامر بقتله فقال : يا أمير المؤمنين اين انت من اربعة الاف حديث وضعتها فيكم احرم فيها الحلال واحل فيها الحرام . ماقال النبى منها حرفا واحدا ؟ .

(فقال الرشيد : اين انت يا زنديق عن عبد الله بن المبارك وابى اسحاق الفزارى ينخلانها فيخرجانها حرفا حرفا " (٧)

وظلت هذه الامة الاسلامية قرونا تعيش حياة متسقة موحدة المنهج والسلوك لا أثر فيها لشيء من الانفصال الشعورى او العملى بين الشريعة والسياسة او بين الدين والدنيا على النحو الذى رايناه فى النصرانية .

نعم وقع فى حياة الامة الاسلامية انحراف بل انحرافات لكنها انحرافات شخصية عملية املتها الاهواء والاطماع واسهمت فى ارسائها عوامل ليس هذا مجالها . اما الشريعة ذاتها فقد ظلت سليمة محفوظة وبقيت منهجا ساميا ثابتا ترتقى اليه الامة فى فترات اليقظة والاصلاح ، ولم يذهب ابدا من حس الامة بمجموعها ان تقيس الواقع بالشريعة وان تنظر الى الانحراف وان طال على انه انحراف . حتى فى احلك العصور واحرجها كان ضمير الامة يقظا وكان فيها علماء افذاذ يصححون المفهومات ويردون المنحرفين الى الاصل الثابت الوضاء .

يقول الامام ابن القيم الذى عاش فى الفترة المظلمة التى تلت سقوط بغداد واكتساح التتار للرقعة الاسلامية (ت ٧٥١ هـ) :

" وتقسيم بعضهم طرق الحكم الى شريعة وسياسة كتقسيم غيرهم الدين الى شريعة وحقيقة وكتقسيم اخرين الدين الى عقل ونقل . وكل ذلك تقسيم باطل ، بل السياسة والحقيقة والطريقة والعقل كل ذلك ينقسم الى قسمين : صحيح وفاسد فالصحيح قسم من اقسام الشريعة لاقسيم لها والباطل ضدها ومنافيها . وهذا الاصل من اهم الاصول وانفعها وهو مبنى على حرف واحد وهو عموم رسالته صلى الله عليه وسلم بالنسبة الى مايحتاج اليه العباد فى معارفهم وعلومهم واعمالهم وانه لم يحوج

---

(٧) تحذير الخواص : السيوطى : ١٦٣

أمته الى أحد بعده ، وانما حاجتهم الى من يبلغ عنه ماجاء به فلرسالته عمومان محفوظان لا يتطرق اليهما تخصيص : عموم بالنسبة الى المرسل اليهم وعموم بالنسبة الى كل من يحتاج اليه من بعث اليه فى اصول الدين وفروعه فرسالته كافية شافية عامة لاتحوج الى سواها ولايتم الايمان به الا باثبات عموم رسالته فى هذا وهذا ، فلا يخرج أحد من المكلفين عن رسالته ولا يخرج نوع من أنواع الحق الذى تحتاج اليه الامة فيى علومها واعمالها عما جاء به . وقد توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وماطائر يقلب جناحيه فى السماء الا ذكر للامة منه علما ، وعلمهم كل شىء حتى اداب التخلى واداب الجماع والنوم والقيام والقعود والاكل والشرب والركوب والنزول والسفر والاقامة والصمت والكلام والعزلة والخلطة والغنى والفقر والصحة والمرض وجميع احكام الحياة والموت .

" ووصف لهم العرش والكرسى والملائكة والجن والنار والجنة ويوم القيامة ومافيه حتى كانه رأى عين .

" وعرفهم معبودهم والههم اتم تعريف حتى كأنهم يرونه ويشاهدونه باوصاف كماله ونعوت جلاله وعرفهم الانبياء واممهم وما جرى لهم وماجرى عليهم معهم حتى كأنهم كانوا بينهم وعرفهم من طرق الخير والشر دقيقها وجليلها مالم يعرفه نبى لامته قبله وعرفهم صلى الله عليه وسلم من احوال الموت ومايكون بعده فى البرزخ ومايحصل فيه من النعيم والعذاب للروح والبدن مالم يعرف به نبى غيره . وكذلك عرفهم صلى الله عليه وسلم من ادلة التوحيد والنبوة والمعاد والرد على جميع فرق اهل الكفر والضلال ماليس لمن عرفه حاجة من بعده ، اللهم الا من يبلغه اياه ويبينه ويوضح منه ماخفى عليه .

" وكذلك عرفهم صلى الله عليه وسلم من مكايد الحروب ولقاء العدو وطرق النصر والظفر مالو علموه وعقلوه ورعوه حق رعايته لم يقم لهم عدو أبدا .

" وكذلك عرفهم صلى الله عليه وسلم من مكايد ابليس وطرقه التى ياتيهم منها وما يتحرزون به من كيده ومكره وما يدفعون به شره مالا مزيد عليه ، وكذلك عرفهم صلى الله عليه وسلم من احوال نفوسهم واوصافها ودسائسها وكمائنها مالا حاجة لهم معه الى سواه .

" وكذلك عرفهم صلى الله عليه وسلم من امور معايشهم مالو علموه وعملوه لاستقامت لهم دنياهم اعظم استقامة .

" وبالجملة فجاءهم بخير الدنيا والاخرة برمته ولم يحوجهم الى أحد سواه ، فكيف يظن ان شريعته الكاملة التى ماطرق العالم شريعة اكمل منها ناقصة تحتاج الى سياسة خارجة عنها تكملها او الى قياس او حقيقة او معقول خارج عنها ؟ ومن ظن ذلك فهو كمن ظن ان بالناس حاجة الى رسول اخر بعده ، وسبب هذا كله خفاء ماجاء به من ظن ذلك ، وقلة نصيبه من الفهم الذى وفق الله اصحاب نبيه الذين اكتفوا بما جاء به واستغنوا به عما سواه وفتحوا به القلوب والبلاد وقالوا : هذا عهد نبينا اليه وهو عهدنا اليكم " (٨) .

أما السلطة الكهنوتية فلا وجود لها فى الاسلام لا بالشكل الذى رأيناه سلفا فى اوربا النصرانية ولا بغيره .

ذلك ان الاسلام ـ وهو دين التوحيد الخالص ـ انما أنزله الله لتحرير العباد واخراجهم من عبودية العباد الى عبادة الله وحده وطاعته دون سواه فى التلقى وفى الاتباع فى المنهج والسلوك وعلى ذلك جاء الامر صريحا قاطعا فيما يتعلق

---

(٨) اعلام الموقعين : ٤/٣٧٥ ـ ٣٧٦ .

بصرف أى نوع من أنواع العبادة الكثيرة لغير الله ، كائنا من كان ملكا مقربا أو نبيا مرسلا او طاغوتا متألها فالامر كله سواء ، كله كفر : " ماكان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لى من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون ، ولا يأمركم ان تتخذوا الملائكة والنبيين اربابا أيأمركم بالكفر بعد اذ انتم مسلمون " ـ ٣ : ٧٩ ـ ٨٠ .

وهذا هو الفارق الجوهرى الاول فى المسألة بين الاسلام والنصرانية المحرفة فوجود هيئة كهنوتية تشرع لخلق الله امرا أو نهيا فى العقيدة او الفروع هو شرك أكبر بالله تعالى سواء أجاء ذلك فى صورة مراسيم بابوية أم قرارات مجمعية ام منشورات كنسية .

وقصة عدى بن حاتم ـ التى ستأتى قريبا ـ توضح ذلك كل الوضوح ، ولذلك جاءت دعوة النبى صلى الله عليه وسلم اهل الكتاب مناسبة لمقتضى الحال التى كانوا عليها من عبادة الافراد وتقديس المخلوقين فحينما كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم الى طواغيت الارض يبلغهم دعوته كان نص كتاب هرقل زعيم النصارى الروم هكذا :

" من محمد عبد الله ورسوله الى هرقل : عظيم الروم ، السلام على من اتبع الهدى أما بعد فانى أدعوك بدعاية الاسلام اسلم تسلم يؤتك الله اجرك مرتين فان توليت فانما عليك اثم الاريسيين و " يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد الا الله ولانشرك به شيئا ولايتخذ بعضنا بعضا اربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بانا مسلمون " (٩) رواه البخارى .

وهذا تعريض جلى بان النصارى يعبد بعضهم بعضا وان الله تعالى يدعوهم الى الاسلام الذى ينفى ذلك اشد النفى .

وعندما اختلف بعض الصحابة رضى الله عنهم مع ابن عباس رضى الله عنهما فى مسألة متعة الحج احتجوا عليه بفعل ابى بكر وعمر فقال :

" يوشك ان تنزل عليكم حجارة من السماء ! اقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقولون : قال ابوبكر وعمر " هذا مع ان ابابكر وعمر رضى الله عنهما افضل الامة وابعدها عن الامر بما يخالف الكتاب والسنة .

فاين هذا من قرارات الفاتيكان التى ماتزال تصدر بعد المسيح بالفى سنة

---

(٩) فتح البارى ١ / ٣٢ . والأريسيون : قيل هم الفلاحون وقيل الأتباع عموماً ، انظر المصدر نفسه : ٢٩ .

تحل وتحرم كما تشاء ؟ ومسألة اباحة الطلاق وهدمها اشهر من أن تذكر .

ولا مجال للمقارنة بين الشرك الذى ترتكبه المجامع النصرانية ومجالس الكرادلة وغيرها وبين الاجتهاد الذى يباح لمن كان اهلا له من علماء المسلمين .

فالاجتهاد هو استنباط ونظر فى النصوص الشرعية الموحاة قرآنا او سنة وليس تشريعا مستقلا كما هو الحال فى القرارات الكنسية .

ثم ان الاجتهاد لا يعد وكونه رايا فرديا لاعصمة فيه من الخطأ ولا يلزم احد باتباعه بل يحق لاى انسان ان يخالفه مادامت المخالفة تتمشى ايضا مع روح الشريعة ومدلولات النصوص .

والقاعدة المشهورة " كل يؤخذ من قوله ويرد الا رسول الله صلى الله عليه وسلم" هى عبارة قالها كثير من العلماء واتفق عليها الائمة الاربعة وغيرهم ولا يخالف فيها الا من خلع ربقة الاسلام بالكلية كغلاة الروافض .

والفارق الجوهرى الثانى فى المسألة هو انه لا واسطة بين الله وخلقه فى الاسلام على الاطلاق اللهم الا ان الرسل صلوات الله عليهم يبلغون عن الله تعالى ، والعلماء يبلغون عنهم وقد يسمون وسطاء بالنظر الى ذلك اما التوسط بمعناه الذى تولته الكنيسة النصرانية فهو فى دين الله شرك اكبر ولا وجود له تاريخيا .

نعم وجد مايشبه ذلك عند بعض المتصوفة مع مريديهم وبين الجهلة من العوام بالنسبة للاموات والصالحين ولكنه ـ مع اختلافه عن التوسط الكنسى ـ ليس من الاسلام ولم يقره علماء الامة المعتبرون .
قال شيخ الاسلام فى رسالة له فريدة :

" وما سوى الانبياء من مشايخ العلماء والدين فمن اثبتهم وسائط بين الرسول صلى الله عليه وسلم وامته يبلغونهم ويعلمونهم ويؤدبونهم ويقتدون بهم فقد اصاب فى ذلك ، وهؤلاء اذا اجمعوا فاجماعهم حجة قاطعة لا يجتمعون على ضلالة وان تنازعوا فى شىء ردوه الى الله والرسول اذ الواحد منهم ليس بمعصوم على الاطلاق بل كل احد من الناس يؤخذ من كلامه ويترك الا الرسول صلى الله عليه وسلم وقد قال صلى الله عليه وسلم :

" العلماء ورثة الانبياء فان الانبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما وانما ورثوا العلم فمن

أخذه فقد اخذ بحظ وافر " .. ومن اثبتهم وسائط بين الله وبين خلقه كالحُجّاب الذين بين الملك ورعيته بحيث يكونون هم يرفعون الى الله حوائج خلقه فالله انما يهدى عباده ويرزقهم بتوسطهم فالخلق يسألونهم وهم يسألون الله كما ان الوسائط عند الملوك يسألون الملوك الحوائج للناس لقربهم منهم .. فمن اثبتهم وسائط على هذا الوجه فهو كافر مشرك يجب ان يستتاب فان تاب والا قتل وهؤلاء مشبهون لله شبهوا المخلوق بالخالق وجعلوا لله اندادا " (١٠)

وقد ادرك " اتيين دينيه " هذه الحقيقة وكانت احدى دوافع اعتناقه للاسلام يقول :

" الوسيلة هى احدى كبريات المسائل التى فاق بها الاسلام جميع الاديان اذ ليس بين الله وعبده وسيط وليس فى الاسلام قساوسة ولا رهبان ، ان هؤلاء الوسطاء هم شر البلايا على الاديان وانهم لكذلك مهما كانت عقيدتهم ومهما كان اخلاصهم وحسن نياتهم " (١١) .

ان الاسلام ليس فيه شيء اسمه رجال دين اصلا بل ان هذه الكلمة المحدثة لا يستعملها الا مغرض مضلل اوساذج مخدوع . فالتصور الاسلامى اساسا يرفض فكرة وجود اشخاص او مجالات دنيوية لاعلاقة لها بالدين او دينية لاعلاقة لها بالحياة بل هو يجعل النفس البشرية ومثلها الحياة البشرية وحدة متناسقة ويخاطبها على هذا الاساس ويربطها بالله تعالى مباشرة فى توحيد ها خالص مجرد (راجع الفصل الآتى) . والله تعالى يقول " واذا سألك عبادى عنى فانى قريب اجيب دعوة الداعى اذا دعان " — ٢ : ١٨٦ — ويقول " والذين اذا فعلوا فاحشة او ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب الا الله " ٣—١٣٥ .

فاين هذا من تعاليم النصرانية المحرفة حيث يجلس المذنب على كرسى الاعتراف امام عبد مخلوق مثله يقر بذنوبه ويلتمس منه المغفرة والرضوان ؟ .

لقد صان الله الاسلام من تلك الملابسات التى ادت الى وجود الطائفة الكهنوتية

---

(١٠) الواسطة بين الحق والخلق : ١٦ : ١٧
(١١) أشعة خاصة بنور الاسلام : ٢٣

النصرانية محرفة لدين الله محتكرة لكتبه فلم يوجد مثل هذه الطائفة في واقع الحياة الاسلامية كما انه لم يوجد لها مبرر في العقيدة والتصور .

ونتيجة ذلك الطبيعية هي ان الطغيان الفظيع الذي مارسته الكنيسة وكان احد أسباب العلمانية لا وجود له في تاريخ الاسلام .

فالطغيان الديني ذلك الذي يحتكر تعاليم الوحي ويحرف الفاظها ومعانيها ويسير الجيوش الصليبية لسحق المخالفين من الفرق في الراي ويقيم محاكم التفتيش لتصيدهم لم يوجد له ـ ولله الحمد ـ نظير في تاريخنا الاسلامي .

والطغيان السياسي ذلك الذي يستذل الحكام الاشخاص رجال الدين ويعرض الشعوب لطائلة عقوبة الحرمان العام بسبب نزوة غضب تعترى احد الباباوات ويسخر الناس ويكبل مامنح الله للانسان من حق الحياة الحرة ـ لم يكن في الاسلام مثله أبدا .

والطغيان الاقتصادي ذلك الذي يتحكم في موارد وارزاق البشر ويستذلهم بالعمل المجاني في اقطاعيات الكرادلة والقساوسة ويفرض الضرائب الباهظة على الامم والافراد لحساب خزانة الفاتيكان لا وجود لمثله في الاسلام مطلقا . بل ان الله تعالى انزل قوله :
" يا أيها الذين امنوا ان كثيرا من الاحبار والرهبان ليأكلون اموال الناس بالباطل "
ـ ٩ : ٣٤ ـ قبل ان يدور في خلد اوربا الثورة على اقطاع رجال الدين والمطالبة بتحديد مخصصاتهم .

والطغيان الفكري والعلمي ذلك الذي وقف حجر عثرة في سبيل رقي البشرية واقام محاكم التفتيش لاحراق العلماء احياء وطارد الباحثين التجريبيين كما تطارد الشرطة عصابات الحشاشين وصفد العقل البشري باغلال التعصب والجمود ، وكفر الناس لانهم اكتشفوا مايعينهم على فهم بعض حقائق الوجود او ظروف العيش ـ هذا الطغيان الرهيب لا وجود له في الاسلام ولا يمكن ان يوجد بحال في دين يجعل العلم فريضة شرعية والفكر عبادة سامية ويسوى بين مداد العلماء ودماء الشهداء بل يعد الكلب المعلَّم وسيلة طاهرة في حين ان الكلب الجاهل حيوان نجس !

وكيف تكون نفرة بين العلم والدين وحلقات دروس الطب والفلك والرياضة بل الشعر والادب كلها تعقد في الجوامع جنبا الى جنب مع حلقات الحديث والفقه والتفسير ؟ . والطبيب والفلكي والرياضي يجلس جنبا الى جنب مع الفقيه وكبير

القضاة في مجلس الخليفة ؟ والمراصد وبيوت الحكمة تغدق عليها الاموال من بيت مال المسلمين ؟ .

انـه لا مجال للمقارنة ولا داعي للايضاح ..

يبقى بعد هذا من عقائد النصرانية وشعائرها التي نفرت الناس منها وتسببت في ثورتهم عليها مسألة الخطيئة الموروثة وموضوع الطقوس التعبدية :

أما الخطيئة الموروثة - التي أزعجت فولتير وباسكال بل أقلقت الضمير الاوربي كله وارقته منذ ان اعتنقها الى الان وبذرت اليأس والقنوط في النفوس فلجأ الكثيرون الى الاديرة والصوامع كما سبق الكلام عند الرهبانية - اما هذه فان الموقف الاسلامي منها قطعي وصريح .

فمن جهة معصية آدم عليه السلام بالاكل من الشجرة نجد ان الواقعة ذُكرت في القرآن مذيلة بذكر التوبة والاستغفار وبيان ان الله تعالى قبل التوبة وغفر الخطيئة ففي سورة البقرة ينتهي سياق القصة الى قوله جل شأنه " فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه انه هو التواب الرحيم " ٣٧ .

وفي سورة الاعراف تكون عاقبة الخطيئة " قالا ربنا ظلمنا انفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين" (٢٣)

وفي سورة طه يقول تعالى " وعصى آدم ربه فغوى . ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى " - ١٢١ - ١٢٢ .

فالله تعالى تاب على آدم وهو مايزال بعد في الملأ الاعلى ولم يهبط الى الارض الا بعد ذلك ، والايات الكريمة لا تعطي الخطيئة ذلك الحجم المهول الذي تعطيها اياه تعاليم الكنيسة المحرفة فهي امر عرضي في حياة آدم عليه السلام بل في حياة كل بشر ، تمحوه التوبة ويذهبه الاستغفار .

صحيح ان حكمة الله تعالى اقتضت ان تجعل المعصية سببا في الاخراج من الجنة ولكن الله تعالى قبل ان يخلق آدم قال للملائكة "اني جاعل في الارض خليفة"

فموضع الاستخلاف اساسا هو الارض وعليها يكون الابتلاء وليس ذلك لعنة في ذاته بل هو غاية الحكمة .

ولذلك حج آدم موسى عليهما السلام حين عاتبه على انه تسبب في اخراج بنيه من الجنة ، فرد عليه آدم كما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم " أفليس تجد فيما انزل الله عليك انه سيخرجني منها قبل ان يدخلنيها " . قال بلى " قال صلى الله عليه وسلم فحج آدم موسى (ثلاثا) (١٢)

هذا ومن جهة اخرى فان التصور الاسلامي يقرر ويؤكد حقيقة عظمى وقاعدة جليلة تضمنها قوله تعالى " الا تزر وازرة وزر اخرى . وان ليس للانسان الا ماسعى" ـ ٥٣ : ٣٨ ، ٣٩ ـ فلا يؤاخذ الله تعالى احدا بذنب غيره مهما كانت الصلة بينهما اى انه حتى لو فرضنا ـ جدلا ـ ان آدم عليه السلام لم يتب فانه وحده المؤاخذ بمعصيته ان لم يغفرها الله له ولاذنب للبشرية لا المسيح ولاغيره .

أنه ـ حسب قاعدة العدل الربانى ـ لايجوز ان يؤاخذ احد غير ادم بخطيئته حتى ولو كان ابن الشيطان الذى اغواه بالخطيئة ـ فضلا عن ان يكون ابن الله ـ كما تقول الكنيسة ـ تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا أو احدا من بنى آدم .

وبذلك خلا التصور الاسلامى من الافكار والنظريات التى ابتدعتها الكنيسة باعتبارها من مستلزمات الخطيئة سواء مايتعلق منها بذات الله عز وجل وبالانسان .

وكان علماء المسلمين اسبق من فلاسفة عصر التنوير واتباع مدرسة النقد التاريخى فى هذا المضمار يقول احدهم :

" .. فنسبوا الاله الحق سبحانه الى مايأنف اسقط الناس واقلهم ان يفعله [بمملوكه وعبده والى مايأنف عباد الاصنام ان ينسب اليه اوثانهم وكذبوا على الله عز وجل فى كونه تاب على آدم عليه السلام وغفر له خطيئته ، ونسبوه الى اقبح الظلم حيث زعموا أنه سجن انبياءه ورسله واولياءه فى الجحيم بسبب خطيئة ابيهم ، ونسبوه الى غاية السفه حيث خلصهم من العذاب بتمكينه اعداءه من نفسه حتى قتلوه وصلبوه واراقوا دمه ، ونسبوه الى غاية العجز حيث عجزوه ان يخلصهم بقدرته من غير هذه الحيلة ونسبوه الى غاية النقص حيث سلط اعداءه على نفسه وابنه ففعلوا به مافعلوا ..

---

(١٢) اصل الحديث فى البخارى وهذه رواية الشعبى . انظر فتح البارى : ١١/٥٠٥

" وبالجملة فلانعلم امة سبت ربها ومعبودها والهها بما سبت به هذه الامة كما قال عمر رضى اللهعنه " انهم سبوا الله مسبة ماسبهاياها احد من البشر " وكان بعض ائمة الاسلام اذا راى صليبيا اغمضعينيه وقال : لا استطيع ان املأ عيني ممن سب الهه ومعبوده باقبح السب .

" ولهذا قال عقلاء الملوك (ملك الهند) : ان جهاد هؤلاء واجب شرعا وعقلا فانهم عار على بنى آدم مفسدون للعقول والشرائع " (١٣) .

هذا الكلام نموذج من بين انتقادات عقلية لاحصر لها دونها علماء المسلمين قبل أن يخلق سبينوزا وباسكال وفولتير وروسو بقرون وقبل ان تفكر اوربا فى شىء اسمه "النقد التاريخى " أوحرية التفكير .

وينتهى بنا المطاف الى شعائر النصرانية وطقوسها لاسيما الطقس الاكبر (العشاء الربانى) الذى كان ومايزال من اعظم حجج المناهضين للنصرانية لما يصدم به العقل والفديهة والحس .

ولانحتاج الى توكيد ان الاسلام ليس فيه شىء من هذا ولا مايشبهه . فان الاسلام وهو دين الله الحق أجل وأسمى من أن يشتمل على مثل هذه الطقوس الوثنية المنقولة عن الامم الغابرة . ان الله تعالى من على البشرية بالاسلام منة عظيمة اذ حررها من مثل هذه السخافات وانزل شعائر هى فى غاية الحكمة والسمو والاتساق مع العقل والفطرة شعائر لاغموض فيها ولا تمتمات ولا اسرار مقدسة . وليس ادل على ذلك من أن كثيرا من الغربيين يؤخذ بروعة مشهد المسلمين وهم يصلون الى درجة ان ذلك كان سببا فى دخول بعضهم اوتفكيره فى ان يدخل فى الاسلام . يقول توماس ارنولد :

" انه لايتأتى لاحد يكونقد رأى ذلك المشهد ان لايبلغ تاثره به اعماق قلبه وان لا يلحظ ببصره القوة التى تمتاز بها هذه الطريقة من العبادة عن غيرها " (١٤)

" وقال رينان : لم ادخل مسجدا الا شعرت بانفعالات نفسية واسفبالغ حينما اذكر اننى لست مسلما " (١٥) .

---

(١٣) الامام ابن القيم : اغاثة اللهفان : ٢/ ٢٨٤
(١٤) الى الدين الفطرى الابدى : الطرازى / ٢٦٣
(١٥) المصدر السابق : ٢٦٤

ويقارن المستشرق الامريكى " بودلى " بين النصرانية والاسلام فى ذلك قائلا :

" لو أن القديس بطرس عاد الى روما لامتلأ عجبا من الطقوس الضخمة وملابس الكهنوت المزركشة والموسيقى الغربية فى المعبد المقرونة باسمه ، ولن يعيد البخور والصور والرقى الى ذهنه اى شيء من تعاليم سيده المسيح . ولكن اذا ما عاد محمد (صلى الله عليه وسلم) الى أى مسجد من المساجد المنتشرة بين لندن وزنزبار فانه سيجد نفس الشعائر البسيطة التى كانت تقام فى مسجده فى المدينة الذى كان من الآجر وجذوع الشجر " (١٦) .

أما المهزلة التاريخية العظمى (صكوك الغفران) التى تعد بحق صفحة سوداء فى تاريخ الانسانية فلا يستطيع احد من اعداء الاسلام او دعاة العلمانية مهما بلغت به المكابرة ان يزعم انها وجدت فى التاريخ الاسلامى فضلا عن اصوله التشريعية ذاتها . فهذه المهزلة الاضحوكة لم يعرفها المسلمون حتى فى أحط واحلك عصورهم حين فشا الجهل وعلق ببعض الخرافات باذهان الجهلة والعوام ولم يحدث قط ان كتب احد مشايخ الصوفية او من يسمون اولياء وثيقة غفران بل نستطيع ان نقول ان ذلك لم يدر فى خلده ولم يخطر له على بال .

ذلك ان الامة الاسلامية مهما انحرفت وتخبطت تظل لديها مسكة من عقل وبقية من ايمان تمنعها عن ارتكاب مثل هذه الحماقات الصفيقة التى لم يتورع عنها باباوات الكنيسة قرابة ثلاثة قرون .

ـــــــــــــــ

هذه الفروق الجوهرية الكبرى بين الاسلام والديانة الكنسية وبين تاريخه وتاريخها تقدم اجابة ضخمة ساطعة على السؤال الذى طرح سلفا وهو : هل للعلمانية فى العالم الاسلامى مبرر .. ؟؟

وما علينا بعد ذلك ان غالط المغالطون وتحمل المخادعون " أرأيت من اتخذ الهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا " ـ ٦٥ : ٤٣ ـ

* * *

---

(١٦) الجفوة المفتعلة بين العلم والدين : ٢٣ ـ ٢٤

الفصل الثانـــــى

حكم العلمانيـــة فى الاســــلام

ان العلمانية ـ كما عرضناها فى الابواب السابقة تفصيلا ـ لاتستدعى ـ فى حقيقة الامر ـ كبير جهد لبيان تناقضها مع دين الله المتعالى " الاســــلام " فهى من ذلك النوع من الاتجاهات والافكار التى قال عنها علماؤنا قديمـــــا " ان تصوره وحده كاف فى الرد عليه " .

ولكن نظرا لما اصاب كثيرا من التصورات الاسلامية من انحراف وغبش فـــى اذهان الناس ولما يثيره اعداء الاسلام ـ الظاهرون والمتسترون ـ من شبهـــات واباطيل فان ~~هكذا~~ من الضرورى تجلية تلك التصورات وكشف هذه الشبهات .

واذا كان التوحيد هو اعظم حقيقة فى التصور الاسلامى ـ بل فى الوجود كلــه ـ فانه كذلك أكبر نقيض للعلمانية ومن ثم كان لابد من معرفته حق المعرفة .

ان التوحيد لهو القضية التى احتدمت فيها المعركة بين الرسل صلوات اللــــه وسلامه عليهم وبين اقوامهم ، وانقسمت البشرية بسببها قسمين متناحرين : مسلميـــن موحدين ومشركين ضالين . " وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحى اليه انــــه لا اله الا انا فاعبدون " ٢١ ـ ٢٥ .

وقبل ان نحاول ايضاح المفهوم الحقيقى لعقيدة التوحيد يحسن بنا النظـــــر الى حال الاقوام الذين بعثت فيهم الرسل واشتبكت معهم فى صراع دائب على مـــدار التاريخ ، ذلك ان معرفة حالهم هى خير معين لمعرفة العقيدة التى انزلهـــــا الله لتصحيح هذه الحال .

ومادامت مهمة المرسلين واحدة وقضيتهم مع اممهم واحدة فلننظر الى الامـــة التى بعث فيها النبى الخاتم صلى الله عليه وسلم بآخر واكمل الرسالات . كيـــف

كانت تصوراتها ؟ وكيف كان منهج حياتها ؟ وصفة اخص فيم ولماذا اشتد النزاع بينها وبين دعوته صلى الله عليه وسلم ؟

ان الدارس لعقائد الجاهلية العربية يجد ـ من أول وهلة ـ انها لم تكن تنكر وجود الله ابدا بل كانت توحده في معظم افعاله تعالى كالخلق والرزق والتدبير والاحياء والاماتة .. والشواهد على ذلك كثيرة في القرآن الكريم كقوله تعالى : " ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله " . وفي كلام العرب وشعرهم كقول امرئ القيس :

اذا ما اتقى الله الفتى ثم لم يكن على اهله كلا فقد كمل الفتى (١)

وكانوا يقرون بمشيئة الله النافذة في الكون وقدره الذي لايرد :
" سيقول الذين اشركوا لو شاء الله ما اشركنا ولا آباؤنا ولاحرمنا من شيء " ٦/١٤٨، ٧/ـ ٣٢ ، " ومن يدبر الأمر فسيقولون الله " ١٠ - ٣١ .

ومنه قول عنترة :

ياعبل اين من المنية مهربي ان كان ربي في السماء قضاها (٢)

وكانوا يؤمنون بالملائكة " وقال الذين لايرجون لقاءنا لولا انزل علينا الملائكة " ٢٥/ ٧٧ . ويؤمنون كذلك بالرسل " واذا جاءتهم اية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثلما اوتي رسل الله " ٦/ ١٢٤ . ومنه قول النابغة :

فألفيت الامانة لم تخنها كذلك كان نوح لايخون (٣)

---

(١) ديوان امرئ القيس بتحقيق محمد ابوالفضل ابراهيم : ٣٦٦
(٢) ديوان عنترة : ١٨٣ .
(٣) ديوان النابغة : ١٢٦

وكانوا يؤمنون بالكتب ويسمون اليهود والنصارى اهل الكتاب " وقالوا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة " — ٢٥/٣٢ — اى كالتوراة والانجيل .

وكان منهم من يؤمن بالبعث والحساب كقول زهير :

يؤخر فيوضع فى كتاب فيدخر ... ليوم الحساب او يعجل فينقم (٤)

وكذلك كان لدى الجاهليين العرب بعض الشعائر التعبدية : منها تعظيمهم للبيت الحرام وطوافهم حوله ووقوفهم بعرفات وتعظيم الاشهر الحرم ، قال النابغة فى وصف الحجاج :

مشمرين على خوص مزممة ... نرجو الاله ونرجو البر والطعما (٥)

ومن ذلك ذبحهم ونذرهم لله كما فى قصة نذر عبد المطلب واهدائهم للبيت الحرام وتخصيص شيء من الحرث والانعام لله " وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والانعام نصيبا " — ٦ / ١٣٦ .

ومن الناحية التشريعية كانت الجاهلية العربية تقيم بعض الحدود كحد السرقة فقد ذكر ابن الكلبى والقرطبى فى تفسيره ان قريشا كانت تقطع يد السارق (٦) وهو حد معروف فى الشرائع السابقة — كما فى حديث المخزومية وشفاعة زيد لها — وشىء آخر سبقت — بل فاقت — به الجاهلية العربية الجاهليات اللادينية المعاصرة وهو " حرية التدين " فكان منهم الحنفاء الذين يتعبدون ببقايا دين ابراهيم عليه السلام وكان منهم اهل الكتاب من اليهود والنصارى وكان منهم عبدة الكواكب وعباد الاوثان وبعضهم كان يعبد الجن او الملائكة .

هذا كله غير المزايا الخلقية التى كانت الهيئة التى بعث فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم تحوى منها مالا تحويه الهيئات الاخرى !

ولكن — وهذا هو المهم — بماذا حكم الله على هذا المجتمع ، وكم حسبت هذه الامور كلها فى ميزان الاسلام ؟

ان الله تعالى حكم على هذه البيئة — وعلى الواقع الارضى كله حينئذ — بانها كفر وجاهلية وعدّ تلك الامور جميعها صفرا فى ميزان الاسلام وحتى ما اقر من معتقداتهم جاء على اساس جديد وفى صورة جديدة كانما هو — فعلا — شىء جديد .

---

(٤) شرح ديوان زهير [illegible] : ٨١
(٥) ديوان النابغة : ١٠٢
(٦) اضواء البيان الشنقيطى : ٣ : ٣٩٢

ولذلك نشبت المعركة الطويلة بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم واشتد النزاع ، معركة شرسة ونزاع حاد ، حتى ان السيف كان الحكم الأخير .

والشيء المثير — ايضا — أن موضوع هذه المعركة العنيفة الطويلة لم يكن سوى كلمة واحدة هي كلمة " لا اله الا الله " كلمة يصر عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم الى أقصى حدود الاصرار وترفضها الجاهلية العربية الى ابعد مدى للانكار ، يرفضونها عن علم ويقين بأن لها معنى عظيما ومدلولا خطيرا وانها تستتبع مسئوليات جسيمة وتكاليف ثقيلة .

منذ اللحظة الاولى حين دعاهم النبي صلى الله عليه وسلم الى لا اله الا الله كان الجواب الفوري " اجعل الالهة الها واحدا ان هذا لشيء عجاب " فالقضية واضحة في أذهانهم : ان الالتزام بهذه الكلمة معناه الرفض الجازم والتخلي الكامل عن كل ماعدا الله من معبوداتهم وطواغيتهم المختلفة : طاغوت الاوثان وطاغوت الزعامة وطاغوت القبلية وطاغوت الكهانة وطاغوت التقاليد .. الخ والاستسلام الكامل لله ورد الامر كله — جليله وحقيره وكبيره وصغيره — الى الله تعالى وحده لاشريك له ، وهذا موقف واحد من مواقف الصراع حول هذه الكلمة :

" لما حضرت ابا طالب الوفاة جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد عنده ابا جهل وعبد الله بن ابي امية بن المغيرة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ياعم قل لا اله الا الله . كلمة اشهد لك بها عند الله فقال ابوجهل وعبد الله بن ابي امية يا ابا طالب : اترغب عن ملة عبد المطلب ؟! فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرضها عليه ويعيد له تلك المقالة حتى قال ابوطالب اخر ماكلمهم : هو على ملة عبد المطلب .. " (٧) .

أرأيت ؟! رجل في ساعة الاحتضار الاخيرة يراد منه ان يقول هذه الكلمة — الخفيفة على اللسان — فما الذي يجعل طواغيت قريش تتشبث بهذا الاصرار المستميت على الا يقولها ؟ وما الذي يجعل هذا الرجل يلفظ انفاسه دون ان ينطقها ؟ لو كانت المسألة مسألة تلفظ باللسان لماحدث شيء من هذا ابدا .. ولكنه المعنى الخطير والمغزى العميق الذي أدركه هؤلاء المشركون وغفل عنه اكثر المسلمين في العصور الاخيرة .

واذا كان معنى لا اله الا الله هو الكفر بالطاغوت والايمان بالله " فمن يكفر بالطاغوت

---

(٧) صحيح مسلم : ١ / ٢١٤ مع شرح النووي .

ويؤ من بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها " ٢ : ٢٥٦ ـ وهـــو أيضا نفى العبادة عما سوى الله تعالى كما قال كل نبى لقومه " اعبد وا اللـــه مالكم من اله غيره " واذ كانت هذه هى دعوة الرسل جميعا " ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبد وا الله واجتنبوا الطاغوت " ـ ١٦ : ٢٦ ـ فان حقيقتها لا تتجلى الا بمعرفة حقيقة هذ ين :

" العبادة ، والطاغـــوت "

١ ـ الطاغـــوت :

جاءت هذه الكلمة فى القرآن والسنة كثيرا ، وخير تعريف لها ماذكره الامـــام ابن القيم رحمه الله : " الطاغوت كل ماتجاوز به العبد حده من معبود او متبـــوع أو مطاع ، فطاغوت كل قوم من يتحاكمون اليه غير الله ورسوله او يعبد ونه مـــن د ون الله او يتبعونه على غير بصيرة من الله او يطيعونه فيما لا يعلمون انه طاعة لله " (١)

من هذا يتبين ان " الطاغوت " لفظ عام يشمل كل مايضاد " لا اله الا الله " سواء أكان شعارا ام نظاما امقانونا ام شخصا امراية ام حزبا ام فكرة .. الخ .

ولذلك ذكر الشيخ محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ ان الطواغيت كثيـــرون ثم حدد رؤوسهم بخمسة :

"الاول : الشيطان الداعى الى عبادة غير الله والدليل قوله تعالى " الم اعهد اليكم يابنى آدم الا تعبد وا الشيطان انه لكم عدو مبين ".

الثانى : الحاكم الجائر المغير لاحكام الله والدليل قوله تعالى " الم تر الى الذيـــن يزعمون انهم آمنوا بما انزل اليك وما أنزل من قبلك يريد ون ان يتحاكموا الـــى الطاغوت وقد امروا ان يكفروا به ويريد الشيطان ان يضلهم ضلالا بعيدا "

الثالث : الذى يحكم بغير ما أنزل الله ، والدليل قوله تعالى " ومن لم يحكـــم بما أنزل الله فاولئك هم الكافرون .

الرابـــع : الذى يدعى علم الغيب من د ون الله ..

الخامس : الذى يعبد من د ون الله وهو راض بالعبادة ... " (٢) .

وعلى هذا نستطيع القول بان الشرك ـ ذنب البشرية الاكبر ومدار الصراع بيـــن الامم والرسل ـ هو عبادة الطاغوت مع الله اومن د ونه فى امرين متلازمين :

---

(١) فتح المجيد : ١٨

(٢) مجموعة التوحيد : ١٢

" الارادة والقصد ، والطاعة والاتبــاع "

أما شرك الارادة والقصد فهوالتوجه الى غير الله تعالى بشيء من شعائر التعبــد كالصلاة والقرابين والنذور والدعاء والاستغاثة ، تبعا للسذاجة الجاهلية القائلــة " مانعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى " ـ ٣٩ : ٣ ـ وطاغوت هذا النوع هوالصنم اوالوثن اوالجني اوالطوطم ... الخ .

واما شرك الطاعة والاتباع فهوالتمرد على شرع الله تعالى وعدم تحكيمه فى شــؤون الحياة بعضها اوكلها وهومفرق الطريق بين الاسلام والجاهلية كما انه السمة المشتركة بين الجاهليات كلها على مدار التاريخ وماستحقت ان تسمى جاهلية مهما بلغ شأنهــا فى الحضارة والمعرفة " أفحكم الجاهلية يبغون " " أم لهم شركاء شرعوا لهم من الديـن مالم يأذن به الله " . وطاغوت هذا النوع هوالزعماء والكهان والكبراء والانظمــة والاوضاع والتقاليد والاعراف والقوانين والدساتير والاهواء ..الخ .

والواقع ان كلا النوعين من الشرك مردهما الى اصل واحد وهو تحكيم غير اللــــه والتلقى عنه ، فان مقتضى تحكيمه وحده الا تتوجه البشرية الى غيره باى نوع من انــواع العبادة والقربات والا تتوجه وتسير فى حياتها كلها الا وفق ماشرع لها فى كتابــــه وعلى لسان رسله . قال تعالى " ان الحكم الا لله امر الا تعبدوا الا اياه ذلـــك الدين القيم ولكن اكثر الناس لا يعلمون " ١٢٠ : ٤٠ ـ

فرد الامر كله الى الله واتخاذه وحده حكما فى كل شيء هو عينه العبــادة التى أمر الله الا يصرف شيء منها لغيره وهذا هو ذات الدين القيم الذى لا يرضى اللـه تعالى سواه وان جهله اكثر الناس على مدار التاريخ .

اذا تقرر هذا فكل مايجابه هذه الحقيقة او جزءا منها فهو طاغوت فى اى صــورة كان وفى اى عصر ظهر ، ولا يكون الانسان ـ فردا اومجتمعا ـ شاهدا الا اله الا اللـه حقيقة الا بالكفر به والبراءة منه واهله .

من اجل ذلك كان العربى الذى يقول هذه الكلمة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ينخلع عن الجاهلية انخلاعا تاما وينسلخ من كل اعرافها واوضاعها وقيمها وموازينهـــا وايحاءاتها وينضم الى موكب الايمان وهو متجرد لله منقاد لاوامره بلا تردد اواستثناء ..

٢ ـ العبادة :

العبادة هي العلاقة بين هذا الكون بكل ما فيه من جمادات واحياء وبين الخالق سبحانه وتعالى وهي الغاية من الوجود الانساني بل من وجود المخلوقين المكلفين انسا وجنا " وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون " .

والمختار من تعريفاتها ما قاله شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله وهو انها " اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الاقوال والاعمال الباطنة والظاهرة " (١) .

وقد اثبت رحمه الله في رسالة العبودية أن الدين كله داخل في العبادة مؤيدا ذلك بالادلة الشرعية واللغوية . (٢)

وقد سبقت الاشارة الى أن ذلك هو منطوق قوله تعالى " ان الحكم الا لله أمر الا تعبدوا الا اياه ذلك الدين القيم " وهو كذلك مفهوم قوله جل شأنه " وما امروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين " ـ ٩٨ : ٥ ـ .

وزاد هذه الحقيقة ايضاحا تلميذه ابن القيم ـ رحمه الله ـ الذي اسهب في بيان قواعد العبادة ومراتبها واستغراقها للنشاط البشري كله فقال : " ورحى العبودية تدور على خمس عشر قاعدة ، من كملها كمل مراتب العبودية وبيانها : ان العبودية منقسمة على القلب واللسان والجوارح وعلى كل منها عبودية تخصه والاحكام التي للعبودية خمسة : واجب ومستحب وحرام ومكروه ومباح وهي لكل واحد من القلب واللسان والجوارح " (٣) .

ثم فصل القول في الجوارح فقال : " اما العبوديات الخمس على الجوارح : فعلى خمس وعشرين مرتبة ايضا اذ الحواس خمسة وعلى كل حاسة خمس عبوديات " وذكر كل نوع مع الشرح والتمثيل .

ويوضح هذا بتوسع ما قاله الشهيد سيد قطب رحمه الله عند الحديث عن قوله تعالى " وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون " ومنه :

" .. ان مدلول العبادة لابد ان يكون اوسع واشمل من مجرد اقامة الشعائر فالجن والانس لا يقضون حياتهم في اقامة الشعائر والله لا يكلفهم بهذا وهو يكلفهم الوانا اخرى من النشاط تستغرق معظم حياتهم . وقد لا نعرف نحن الوان النشاط التي يكلفها

---

(٣) مدارج السالكين : ١ / ١٠٩

الجن ، ولكننا نعرف حدود النشاط المطلوب من الانسان نعرفها من القرآن من قول الله تعالى : " واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الارض خليفة " فهى الخلافة فى الارض اذ نعمل هذا الكائن الانسانى ، وهى تقتضى الوانا من النشاط الحيوى فى عمارة الارض والتعرف الى قواها وطاقاتها وذخائرها ومكنوناتها وتحقق ارادة الله فى استخدامها وتنميتها وترقية الحياة فيها ، كما تقتضى الخلافة القيام على شريعة الله فى الارض لتحقيق المنهج الالهى الذى يتناسق مع الناموس الكونى العام .

"ومن ثم يتجلى ان معنى العبادة التى هى غاية الوجود الانسانى اوالتى هى وظيفة الانسان الاولى اوسع واشمل من مجرد الشعائر وان وظيفة الخلافة داخلة فى مدلول العبادة قطعا وان حقيقة العباد تتمثل اذن فى امرين رئيسيين :

الاول : هو استقرار معنى العبودية لله فى النفس اى استقرار الشعور على ان هناك عبدا وربا ، عبدا يَعبد وربا يُعبد . وان ليس وراء ذلك شيء وان ليس هناك الا هذا الوضع وهذا الاعتبار ليس فى هذا الوجود الا عابد ومعبود والا رب واحد والكل له عبيد .

والثاني : هو التوجه الى الله بكل حركة فى الضمير وبكل حركة فى الجوارح وكل حركة فى الحياة التوجه بها الى الله خالصة والتجرد من كل شعور اخر ومن كل معنى غير معنى التعبد لله " (٤) .

وهذه المعانى دل عليها صريح القرآن كما فى قوله تعالى "قل ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له " ـ ٦ : ١٦٢ / ١٦٣ ـ .

ولذلك فان نهى الله تعالى عن الاشراك به فى عبادته واخلاصها له وحده كما فى قوله تعالى " انا انزلنا اليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصا له الدين الا لله الدين الخالص " ـ ٣٩ / ٢ ـ ٣ ـ وقوله " قل افغير الله تأمرونّى اعبد ايها الجاهلون " ـ ٣٩ : ٦٤ ـ يتوجه الى هذه المعانى بجملتها كما سيأتى تفسيره فى حديث عدى ابن حاتم رضى الله عنه .

ان فطرة الانسان وطبيعة تكوينه وافتقاره الذاتى لهى قاطعة الدلالة على انه "عبد" ولا يمكن ان يكون غير ذلك وما عليه الا ان يختار معبوده ..

---

(٤) المجلد السابع ، ج ٢٧ ص ٢٨

وقد أفتى شيخ الاسلام ابن تيمية فى رسالة العبودية " أن الانسان على مفترق طريقين لاثالث لهما ، فاما ان يختار العبودية لله ، واما ان يرفض هذه العبودية فيقع لامحالة فى عبودية لغير الله " (٥) .

وكل عبودية لغير الله كبرت أم صغرت هى فى نهايتها عبادة للشيطان " الم اعهد اليكم يابنى آدم الا تعبدوا الشيطان انه لكم عدو مبين . وان اعبدونى هذا صراط مستقيم " وهذا هو المؤدى الاخير مهما تنوعت الاساليب وتعددت السبل .

يشمل ذلك العرب الذين قال الله تعالى فيهم " ان يدعون من دونه الا اناثا وان يدعون الا شيطانا مريدا " ـ ٤ : ١١٧ ـ ويشمل كذلك كل عباد لغير الله على مدار التاريخ .

" لقد تغيرت ولاشك بعض مظاهر العبادة فلم يعد هناك تلك " الانات " التى كان العرب فى شركهم يعبدونها ولكن عبادة الشيطان ذاتها لم تتغير وحلت محل الاناث القديمة اوثان اخرى : الدولة والزعيم والمذهب والحزب والعلم والتقدم والانتاج والحضارة والتطور والمجتمع والوطن والقومية والانسانية والعقلانية " والمودة " والجنس والحرية الشخصية .....

" عشرات من الاناث الجديدة غير تلك الاناث الساذجة البسيطة التى كان يعبدها العرب فى الجاهلية تضفى عليها القداسات الزائفة وتعبد من دون الله ويطاع امرها فى مخالفة الله وفى تغيير خلق الله .. ماتغيرت الا مظاهر العبادة .. " تطورت " ! ولكن الجوهر لم يتغير .. انه عبادة الشيطان " (٦) .

ـــــــ

على ضوء هذا الفهم الاجمالى لمعنى " الطاغوت والعبادة " يتضح لنا المعنى الحقيقى للا اله الا الله الذى هو ـ كما سبق ـ الكفر بالطاغوت وافراد الله تعالى بالعبادة .

وانطلاقا من هذا المفهوم نستطيع ان نرى حكم الله فى العلمانية بسهولة ووضوح انها باختصار : نظام طاغوتى جاهلى يتنافى مع لا اله الا الله من ناحيتين اساسيتين متلازمتين :

١ ـ من ناحية كونها حكما بغير ما أنزل الله
٢ ـ من ناحية كونها شركا فى عبادة الله

---

(٥) مقدمة رسالة العبودية : ٦
(٦) دراسات قرانية : محمد قطب : ٤٦٩

ومع جلاء هذه الحقيقة ويسر ادراكها فاننا سنتناولها بشيء من التفصيل مناقشين للشبهات المتهافتة التي قد تثار حولها .

أولا : الحكم بغير ما أنزل الله :

في الكلام السابق عن الطاغوت عرفنا انه اختصار الحكم او الحاكم بغير ما أنزل الله وهنا نريد ايضاح حكم العلمانية بتطبيقها على قاعدة " ان الحكم الا لله " التي هي مضمون الاسلام ومقتضى كلمة " لا اله الا الله ":

ان العلمانية تعني - بداهة - الحكم بغير ما انزل الله فهذا هو معنى قيام الحياة على غير الدين . ومن ثم فهي - بالبديهة ايضا - نظام جاهلي لا مكان لمعتقده في دائرة الاسلام بل هو كافر بنص القرآن الكريم " ومن لم يحكم بما أنزل الله فاولئك هم الكافرون " .

وان مما يثير الانتباه ان اكثر الايات الواردة في تكفير من لم يحكم بما انزل الله ونفي الايمان عنه - ان لم تكن كلها - انما جاءت في سياق الكلام عن الذين يدّعون الايمان من اهل الكتاب او المتظاهرين بالاسلام وربما كانت الحكمة في ذلك ان من لم يدّعِ الايمان بشيء من كتب الله كافر بالضرورة . وقضية تحاكمه الى غير الله واضحة لا لبس فيها ولكن الوهم قد يصيب بعض من ينتسبون الى احد الكتب السماوية فيحسبون انهم مؤمنون وهم لا يحكمون بما انزل الله فيها بل يطيعون غير الله معه او من دونه . يوضح ذلك الايات المتتابعة في سورة المائدة من قوله تعالى " انا انزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين اسلموا للذين هادوا والربانيون والاحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا ومن لم يحكم بما انزل الله فاولئك هم الكافرون " .. الى قوله تعالى " افحكم الجاهلية يبغون ومن احسن من الله حكما لقوم يوقنون " ٤٤ _ ٥٠ .

" وآية ال عمران " الم تر الى الذين اوتوا نصيبا من الكتاب يدعون الى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون " : ٢٣

وآيات سورة النساء " يا أيها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الامر منكم فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الاخر ذلك خير واحسن تأويلا . الم تر الى الذين يزعمون انهم آمنوا بما انزل اليك وما انزل من قبلك يريدون ان يتحاكموا الى الطاغوت وقد امروا ان يكفروا به ويريد الشيطان

أن يضلّهم ضلالا بعيدا " الى ان قال جل ذكره " فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى انفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما " : ٥٩ ــ ٦٥ .
أما سورة الانعام التى يكاد موضوع التشريع والحاكمية يستغرقها كلها فنلحظ ذلك فى قوله تعالى " ولا تاكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وانه لفسق وان الشياطين ليوحون الى اوليائهم ليجادلوكم وان اطعتموهم انكم لمشركون " : ١٢١ .

وفى سورة التوبة يقول تعالى : " اتخذوا احبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما امروا الا ليعبدوا الها واحدا لا اله الا هو سبحانه عما يشركون " ٣١ ــ وكذلك فى سورة النور : " ويقولون آمنا بالله وبالرسول واطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما اولئك بالمؤمنين واذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم اذا فريق منهم معرضون " الى قوله تعالى " انما كان قول المؤمنين اذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم ان يقولوا سمعنا واطعنا واولئك هم المفلحون " : ٤٧ ــ ٥١ .
وفى سورة "محمد" صلى الله عليه وسلم " ان الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ماتبين لهم الهدى الشيطان سول لهم واملى لهم . ذلك بانهم قالوا للذين كرهوا مانزل الله سنطيعكم فى بعض الامر " : ٢٥ ــ ٢٦ .
قال شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى :
" لا ريب ان من لم يعتقد وجوب الحكم بما انزل الله على رسوله فهو كافر فمن استحل ان يحكم بين الناس بما يراه هو عدلا من غير اتباع لما انزل الله فهو كافر فانه مامن أمة الا وهى تامر بالحكم بالعدل وقد يكون العدل فى دينها ماراه أكابرها بل كثير من المنتسبين الى الاسلام يحكمون بعاداتهم التى لم ينزلها الله كسواليف البادية وكانوا الامراء المطاعين . ويرون ان هذا هو الذى ينبغى الحكم به دون الكتاب والسنة ، وهذا هو الكفر فان كثيرا من الناس اسلموا ولكن لا يحكمون الا بالعادات الجارية التى يامر بها المطاعون فهؤلاء اذا عرفوا انهم لا يجوز لهم الحكم الا بما انزل الله فلم يلتزموا ذلك بل استحلوا ان يحكموا بخلاف ما انزل الله فهم كفار " (١)

قال ابن كثير ــ رحمه الله ــ عند تفسير قوله تعالى " فلا وربك لا يؤمنون .. " الاية " يقسم تعالى بنفسه الكريمة المقدسة انه لا يؤمن احد حتى يُحكِّم الرسول صلى الله عليه وسلم فى جميع الامور فما حكم به فهو الحق الذى يجب الانقياد له باطنا وظاهرا

---

(١) مجموعة التوحيد ، الرسالة الثانية عشرة : ٤١٣

ولهذا قال " ثم لا يجدوا في انفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما " أي اذا حكموك يطيعونك في بواطنهم ، فلا يجدون في انفسهم حرجا مما حكمت به وينقادون له في الظاهر والباطن فيسلمون لذلك تسليما كليا من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة " (٢)

وقال رحمه الله في تفسير قوله تعالى " أفحكم الجاهلية يبغون ومن احسن من الله حكما لقوم يوقنون :

" ينكر الله تعالى على من خرج عن حكم الله المحكم المشتمل على كل خير الناهي عن كل شر ، وعدل الى ما سواه من الاراء والاهواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله كما كان اهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات مما يضعونها بآرائهم واهوائهم وكما يحكم به التتار من السياسات الملكية الماخوذة عن ملكهم جنكيزخان الذي وضع لهم "الياسق" وهو عبارة عن كتاب مجموع من احكام قد اقتبسها من شرائع شتى من اليهودية والنصرانية والملة الاسلامية وغيرها فيها كثير من الاحكام اخذها من مجرد نظره وهواه فصارت في بنيه شرعا متبعا يقدمونه على الحكم بكتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فمن فعل ذلك منهم فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع الى حكم الله ورسوله فلا يحكم سواه في قليل ولا كثير قال تعالى (افحكم الجاهلية يبغون) اي يبتغون ويريدون وعن حكم الله يعدلون ، (ومن احسن من الله حكما لقوم يوقنون) اي ومن اعدل من الله في حكمه لمن عقل عن الله شرعه وامن به وايقن وعلم ان الله احكم الحاكمين ، وارحم بخلقه من الوالدة بولدها فانه تعالى هو العالم بكل شيء القادر على كل شيء العادل في كل شيء " .

ثم ذكر ـ رحمه الله ـ ما رواه ابو حاتم بسنده عن الحسن البصري قال :
" من حكم بغير حكم الله فحكم الجاهلية . وبسنده عن طاووس " انه كان اذا سأله رجل : أفضل بين ولدي في النحل ؟ (اي في العطيه) قرأ " افحكم الجاهلية يبغون " مما يدل على حساسية السلف رضي الله عنهم المرهفة تجاه الموضوع وتنفيرهم من اتباع غير شرع الله في اي امر وان صغر .

---

(٢) تفسير القران العظيم : ٥٢٠/١

وعقب ابن كثير على ذلك بذكر الحديث الذي رواه البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ابغض الناس الى الله عز وجل من يبتغي في الاسلام سنة الجاهلية " الحديث (٣) ومراده من ذلك بيان ان الجاهلية صفة تلحق كل من حكم بغير ما انزل الله وليست فترة تاريخية انتهت بظهور الاسلام .

ويقول الشيخ محمد بن ابراهيم رحمه الله :

" .. من الممتنع ان يسمي الله سبحانه الحاكم بغير ما انزل الله كافرا ولا يكون كافرا بل هو كافر مطلقا اما كفر عمل واما كفر اعتقاد " . ثم قال في تفصيل كفر الاعتقاد :

" وهو انواع : احدهما : ان يجحد الحاكم بغير ما انزل الله احقية حكم الله ورسوله ... الثاني : الا يجحد الحاكم بغير ما انزل الله كون حكم الله ورسوله حقا لكن اعتقد ان حكم غير الرسول صلى الله عليه وسلم احسن من حكمه واتم واشمل لما يحتاجه الناس من الحكم بينهم عند التنازع اما مطلقا او بالنسبة الى ما استجد من الحوادث التي نشأت عن التطور في الزمان وتغير الاحوال وهذا ايضا لا ريب انه كفر لتفضيله احكام المخلوقين التي هي محض زبالة الاذهان وصرف حثالة الافكار على حكم الحكيم المجيد .

الثالث : الا يعتقد كونه احسن من حكم الله ورسوله ولكن اعتقد انه مثله فهذا كالنوعين اللذين قبله في كونه كافرا الكفر الناقل عن الملة .. "

الرابع : ان لا يعتقد كون حكم الحاكم بغير ما انزل الله مماثلا لحكم الله ورسوله فضلا عن ان يعتقد كونه احسن منه لكن اعتقد جواز الحكم بما يخالف حكم الله ورسوله فهذا كالذي قبله ..

الخامس : وهو اعظمها واشملها واظهرها معاندة للشرع ومكابرة لاحكامه ومشاقة لله ولرسوله ومضاهاة بالمحاكم الشرعية اعدادا وامدادا وارصادا وتاصيلا وتفريعا وحكما والزاما ومراجع ومستندات فكما ان للمحاكم الشرعية مراجع مستمدات مرجعها كلها الى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فلهذه المحاكم مراجع هي القانون الملفق من شرائع شتى وقوانين كثيرة .. فهذه المحاكم الان في كثير من امصار الاسلام مهيأة مكملة مفتوحة الابواب والناس اليها اسراب اثر اسراب يحكم حكامها بينهم

---

(٣) تفسير القران العظيم : ٢/٦٧

بما يخالف حكم الكتاب والسنة .. فاى كفر فوق هذا الكفر واى مناقضة للشهادة بان محمدا رسول الله بعد هذه المناقضة .. " (٤)

ان هذا الحشد من الايات _ وامثالها فى القران كثير بل ان موضوعها لهو موضوع القران الرئيسى _ مع ذكر ما ذكره العلماء فى فهمها من الاقوال ليدل دلالة قاطعة على نفى الايمان عمن ابتغى غير الله حكما فى اية قضية من قضايا الحياة والحكم عليه بالكفر والشرك والنفاق والجاهلية كلها سواء وان ورودها فى حق مدعى الايمان بالله وكتبه لمما يزيد المعنى قوة وصراحة وجلاء .

بل ان قوله تعالى " وان اطعتموهم انكم لمشركون " خطاب لمحمد صلى الله عليه وسلم واتباعه وفى قضية فرعية هى الاكل مما لم يذكر اسم الله عليه .

فهل يبقى بعد هذا مجال للشك او التردد ؟

الحق انه لا مجال لشىء من ذلك ولكن الغياب المذهل لحقائق الاسلام من العقول والقلوب والغبش الكثيف الذى انتجته عصور الانحراف هذا وذاك هما اللذان يجعلان كثيرا من الناس يثيرون شبهات متهافتة لم تكن لتستحق ادنى نظر لولا هذا الواقع المؤلم .

من هذه الشبهات استصعاب بعض الناس اطلاق لفظ الكفر او الجاهلية على من اطلقهما الله تعالى عليه من الانظمة والاوضاع والافراد بذريعة ان هذه الانظمة لا سيما العلمانية الديمقراطية _ لا تنكر وجود الله ولا تمانع فى اقامة شعائر التعبد وبعض افراد الانظمة العلمانية يتلفظون بالشهادة ويقيمون الشعائر من صلاة وصيام وحج وصدقة ويحترمون رجال الدين (١) والمؤسسات الدينية .. الخ . فكيف نستسيغ القول بان العلمانية نظام جاهلى وان المؤمنين بها جاهليون ؟

ومن الواضح جدا أن الذين يلوكون هذه الشبهة لا يعرفون معنى لا اله الا الله ولا مدلول "الاسلام" وهذا على فرض حسن الظن بهم وهو ما لا يجوز فى حق كثير من المثقفين الذين يتعللون بهذه العلل .

---

(٤) تحكيم القوانين : ٥ _ ٧

ان تاريخ الدعوة الاسلامية وصراعها المرير وان القران الكريم كله من اوله الى اخره ومثله السنة ـ لتقطع الطريق على هذه الشبهة وقائليها .

هل تحمل الرسول صلى الله عليه وسلم واصحابه العنت والمشقة والحرب والجهاد ثلاثا وعشرين سنة متوالية وهل نزل القرآن الكريم موجها وامرا وناهيا طوال هذه السنين من اجل ان يقول الجاهليون باللسان فقط .. لا اله الا الله ويقيموا الشعائر التي يمن دعاة العلمانية على الله انهم يسمحون بها ؟ ..

وما الفرق بين قول قريش يامحمد : اعبد آلهتنا سنة ونعبد الهك سنة وبين قول العلمانيين ـ لفظا او حالا ـ نعبد الله في المسجد ونطيع غيره في المتجر او البرلمان او الجامعة ؟ ا أهو شيء آخر غير ان قسمة اولئك زمنية وقسمة هؤلاء مكانية او موضوعية .؟

ان الله تعالى يقول : " يا ايها الذين امنوا ادخلوا في السلم كافة " ٢ : ٢٠٨ ـ والسلم هو الاسلام (٥) . ويقول " وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله " ٨ : ٣٩ .

ويقول " ان الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون ان يفرقوا بين الله ورسوله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون ان يتخذوا بين ذلك سبيلا اولئك هم الكافرون حقا " ٤ : ١٥٠ ـ ويقول " ان الحكم الا لله امر الا تعبدوا الا اياه ذلك الدين القيم ولكن اكثر الناس لا يعلمون " .

وقد سبق ان اوضحنا ان التلفظ بالشهادة ليس هو وحده المقصود منها ونزيد ذلك ايضاحا فنقول :

ان العلماء قد وضعوا ـ بعد استقراء وتتبع نصوص الكتاب والسنة ـ لشهادة الا اله الا الله وللاسلام شروطا ووضعوا لها نواقض فمتى انتفى شيء من الشروط او وجد شيء من النواقض فقد انتقض الاصل . والواقع المشاهد اكبر دليل على ذلك فكم بين من يتلفظون بالشهادة في بلاد المسلمين من ملحدين ومرتدين ومشركين لا شك في امرهم

---

(٥) انظر تفسير الطبري : ٢ / ٣٢٣

فلو ان النطق بالشهادة لاشروط له ولانواقض لكان هؤلاء مسلمين حتما .

ومن نواقض الاسلام العشرة ـ غير الشرك الذى هو الناقض الاكبر والذى لاشك ان العلمانية نوع منه كما سياتى ـ ناقضان :

١ ـ "من اعتقد ان غير هدى النبى صلى الله عليه وسلم اكمل من هديه او ان حكم غيره احسن من حكمه كالذين يفضلون حكم الطواغيت على حكمه فهو كافر " .

٢ ـ "من اعتقد ان بعض الناس يسعه الخروج عن شريعة محمد كما وسع الخضر الخروج عن شريعة موسى عليه السلام فهو كافر " (٦)

ولعل مما يقطع دابر كل شبهة ان نستشهد بكلام الاثبات من علماء المسلمين السابقين لعصرنا الذين نظروا الى القضية من وجهة فقهية خالصة :

سئل شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى عن حكم قتال التتار " الذين يقدمون الى الشام مرة بعد مرة وقد تكلموا بالشهادتين وانتسبوا الى الاسلام ولم يبقوا على الكفر الذى كانوا عليه فى اول الامر " وقبل ان نقرأ الفتوى علينا ان نتذكر ان قانون التتار هو "الياسق " الذى ذكر ابن كثير سابقا وسيشير شيخ الاسلام اليه فيها

فاجاب رحمه الله بفتوى طويلة قيمة منها :

" كل طائفة خرجت عن شريعة من شرائع الاسلام الظاهرة المتواترة فانه يجب قتالها باتفاق ائمة المسلمين وان تكلمت بالشهادتين ..

" وكذلك ان امتنعوا عن تحريم الفواحش او الزنا او الميسر او الخمر او غير ذلك من محرمات الشريعة وكذلك ان امتنعوا عن الحكم فى الدماء والاموال والاعراض والابضاع ونحوها بحكم الكتاب والسنة وكذلك ان امتنعوا عن الامر بالمعروف والنهى عن المنكر وجهاد الكفار ... قال الله تعالى " وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين كله لله " فاذا كان بعض الدين لله وبعضه لغير الله وجب القتال حتى يكون كله لله

وقال تعالى " يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا ان كنتم مؤمنين فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله " وهذه الاية نزلت فى اهل الطائف وكانوا قد اسلموا وصلوا وصاموا لكن كانوا يتعاملون بالربا .. والربا اخر المحرمات فى القران

---

(٦) مجموعة التوحيد : ٣٧ ـ ٣٨

وهو مال يوجد بتراضي المتعاملين فاذا كان من لم ينته عنه محاربا لله ورسوله فكيف بمن لم ينته عن غيره من المحرمات التي هي اسبق تحريما واعظم تحريما " .

ثم استشهد رحمه الله بالاحاديث المتواترة عن النبي صلى الله عليه وسلم في الامر بقتال الخوارج ووصفه لهم بالمروق من الدين كما يمرق السهم من الرمية مع قوله عنهم " يحقر احدكم صلاته مع صلاتهم وقراءته مع قراءتهم " واستشهد باجماع الصحابة رضي الله عنهم على قتال مانعي الزكاة مع انهم يقيمون الصلاة ويقرون بالشريعة ولم يمتنعوا عن دفع الزكاة الا تأولا بان دفعها خاص بالنبي صلى الله عليه وسلم على ظاهر الاية " خذ من اموالهم صدقة " فكيف بغير المتاول بل يكيف بمن خرج على الشريعة من اصلها ؟ وذكر رحمه الله ان مما يوجب تكفير ملك التتار وقتاله انه "يرد الناس عما كانوا عليه في سلك الانبياء والمرسلين الى ان يدخلوا فيما ابتدعه من سنته الجاهلية وشريعته الكفرية فهم يدعون دين الاسلام ويعظمون دين اولئك الكفار على دين المسلمين ويطيعونهم ويوالونهم اعظم بكثير من طاعة الله ورسوله وموالاة المؤمنين . والحكم فيما شجر بين اكابرهم بحكم الجاهلية لا بحكم الله ورسوله " ـ يعني انهم يتحاكمون الى الياسق ـ ثم قال " ومعلوم بالاضطرار من دين المسلمين وباتفاق جميع المسلمين ان من سوغ اتباع غير دين الاسلام او اتباع شريعة غير شريعة محمد صلى الله عليه وسلم فهو كافر وهو ككفر من آمن ببعض الكتاب وكفر ببعض كما قال تعالى :

" ان الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون ان يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون ان يتخذوا بين ذلك سبيلا اولئك هم الكافرون حقا واعتدنا للكافرين عذابا مهينا " .

" واذا كانت الردة عن اصل الدين اعظم من الكفر باصل الدين فالردة عن شرائعه اعظم من خروج الخارج الاصلي عن شرائعه ..

" فان المسلم الاصلي اذا ارتد عن بعض شرائعه كان اسوأ حالا ممن لم يدخل بعد في تلك الشرائع مثل مانعي الزكاة وامثالهم ممن قاتلهم الصديق "(٧)

---

(٧) الفتاوى الكبرى ٤/٢٨٠ ـ ٢٩٣

أما الشيخ محمد بن عبد الوهاب فاستشهد على هذه المسألة باجماع العلماء على تكفير العبيديين المعروفين خطأ بالفاطميين قائلا :

" ويقال ايضا بنو عبيد القداح الذين ملكوا المغرب ومصر في زمن بني العباس كلهم يشهدون الا اله الا الله وان محمدا رسول الله ويدعون الاسلام ويصلون الجمعة والجماعة فلما اظهروا مخالفة الشريعة في اشياء دون مانحن فيه اجمع العلماء على كفرهم وقتالهم وان بلادهم بلاد حرب وغزاهم المسلمون حتى استنقذوا مابأيديهم من بلدان المسلمين " (٨)

وقد طبق حفيده الشيخ عبد الرحمن بن حسن شروط لا اله الا الله على من أسماهم " عباد القبور والطواغيت والاصنام " فقال في شرح قوله تعالى :

" ومن الناس من يتخذ من دون الله اندادا يحبونهم كحب الله " :

" فانهم احبوهم مع الله ، وان كانوا يحبون الله تعالى ويقولون لا اله الا الله ويصلون ويصومون فقد اشركوا بالله في المحبة بمحبة غيره وعبادة غيره فاتخاذهم الانداد يحبونهم كحب الله يبطل كل قول يقولونه وكل عمل يعملونه لان المشرك لا يتقبل منه عمل ولا يصح منه ، وهؤلاء وان قالوا "لا اله الا الله " فقد تركوا كل قيد قيدت به هذه الكلمة العظيمة من :

(١) العلم بمدلولها لان المشرك جاهل بمعناها ومن جهله بمعناها جعل لله شريكا في المحبة وغيرها وهذا هو الجهل المنافي للعلم بمادلت عليه من الاخلاص .

(٢) ولم يكن صادقا في قولها لانه لم ينف مانفته من الشرك ولم يثبت ما اثبتته من الاخلاص .

(٣) وترك اليقين ايضا لانه لو عرف معناها وما دلت عليه لانكره او شك فيه ولم يقبله وهو الحق .

(٤) ولم يكفر بما يعبد من دون الله كما في الحديث (يعني حديث : من قال لا اله الا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم الله ماله ودمه . رواه مسلم)

بل آمن بما يعبد من دون الله باتخاذه الند ومحبته له وعبادته اياه من دون الله .. " (١٠)

وبناء على ماسبق يتضح ان تلك الشبهة ـ شبهة التلفظ بالشهادة واقامة بعض الشعائر ـ لاوزن لها ولا اعتبار بجانب البراهين القاطعة والحقائق النيرة في معنى لا اله الا الله .

وجدير بنا أن نقف قليلا عند قول شيخ الاسلام ان الردة عن شرائع الدين اعظم من خروج الخارج الاصلي عنها لنقول :

ان هذا هو ما ادركه المخطط اليهودي الصليبي كما سبق في وصية زويمر فقد يئس المخطط من اخراج المسلمين عن اصل دينهم الى المذاهب الالحادية والمادية فلجأ ـ بعد التفكير والتدبير ـ الى ما هو أخبث واخطر : لجأ الى اصطناع انظمة تحكم بغير ما أنزل الله وفي الوقت نفسه هي تدعي الاسلام وتظهر احترام العقيدة فتقتلوا احساس الجماهير وضمنوا ولاءها وخدروا ضميرها ثم انطلقوا يهدمون شريعة الله في مأمن من انتفاضتها ولذلك لايجرؤ ارباب هذه الانظمة على التصريح بانهم ملحدون او لادينيون بينما يصرحون ـ مفتخرين ـ بانهم "ديمقراطيون" مثلا " .

هذا مع ان الطريق واحدة والنهاية حتما ستكون واحدة غير ان الصورة لم تكتمل بعد " (١١)

وهناك شبهة او علة اخرى اصبحت " تقليدية " لكثرة ما رددها الببغاوات وهي ان الشريعة ثابتة والحياة متطورة والثابت لايفي بمتطلبات المتطور ومن ثم كان لابد من ايجاد مصدر اخر للتشريع يعتمد على العلم العصري والتجارب الانسانية مع الاحتفاظ للدين بدائرة التوجيه الروحي للافراد وهذا هو حال العلمانية !

(١٠) فتح المجيد : ٨٢ ـ ٨٣ والترقيم مضاف اما بقية شروط الشهادة فهي المحبة والانقياد والقبول .
(١١) انظر في ظلال القرآن " : ٣/١٢١ فمابعدها .

وهذه الشبهة — التي اطلقها اول ما اطلقت اعداء الاسلام الحاقدون — لا يطرحها انسان عرف الله حق معرفته وقدره حق قدره ، فانها تعني بداهة — اتهام سبحانه تعالى عن ذلك علوا كبيرا بالجهل والقصور ، والموقف الواجب اتخاذه حيال قائلها هو قبل كل شيء دعوته الى الايمان وتعريفه بقدر الله تعالى .

لكننا سنقطع النظر عن هذا ونفترض ورودها من انسان يريد التثبت من دينه وحينئذ نقول : ان هذه الشبهة لاتستحق ان تكون موضع نظر الا اذا سلمنا بثبوت طرفيها وهما :

١ — ان الشريعة ثابتة بمعنى أنها احكام جامدة لاتقبل المرونة محدودة لاتقبل التوسع .

٢ — ان الحياة البشرية متطورة بمعنى انها لا شيء فيها ثابت على الاطلاق .

والواقع ان كلا الافتراضين خاطيء تماما وان مصدر هذه الشبهة انما هي اللوثة التي اصابت اوربا فانتقلت من الايمان بالثبات المطلق الى التطور المطلق حتى حسبت كل تغير تطورا — وهو ماسبق الحديث عنه في الباب الثاني .

ان التصور الاسلامي لا يقر الثبات المطلق ولا يؤمن بالتطور المطلق بل ينفرد باعتبار قانون سير الحياة هو " الحركة داخل اطار ثابت حول محور ثابت " (١٢) وهي ميزة ماكانت لتكون لولا انه من عند الله .

ونتيجة لذلك جاءت الشريعة حاكمة لكلا طرفي الحياة البشرية الثابت والمتغير في اطار عام لا يشذ عنه شيء منهما .

ولقد كان سلف الامة يعون حقيقة تغير الحياة وتطورها تمام الوعي .

نتبين ذلك من قول عمر بن عبد العزيز المشهورة " يحدث للناس من الاقضية بقدر ما احدثوا من فجور " .

ونتبينها من عدول الشافعي — حين انتقل الى مصر — عن كثير من ارائه الفقهية التي استنبطها بالعراق حتى اصبح له مذهبان : قديم وجديد .

---

(١٢) انظر فصل (الثبات) من كتاب خصائص التصور الاسلامي : ٨٦

وتبينها من القاعدة الاصولية التى تنص على تغير الفتوى بتغير الظروف والاحوال .

أ . دركوا هذا مع ادراكهم الجازم للحقيقة العميقة الكبرى " اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا " ـ ٥ : ٣ كما سبق فى كلام ابن القيم من الفصل السابق . ومع ايمانهم المطلق بمدلول قوله تعالى " أفغير الله ابتغى حكما وهو الذى انزل اليكم الكتاب مفصلا " ـ ٦ : ١١٤ ـ وفهم هذه الحقيقة بجانب فهم قاعدة الوجود الكبرى " وماخلقت الجن والانس الا ليعبدون " يرسم الاطار العام للشريعة والدائرة الشاملة للحياة البشرية والتى لاتزيد على ثلاثة اقسام :

١ ـ جوانب ثابتة متعلقة بحقيقة الانسان ذاته انى وجد فى اى زمان ومكان تلك الحقيقة التى لاتتغير ولا تتبدل على الاطلاق : وهذه جاءت الشريعة لها باحكام تفصيلية ثابتة كثباتها فصلها الله تعالى تفصيلا كالشعائر التعبدية المحضة من صلاة وصيام وحج وكاحكام الطهارة المختلفة وكاحكام الاسرة من نكاح وقوامة وطلاق وعدة وكالمحرمات الرئيسية الثابتة من زنا وخمر وسرقة وخيانة ..الخ . فهذه فصلت بمقتضى الحكمة والهداية الربانية التى لا يملكها البشر ولو وكل ~~كل~~ شىء منها اليهم لضلوا وتاهوا .

٢ ـ جوانب ثابتة الجوهر والهدف لكنها متجددة الصور متغيرة الاساليب حسب سنة الله الكونية : مثل نوع الحكم وطريقته والمنهج الاقتصادى للامة والخطة التعليمية ... وما اشبهها .

وهذه وضعت لها الشريعة قواعد وضوابط عامة لايصح ان تخرج عنها .

فالحكم مثلا يقوم على اصول منها : ان يكون بما انزل الله وان يكون شوريا ومراعاة جلب المصالح ودرء المفاسد وسياسة الناس بالعدل وتوفير اقصى حد ممكن من الامن والطمأنينة للرعية .. وتركت التفصيلات ـ رحمة من غير نسيان ـ الى اجتهاد الامة مثل كيفية وشروط المبايعة والعزل وتحديد الشورى وكيفية تنظيم الولايات والقضاء وتحديد المصلحة او المفسدة ..الخ .

والاقتصاد يقوم على اصول منها : ان المال كله لله والبشر مستخلفون فيه ، وجوب تامين الضروريات لكل فرد ، تحريم اكل اموال الناس بالباطل فى اى صورة

تحريم الربا والمكوس، النهي عن الاحتكار والجشع ، النهي عن ان يكون دولة بين الاغنياء ، الحث على الانفاق ووجوبه اذ اقتضت الضرورة .. الخ .

أما اسلوب وضع الخطط الاقتصادية ، وضمان تحقيق هذه الاصول وكيفية التعامل المباح بين المؤسسات العامة والخاصة واشراف الدولة او سيطرتها على الانتاج او التجارة وما اشبه ذلك فهي موكولة ايضا الى اجتهاد الامة في حدود تلك الاصول .

وهكذا بقية مجالات الحياة المماثلة .

هذا مع التنبيه ـ الى ان الاجتهاد ـ المباح او الواجب هنا ـ يجب ان تتوفر فيه ـ فوق كونه ضابطا فيما لا نص شرعا فيه شروط منها :

أ ـ اهلية المجتهد فليس من حق اي موظف او مسؤول ان يجتهد حسب هواه .

ب ـ الا يصادم نصا او قاعدة شرعية اخرى .

٣ ـ الامور الدنيوية المحضة : ونعني بها الانشطة البشرية التي لاعلاقة لها في ذاتها بالهدى والضلال والتي اقتضت حكمة الله تعالى ان تعتمد على سعي الانسان وخبرته كي يحقق بنفسه معنى استخلافه في الارض واستعماره فيها وذلك كالضرب في الارض لاكتشاف اسرار الكون وما يسمى " خواص المادة " واستخدامها لترقية الحياة البشرية وتذليل صعابها وكسائر الاعمال والمسائل التطبيقية التي تخضع للتجربة البشرية ويمكن معرفتها بالتنقيب عن نواميس الكون المسماة " القوانين الطبيعية " مثل شؤون الزراعة والصناعة والعمارة وكل مظاهر الحياة المادية . (١٣)

وهذه موكولة بكاملها الى الجهد البشري الا انها بوقوعها في دائرة الحياة البشرية تخضع للغاية الاساسية من الوجود " العبادة " من جهة انها جزء من الحركة الانسانية التي ينبغي ان تكون كلها لله وحده لاشريك له فهي بصفة عامة مندرجة تحت " المباح " الذي هو احد الاحكام التعبدية الخمسة ولكن الاحكام

---

(١٣) انظر قبسات من الرسول : الفصل الاخير وتهافت العلمانية : ١٤ ، ١٥ ومنهاج الاسلام في الحكم : ٣٨ ، ٣٩

الاخرى " الوجوب ، الندب ، الحرمة ، الكراهية " قد تسرى عليها امـــــا لغرض الاستخدام اوكيفيته وبالجملةفهى سلاح يستخدمه الشرطى كما يستخدمـــه اللص لكن المؤ من يستخدمها باعتباره الشرطى الحارس لحدود الله تعالى .

وبما انه ليس فى الحياة البشرية شئ يبقى بعد هذه الاقسام اويخرج عنهـــا فلم يعد هنالك مايبرر اية شبهة حول اسلام الحياة كلها لله خالصة له وحـــده مستقيمة على حكمه وشرعه .

ثانيا : الشرك في عبادة اللـــــه

كما أن هذا الدين يوحد الخالق سبحانه وتعالى برد الامر كله اليه فانه يوحد المخلوق بجعله عبدا خالصا للمتعالى لاتتجاذبه الشركاء ولاتمزقه السبل .

ان الوحدة هي الحقيقة الكبرى في الكون : فالخالق تعالى واحد والكون بسننه ونواميسه واحد والانسان في جوهره وغاية وجوده واحد .

والكون بكاملة يتجه الى الله اتجاها واحدا بالعبادة " وله اسلم من في السموات والارض طوعا وكرها " ٣ : ٨٣ — وكذلك ينبغي للمخلوق الاختيارى " الانسان " ان يتجه ، والا فالتصادم والتمزق والضياع .

لقد اختصر الفرد نورث وايتهيد نظرية غرته واشبنجلر الضخمة عن انهيار الغرب في كلمة واحدة " تجزئة الطبيعة " (١) اى انفصال التصادم بين ماهو فطرى وماهو منطقى وماهو طبيعى وماهو غير طبيعى ، ماهو روحى وماهو مادى .. واختصرت الوجودية ماساة الانسان في كلمة واحدة ايضا " التمزق " بين الانا والعالم بين الطبيعى ومافوق الطبيعى بين الشعور والمنطق .

والظروف والملابسات التي عرضناها بتوسع فيما سبق هي المسؤولة عن تقسيم حياة الناس والانسان في الغرب الى دوائر مستقلة لاعلاقة لاحداها بالاخرى ومن ثم جاء دور الانهيار المحتوم .

هنا تتجلى رحمة الله تعالى بعباده حين منحهم بالاسلام التصور الصحيح الذى " يخاطب الكينونة الانسانية بكل جوانبها وكل اشواقها وكل حاجاتها وكل اتجاهاتها ، يردها الى جهة واحدة تتعامل معها ، جهة واحدة تطلب عندها كل شيء وتتوجه اليها بكل شيء ، جهة واحدة ترجوها وتخشاها وتتقى غضبها وتبغى رضاها ، جهة واحدة تملك لها كل شيء لانها خالقة كل شيء ومالكة كل شيء ومدبرة كل شيء .. كذلك يرد الكينونة الانسانية الى مصدر واحد تتلقى منه تصوراتها ومفاهيمها وقيمها وموازينها وشرائعها وقوانينها ، وتجد عنده اجابة على كل سؤال يجيش فيها وهى تواجه الكون والحياة والانسان بكل مايثيره من علامات الاستفهام .

---

(١) انظر سقوط الحضارة ، كولن ولسن : ١٣٠

" عندئذ تتجمع هذه الكينونة ، تتجمع شعورا وسلوكا وتصورا واستجابة فى شأن العقيدة والمنهج وشان الاستمداد والتلقى وشان الحياة والموت وشان السعى والحركة وشان الصحة والرزق وشان الدنيا والاخرة فلا تتفرق مزقا ولاتتجه الى شتى السبل والافاق ولاتسلك شتى الطرق على غير اتفاق) (٢) .

وهنا يتجلى كذلك مدى الانحراف الذى حصل بالتفريق بين العقيدة والشريعة وبين الدنيا والاخرة وبين العبادات والمعاملات ، ذلك الانحراف الذى ادى الى انحسار مفهوم الدين ومفهوم العبادة الى اقصى الحدود .

هذا الانحراف حين يصبح فكرة واعية ومبدأ مرسوما يفرق دين الله ويمزق حركة الانسان اى عبادته ويفصل دنياه عن اخرته اوكما قال محمد اسد " يفصل الانسان عن مصيره " حينئذ يكون هذا الانحراف شركا فى عبادة الله لايقبله الله ولايرضاه وهذا هو الشأن فى العلمانية .

أما التفريق بين العقيدة والشريعة فحسبنا ما اسلفناه عن حكم من لم يلتزم بشريعة الله من الايات والدلائل ويكفى ان الايمان بالعقيدة ينتفى بمجرد رفضه ذلك الالتزام

وأما التفريق بين الدنيا والاخرة بين الحركة والمصير فقدعرضنا له عند الحديث عن الانحراف فى الحياة الاسلامية ولا بأس ان نزيده هنا شيئا من التفصيل :

ان الدنيا فى التصور الاسلامى ليها قيمة ذاتية غير كونها وسيلة للاخرة ، ذلك أنها المكان الذى تتجلى فيه صفات الله تعالى واسماؤه من رحمة وغضب وعقوبة ومغفرة وقدرة وارادة ، كما انها المكان الذى تقع فيه العبادة الاختيارية لله تعالى ومن ثم استحقت انزال الكتب وارسال الرسل .

من هنا كانت كل حركة الانسان فيها مفروضا ان تكون لله " قل ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين " حتى الحركات التى تبدو علاقاتها بالعبادة فى اذهاننا بعيدة :

---

(٢) خصائص التصور الاسلامى : ١٢٨ ـ ١٢٩

فالمتعة الشخصية مثلا هى عبادة لها اجرها بالنسبة للموء من كما قـــــال صلى الله عليه وسلم " وفى بضع احدكم صدقة " الحديث .

وقال " كل مايلهو به الرجل المسلم باطل الا رميه بقوسه وتأديبه فرسه وملاعبتــــــه اهله فانهن من الحق " (٣)

والصناعة التى يقوم بها الفرد او الامة المسلمة عبادة ايضا " وعلمناه صنعـــــة لبوس لكم لتحصنكم من باسكم فهل انتم شاكرون " — ٢١ : ٨٠ —

وفى قصة ذى القرنين يبرز السياق القرانى قيمة استخدام العلم الصناعى فى مصلحــــــة البشرية على يد الخبير المسلم .

وفى الحديث " ان الله ليدخل بالسهم الواحد ثلاثة الجنة : صانعه يحتسب فـــى صنعته الخير والرامى به والممد به " (٤)

ومثلها الزراعة " ان قامت الساعة وفى يد احدكم فسيلة فان استطاع الا تقـــــوم حتى يغرسها فليغرسها " (٥)

و " ما من مسلم يغرس غرسا او يزرع زرعا فياكل منه طير او انسان او بهيمة الا كـــــان له به صدقة " (٦) .

وهكذا كل نواحى الحياة الانسانية للمؤمن فقال بعض السلف " والله انـــــى لاحتسب نومتى كما احتسب قومتى " .

وقد كتب احد العلماء كتابا اسماه " البركة فى فضل السعى والحركة " اثبت فيـــه ان النية الحسنة تقلب حياة المؤمن كلها عبادة بجميع حركاتها وسكناتها وان الزراعـــــة والصناعة والتجارة من فروض الكفايات . (٧)

وتطبيق هذه الحقيقة هو حقيقة الاخلاص كما قال سهل التسترى : " انظـــــر الاكياس فى تفسير الاخلاص فلم يجدوا غير هذا : ان تكون حركاته وسكناته فى ســـــره

---

(٣) سنن الترمذى : ٤ / ١٣٤
(٤) سنن الترمذى : ٤ / ١٧٤
(٥) رمز فى الفتح الربانى الرواية احمد والبخارى له فى الادب المفرد
(٦) فتح البارى : ٥ / ٣
(٧) هو ابو عبد الله محمد بن عبد الرحمن الوصابى ت ٧٨٢ هـ .

وعلانيته لله تعالى وحده لا يمازجه شيء ... " (٨)

وقد ادرك هذه الحقيقة القلائل الذين هداهم الله للاسلام بعد طول تمزق وضياع يقول احدهم " محمد أسد " :

" يختلف ادراك العبادة في الاسلام عما هو في كل دين آخر : ان العبادة في الاسلام ليست محصورة في اعمال من الخشوع الخالص كالصلوات والصيام مثلا ، ولكنها تتناول كل حياة الانسان العملية ايضا ، واذا كانت الغاية من حياتنا على العموم عبادة الله ، فيلزمنا حينئذ ضرورة ان ننظر الى هذه الحياة في مجموع مظاهرها كلها على انها تبعة ادبية متعددة النواحي وهكذا يجب ان ناتي اعمالنا كلها حتى تلك التي تظهر تافهة على انها عبادات : اي ناتيها بوعي وعلى انها تؤلف جزءا من ذلك المنهاج العالمي الذي ابدعه الله ، تلك حال ينظر اليها الرجل العادي على أنها مثل اعلى بعيد ولكن اليس من مقاصد الدين ان تتحقق المثل العليا في الوجود الواقع ؟

" ان موقف الاسلام في هذا الصدد لا يحتمل التاويل ، انه يعلمنا اولا ان عبادة الله الدائمة والمتمثلة في اعمال الحياة الانسانية المتعددة جميعها هي معنى هذه الحياة نفسها ويعلمنا ثانيا ان بلوغ هذا المقصد يظل مستحيلا ما دمنا نقسم حياتنا قسمين اثنين : حياتنا الروحية وحياتنا المادية ، يجب ان تقترن هاتان الحياتان في وعينا وفي اعمالنا لتكون كلاً واحدا متسقا ان فكرتنا عن وحدانية الله يجب ان تتجلى في سعينا للتوفيق والتوحيد بين المظاهر المختلفة في حياتنا "

" هناك نتيجة منطقية لهذا الاتجاه هي فرق اخر بين الاسلام وبين سائر النظم الدينية المعروفة ذلك ان الاسلام على انه تعليم لا يتكفى بان ياخذ على عاتقه تحديد الصلات المتعلقة بما وراء الطبيعة بين الارض وخالقه فقط .

ولكن يعرض ايضا بمثل هذا التاكيد على الاقل للصلات الدنيوية بين الفرد وبيئته الاجتماعية ان الحياة الدنيا لا ينظر اليها على انها صدفة عادية فارغة ولا على انها

---

(٨) مقدمة المجموع للنووي : ١٧/١

طيف خيال للاخرة التى هى اتية لا ريب فيها من غير ان تكون منطوية على معنى مـــا ولكن على انها وحدة ايجابية تامة فى نفسها والله تعالى " وحدة " لا فى جوهره فحسب بل فى الغاية اليه ايضا . من اجل ذلك كان خلقه وحده ربما فى جوهره الا انــــه وحدة فى الغاية منه بكل تاكيد .

" وعبادة الله فى اوسع معانيها ـ كما شرحنا انفا ـ تؤلف من الاسلام معنى الحيـاة الانسانية هذا الادراك وحده يرينا امكان بلوغ الانسان الكمال فى اطار حياتـــــه الدنيوية الفردية .... " (٩) .

ان الانسان ـ كما قررنا سلفا ـ عبد بفطرته وطبيعته سواء اكان من سكـــــان الاحراش او ناطحات السحاب . وكون العبودية صفة ذاتية ملازمة له يحتـــم عليـــه ان يسير وفق ارادة معبود ما . إما الله تعالى وإما سواه غير انه لما كان لا يمكن ان يستغنى عن الله بحال وان يخرج عن نواميس الله الكونية مهما بلغ من الكفر والجحود فانه ليـــس امامه سوى احد احتمالين :

١ ـ ان يسير وفق منهج الله تعالى وبذلك يتلاءم ويتناسق مع الكون ومع نفســه . ومع نواميس الله الثابتة فيصير وحدة واحدة متجهة الى الله فى طريق واحد .

٢ ـ ان يختار غير طريق الله وهذا لا يجعله خالصا لغير الله على الاطـــــلاق مهما كابر والحد . ذلك ان جوانبه غير الارادية على الاقل لا يمكن ان تنفصـل بحال عن السير وفق سنن الله ونواميسه .

ونتيجة ذلك ان من اختار غير طريق الله لا يعدو أن يكون قد حكم على نفســـــه بالتمزيق والتشتت والتصادم اللهم الا لو استطاع ان ينفذ من كون الله ويتحـــدى سننه وهو ابعد المحال .

ولقد صور الاسلوب القرآنى هذه الحالة ابلغ تصوير :

---

(٩) الاسلام على مفترق الطرق : ٢٣ ـ ٢٥

" ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل هل يستويان مثلا الحمد لله بل اكثرهم لايعلمون " ـ ٣٩ : ٢٩ ـ

وهذا يصدق على كل من تلقى عن غير الله حتى وان ادعى الاسلام ، يقول الدكتور عماد الدين خليل :

" ان الانسان الذى يؤمن بالاسلام بذلك الايمان المبتور المشوه سرعان مايجد امامه هوة سحيقة تمنعه من الاندماج والتعامل الصحيح مع هذا الدين ، ذلك انه محا الايمان ـ فى قرارة نفسه ـ من بعض عناصر ومقومات الاسلام واكده فى عناصر ومقومات اخرى وهو بعمله هذا لم ينل من وحدة الاسلام الدائم شيئا ولكنه وجه ضرباته الى صميم الكيان الانسانى والى وحدة الذات الانسانية ذلك انه سيجد نفسه مضطرا الى الاستعاضة عن العناصر والقيم التى رفضها بعناصر وقيم اخرى يجئ بها من هنا وهناك ويرصها رصا ، عناصر لاتملك ـ بمجموعها ـ توحد القيم الاسلامية وتكاملها لانها لم تنبثق عن تصوره الاصيل .. ثم هى فيما بينها تعانى تناقضا محزنا لان كل عنصر او كل مجموعة من القيم جئ بها من تصور فرد من الافراد ، انسان من ملايين الناس وماهى فى الحقيقة سوى نتاج ردود فعل نفسية وفكرية لهؤلاء الافراد مع واقع معين بامدائه المحدودة بحدود الزمان والمكان ومن ثم سيتشتت هذا الانسان (الآخذ) وسيضيع .. انه آمن بوحدة عقائدية متكاملة ظاهرا ، لكنه ـ فى حقيقة ـ تكامل زائف لانه سعى الى رص عناصر لا انسجام فيما بينها ولا تالف فى تركيبها وحاول ـ جهلا وعنادا ـ ان يجعل منها منهجا موحدا لحياة موحدة لاتقبل التجزئة " (١٠)

وبذلك تتبين خطورة الادعاءات الزائفة الخادعة بان الاسلام دين عبادة بمعنى انه رابطة روحية بين الانسان وربه لاصلة لها بحركة الانسان فى الحياة ـ فردا او مجموعا ـ تلك الادعاءات التى تلغى الاسلام من اساسه وتهدم العبادة من اصلها ، ولا تتورع مع ذلك ان تمن على الله انها اعطته جزءا من كيان الانسان

---

(١٠) تهافت العلمانية : ٦٢ ـ ٦٣

وحركته — اللذين لا يقبلان التجزوء اصلا — جزءا يسميه ادعياؤها الروح في مقابل اعطاء المادة للشيطان ، او الفترة الروحية في مقابل اعطاء العمر كله للشيطان ، هذا والله تعالى يقول لهم " انا اغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا اشرك فيه معي غيري تركته وشركه " (١١) .

ان هوءلاء بتقسيماتهم العوجاء لا يضرون الله شيئا — سبحانه هو الغني الحميد ولكنهم ينزلون بانفسهم وبالبشرية من ورائهم افدح الخسارة واوخم العاقبة .

لنسمع مايقوله احد اولئك الادعياء (وهو وان كان غير مسلم فان كثيرا ممن يحسبون انفسهم مسلمين يوءمنون بما يقول لكنهم قد يواربون ويلهسون) :

" لو كان المتفقهون يعنون بالروحانية (يقصد الدين) أن وراء هذه الحياة قوة غير منظورة هي مصدر كل حياة وان هذه القوة لا يحدها زمان ولا مكان وهي التي تلهم الانسان المحبة والصلاح والخير ..

" وبكلمة اخرى لو كانت الروحانية لاتتعدى العلاقة بين الانسان والله ولا تتدخل في شئون الانسان الحياتية في دنياه وتحصر تدخلها في شئونه فيما بعد الحياة فليس من شأن احد وان لم يكن موءمنا ان يحمل هذه الروحانية تبعة الجمود الفكري وماينتج عنه من تاخر وجهل ولكن المتفقهين لا يكتفون بهذا ولا يقفون عند هذا الحد بل هم يتوسعون في فقههم ويحشرون الروحانية في كل امر من امور الدنيا حتى كادوا يقيدون بها العقل البشري ويمنعونه من الانطلاق مبشرين بالحتمية التي توحي بها الروحانية ومغلقين الباب دون اى جدل او نقاش او معرفة ويذهب بعضهم الى ابعد من التبشير اذ يسن الشرائع كي يتقيد بها الناس في حياتهم الفردية والعائلية والمعاشية والاجتماعية والاقتصادية موهمينهم ان هذه الشرائع انما هي وحي هبط من الله الكلي القدرة فمن يخضع لها كانت له السعادة السرمدية ومن يكفر بها او يحث فيها يستحق العذاب في دنياه ويستحق نار جهنم فيما وراء دنياه " (١٢)

---

(١١) حديث قدسي رواه مسلم / ١٨/ ١١٥ بشرح النووي .

(١٢) قصة الانسان ، جورج حنا : ٢٥٨

أليس هذا هو بعينه مايريده رافعو شعار " الدين لله والوطن للجميع" وشعار " لادين في السياسة ولا سياسة في الدين " من ادعياء الاسلام اوليس هذا ايضا هو مايطبقه الذين يجعلون للدين برامج " روحية " ضمن اجهزة الاعلام الشيطانية واحكاما شخصية ضمن قوانين الحكم الجاهلية ويقولون ان مكان الدين هو المسجد فقط ويحجون لبيت الله في العمر مرة ويقصدون بيوت اعداء الله شرقا وغربا كل حين يتلقفون المناهج ويتلقون التشريعات ؟

أي قيمة لمثل هذه الاقوال والادعاءات والواقع المأساوي في اوربا الذي عرضنا نماذج له في كل مجال يكذبها وينافيها . اوربا التي طبقت العلمانية على الفكر والحياة من قبلنا فلم تجن الا الدمار والضياع . الا نتعظ بها ونستفيد من تجربتها ؟ اليس الاجدر بالمسلمين ان يحمدوا الله على ان حرم الشرك وابطله ورحمهم بشريعة لاتمزق فيها ولاضياع .. ؟

اننا نتوجه بالسؤال الى من يدعي الاسلام من هؤلاء فنقول :

اذا اخرجنا — على سبيل التحكم — جزءا من النشاط الانساني في الحياة — اما السياسة واما غيرها — عن دائرة الدين فمن اين نتلقى منهج وقيم وموازين هذا الجزء ؟

وايا ماكان الجواب فان نتيجته ومؤداه امر واحد لاريب فيه : التلقي عن غير الله، قد يقال نتلقى ذلك ونستمده من التجربة البشرية على مر العصور أو من اجتهادنا الذاتي وافكارنا الخاصة او ما تمليه الظروف والملابسات العصرية او .. من اى شيء كان المهم ان النتيجة المنطقية لذلك هي الشرك بالله وهل هناك صورة من صور الاعتراف بالشرك اصرح من هذه ؟ — اعنى شرك الطاعة والاتباع — انه شرك في عبادة الله وان كان الذين يمارسونه قد يجهلون معنى عبادة الله . وما ذلك بغريب على الجاهليين فان عدي بن حاتم — رضي الله عنه — في الجاهلية لم يكن يتصور ان ذلك عبادة فإنه لما دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم " تلا صلى الله عليه وسلم قوله : " اتخذوا احبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله — فقال عدي (وكان نصرانيا) يارسول الله لسنا نعبدهم ! . قال : اليس يحلون لكم ماحرم الله فتحلونه ويحرمون ما احل الله فتحرمونه ؟ قال : بلى . قال النبي صلى الله عليه وسلم فتلك عبادتهم " (١٣)

(١٣) انظر رواياته في الدر المنثور : ٣/ ٢٣٠ واصله في الترمذي : كتاب التفسير .

قال شيخ الاسلام ابن تيمية " تعليقا على ذلك : " قد جعله الله ورسوله شركا وان لم يكونوا يصلون لهم ويسجدون لهم " (١٤)

وليست عاقبة هذا الشرك هي الخلود الموعد في النار فحسب بل ان اتباعه ليصلون نار الضياع والتمزق والقلق في هذه الدنيا ومع اننا قد سردنا امثلة عديدة على ذلك فلابأس هنا ان نورد بعض النتائج السيئة للعلمانية على الانسان الذى يعيش في ظل حياة ترتكز قاعدتها على هذا المبدأ الاشراكى :

يقول الدكتور عماد الدين خليل :

" في ظلال المجتمع العلماني يتمزق الانسان بناء على تمزق مصيره ، وتزدوج شخصيته اعتمادا على الثنائية التى اصطنعها بين المادة والروح والجدران التى اقامها بين تجربتى الحس والوجدان والجفاء الذى باعد به زيفا بين عالمى الحضور والغياب بين ما هو قريب مرئى وما هو بعيد لاتراه العيون والتصور الذى يصدر عنه ذلك الانسان لايوائم ـ بحال ـ بين العلاقات المعقدة المتشابكة التى تحكم الكون والعالم والحياة بل هو تصور يفصل بالقسر والعناد بين هذه العلاقات جميعها يمزقها تمزيقا ويعمل فيها تقطيعا وتشويها فتغدوا طاقات الكون والانسان والحياة وما بينها جميعا من وشائج وارتباطات ـ تغدو في حس العلماني وتصوره فوضى يسودها الانفصال والعداء والجفاء .. الدين يتناقض مع العلم والفلسفة العقلية ترفض التشبث الطبيعي بالواقع الملموس والمذاهب الطبيعية لاتلزم نفسها بقيم خلقية اوانسانية .. وهكذا .. سلسلة من المصادمات التى لاتقتصر اثارها السيئة على العالم الخارجي فحسب بل في اعماق الانسان وتجربته الذاتية كذلك .. ذلك ان كل قيمة وطاقة او فاعلية مما ذكرنا ترسم له مصيرا معينا وتسعى الى شده اليه فيغدو بالتالى مشدودا الى مصائر شتى متفرقة متناقضة لايسودها التوحد والانسجام . وهذا هو السبب العميق الذى يؤدى ـ في العلمانية ـ الى التمزق والازدواج . فالانسان العلماني يقسم فعالياته الحياتية الى قطاعات ومساحات منفصلة يسعى في كل منها الى تشكيل مصيره في اطار ذلك القطاع او تلك المساحة وطريقة (العزالية) تماما

---

(١٤) فتح المجيد : ٨٦

عن سائر الفعاليات ، وهو خلال ذلك لابد وان يشعر بالتناقض المرير بين فاعليات حياته جميعا .. وينظر ـ اخيرا ـ فيرى حياته قد تشتتت وكيانه الذاتي قد اصيب بالازدواج " أشعر وهذا اشعور كثير من الناس الذين هم من جيلي أشعر ان هناك خطأ في التفريق بين الروح والجسد .. انني احلم بشكل من الحياة فيه يسعى الانسان (كله) روحا وجسدا في سبيل تحقيق ذاتي اعمق بشكل لا تكون فيه الروح والمشاعر عدو بين كل منهما للآخر ، وفيه يستطيع الانسان ان يتحقق بالوحدة في ذات نفسه ومعنى مصيره " (محمد اسد) .

" لقد فتح ذلك الانسان عينيه على حقيقة محزنة وهي ان ليس ثمة مصير موحد يتحقق وينتهي اليه ، ومن ثم غدت حياته مزقا مبعثرة لا يجمعها رباط ولا يشدها مصير .. يدخل المحراب ليسجد لله ويلعن الطبيعة ويخرج الى المصنع لينحني للآلة ويكفر بالله .. يركض وراء (العقل) ليخطط له منهاجا في الحياة الاجتماعية ويسعى الى الدين ليهبه الطريق في حياته الفردية .. دنياه تتجه الى الشمال واخراه تتجه الى اليمين . فان اراد الدنيا ابتعد عن الاخرة ، ضاع منه مصيره الخالد .. وان اراد الاخرة ابتعد عن الدنيا ضاع منه مصيره الحيوي القريب .. وان وقف في المنتصف يريد ان يوحد مصيره : هنا وهناك ، روحه وجسده ، عقله والهه ، محرابه ومصنعه ، تمزق !! لانه يعتقد حتى قرارة ذاته ـ أن ارادة الله تسير باتجاه معاكس تماما لارادة الانسان ولما كانت حياة الانسان (لا تفرغ) من المعنى بل هي استمرار شعوري او فكري او عملي . ولما كان هذا الانسان في حالة الاستمرار التي يحياها يسعى الى تشكيل مصائر شتى اصطنع بينها التناقض والصدام فيمكن القول ـ عندئذ ـ ان وحدته قد غدت زائفة تماما وانه حرم من مصيره عن طريق تشويه وتمزيق التزاماته بالقيم التي تسود الكون والحياة والعالم بحيث يستطيع ان يقول في اوج ضياعه : اريد ان افلت من المصير " (١٥)

---

(١٥) تهافت العلمانية : ٨١ / ٨٣ .

والقضية نفسها ـ قضية توحيد الذات والارادة والهدف اى بالمصطلح الاسلامي توحيد العبادة ـ تعرض لها مؤلف امريكى يعمل طبيبا نفسيا واضطر المسكين بحكم عمله الى الكتابة لمرضاه عن افضل طريق للتخلص من ارهاق الحياة العصرية وقلقها لكنه في الفصل الاخير من كتابه نسى المرضى واشتغل بنفسه . انه مريض هو أيضا ! لماذا ؟ لانه كما يقول لا يملك الايمان الصحيح !

فهو يصرخ مستنجدا " انني محتاج للدين لتنظيم حياتي " (١٦)

ولكن اى دين ؟ أهو النصرانية المحرفة ؟ كلا ، انه يرى ان ايمانها ناقص مشوه : " ومعركتي مع رجال اللاهوت لا ترجع الى انهم يقولون لي عن الله اكثر مما يجب بل لانهم يقولون اقل بكثير مما يجب ، فانا ابغى معرفة كل شيء عنه سبحانه وتعالى ، فأنا مثل الطفل الشره الذى يحصل في عيد الميلاد على لعبات ست فيبدى انه صدم لانه لم يحصل على كل ما في حانوت لعب الاطفال من لعب " (١٧)

ولذلك يعترف في جرأة نادرة :

" ان العالم الغربي لم يهضم بعد الديانات العظيمة التى نشأت في الشرق الاوسط انه لم يخرج بعد من العصور المظلمة " (١٨)

انه لعجيب ان يكون هذا الرجل طبيبا يداوى الناس وهو مريض ولكن الاعجب منه هو ان يبحث الحائرون في الغرب عن دين ينظم حياتهم في حين ان الذين منحهم الله الموهبة الكريمة في الشرق يقولون لا علاقة للدين بشؤون الحياة ويريدون ان ينظموا حياتهم بتناقضات وفلسفات اولئك الحيارى !!

ونزيد الامر ايضاحا بايراد شاهد على ان الشركاء المتشاكسين يفقدون الانسان الارض الثابتة التى يستطيع الوقوف عليها ويزجون به في متاهات لا قرار لها وصدامات لا سبيل للخلاص منها يقول " سمول " :

---

(١٦) لمن ترهقهم الحياة ، هارولد فينك : ٢٧٤
(١٧) المصدر السابق : ٢٧٠
(١٨) المصدر السابق : ٢٧٦

" ان رأسمالنا الاخلاقى اذا تحدثنا بوجه عام ـ انما يتكون من مجموعة من الاخلاقيات الاقليمية يعوزها التجانس . وبهذه الاخلاقيات يحتفظ المجتمع بحركته ولكنه رغم هذا يعثر مجهودا هائلا يبذله فى تلك الاحتكاكات التى تعوق حركته ، اننا لا نملك مستوى اخلاقيا عاما تستطيع ان تحكم اليه طبقة من الناس ضد اخرى وتستمد منه حكما تلتزم بقبوله الطبقة التى تخسر القضية "

" فلنفترض على سبيل المثال اننا وسط صراع من صراعات العمال واصحاب الاعمال وقد اقترح ان تحال المشكلة الى التحكيم ، ثم تقابل ممثلو الطرفين المتنازعين فانه سرعان ما يتبين ان النزاع لا يمكن الفصل فيه على اسس اخلاقية فان للاطراف المتنازعة وربما لهيئة التحكيم ايضا مستوى اخلاقيا مختلفا فاخلاقيات العاملين تقوم على اساس فكرة حق العمل . اما اخلاقيات المحكمين فانها قد تتارجح بين تفسير رجل القانون للقانون المدنى وبين فكرة الفيلسوف المتأمل عن الحقوق المثالية الانسانية للانسان بوصفه انسانا اى انه لا توجد اخلاقيات مشتركة نرجع اليها فلا المتقاضون ولا المحكمون يستطيع ايهم ان يقنع الاخرين بضرورة التسليم بقاعدة عليا من الحق " (١٩)

أرأيت ؟ ! ان المجتمع الذى يرفض التحاكم الى شرع الله والسير على هداه لا يستطيع ان يملك قاعدة عليا من الحق لان لكل معبود من الشركاء قاعدته الخاصة وسبيله المختلف ولا سبيل ابدا الى توحيد هذه القواعد الا بالتخلص من الشركاء جميعا والاتجاه المنقاد المستسلم لله تعالى وحده لا شريك له .

وبين فوضى الارباب والالهة والطواغيت والمعبودات ذات الاسماء والشعارات المختلفة والصور المتباينة يسير المرء من الموحد بخطى ثابتة فى طريق واضح

---

(١٩) الجماعة ، ماكيفر وزميله : ٢٥٥ ـ ٢٥٦

أبلج لا زلل فيه ولا عثار وهو مملوء ثقة ويقينا بان اختياره لغير هذا الطريق او تردده فى الاستمساك به معناه الكارثة الكبرى والخسارة الفادحة .

" قل أفغير الله تأمروني اعبد ايها الجاهلون . ولقد أوحي اليك والى الذين من قبلك لئن اشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين . بل الله فاعبد وكن من الشاكرين " ـ ٣٩ : ٦٤ ـ ٦٦ .

١ ـ اللـــه جل جلالـــه : سعيد حـــوى ، ١٣٩٢
٢ ـ اللــه واحــد أم ثالوث، مجــد ى مرجان ، مصـــر
٣ ـ اللــه يتجلى فى عصر العلم ، مجموعة من العلماء ، ت الدمرداش سرحان القاهرة ٦٨ ١٩م
٤ ـ ابراهيم الثانى ، ابراهيم عبد القادر المازنى ، دار الشروق ١٣٩٥هـ
٥ ـ الاتجاهات الفكرية عند العرب ، على المحـــافظة بيروت ١٩٧٥
٦ ـ الاتجاهات الوطنية فى الادب المعاصر ، محمد محمد حسين ، طبعة خاصة بيروت ١٩٧٠م
٧ ـ أثر العلم فى المجتمع ، برتراند رسل ، ت تمام حسان ، مصـــر
٨ ـ أحاديث فى السياسة والاجتماع ، ساطع الحصرى ، بيروت ١٩٦٢م
٩ ـ أحجار على رقعة الشطرنج ، وليم غاى كار ، ت بيروت
١٠ ـ أحمد لطفى السيد ، حسين فوزى النجار ، سلسلة أعلام العرب ، مصـــر
١١ ـ احياء علوم الدين ، أبوحامد الغزالى ، مصـــر ١٣٨٧هـ
١٢ ـ الادب للشعب ، سلامة موسى ، مصر ١٩٦١م .
١٣ ـ أساليب الغزو الفكرى ، على جريشة وزميله ، ١٣٩٧هـ مصـــر
١٤ ـ أسبانيا أرضها وشعبها ، دوروتى لودر ، ت . طارق فودة القاهرة ١٩٦٥م
١٥ ـ أسس التربية فى الوطن العربى نشرة مؤتمر التربية العربى القاهرة ١٩٦٥م .
١٦ ـ الاسلام روح المدنية ، مصطفى الغلاييينى ، المكتبة الاهلية ، ١٣٤٤هـ
١٧ ـ الاسلام المفترى عليه ، محمد الغزالى ، الكويت .
١٨ ـ الاسلام على مفترق الطرق ، محمد أسد ، ت . عمر فروخ ، ط٢ بيروت .
١٩ ـ الاسلام فى الغرب ، جان بول رو ، ت ، نجده هاجر وزميله ، مصر ١٩٦٠م
٢١ ـ الاسلام قوة الغد العالمية ، باول شمتز ، د . محمد شامة القاهرة ١٣٩٤هـ
٢٢ ـ الاسلام وأصول الحكم ، على عبد الرازق ، تعليق ممدوح حقى ، بيروت ١٩٦٦م
٢٣ ـ الاسلام والخلافة ، على حسنى الخربوطلى ، بيروت ، ١٩٦٩م .
٢٤ ـ الاسلام والطاقات المعطلة ، محمد الغزالى ط٢ مصـــر .
٢٥ ـ الاسلام ومشكلات الحضارة ، سيد قطب ، مصر ١٩٦٧
٢٦ ـ اشتراكيتهم واسلامنا ، بشير العوف ، بيروت ١٩٦٦
٢٧ ـ أشعة خاصة بنور الاسلام ، ناصر الدين دينية ١٣٧٩هـ مصر
٢٨ ـ أصل الانواع ، تشارلز داروين ، ت ، اسماعيل مظهر ، بيروت ، ١٩٧٣م
٢٩ ـ اضمحلال الامبراطورية الرومانية ، ادوارد جيبون ، ت محمد على أبو درة ، بيروت ط١
٣٠ ـ أضواء البيان ، محمد الامين الشنقيطى ، مصـــر ١٣٨٦هـ .

٣١ ـ اظهار الحق ،رحمة الله الهندى ، تحقيق عمر الدسوقى ،الدار البيضاء، ١٣٨٤هـ
٣٢ ـ الاعتبار ،أسامة بن منقذ ، تحقيق فليب حتى،برنستون ،أمريكا ١٩٣٠م
٣٣ ـ اعلام الموقعين ،الامام ابن القيم ،تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد مصر ١٣٧٤هـ
٣٤ ـ اغاثة اللهفان ، " " " محمد حامد الفقى مصر، ١٣٥٧هـ
٣٥ ـ أفكار ورجال (قصة الفكر الغربى) جرين برنتن ،ت محمود محمود مصر ١٩٦٥
٣٦ ـ أقوم المسالك .. خير الدين التونسى ، تحقيق المنصف الشنوى ،تونس
٣٧ ـ الى الدين الفطرى الابدى ،مبشر الطرازى الحسينى ،القاهرة .
٣٨ ـ امرأة فى الثلاثين ،بلزاك ، ت عبد الفتاح الديدى ، مصر
٣٩ ـ امرؤ القيس (ديوان شعر) تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ،مصر ١٣٧٧هـ.
٤٠ ـ الانتربولوجيا الاجتماعية ، ادوارد ايفانز، الهيئة المصرية للكتاب .
٤١ ـ الانسان بين المادية والاسلام ، محمد قطب ، مصر ١٩٥٧
٤٢ ـ الانسان ذلك المجهول ،اليكس كارل ، ت شفيق أسعد فريد ،بيروت ،
٤٣ ـ الانسان فى المجتمع المعاصر ،بوسكية ـ فاتييه ،ت مصطفى كامل فودة القاهرة ١٩٦٩م
٤٤ ـ الانسان والاخلاق والمجتمع ،فلوجل ، ت عثمان نوية وزميله مصر ١٩٦٦
٤٥ ـ الانسان والعلاقات البشرية ،ستيوارت تشيس، ت أحمد حمودة ،مصر ١٩٥٥
٤٦ ـ أوليفرتويست (رواية) شارل ديكنز، منير البعلبكى ، بيروت ١٩٧٣م
٤٧ ـ أين محاضن الجيل المسلم ، يوسف العظم جدة ١٣٨٩هـ
٤٨ ـ البداية أم النهاية ،ماركى تشايلد وزميله ،ت عادل حامد ، بيروت
٤٩ ـ البركة فى فضل السعى والحركة ، أبو عبد الله الحبشى الوصابى ، مصر
٥٠ ـ بروتوكولات حكماء صهيون ،ت محمد خليفة التونسى ، ط٥ مصر
٥١ ـ بؤس الفلسفة ،كارل ماركس ،ت
٥٢ ـ تاريخ أوربا العصور الوسطى ،أ . هـ . فشر ، ت مصطفى زيادة ،مصر ١٩٦٦
٥٣ ـ تاريخ البشرية ،منظمة اليونسكو ،ت عثمان نوية وزملاؤه ،مصر ١٩٧١م
٥٤ ـ تاريخ الجبرتى (عجائب الاثار ..) بيروت
٥٥ ـ تاريخ الدولة العلية العثمانية ، محمد فريد ،بيروت ١٣٩٧هـ
٥٦ ـ تاريخ الشعوب الاسلامية ، كارل بروكلمان ، نبيه أمين فارس وزميله ،ط٦ بيروت ١٩٧٤م
٥٧ ـ تاريخ العالم ، جمع جون أ . هامرتن ، ت ادارة الترجمة مصر .
٥٨ ـ تاريخ علم الاجتماع ، جاستون بوتول ، ت محمد عاطف غيث وزميله ، مصر ١٩٦٤م
٥٩ ـ تاريخ الفلسفة الحديثة ،يوسف كرم ،القاهرة ١٩٥٧م
٦٠ ـ تاريخ النظرية السياسية (بحوث فى ..) عبد الكريم أحمد القاهرة ١٩٧٢م

٦١ـ تاريخ ونظام التعليم فى مصر ،منير عطاالله وزملاؤه ،القاهرة ١٩٧٢م .
٦٢ـ تحذير الخواص من أحاديث القصاص ،السيوطى ،تحقيق محمد الصباغ ،المكتب الاسلامى ١٣٩٢هـ
٦٣ـ تحرير المرأة ، قاسم أمين ، ط٣ مصر .
٦٤ـ تحكيم القوانين ،الشيخ محمد بن ابراهيم ، مكة ١٣٨٠هـ .
٦٥ ـ تخليص الابريز فى تلخيص باريز ،رفاعة الطهطاوى ، تحقيق مهدى علام وزملاؤه ، مصر
٦٦ـ تدهور الحضارة الغربية ، أسوالد شبنجلر ، ت أحمد الشيبانى ،بيروت ١٩٦٤م
٦٧ـ تطور المجتمع الامريكى ، كينث لن ، ت تميم موسى ، دار اليقظة ١٩٦٦م
٦٨ـ تطور المجتمع عبر التاريخ ، سيفال
٦٩ ـ التطور والثبات ، محمد قطب ، دار الشروق ، ١٣٩٧
٦٠ ـ التعصب والتسامح ، محمد الغزالى ،القاهرة .
٧١ ـ تفسير القرآن العظيم ،الحافظ ابن كثير ، مصر (الحلبى)
٧٢ ـ تفسير النار ، محمد عبده ،جمع رشيد رضا ،ط٢ بيروت .
٧٣ ـ تكوين العقل الحديث ، ج . هـ . راندال ، ت جورج طعمة ، دار الثقافة .
٧٤ـ التلمود تاريخه وتعاليمه ، ظفر الاسلام خان ، بيروت . ط٢
٧٥ توجيه المراهق ، د جلاس توم ، ت جابر عبد الحميد وزملاؤه ، مصر ١٩٦٢م
٧٦ـ تهافت العلمانية ، عماد الدين خليل ، بيروت ، ١٣٩٥هـ
٧٧ـ ثلاثة قرون من الادب ،أشرف على التأليف : فورسترونوك ، اشراف ت جبرا ابراهيم بيروت
٧٨ـ الثورة الفرويدية ،بيير فوجيرولا ، ت حافظ الجمالى ،دمشق ، ١٩٧٢م
٧٩ـ جامع البيان (تفسير الطبرى) ابن جرير الطبرى ، مصر (الحلبى) ١٣٨٨هـ
٨٠ـ جامع الترمزى (السنن) الترمذى ، تحقيق أحمد شاكر مصر ١٩٥٦م
٨١ ـ جاهلية القرن العشرين ، محمد قطب ، دار الشروق ، ١٣٨٧هـ .
٨٢ـ جذور البلاء ،عبد الله التسل ، بيروت ، ١٣٩٠هـ
٨٣ـ الجفوة المفتعلة بين العلم والدين ، محمد على يوسف بيروت ١٩٦٦م .
٨٤ ـ جمهورية افلاطون ، ت حنا خباز ،بيروت
٨٥ـ الجماعة ،ر .م . ماكيفر ، ت محمد على أبو دره ، القاهرة ١٩٦٨م .
٨٦ ـ حاضر العالم الاسلامى ،لوثروب ستودارد ،حواش شكيب ارسلان ، حجاج نويهض ١٩٧٤م
٨٧ـ حديث عيسى بن هشام ، محمد المويلحى ، كتاب الهلال ٩٧ لعام ١٣٧٨هـ .
٨٨ـ حرب الفلاحين فى المانيا ، فردريك انجلز ، ت محمد أبو خضور ،دمشق .
٨٩ـ حرية الفكر ، سلامة موسى ، بيروت ، ١٩٦١م
٩٠ـ حصاد الغرور ، محمد الغزالى ، ط١ الكويت .

٩١ ـ حصوننا مهددة من داخلها ، محمد محمد حسين ، الكويت ١٣٨٧هـ
٩٢ ـ حفنى ناصف ، محمود غنيم ، سلسلة أعلام العرب ، مصر
٩٣ ـ حكومة العالم الخفية ، سبيريدوفيتش ، ت: مأمون سعيد بيروت ١٩٧٤م
٩٤ ـ حياة الحقائق ، غوستاف لوبون ، ت: عادل زعيتر مصر ١٣٦٨هـ .
٩٥ ـ حياة المسيح ، العقاد ، مصر ، ١٣٧٧هـ
٩٦ ـ خصائص التصور الاسلامى ومقوماته ، سيد قطب ، القاهرة ١٩٦٥
٩٧ ـ الخصائص الكبرى ، السيوطى ، تحقيق محمد خليل هراس ، مصر
٩٨ ـ خمس حالات من التحليل النفسى سيجموند فرويد ، ت: صلاح مخيمر ، مصر ١٩٧٢
٩٩ ـ دائرة المعارف الاسلامية ، المستشرقون ، ت: محمد ثابت الفندى وزملاؤه ، مصر ١٣٥٢هـ
١٠٠ ـ دائرة معارف القرن العشرين ، محمد فريد وجدى ، القاهرة ، ١٣٣٦هـ
١٠١ ـ الدبلوماسية والمكيافيلية ، محمد الصادق ، بيروت ١٣٩١هـ .
١٠٢ ـ دراسات أدبية ، يوسف الشارونى ، مكتبة النهضة ، ١٩٦٤م
١٠٣ ـ دراسات قرآنية ، محمد قطب ، دار الشروق .
١٠٤ ـ دراسات فى حضارة الاسلام ، هـ . جب ، ت: احسان عباس وزملاؤه ، بيروت ١٩٧٤م
١٠٥ ـ الدر المنثور فى التفسير بالمأثور ، السيوطى بيروت .
١٠٦ ـ الدعوة الى الاسلام ، توماس آرنولد ، ت: حسن ابراهيم وزملاؤه ، مصر ١٩٧١م
١٠٧ ـ دفاع عن الشريعة ، علال الفاسى ، بيروت ١٩٧٢م
١٠٨ ـ الديمقراطية أبدا ، خالد محمد خالد ، مصر ١٩٥٣م .
١٠٩ ـ الديناميكا الحرارية ، ابراهيم ابراهيم شريف ، مصر ١٩٧٠م .
١١٠ ـ الذات والغرائز ، سيجموند فرويد ، ت: محمد عثمان نجاتى ، القاهرة ١٩٦١م
١١١ ـ رائد الثقافة العامة ، كورنيلوس هيرشبرغ ، ت: محمد يوسف نجم وزملاؤه ، بيروت ١٩٦٣م
١١٢ ـ رجال ونساء أسلموا ، عرفات كامل العشى ، الكويت ١٣٨٨هـ
١١٣ ـ الرجل الصنم ، ضابط تركى سابق ، ت: عبد الله عبد الرحمن ، بيروت
١١٤ ـ رسالة فى اللاهوت والسياسية ، سبينوزا ، ت: حسن حنفى ، مصر ١٩٧١م
١١٥ ـ ركائز الايمان ، محمد الغزالى ، القاهرة ، ١٩٧٤م
١١٦ ـ الرمزية والادب العربى الحديث ، أنطون غطاس كرم ، بيروت ١٩٤٩م .
١١٧ ـ روائع اقبال ، أبو الحسن الندوى ، دمشق ١٣٧٩هـ .
١١٨ ـ روح الجماعات ، غوستاف لوبون ، عادل زعيتر ، القاهرة ١٩٥٥
١١٩ ـ زعماء الاصلاح ، أحمد أمين ، القاهرة ، ١٩٦٥م .
١٢٠ ـ زعماء وفنانون وأدباء ، كامل الشناوى ، مصر .

١٢١ـ الزنديق الاعظم ، جوزيف جاى ديس ، ت : أحمد نجيب هاشم ، مصر
١٢٢ـ الزهاوى (ديوان شعر جميل صدقى) بيروت ١٩٧٢م
١٢٣ـ زهير بن أبى سلمى (ديوان شعر) كرم البستانى ، بيروت ١٣٨٤هـ .
١٢٤ـ الساق على الساق ، أحمد فارس الشدياق . تعليق نسيب وهيبه بيروت
١٢٥ـ السبيل الى عالم أفضل ، كارل بيكر ، ت : عبد العزيز اسماعيل ، القاهرة ١٩٤٨م
١٢٦ـ سطور مع العظماء ، محمد كامل المحامى ، بيروت ١٣٨٩هـ .
١٢٧ـ سعد زغلول ، محمد ابراهيم الجزيرى ، مصر
١٢٨ـ السقطه ، البيركامو ، ت : أنيس زكى حسن بيروت ١٩٧٣م .
١٢٩ـ سقوط الحضارة ، كولن ولسن ، ت : أنيس زكى حسن ، بيروت ١٩٧١م .
١٣٠ـ سقوط القاهرة ، عبد المنعم شميس ، القاهرة ١٩٥١م .
١٣١ـ السلام العالمى والاسلام ، سيد قطب دار الشروق ١٣٩٤هـ .
١٣٢ـ سلسلة تراث الانسانية ، مجموعة من الاساتذة ، الهيئة العامة للكتاب ، مصر
١٣٣ـ شرح الطحاوية ، القاضى ابن أبى العز الحنفى ، تحقيق محمود شاكر ، مصر
١٣٤ـ شروط النهضة ، مالك بن نبى ، بيروت .
١٣٥ـ الشعر بين نقاد ثلاثة ت : منح خورى ، بيروت .
١٣٦ـ شمس الغرب تسطع على الغرب ، زيغريد هونكة ، ت : فاروق بيضون وزميله بيروت ١٩٦٩م
١٣٧ـ الشيخ والبحر ، أرنست همنغواى ، ت : منير البعلبكى ، بيروت ١٩٦١م
١٣٨ـ الشيطان والرحمن ، جان بول سارتر ، ت : سامى الجندى ، بيروت .
١٣٩ـ الشيوعية والانسانية ، عباس محمود العقاد ، بيروت ط ٢
١٤٠ـ صحيح الامام مسلم مع شرح النووى ، مصر
١٤١ـ الصراع الفكرى فى البلاد المستعمرة ، مالك بن نبى ، بيروت ١٩٦٩م
١٤٢ـ الصراع بين الفكرة الاسلامية والفكرة الغربية ، النووى ، القاهرة
١٤٣ـ الصنم الذى هوى ، ستة من كتاب الغرب ، ت : فؤاد حمودة ، المكتب الاسلامى ١٩٦٠م .
١٤٤ـ ضرب الكليم ، محمد اقبال ، ت : عبد الوهاب عزام ، مصر ١٩٥٢م .
١٤٥ـ الطاقة الروحية ، هنرى برجسون ت : سامى الدروبى ، بيروت ١٩٦٣م .
١٤٦ـ طبائع الاستبداد ، عبد الرحمن الكواكبى مصر ١٣٥٠هـ .
١٤٧ـ الطبقة الجديدة ، ميلوفان دجيلاس ، تقديم قدرى قلعجى ، بيروت
١٤٨ـ طرطوف موليير ، ت : يوسف محمد رضا ، بيروت ، ١٩١٧
١٤٩ـ الطريق الى الاسلام ، محمد أسد ، ت : عفيف البعلبكى ، بيروت ١٩٦٤م .
١٥٠ـ الطريق الطويل للانسان ، روبرت . ل . ليرمان ، ت : ثابت جرجس بيروت ١٩٦٣م

١٥١ـ الطفولة الجانحة، جان شازال. ت أنطوان عبده، بيروت ١٩٧٢م
١٥٢ـ عائد من الجحيم، أنطوان دومازه، بدون، ١٩٧٢م.
١٥٣ـ عالم العصور الوسطى، ج. ج. كولتون، ت جوزيف نسيم، مصر
١٥٤ـ العبودية، شيخ الاسلام ابن تيمية، تحقيق عبد الرحمن الباني، المكتب الاسلامي ١٣٨٩هـ
١٥٥ـ العقل والدين، وليم جميس، ت محمود حب الله، مصر ١٣٦٨هـ.
١٥٦ـ العقل والمادة، برتراند رسل، ت: أحمد ابرايهم الشريف القاهرة ١٩٧٥م.
١٥٧ـ العقلية البدائية، ليفى بريل، ت: محمد القصاص، مصر
١٥٨ـ عقيدة ختم النبوة... (رسالة ماجستير) أحمد سعد حمدان جامعة الملك عبد العزيز
١٥٩ـ العلم أسراره وخفاياه، هارلد شابلى وزميلاه، ت: الفندى وزميله، مصر ١٩٧١م.
١٦٠ـ علم الاجتماع ومدارسه، مصطفى الخشاب، القاهرة ١٣٨٧هـ
١٦١ـ علم النفس فى مئة عام، ج.ك. فلوجل، ت: لطفى فطيم بيروت ١٩٧٣م
١٦٢ـ العلم والدين فى الفلسفة المعاصرة، اميل بوترو، ت: أحمد فؤاد الاهوانى، مصر ١٩٧٣م
١٦٣ـ العلم يدعو للايمان، كريس موريسون، ت: محمود صالح الفلكى مصر ١٩٦٣م.
١٦٤ـ عنترة بن شداد (ديوان شعر) تحقيق كرم البستانى، بيروت ١٣٨٤هـ.
١٦٥ـ عندما يحكم الطغاة، على جريشة، مصر ١٩٧٥م.
١٦٦ـ العهد الجديد (الاناجيل والرسائل) مصر ١٩٧٦م.
١٦٧ـ العهد القديم (التوراة) بيروت ١٩٥١م.
١٦٨ـ الغارة على العالم الاسلامى، را. ل. شاتليه، ت: محب الدين الخطيب ط٢ مصر.
١٦٩ـ الغرب والشرق الأوسط، برنارد لويس، ت: نبيل صبحى، ١٩٦٥م.
١٧٠ـ الغزو الفكرى، جلال كشك، ط٣ الكويت
١٧١ـ الغصن الذهبى، جيمس فريزر، ت: أحمد أبو زيد ١٩٧١م
١٧٢ـ الفتاوى الكبرى شيخ الاسلام ابن تيمية، مصر ١٣٢٩هـ.
١٧٣ـ فتح البارى شرح صحيح البخارى، الحافظ ابن حجر، مصر (المطبعة السلفية) ١٣٨٠هـ
١٧٤ـ الفتح الربانى، السيوطى، تحقيق النبهانى، مصر
١٧٥ـ فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، عبد الرحمن حسن، تحقيق الفقى القاهرة ١٣٧٧هـ.
١٧٦ـ فرويد وبافلوف، هارى ويلز، ت: شوقى جلال، مصر.
١٧٧ـ الفضاء الخارجى والانسان، مجموعة العلماء السوفيت، ت: زكريا فهمى، مصر ١٩٧٢م
١٧٨ـ فضل الحضارة الاسلامية والعربية على العالم، زكريا هاشم زكريا، مصر.
١٧٩ـ فقه اللغة، على عبد الواحد وافى، القاهرة ١٣٨٨هـ.
١٨٠ـ الفكر الاسلامى دراسة وتقويم، غازى التوبة، بيروت ١٩٧٧م.

١٨١ ـ الفكر السياسي قبل الامير وبعده ، فاروق سعد ، مطبوع مع كتاب الأمير ، بيروت ١٩٧٥م

١٨٢ ـ الفلسفة أنواعها ومشكلاتها ، هنترميد ، ت فؤاد زكريا ، مصر ١٩٧٥م .

١٨٣ ـ فن البحث العلمي د ٠ ا ٠ ب بفروج ٠ ت زكريا فهمي ، الالف كتاب ١٩٦٣م .

١٨٤ ـ في التربية ، برتراند رسل ، ت سمير عبده ، بيروت ١٩٦٤م .

١٨٥ ـ في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ط٦ بيروت .

١٨٦ ـ قادة الغرب يقولون دمروا الاسلام ٠٠٠ ، جلال العالم ، ط٢ ، بيروت

١٨٧ ـ قاسم أمين ، ماهر حسن فهمي ، سلسلة أعلام العرب ، مصر .

١٨٨ ـ قبسات الرسول ، محمد قطب ، مصر

١٨٩ ـ قذائف الحق ، محمد الغزالي ، بيروت ، ١٩٧٧م .

١٩٠ ـ قصة الانسان ، جورج حنا ، بيروت ١٩٥٩م .

١٩١ ـ قصة الايمان ، نديم الجسر ، بيروت ١٩٦٩م .

١٩٢ ـ قصة الحضارة ، ول ديورانت ، ت محمد بدران ، القاهرة ١٩٥٧م .

١٩٣ ـ قصة النزاع بين الدين والفلسفة ، توفيق الطويل ، ط٢ مصر .

١٩٤ ـ قواعد المنهج ، علم الاجتماع ، اميل دوركايم ، ت محمود قاسم ، القاهرة ٠ ١٩٧٤م .

١٩٥ ـ القومية العربية في ضوء الاسلام (رسالة ماجستير) صالح العبود ، جامعة الملك عبد العزيز

١٩٦ ـ القومية والغزو الفكري ، جلال كشك ، بيروت .

١٩٧ ـ كتب غيرت وجه العالم ، روبرت داونز ، ت أحمد صادق وزميله ، ادارة الثقافة

١٩٨ ـ الكنز المرصود في قواعد التلمود ، د ٠ روهلنج وزميله ت يوسف حنا نصر الله بيروت ٣٨٨

١٩٩ ـ الكنز (معجم عربي فرنسي) جروان السابق ، بيروت

٢٠٠ ـ لباب النقول في أسباب النزول (مع الجلالين) السيوطي ، مصر .

٢٠١ ـ اللامنتمي ، كولد ولسن ت أنيس زكي حسن ، بيروت ١٩٥٨م .

٢٠٢ ـ لمن ترهقهم الحياة ، هارولد فنيك ، ت محمد الخلوجي ، القاهرة ١٩٦٩م .

٢٠٣ ـ ليس بالعلم وحده ، فانفربوش ، ت لجنة من الاساتذة بيروت ١٩٦٩م .

٢٠٤ ـ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، أبو الحسن الندوي ، بيروت ١٣٨٧هـ

٢٠٥ ـ ماركسية القرن العشرين روجيه غارودي ت نزيه الحكيم ، بيروت ١٩٧٢م .

٢٠٦ ـ مبادئ الاسلام ، أبو الاعلى المورودي ، بيروت .

٢٠٧ ـ مبادئ فلسفة المستقبل ، لودفيغ فويرباخ ت الياس مرقص ، بيروت .

٢٠٨ ـ المجتمع ، ر ٠ م ٠ ماكيفر وزميله ، ت علي أحمد عيسى ، مصر ١٩٦١م .

٢٠٩ ـ المجتمع الاسلامي والمذاهب الهدامة ، مذكرة السنة الرابعة كلية الشريعة المدينة ١٣٩٤هـ

٢١٠ ـ المجتمع الامريكي عاديا ، فينس باكارد ، ت عبد الحميد سليم ، مصر ١٩٧٢م .

٢١١ ـ المجتمع البشري ، برتراند راسل ، ت عبد الكريم أحمد وزميله ، مصر ١٩٦٠م

٢١٢ـ المجموع، الامام النووى، ط ٢ مصر.
٢١٣ـ مجموعة التوحيد، ابن عبد الوهاب وابن تيمية وغيرهما من العلماء.
٢١٤ـ محاضرات تمهيدية فى التحليل النفسى، سيجموند فرويد، ت أحمد عزت راجح، القاهرة
٢١٥ـ محاضرات الموسم الثقافى بالكويت، حكمت هاشم، الكويت، ١٣٧٦هـ.
٢١٦ـ محاضرات فى النصرانية، محمد أبو زهرة ط٤ مصر
٢١٧ـ محمد رسولا نبيا، عبد الرزاق نوفل، بيروت، ١٣٩٤هـ.
٢١٨ـ محمد عبده، العقاد، سلسلة أعلام العرب، مصر.
٢١٩ـ محمد فى مكة، مونتغمرى واط، ت شعبان بركات، بيروت.
٢٢٠ـ مختارات من مقالات مرسن آرسن، ت محمود محمود، مصر. ١٩٥٥.
٢٢١ـ مختصر دراسة التاريخ، أرنولد توينبى، ت فؤاد نبيل، القاهرة ١٩٦١م.
٢٢٢ـ المخططات الاستعمارية لمكافحة الاسلام، محمد محمود الصواف ١٣٨٩هـ.
٢٢٣ـ مدارج السالكين، الامام ابن القيم، تحقيق محمد حامد فقى، بيروت ١٣٩٢هـ.
٢٢٤ـ مدام بوفارى، جوستاف فلوبير، ت محمد مندور، ١٣٩٧هـ.
٢٢٥ـ مدخل الى علم السياسة، هارولد لاسكى، ت عز الدين محمد حسين القاهرة ١٩٦٥م.
٢٢٦ـ المذاهب الاقتصادية الكبرى، جورج سول، ت راشد البراوى، مصر ١٩٦٥م.
٢٢٧ـ مذهب النشوء والارتقاء، منيرة على الغاياتى، تقديم محمد البهى، مصر ١٣٩٥هـ.
٢٢٨ـ المرأة بين الفقه والقانون، مصطفى السباعى، ط٤ المكتب الاسلامى.
٢٢٩ـ المرأة فى عصر الديمقراطية، اسماعيل مظهر، مصر ١٩٤٩م.
٢٣٠ـ المرأة وآراء الفلاسفة. حسين فوزى، مصر ١٣٤٤هـ.
٢٣١ـ المرشد الامين، رفاعة الطهطاوى مصر ١٢٨٩هـ.
٢٣٢ـ مستقبل الثقافة فى مصر (نقد) سيد قطب جدة ١٣٨٩هـ.
٢٣٣ـ المسند، الامام أحمد بن حنبل، بيروت
٢٣٤ـ المسيحية، أحمد شلبى القاهرة ١٩٦٥م.
٢٣٥ـ المسيحية والقومية العربية، عمادى العبد العبادى، مصر ١٩٥٨م.
٢٣٦ـ المشاكل الانسانية للمدنية الصناعية، التون مايو، ت مبارك ادريس، القاهرة
٢٣٧ـ المشكلة الاخلاقية والفلاسفة، كرسون، ت عبد الحليم حمود، ط٢، القاهرة.
٢٣٨ـ مصر ورسالتها، حسين مؤنس، مصر
٢٣٩ـ مصطفى كامل حياته وكفاحه، أحمد رشاد، سلسلة أعلام العرب، مصر ١٩٥١م.
٢٤٠ـ مصير الانسان، ليكونت دى نوى، ت خليل الجر، المنشورات العربية.
٢٤١ـ معالم تاريخ الانسانية، هـ. ج. ويلز. ت عبد العزيز توفيق جاويد، القاهرة ١٩٦٧م.

٢٤٢ـ معالم التحليل النفسى ،سيجموند فرويد ، ت٠٠ عثمان نجاتى ،القاهرة ١٩٦٦م٠
٢٤٣ـ معالم فى الطريق ،سيد قطب ،مصر
٢٤٤ـ معجم الادب المعاصر، بيار دى براد يفر، ت: بهيج شعبان ١٩٦٨م
٢٤٥ـ معركة الاسلام ، محمد محمود الصواف ط١ بيروت٠
٢٤٦ـ معركة التقاليد ، محمد قطب ،مصر ١٩٦٨م٠
٢٤٧ـ حركة المصحف محمد الغزالى ، ط١ مصر٠
٢٤٨ـ المفسدون فى الارض، س٠ ناجى دمشق ١٩٧٣م٠
٢٤٩ـ مقدمة فى علم الاجتماع ، أرمان كوفيليه ، ت: محمد بدوى وزميله ، مصر
٢٥٠ـ الملل والنحل (مع الذيل) الشهرستانى٠ تحقيق سيد كيلانى ، مصر ١٣٨٧هـ٠
٢٥١ـ منازع الفكر الحديث، جود ، ت٠٠ عباس فضلى ، العراق ١٣٧٥هـ٠
٢٥٢ـ منشأ الفكر الحديث (ترجمة موجزة لقصة الفكر الغربى) عبد الرحمن مراد ، دمشق
٢٥٣ـ منهاج الاسلام فى الحكم ، محمد أسد ، ت: منصور محمد ماضى ، بيروت ١٩٦٧م٠
٢٥٤ـ من هنا نعلم ، محمد الغزالى ، مصر ١٣٧٣هـ٠
٢٥٥ـ مواقف حاسمة فى تاريخ العلم ،جيمس،ب، كونانت، ت: أحمد زكى ، مصر ١٩٦٣م
٢٥٦ـ الموجز فى التحليل النفسى ، سيجموند فرويد ، ت: سامى محمود وزميله ، مصر ١٩٧٠م٠
٢٥٧ـ الموسوعة الذهبية ، مجموعة من العلماء والادباء ، سجل العرب ١٩٦٤م٠
٢٥٨ـ موسوعة الهلال الاشتراكية ، دار الهلال ، مصر٠
٢٥٩ـ النابغة (ديوان) تحقيق كرم البستانى ، بيروت ١٣٨٢هـ٠
٢٦٠ـ نابليون المسلم ، أحمد جل الوحيد ، ط ١ بيروت
٢٦١ـ نحو التربية الاسلامية الحرة أبو الحسن الندوى ، مصر ١٣٩١هـ٠
٢٦٢ـ نصوص مختارة من انجلز ، جمع جان كانابا ، ت: وصفى البنى ،دمشق ١٩٧٢م٠
٢٦٣ـ نظاما البشرية الديمقراطى والشيوعية ، وليم اينشتين ، ت: وديع سعيد ،القاهرة ٦٥م
٢٦٤ـ نظام الحكم والسياسة فى الولايات المتحدة هارولد زينك ،القاهرة٠
٢٦٥ـ نظرية داروين بين مؤيديها ومعارضيها ، قيس القرطاس ، بيروت ١٣٩١هـ٠
٢٦٦ـ نظم الحكم الحديثة ،ميشيل ستيوارت، ت: أحمد كامل ،القاهرة ١٩٦٢م٠
٢٦٧ـ النقد الادبى ، ستانلى هايمان ت: احسان عباس وزميله ،بيروت ١٩٥٨م٠
٢٦٨ـ هل نحن مسلمون ، محمد قطب ، ط٢ ، القاهرة
٢٦٩ـ الواسطة بين الحق والخلق ، شيخ الاسلام بن تيمية ،المكتب الاسلامى
٢٧٠ـ واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم ، أبو الاعلى المورودى ،بيروت ١٣٨٦هـ٠

٢٧١ـ وجهة الاسلام مجب وزملاؤه ، ت محمد أبو ريده ، مصر
٢٧٢ـ الوجودية مذهب انساني ، جان بول سارتر ، ت يوسف كمال الحاج ، بيروت
٢٧٣ـ وحي القلم ، مصطفى صادق الرافعي ، تحقيق العريان ، القاهرة .
٢٧٤ـ وداعا أيها السلاح ، آرنست همنغواي . ت ن . يوسف ، بيروت ١٩٦٩م .
٢٧٥ ـ ولي الدين يكن (ديوان) سلسلة من مناهل الادب العربي ، بيروت .

المـــــراجع الاجنبيـــــة

1) Encyclopaedia Britannica. (1972)
2) Webster's new world dictio. of The American language.
3) Oxford Aduanced learner's Dictio. of current English. 1974.
4) Webster's Third New international Dictio. (1976).
5) Religion in The middle Est. A.J. ARBERY, London, (1969).

ملحوظ : لم أدخل في هذا الفهرس الكتب التي اكتفيت بالاشارة اليها في صلب الموضوع ، كما لم أدخل فيه الصحف والمجلات .

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع	الصفحة